الدراسات اللغوية عند العرب

إلى نهاية القرن الثالث

محمد حسين آل ياسين
مدرس في قسم اللغة العربية في كلية الآداب
بجامعة بغداد

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان -




الدراسات اللغوية عند العرب
إلى نهاية القرن الثالث

الدراسات اللغوية عند العرب

إلى نهاية القرن الثالث

محمد حسين آل ياسين

مدرس في قسم اللغة العربية في كلية الآداب
بجامعة بغداد

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

* الطبعة الاولى ـ بيروت : ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م .

الاهداء

الى استاذي الاكبر

أبي

الشيخ محمد حسن آل ياسين

اعترافاً بأبوّته النادرة

محمد حسين آل ياسين



هذا الكتاب رسالة جامعية قدّمت لنيل شهادة (دكتوراه آداب في اللغة العربية) وقد ناقشتها مناقشة علنية ظهر يوم الأربعاء ١٧/ ٥/ ١٩٧٨ لجنة مؤلفة من :

١ ـ الدكتور ابراهيم السامرائي رئيساً
٢ ـ الدكتور مهدي المخزومي عضواً
٣ ـ الدكتور أحمد ناجي القيسي عضواً
٤ ـ الاستاذ ابراهيم الوائلي عضواً
٥ ـ الدكتور فاضل السامرائي (المشرف) عضواً

ومنحتها اللجنةُ الدرجةَ العلمية بتقدير (امتياز)

تقديم

الأستاذ العلامة الدكتور مهدي المخزومي

عرفت الدكتور محمد حسين آل ياسين ، أول ما عرفته ، طالبا في السنة الرابعة من قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة بغداد ، ولفت نظري إليه نشاطه الأدبي والاجتماعي ، فلم يكد يخلو احتفال تقيمه كلية الاداب ، أو يقيمه قسم اللغة العربية فيها من اسمه اللامع بين أسماء المتبارين أو المحتفلين . وانتهى العام ونجح في القسم نجاحا أخذ بيده إلى الدراسات العليا ، لتنتظمه مرحلة الماجستير مع الصفوة الصاعدة من زملائه وأقرانه المتفوقين .

وقد لفت نظري في هذه المرحلة اهتمامه باللغة العربية ودراساتها ، وفقه اللغة خاصة ، فقد اختار لرسالته في الماجستير موضوعا لغويا نظريا هو « الأضداد في اللغة » فأشفقت عليه ، ولكنه اجتاز مرحلته هذه بتفوّق ايضاً . فقد كان وفّى موضوع رسالته حقه من التتبع ، والدرس ، والنقد ، واستخدم مصادر دراسته ومراجعها استخداما جيداً ، وصبر عليها صبراً جميلاً .

وهداه انسجامه مع موضوع رسالته في الماجستير إلى تلمّس أصالة العربيّة ، وأصالة العرب في دراساتهم وحسن تناولهم موضوعات العربية بالدرس ، وقوة التحمل في البحث والتتبع ، وصدق النتائج التي توصلوا إليها ، ودقة النظر التي اتسموا بها .

ولم يرد لنفسه أن يسلك الدرب السهل ، أو يخوض مع الخائضين في دراسة

اللغويين المتأخرين أو دراسة أعمالهم ، فقد تعلّم من موضوع رسالته في « الماجستير » أنّ الدرس اللغويّ الحيّ هو ما قدّمه الرواد أمثال الخليل والفراء وتلاميذهما ، وأن الدرس اللغويّ في القرون المتأخرة أخذ يفقد أصالته ، كما فقد الدرس النحويّ أصالته ، إذ تعاقب عليه دارسون مناطقة ، وغزته الاعتبارات العقلية والفلسفية .

لقد ذهب الدرس الحيّ بذهاب الدارسين الرواد ، وتوقف الدرس اللغويّ الحيّ عند ما قدّمه أبو العباس ثعلب وأبو العباس المبرد ، ومعاصروهما وتلاميذهما ، أمثال ابن السكّيت ، وأبي بكر بن الأنباريّ ، وأبي بكر بن دريد وأبي عمر الزاهد ، وأبي منصور الأزهريّ ، وأبي الحسين بن فارس .

وقد استطاع الدكتور محمد حسين آل ياسين ، بذكائه وجدّه ومثابرته أن يلّم بأصول الدراسات اللغوية واتجاهاتها المختلفة ، وأن ينجز مثل هذا العمل الذي تقدم به للدارسين ، وذوي الاهتمام بهذه اللغة الاصيلة الغنية بمنجزاتها ومعطياتها .

وقد كان يدرك عبقرية العربية ، وما لها من شأن في حياة العرب ، لأنها ديوانهم ، وسجلّ حضارتهم ، وكتاب تاريخهم في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، بل هي ديوان الإنسان في كل مكان ومن كلّ أمة ، لأنها كانت قد استوعبت كلّ الحضارات القديمة ، وتمثلتها ، وزادت عليها ، وألمت بكل تراث الماضين من علماء الأمم وفلاسفتها ، فما أجدر الدارسين أن يتناولوها بالدرس الفاحص الجادّ ، ويتعمقوا دراستها ، ويقفوا على جوانب أصالتها ، وعوامل قوتها وحيويتها ، أدرك الدكتور محمد حسين آل ياسين كل هذا ، ورأى أن يلمّ بهذه الدراسات اللغوية الأصيلة منذ نشأتها ، وأن يتوقف عند نهاية القرن الثالث ، لأنه رأى ، وما رآه صواب ، أنّ « أكثر الدراسات اللغوية المتأخرة عن القرن الثالث لم تضف شيئاً ذا بال » ، ولم تقدّم جديداً أصيلاً .

وقد عقلها وتوكّل ، وأقدم على عمل كبير ، يحدوه ذهن ذكيّ ناقد ، وعزم قويّ جاهد ، أراد أن يلم بكل ما نُتج ، وبكل الاتجاهات في الدرس ، وكنت أشفق عليه أن يضيع أو يؤوب بالمكرور المعاد، ولكنه استطاع أن ينجز عملاً علمياً جيداً في

شكله وموضوعه ، وان ينهج في دراسته منهجا قويماً ، في لغة سليمة ، وعبارة منتقاة وأسلوب عربيّ مبين ، وأن يصاحب الدرس اللغويّ من بدايته الساذجة إلى أن صار درساً ناضجاً رصيناً ، أزعم أنه كان المنبع الثّرّ الذي صدرت عنه الدراسات اللغوية الحديثه ، وأزعم أن الدكتور محمد حسين كان قد نجح في ان يرسم له صورة مجلوّة واضحة ، وأن يسدّ بما رسم نقصاً كبيراً ، ويضيف بما قدّم جديداً أصيلاً .

لقد آب الدكتور محمد حسين من رحلته في رحاب البحث بهذا الكتاب القيم ، ورجع من طيّته بهذا البحث العلمي الجادّ الرصين ، وتوصل الى نتائج جديدة يجدها الدارسون في ثنايا الفصول ، ولم ينحز إلى فئة من الدارسين دون فئة ، وكان رائده « موضوعية » استطاع معها أن يضع يده على تلك النتائج الجديدة .

وإني لعلى ثقة أن الدارسين سيستقبلون هذا الكتاب استقبالا حسنا ، وينقدونه نقداً علميّـا خالصاً ، وسيجدون فيه صورة واضحة لمسيرة الدراسات اللغوية عند العرب .

ولعل هذا البحث هو أول بحث جادّ حاول أن يرصد مسيرة الدراسات اللغوية في اتجاهاتها المختلفة ، وفي مذاهب الدارسين المتباينة ، وان ينظر إلى الدراسـات اللغوية بـ (عين الطائر) حتى لا تفوته وجهة ، ولا تفلت منه ناحية . ولاأشك أنّ الدارسين سيجدون فيه ما ينشدون ، وسيفيدون منه ومما انطوى عليه من نتائج ، وأن المكتبة العربية ستجد منـه ساداً لفـراغ ، لأنـه فيما أرى ، من أهـم البحـوث الجامعية الجامعة .

١٤/ ٥/ ١٩٧٩ مهدي المخزومي

« من تقرير الخبير الخارجي المكلف بتقويم الرسالة »

الأستاذ الدكتور محمود فهمي حجازي

وبعد الاطلاع على هذه الرسالة ومتابعة أبوابها وفصولها ومراجعة القضايا التي تناولتها ، ثبت لي أن الموضوع قد أُحسن تناوله على الرغم من كبره وصعوبته . وقد استطاع الطالب محمد حسين آل ياسين أن يُلمّ بأطرافه ، وأن يستوعب جوانبه المختلفة ، وأن يفيد من المصادر المخطوطة والمطبوعة إفادة مستوعبة واعية . لقد ثبت بهذه الرسالة أن الطالب محمد حسين آل ياسين على معرفة ممتازة بالتراث اللغوي العربي ، متمكّن من بحث قضاياه مدرك لطبيعة مشكلاته ، عارف باتجاهات الباحثين ، وقادر أيضا على تجاوزها إلى الرأي الجديد الأصيل بالدليل العلمي .

ولهذا كله فإن الرسالة التي تقدم بها الطالب محمد حسين آل ياسين ترقى الى مستوى درجة الدكتوراه ، وهي من الرسائل الممتازة في مجال الدراسات اللغوية العربيّة .

أ . د . محمود فهمي حجازي
كلية الآداب بجامعة القاهرة



المقدّمة

- أسباب اختيار الموضوع
- خطة البحث
- منهج كتابته
- مصادره ومراجعه وما اعترضته من صعوبات
- شكر وامتنان



بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لله على ما أنعم ، وصلىّ الله على نبينا محمد وآله وسلّم ، وبعد فحين نزل القرآن الكريم دستور الامة ، تشاغل العرب به ، اذ شمر الأوائل منهم عن سواعدهم يتعهدونه بتفسير الفاظه وبيان أحكامه ، وأعقبهم آخرون غيارى ، تناولوا نصه بالضبط اعراباً واعجاماً ، بعد ان الفوا في السن المسلمين الجدد زيغاً عن صواب قراءته ،وانحرافاً عن عربيته ، وورث جيل بعدهم ما خلف اسلافهم ، فزاد على آثارهم شيئاً جديداً ، وأضاف الى خطواتهم خطوات ، فتناول لغة القرآن بالدرس ، وقراءاته بالبحث ، ووضع الاسس الاولى للدراسات اللغوية ، وظهرت في اعماله بوادر منهج آخذ بالنمو ، ثم صارت هذه الاعمال الاولى على ايدي تلاميذ هذا الجيل دراسات يتصف اكثر جوانبها بالنضج ، واذا بها تمثل ميداناً علمياً واسعاً ، ترتع فيه الدراسات اللغوية عموماً الفقهية والنحوية والصرفية ، وشمل التطور هذه الدراسات مادة ومنهجاً ، فاختلفت اتجاهاتها تبعاً لاختلاف المؤثرات البيئية والفكرية ، فاستقر فيها منهجان لكل منهما خصائصه واسسه العلمية ، عرفا بمدرستي البصرة والكوفة اللتين كان لأعمال رجالهما الاثر الاكبر في صون اللغة وحفظها من الدروس . واذا كانت خدمة القرآن تمثل الحافز المباشر لقيام الدراسات اللغوية ، فان اثر هذا الحافز تضاءل حين اخذت دوافع الدارسين تتمحض لحفظ العربية وصونها من الضياع .

ولئن كانت (الدراسات اللغوية عند العرب ، الى نهاية القرن الثالث) موضوعاً لرسالة الدكتوراه ، اني كنت اتوق الى خوضه منذ ان وضعت القلم منتهياً

من رسالة الماجستير عن (الاضداد في اللغة) ، ذلك ان دراستي تلك وقفتني على مدى اصالة العرب في دراساتهم اللغوية ، ونضج تناولهم لموضوعاتها ، وتباين معالجاتهم لها ، حتى وجدتني مدفوعاً الى اختيار ما اخترته من موضوع لرسالتي اللاحقة ، لازيد من نصاعة تلك الحقائق بما يهيئه التوسع في دراسة آثار العرب اللغوية . ومما عمق في نفسي هذا الاختيار اني وجدت اكثر الدراسات اللغوية المتأخرة عن القرن الثالث لم يضف شيئا ذا بال على ما ابدعه علماء القرون المتقدمة ، اذ لا يعدو ان يكون اغلب اعمالهم ترسماً لأعمال السلف او شرحاً لها او اختصاراً لمادتها او ما اشبه ذلك، الا ما قل منها مما كان على جانب من الجدة والاضافة .

وكنت منذ عهد الطلب الأول ميالا الى تناول الموضوعات اللغوية والخوض في غمارها ، دون سواها من الموضوعات ، وربما كان لهذا الشغف المتعاظم في نفسي اثره في الاقدام على مثل هذا الموضوع . يقويه ما وجدته من حاجة المكتبة اللغوية الى هذه الدراسة المتواضعة التي حاولت ان ترصد تطور الدراسات اللغوية مادة ومنهجاً ، كاشفة عن اصالة هذه الدراسات ونضجها المبكر ، داعية الى ان يكون البناء الجديد معتمداً على تلك الاسس القديمة المتينة .

* * *

تنقسم الرسالة الى مقدمة واربعة ابواب وخاتمة ، اما المقدمة ـ وهي التي اتحدث فيها الآن ـ فاودعتها الكلام على اسباب اختيار الموضوع ، وعرضاً لأبوابه وفصوله ، ومصادره المختلفة ، ومنهجي في البحث وختمتها بالشكر لمن هو اهله .

وخصصت الباب الاول للبحث في بيئة الدراسة اللغوية وطلائعها ، فتناولت في الفصل الاول البيئة العامة ، متحدثاً فيه عن جوانب من تاريخ العربية ، وفصاحة العرب في الجاهلية ،وطروء اللحن على السنة بعضهم ، وتطور هذا اللحن مقترباً من العامية ،وموقف ولاة الأمر منه، وختمته بالكلام على بيئة المصرين البصرة والكوفة الاجتماعية والثقافية . وتناولت في الفصل الثاني طلائع الدرس اللغوي

فعرضت للنقط والاعجام والشكل ، ووضع النحو والاختلاف في واضعه، ثم درست نشأة الرواية وتطور مراحلها ، وعرضت لمشاهير الرواة ، وافردت مسرداً باسماء الاعراب الفصحاء الذين اعتمدهم اللغويون ، ثم تكلمت على اختلاط الدراسات اللغوية وانفصالها من خلال عرض اختصاصات الدارسين الأوائل المتعددة ، ناصاً على بوادر استقلال الموضوعات ، وختمت الفصل ببحث موضوع الاصالة والتأثر في دراسات العرب ، وانتهيت الى اصالة هذه الدراسات كما اشرت في هذه المقدمة .

اما الباب الثاني فعقدته للتأليف ، خصصت الفصل الاول منه لدراسة التأليف المختلط ، وعرضت فيه الى موضوعين وضع فيهما العرب مؤلفاتهم ، وأوضحت ظواهر اختلاط الدرس في هذين الموضوعين المختارين ، متتبعاً في كل منهما مؤلفاته من اوليتها الى نهاية القرن الثالث . ثم جعلت الفصل الثاني مقصوراً على دراسة الرسائل اللغوية المستقلة ، مختاراً لها الموضوعات المختلفة ، متتبعاً تطورها ، كالذي فعلته في الفصل السابق . ثم محضت الفصل الثالث للمعجمات ، فدرست فيه تطور مصطلح (المعجم) ، وذكرت الامم التي سبقت الى وضع المعجم ، وعرضت الى ما وصل الينا خبره من المعجمات اللغوية الى نهاية القرن الثالث ، ودرست ما وصل الينا منها ، مقسماً اياها على قسمين معجمات الالفاظ ومعجمات المعاني .

وكان الباب الثالث لدراسة الاسس المنهجية واختلاف اللغويين فيها ، درست في الفصل الاول الاسس المنهجية في دراسة اللغة ، فعرضت للاستقراء وموقف اللغويين من مراتب القبائل في الفصاحة ، وموقفهم من قريش خاصة ، ثم عرضت لاختلاف اللهجات ومظاهره ، لاخلص الى انه لا خلاف في الاساس بينها ، سوى بعض الظواهر الصوتية والبنيوية والاعرابية ، ثم عرجت ادرس الشواهد التي اعتمدها اللغويون ، واختلاف مواقفهم منها ، ثم ذكرت النتائج العلمية المترتبة على ذلك ، وتكلمت على التقدير والتأويل والعامل والتعليل ، والسماع والقياس ، مبيناً وجه التعسف في الأخذ بهذه الاسس في دراسة اللغة ،

وانتهيت الى الكلام على المنهجين الوصفي والتعليلي في الدراسة . وجعلت الفصل الثاني للكلام على اشهر اللغويين مترجماً لهم ، وعلى الملامح المدرسية في اللغة ، محدداً معنى المدرسة ، وذاكراً اهم ما يتميز به منهج البصريين ومنهج الكوفيين متناولاً اهم المسائل اللغوية التي اختلفوا فيها .

اما الباب الرابع فتناولت فيه موضوع تقويم الدراسة القديمة في ضوء الدراسة الحديثة ، فدرست في الفصل الاول منه مصطلح فقه اللغة وتطوره وموازنته بمصطلحي فقه اللغة وعلم اللغة الحديثين ، ثم وازنت بين موضوعات الدراسات اللغوية القديمة والموضوعات الحديثة ، وعرضت الى نماذج من المعالجات اوازن فيها بين الدراستين . وخصصت الفصل الثاني لدراسة موقف اللغويين العرب من اللغات السامية ومدى استخدامهم لها في دراساتهم في العربية ، فبدأت بمقدمة موجزة أعرّف فيها اللغات السامية ، ثم ذكرت معرفة العرب بقرابة هذه اللغات واثر هذه المعرفة ، وعدت اتحدث عن جهل العرب باللغات السامية واثر هذا الجهل على الدرس اللغوي ، وختمت الفصل بعقد موازنة بين الخليل وابن جني وابراهيم أنيس ، تسهم في تبيان تطور الدرس اللغوي .

وختمت الرسالة بخاتمة اودعتها ذكر النتائج العامة والخاصة التي توصل اليها البحث ، والجديد فيه .

* * *

وكان من منهجي في البحث الاقتصار على الجانب اللغوي الخاص في الدراسات اللغوية عند العرب دون النحو والصرف ، وهو الجانب المعني بالدراسات الفقهية والمعجمية في اللغة . ذلك ان النحو والصرف استقلا علمين منذ المراحل الاولى في دراسات العرب اللغوية . على اني كنت اعرج اليهما احياناً حين أجد ان الدقة تقتضي ذلك ، كالذي فعلت في الباب الثالث ، اذ رأيت ان من الاسس المنهجية ما تشترك فيه الدراسات اللغوية والنحوية ، وان لبعض هذه الاسس في النحو اثراً واضحاً في دراسة اللغة .

وكان من منهجي ـ وهو ما يشير اليه العنوان ـ ان اقف عند نهاية القرن الثالث وهو ما التزمته في الباب الثاني المعقود للتأليف التزاماً دقيقاً ، وهذا ما يقتضيه طبيعة الدرس في هذا الباب ، سوى ما كنت اكسع به دراستي لبعض الكتب من الاشارة الى تأثيرها فيما وضع بعدها من مؤلفات خلال القرون اللاحقة . غير اني جزت القرن الثالث في كثير من الاحيان في البابين الثالث والرابع ، حين اعرض لظاهرة توغلت بعيداً عن نهاية هذا القرن ، فكنت اتتبع ملامحها استقصاء لآثارها .

واخذت في هذه الرسالة بالمنهج التاريخي في مواكبة التطور ، بادئاً في كل ما عرضت له من موضوع او تأليف او منهج بالنشأة الاولى مرافقاً له في مسيرته الزمنية صعوداً وهبوطاً ، ابداعاً وتقليداً ، حتى اقف عند الموضع الذي يفرضه البحث ، راسماً له ما يسمى في المصطلح الحديث (خطاً بيانياً) واضحاً ، دون ان تقتصر عنايتي على الجانب المضيء او المظلم من هذا التطور فتغدو صورته ناقصة مضطربة .

* * *

ومن الطبيعي ان تتشعب مصادر هذا البحث وتتسع ، قدر تشعب الموضوع وسعته ، ولا يخلو الرجوع اليها من نصب كبير ، يتمثل بعضه في الوقوف على المخطوط منها ، او في الحصول على طبعته القديمة ، وكثير منها مفتقر الى التحقيق العلمي والفهارس المسرة . ويتمثل بعضه الآخر في صعوبة استقاء الحقائق منها ، وهي ضائعة في خضم التعصب المدرسي والخلافات العلمية ، اذ يكلفنا التثبت من صحة الرأي المنقول في كتاب ينحاز مؤلفه عليه عناء ليس باليسير . ويتمثل بعضه ايضا في سكوت بعض المصادر عن كثير من المعلومات المهمة كنسبة اللهجات الى قبائلها ، او نسبة الشواهد الى قائليها ، او نسبة الآراء الى اصحابها ، مما يفوت على الدرس نتائج نافعة .

وأهم هذه المصادر هي الكتب المدروسة في هذه الرسالة ، وهي مختلفة الموضوع ، توزعت بحسب مواضعها من البحث ، ومثلها ما وصل الينا من

المؤلفات الاخرى لاصحاب تلك الكتب نستعين بهذه على دراسة تلك ، وكذلك الكتب التي تأخرت عن القرن الثالث الموضوعة في اغراض الكتب المتقدمة ، مما يضيء لنا درب الدراسة . اضافة الى ما احتجنا اليه في دراسة المنهج وتقويمه من كتب اللغة المختلفة والنحو والصرف ، وكتب الطبقات والتراجم والتاريخ ، ودواوين الشعر ، وفهارس الكتب والمعلمات ، والمجلات والدوريات ، وغيرها كثير مما ضمه فهرس المصادر في ختام الرسالة .

وافادت هذه الرسالة من المراجع الحديثة التي عالجت جوانب مختلفة مما عالجته هي ، وان اختلفت معها في الاسلوب والنتائج ، وقد اغناني بعضها عن الخوض في الموضوعات المتناولة فيه تجنباً للتكرار .

* * *

ولا يسعني في ختام هذه المقدمة الا ان اسجل عظيم شكري للاستاذ المشرف الدكتور فاضل صالح السامرائي على ما اولانيه من رعاية صادقة وتوجيه سديد ، كان لهما الاثر الكبير في بلوغ البحث ما بلغ اليه ، كما أتقدم بالشكر لمن مد لي يد العون في انجاز هذه الرسالة ، واخص بالذكر الدكتور حاتم صالح الضامن الذي اطلق يدي في مكتبته العامرة استعير منها ما اشاء . وكلي أمل ان أكون قد اضفت برسالتي هذه اضافة جديدة للمكتبة اللغوية ، اسد فيها ثغرة متواضعة ، خدمة للعربية الكريمة ، غير باخل في سبيل ذلك بالجهد والوقت والعافية ، والله من وراء القصد ، وهو ولي التوفيق .



الباب الأول

بيئة الدرس اللغوي وطلائعه

الفصل الأول البيئة العامة

الفصل الثاني طلائع الدرس اللغوي

الفصل الأول

البيئة العامة

- مقدمة
- العربية
- الفصاحة
- اللحن
- العامية
- موقف ولاة الامر
- البصرة والكوفة



مقدمة :

لا بد ان تتوفر دواع معينة لكي تنشأ دراسة من الدراسات ، ولا بد ان تكون هذه الدواعي متصلة بالظروف العامة لهذه النشأة ، ونعني بالظروف العامة البيئة الثقافية والاجتماعية والجغرافية وغيرها مما يهيء لقيام هذا الدرس او ذاك . فاذا وجد هذا الجو الممهد لولادة الدراسة الجديدة ، وظهرت فيه الدوافع الخاصة الى هذه الدراسة ، تمت عملية الولادة على ايدي المعنيين بهذا الجانب من المعرفة . ومن الطبيعي ان تكون تلك الدراسة في بداية امرها قليلة المادة ، بعيدة عن العمق ، ثم تأخذ بالنمو شيئاً فشيئاً حتى تستوي علماً متكاملاً مستقلاً له اصول وفروع ، توضع فيهما التصانيف وتدون في مادتهما الكتب .

وهذا يصدق تماما على الدراسات اللغوية عند العرب ، التي كان لها من ثراء العربية ونضجها ، ومن اختلاف اللهجات فيها ، وما يرفد به القرآن الكريم والشعر من مادة اولية مهمة ، وما كان عليه ولاة الامر والدارسون من استعداد عقلي ونفسي ، ما يمثل التربة الخصبة التي تهيأت لكي ينبت فيها الدرس اللغوي يانعاً مزهراً ، ثم توفرت الدوافع الخاصة التي كانت خدمة القرآن وصون اللغة من اللحن ابرزها جميعاً . لهذا كله كانت نشأة الدرس اللغوي نشأة حتمية ، كما سنبين ذلك في هذا الفصل الذي قصرنا كلامنا فيه على البيئة العامة ، مدخرين للفصل الذي يليه الكلام على طلائع الدرس اللغوي واعماله المبكرة .

* * *

العربية :

اختلف الدارسون في تحديد تاريخ نشأة اللغة العربية ، فجماعة تحددها بتاريخ اول نقش عثر عليه مما يصح ان تنسب كتابته الى العربية ، واخرى اهملت ذلك ومالت الى تحديدها بأول نص شعري جاهلي وصل الينا . والحق ان العربية ـ وهي من اللغات السامية ـ تختلف عن اخواتها في غموض تاريخها القديم ، فلغات اليمن وكتابات النقوش المكتشفة في النمارة وزبد وغيرهما ـ على قربها جميعا من العربية ـ لا يمكن ان تكون هي العربية المعروفة في النصوص الجاهلية ، وذلك للبون اللغوي والفكري الواسع الذي يفصل بين تلك وهذه[1] .

وعلى هذا فالعربية التي نعرفها اليوم لا يرجع تاريخها الى ابعد من النصوص الجاهلية التي تضمنت الفكر العالي والحكمة ومكارم الاخلاق ، وهي اللغة التي سادت الجزيرة العربية قبل الاسلام بقرنين من الزمان تقريباً ، مستخدمة في الشعر والخطب والامثال استخداماً يمكن ان نسميه موحداً بين شعراء للقبائل المختلفة وخطبائها وكهانها ، وان وجدت هناك فروق لغوية يسيرة تشير الى خلافات لهجية معينة . فالمنشيء العربي كان يعمد الى هذه اللغة الموحدة متى اراد ان ينشيء ، وقد يهملها مستعملا لهجته الخاصة عند التحدث والمخاطبة . واوضح مثال على هذه الوحدة اللغوية ـ على الرغم من ورود اشعار غير قليلة بلغات القبائل ـ هو الشعر ، ولعل السبب في ذلك يعود الى طبيعة الشعر وقيود تفعيلاته وقوافيه ، اذ تقل هذه الوحدة وضوحاً في النثر لعدم وجود مثل هذه القيود فيه . يضاف الى ذلك انه لو كانت هناك لهجة منحرفة عن سائر اللهجات لصعب على منشئها اخضاعها لهذه القوانين العروضية الصارمة ، لذا بقيت لغة الشعر لغة فنية يقصدها معظم العرب قصداً[2] .

---

(١) انظر : تاريخ اللغات السامية ١٧٥ واللغات السامية ٦٩ ودراسات في فقه اللغة ٥٥ وفقه اللغة ٩٢ ـ ٩٣ وفصول في فقه العربية ٣٥ ـ ٤٨ وفي اللهجات العربية ٣٣ ـ ٤٥ .

(٢) تاريخ اللغات السامية ٢٠٦ ومحاضرات الدكتور السامرائي (مدونتي) ١١ ـ ١٢ .

الفصاحة :

الذي يدل عليه البحث ان العرب في الجاهلية كانوا يعربون كلامهم رفعاً ونصباً وجراً وجزماً ، وذلك بالسليقة التي فطروا عليها منذ نشأتهم في بيئة فصيحة اللسان سليمة البيان . حتى اصبح الاعراب لديهم من الملكات الراسخة ، وقد انطبع حسهم اللغوي عليه ، وكل خلاف في النطق بهذه السليقة ينبو لسان العربي عنه ، يقول ابو بكر الزبيدي : « ولم تزل العرب في جاهليتها وصدر من اسلامها ، تبرع في نطقها بالسجية ، وتتكلم على السليقة ، حتى فتحت المدائن ومصرت الامصار ،ودونت الدواوين[1] »والى مثل هذا ذهب ابن جني ايضا[2] .

غير ان هناك بعض الاختلافات في ابدال الاصوات وفي اعراب الالفاظ بين بعض القبائل وبعضها الآخر ، فالفرد العربي الناشىء في قبيلة ما ينطق بلغة قبيلته ولسانه مطبوع على ذلك . هذا الاختلاف القليل يتمثل في اعمال بعض الادوات او اهمالها ، او في اعمال بعض الافعال او اهمالها كذلك ، كما في ما ولا ولات وان وليس ولعل وغيرها ، او في ابدال بعض أصوات الكلمة كما في سراط وصراط ، وصقر وزقر ، وغير ذلك مما سنأتي على درسه في مكانه .

ويدل البحث ايضاً على ان لغتهم هي الفصحى سواء كان ذلك بخطبهم وامثالهم ونصائحهم ومواعظهم وسجع كهانهم ام في احاديثهم الدائرة فيما بينهم ، يقول ابن الاثير : « فكان اللسان العربي عندهم صحيحاً محروساً ، لا يتداخله الخلل ولا يتطرق، اليه الزلل ، الى ان فتحت الامصار ، وخالط العرب غير جنسهم . . فاختلطت الفرق ، وامتزجت الالسن[3] » . غير ان لغتهم واسلوب الكلام فيها يختلف بحسب ضروب الكلام ، فهناك ـ كما أشرنا قبل قليل ـ لغة عالية هي لغة الادب والحكمة ، وتشمل الشعر والخطب والامثال وسواها ، ولغة دائرة في

---

(١) لحن العوام ٤ .

(٢) الخصائص ١/ ٧٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٣) النهاية في غريب الحديث ١/ ٣ .

الكلام والتفاهم هي لغة المحادثة او اللغة الدارجة ، التي تصور ما يدور بينهم في اجتماعاتهم ومخاطباتهم ومعاملاتهم وما يتصل بذلك ، لأن القصد في مثل هذه اللغة الاخيرة ليس البلاغة والايجاز والبيان العالي ورائق الكلام ، بل ان هذه الخصائص يهُدف اليها في الشعر والخطب وامثالها [1] .

وقد ذهب كثير من علمائنا الاقدمين الى ان الفصاحة في عرب الجاهلية ليست على منزلة واحدة . فهناك قبائل هي في المرتبة العليا من الفصاحة ، وهناك قبائل هي اقل منها فصاحة ، ومقياس ذلك يعود الى مواطن هذه القبائل . فالقبائل التي تسكن اواسط الجزيرة الى شيء من جنوبيها اي بلاد العالية ، تعد فصحى قبائل العرب ، وهي قبائل الحجاز وكنانة وهذيل وغطفان وهوازن وسليم وطيء وتميم واسد وقيس ، يقول الفارابي : « الذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي ، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم واسد فان هؤلاء هم الذين عنهم اكثر ما اخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف . ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين»[2] . وقد اخذت قواعد العربية عند وضعها في البصرة من مراجعة لغات هذه القبائل ، على اعتبار انها هي الفصحى ، ولغاتها هي الاكثر في الاستعمال .

اما القبائل التي تسكن اطراف الجزيرة العربية فهي اقل فصاحة واضعف لساناً وقد ظهرت الرخاوة في السنتها منذ العصر الجاهلي ، وذلك بسبب احتكاك هذه القبائل او اختلاطها بالامم الاعجمية ، اما القبائل الاولى في وسط الجزيرة فقد عدمت هذا الاحتكاك والاختلاط وحررت السنتها من الضعف ، يقول الفارابي بعد ذكره القبائل الفصحى : « ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . . وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضرى قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن اطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم[3] » . فقبائل ربيعة وتغلب وبكر وما اشبه في

(١) في اللهجات العربية ٤٧ والتطور اللغوي التاريخي ٢٨ ، ١١٧ وفصول في فقه العربية ٦٢ .

(٢) المزهر ١/ ٢١١ والاقتراح ١٩ .

(٣) المزهر ١/ ٢١٢ والاقتراح ١٩ .

العراق احتكت وخالطت الفرس ، وقبائل العرب في الشام احتكت بالروم ، وقبائل العرب في اليمن احتكت بالاحباش ، والقبائل التي سكنت الشواطىء الشرقية من الجزيرة احتكت بمن يفد اليها عن طريق البحر من البلاد الاعجمية اي من الهند والصين لاسباب التجارة ، واكثر ما ظهر الضعف والزيغ في لغة الجاهليين انما كان في لغات هذه القبائل المستضعفة اللسان[1] .

وقد مرت الاشارة الى ان الدارسين اعتمدوا لغات هذه القبائل في استنباط القواعد اللغوية ، غير انهم وجدوا مع ذلك مخالفات لسانية لدى بعض افراد هذه القبائل ، بما يختلف عن لغات هذه القبائل او لغة قبيلتهم . وقد جعل اللغويون هذه المخالفات انواعاً بحسب القلة والكثرة ، فمنها ما قالوا عنه انه قليل او ضعيف او نزر او شاذ ، فالقليل والضعيف اكثر استعمالاً بالطبع من النزر، والنزر اكثر من الشاذ[2] . وعلل بعضهم هذا الشاذ او النزر او الضعيف تعليلات مختلفة ، فمنهم من قال انها بقايا لغات منقرضة بقيت منها لوثة في لسان الناطق بها ، ومنهم من زعم ان الناطق بها سها ونطق بها على خلاف ما ينطق الاكثرون ، ومنهم من قال انه نطق بذلك عمداً اما على سبيل التندر او المخالفة المقصودة ، اما ابن جني فقد فسر ذلك بتركب اللغات اي تداخلها ، وخص الفعل بذلك ، ورجع كل ما شذ من صيغه واوزانه الى انه لغات تداخلت وفات العربي معرفة ذلك[3] .

ومن الامثلة الشعرية المسوقة على ذلك قول الشاعر :

إنَّ مَن صاد عقعقاً لمشؤُم ... كيفَ من صادَ عقعقان وبومُ[4]

وقول الآخر : وقد قدم له ابن هشام بقوله : وقيل : اول لحن سمع بالبصرة :

لعل له عذرٌ وانت تلومُ[5]

(1) مقدمة ابن خلدون ٤٨٩ والمزهر ١/ ٢١٢

(2) الانصاف : مسألة ٦٦ والمزهر ١/ ٢٣٤ .

(3) الخصائص ١/ ٣٧٥ .

(4) مغني اللبيب ٦٩٩ .

(5) مغني اللبيب ٢٨٧

وقول كعب بن سهم الغنوي :

فقلتُ ادعُ اخرى وارفع الصَوتَ جهرةً لعل ابـي المِغوارِ منـكَ قريـبُ[1]

وعلق عليه ابن هشام بانه لغة منسوبة الى عقيل[2] . وغير هذه الامثلة كثير . وسنأتي في الباب الثالث الى مناقشة الاسس المنهجية التي اعتمدهـا اللغـويون في استقراء اللغة .

* * *

اللحن :

اختلف الدارسون في وقوعه في الجـاهلية ، أكان لحـن في هذا العصر ام لم يكن ؟ واكبر الظن انه قد وقع شيء منه ، وان ذهب اكثر الدارسين الى انه لا لحن في الجاهلية ، لانهم يعدون اللحن مما ينافي الفصاحة ، ويعملون على توجيه هذا اللحن فيسمونه لغة شاذة او نادرة ، ولا شك ان امثال هذا قد ظهر كثيراً في لغات القبائل التي كانت تسكن في اطراف الجزيرة العربية ، التي اشرنا الى احتكاكها بما جاورها من الامم الاعجمية .

ونقل ابو عبيد عن ابي زيد وغيره معاني كلمة اللحن فقال : « لحن الرجل يلحن لحناً اذا تكلم بلغته ولحنت له لحناً اذا قلت له قولاً يفقهه عنك ويخفـى على غيره . ولحنه عني لحناً اي فهمه ، والحنته انا اياه الحاناً . غيره (اي غير ابي زيد) : لاحنتُ الناسَ فاطنتهم ، ولحن الرجل : اذا اخطأ في الاعراب»[3] . والى هذا المعنى الاخير ذهب الجوهري ايضـا[4] ، وابن منظـور[5]

ويكاديجمع القدامى على انه لا لحن في الجاهلية ، ويحددون ظهـور اللحـن بحدود ظهور الاسلام او بعده بقليل ، يقول ابو بكر الزبيدي : « فاختلط العربي بالنبطي ، والتقى الحجازي بالفارسي ، ودخـل الـدين اخـلاط الامـم ، وسواقـط

(١) نوادر ابي زيد ٣٧ ولمع الادلة ٨٢ وشرح شواهد العيني : ٣/ ٢٤٧

(٢) مغني اللبيب ٢٨٦ .

(٣) الغريب المصنف ٦٤٩

(٤) الصحاح ٦/ ٢١٩٣

(٥) لسان العرب ١٣/ ٣٨٠

البلدان ، فوقع الخلل في الكلام ، وبدأ اللحن في السنة العوام[1] ، وذهب مذهب القدماء المرحوم مصطفى صادق الرافعي من الباحثين المحدثين[2]

ومن الجانب الآخر فقد رأى استاذنا المرحوم كمال ابراهيم ان النبي يدل على اعتبار اللحن وارداً في الجاهلية او ان الزيغ اللساني قد سمي لحناً ان لفظة (اللحن) قد استعملت في الجاهلية ، ولا يوضع لفظ لغير مدلوله ومسماه[3] . فقد وردت في قول لبيد :

متعـود لحـنٌ يعيـدُ بكفِـه قلـما عـلى عُسـبٍ ذبلـنَ وبانِ[4]

وان كان لهذه اللفظة معان عدة اخرى ، منها تنظيم الكلام وهي اللحـون المعروفة ، ومنها ما يتعارف عليه افراد او اثنان في اشارات لفظية على مقاصد بينهم ، ومنه قوله تعالى : (ولو نشاءُ لأريناكهم فلعرفتَهم ولتعرفنَّهم في لحن القول[5]) ، حتى ان الجاحظ اشتبهت عليه هذه اللفظة فظنها الخطأ في الاعراب في قول الشاعر مالك بن اسماء :

منطق صائـب وتلـحنُ أحيـا ناً وخيرُ الكـلامِ ما كان لحنـا[6]

وعلق على هذا البيت في البيان والتبيين بقوله : ان اللحن من افواه الجواري مستملح[7]. ولكن قصد الشاعر ان هذه الجارية تنطق الكلام على وجه الصواب وترتله ترتيلاً منغماً احيانا . وبعد ان اشتهر الكتاب نبه على خطئه ، فقال : كيف لي باصلاحه وقد انتشر في الآفاق[8] ؟ وهناك دليل آخر وهو انه لا يمكن ان يكون من

---

(١) لحن العوام ٤

(٢) تاريخ آداب العرب ١/ ٢٣٩ ، ٢٤٢

(٣) محاضرات الاستاذ كمال ابراهيم (مدونتي) ١٦ .

(٤) اضداد ابن الانباري ٢٤٠ ولسان العرب (لحن)١٣/ ٣٨٠

(٥) سورة محمد ٣٠

(٦) مجالس ثعلب ٢/ ٥٩٩ واضداد ابن الانباري ٢٤١ وسمط اللآلي ١/ ١٦ .

(٧) البيان والتبيين ١/ ٦٢ .

(٨) الاغاني ١٦/ ٤٣ وتاريخ بغداد ١٢/ ٢١٤ وسمط اللآلي ١/ ١٧ وامالي المرتضى ١/ ١٢ والروض الانف ٢/ ١٩٠

المنطق اعتبار ما يقع فيه الجاهلي من خطأ لغة شاذة او ضعيفة ، واعتبار هذا الخطأ نفسه لحنا بعد اسلامه بفترة وجيزة .

وروي ان وفداً جاء الى النبي (ص) يعلن اسلامه ، فلما قام خطيبهم بين يديه يتكلم لحن في كلامه فاستفظعوا لحنه ، وظهر اثر ذلك في وجه الرسول ايضا ، وقال للوفد : « ارشدوا اخاكم فقد ضل[1] » . غير ان الذين رووا هذه الحادثة لم يذكروا لنا شيئاً عن هذا الوفد والقبيلة التي ينتسب اليها . واكبر الظن انها من القبائل القريبة من الحجاز ومن مواطن الفصاحة ، لأن الحادثة كانت ـ كما يبدو ـ في بدء نشر الاسلام في اوساط الجزيرة العربية . واذا كان خطيب القوم وهو رئيسهم ويعد افصحهم هكذا فكيف بسواه .

ووردت اخبار اللحن تشير الى وقوعه في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، اذ ذكر انه مر على قوم يتدربون على الرمي ، فاستقبح رميهم ، فقالوا له : إنا قومٌ متعلمين[2] . ومما ذكروا ان أول لحن عرف في الكتابة والرسائل كان في كتاب ابي موسى الاشعري عامل عمر بن الخطاب على الكوفة ، اذ كتب كاتبه : من ابو موسى الى الخليفة الثاني عمر . . . فرد عمر الكتاب ووقع في اسفله : اقسم عليك الا ما قنعت كاتبك سوطاً . فلما جاء الكتاب الى الكاتب وسأل عن خطئه فيه ، قيل له : هو ما جاء في عنوانه ، فأصلح عنوانه وارسله الى الخليفة عمر فقبله[3] .

ولما ازداد الفتح وانتقل الى اطراف الجزيرة العربية ، وهي مواطن ضعف الالسنة العربية والخطأ ، وبدىء بفتح العراق ، ودخل الاعاجم في الاسلام ، وسكنوا المدن الاسلامية ولا سيما بعد تأسيس البصرة والكوفة ، اخذ اللحن ينتشر على نطاق واسع ، نتيجة هذا الاختلاط وتضخم المجتمع الاسلامي ولا سيما في البصرة ، واستوطنت البصرة قبائل عربية عدة ، واقوام اعجمية مختلفة ـ كما سنأتي الى بسط ذلك ـ فشاعت ظاهرة اللحن ، وقيل : ان أول لحن ظهر بالامصار قولهم

---

(١) مراتب النحويين ٥ وكنز العمال ١/ ١٥١ ولمع الأدلة ٩٦ والخصائص ٢/ ٨ .

(٢) اضداد ابن الانباري ٢٢٤ .

(٣) مراتب النحويين ٦ ونور القبس ٣ والخصائص ٢/ ٨ وانظر في تطور معاني اللحن : العربية ٢٣٥ ولحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية ١٩ ـ ٢٨ والاضداد في اللغة ٧٠

(حيّ على الصلاة) ، واول لحن سمع في البادية قولهم : (سقطت عصاتي)[1]

وبنشوء هذه المجتمعات او المدن الاسلامية وتعدد عناصرها المختلفة تحت راية الاسلام ـ وهؤلاء الاعاجم بطبيعتهم لا يعرفون العربية واخذوا يتعلمون هذه الصناعة ـ انتشر الفساد اللغوي على نطاق واسع . يقول ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) : « فأما اللحْن بسكون الحاء ، فامالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية . يقال : لحن لحنا ، وهذا عندنا من الكلام المولد ، لأن اللحن محدث لم يكن في العرب العاربة الذين تكلموا بطباعهم السليمة[2] »

وأول زيغ ظهر في الالسنة تسكين اواخر الكلم هرباً من الاعراب[3] ، حتى تسرب اللحن الى التلاوة في القرآن دستور الشريعة ومنار العربية ، واليه المرجع في الدين واللغة ، واللحن فيه قد يخل بمقاصد الآيات التي يلحن فيها ويغير من المعنى المقصود من الآية ، ذلك ان بعض وجوه التعبير تختلف معانيها باختلاف الاعراب ، كأن تقول مثلاً : ما أحسن زيدٌ وما احسنَ زيداً وما احسنُ زيدٍ ، فالمعاني مختلفة والالفاظ واحدة ، فقولنا ما احسنَ زيدٌ نفي للاحسان عنه وقولنا ما احسنَ زيدا تعجب من حسنه وقولنا ما احسن زيدٍ سؤال عن احسن شيء فيه[4] . فالاعراب كما ترى غير معاني الجملة تغييراً تاماً . ولهذا نجد ان مما حفز ابا الاسود الدؤلي الى وضع العربية ـ كما يعبر القدماء ـ سماعه قارئاً يقرأ على قارعة الطريق قوله تعالى : (ان الله بريء من المشركين ورسولِهِ)[5] بالكسر ، فقال : حاشا لله ان يبرأ من رسوله ، ما كنت احسب ان امر الناس صار الى هذ[6] . وقد زاد اللحن الى درجة انه ظهر على لسان ابنته وهي التي نشأت وعاشت في بيت الفصاحة ، وقصة قولها : ما اجملُ السماء ـ بضم اللام للاستفهام وهي تريد فتحها للتعجب ـ قصة مشهورة[7] .

---

(١) اصلاح المنطق ٢٩٧ والبيان والتبيين ٢/ ٢١٩ ومراتب النحويين ٦ .

(٢) مقاييس اللغة ٥/ ٢٣٩ .

(٣) فقه اللغة (وافي) ١٣٢

(٤) لمع الادلة ١٠٩

(٥) سورة التوبة آية ٣ .

(٦) الفهرست ٦٦ واخبار النحويين البصريين ١٢ ومراتب النحويين ٨ ونور القبس ٤

(٧) اخبار النحويين البصريين ١٩ .

العامية :

كان من اثر هذا الاختلاط الذي اشرنا اليه وانتشار اللحن والخطأ في الالسنة نشوء لغة للتخاطب بين عامة الناس لا تتقيد الفصحى ، بل الغرض منها مجرد التفاهم فيما بينهم في شؤ ونهم العامة والخاصة ، وهذه اللغة الناشئة كانت اول ظهورها بطبيعة الحال اقرب الى الفصحى ثم اخذت تبتعد بالتدريج عصرا بعد عصر بحسب المؤثرات الكثيرة التي عملت في ذلك . وقد كان من اوائل نشوئها بوادر اللحن بتسكين اواخر الكلم ثم اخذت عناصرها ومقوماتها تتوسع وتتعدد شيئاً فشيئاً ، ويمكن ان نوجز اهم مقومات هذه اللغة وعناصرها بما يأتي :

١ ـ اللحن في الالفاظ : وهو الخطأ في الاعراب ، وهذا ما يتعلق بالنحو ، ثم الخطأ في بنية الكلمة العربية من حيث الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والقلب والخطأ في تحريك اواسط الفعل الثلاثي من ضم او فتح او كسر ، وكذا الخطأ في الاسماء وضبطها ضبطاً صحيحاً[١] .

٢ ـ التسكين في اواخر الكلم : وهذه الظاهرة جرت متوافقة في الحقيقة مع ظهور اللحن ، ولكنها فشت اكثر بعد ظهوره ، لجهل العامة بالاعراب واختلال الملكة . فاثروا تسكين اواخر الكلمة تخلصاً من اعرابها[٢] .

٣ ـ الاختصار في الجمل : وذلك بنحت لفظة او لفظتين ، كأخذ حروف من هذه وتلك وتكوين لفظة او لفظتين لاختصار الجملة ، والناس بطبيعتهم يميلون الى السرعة بالتفاهم فيختصرون في التعبير .

٤ ـ دخول الفاظ اعجمية في الاستعمال : مع الالفاظ العربية ، وقد تكون هذه الالفاظ المستعملة منقولة عن اصلها الاعجمي بوضعها الاصلي او محرفة وليس القصد ان تكون هذه الالفاظ قد دخلت العربية من الفارسية فحسب بل من اللغات الاعجمية الاخرى[٣] .

---

(١) انظر الامثلة : البيان والتبيين ١/ ١٦١ ، ٧٢ ، ٧٣ وعيون الاخبار ٢/ ١٦٠

(٢) فقه اللغة (وافي) ١٣٣ ومحاضرات الاستاذ كمال ابراهيم (مدونتي) ١٤ .

(٣) البيان والتبيين ١/ ١٤١ ، ١٤٤ .

وبمرور الزمن اتسع نطاق هذه اللغة وكثر فيها الدخيل وتنوعت ، واصبح لكل اقليم من اقاليم العرب لغة عامية خاصة مستفادة من الاحوال الخاصة لذلك الاقليم ، وهذه الاحوال ترجع الى القبائل العربية التي سكنت هذا الاقليم ولغتها ولهجتها ، والى الاقوام الاعجمية التي خالطتها عبر التاريخ ، فكان لهذا الموقع الجغرافي اثر مهم في ذلك ، وزاد هذا التباعد والتباين بين اللغات العامية في الاقطار العربية عصراً بعد عصر ، لأن تلك المؤثرات اخذت تتسع وتقوى عصراً بعد عصر ، وكلما بعدت الشقة بين قطر وقطر تباعدت اللهجة عن الاخرى . فنجد مثلاً ان لهجة اهل العراق تقرب نوعاً مّامن لهجات اقاليم الجزيرة العربية والاردن وسوريا وغير ذلك ، وتبتعد اكثر عن لهجات شعوب شمالّي افريقيا . حتى يكاد التفاهم يكون صعباً او متعسراً احيانا بين اصحاب اللهجات المتباعدة[1] ، ولا جامع يجمع الالسنة في التفاعل الا جامعة لغة القرآن وهي اللغة الفصحى السليمة .

والحقيقة ان عامية اهل العراق وعامية شعوب شمالّي افريقياتأثرت اكثر من غيرها بالموجات الاعجمية التي خالطتها ، فكانت لغاتها هذه بعيدة عن الفصحى ، فقد دان العراق في عهود طويلة من تاريخه لحكم اعجمي منه الحكم الفارسي والديلمي والتتري والعثماني وغيرها ، وضربته موجات من الخارج كثيرة فتأثرت ألسنة أهله خلال التاريخ الطويل بكل ذلك ، فتجد في هذه اللغة كثيراً من الالفاظ الفارسية او التركية او الديلمية او الهندية ومنها ما لا نعرف له اصلاً ، فالتحريف الذي جرى في هذه الالفاظ الدخيلة ابعدها عن معرفة اصولها الا بتحقيق دقيق[2]

هذا ما جرى من انتشار العامية في الامصار العربية ، اما انتشارها في جزيرة العرب وفي البوادي فقد تأخر عن بداية ذلك في الامصار ، واستمرت الفصحى لغة اهل البادية الى القرن الرابع الهجري . وبعد هذا العهد اخذت العامية تتسرب الى سكان البوادي ايضا وذلك بفعل الاختلاط[3] . وهذا الاختلاط منه ما كان نتيجة

---

(١) فقه اللغة (وافي) ١٤٠ .

(٢) فقه اللغة (وافي) ١٤٠ ، ١٤٥

(٣) انظر : الخصائص ٢/ ٥

ثورات واضطرابات كانت تجري في الامصار العربية الاسلامية كثورات الزنج والقرامطة في جنوب العراق ، فانهم كانوا اذا ضيقت عليهم الدولة الخناق لجأوا الى البوادي وتفرقوا فيها ، فيصعب على جيوش الدولة ملاحقتهم فيها ، ويظلون هناك اشهراً او سنوات يستجمعون قواهم ويلمون شتاتهم ويعيدون الكرة على اطراف الدولة وهكذا[1] . وكان من الجهة الاخرى ان طريق البادية كان طريق قوافل الحجاج الآتية من جهة الشرق الى بيت الله الحرام ، وقد جعلوه منازل ومراحل يقيمون اياماً ويختلطون بأهل البادية[2] ، فسرى كل ذلك من فساد الالسنة الى السنتهم عهدا بعد عهد حتى تم انتشار العامية على افواههم وانتساخ الفصحى منها .

* * *

موقف ولاة الامر :

بعد ان كثر الخطأ في الالسنة وظهرت العامية فكر اهل العربية الغيارى على لغة العرب ولغة التنزيل ورجال الدولة في اتخاذ ما يقاوم هذا التيار من خطر العامية حفاظا على الفصحى لغة التنزيل . وقد كان ما فعلوه عاملا فعالا الى حد محدود في الحفاظ والصيانة ولكنهم لم يقضوا على هذا الخطأ الشائع وعلى تيار العامية ، غير انه في الاقل حفظ القرآن الكريم من الخطأ في تلاوته وحفظ لغة الكتابة والتاريخ . ويمكننا ان نعد اهم ما فعلوه ما يأتي :

١ ـ وضع النحو وضوابط العربية على وجه عام ، واول ما وضعت نواة ذلك في مدينة البصرة التي كثر فيها هذا الزيغ اللغوي والخطأ في التلاوة ، وانتشرت فيها العامية بسبب مستوطنيها من الاعاجم واختلاطهم بابناء العرب ، وكان بدء ذلك ـ على اكثر الروايات ـ على يد ابي الاسود الدؤلي ، مما سيأتي تفصيله فيما بعد .

٢ ـ ما فعله بعض رجال الدولة من تعريب الدواوين ، فقد كانت دواوينها

---

(١) تاريخ الدولة الاسلامية ٢٢٦ ، ٢٤٣ ، ٢٨١

(٢) تاريخ الدولة الاسلامية ٢٤٤ ، ٢٦٣ .

تكتب كتبها واصطلاحاتها بلغات مختلفة غير عربية ، فكان ديوان العراق بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية وديوان مصر بالقبطية وهذا ما كان يتطلب ان يكون الاعاجم من اهل هذه اللغات هم القائمين على شؤ ون هذه الدواوين ، لانهم يحسنون لغتها واصطلاحاتها وتمرسوا في اساليبها ورسومها ، فلما تولى عبدالملك بن مروان نهض بتعريب هذه الدواوين ثم تفويض امرها الى العرب او من تعلم العربية واحسنها من غيرهم ، وقد اقتضى هذا الامر ان يقوم ابناء الاعاجم بتعلم العربية واتقانها وضبطها للاستخدام في هذه الدواوين من اجل الارتزاق كما اقتضى العرب انفسهم ممن كانوا ضعاف الالسنة ان يتقنوا ايضا الفصحى ويصونوا السنتهم من الخطأ ولا سيما في الكتابة ، فكان عمل عبدالملك هذا مما خدم اللغة العربية وباعثا من بواعث احيائها[1] .

٣ ـ بعد ان كثر الخطأ واللحن وانتشرت العامية على الالسنة بالامصار خاصة اخذ خلفاء الدولة وامراؤ ها وقادتها وسراة الناس واشرافهم يحرصون على تنشئة ابنائهم على سلامة اللغة وفصاحة الالسنة ولا سيما ابناء الخلفاء منهم ، لأن من يقوم برعاية العرب لا بد ان يحسن لغة العرب ويحسن الكلام والخطابة فيها ، وذلك بحكم مركزه وخطاب الناس في المواسم والاعياد وايام الجمع بالجوامع ، وكان اقبح العيب عند العرب ان يسمعوا لحناً من امثال هؤ لاء في كلامهم وخطبهم او في الآيات والاحاديث التي يستشهدون بها ، وكذلك الامر بالنسبة للولاة والقواد واشراف الناس وسراتهم حتى انهم كانوا يعدون من لا يخطأ عداً[2] . والف بعض العلماء رسائل في لحن الخاصة ، وكانوا من قبل يؤ لفون في لحن العامة ، لان اللحن كان قليلاً جداً على ألسنة الناس ، وعدُّوا ممن لا يلحن عبد الملك بن مروان وشبيباً الخارجي وعامراً الشعبي وأيوب بن القرية[3] .

وانا لنجد كثيراً من فصحاء العرب وخطبائهم على فصاحتهم كانوا يلحنون ،

---

(١) انظر : العربية (فك) ٢١

(٢) انظر : العربية (فك) ٢٦

(٣) عيون الاخبار ٢/ ١٥٥ وحيوان الدميري ٢/ ٢٦١ ووفيات الأعيان ١/ ٣٩٩ .

كالحجاج بن يوسف وخالد بن عبدالله القسري من ولاة العراق فقد كانا يلحنان على فصاحتهما[1] . وقد سأل مرة الحجاج بن يوسف يحيى بن يعمر: أألحن ؟ فقال : الامير أجل من ذلك ، فقال : أقسمت عليك الا ما قلت الحق . قال : نعم تلحن . فقال : وفيم الحن ؟ قال : بكتاب الله . قال : وبأي آية سمعتني الحن ؟ قال : في قوله تعالى : (قلْ إن كانَ آباؤُكم أو ابناؤُكم أو ازواجُكم أحبٌّ اليكم . .)[2] فتلاه أحبُ بالضم ، فغضب الحجاج وقال : لا جرم لا تسمع لي لحنا ابداً ، لا تساكني في بلد انا فيه . فعينه قاضيا في خراسان[3] . وقال عبدالملك : « اضر بنا حبنا للوليد فلم نرسله للبادية[4] ». وكان قد بعث اخوته اليها فنشأوا على سلامة الالسن ، ولما كبر الوليد نشأ كثير اللحن وعين له المربين والمؤدبين ولكنه مع ذلك لم يستطع تقويم لسانه[5] ، حتى انه لما تولى الخلافة خطب الناس فقرأ الاية : (يا ليتَها كانت القاضية) : (يا ليتُها) بضم التاء وكان عمر بن عبدالعزيز مع الجالسين فقال له : عليك واراحنا الله منك[6]

واذا كان رجال الدولة على هذا الصنيع في تقويم السنة ابنائها من بعثهم الى البادية فقد اصبحوا قدوة لغيرهم وخاصة القواد والامراء وسراة الناس لينشأوا في البادية على فصاحة اللسان وقوة الجنان وسلامة الابدان ، وهي شعيرة من شعائر العرب كان اهل الامصار يأخذون بها فيرضعون ابناءهم في البادية لينشأوا فيها على فصاحة اللسان وسلامة البدن . ونحن نعلم ان الرسول (ص) كان ممن استرضع في بني سعد وكان مما قاله في ذلك : « انا افصحُ العرب بيد أني من قريش واني نشأت في بني سَعد بنِ بكر[7] ».

---

(١) معجم الادباء ١/ ٢٥

(٢) سورة التوبة آية ٢٤

(٣) طبقات الشعراء ٦ وعيون الاخبار ٢/ ١٦٠ والبيان والتبين ٢/ ٢١٨ وطبقات النحويين واللغويين ٢٢ ونزهة الالباء ٩

(٤) العقد الفريد ٢/ ١٩٢

(٥) البيان والتبين ٢/ ٢٠٤ والكامل ١٩٠ والموشح ٢١٧ ونقد النثر ١٢٣ وصبح الاعشى ١/ ١٦٨ .

(٦) البيان والتبين ٢/ ٢ ، ١٢٠ وعيون الاخبار ٢/ ١٥٨ ومعجم الادباء ١/ ٢٥

(٧) الحديث في : غريب الحديث لابي عبيد ١/ ١٤٠ والفائق ١/ ١٤١ والنهاية ١/ ١٠٣ والمزهر ١/ ١٢٧

٤ ـ الاصهار الى القبائل ، وقد جرى على هذه السنة في التزويج كثير من سراة الناس وامراء الدولة فاتخذوا لهم ازواجاً من نساء القبائل وهن فصيحات الالسن لينشأ ابناؤهم على الفصاحة كما فعل معاوية بن ابي سفيان في الزواج من ميسون الكلبية ام يزيد . لأن هناك فرقاً بين ان ينشأ الناس في حجر ام اعجمية او فارسية اللسان وام عربية فصيحة اللسان[1] . فكان هذا ايضا عاملاً من عوامل تنشئة الابناء على الفصاحة .

٥ ـ اهتمام الخلفاء والامراء بعلوم العربية واهمها الادب واللغة وضوابط النحو وعقد المجالس والاسمار في ذلك . فمما لا ريب فيه ان العرب جميعاً حريصون اشد الحرص على لغتهم وآدابهم ، ويجدون اكبر المتعة في انشاد الشعر ومجالسة الشعراء وسماع ما يقولون ، ولما جدت علوم العربية احتفل العرب بعلوم اللغة والنحو والصرف والعروض والقافية وعلوم البلاغة ، كما احتفلوا قبل ذلك بالتفسير والحديث والقراءات ، لأن في علوم العربية هذه ضبط اصول لغتهم وحفظها من الخلل والفساد . كما ان غير العرب من شتى صنوف الاعاجم اقبلوا على هذه العلوم يتعلمونها ويقيمون السنتهم عليها ، لأن احكامها واتقانها من وسائل تقدمهم وكسبهم وارتزاقهم ، وقد جرى خلفاء بني امية على ما كان عليه اسلافهم من العرب في عقد الندوات الشعرية والاسمار مع الشعراء واللغويين والنحاة واهل العربية على وجه عام وفتحوا ابوابهم لهم[2] .

وكان اكثر حاجتهم الى السنة الشعراء من مختلف القبائل يمتدحونهم وينشرون في الناس مناقبهم ومآثرهم وهذه من خير الدعوات لهم ، فكان الشعر السائر بمنزلة الصحف السيارة اليوم او اجهزة الاعلام المعروفة بهذا العصر . والامويون كانوا بحاجة ماسة الى مثل هذا لكثرة خصومهم ومخالفيهم ، فاتخذوا من الشعراء السنة قوالة وسيوفا تذب عنهم ، ولم يقصروا فيما كانوا ينفحون به هؤلاء الشعراء بل كانوا يضاعفون جوائزهم ويغدقون عليهم العطايا والهبات المختلفة فتكاثر الشعراء على ابوابهم .

---

(١) عيون الاخبار ٤/ ٨ والاغاني ١٤/ ١٧٨ .

(٢) انظر : المزهر ٢/ ١٧١ والعربية (فك) ٣١ وما بعدها

ويهمهم كذلك ان يكون هؤلاء الشعراء يمثلون قبائل مختلفة ، لاجتذاب قبائلهم اليهم ، غير انهم تخيروا منهم على الصفة الملازمة اكثرهم تفوقا وفضلا في الشعر وابلغهم واعلاهم كعبا بالفصاحة كالفرزدق وجرير والاخطل ، فكانوا اكثر من غيرهم غشياناً لمجالس الخلفاء[1] .

وفتحوا ابوابهم كذلك لعلماء اللغة والنحو وعلوم العربية الاخرى اذا قدموا عليهم ، وقد يستقدمونهم هم اذا وقع اختلاف في مسألة لغوية او نحوية ، فيقدمون عليهم مكرمين ويخرجون عنهم في العطايا الوافرة[2] . وقد كانت هذه الشعيرة سبيل كل الخلفاء في ذلك ، الا ما كان من عمر بن عبدالعزيز فانه من زهده وورعه رأى ان هذه الأموال الكثيرة وهي تصرف من بيت مال المسلمين تنفق على غير وجهها الشرعي فمنعها عن الشعراء ، وكان اذا اتفق ان احد الشعراء اقبل عليه فانشده شيئاً من شعره اجازه بشيء من الدراهم من ماله الخاص ، وبعد وفاته عاد من بعده الى ما كان عليه اسلافهم .

٦ ـ النقائض الشعرية ، ومما افاد اللغة كذلك شعر النقائض الذي يمثل الحرب الهجائية التي شبت نارها بين الشعراء وبخاصة بين جرير والفرزدق والراعي والاخطل واتباعهم وانصارهم ، وكان الامويون من المشجعين عليها للشعراء ، وهذه النقائض تمثل الجوانب المختلفة ، منها ما كان حسنا ممدوحا ومنها ما كان سيئا مذموماً ، ولكن الامويين وجدوا فيها جوانب من اماديحهم ونشر مآثرهم ، اذ كانت هذه القصائد من اكثر شعر هؤلاء انتشاراً وتطايراً بين القبائل ، لأن الناس من اهالي البادية والحضر اهتموا بها كل الاهتمام ، وتناقلوها في مجالسهم وتناشدوها في انديتهم واسمارهم ، وكان الشعراء يلقونها في المواسم والاسواق لأن فيها نشر فضائل ومفاخر القبيلة التي ينتسب اليها الشاعر ، كما ان فيها ذم او هجو الشاعر الخصم ونشر معايب قبيلته ، فأثارت العصبية القبلية بين الناس . اما من محاسنها فذلك بما انتقت من الفاظ لغوية قليلة الاستعمال او غريبة فصهرتها او صقلتها واصبحت صالحة

(١) انظر مثلاً : ديوان جرير ٣ ، ٩ ، ٩٦ ، ٣٥٤ ، ٤٣١ وديوان الاخطل ١/ ٣٤ ، ٣٨ ، ٥٢ ، ٦٨ ، ٧٣

(٢) انظر الامثلة في : المزهر ٢/ ١٧١ ، ٢٤٠

الاستعمال . ويظهر اكثر ذلك في شعر الفرزدق حتى قالوا : ان الفرزدق احيا ثلثي اللغة ، ثم الى ما هنالك من غزل رقيق ووصف جيد في شعر جرير والاخطل ، ومن الناحية الاخرى فان فيها ذكرا عند التمدح للانساب : نسب قبيلة الشاعر او الغض من نسب قبيلة من يهجوه . وهي على العموم من الناحية الادبية واللغوية كانت مفيدة ، كما انها احيت الاساليب الادبية الرصينة العالية ، وهي من الناحية السيئة اشاعت الهجو المقذع والافحاش في ذكر العورات مما نهى الشرع الاسلامي عنه ، كما فيها هتك الاعراض والحرمات .

وقد بلغ الهجاء في هذه الفترة حدا كبيرا في تجاوزه حدود الآداب والاخلاق والعرف والشرع . ونحن نعلم ان هذا الغرض من اغراض الشعر كان في الجاهلية ولكنه لم ينحدر الى هذا الدرك ، فقد كان اكثر ما يهجو به الشاعر خصمه او قبيلة الخصم هو التعيير بالجبن وعدم الحفاظ والغدر والقعود عن النجدة والبخل وذكر بعض المواقف للمهجو او القبيلة او آبائها او الغض من النسب والحسب ، مع ان اعراف الجاهلية لم تفرض هذا الالتزام كما فرضه الاسلام ونهت عنه الشريعة[1] .

وان الذي يهمنا من هذه النقائض هو ما يتصل باللغة والادب من حيث الاسلوب والمفردات وتأنيس بعض الالفاظ الغريبة بصقلها في الاستعمال ، ومن حيث ما يتصل بتاريخ العرب ومعرفة انسابها وانساب قبائلها وايامها ووقائعها وابطال حروبها وغزواتها ، فان في هذا مجالا متسعاً للمعنيين بمثل هذه الجوانب التاريخية من انساب العرب[2] . ولا شك ان ما شجع هؤلاء الشعراء على الانحدار الى هذا الدرك الاسفل هو ما نجم من اثارة العصبيات بين القبائل بحيث ادى الامر الى اتساع نطاق الهجاء بين الشعراء المتهاجين وتجاوز الحد المقبول اذ وجد مشجعا من رجال الدولة على ذلك ، كما ان طبيعة الحياة البدوية وطبيعة هؤلاء الشعراء في هذه الفترة من الزمن من حيث ضعف الوازع الديني في نفوسهم وابتعادهم عن معايير الورع والتقوى التي جاء بها الاسلام ، سهلت عليهم الخوض فيما خاضوا فيه[3] .

(١) الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ٦٦ وما بعدها .

(٢) انظر مثلا : ديوان جرير ٧ ، ٢٥ ، ٩١ ، ٤٨٦ وديوان الاخطل ١/ ٤١

(٣) محاضرات المرحوم الاستاذ كمال ابراهيم (مدونتي) ١٨

البصرة :

تم تمصير البصرة في صدر الاسلام أيام خلافة عمر بن الخطاب باذنه على يد عتبة بن غزوان قائد الجيش العربي لفتح هذه المنطقة ودحر الفرس ، فقامت مكان (الخريبة) وهو ميناء فارسي صغير ، وكان لها من موقعها الجغرافي المهم ومن كونها مركزا تجاريا يتوسط الشرق والغرب ما ساعد على نموها واتساعها بزمن قصير ، فهاجر اليها من هاجر من القبائل العربية وبخاصة من تميم وقريش وكنانة وثقيف وباهلة وبكر وعبد القيس والازد وغيرهم . كما سكنها الفرس الذين دخلوا الاسلام ، وهم ـ بادىء الامر ـ جيش سياه الاسواري المقهور ، وقد حالفوا عند استيطانهم البصرة بني تميم ، واستوطن البصرة ايضا جماعة من السند يسمون (الزط) ، وجماعة من النبط الآراميين (الصابئة) ، والسبابجة الوافدون من جنوب شرقي اسيا ، واليونانيون الذين تكاثروا منذ اسكنهم الاسكندر فيها في غزوه لهذه المنطقة ، والزنوج النازحون اليها من السودان وزنجبار ، وكانت هذه العناصر مجتمعة تكّون مجتمع البصرة المشتغل بالتجارة والزراعة والصيد وغيرها من المهن[1] .

ومن الطبيعي ان يكون نتيجة هذا المزيج من اللغات والثقافات والعادات تأثراً وتأثيراً واضحين في كل واحدة من هذه العناصر ، فللعرب غلبة الدين واللغة وللفرس غلبة أسباب الحضارة من ملبس ومأكل وملعب وبناء وغير ذلك ، ولليونانيين والهنود غلبة الفلسفة والمنطق والطب[2] ، وهكذا صار الطابع الذي يطبع المجتمع البصري مزيجاً من كل هذه الثقافات المتباينة ، وصورة بعدت عن النقاء العربي وصفائه لغة وادباً ونظماً وعادات ، حتى صار الخطأ في الكلام (اللحن) امراً مألوفاً جداً ، كما سبقت الاشارة الى ذلك اكثر من مرة .

اما حياة هذا المصر الثقافية فكانت تشمل مدارس قراءة القرآن وتفسيره[3] ، وحلقات في مساجد اتخذها المعلمون لتعليم الصبيان ، واختص نفر من هؤلاء

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٩٠ ـ ٥٩٧ وفتوح البلدان ٣٤٦ ـ ٣٧٢

(٢) مناقب الترك ٤٢

(٣) البيان والتبيين ١/ ٣١٧ ، ٣٤٥

المعلمين بأبناء الولاة والقواد ، كما اهتم الناس بالشعر وتدوينه ، وظهرت في المساجد مجالس الوعظ والقصص يقوم بها رجال مختصون برعوا في هذا المجال[١] .
كما كان (المربد) وهو سوق في ظاهر البصرة من الاماكن المهمة في حياة البصرة الثقافية ، فقد اتخذه الشعراء ـ اضافة الى كونه سوقاً تجارية ـ ملتقى لهم ينشدون فيه اشعارهم ويسمعون من النقاد آراءهم ، وقد افاد منه اللغويون والرواة كثيراً وذلك للقيهم فيه الاعراب الوافدين من البادية ، واستغله اصحاب المذاهب لمناظراتهم والدعوة لعقائدهم ، اذ وجد في البصرة صراع فكري واضح بين احزاب المسلمين وفرقهم المذهبية[٢]

الكوفة :

اما الكوفة فقد مصرت بعد البصرة بسنتين او ثلاث في خلافة عمر ايضاً ، على يد سعد بن ابي وقاص قائد الجيش العربي لحرب الفرس في العراق ، فاختير مكانها على شاطىء الفرات بحيث لا تفصلها عن العاصمة الاسلامية (المدينة المنورة) فواصل طبيعية ، وكان اول من سكنها ـ بطبيعة الحال ـ هم العرب القادمين مع سعد لحرب الفرس وجلهم من اليمانيين والمضريين[٣] . وسكن الكوفة الى جانب العرب الفرس الذين كانوا يعيشون في هذه المنطقة ، وقد دخلوا الاسلام بعد اندحارهم امام جيش سعد ، وحالفوا العرب فيها ، وكانوا يسمون (الحمراء) [٤] .
وسكن الكوفة ايضاً جماعة من السريان الذين كانوا يستوطنون المنطقة ايضاً . وجماعة من النبط ـ كانوا في المنطقة كذلك ـ يتكلمون الآرامية ، اضافة الى جماعات من يهود ونصارى نجران . وكانت أشيع المهن في الكوفة المصارفة (الصيرفة) ، واشتغل اليهود والنصارى بالربا ، والكوفة منطقة زراعية تعتمد على العناية بالنخيل ولهذا كثر فيها التمارون وهم باعة التمر[٥] .

---

(١) انظر : البيان والتبيين ١/ ٢٨٣
(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٩٠ وما بعدها وانظر : الخليل بن احمد ١٥
(٣) معجم البلدان ٧/ ١٩٦ وانظر تاريخ الطبري ٣/ ٥٩٨
(٤) فتوح البلدان ٢٧٧
(٥) معجم البلدان ٧/ ١٩٦ وفتوح البلدان ٢٧٧ .

واختلفت طبيعة المزيج العنصري في الكوفة عنها في البصرة ، فبقاء العصبيات القبلية في الكوفة وتفاقم روح التفاخر بالنسب والقبيلة ، ورسوخ نظرة الازدراء والاحتقار الى العناصر الاجنبية العاملة فيها[1] ، وما الى ذلك من صور الوضع الطبقي في المجتمع الكوفي ، كل ذلك عقد عملية الاندماج والانصهار التي كان ينبغي ان تتم بين هذه الاقوام ، خلافا لما تم منها في البصرة التي قد يكون طابعها التجاري مما سهل عملية الانصهار هذه[2] .

وتشبه الحياة الثقافية في الكوفة اختها في البصرة من عدة وجوه ، أهمها العناية المشتركة بتدارس القرآن وقراءاته ، ففيها ثلاثة من القراء السبعة هم عاصم وحمزة والكسائي . وبالفقه واصوله اذ اختصت الكوفة بمذهب ابي حنيفة الفقهي . وبالشعر وروايته وصنعة دواوينه ونقده وتقويمه ، الا ان الكوفة اتسعت برواية الاشعار وأقوال العرب مقابل اتساع البصرة بدراسة الفلسفةوعلم الكلام . وكون البصرة مرفأ تجارياً مزدحماً بالعناصر الاجنبية ، وقريباً من مدرسة (جنديسابور) التي كانت تدرس فيها الثقافات اليونانية والفارسية والهندية ، وفيها - اي البصرة - مترجمون امثال (ماسرجويه) الذي ترجم كتاباً في الطب بطلب من عمر بن عبدالعزيز ، وابن المقفع (ت ١٤٣) الذي يعرف الفارسية وقد ترجم منها كتباً ، وترجم من الهندية (كليلة ودمنة) وترجم - كما زعموا - منطق ارسطو طاليس[3] ، اقول : ان كل ذلك في البصرة ساعد على نضج الدراسات العقلية والفلسفية والكلامية ، التي كانت تغذيها ايضا الصراعات المذهبية بين الطوائف الاسلامية ، وذلك ما تفتقر اليه الكوفة التي كانت من الناحية الجغرافية اقل اهمية من البصرة ومن الناحية الطبقية اكثر حساً بها واعمق شعوراً بالتفوق العربي ، كما كانت منزل الصحابة والمحدثين الذين قصدوها من حواضر الحجاز ، وسكن الرواة واصحاب الاخبار والايام والشعراء ، ولهذا غلب على درسها الاهتمام بالرواية والنقل وقل النظر في العقليات والمنطق . واذ تكون البصرة هي السباقة الى وضع الضوابط النحوية

---

(١) انظر : شذرات الذهب ١٠٨/١
(٢) مدرسة الكوفة ١٢ وما بعدها .
(٣) المدارس النحوية ٢٠ وانظر : طبعة عزام للكتاب (مقدمة المحقق) .

الاولى . لم تتأخر الكوفة عن هذه البداية بداية الدرس اللغوي الا قليلاً ، فابو جعفر الرؤاسي (ت ١٨٧) صاحب كتاب (الفيصل) في النحو ، الذي يعد من اوائل شيوخ الكوفة واستاذ الكسائي (ت ١٨٩) كان تلميذاً لعيسى بن عمر وابي عمرو بن العلاء اللذين كانا من شيوخ البصرة ، وكذلك معاذ الهراء (ت ١٩٠) استاذ الفراء (ت ٢٠٧) الذي وجه عنايته للتصريف كان تلميذاً للبصريين المذكورين والخليل ويونس[١] . ومثل الرؤاسي والهراء تلميذاهما الكسائي والفراء في التلمذة للخليل ويونس في البصرة .

نخلص من هذا الفصل الذي عرضنا فيه لأهم المؤثرات التي ساعدت على نشأة الدرس اللغوي ، الى ان العربية الفصيحة قد طرأ عليها اللحن والخطأ ، وزاد هذا اللحن بمرور الايام فشمل القرآن ولغة المحادثة ، مقترباً بالالسنة شيئاً فشيئاً الى عامية بعدت عن الفصحى ، فتصدى الساسة الى الوقوف بوجه هذا التيار بما يملكون من حول ، كما تصدى الشعر لذلك ، غير ان المجتمعات الحديثة التي تكونت في البصرة والكوفة وما كان فيها من اختلاط لغوي وعنصري وثقافي فرض على اولي الامر والمعنيين دراسة هذا الامر دراسة جادة ، والقيام بوضع الضوابط اللسانية الاولى التي من شأنها ان تعصم الافواه من الخطأ . فخدمة القرآن مصدر التشريع الاول ثم صون العربية لغة الشعر والكلام هما الدافعان الرئيسان لنشأة الدرس اللغوي ، ورغبة الحكام وظهور المجتمعات الجديدة هما المحفزان المباشران لقيام هذا الدرس .



(١) الفهرست ١٠٢ ومراتب النحويين ٢٤ وطبقات النحويين واللغويين ١٣٥ ونزهة الالباء ٥٤ .

الفصل الثاني

طلائع الدرس اللغوي

- مقدمة
- النقط والاعجام والشكل
- النحو وضعه وواضعه
- الرواية والرواة
- اختلاط الدراسات اللغوية وانفصالها
- الاصالة والتأثر في الدرس اللغوي



كادت معارف العرب في الجاهلية تكون مقتصرة على الشعر وحفظه والخطب والامثال وروايتها ، واخبار حروبهم وايامهم والتفاخر بانسابهم ، وعندما جاء الاسلام وسع هذه المعارف وزادها بافكار القرآن وتشريعاته وما تضمنه من احكام ومنهج واصول وفروع . ومنذ نزول القرآن بدأت عناية المسلمين به تفسيراً وجمعاً وضبطاً ودراسة ، واذا تجاوزنا ما كان يقوم به الرسول (ص) وصحابته من تفسير الآيات وتوضيح مراميها وتيسير معانيها للمسلمين ، يكون العمل المنسوب لابن عباس بجمع غريب القرآن وشرحه في كتابه (غريب القرآن) اول ما وضع في هذا المجال . وكان اهتمامهم بجمعه وتوحيد نصه واضحاً في اشارة عمر بن الخطاب على ابي بكر بجمع متفرق القرآن ، فجمع من جريد النخل وصدور المسلمين الجمع الاول ، ثم اتم هذا العمل عثمان بتوحيد نصه وتعميمه على الامصار واحراق سائر نسخه الاخرى ، ليكون النص القرآني الموحد عاملاً في توحيد كلمة المسلمين من التفرق الذي يسببه اختلاف مصاحفهم .

النقط والاعجام والشكل

رأى المسلمون ـ حفاظاً على لغة التنزيل من اللحن ـ ان يصان القرآن بالضبط ، فتصدى زياد ابن ابيه وكان يومئذ والياً على العراق للقيام بهذه المهمة ، فطلب من ابي الاسود الدؤلي (ت ٦٩) ان يعمل على ضبط القرآن ، فاعتذر ابو الاسود بادىء الامر لما كان بينه وبين زياد من جفاء ، ثم وافق على القيام بما عهد

اليه ، فوضع نقطه الاعرابي للقرآن متخذاً لذلك كاتباً فطناً حاذقاً من بني عبد القيس ، وقال له : « اذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على اعلاه ، وان ضممت شفتي فانقط نقطة بين يدي الحرف ، وان كسرت شفتي فاجعل النقطة من تحت الحرف ، فان اتبعت شيئاً من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين . وابتدأ ابو الاسود المصحف حتى اتى على آخره، بينما كان الكاتب يضع النقط بصبغ يخالف لونه لون المداد الذي كتبت به الآيات[1] » ، وسمي هذا العمل (رسم العربية) .

واشاع تلاميذ ابي الاسود من قراء القرآن هذا العمل ، وهم نصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز ويحيى بن يعمر وعنبسة الفيل وميمون الاقرن ، فهؤلاء « نقطوا المصحف واخذ عنهم النقط وحفظ وضبط وقيد وعمل به واتبع فيه سنتهم واقتدي فيه بمذاهبهم[2] » ويبدو ان فكرة النقط لم تكن جديدة كل الجدة ، فقد كان لاهل المدينة وأهل مكة نقطان يختلفان عن نقط ابي الاسود تركوه واخذوا بنقط ابي الاسود الذي سمي احياناً بنقط البصرة[3] . ويبدو ايضا ان يحيى بن يعمر (ت ١٢٩ هـ) ونصر بن عاصم (ت ٨٩هـ) « اول من نقط للناس بالبصرة ، واخذوا ذلك من ابي الاسود اذ كان السابق الى ذلك والمبتدىء به[4] » . ويبدو ان عبارة ابي الاسود لكاتبه (ضممت شفتي وفتحتها وكسرتها) هي الواضعة لمصطلح الضمة والفتحة والكسرة[5] .

وعندما استتب الامر لهذا النقط في قراءة الناس للمصحف ، برزت مشكلة جديدة للمسلمين ـ على الاخص من غير العرب ـ في قراءة القرآن ، الا وهي مشكلة التمييز بين الحروف المتشابهة في الرسم ، ذلك لأن السليقة لم تعد تسعف القارىء في التمييز بين الحروف المعجمة والمهملة ، فتصدى الحجاج وكان يومئذ والياً على

(١) المحكم في نقط المصاحف ٣ وايضاح الوقف والابتداء ١/ ٤١ وانباه الرواة ١/ ٥ واخبار النحويين البصريين ١٦ .
(٢) المحكم ٦ .
(٣) المحكم ٧ ـ ٩ .
(٤) المحكم ٦ .
(٥) المحكم ٤٣ وشرح المفصل ١/ ٧٢

العراق للقيام بهذه المهمة ، فندب لذلك ـ على خلاف في الروايات ـ نصر بن عاصم الليثي (ت ٨٩) تلميذ ابي الاسود ، وطلب منه ان يعمل على حل هذا الاشكال[١] ، فوضع نقطاً جديداً على حروف المصحف يميز بين الاحرف المتشابهة في الرسم ، منسقاً بين مجموعات الحروف ناقطاً بعضها من فوق وبعضها من تحت ، حتى استكملت الحروف اعجامها وهو المعروف الى اليوم ، وسمي هذا النقط (نقط الاعجام) ، وبنقط ابي الاسود الاعرابي ونقط نصر الاعجامي استطاع المسلمون ان يحصنوا القرآن بحصن منيع من اللحن والخطأ .

وجاء الخليل بن احمد (ت ١٧٥) فطور نقط ابي الاسود ، وذلك بتغييره الى علامات اكثر دلالة على الاعراب ، فجعل للفتح الفاً مائلة فوق الحرف وللضم واواً صغيرة فوق الحرف ايضاً وللكسر ياء صغيرة تحت الحرف وللتشديد شيناً صغيرة وللتخفيف خاء صغيرة ايضاً[٢] ، وزاد هذه العلامات فوضع الهمز والروم والاشمام[٣] ، منطلقاً في ذلك من رأيه بان هذه العلامات انما تمثل الحروف التي اخذت منها ، وهي زائدة تلحق السواكن معينة للنطق بها[٤] . ونسب للخليل كتاب خاص في النقط وعلله واحكامه ، كما نسب لابي الاسود من قبله مختصر في ذلك[٥] .

وقد توالت كتب العلماء في النقط من بعدهما حتى وقفنا على عشرة كتب الفت خلال الفترة التي نحن ندرسها (القرون الثلاثة الاولى) ولم تصل جميعاً ، وهي كتب : ابي الاسود (ت ٦٩) والخليل (ت ١٧٥) وابي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي (ت ٢٠٢) وابي اسحاق ابراهيم بن يحيى اليزيدي (ت ٢٢٥) وابي عبدالله محمد بن يحيى اليزيدي (ت ٢٢٧) وابي عبدالرحمن عبدالله بن يحيى اليزيدي (ت ٢٣٧) وابي اسحاق ابراهيم بن سفيان الزيادي (ت ٢٤٩هـ) وابي عبدالله محمد بن عيسى الاصبهاني (ت ٢٥٣) وابي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥)

---

(١) التصحيف والتحريف لابي احمد العسكري ١٠ وقال : امر الحجاج نصر بن عاصم او يحيى بن يعمر .
(٢) المحكم ٧ .
(٣) المقنع ١٢٥ .
(٤) انظر : كتاب سيبويه ٢/ ٣١٥ .
(٥) المحكم ٩،٤ وانظر : وهم الانباري في عده هذا المختصر تأليفاً في النحو : نزهة الالباء ٥ .

وابي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢)[١]. كما لم تصل كتب من الف بعد هؤلاء (بعد القرن الثالث)[٢] سوى كتاب ابي عمرو الداني (ت ٤٤٤) المسمى (المحكم في نقط المصاحف) الذي نقل لنا آراء هؤلاء السابقين وذكر لنا تواليفهم[٣] .

وكان الدافع الى النقط ـ كما اشرنا ـ هو صون القرآن من اللحن الذي انتشر على السن الناس واخذ يتفاقم بمرور الايام حتى خشي على لغة التنزيل ان يصيبها من ذلك شيء يفسد احكامها وتشريعاتها ، يقول ابو عمرو الداني موضحاً ذلك : « ان الذي دعا السلف رضي الله عنهم الى نقط المصاحف ما شاهدوه من اهل عصرهم ، مع قربهم من زمن الفصاحة ومشاهدة اهلها ، من فساد السنتهم واختلاف الفاظهم وتغير طباعهم ، ودخول اللحن على كثير من خواص الناس وعوامهم ، وما خافوه مع مرور الايام وتطاول الازمان من تزيد ذلك وتضاعفه فيمن يأتي بعد ، ممن هو لا شك في العلم والفصاحة والفهم والدراية دون من شاهدوه ممن عرض له الفساد ، ودخل عليه اللحن ، لكي يرجع الى نقطها ويصار الى شكلها ، عند دخول الشكوك، وعدم المعرفة ، ويتحقق بذلك اعراب الكلم ، وتدرك به كيفية الالفاظ[٤] » .

ويجدر بنا ان نذكر ان النقط والشكل كانا معروفين لدى غير العرب من الساميين وغير الساميين فاللغة اليونانية القديمة عرفت الشكل في الحروف[٥] ، ونقط السريان مصاحفهم وكتبهم المقدسة احترازاً من الخطأ في تلاوتها ، فالخطأ فيها يستلزم الكفر ، فأبدعوا النقط فوق الحروف او تحتها ، وهذا في الخط السرياني المعروف بالسطر نجيلي ، وهو يشبه قلم المصاحف عند المسلمين[٦] . ومثل السريان ما فعله العبرانيون ، فقد نقطوا توراتهم وضبطوا كتبهم الدينية ايضا[٧] . فكانت

(١) انظر : المحكم ٤ , ٩ والفهرست ٣٥ ، ٥٨ وانباه الرواة ١/ ١٦٧ ، ٣٤٦ ، ٣/ ٢٤٠ ومعجم الادباء ١/ ١٦١ ، ١١/ ٧٥ ، ٢٠/ ٣١ وبغية الوعاة ١٩٠ .

(٢) انظر المحكم ٩ , ٢٣ والفهرست ٣٥ وانباه الرواة ٢/ ٢٩٥ .

(٣) هو كتاب مطبوع بدمشق سنة ١٩٦٠ م بتحقيق الدكتور عزة حسن .

(٤) المحكم ١٨ ـ ١٩ .

(٥) البحث اللغوي عند العرب ٤٤ .

(٦) الفهرست ١٢ .

(٧) انظر : تاريخ اللغات السامية ١٠٣ ودروس اللغة العبرية ٦٥ وفقه اللغة ٥٣ .

الدوافع الى النقط في هذه اللغات جميعاً واحدة ، وقد تمت في ظروف متشابهة متبعة طريقة موحدة[1]

النحو : وضعه وواضعه

اشرنا الى ان النحو العربي نشأ بسبب الزيغ الذي طرأ على السنة العرب والخطأ في تلاوة القرآن الكريم ، وذلك بعد اختلاط العرب بغيرهم من الامم الاعجمية ، ولا سيما في الاقطار المجاورة للجزيرة ، ونشأة المجتمعات الكبيرة التي جمعت اخلاطاً مختلفة من الناس ، فنشأ من هذا الاختلاط في الحياة والاجتماع الاختلاط اللغوي وطروق الفساد على السنة العرب وابنائهم الناشئين في مثل هذه المجتمعات ،وفي طليعة ذلك مجتمعات البصرة والكوفة وبغداد ،ولما كانت البصرة اول مدينة مصرت في الاسلام وفي العراق كانت اسبق الى هذا الاختلاط وانتشار الخطأ والفساد في الالسنة فكانت الداعية فيها الى نشأة ضوابط لسانية تصون السنتهم من الخطأ في المنطق وفي التلاوة القرآنية اشد ، ولهذا قام الغيارى على هذه اللغة وعلى لغة التنزيل بالمبادرة الاولى في وضع هذه الضوابط .

غير ان العلماء والمؤرخين اختلفوا في الاولين الذين سبقوا الى هذا الوضع ، ولكننا اذا تتبعنا كتب التراجم وما ذكره الرواة القريبون الى هذا العصر ، نجد ان كثرتهم تنسب الوضع الاول الى ابي الاسود الدؤلي ، واختلفوا في الواضعين الآخرين اختلافات كثيرة ، كما انهم حين ذكروا ابا الاسود باعتباره الواضع الأول لم يذكروه على الوجه القطعي ، أكان الوضع من نفسه او باشارة من سواه ، وقد ذكرت طائفة من الرواة انه فعل ذلك باشارة من الامام علي ، كما انهم اختلفوا في ابي الاسود أكان واضعا لقواعد نحوية لم تكن من قبل ام انه دوّن ما كان معروفاً منها ؟ حيث ان كثيراً من اولئك الرواة نسبوا اليه وضع (العربية) على وجه مطلق ، فقالوا : انه اول من وضع العربية . وعلى اعتبار ان ابا الاسود قد اعرب القرآن على عهد زياد بن ابيه بالنقط رفعاً ونصباً وجراً وجزماً بالعلامات الفارقة التي وضعها فوق الحرف او اسفله او بين يديه ـ كما مر قبل قليل ـ قالوا من هذا ان ابا الاسود وضع

(١) المحكم (مقدمة المحقق) ٢٩ .

العربية[1] . والى جانب هذا ذهب غير قليل من الباحثين العرب والمستشرقين الى ان ابا الاسود لم يضع القواعد بل جاء عمله هذا منبهاً للأذهان الى وضع تلك القواعد ، حيث ان الناس عندما وجدوا لفظة ترفع بحسب النقط تساءلوا عن سبب رفعها ، او تنصب تساءلوا عن سبب نصبها وهكذا في الحالات الاخرى ، فجرهم هذا الى معرفة ما يرفع من الالفاظ وما ينصب ويجر ويجزم والتمييز بين ذلك ، ثم الى وضع القواعد في هذه المسائل ، وعلى رأى هؤلاء ان القواعد وضعت متأخرة عن عهد ابي الاسود[2] . ولكن اكثر الرواة المتقدمين لا يقرون مثل هذا لأنه ليس هناك ما يؤيده من سند تاريخي سوى الاجتهاد والحدس والتخمين .

ولما كان ابو الاسود قد اقام بالبصرة بعد تمصيرها وعين فيها قاضياً او كاتباً قبل ذلك لعبدالله بن عباس على عهد عمر بن الخطاب ، شهد تطور هذه المدينة وتوسع المجتمع الاسلامي فيها وتزايد اختلاط العرب بغيرهم من الامم التي بدأت تدخل الاسلام ، وكان كلما تكامل فتح العراق واخذ العرب يدخلون الى بلاد العالم فاتحين وتدخل طوائف منه في الاسلام ، كان اكثر هؤلاء ـ من سكان العراق السابقين او الطارئين بواسطة الفتح ودخولهم في الاسلام ـ يؤثرون الاقامة في البصرة ، وكان هذا من اسباب تضخم المجتمع الاسلامي فيها . وبعد ان انتقل ابن عباس الى الحجاز وكل امرها الى ابي الاسود ، فكان ابو الاسود عاملا عليها في اواخر خلافة عمر وعثمان ، ثم بعد ذلك لما كانت في عهد عثمان في السنين العشر الثانية الفتنة المعروفة واختلاف المسلمين وقتل عثمان وخروج معاوية بعد ولاية الامام علي انضوى ابو الاسود الى الامام علي وحارب تحت لوائه وابلى في حروبه بلاء حسناً ، وبطبيعة الحال فان الامام عليا بعد ان استتب له الامر في العراق ابقى ابا الاسود الدؤلي عاملا عليها[3] .

ومن هذا نعلم ان ابا الاسود عاش في البصرة ردحاً غير قليل من الزمن وشهد هذا التطور في حياة البصرة الاجتماعية والعمرانية والثقافية ، ورأى كذلك ما

(1) انظر : اخبار النحويين البصريين ١٦ وانباه الرواة ١/ ٥ ومعجم الادباء ١٤/ ٤٩ وبغية الوعاة ٢/ ٢٢ .

(2) انظر مثلا : د . شوقي ضيف : المدارس النحوية ١٦ .

(3) الشعر والشعراء ٢/ ٦١٥ وبغية الوعاة ٢/ ٢٢ .

طرأ على العربية والسنة العرب من انحراف عن الفصحى بشيوع الاخطاء وازدياد الفساد اللغوي ، حتى القرآن الكريم لم يسلم من الخطأ في التلاوة فيه . وبخاصة ابناء العرب الناشئين في هذه المدينة ناهيك عن غيرهم ممن تعلم العربية وهو من غير اهلها ، حتى ابنته لم تسلم من هذا الخطأ ، وأشرنا الى قصتها المعروفة في الخطأ في اعراب فعل التعجب . وقد كان ابو الاسود من اشد ما يكون حرصاً على لغة التنزيل ولغة العرب ، فبعثه ذلك على ان يضع ضوابط لسانية لكل ما يسمع من خطأ ، وكان من جملة ما وضع ما يرفع وما ينصب وما يجر من الاسماء ، والافعال وادوات النصب والجر . ويذكر ابو حرب بن ابي الاسود عن ابيه انه كان كلما سمع لحناً وضع له تصحيحاً . ولما نزل الامام علي البصرة ورأى خطأ الناس في كلامهم خشي على الفصحى وعلى لغة التنزيل من الفساد ، لأن الجملة العربية تختلف بحسب إعراب اجزائها ، فاذا اخطأ المخطىء في ذلك فات القصد واختلف المعنى كما في جملة التعجب التي سقناها مثلا عند الكلام على اهمية الضبط ، وامثالها كثيرة في سائر الجمل . فاذا لم تضبط اجزاء الجملة ضبطا اعرابيا صحيحا اختل المعنى ، واذا كان مثل هذا يقع في القرآن الكريم فان معنى الآية يتغير ويتغير القصد والحكم وفي ذلك افساد للشرع وتضليل في الدين ، كما في الآية التي سمعها ابو الاسود وكان قارىء يقرأ على قارعة الطريق : (إن الله بريءٌ من المشركين ورسولِه) بكسر اللام من رسوله ، وتكون بهذا معطوفة على المشركين ، والمعنى : إن الله بريءٌ من المشركين وبريءٌ من رسوله وهذا عكس المعنى المقصود . فلما سمع ابو الاسود ذلك هاله الامر وقال : حاشا لله ان يبرأ من رسوله ، وزجر القارىء وافهمه الصواب[1] .

فالامام علي - كما يبدو من استقراء الاخبار - احس بهذا الخطر الداهم على اللغة ، كما شعر به من قبل ابو الاسود ، فقال له : اني سمعت ببلدكم هذا لحناً من مخالطة العرب لهذه الحمراء ويريد بهم الفرس ، ويقال : ان الامام علياً اخرج من تحت بساطه صحيفة كتب بها ايضا بعض ما سمع الناس يلحنون به وتصحيح ذلك ، ووضع لهذا بعض الضوابط في تقسيم الكلمة الى اسم وفعل وحرف ،

(١) الفهرست ٦٦ واخبار النحويين البصريين ١٢ ومراتب النحويين ٨ ونور القبس ٤ ونزهة الالباء ٣ وانباه الرواة ٥/١ .

والاسم الى ظاهر ومضمر ، وتقسيمات اخرى ، وتعاريف بعض الالفاظ مما يرفع او ينصب او يجر ، وقرأها ابو الاسود ، وقال الامام له : ضع ما هو على غرارها وانحُ هذا النحو فسمي هذا العلم نحواً . ثم ان ابا الاسود توسع بما وضع ثم عرضه على الامام واستحسن الامام ما عمل ، ولما نظر في ادوات النصب لم يجد فيها (لكنَّ) فقال له : واين لكنَّ ؟ فقال أبو الأسود : ما كنت احسب انها منها . فقال : بلى هي منها ، وجمع بعد ذلك ما وضعه وتوسع فيه حتى كان من ذلك مجموعة دونها في الصحائف سميت بـ (التّعليقة)[1] .

هذا ما كان من أمر الوضع . أما الواضع فأكثر الروايات على ان ابا الاسود هو البادىء بوضع هذا العلم ، وهو كذلك البادىء بتدوين شيء من اصوله وضوابطه ، وقد قام بعد ان وضع نواته بتدريس تلك الاصول لطلابه ، وعمل على توسيع هذا العلم وانمائه بحسب ما اقتضته الحاجة التي دعت الى ذلك بسبب فساد الالسنة وكثرة اللحن ، فاشتهر فريق من النابهين من اولئك الطلاب بوضع شيء من القواعد اضافة الى ما وضع ابو الأسود ، ومن ثم ذكرت روايات عدة نسبة النحو الى سواه ، منهم : عيسى بن عمر الثقفي وعبد الله بن ابي اسحاق الحضرمي وعنبسة بن معدانْ الفيل وابو عمرو بن العلاء والخليل بن احمد الفراهيدي وغيرهم[2] . وقبل ان نناقش هذه الروايات ونصل الى من كان الواضع الاول لهذا العلم نذكر شيئاً من هذه الروايات الكثيرة التي اوردت نسبة النحو :

قال محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣٢) : « وكان اول من اسس العربية وفتح بابها وانهج سبيلها ووضع قياسها ابو الاسود الدؤ لي » . ثم قال : « ووضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر والرفع (كذا) والنصب والجزم » . ثم قال بعد ذلك : « ثم كان بعده ابن ابي اسحاق الحضرمي ، فكان اول من بعج النحو ومد القياس والعلل[3] » .

---

(١) الفهرست ٤٥ ونزهة الالباء ٥ وانباه الرواة ١/ ٤ ومعجم الادباء ١٤/ ٤٩ .

(٢) ابن جني النحوي ٩٥ وما بعدها .

(٣) طبقات الشعراء (المقدمة) ص ٥ .

وقال عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦) : « وهو - يريد ابا الاسود - يعد في الشعراء والتابعين والمحدثين والبخلاء والمفاليج والنحويين لأنه اول من عمل في النحو كتاباً[١]».

وقال ابو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥) : « اول من وضع العربية ونقط المصاحف ابو الاسود ، وسئل عمن ارشده الى الوضع في النحو فقال : تلقيته عن علي[٢] ».

وقال ابو الطيب اللغوي (ت ٣٥١) : « كان أول من رسم النحو ابو الاسود الدؤ لي ، اخذ ذلك عن أمير المؤ منين علي بن ابي طالب ، وكان أعلم الناس بكلام العرب ، وابو الاسود اول من نقط المصحف واختلف الناس اليه يتعلمون العربية ، وفرع لهم ما كان اصله[٣] ».

وقال ابو سعيد السيرافي (ت ٣٦٨) : « اول من وضع العربية ابو الاسود الديلي[٤] ».

وقال محمد بن اسحاق النديم (ت ٣٨٠): زعم اكثر العلماء ان النحو اخذ عن ابي الاسود الدؤ لي ، وان ابا الاسود اخذ ذلك عن امير المؤ منين علي بن ابي طالب » . وروى عن ثعلب بخط ابن مقلة انه قال : « روى ابن لهيعة عن ابي النضر قال : « كان عبدالرحمن بن هرمز اول من وضع العربية » . وقال : « قال آخرون : رسم النحو نصر بن عاصم الدؤ لي ويقال الليثي[٥] ».

وقال ابو البركات الانباري (ت ٥٧٧) في جملة رواياته : إن ابا الاسود شكا فساد السنة العرب الى الخليفة عمر بن الخطاب وهو الذي امره بوضع النحو وهي رواية ضعيفة لم يؤ يدها الكثير . غير انه مما ذكروه في هذا ان الخليفة عمر بعث

(١) الشعر والشعراء ٢/ ٦١٥ وانظر : الاغاني (ساسي) ١١/ ١٠٢ واسد الغابة ٣/ ٧٠ .

(٢) المحكم في نقط المصاحف ٦ - ٧ وطبقات النحويين واللغويين ١٣ والاصابة ٢/ ٢٤١ .

(٣) مراتب النحويين ٦ - ١٠ .

(٤) اخبار النحويين البصريين ١٦ ومعجم الادباء ١٢/ ٣٤ .

(٥) الفهرست ٤٥ .

بكتاب الى عامله ابي موسى الاشعري يوصيه فيه ببعض الوصايا ليأخذ الناس بها ، منها التدريب على الفروسية ومراجعة شعر العرب ، ويقول في آخرها « وليعلّم ابو الاسود الناس العربية[١] ». يعضد مذهبنا ان ابا البركات الانباري صرح في موضع آخر برأي يخالف هذا فقال : « .لا ان أول من وضع قواعد اصوله (اي النحو) ونبه على فروعه وفصوله ذلك الحبر العظيم علي بن ابي طالب[٢] ».

وقال القفطي (ت ٦٤٦) : « ان ابا الاسود هو أول من استنبط النحو واخرجه من العدم الى الوجود وانه رئي بخطه ، فاستخرجه ولم يعزه الى احد ممن قبله ، وممن قال ذلك محمد بن اسحاق المعروف بابن النديم ، وكان كثير التفتيش عن الأمور القديمة كثير الرغبة في الكتب وجمعها[٣] ».

وذكر غير هؤلاء من الرواة كابن خلكان نسبة النحو الى يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم ايضاً . ولكن الاكثر كما اشرنا ورأينا هي نسبته الى ابي الاسود ، ويليها الروايات التي تنسبه الى ابن ابي اسحاق وعبدالرحمن بن هرمز وعيسى بن عمر . ومن جاء بعد اولئك الرواة لم يخرجوا عن الروايات السابقة كابن حجر والسيوطي وابن عساكر[٤] .

وذهب ابن فارس (ت ٣٩٥) الى ان النحو كان من معارف العرب القديمة ، غير انهم لم يكونوا في حاجة دافعة اليه بسبب سلائقهم السليمة ، حتى ترك وبخاصة بعد الاسلام مباشرة ، حيث شغلوا بالدين وبالفتوحات فنسيه الناس ، حتى جاء ابو الاسود فبعثه من جديد[٥] . وهو رأي لا يؤ يده دليل من سند تاريخي او منطقي ، وهو مثل زعمه ان العروض كان من معارف العرب القديمة ايضاً فتركوه حتى جاء الخليل فأحياه ، ورأيه في العروض كرأيه في النحو لا يستند ايضاً الى أي

(١) نزهة الالباء ٥ وما بعدها وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/ ١١٠ والتحفة البهية والطرفة الشهية ص ٤٩ .

(٢) لمع الادلة ٩٧

(٣) انباه الرواة ١/ ٧

(٤) وفيات الاعيان ٢/ ٢١٦ والاصابة ٢/ ٢٣٣ وطبقات النحويين واللغويين : ١٥ وبغية الوعاة ٢/ ٢٢ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/ ١١٠ .

(٥) الصاحبي في فقه اللغة ١٠

سند تاريخي او منطقي ، الا اذا كان المقصود من ذلك ان النحو كان سليقة عند العرب لا يحتاجون معها الى وضع ضوابط نحوية ، وكذلك العروض .

اما المتأخرون من المستشرقين والعرب فذهب كثير منهم الى ان ابا الاسود لم يضع العربية ويبدأها ضوابط وقواعد[1] ، وان ما نسب اليه من وضع هذه الضوابط والتفصيلات او ما أشار عليه به الامام علي من تقسيم الكلمة الى اسم وفعل وحرف ، وتقسيم الاسم الى ظاهر ومضمر وما ليس بظاهر ومضمر لا يمكن ان يصدق ، حيث زعموا ان هذه التقسيمات هي تقسيمات منطقية لا تنسجم وعقلية العرب في أول عصر الثقافة التي بدأوها ، وان هذه التحديدات والتعريفات والتقسيمات انما نشأت بعد ذلك ، اي بعد تطور الفكر العربي وتأثير الفلسفة والمنطق اليوناني على العقلية العربية ، ومعرفة شيء من اصول اللغات القديمة ، وجاءت بعض هذه القواعد لها مشابهات من تلك الاصول . فاليونانية ايضاً تقسم الكلمة الى اسم وكلمة ورباط ، والرباط هو الذي يربط بين مفردات الجمل كالحرف . ومن هذا ذهبوا الى ان ابا الاسود نبه الاذهان الى وضع العربية وذلك بسبب ما قام به من نقط المصحف ، حيث وضع اشارات الى ما يرفع وينصب ويجر ويجزم من الكلمات ، فقالوا ان ابا الاسود اعرب القرآن ، وصار الناس اذا تساءلوا عن لفظة ترفع وسبب رفعها ، او تنصب وسبب نصبها ، قالوا العربية ان تكون كذا ، ومن ثم نعتوا ابا الاسود بأنه وضع العربية .

الا ان هذا الرأى لا يسنده دليل مقبول ، بل دلت المصادر القديمة على عكس ما ذهب اليه اصحاب هذا الرأي ، فقد وجدنا من عرضنا لاغلب المصادر القديمة انها تنص على ان ابا الاسود وضع ضوابط نحوية اولية باشارة من الامام في صحيفته المعروفة بالتعليقة ، وهو عمل مستقل عن وضعه النقط في القرآن ، واذا كنا ـ ونحن نتأخر عن زمن وضع ابي الاسود للنحو هذه القرون الطويلة ـ لا نملك غير هذه المصادر القريبة العهد من ابي الاسود ، فلا يسعنا تجاوز ما اجمعت عليه في

---

(١) من هؤلاء : بروكلمان وليتمان وجوزيف بلانش وجرجي زيدان واحمد امين وشوقي ضيف . انظر : ضحى الاسلام ٢/ ٢٨٧ والمدارس النحوية ١٦ ومجلة البلاغ العدد ٩ السنة الاولى .

هذا الخصوص . واما ما يتصل بالاثر اليوناني في تقسيم الكلمة العربية ، فلنا معه وقفة طويلة قادمة .

ومن الغريب ان يستكثر احد الباحثين على الامام علي ان يلتفت الى ضرورة وضع ضوابط نحوية ، بقوله وهو يقصد الامام : « وكأنه لم يكن مشغولاً حين ذهب الى العراق والكوفة ، باعداد الجيوش لحرب معاوية ، ولا كان مشغولاً بحروب الخوارج انما كان مشغولاً بالنحو ووضع رسومه واصوله وفصوله[1]» . فالامام علي - كما يعلم الباحث - نزل البصرة في حرب الجمل ، ويعلم ما كان عليه اللحن في البصرة آنذاك ، فلماذا يستبعد ان يكون الامام قد سمع شيئاً منه في افواه الناس وفي قراءة القرآن ، فتنبه الى ضرورة تقويم هذه الافواه بوضع ضوابط لغوية تعصمها من اللحن ، وكان ابو الاسود اقرب واولى من يقوم بهذه المهمة لصحبته لعلي واهتمامه بالقرآن . اضف الى ذلك ان هذا الوضع الاول للنحو كان لا يخرج عن التعريفات الاولية . والتقسيم الساذج مما تفرضه طبيعة البدء ، ولم يكن « وضع الرسوم والاصول والفصول » كما عبّر الباحث الكريم .

ثم يحاول هذا الباحث ان يجد تفسيراً لنفيه هذه القالة القديمة ، وتعليلا للروايات التي دارت حولها فيقول : « وقد يكون ذلك من صنع الشيعة ، وكأنهم ارادوا أن يضيفوا النحو الى شيعي قديم ، فارتفع به بعضهم الى علي بن ابي طالب ووقف به آخرون عند ابي الاسود صاحبه الذي كان يتشيع له»[2] . وغريب ان يفوت الباحث المدقق ان جل من نسب وضع النحو الى ابي الاسود - بدافع منه او باشارة من الامام عليه - لم يكن شيعياً ، ووقوف عاجل على مؤلفيّ المصادر القديمة التي ذكرت ذلك ، يوضح ما اذهب اليه . وعدا ذلك فانه لا يمكن ان يقال عن الامام بأنه « شيعي قديم » لأن الشيعة - في البحث التاريخي - مصطلح خاص اطلق على من تشيع للامام لا على الامام نفسه ، وعليه يكون نعت ابي الاسود بذلك صحيحاً .

(١) شوقي ضيف : المدارس النحوية ١٤ .

(٢) المدارس النحوية ١٥ .

الرواية لغة : الاستقاء والاتيان بالماء ، يقال : رويت على اهلي ولا هلي ريا أي اتيتهم بالماء[1] . والراوية : المزادة فيها الماء ، والبعير لحمله المزادة . وبانتقال مجال الدلالة تطورت اللفظة فاطلقت على سراة القوم وسادتهم فهم الروايا واحدهم راوية ، لحملهم الديات على الحي بالبعير الراوية ، ثم دخلت الرواية ميدان النقل الشفوي ، يقال : روى الحديث يرويه رواية ، وروى الشعر يرويه بمعنى حمله ونقله[2] .

فالرواية بالمعنى الاصطلاحي هذا عملية جمع المادة اللغوية من أفواه العرب الفصحاء ، بالذهاب اليهم في بواديهم او بلقيهم في الحواضر ، ثم نقل ذلك للدارسين من الطلاب . وعلى هذا الاساس فانها لم تبدأ قبل نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني . اما الرواية بشكلها الجاهلي القديم الذي استمر الى ما بعد الاسلام ، المتمثلة برواية الشعر وحفظه ورواية اخبار العرب وايامهم ، في (عكاظ) او في المجالس والندوات ، فانها ليست مما تعنيه الرواية اللغوية اصطلاحاً ، وان كانت تمثل الجذور الاولى لنضج الرواية فيما بعد . وعليه فلا يمكننا اعتبار ابي الاسود وتلاميذه من رواد الدرس اللغوي رواة بهذا المعنى لعدم قيامهم بمشافهة العرب بقصد استقراء لغتهم .

ودفعت للرواية دوافع مختلفة ، منها التفسير اللغوي للقرآن ومن أمثلته القديمة ما كان يفعل ابن عباس عند تفسيره الفاظ القرآن من استشهاده بالشعر[3] ، وكذلك عبدالله بن مسعود[4] ، وان تأخرت الرواية اللغوية عن عصرهما ، ومنها التفسير اللغوي للشعر[5] ، والتفسير اللغوي للحديث وغريبه ، فاستخدم اهل الحديث الرواية اللغوية في درسهم بعد ان اخذت الرواية اللغوية شروط رواية الحديث ،

---

(١) لسان العرب ١٤/ ٣٤٧ .

(٢) تاج العروس ١٠/ ١٥٨ .

(٣) انظر : الجامع لاحكام القرآن ١/ ٢٤ . .

(٤) انظر : تفسير الطبري ١/ ١٧٥ ، ٣٣٠ ، ٥١٥ .

(٥) انظر : الاغاني (دار الكتب) ٦/ ٧٢ - ٧٣ .

فاعتبروا من اللغة متواتراً وآحاداً ومرسلاً ومنقطعاً وافراداً ، وكانت آفتها واحـدة وهي التزيد ، وشملها الوضع جميعاً[1] . ومن دوافع الرواية ايضاً الاعتزاز باللغة وصيانتها من اللحن ، ومنها توسل غير العرب اياهـا لتبوأهـم مكانـة في المجتمـع العربي وخير مثال على ذلك ابو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠) ، ومنها ـ اخيراً ـ الحاجة العلمية ذاتها كوضع الضوابط النحوية بعد ان أصبح الدرس اللغوي علماً يطلب لذاته بعيداً عن دواعي خدمة القرآن .

وقد مرت الرواية اللغوية بمراحل ، كانت اولاها رحلة اللغويين الى البادية وسماعهم من العرب واقامتهم بين ظهرانيهم مدة تطول او تقصر ، ثم العـودة الى مواطن الدرس في الحواضر لعرض المادة في المجالس والحلقات واملائها على الطلاب واشاعتها في الناس . وكانت البصرة ومن بعدها بمدة قصيرة الكوفة المصرين السباقين للرواية في هذه المرحلة ، وقد افادت منهما بغـداد عن طريق هجـرة العلماء اليهـا ونزوح الاعراب الفصحاء للتفيؤ بظلها .

فاللغويون الأوائل ـ وجلهم من القراء النحاة ـ هم الـرواة الأوائـل الـذين رحلوا الى البادية ، فابن ابي اسحاق الحضرمي (ت ١١٧) وتلميذاه عيسى بن عمر (١٤٩) وابو عمرو بن العلاء (١٥٤) وتلميذا عيسى الخليل بن احمد (١٧٥) ويونس (١٨٢) وتلميذا ابي عمرو بن العلاء ابو زيد الانصاري (٢١٥) والنضر بن شميل (٢٠٣) وغيرهـم من البصريين والكسائـي (١٨٩) وتلميذه الفـراء (٢٠٧) وابـو عمـرو الشيباني (٢٠٦) وابـن الاعرابـي (٢٣١) وغيرهـم من الكوفيين ، كلهم رحلوا الى البادية وأقاموا فيها ، فمنهم من قصر اخذه على قبائل معينة لا يتعداها وهي : تميم وقيس واسد وطيء وهذيل وكنانة[2] ، ومنهم من توسع ولم يقتصر على قبائل دون سواها ، كما سيأتي تفصيل ذلك في محله من الرسالة .

فقد ملأت روايات ابي عمرو بن العلاء (١٥٤) ـ كما يقال ـ بيتا الى السقف.ورحل الخليل (١٧٥) الى بوادي الحجاز ونجد وتهامة ، وقد ارشد

---

(١) تاريخ آداب العرب : ج ١ (باب الرواية) .

(٢) المزهر ٢١١/١ .

الكسائي (١٨٩) اليها عندما سأله الكسائي عن مصدر علمه ، فرحل الكسائي وانفد خمس عشرة قنينة حبر سوى ما حفظ[١] ورحل يونس بن حبيب (١٨٢) الى البادية ، وأقام النضر بن شميل (٢٠٣) فيها اربعين سنة[٢] ، ويقول ابو زيد (٢١٥) : « وما كان من اللغات وابواب الرجز فذلك سماعي من العرب[٣] » ، ويقول ايضا : « ما اقول (قالت العرب) الا اذا سمعته من هؤلاء : بكر بن هوازن ، وبنيْ كلاب ، وبني هلال ، او من عالية السافلة او من سافلة العالية ، والا لم اقل : قالت العرب »[٤] .

ودخل ابو عمرو الشيباني (٢٠٦) البادية ومعه دستيجان حبرا ، فما خرج حتى أفناهما بتدوين سماعه عن العرب ، وكان له ولع بالغريب والنوادر حتى سمي صاحب ديوان اللغة والشعر[٥] . وقصد عبدالله بن سعيد الاموي اعراب بني الحارث بن كعب ، وسألهم عن النوادر والغريب[٦] . وفعل فعل هؤلاء كثير من العلماء غيرهم ممن عاصرهم او جاء بعدهم ، اذ استمرت الرحلة الى البادية الى اواخر القرن الرابع ، فقد شافه الازهري (٣٧٠) الاعراب الذين لقيهم في البادية ، وذكر ذلك في كتابه (تهذيب اللغة) كما في المواد : (دعد) و (هجع) و (ذعع) ، حيث توقفت الرحلة أو قل المشافهة بصورة عامة ـ في البادية او في الامصار ـ في هذا التاريخ ، اذ يقول ابن جني : « وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا ، لأنا لا نكاد نرى بدوياً فصيحاً[٧] » .

وفي اثناء ذلك ، وبعد بداية رحلة العلماء لمشافهة الاعراب في البادية ، كانت هناك رحلة معاكسة كان يقوم بها الاعراب الفصحاء من مواطنهم في البادية الى

---

(١) انباه الرواة ٢/ ٢٥٧ ومعجم الادباء ١٣/ ١٦٩ .
(٢) بغية الوعاة ٢/ ٣١٦ ـ ٣١٧ .
(٣) نوادر ابي زيد ١ .
(٤) الاقتراح ٨٣ .
(٥) انباه الرواة ١/ ٢٢٤ ، ودستيج تعني بالفارسية : آنية ، وهي معربة .
(٦) انباه الرواة ٢/ ١٢٠ .
(٧) الخصائص ٢/ ٥ وانظر : النهاية في غريب الحديث ١/ ٤ .

حواضر العلم وعلى رأسها البصرة والكوفة ومنهما الى بغداد ، وهي المرحلة الثانية من الرواية . فبعد ان كان هؤلاء الاعراب في اول امرهم يقصدون ، قصدوا هم مجالس العلم وحلقات الدرس[1] . فقد توالت هجرتهم الى المصرين الكبيرين ، فسمع منهم العلماء وتنافسوا في الاخذ عنهم في مربد البصرة وكناسة الكوفة وغير هذين المكانين . يقول الاصمعي (٢١٣) : « جئت الى ابي عمرو بن العلاء فقال لي : من اين اقبلت يا اصمعي ؟ قلت : جئت من المربد . قال : هات ما معك . فقرأت عليه ما كتبته في الواحي[2] » ويقول ابو عبيدة (٢١٠) : « قدم علينا رجال من بادية جعفر بن جعفر بن كلاب ، فكنا نأتيهم فنكتب عنهم[3] » . ويقول ياقوت متحدثاً عن الجاحظ (٢٥٥) : « وتلقف الفصاحة من العرب شفاها بالمربد[4] » . ويقول ابو الفرج : « نزل في ظاهر البصرة قوم من اعراب قيس بن عيلان ، وكان فيهم بيان وفصاحة ، فكان بشار يأتيهم وينشدهم اشعاره التي يمدح بها قيساً[5] » .

ومن الاعراب الوافدين الى حواضر العلم من اشتغلوا بتعليم الصبيان مهنة يعتاشون منها[6] . ومنهم من تكسبوا بالرواية ، وتوسعوا فيها حتى عدوا في العلماء الذين يروى عنهم ويروون عن غيرهم ، واخذ عنهم العلم ، بعد ان شاركوا في وضع الكتب والمصنفات[7] . فالمنتجع بن نبهان روى عنه ابو عبيدة وابو زيد والأصمعي[8] ، وابن دأب روى عنه الأصمعي[9] ، وابو مهدية روى عنه ابو عبيدة

---

(١) انظر امثلة ذلك في : الفهرست ٧٠ والامالي ٢/ ٢٦٥ وزهر الاداب ٢/ ١٠١ والامتاع والمؤانسة ٢/ ١٣٩ ونزهة الالباء ١٧٨ والمزهر ٢/ ٣٥٥ .

(٢) ذيل الامالي والنوادر ١٨٢ .

(٣) جمهرة اشعار العرب ٣١ .

(٤) معجم الادباء ١٦/ ٧٥ .

(٥) الاغاني ٣/ ٥١ .

(٦) انظر : البيان والتبيين ١/ ٢٥٣ والفهرست ٧١ .

(٧) الفهرست ٦٨ - ٧٤ .

(٨) النقائض ١/ ٤٨٧ والخصائص ٣/ ٣٠٥ وطبقات النحويين واللغويين ١٧٥ .

(٩) مراتب النحويين ٩٦ .

(١٠) البيان والتبيين ٣/ ٢٢٥ وطبقات النحويين واللغويين ١٧٥ .

والاصمعي[١٠] ، وابو منيع الكلابي روى عنه ابو عبيدة في النقائض[١] ، وابو ثوابة الاسدي روى عنه الأصمعي[٢] ، وغيرهم كثير ممن اصبحوا من الاساتذة المشتغلين وصار لهم في حواضر الدراسة مكانة مرموقة ، ومنحوا ثقة العلماء والساسة ، وحكموا في المنازعات العلمية ، كما هو معروف مثلاً في مناظرة سيبويه والكسائي في مجلس يحيى بن خالد البرمكي ، ومناظرة اليزيدي والكسائي في مجلس المهدي[٣]

قلنا ان من الإعراب الرواة من اتصف بصفة الدارس ، وقبلهم اتصف الدارسون الذين قصدوا البوادي لمشافهة الاعراب بصفة الرواة ، فتقاربوا في كونهم رواة دارسين[٤] الا انه ظل الطابع الاصلي لكل منهم هو الغالب عليه ، فالاعراب الذين مر ذكرهم مثلاً ظلوا اقرب الى كونهم رواة منهم دارسين ، كما ظل امثال الخليل والاصمعي وابي زيد وابي عمرو الشيباني والكسائي وحماد وخلف وابن الاعرابي وغيرهم اقرب الى كونهم دارسين منهم رواة ، ذلك ان هناك فرقاً بين الراوي المحض والدارس ، وقد التفت الى ذلك القدماء انفسهم ، فقالوا : « ان اللغوي (اي الراوي) شأنه ان ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه ، وأما النحوي (اي الدارس) فشأنه ان يتصرف فيما ينقله اللغوي ويقيس عليه ، ومثالهما المحدّث والفقيه ، فشأن المحدث نقل الحديث برمته ، ثم ان الفقيه يتلقاه ويتصرف فيه ويبسط فيه علله ، ويقيس على الامثال والاشباه[٥] » .

ويعد ابو عمرو بن العلاء والخليل وابو عبيدة والاصمعي وابو زيد ويونس أشهر الدارسين الرواة البصريين ، كما يعد الكسائي والفراء وابو عمرو الشيباني وابن الاعرابي والمفضل الضبي وحماد والاموي أشهر الدارسين الرواة الكوفيين . وقد تبادلت البصرة والكوفة الرواية فيما بينهما فكان من هؤلاء من يروي عن اولئك

---

(١) النقائض ٣٠ .

(٢) الاصابة ٦/ ١٣٢ .

(٣) انظر : مجالس العلماء ٨ ونور القبس ٢٨٨ والاشباه والنظائر ٣/ ١٥ .

(٤) فالزبيدي عندما ترجم لرواة الكوفة (حماد بن هرمز وابي البلاد الاعمى ومحمد بن عبدالاعلى بن كناسة) سماهم لغويي الكوفة : طبقاته ٢٠٧ ـ ٢٠٩ .

(٥) المزهر ١/ ٣٠ وانظر : الاغراب في جدل الاعراب ٤٢ .

ومن اولئك من يروي عن هؤلاء ، فالمفضل الضبي كوفي اخذ عنه البصريون ، يقول ابن سلام : انه « أعلم من ورد علينا من غير اهل البصرة[1] »، والمفضل استاذ الكسائي وابن الاعرابي ، والاخير استاذ ثعلب[2] ، كما اخذ البصريون عن حماد الراوية ايضاً . وبالعكس فقد روى زهير بن ميمون الفرقبي من الكوفيين عن ميمون الاقرن صاحب ابي الاسود[3] ، كما روى ابو عثمان سعدان بن المبارك عن ابي عبيدة[4] ، وروى الكسائي عن الخليل وروى الفراء تلميذ الكسائي عن يونس بن حبيب البصري[5] ، وهكذا .

وظل أمر الرواية كذلك ، حتى وجد العلماء في أواخر القرن الرابع ان الاعراب قد دخل السنتهم الفساد لطول مقامهم في الحواضر وعيشهم في مجتمعاتها التي اختلطت فيها العناصر الاجنبية واندمجت فيها اللغات الوافدة ، فقلّت ثقتهم فيهم وتركوا الاخذ عنهم ، كما مر بنا من تصريح ابن جني في هذا الصدد[6] ، وصاروا يروون عن الكتب والمصنفات التي وضعها العلماء المشافهون ، ولا يغرب عنا ما في عملية النقل عن الصحف من آفات الخطأ والتصحيف والتحريف التي ثقلت بها مصنفات القرون اللاحقة ، حين فاتتها فرصة المشافهة والنقل المباشر .

وكانت الرواية قبل القرن الرابع قد مرت بمرحلة جديدة تختلف عن المرحلتين السابقتين ، فبعد ان بدأت الرواية برحلة العلماء الى البادية لجمع المادة اللغوية بمشافهة الاعراب ، ثم بهجرة الاعراب الفصحاء الى الحواضر ولقي العلماء اياهم فيها . أصبحت تتمثل في الرواية عمن شافه العرب ، اي اصبح الدارس يروي عمن روى عن الاعراب الفصحاء مباشرة ، وهذا يصدق على اغلب تلاميذ اولئك الأوائل من الدارسين الذين رحلوا الى البوادي او أخذوا عن اعراب المربد والكناسة

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٢١ .

(٢) معجم الادباء ١٨/ ١٩٠ .

(٣) انباه الرواة ٢/ ١٨ وطبقات النحويين واللغويين ٢٤ .

(٤) انباه الرواة ٢/ ٥٥ .

(٥) معجم الادباء ٢/ ١١ .

(٦) الخصائص ٢/ ٥ .

في البصرة والكوفة[1] ، على اننا لا يمكن ان ننفي عن هؤلاء التلاميذ ـ الذين اصبحوا اساتذة الدرس اللغوي في بغداد فيما بعد كالمبرد وثعلب وأصحابهما ـ انهم شافهوا نفراً من الاعراب ممن لم تفسد سلائقهم في حاضرة العلم بغداد ، كأبي مسحل وابن ابي صبح وابي دعامة القيسي وابن ضمضم الكلابي وغيرهم[2] ، ومن يراجع تصانيفهم يجد امثلة ذلك ، وربما لم ينصوا على اسم الاعرابي الذي شافهوه في مواطن كثيرة ، وانما يشيرون الى سماعهم عن العرب[3] .

ومهما يكن من أمر فنحن نختم حديثنا عن الرواية بسرد باسماء الاعراب الفصحاء الذين شافههم العلماء واخذوا عنهم مروياتهم ، حسبما تسعف به المصادر من ذكرهم ، ذلك ان احصاءهم احصاء لا مزيد عليه غير ممكن لاستحالة الوقوف على كل مؤلفات العرب اللغوية التي لم يصل الينا منها غير أقلها[4] .

الرجال :

ـ أ ـ

(١) افار بن لقيط

(٢) ابو البيداء اسعد بن عصمة الرياحي

(٣) ابو غرار العجلي

(٤) ابو سرار الغنوي

(٥) ابو الشمخ الطائي

(٦) ابو ثوابة الاسدي

---

(١) انظر مثلا : اضداد ابن الانباري ٣٠ ، ٥٩ .

(٢) الفهرست ٥٢ ـ ٥٥ .

(٣) انظر مثلا : مجالس ثعلب ١/ ١٧٠ ، ٢/ ٤١٧ والمزهر ١/ ٣٩٣ .

(٤) هذه الاسماء في : الفهرست ٤٩ ـ ٥٥ ، ٧٣ ، ٧٦ وطبقات النحويين ١٧٥ ومراتب النحويين ٩٦ والخصائص ٣/ ٣٠٥ ومعجم البلدان ١/ ١٥٢ والبيان والتبيين ٣/ ٢٢٥ والحيوان ٢/ ٨٠ ، ٤/ ١٩٤ ، ٣٣٦ والنقائض ١/ ٣٠ ، ٤٨٧ والامالي ٣/ ٦٩ والمزهر ٢/ ٢٠٢ ، ٣١٨ ، ٥٤٠ ومعجم الشعراء للمرزباني ٥٠٧ ـ ٥١٥ ومعجم الادباء ٣/ ١٢ وتهذيب اللغة ١/ ٢٤ ونوادر ابي زيد ٢٨ ، ٢٣٨ .

(٧) ابو شبل (شنبل) العقيلي

(٨) ابو مهدية الكلابي

(٩) ابو ثروان العكلي

(١٠) ابو الهيثم الاعرابي

(١١) ابو الجراح العقيلي

(١٢) ابو صاعد الكلابي

(١٣) ابو زكريا الاحمر

(١٤) ابو ادهم الكلابي

(١٥) ابو الصقر العدوي

(١٦) ابو قرة الكلابي

(١٧) ابو الحدرجان

(١٨) ابو تمام الحراد

(١٩) ابو القماقم الفقعسي الاسدي

(٢٠) ابو زياد الاعور بن براء الكلابي

(٢١) ابو الدقيش القناني الغنوي

(٢٢) ابو السقر الكلابي

(٢٣) ابو دثار الفقعسي الاسدي

(٢٤) ابو الكبس (لعله الكبش) الباهلي

(٢٥) ابو صالح الطائي

(٢٦) ابو الكلس النمري

(٢٧) ابو السيد الكلابي

(٢٨) ابو علي اليامي الرهمي

(٢٩) ابو زيد المازني

(٣٠) ابو النعمان

(٣١) ابو المسلم الغاضي

(٣٢) ابو مسهر الاعرابي

(٣٣) ابو المضرحي

٣٤)ابو دعامة القيسي

(٣٥) ابن دأب

(٣٦) ابو منيع الكلابي

(٣٧) ابو طفيلة الحرمازي التميمي

(٣٨) ابو الوجيه العكلي

(٣٩) ابو ليلى (سكن خراسان)

(٤٠) ابو عبدالله (سكن خراسان)

(٤١) ابو حزام العكلي

(٤٢) ابو مزة الكلابي (لعله ابو قرة المذكور)

(٤٣) ابو مهدي الباهلي

(٤٤) ابو الحسن العدوي

(٤٥) ابو الوليد الكلابي

(٤٦) ابو علقمة الثقفي

(٤٧) ابو طيبة الاعرابي

(٤٨) ابو القعقاع اليشكري (البكري)

(٤٩) ابو جحوش الاعرابي

(٥٠) ابو الجاموس ثور بن يزيد النمري

- ج -

(٥١) جهم بن خلف المازني

- ح -

(٥٢) ابو علي الحسن بن علي الحرمازي التميمي
(٥٣) حماس

- خ -

(٥٤) ابو محرز خلف بن حيان الاحمر
(٥٥) خالد بن كلثوم الكلبي

- د -

(٥٦) دهمج بن محرز النصري الاسدي

- ر -

(٥٧) رداد الكلابي
(٥٨) ربيعة البصري

- ز -

(٥٩) زائدة

- س -

(٦٠) ابو عثمان سعيد بن ضمضم الكلابي

- ش -

(٦١) شبيل بن عزرة الضبعي

- ص -

(٦٢) ابو الكميت الصقيل العقيلي

(٦٣) الصموتي الكلابي

- ع -

(٦٤) ابو مالك عمرو بن كركرة

(٦٥) ابو عدنان عبدالرحمن بن عبد الاعلى السلمي

(٦٦) ابو مسحل عبدالوهاب بن حريش (من بني عامر بن صعصعة في نجد)

(٦٧) ابو الخطاب عمرو بن عامر البهدلي (لعله الهذلي)

(٦٨) العدبس الكناني

(٦٩) ابو الغمر العلاء بن بكر العقيلي

(٧٠) عرام بن الاصبغ السلمي

(٧١) ابو حجار عبدالرحمن بن منصور الكلابي

(٧٢) ابو الحسن علي بن المبارك اللحياني

(٧٣) عبدالله بن سعيد الأموي

(٧٤) ابو المنهال عيينه بن المنهال

(٧٥) ابو العميثل عبدالله بن خليد (او خالد سكن خراسان)

(٧٦) ابوالخنساء عباد بن كسيب العنبري

(٧٧) عبدالله بن عمرو بن ابي صبح المازني

- ك -

(٧٨) ابو هندام كلاب بن حمزة

- ل -

(٧٩) ابو فقعس لزاز

- م -

(٨٠) ابو محلم محمد بن سعد الشيباني

(٨١) ابو المجيب مزيد بن محيا الربعي

(٨٢) ابو الحصين مكوزة الهجيمي

(٨٣) ابو فيد مؤرج السدوسي العجلي

(٨٤) محمد بن عبد الملك الفقعسي الاسدي

(٨٥) المنتجع بن نبهان التميمي

(٨٦) مبتكر الاعرابي (سكن خراسان)

- ن -

(٨٧) ابو خيرة نهشل بن زيد العدوي

(٨٨) ناهض بن ثومة الكلابي

- هـ -

(٨٩) هداب الهجيمي

(٩٠) هرم بن زيد الكليبي

- ي -

(٩١) ابو زياد يزيد بن عبدالله بن الحر الكلابي

النساء :

(٩٢) ام الحمارس البكرية

(٩٣) غيثة ام الهيثم

(٩٤) قريبة ام البهلول الاسدية

(٩٥) غنية الكلابية

(٩٦) شماء الكلابية

القبائل التي نسبوا اليها :

بنو عجل	باهلة	كلب
بنو غني	بنو العنبر	طيء
اسد وبطونها	تميم وبطونها	بنو رياح
بكر	ربيعة	كلاب
بنو عكل	يشكر بطن من بكر	كنانة
امية	نمر	كليب
مازن	غاضية	بنو لحيان
شيبان	عقيل	قيس
ثقيف	هذيل	هجيمة
سليم	بنو عدي	بنو ضبع

والمدقق في هذا المسرد من أسماء الاعراب وقبائلهم ، يجد ان اغلب هؤلاء الفصحاء الذين شافههم اللغويون ينتسب الى قيس وتميم واسد، وكلها من القبائل الكبيرة التي تضم عدداً من البطون والافخاذ ، فقيس مثلا تشمل كلابا وعقيلا وسليماً ، والباقون ينتسبون الى القبائل العربية الاخرى ، وعلى رأسهم طيء وشيبان وكنانة وهذيل (انظر الخريطة التي تبين مواطن القبائل العربية في الفصل الأول من الباب الثالث) . أفيكون من قبيل المصادفة ان توافق نسبة هؤلاء الاعراب الى هذه

القبائل ما حدده اللغويون من مراتب القبائل في الفصاحة[1] . ام انها نسبة فرضها منهج معين في الدرس ، ورفضها منهج آخر ؟ هذا ما سيجيب عنه الفصل الخاص بدراسة مناهج اللغويين ، في هذه الرسالة .

اختلاط الدراسات اللغوية وانفصالها

لما كان القرآن الكريم هو الحافز الاكبر لنشأة الدراسات العربية عموماً ، كان من الطبيعي ان تنشأ هذه الدراسات مختلطة متداخلة ، ومن الطبيعي ايضا ان يكون اوائل المتصدين لهذه الدراسات ذوي اختصاصات متعددة واهتمامات مختلفة ، نظراً لهذا العامل الموحد بينها والجامع لاصولها . فقد ظهر علم التفسير وعلم الحديث والفقه والقراءات واللغة والنحو والصرف والفلسفة وعلم الكلام والمنطق والمعاني وكثير غيرها من العلوم في اوقات متقاربة جداً ولاسباب مشتركة ، تقف على رأسها خدمة القرآن احكاماً ولغة واعجازاً ، وصرنا نرى مفسراً لغوياً وفقيهاً محدثاً ومقرئاً نحوياً وكلامياً صرفياً وهكذا ، بل نجد من يجمع اكثر هذه المعارف او كلها جمعاً تتفاوت درجة الاتقان فيه من دارس الى آخر .

والدراسات اللغوية عموماً (اللغة والنحو والصرف) من الدراسات التي اختلطت فيما بينها ومع غيرها ، منذ نشأتها حتى استقلالها حين وضعت اولى المؤلفات الخاصة بكل علم من علومها ، فقد مرت بنا الاشارة الى ان ابن عباس كان يعنى بالغريب وبالشعر ويستعين بهما في عمله في تفسير القرآن ، حتى ذكر له كتاب في (غريب القرآن) ، وعنايته بالغريب تلك والاستشهاد عليه من الشعر عمل لغوي محض . ورأينا ايضا ان نقط القرآن على يد ابي الاسود . اكمل باعجامه على يد نصر بن عاصم وختما بشكله على يد الخليل ، ومرّ بنا أنه حين وضعت الضوابط النحوية الاولى على يد أبي الاسود وتلاميذه كانت هناك حركة لغوية آخذة بالنمو عمادها رواية اللغة مفردات واستعمالات واساليب ، مستعينة برواية الشعر وقراءات القرآن ولهجات العرب ، وهكذا كان اساس الدراسات اللغوية ـ التي استقلت شيئاً فشيئاً ، منفصلة عن بعضها بمرور الزمن وبتطور الدرس اللغوي وتوسعه ـ مختلطاً ، واستمر كذلك مدة ليست بالقصيرة قبل ان تكتمل عملية الانفصال .

---

(١) انظر مثلاً : نص الفارابي في المزهر ١/ ١١ ونص ابي زيد في الاقتراح ٨٣ .

فلو استعرضنا الدارسين الاوائل وما عرف عنهم من اهتمامهم بهذه الدراسات لوجدنا مصداق الاختلاط بينها واضحاً فيهم :

فأبو الاسود (ت ٦٩) : نقط القرآن ، ووضع الضوابط النحوية الاولى ، وقعد للفتيا في جامع البصرة يبصر الناس في امور دينهم ، وكان يعد ـ اضافة الى كل ذلك ـ من المحيطين باختلاف اللهجات العربية والعارفين بغريب اللغة ، وفي شعره ما يدل على هذه المعرفة الواسعة[1] .

ويحيى بن يعمر (ت ١٢٩ هـ) تلميذ ابي الاسود : شارك نصر بن عاصم (ت ٨٩) في اعجام حروف القرآن ، على بعض الروايات[2] . واخذ عن ابي الاسود نقط القرآن[3] واضاف الى ضوابطه النحوية شيئاً في بابي الفاعل والمفعول ، وقيل عنه انه اول من وضع النحو بعد ابي الاسود ، او انه اول من وضع العربية على بعض الروايات ، وكان مع هذا مقدماً في القراءة ، يقول ابو الطيب : « ولا يذكر اهل البصرة يحيى بن يعمر من النحويين ، وكان اعلم الناس وافصحهم ، لأنه استبد بالنحو غيره . . . وانفرد يحيى بن يعمر بالقراءة » ، واشتهر ايضاً بالغريب الى جانب اشتهاره بالنحو والقراءة ، يقول الزبيدي : « تعلم عن ابي الاسود ابنه عطاء بن ابي الاسود ، ثم يحيى بن يعمر العدواني وكان حليف بني ليث ، فصيحاً عالماً بالغريب[4] » ، وقال يحيى نفسه : « وانما نفتي فيما استتر من معاني الشعر واشكل من غريبه[5] » .

ومثل يحيى زملاؤه من تلاميذ ابي الاسود : عطاء بن ابي الاسود ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز وميمون الاقرن وعنبسة بن معدان الفيل (ت ١٠٠) ، فقد اخذوا النقط عن ابي الاسود[6] ، وعنوا بالقراءة والشعر والغريب ،

---

(١) مجلة (البلاغ) السنة (١) العدد (١٠) ص ٤٣ ، ١٩٦٧ م ، والمعجم العربي ١/ ٢٩ وتاريخ علوم اللغة العربية ٧٥ .
(٢) التصحيف والتحريف لابي احمد العسكري ١٠ .
(٣) المحكم ٦ .
(٤) طبقات النحويين واللغويين ٢٣ .
(٥) انباه الرواة ٢/ ١٠٧ .
(٦) المحكم ٦ .

واكملوا ما بدأه ابو الاسود من وضع الضوابط النحوية .

وعبدالله بن ابي اسحاق الحضرمي تلميذ اصحاب ابي الاسود المار ذكرهم (ت ١١٧) : من دارسي النحو المطورين له ، بحيث يمكن ان يعد هو وتلاميذه نحاة بالمعنى الاصطلاحي ، فقد « كان اول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل »[١] ، وله في ذلك آراء ونظرات[٢] ، على انه لم يؤثر عنه كتاب في النحو ، ولكنه وضع كتاباً في (الهمز) ، يقول ابو الطيب : « فرع عبدالله بن ابي اسحاق النحو ، وقام وتكلم في الهمز ، حتى عُمل فيه كتابٌ مما املاه[٣] » ، والظاهر انه يبحث في الهمز من ناحية علاقته بالقراءة ، اذ هو من القراء وله قراءة شاذة[٤] . فاذا عد كتابه هذا بحثاً لغوياً محضاً ، فيكون اول بادرة لاستقلال دراسة اللغة عن النحو والصرف في مجال التأليف .

وعيسى بن عمر (ت ١٤٩) تلميذ ابن ابي اسحاق : درس النحو وتوسع فيه آخذاً بمنهج استاذه في التمسك بالقياس[٥] ، وقيل انه وضع فيه كتابين هما : الجامع والاكمال ، بحث فيهما مسائل النحو وقواعده ، وهما مفقودان وقد اشار الى فقدانهما ابن النديم ونفى وجود من رآهما[٦] . وعيسى بعد هذا من القراء المعروفين ، وله قراءة شاذة[٧] . وكتاباه يمثلان استقلال النحو في التأليف أول مرة . واما انهما في النحو ـ كما قالوا ـ دون غيره ، فيدل عليه القول المنسوب الى الخليل :

بطل (النحو) جميعاً كله غير ما احدث عيسى بن عمر
ذاك (اكمال) وهذا (جامع) فهما للناس شمس وقمر[٨]

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١٤ .

(٢) انظر امثلة من آرائه في : الكتاب ٢/ ٥٨ وشواذ القراءات لابن خالويه ٣٢ وخزانة الادب ١/ ١١٥ .

(٣) مراتب النحويين ١٢ والمزهر ٢/ ٣٩٨ .

(٤) الفهرست ٣٣ .

(٥) انظر امثلة من آرائه في : الكتاب ١/ ١٩٩ ، ٢٦١ ، ٣١٣ والموشح للمرزباني ٤١ .

(٦) الفهرست ٤٧ .

(٧) الفهرست ٣٣ .

(٨) الفهرست ٤٧ .

وابو عمرو بن العلاء تلميذ ابن ابي اسحاق (ت ١٥٤) . اشتهر بالقراءة ذلك انه من القراء السبعة ، وقد جلس للاقراء بمسجد البصرة الكبير ، وعني بالغريب واللغات والشعر والرواية ، يقول الجاحظ : « كان اعلم الناس بالغريب والعربية ، وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وايام الناس » . وهو الى جانب ذلك من المعنيين بالنحو وله فيه آراء منقولة[1] . كما كان له بالصرف باع ونظر . غير انه الى اللغويين اقرب منه الى النحاة والصرفيين ، وسيمر علينا ذكر مؤلفاته اللغوية في الفصل الخاص بالتأليف .

وابو الخطاب الاخفش الكبير (ت ١٥٧) : توجه للغة والرواية والغريب اكثر من توجهه للنحو ومسائله ، فلم يؤثر عنه فيه شيء ، وقد اخذ يونس وسيبويه عنه اللغات[2] .

وحماد بن سلمة بن دينار البصري : عني بالقراءة والحديث ، واهتم بالنحو حتى تلمذ له يونس وسيبويه[3] ، ولم يؤثر عنه انه وضع كتاباً في اللغة اوالنحو .

والخليل بن احمد الفراهيدي (ت ١٧٥) تلميذ عيسى بن عمر : اهتم بالرواية والمشافهة ، ودرس اللغة فوضع (العين) اول معجم لمفردات العربية ، وعني بالنحو حتى شملت آراؤه فيه قسطاً وافيا من كتاب سيبويه ، وانشأ علم العروض والقافية اول مرة ، وتوجه للقراءة فبرع فيها ، وكان قد شكل القرآن بالحركات قبل ذلك[4] ، وله في التصريف آراء كثيرة مجموعة في (الكتاب) .

ويونس بن حبيب (ت ١٨٢) تلميذ عيسى بن عمر وابي عمرو بن العلاء : اشتهر باللغة والغريب حتى الف كتابا في (اللغات)، وروى عنه ابو عبيدة في الغريب ، ونقل عنه سيبويه في (الكتاب) شواهد لغوية كثيرة . كما اشتهر بالنحو ، وصنع لنفسه منهجاً خاصاً فيه ، حتى قيل : « كانت ليونس مذاهب

(١) انظر امثلة ذلك في : الخصائص ٣/ ٧٣ والانصاف ٢٠٧ والمغني ٥١٥ والهمع ١/ ١١٥ .

(٢) الفهرست ٥٧ .

(٣) طبقات القراء لابن الجزري ١/ ٢٥٨ وتذكرة الحفاظ ١/ ١٨٩ والبغية ٢٤٠ .

(٤) انظر في شكله القرآن بالحركات : المحكم ٧ وانشائه علمي العروض والقافية : البغية ٢٤٣ والمزهر ١/ ٤١ .

واقيسة تفرد بها[1]»، فقد رويت عنه آراء نحوية خالف بها البصريين وخالفه فيها الكوفيون[2] .

وابو جعفر الرواسي (١٨٧) تلميذ عيسى بن عمر وابي عمرو بن العلاء : درس النحو ودرّسه ووضع فيه كتاب (الفيصل)[3] .

ومعاذ الهراء (ت ١٩٠) تلميذ عيسى بن عمر : اهتم بالصرف اكثر من اهتمامه باللغة والنحو[4] ! ويرى السيوطي انه واضع علم الصرف ، وهو رأي مردود بما حفل به كتاب سيبويه من مسائل الصرف . حتى ان المازني حين الف كتابه (التصريف) كان عيالاً على مادة (الكتاب) في هذا الباب[5] .

وسيبويه تلميذ الخليل (ت ١٨٠) : اشتهر بالنحو اكثر من اشتهاره باللغة والغريب والرواية والشعر والقراءة ، على طول باعه في جميعها . فقد تضمن (كتابه) على النحو واللغة والصرف وما يتصل بذلك من المسائل .

وعلي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩) تلميذ الخليل : عني بالقراءة عناية شديدة ، فهو من القراء السبعة ، وله كتاب في (القراءات)[6] ، واشتهر بالنحو فكان رأس مدرسة فيه هي مدرسة الكوفة ، وله كتاب فيه هو (مختصر النحو) وعني باللغة والف (ما تلحن فيه العوام) ـ وسيأتي درسه في محله من الرسالة ـ وبالصرف فيما نقل عنه اللغويون من بعده في مصنفاتهم .

ومثل هؤلاء ممن عرضنا لهم جمع من الدارسين عاصرهم وتأخر عنهم قليلاً ، كان مشغولا كهؤلاء باكثر فروع الدرس اللغوي ومهتماً بها جميعاً ، على تفاوت في النسبة في ميل كل منهم الى جانب من هذه الجوانب ، ذلك ان كثيراً منهم طغت

---

(١) اخبار النحويين البصريين ٣٣ ونزهة الالباء ٤٩ وبغية الوعاة ٤٢٦ .

(٢) انظر امثلة ذلك في : الكتاب ١/ ٤٢٩ والخصائص ٢/ ٦١، ٣/ ٧١ والمنصف ٢/ ٨٥ والمغني ٨٢ ، ٧٧٣ .

(٣) الفهرست ١٠٢ وطبقات النحويين واللغويين ١٣٥ ونزهة الالباء ٥٤ .

(٤) طبقات النحويين واللغويين ١٣٥ وانباه الرواة ٣/ ٢٨٨ .

(٥) انظر : المدارس النحوية ١٥٤ .

(٦) الفهرست ٧٢ .

عليهم اللغة دون النحو ، او اشتهر بالقراءة دون غيرها او اولع بالتصريف دون سواه ، وقد وقفنا في عرض هؤلاء الدارسين عند اواخر القرن الثاني ، لانا وجدنا في دراساتهم بوادر استقلال هذه الدراسات ، بحيث نستطيع ان نحدد مراحل استقلال كل واحدة منها ، ولأن البحث اللغوي بعد هؤلاء دخل طوراً جديداً يقوم على الاستقلال التام ، لا في اللغة كلها دون النحو ، بل في مواضيع اللغة نفسها .

ونحن يجب ان نفرق قبل كل شيء بين استقلال الدرس وتخصص الدارس ، فالذي نعنيه في استقلال دراسة اللغة عن النحو والصرف مثلاً هو استقلال التأليف في اللغة دون ان يستتبع هذا الاستقلال تخصص الدارس في اللغة دون النحو والصرف . لأنه قد يحدث ان يستقل فرع من فروع الدرس اللغوي على يد دارس معين مهتم بهذا الفرع وبغيره من الفروع ، يميل الى هذا الجانب اكثر من الجوانب الاخرى ، او يساوي بينها في العناية ، بحيث لا يصدق عليه التخصص في حقل واحد والتفرغ له دون سائر الحقول اللغوية .

المهم ان درس اللغة ـ في اكبر الظن ـ استقل تأليفاً قبل استقلال النحو والصرف وغيرهما من فروع الدراسات اللغوية ، ففي ميدان الغريب كان (غريب القرآن) لابن عباس (ت ٦٨ هـ) اول كتاب فيه تلاه ابو فيد مؤرج السدوسي (١٩٥) بآخر في مثل موضوعه . وفي ميدان اللغات كان (اللغات في القرآن) لابن عباس (٦٨)[1] أيضاً طليعة الكتب فيها ، يجيء بعده كتاب (اللغات) ليونس بن حبيب (١٨٢) . وفي (الهمز) أول من الف عبدالله بن ابي اسحاق (١١٧) واعقبه قطرب (٢٠٦) بكتاب في الموضوع[2] . وفي (الحشرات) ألف ابو خيرة الاعرابي (استاذ ابي عمرو بن العلاء) اول كتاب خاص. والف ابو خيرة ايضا كتاباً في (الصفات). وفي متن اللغة كان (العين) للخليل (١٧٥) اول معجم مستقص لمفردات العربية ، وهكذا نجد السبق والتبكير في اكثر حقول درس اللغة ، التي استقلت في مصنفات الاوائل من الدارسين ، وسنأتي على تفصيل ذلك في الفصل الخاص بالتأليف .

---

(١) هو كتاب صغير طبع اكثر من مرة بتحقيق د . صلاح الدين المنجد ـ بيروت ط ٢ ـ ١٩٧٢ م .
(٢) الفهرست ٥٨ .

اما (النحو) فكان كتابا عيسى بن عمر (١٤٩) (الجامع) و (الاكمال) أول ما وضع مستقلاً فيه ، تلاهما كتاب سيبويه الكبير (١٨٠) . على ان مصطلح (النحو) لم يكن معروفاً بعد ، فاذا اهملنا ورود هذه اللفظة في اخبار ابي الاسود لاحتمال ان تكون مما دخل بعد استقرار المصطلح ، فلا نجد غير مصطلح (العربية) ويراد بها النحو[١] ومصطلح (الكلام) ومصطلح (الاعراب)[٢] . اما (النحو) فلم يرد مصطلحاً على العلم أول مرة الا على لسان الخليل ويونس[٣] . وهو لغة يعني القصد والطريق ، نحاه ينحوه وينحاه نحواً وانتحاء ، ونحو اللغة العربية منه ، فهو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من اعراب وغيره[٤] . واما (الصرف) فأول كتبه كتاب (التصغير) لابي جعفر الرواسي (١٨٧)[٥] ، ثم تلميذه ابو الحسن الاحمر الذي وضع كتابه (التصريف)[٦] ، وجاء المازني بعد ذلك فوضع كتابه (التصريف) جامعاً مادة التصريف الموجودة في كتاب سيبويه موسعاً إياها وشارحاً لشيء منها .

الاصالة والتأثر في الدرس اللغوي

وجه نفر من الباحثين عنايتهم الى طعن العرب في اصالة دراساتهم اللغوية ، زاعمين تأثر هذه الدراسات على اختلافها بدراسات الامم الاخرى في مجال البحث اللغوي ، محاولين ان يجدوا في خبر ملفق هنا واشارة موضوعة هناك سنداً يستندون اليه في مذهبهم هذا ، مرددين مزاعم بعض المستشرقين الذين قد تشوب أنفسهم في هذا الغمز دوافع سيئة من تعصب على العرب وعداء للاسلام .

يجب الا يعزب عنا حين نجد تشابها في الدرس بين امة وأخرى ، ان ذلك لا يعني بالضرورة وجود تأثر معيّن بين هاتين الامتين كان للسابقة منهما اثر في اللاحقة لانه قد تتوفر لدى اكثر الامم

(١) طبقات ابن سلام ٥ واخبار النحويين ١٣ .

(٢) اخبار النحويين ١٣ والتحفة البهية ٤٩ .

(٣) اخبار النحويين ٢١ وطبقات ابن سلام ١٥ .

(٤) لسان العرب ١٥/ ٣١٠ ـ ٣١١ وتهذيب اللغة ٥/ ٢٥٢ وجامع الدروس العربية ٩ .

(٥) الفهرست ٧١ .

(٦) الفهرست ٧٢ ـ ٧٣ .

الظـروف التي تستدعـي قيام دراسـة من الدراسـات او وضـع تأليـف مـن التآليف ، كما ان الابداع والابتكار ليسا وقفاً على عقل دون آخـر او شعـب دون شعب ، فقد تنشأ في اكثر من بقعة من بقاع الارض دراسات يهيأ لها ان تنمو وتنضج بعيدة عن التأثر بمثيلاتها في البقاع الاخرى . وخير مثال على هذا ما أشرنا اليه عند كلامنا على النقط ، من ان النقط معروف لدى غير العرب من اليونانيين والسريان والعبرانيين وغيرهم ، وقد دعـا الى وضعـه عنـد العـرب وعنـد هذه الامـم دواع متشابهة ، على رأسها صيانة لغة التنزيل من الخطأ في التلاوة ، ولـم يدع احـد ان لاحدى هذه الامم تأثيراً في سواها في هذا الشأن ، بل أجمع الدارسون على وحدة الدافع بينها جميعاً . سوى الباحثة زاكية رشدي التي حلا لها ان تتهم ابا الاسـود بتعلمه ذلك من السريان الذين وضع نساطرتهم طريقة الشكل الاعرابي بالنقط[1] .

ومهما يكن من امر فان الدرس اللغوي العربي واجه حملة من التشكيك في نقائه من التأثر بغيره من دراسات الامم الاخرى ، حيث توجهت مزاعم التأثر الى الميادين الدراسية الثلاثة : علم الاصوات ، والعمل المعجمي ، والنحو ، ونحـن نتناول الآن كلا من هذه الميادين ، ذاكرين دعوى التأثر فيه والحجج التي تستند اليها هذه الدعوى ثم نرد عليها تفنيداً ما أمكن ذلك :

١ ـ علم الاصوات : عني الخليل ، واللغويون العرب من بعده ، بدراسة الحروف من حيث انها اصوات لها مخارج معينة وترتيب عمقي في الحلق ، ووقفوا على آثار تمازجها وتجاورها في النطق ، وقالوا بوجود الرابطة الطبيعية بين الاصوات ومدلولاتها ، ذاهبين في نشأة اللغة الى انها كانت محاكاة للاصوات الطبيعية ، فبرعوا في ذلك مبكرين . غير ان الدكتور احمد مختار عمر يرى ان للهنود اثراً في جوانب من هذه الدراسات :

أ ـ في ترتيب مخـارج الحـروف ، فمال الى « وجـود تأثـير هنـدي صوتـي على الخليل ، لا يتجاوز فكرة الترتيب الصوتي للحروف الهجـائية مع البـدء بأعمقهـا مخرجاً[2] »

(١) تاريخ اللغه السريانية ٢٦٨ ـ ٢٦٩ نقلاً عن البحث اللغوي عند العرب ٢٣٨ .
(٢) البحث اللغوي عند العرب ٢٣٨ .

ب ـ في الاشتقاق الكبير ، وهو اتحاد الالفاظ في صوتين واختلافها في الصوت الثالث ، فقال : « واذا كان ياسكا او غيره من لغويي الهنود قد نجحوا في اشتقاقاتهم هذه ، فمرجع ذلك ان الجذور السنسكريتية ترجع في معظمها الى اصل ثنائي . ولكن نقل النظرية الى اللغة العربية كان أمراً غريباً ، كما ان تطبيقها اظهر تكلفاً وتعسفاً ، نظراً لثلاثية الاصول العربية[1] » .

والحق ان العرب سبقوا ببحث فلاسفة اليونان والرومان لعلاقة اصوات الكلمة بمدلولاتها ، وهل هي علاقة رمزية او انها مجرد مصادفة[2] ، وظلوا يعالجون ذلك منقسمين الى مناد بوجود رابطة طبيعية بين الاصوات والمدلولات ، والى منكر ذلك يرى ان الامر اصطلاح عرفي . وكان سقراط وافلاطون قد اخذا بهذا الرأي الاخير ، لاعتقادهما بأن صلة الاصوات بالمدلول غامضة غير واضحة في لغة عصرهما[3] . كما سبق العرب بدراسة الهنود لمخارج الحروف وترتيب عمقها في الحلق ، مما يدخل فيما اصطلح عليه بعلم الاصوات الوصفي[4] ، وأخذوا بنظرية وحدة المعنى بين الكلمتين او الكلمات المتفقة في حرفين اثنين فقط او في حرف واحد[5] .

واكبر الظن ان الخليل لم يكن مطلعاً على ما انجزه الهنود في دراستهم للاصوات ، لأنه لم يثبت انه عرف الهندية القديمة او وقف على شيء من دراسات رجالها ، على اننا لا نقطع بالنفي ، اذ من المحتمل ان لا يكون وصل الينا خبر وقوفه على دراساتهم في الاصوات . ومع ذلك فان دراسة الخليل للاصوات تختلف اختلافاً كبيراً عن دراسة الهنود لها ، وبخاصة في تطبيقه نتائج هذه الدراسة في استخلاص آثار تمازج الاصوات وتجاورها[6] . وحتى الترتيب الصوتي للحروف ، وهي (٥١)

(١) البحث اللغوي عند الهنود ١٤٣ .

(٢) من اسرار اللغة ١٢٠ ودلالة الالفاظ ٦٢ .

(٣) من اسرار اللغة ١٢٦ .

(٤) البحث اللغوي عند العرب ٢٣٨ وعبقري من البصرة ٤١ ـ ٤٢ .

(٥) البحث اللغوي عند الهنود ١٤٣ .

(٦) التطور النحوي ٥ وعبقري من البصرة ٤٢ والبحث اللغوي عند العرب ٢٣٩ .

حرفاً لدى الهنود ، يختلف عن ترتيبها لدى الخليل[١] . كما ان ما شرحه الليث في مقدمة العين من طريقة توصل الخليل الى هذا الترتيب يوحي بانه كان بجهد الخليل الخاص وبذوقه المتميز[٢] . ويعضد هذا ان اللغويين العرب بعد الخليل ، خالفوا الخليل في ترتيب الحروف ، واول هؤلاء تلميذه سيبويه ، وخالفهما ابن جني في القرن الرابع[٣] . مما يدل على ان المسألة لدى الغرب اجتهادية اصيلة ولم يكونوا فيما انجزوه من دراسة الاصوات متأثرين دراسة معينة او مقلدين منهجاً سابقاً .

وقد فات الاستاذ الباحث ايضاً ان الخليل وغيره من اللغويين ، وجدوا بعد تقصيهم للغة واستقرائهم لموادها ما يشير الى انها كانت في طور من اطوارها التاريخية ثنائية الاصل ، وشواهدهم على ذلك لا تعدو القرآن الكريم واشعار العرب ولغاتهم المختلفة[٤] . واذا كانت مرحلة الاصل الثنائي مما تشترك العربية والسنسكريتية في الرجوع اليها ، فهذا لا يعني انها نقلت الى العربية على سبيل التقليد والمحاكاة ، ولا ادرى اي تطبيقات هذا الاشتقاق في العربية كان متكلفاً متعسفاً[٥] .

٢ ـ العمل المعجمي : بكر العرب ايضاً في دراستهم للمفردة العربية ، ووضعوا كتبهم ورسائلهم الخاصة يحصون بها نوعاً معيناً من الالفاظ ، كرسائلهم في الاضداد ، او المترادف ، او المشترك ، او غيرها ، كما وضعوا معجماتهم الجامعة لالفاظ اللغة ، وكان رائد المعجمات العين للخليل بن احمد المتوفى سنة (١٧٥ هـ) ، وتوالت بعده معجمات اللغويين ، تختلف في المنهج فيما بينها ، على ما سندرسه في الباب القادم بالتفصيل . الا ان من الدارسين العرب والمستشرقين من شك او طعن في اصالة هذه الاعمال لدى العرب ، فذهب بعضهم الى وجود تأثير هندي ، او عبري ، وآخر الى وجود تأثير يوناني ، او أعجمي عام ، وايد آخرون هذا المذهب او ذاك .

---

(١) البحث اللغوي عن العرب ٢٣٨ .

(٢) العين (الجزء المطبوع) ٥٢ .

(٣) العين (المطبوع) ٥٣ وكتاب سيبويه ٢/ ٤٠٤ وسر صناعة الاعراب ١/ ٥٠ .

(٤) الخصائص ٢/ ١٥٧ والكشاف ١/ ١٠١ والفائق ١/ ٥٠٨ .

(٥) انظر رسالتنا : الاضداد في اللغة ٨٥ .

فممن ذهب الى التأثير الهندي الدكتور محمد اسماعيل الندوي ، والدكتور احمد مختار عمر ، وذهب الثاني الى التأثير العبري ايضاً ، وممن ذهب الى التأثير اليوناني المستشرق بارتولد ، وذهب نفسه ايضاً الى تأثير الاعاجم عموماً في مجمل العلوم العربية ومنها العمل المعجمي :

أ ـ يقول الدكتور الندوي : « ان الهنود قد اثروا في وضع المناهج للقواميس (كذا) العربية[1]»

ب ـ يقول الدكتور احمد مختار عمر : « ان وضع العرب المبكرين لهذا النوع من المصنفات الخاصة في المترادف والمشترك كان من اثر دراسات لغويي الهنود في هذا المجال من البحث[2]» ودل على ذلك بذكر معجم (امارسنها) الذي كتب قبل القرن السادس الميلادي في المترادفات والمشترك ، ومعجم (ساسفاتا) للمشترك اللفظي الذي استشهد فيه بالابيات وانصاف الابيات وأرباعها ، ومعجم (هيماكاندرا) للمشترك اللفظي الذي رتب بدءاً بذات المقطع الواحد ثم ذات المقطعين الى ذات الستة المقاطع[3] .

ج ـ يقول الدكتور احمد مختار عمر أيضاً : « المجال الوحيد لاحتمال التأثير العبري على العرب في مجال الدراسات اللغوية هو الترتيب المعجمي بحسب القافية او الباب او الفصل . وقد سبق ان ذكرنا ان سعيداً الفيومي (ت ٣٣١ هـ) قد وضع عملاً معجمياً أسماه Agron (اكرون) رتبه او رتب قسماً منه على الاواخر . وأول من عرفناه من المعجميين العرب يرتب على الاواخر ابو ابراهيم اسحاق بن ابراهيم الفارابي (ت ٣٥٠ او ٣٧٠)[4] .

د ـ يقول المستشرق بارتولد: «الف الخليل كتابه المذكور ـ أي العين ـ في خراسان ، ويتضح من هذا القاموس (كذا) تأثير اليونان في علوم العرب[5] » .

---

(١) تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ١١٤

(٢) البحث اللغوي عند الهنود ١٣٣ .

(٣) البحث اللغوي عند الهنود ٩٤ ـ ٩٦ .

(٤) البحث اللغوي عند العرب ٢٤٩ .

(٥) تاريخ الحضارة الاسلامية ٣٩ .

هـ ـ يقول المستشرق بارتولد ايضا : « ولكن لم يكن اكثر هؤلاء الواضعين للعلوم العربية ايضا من العرب بل كانوا اعجاماً[1] » .

هـ ـ وقد أسرف الدكتور الندوي فيما ذهب اليه ، غافلا عن ان الهنود حتى ظهور اوائل المعجمات العربية لم يكن لديهم من مناهج المعجمات ما يمكن ان يكون المؤثر ، وليس فيما ظهر من أعمالهم المعجمية ما بلغ النموذج الذي يصلح للتقليد ، وان معجماتهم الناضجة تأخرت في الظهور ، اذ لم توضع المعجمات الهندية المهمة الا بعد ان وضع العرب اوائل معجماتهم الرائدة في القرنين الثاني والثالث الهجريين[2] . بل نذهب الى ابعد من ذلك مع المستشرق(Hay Wood هايوود) الذي يقول : « الحقيقة ان العرب في مجال المعاجم يحتلون مكان المركز سواء في الزمان او المكان بالنسبة للعالم القديم والحديث وبالنسبة للشرق والغرب . . . . المعجم العربي منذ نشأته كان يهدف الى تسجيل المادة اللغوية بطريقة منظمة . وهو بهذا يختلف عن كل المعاجم الاولى للامم الاخرى . التي كان هدفها شرح الكلمات النادرة او الصعبة[3]»

ومثله الدكتور احمد مختار عمر الذي فاته ان هذه الكتب او المعجمات العربية الخاصة في المترادف والمشترك وضعت لبحث ظواهر لغوية شائعة في العربية لفتت نظر اللغويين وشغلت اذهانهم ، وكانوا قد تحسسوا مشكلاتها ، فاندفعوا يحصون ويعالجون موادها ، بدافع خدمة القرآن والغيرة على اللغة مرة وبدافع المفاخرة بالبضاعة اخرى ، ولكن الاساس هو هو ، ولا يمكن ان يكونوا في هذا متأثرين بما فعل الهنود او مدفوعين بدافع التقليد والمحاكاة . وحسبنا هنا ان نورد للدكتور الباحث قولاً يدحض به قوله السابق ذكره في كتاب آخر ، يقول : « ليس هناك احتمال لوجود تأثير هندي على فن المعاجم العربية ، بل العكس هو الاحتمال القائم . . . وليست أسبقية العرب في مجال المعاجم مقررة بالنسبة للهنود وحدهم . بل بالنسبة للعالم اجمعه (كذا)[4] » .

---

(1) تاريخ الحضارة الاسلامية ٢٨ .

(2) البحث اللغوي عند العرب ٢٣٧ ، ٢٥٢

(3) Arabic Lexicogrphy ص ٢ نقلا عن : البحث اللغوي عند العرب ٢٣٨

(4) البحث اللغوي عند العرب ٢٣٧ .

اما ما زعمه الدكتور الباحث من وجود تأثير عبري في المعجمات العربية ، مستنداً في ذلك على سبق سعيد الفيومي الى نظام القافية او الحرف الاخير ، الذي اخذه الفارابي وطبقه في ديوان الادب ، ففيه وهم كبير ، ذلك ان الفارابي لم يكن أول من اخذ بنظام القافية في ترتيب مواد معجمه من اللغويين العرب كما يقرر الباحث الفاضل ، فقد سبقه ابو بشر اليمان بن ابي اليمان البندنيجي (ت ٢٨٤ هـ) الى هذا النظام في معجمه (التقفية) ـ وسنقف عليه طويلا في الباب القادم ـ مرتباً مواده بحسب الحرف الاخير او القافية كما يسميه البندنيجي نفسه ، وقد سبق البندنيجي سعيداً الفيومي ايضا ، اذ توفي البندنيجي وللفيومي خمس سنين من العمر .

ولعل أغرب هذه الآراء ما ذهب اليه بارتولد من وجود التأثير اليوناني في (العين) ، ولم يشر الى مواطن هذا التأثير ووجوهه . ولا (يتضح) لدارس المعجم مكامن التأثير ، أهو في الدراسة الصوتية التي ضمنتها المقدمة ، ام في منهج حصر الالفاظ ، ام في مادته اللغوية ، وقد مرت الاشارة الى ابداع الخليل في دراسته للاصوات : في ترتيب مخارجها ، وصفاتها ، ونتائج تجاورها ، وما الى ذلك ، وقلنا انه لم يثبت اطلاعه على دراسة الاصوات الهندية فضلاً عن دراسات الامم الاخرى ، ولم يؤثر عن اليونان انهم درسوا مخارج الاصوات وصفاتها اونتائج تجاورها ، بل اهملوا دراسة هذا الجانب من الاصوات وانما عنوا بعلاقة الاصوات بالدلالات ، وقلنا ان سقراط وافلاطون كانا قد ذهبا الى انكار وجود علاقة طبيعية بين الاصوات ودلالاتها ، ومذهبهما يخالف ما اثر عن الخليل من القول بوجود هذه الروابط الطبيعية بينهما حتى عد قائلاً بنظرية محاكاة الاصوات الطبيعية في نشأة اللغة .

وأما منهج الكتاب الذي حصر به الخليل الفاظ اللغة ، فقد أملاه عليه ذهنه العبقري ونظره الحاذق وحسه الموسيقي وولعه بالرياضة ، فقد اهتدى الى طريقة يحصي بها مفردات اللغة بحيث لا تشذ عنها واحدة ، كما اهتدى الى طريقة يحصر بها اوزان شعر العرب ، وطريقة يحصر بها اللحون والانغام ، وطريقة تتعلمها الجارية

فتذهب الى السوق فلا يغلبها البائع[1] . كما انه لم يزعم أحد ممن انكر على الخليل كتابه انه اخذ منهجه عن مثال سبقه لامة من الأمم او فرد من الافراد ، ولو كان هذا الزعم ممكناً لكان أول ما يرمى به الكتاب حين ورد على الدارسين في البصرة . ومثل هذا ما نقوله في مادة الكتاب ، فهي مفردات اللغة العربية ، وشواهدها من القرآن الكريم والشعر العربي والامثال العربية ولغات القبائل العربية .

فما الاثر اليوناني في (العين) ؟ والخليل لم يعرف اليونانية ، ولا غير اليونانية من اللغات القريبة والبعيدة حتى الساميات ، فلم ينسب اليه انه اتقن احداها ، ولا نذهب الى ما ذهب اليه الدكتور رمضان عبدالتواب من معرفة الخليل بالكنعانية[2] . مستنداً الى قول الخليل في العين : « وكنعان بن سام بن نوح ، ينسب اليه الكنعانيون ، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية[3] » فمجرد معرفته بمضارعة الكنعانية العربية لا تعني معرفته بالكنعانية . ومهما يكن فان التعصب على الخليل وعلى العرب هو الذي دفع من دفع الى اتهام العرب بتأثرهم بغيرهم ، وكأن الغاية من ذلك تجريد العرب من الابداع والمقدرة على الابتكار .

وخير ما يدل على هذا محاولة بارتولد نفسه في انكار سبق العرب الى دراسة العلوم العربية وجهودهم الكبيرة في ذلك ، ذاهباً الى ان ذلك تم على ايدي غير العرب من الاعاجم . ولا ادري كيف جاز عليه ان كل الواضعين للعلوم العربية الاوائل هم من العرب ، ولم يكن بينهم من غير العرب احد ، فلو بدأ بابي الاسود ماراً بتلاميذه وبعيسى بن عمر وابي عمرو بن العلاء وابن ابي اسحاق والخليل ، وجمهرة كبيرة من اللغويين والنحاة والقراء الذين هم اول الواضعين للعلوم اللغوية العربية على وجه الخصوص ، لما وجد غير العرب .

٣ ـ النحو : لم يسلم النحو العربي ايضاً من مزاعم التأثر بالنحو الاجنبي ، فقد تشكك عدد من الدارسين العرب والمستشرقين باصالته ونقائه ، فذهب بعضهم

(١) وفيات الاعيان ١/٢٠٧ والبغية ٢٤٥ .

(٢) فصول في فقه العربية ٢٩ ـ ٣٠ .

(٣) العين (الجزء المطبوع) ٢٣٢ .

الى تأثره بالنحو الفارسي على يد ابن المقفع ، وذهب آخرون الى تأثره بالنحو اليوناني على يد ابن المقفع وحنين بن اسحاق وابنه اسحاق بن حنين ، وذهبت طائفة ثالثة الى تأثره بالنحو السرياني على يد يعقوب الرهاوي ، ومنهم من أجمل التأثر المزعوم بالحكمة الاجنبية عموماً :

أ ـ ذهب المستشرق دي بور الى تأثر النحو العربي بالنحو الفارسي القديم ، زاعماً ان ابن المقفع « يسر للعرب الاطلاع على كل ما كان في اللغة الفهلوية من ابحاث لغوية ومنطقية[1] » . وجعل الدكتور شوقي ضيف ابن المقفع طريقاً الى تأثر النحو العربي بالنحو اليوناني ، لأن ابن المقفع ترجم منطق ارسطو الى العربية ، وبصداقته للخليل « قرأ ـ اي الخليل ـ كل ما ترجمه وخاصة منطق ارسطاليس[2] » .

ب ـ وذهب دي بور ايضاً الى تأثر النحو العربي باليوناني على يد حنين بن اسحاق وابنه اسحاق بن حنين وتلاميذهما ، فقد « شملت ترجمتهم كل علوم ذلك الزمان[3] » . ويرى الدكتور احمد امين ان حنيناً تعلم اليونانية ولازم الخليل[4] . وأيده الدكتور ابراهيم بيومي مدكور وذهب الى ان حنيناً تبادل مع الخليل فيما تبادل بعض القواعد النحوية[5] ، وعضدهما الاستاذ مصطفى نظيف ورأى ان حنيناً تعلم العربية على الخليل[6] .

ج ـ وذهب الدكتور ابراهيم بيومي ايضا الى تأثر النحو العربي بالنحو السرياني على يد يعقوب الرهاوي الذي كان « له شأنه في وضع النحو السرياني ، وهو معروف في الاوساط العربية[7] » وكان جرجي زيدان يأخذ بهذا المذهب ،

---

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام ٣٨ .
(٢) المدارس النحوية ٣٠ .
(٣) تاريخ الفلسفة في الاسلام ٢٥ .
(٤) ضحى الاسلام ١ / ٢٩٨ .
(٥) مجلة الازهر : مجلد ٢٣ ج٩ ، ١٠ ـ ١٣٧١ هـ .
(٦) محضر الجلسة السابعة لمؤتمر اللغة العربية ١٩٤٨/ ١٩٤٩ م .
(٧) مجلة الازهر : مجلد ٢٣ ص ٤٢ .

ودليل صحته لديه ان « اقسام الكلام في العربية هي نفس اقسامه في السريانية[1] » .

د ـ وذهب دي بور الى ان النحو العربي تأثر بالفلسفة والمنطق الاجنبيين دون ان يحدد مصدرهما ، وربما كان يحاول ان يربط نشأة النحو في البصرة بالمنطق اليوناني والفلسفة الهندية والنحو السرياني عموماً ، قال : « كان بين نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين فسحوا السبيل للحكمة الاجنبية لكي تؤثر في مذاهبهم الكلامية[2] » ، وهو يعني في (مذاهبهم الكلامية) مذاهبهم في دراسه النحو ، لانه ذكر نحاة البصرة .

اما الزعم بان ابن المقفع كان الطريق لتأثير النحو الفارسي او اليوناني في النحو العربي فباطل من جهتين ، الاولى : صداقة ابن المقفع للخليل ، والثانية ترجمته لمنطق ارسطو . فالصداقة تلك لم تثبت ولم تصح ، والمصادر تشير الى ما يشعر بغير ذلك ، اذ تورد خبر رغبة ابن المقفع بلقاء الخليل ، وحدوث هذا اللقاء مرة واحدة ، ولم يتكرر كما يبدو[3] . وترجمة ابن المقفع لمنطق ارسطو لم تثبت ايضاً ، بل « اثبت الاستاذ بول كراوس ان الذي ترجم منطق ارسطو هو محمد بن عبدالله بن المقفع ، لا ابن المقفع نفسه[4] » . وعليه فترجمة منطق ارسطو ـ التي زُعِمَ ان الخليل قرأها ـ تمت بعد وفاة الخليل .

وشبيه بهذا ما ذهب اليه القائلون بتأثير النحو اليوناني على يد حنين بن اسحاق وصحبته للخليل ، ذلك ان هذه الصحبة لم تثبت ، وكشف البحث العلمي الوهم فيها . ذلك انهم حين اعتمدوا على الخبر الذي اورده ابن جلجل (٣٨٤) اول مرة[5] ، ونقله عنه القفطي (ت ٦٤٦ هـ)[6] ، وابن ابي اصيبعة (ت ٦٦٨)[7]

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ١/ ٢٥١ .

(٢) تاريخ الفلسفة في الاسلام ٣٨ .

(٣) طبقات النحويين واللغويين ٤٥ .

(٤) عبقري من البصرة ٨٨ .

(٥) طبقات الاطباء والحكماء ٦٨ ـ ٦٩ .

(٦) اخبار العلماء ١١٨ :

(٧) عيون الانباء ١/ ١٨٤ .

حول صحبة حنين للخليل ، لم يمحصوه فظلوا داخل نطاق وهمه . وقد ابان استاذنا الدكتور المخزومي وجه الغلط فيه ، اذ وجد ان حنيناً لم يولد الا بعد وفاة الخليل بنحو تسعة-عشر عاماً ، لأن الخليل توفي سنة (١٧٥ هـ) وحنينا ولد سنة (١٩٤ هـ) ، وقال : « والعجيب ان يذهب صاحب ضحى الاسلام الى هذا ، وكان قد نص في الجزء الاول من ضحى الاسلام على سنة ولادة حنين ووفاته » ونص في الجزء الثاني على سنة ولادة الخليل ووفاته [1] » .

كما ان دعوى التأثر بالنحو السرياني لا يسندها دليل علمي ، ذلك ان نظرية العامل مثلاً في النحو العربي لا وجود لها في اي نحو آخر[2] . وان وجود تشابه في تقسيم الكلمة الى اسم وفعل واداة في العربية والسريانية لا يدل على تأثر العربية بالسريانية ، لان هذا التقسيم موجود في اكثر لغات العالم، فما يصدق على العربية والسريانية يصدق على اي لغتين اخريين . بل هناك ما يدل على تأثر النحو السرياني بالنحو العربي تأثراً كبيراً سنأتي على الاشارة اليه بعد قليل .

وأما ما زعمه دي بور من تأثر النحو العربي في البصرة بالحكمة الاجنبية ، فلا دليل عليه في مرحلة النشأة الاولى حتى عصر الخليل ، وما قلناه سابقاً في رد المزاعم كفيل بتأييد ما نقوله الآن ، اذ لم تكن الثقافات الاجنبية حتى العصر المذكور بقادرة على التأثير ، فلم يفد منها الا اقلها ، نعم كان لهذه الثقافات اثر يزداد بروزاً منذ القرن الثالث ، فلا يبعد ان يكون النحاة العرب بعد الخليل ـ وبخاصة منذ اواسط القرن الثالث ـ قد اطلعوا على نحو اللغات الاخرى ودرسوا فلسفاتها ، الا ان ترسمهم لذلك النحو عند وضعهم النحو العربي بعيد جداً .

ولو تتبع الدارس المتفحص اثر العرب في الدراسات اللغوية الاجنبية ، لعجب من مزاعم هؤلاء في تأثرهم بالهنود واليونان والسريان وغيرهم ، ولاطمأن الى بطلان هذه الدعوى وتعسفها بحق العرب .

وعلى صعيد المعاجم فقد تأثر الاتراك بالعرب ، ومن مظاهر هذا التأثر :

---

(١) عبقري من البصرة ٩٠

(٢) المدارس النحوية ٢٠ .

ترجمة (الصحاح) الى التركية ، ووضع الكاشغري (ت ٤٦٦) معجمه (ديوان لغات الترك) على منهج (ديوان الادب للفارابي) ، ووضع شيخ الاسلام ملا صالح افندي (من المتأخرين)معجمه(قاموس الاروام في نظام الكلام) على منهج (الصحاح للجوهري)[1] . كما تأثر الفرس بالعرب في هذا المجال من الدرس اللغوي ، فقد ترجم ابو الفضل محمد بن عمر بن خالد القرشي عام ٦٨١ صحاح الجوهري ما عدا شواهده ، وسمى هذه الترجمة (الصراح من الصحاح) ، والف هندو شاه بن سنجر الكيزاني (كان حياً ٧٣٠) صحاح العجم على منهج واسلوب صحاح الجوهري ونص المؤلف على ذلك ، ووضع الزوزني (٤٨٦) معجمه (المصادر) على ترتيب (ديوان الادب للفارابي) ونص المؤلف على ذلك ايضا ، كما تأثر بديوان الادب ايضا بو جعفرك (ت ٥٤٤) في معجمه (تاج المصادر)[2] .

هذا عدا تأثر الفرس والاتراك بالكتابة العربية وحروفها الهجائية ، التي ما زالت مستعملة عند الفرس الى اليوم ، وعند الاتراك الى عهد قريب ، وعدا تأثر الفرس والاتراك ايضاً ومعهم السريان بالعروض العربي وموسيقى الشعر ونظام القوافي العربي ، وذلك واضح لدى الشاعر منوجهري (الفارسي) والشاعر يوحنا ابن خلدون (السرياني)[3] .

كما تأثر النحو السرياني بالنحو العربي تأثراً كبيراً حتى بلغ ان وضع ابن العبري (كتاب الاشعة) على غرار (المفصل) للزمخشري ، كما تأثر النحو العبري بالنحو العربي تأثراً واضحاً في مؤلفات ابي يوسف القرقساني ومؤلفات يهوذا بن حيوج النحوية ، وكتاب (اللُّمع) لابي الوليد بن جناح[4] . وتأثر النحاة الاقباط وعلى رأسهم ابن كاتب قيصر بالنحو العربي الى درجة دعت الشيخ الوجيه القليوبي صاحب (الكفاية) الى لوم النحاة الاقباط لتأثرهم البالغ بمنهج النحو العربي في

---

(١) البحث اللغوي عند العرب ٢٥٣ ـ ٢٥٦ .

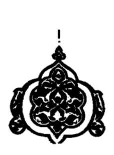
(٢) نفسه ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

(٣) تاريخ اللغة السريانية ٢٦٨ ـ ٢٧٠ نقلاً عن البحث اللغوي عند العرب ٢٥٧ .

(٤) البحث اللغوي عند العرب ٢٥٠ ـ ٢٥٢ .

اصوله وفروعه وسيطرته على مؤلفاتهم[1]

من هذا يظهر اثر العرب البالغ في سواهم من الامم في مجال الدرس اللغوي ، واذا كان العرب على هذه الدرجة من التأثير فكيف يمكن ان نقبل حكاية تأثرهم بالهنود واليونان والسريان ، التي لم يثبتها دليل ولم يدعمها سند يركن اليه ، وما هي الا مزاعم وافتراضات ، اعتمدت السبق الزمني فبنت عليه فكرة التأثر والتأثير .



(1) تاريخ اللغة العربية في مصر ١٥٤ ـ ١٥٥

الباب الثاني

التأليف

الفصل الأول التأليف المختلط

الفصل الثاني كتب الموضوعات اللغوية المستقلة

الفصل الثالث المعجمات اللغوية



الفصل الأول

التأليف المختلط

مقدمة ـ التأليف المختلط بين موضوعات اللغة والنحو والصرف وغيرهما ـ كتب معاني القرآن ومجازه وتأويله ـ التأليف المختلط بين موضوعات اللغة ـ كتب النوادر والامالي .

مقدمة :

اشرنا في الفصل السابق عند كلامنا على (اختلاط الدراسات اللغوية وانفصالها) الى ان الدرس اللغوي نشأ مختلطا متداخلا في غيره من فروع الدراسات اللغوية وغير اللغوية . فكانت عناية الدارسين الاوائل موزعة على اكثر ميادين المعرفة حينذاك . والسبب في ذلك ـ كما قررنا ـ خدمة القرآن الكريم في توضيح مراميه التشريعية وتفسير دقائقه اللغوية . ولا بد على هذا الاساس ان يحاط نصه المقدس بالاهتمام المتنوع الذي ادى الى اختلاط الدراسات فيما بينها ، حيث وضعت الكتب والمصنفات اللغوية ، وهي على هذا النحو من الاختلاط والتداخل والتنوع ، وهي بذلك تمثل المرحلة الاولى من مراحل التأليف الذي كان لا يقوم على خطة ، ولا على تخصص ، فكانت تجمع الالفاظ كيفما اتفق ، « فالعالم يرحل الى البادية يسمع كلمة في المطر ، ويسمع كلمة في اسم السيف ، واخرى في الزرع والنبات ، وغيرها في وصف الفتى او الشيخ ، الى غير ذلك . فيدون ذلك كله حسبما سمع ، من غير ترتيب الا ترتيب السماع »[1]

وحين نعد التأليف المختلط ممثلا المرحلة الاولى ، لا نعني انه كان يفصل بينها وبين مرحلة التأليف المستقل التي تلتها فاصل زمني ، بل ترافقت المرحلتان منذ نشوئهما ، كما تدل على ذلك آثار الاوائل الذين مر بنا عرض اسمائهم وتنوع اختصاصاتهم ، وسنخصص الفصل القادم لدراسة كتبهم المستقلة في موضوعات

(١) ضحى الاسلام ٢/ ٢٦٣

مختارة . الا ان تقديم هذه المرحلة على اختهـا كان لأمـرين ، الاول : ما يقتضيه التسلسل المنطقي في نشوء الدراسات وتطورها ، فالاختلاط فيهـا من مستلزمـات نشأتها ، والاستقلال من امارات النضج والتطور . والثاني : ان ظاهرة الاختلاط هذه ظلت تساير التأليف في اللغة حتى بعد ظهور معجمات الالفاظ والمعاني ولـم تختف في وقـت ما ، اذ استمـرت الى نهـاية القـرن الثالـث حيث سنقف في هذه الرسالة ، بل ظلت هذه الظاهرة حية الى القرون المتأخرة القريبة من عصرنا .

ولعل ابرز مثل على ما نزعمه ـ من مؤلفات العصر الذي نؤرخ له ـ كتاب سيبويه (ت ١٨٠ هـ) الذي عاصر مرحلة التأليف المستقل ، ومعجم (العين) . وكذلك كتـاب المقتضـب للمبـرد (ت ٢٨٥ هـ) الـذي عاصر مرحلـة وضـع المعجمات ، بل جاء بعد ظهور عدد منها كالعين والجيم وغيرهما . ومثل الكتـاب والمقتضب مجموعة من المصنفات سارت على منهجهما ، وضعها مؤلفوهـا لتكون مراجع الدارسين في احتوائها على اغلب فروع الدراسات اللغوية وابوابها المعروفة في ذلك الحين ، ففيها البحث اللغوي والصرفي والنحوي والعروضي وما اليه . وقـد طغت عليها صفة النحو ، واشتهرت على انها من كتبه ، وهي لم تتمحض له . وانما كان هذا التغليب لأمرين ، الاول : غلبـة الدراسـة النحـوية على غيرهـا في هذه الكتب ، والثاني : غلبة صفة النحو على مؤلفيها . وسنرجع اليهـا في تضـاعيف الرسالة .

وتقتضي الدقة ان نقسم كتب التأليف المختلط على قسمين ، يدخل في القسم الاول الكتب التي اختلطت فيها الدراسات اللغوية عموما فقها ونحوا وصرفا بغيرها من الموضوعات الدينية والكلامية والادبية وما الى ذلك ، وخير ما يمثل هذا القسم كتب معاني القرآن ومجازه وتأويله . اما القسم الثاني فيدخـل فيه الكتـب التـي اختلطت فيها موضوعات اللغة ، ففيها الغريب واللغات والحيوان والنبات والمعرب والمترادف والاضداد وما الى ذلك مما يدخل في اطار اضيق من اطار القسم الاول ، وذلك انها لم تخرج عن مجال فقه اللغة وموضوعاته كثيرا ، وخير ما يمثل هذا القسم كتب النوادر والامالي .

ولا يعني هذا التقسيم انه لم توجد في احد القسمين ظواهر من القسم الآخر فلم يكن القدماء يعرفون هذه الحدية في التأليف ، ذلك انهم لم يتعمدوا ان يضعوا كتبهم هكذا ، فنجد في بعض كتب القسم الاول اهتمام خاص بجانب من الجوانب اللغوية ، كما نعثر في كتب القسم الثاني على كلام يخرج المؤلف من دائرة كتابه الى موضوع بعيد احياناً ، فوجود هذه الاستثناءات لا يطعن في صحة هذا التقسيم. وسنقف من خلال دراستنا لما وصل الينا من مؤلفات هذين الميدانين المختارين على طريقة وضعها ومنهج المعالجة فيها وتتبع تطورها ، معتمدين في التسلسل على السبق في الظهور ، وهذا الاخير يحدده تاريخ وفاة المؤلف . فان وقع لنا ما يكشف عن تاريخ تأليف الكتاب نصصنا على ذلك وافدنا منه .

التأليف المختلط بين موضوعات اللغة والنحو والصرف وغيرهما

كتب معاني القرآن ومجازه وتأويله :

وهي المؤلفات التي وضعها مؤلفوها لبيان معاني آيات الكتاب الكريم وبيان مشكلاتها اللغوية والنحوية والصرفية ، وشرح غوامض الفاظها وغريب مفرداتها ، وازالة اللبس في تعارضها ومتشابهها ، فهي على هذا آخذة من اللغة بطرف ومن التفسير وبيان الاحكام بطرف ، ولا غنى لمن يريد الوقوف على الناحيتين من الرجوع اليها ، وهي تأخذ بمبدأ الانتخاب من الآيات القرآنية ، فيما تريد ان تبحث فيه موضوعا او تناقش مسألة ، وهذه هي الخصيصة التي تختلف فيها عن كتب التفسير التي تستقصي آيات القرآن بيانا وشرحا .

واول من وصل الينا خبر تأليفه واصل بن عطاء (١٣١) ، ثم يونس بن حبيب (١٨٢) فقد وضع في معاني القرآن كتابين صغيرا وكبيرا ، ثم ابو جعفر محمد ابن الحسن الرواسي (١٨٧) والكسائي (١٨٩) ، وابو فيد مؤرج السدوسي (١٩٥) ، وقطرب (٢٠٦) ، وابو محمد اليزيدي (٢٠٢) ، والفراء (٢٠٧) ، وابو عبيدة (٢١٠) ، [1] والاخفش (٢١١) ، وابو عبيد القاسم بن سلام

(١) وقد وهم الخطيب البغدادي في عد ابي عبيدة هذا اول من الف في معاني القرآن ، انظر : تاريخ بغداد ١٣/ ٢٥٢ ، ومثله ابن خير في فهرسته ١٣٤ .

(٢٢٤) ، وابن قتيبة (٢٧٦) ، والمبرد (٢٨٥) ، وثعلب (٢٩١)، وابن كيسان (٢٩٩) ، والمفضل بن سلمة (٣٠٠) . وقد وصل الينا من هذه المجموعة كتب : الفراء وابي عبيدة والاخفش وابن قتيبة .

معاني القرآن للفراء :

اما كتاب معاني القرآن للفراء [١] ، فقد وصلت الينا احدى روايتيه وهي التي طبع منها الكتاب ، وهي رواية محمد بن الجهم السمرّي (ت ٢٧٧) ، الذي حدد لنا في صدر الكتاب زمن املاء الفراء له، وكان ذلك سنة اثنتين وثلاث واربع ومائتين[٢] وهـذا يعـني انه املاه في اواخر حياته اذ توفي الفراء سنة (٢٠٧). اما الرواية الثانية التي لم تصل الينا نسختها فهي رواية سلمة بن عاصـم ، التـي اعتمدهـا القدماء وفضلوها على اختها [٣] . وكان سبب قعود الفراء لاملاء هذا الكتـاب ان عمر بن بكير صاحبه الذي كان منقطعا للحسن بن سهل قد كتب اليه ان يضع كتابا في معاني القرآن يرجع اليه حين يسأله اميره الحسن بن سهل عن شيء من القرآن[٤]. وقد سمـــاه السمـرّي راويه (تفسير مشكل اعراب القرآن ومعانيه) وهي تسمية تعتمـد موضـوع الكتـاب في اطلاقهـا ، وهـي لا تختلف في جوهرهـا عن عنوانـه المشهور .

عالج الفراء في كتابه آيات القرآن الكريم التي يرى فيهـا مشكلـة معينـة ، واهمل الآيات التي لا اشكال فيها ، فهو اذن لا يستقصي آيات القرآن وانما يقف على ما اشكل منها ، على انه التزم في تناوله الآيات بترتيبها في السورة ، والتزم بترتيب السور في القرآن ، فالفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران وهكذا ، والآية الثانية مثلا ثم

---

(١) طبع الجزء الاول سنة ١٩٥٥ بتحقيق : احمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ، والجزء الثاني د . ت بتحقيق : محمد علي النجار ، والجزء الثالث سنة ١٩٧٣ بتحقيق د . عبد الفتاح اسماعيل شلبي . وكلها في القاهرة الاول دار الكتب والثاني والثالث الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) معاني القرآن ١/١

(٣) طبقات النحويين واللغويين ١٥٠

(٤) الفهرست ٩٩ .

الخامسة ثم التاسعة وهكذا ، واكبر الظن انه لم يحد عن هذا الترتيب في كتابه .
ويختلف الجانب الذي يعالج منه الآية ، باختلاف ما يراه من اشكالها ، فمرة يكون كلامه على الرسم ، ومرة على لغة وردت في لفظة ، وتارة يوجه قراءة معينة ، أو شاهدا على استعمال خاص ، واخرى يناقش مسألة نحوية ، او صرفية ، واحيانا يتكلم على اسباب النزول ، والاحكام الشرعية،ومظاهر الاعجاز ، والفواصل ، والوقف وما الى ذلك من موضوعات تتصل جميعا بهذه الآيات التي ندب الفراء نفسه للدفاع عن لغتها واحكامها واعجازها في هذا الكتاب .

فقد تحدث عن الرسم حين عرض لحذف الالف من (اسم) في البسملة ، معللا ذلك بالتخفيف ، والعرب كثيرا ما تلجأ الى الحذف اذا كثر في كلامها [1] .
واعتمد على القراءة والقراء في قوله تعالى : (الحمدُ لله) برفع الحمد ، وعلى العرب بفتح الدال وعليهم ايضا بضم الدال واللام التي بعدها ، وعلى الذوق اللغوي في كسر الدال . [2] . وناقش اعراب (غير) و (لا) في قوله تعالى : (غير المغضوب عليهم ولا الضّالين) نقاشا نحويا قائما على تحليل الشواهد وتوضيح اوجهها الجائزة في العطف والزيادة وبينّ مواطن استعمالها [3] . ووقفه قوله تعالى : (وفومها وعدسها وبصلها) على ظاهرة الابدال في العربية ، واستشهد لوقوعها بأمثلة من كلام العرب ونص على سماعه من بني اسد ابدالهم الفاء من الثاء كثيراً [4]
واطال الوقوف على ظاهرة تذكير الفعل وتأنيثه عند قوله تعالى : (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) فلم يدع شيئا الا قاله واستشهد به [5]

والفراء ـ عملا بمنهجه المدرسي ـ يعتمد على الرواية والنقل كثيرا في معالجته للايات ، فيحتج بقول امرأة من طيء سمعها هو في توجيه الهمز في دريت ودرأت في قوله تعالى (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ويخرج على اساس هذا

---

(١) معاني ١/٢ ـ ٣
(٢) ١/٣
(٣) ١/٨
(٤) ١/٤١
(٥) ١/١٢٥ ـ ١٣١

السماع قراءة الحسن [1] . ويحتج على ابي عبيدة بلفظة من المشترك اخذ الفراء بأحد معانيها في تفسير الشاهد ، وكان ابو عبيدة قد اخذ المعنى الآخر في تفسيره [2] . وهو قد يفسر الآية الكريمة بالقرآن نفسه [3] ، أو ينقل فيها آراء المفسرين الذين يخالفهم احيانا ويرد عليهم كما حدث في معالجته لقوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) [4] ، وخالفهم ايضا في تفسير قوله تعالى : (ما منعك الاّ تسجُد) قائلا بزيادة (لا) [5] ، وهو من القائلين بهذه الزيادة في القرآن معبرا عنها بالصلة ، مخالفا بذلك جمهرة من المفسرين المنكرين لحروف الزيادة في القرآن .

وهو الى جانب تحكيمه النقل فيما يوضح من معان ويقرر من حقائق ، كان يخلد الى ذوقه الخاص وفهمه المتميز ،فقدآمن ان اللغة تتطور تطورا لا يخضع لمنطق الدرس او قواعده [6] . فعني بالاشارة الى تعدد اساليب العرب في التعبير وبعضها بعيد عن المألوف فيظن فيه الخطأ [7] . وانطلق من قوله تعالى : (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة) يحدد دخول الباء على الثمن والمبيع والمبادل [8] ، ويضع في ذلك القواعد العامة . واستنادا الى هذا الذوق كان كثيرا ما يكرر عبارة (ولا اشتهي ذلك) وهو بصدد الرد على رأي معين او تفنيد مذهب خاص [9] ، وهو خلال ذلك يعمد الى امثلة يصطنعها دعما لرأيه او شاهده [10] . مشيرا الى اوجه بلاغة الآيات ، فذكر الالتفاف ، والمجاز ، والايجاز ، والحذف ، والاستفهام ، والتعبير عن النفي بالتعجب ، وعن الامر بالجزاء ، وما الى ذلك [11] .

---

(١) ١/ ٤٥٩

(٢) ١/ ٨

(٣) ١/ ١٥ ، ٤٩

(٤) ١/ ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٨

(٥) ١/ ٣٧٤ ، وانظر : ١/ ٢١ ، ٤٦ ، ٢٤٤ .

(٦) ١/ ٢٥ ، ٣٢

(٧) ١/ ٣٧

(٨) ١/ ٣٠

(٩) ١/ ١٢٥

(١٠) ١/ ٢ ، ٢٩ ، ٨٨ ، ٣٤٨

(١١) ١/ ١٤ ، ٢٣ ، ٤٨ ، ٦٣ ، ٤٢٣ ، ٤٤١

واكثر الفراء من النقل عن المفسرين والقراء كابن عباس ومجاهد وغيرهما [١] . وعن اساتذته اللغويين وكثرتهم الكاثرة من الكوفيين . على اننا لا نعدم ان نعثر على نقله عن يونس بن حبيب وهو بصري [٢] . واخذ عن الاعراب الفصحاء ، والقبائل الفصيحة وعلى رأسها اسد [٣] . وشواهده كثيرة متنوعة ، فمنها القرآن نفسه ،وقد اشرنا الى استشهاده بالآية على الآية ، وبلغات العرب [٤] ، وبالشعر الجاهلي والاسلامي ، ينسبه مرة ويغفله اخرى ، والكثير ان ينسبه الى القائل [٥] ، وقد يغفله في موضع وينسبه في موضع آخر ان تكرر استشهاده بالبيت [٦] ، مما يدل على عدم جهله بصاحبه . وقد يكتفي بالنص على قبيلة القائل دون تعيينه [٧] ، اهتماما باللغة التي يريد الاستشهاد بها . وكذلك فعل في استشهاده بالقراءات ، فاكثرها منسوب [٨] ، واقلها غفل من النسبة ، وكان يرجح احيانا قراءة شاذة على اخرى مشهورة [٩] . او يعادل بينهما دون ترجيح [١٠] . ولم يهمل في كثير من الآيات الكلام على اسباب النزول [١١] . والاستطراد الى ذكر عادات الجاهليين واخبارهم [١٢] .

هذه هي اهم ظواهر الكتاب ، الذي اجتمع لاملائه خلق لم يضبط عددهم وراقو الفراء الذين حضروا وارادوا ان يعدوا الناس المجتمعين [١٣] ، ويكفي ان نعلم انه كان بينهم ثمانون قاضيا [١٤] ، وان الوراقين خزنوه بعد ان تم ليتكسبوا به ، فنسخوا كل

---

(١) ٣٤٩/١

(٢) ١٢٧/١

(٣) ٤١/١

(٤) ٢٨٦/٣

(٥) ٢٣/١ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٦٨ .

(٦) ٢٨٨/١ ، ٤٨٠

(٧) ٤٠/١ ، ٤٢ ، ٥٦ ، ٦٨ ، ١٨٢

(٨) ١١/١ ، ٢٤ ، ٤٣ ، ٧٥ .

(٩) ١٢٥/١

(١٠) ٤٣/١

(١١) ٦٢/١ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ٧٤

(١٢) ١٢٢/١

(١٣) معجم الادباء ١٢/٢٠

(١٤) وفيات الاعيان ٣٠١/٢

خمس اوراق منه بدرهم [١] . وهذا كله يدل على اثر الكتاب في الدراسات اللغوية والقرآنية ، وقيمته العلمية لدى الدارسين ، وحاجة الحلقات العلمية اليه .

مجاز القرآن لابي عبيدة :

واما كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي [٢] ، فقد وصلت الينا رواية ابي الحسن علي بن عبد العزيز له عن ابي الحسن علي بن المغيرة الاثرم عن ابي عبيدة مؤلفه ، كما وصلت رواية ابي محمد ثابت بن ابي ثابت عن الاثرم ايضا ، ومن نسخ هاتين الروايتين المتفرعتين عن رواية الاثرم طبع الكتاب . اما رواية ابي حاتم السجستاني التي نقلها عنه ابو سعيد السكري ، ورواية ثعلب عن الاثرم [٣] ، فلم تصلا الينا . وقد وقفنا ياقوت الحموي من خلال خبر اورده عن مقدم ابي عبيدة الى الفضل بن الربيع ، وما حدث له في مجلسه من تفسير آية سئل عنها ابو عبيدة ، على ان ابا عبيدة قد الف (مجازه) سنة (١٨٨ هـ) [٤] ، وهذا يعني ان الكتاب الف قبل معاني القرآن للفراء بحوالي ست عشرة سنة ، ولولا ان الزمنا انفسنا باعتماد تاريخ الوفاة في التسلسل ، لكان من حق هذا ان يتقدم ذاك .

وحين اطلق ابو عبيدة على كتابه عبارة المجاز ، لم يكن يعني فيها ما يعنيه البلاغيون من وجوه المصطلح المعروف ، وانما عنى فيها ما تعني كلمة تفسير وغريب وتقدير ومعنى وتأويل وما الى ذلك ، فهو قد يبدأ كلامه على الآية بأي واحدة من العبارات المذكورة من غير معيار معين او اساس ملتزم . ومن هنا يداخلنا الشك في صحة ما فعله ابن النديم من نسبة كتاب (معاني القرآن) وكتاب (غريب القرآن) وكتاب (اعراب القرآن) له ، على انها كتب مستقلة غير كتابه في مجاز القرآن ، ونحن نعتقد مع محقق المجاز انها جميعا كتاب واحد هو كتاب مجاز القرآن تعددت عناوينه لشموله هذه الفنون القرآنية [٥] ، يؤيد ذلك ان بعض المصادر القديمة

---

(١) معجم الادباء ٢٠/١٣
(٢) طبع بجزءين بتحقيق د . محمد فؤاد سزكين نشر الخانجي بمصر سنة ١٩٥٤ ، ١٩٦٢
(٣) فهرسة ابن خير ٦٠ .
(٤) معجم الادباء ١٩/ ١٥٨ .
(٥) مجاز القرآن (مقدمة المحقق) ١٨ .

نصت على ان معاني القرآن لابي عبيدة هو كتابه المجاز ، او ان غريب القرآن له هو المسمى بالمجاز[1] .

واشبه الدافع الذي دفع ابا عبيدة الى تأليف مجازه الدافع الذي دفع الفراء الى تأليف معانيه ، وذلك ان ابراهيم بن اسماعيل كاتب الفضل بن الربيع سأل ابا عبيدة عن تفسير شيء من القرآن ، في المجلس الذي اشرنا اليه قبل قليل ، فعقد الامر على وضع كتاب في معاني القرآن بعد ان اجاب السائل [2] ، وبعد ان وجد ـ من خلال هذه الآية ـ ما يدعو الى بيان وشرح وجلاء في آيات القرآن معاني والفاظا بعد ان بعد العهد بعصر التنزيل « فلم يحتج السلف ولا الذين ادركوا وحيه الى النبي صلى الله عليه وسلم ان يسألوا عن معانيه ، لأنهم كانوا عرب الالسن ، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص ، وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الاعراب ومن الغريب والمعاني [3] » . فزيادة على الدافع المباشر من مسألة السائل عن معنى الآية ـ وهو الدافع المشترك بينه وبين الفراء ـ كان ابو عبيدة مدفوعا باعتقاده ان بالناس حاجة الى مثل هذا الكتاب وقد قصروا عن ادراك معانيه وغريبه وفهم اساليبه واستعمالاته التي هي جميعا على سنن العربية في قواعدها واغراضها .

واشبهه في الترتيب ايضا ـ واعني كتاب الفراء ـ اذ التـزم ابـو عبيدة بتناولـه السور حسب ورودها في القرآن فبدأ بالفاتحة وانتهى بالناس ، كما التزم بترتيب الآيات حسب ورودها في كل سورة ، وسار على مبدأ الانتخاب نفسه ، فيختار من الآيات ما يرى فيها مشكلا ، فيتكلم فيها بحسب نوع المشكلة ، غير انه بصفة عامة اكثر اختصارا من كتاب الفراء ، فقد يتفق الا يزيد تعليقه على الآية على كلمة واحدة [4] . ولكن ابا عبيدة لم يبدأ بالتفسير والشرح منذ الصفحة الاولى من كتابه كما فعل الفراء وانما قدم

---

(١) طبقات النحويين ١٢٥ وفهرسة ابن خير ١٣٤ .

(٢) وفيات الاعيان ٢/ ١٥٥ .

(٣) مجاز القرآن ١/ ٨ .

(٤) انظر مثلا : ١/ ١٢٦ ، ٢٢٣ ، ٣٣٠ .

لكتابه بمقدمة مهمة قسمها قسمين ، خص القسم الاول منها بالكلام على معنى كلمة (القرآن) ولماذا سمي كتاب الله قرآنا ، وعلى معنى (السورة) وعلى اللغة التي تهمزها ، وجمعها ومعناها ، وعلى معنى (الآية) وجمعها وتعدد اسمائها ، وعلى تعدد اسماء بعض السور ، واسماء مجموعة منها ، ولا يغفل اثناء ذلك الاستشهاد بالشعر والرجز والنص على اللغات [1] . وأفرد القسم الثاني من المقدمة للكلام على الظواهر اللغوية العامة في القرآن كالاختصار والاضمار والحذف ، والتعبير بلفظ الواحد عن الجمع ، وبلفظ الجمع عن الواحد ، وبلفظ الواحد عن الاثنين ، وبالعكس ، ومخاطبة الغائب والمراد الشاهد ، وبالعكس ، وحروف الزيادة في الكلام ، والتكرار للتوكيد ، ولفظ الفاعل والمراد المفعول ، وبالعكس ووضع الصفة موضع المصدر او الاسم ، واختلاف اللغات في القراءة ، وانابة الادوات بعضها عن بعض ، والتعبير بلفظ المذكر والمراد المؤنث ، ووضع الكنايات مواضع الاسماء ، واختلاف وجوه الاعراب ،حتى يختم ذلك بالكلام على (بسم الله) فيتناول معناها دون رسمها ، خلاف الفراء الذي عني برسمها كما مر ، ثم يستطرد الى اشياء كان قد ذكرها في صدر المقدمة فاعاد فيها الكلام ، مثل تفسير معنى (قرآن)، وتعرض موجز للظواهر اللغوية التي فصل فيها القول قبل قليل ، وكان قد اشبع هذا القسم من المقدمة بالشواهد القرآنية التي تؤيد ما يزعمه من الظواهر وبالشواهد الشعرية ولغات العرب والقراءات [2] .

وتشابه الكتابان في الظواهر المنهجية الجزئية ، من حيث اختلاط الموضوعات اللغوية بالنحوية والصرفية والتفسيرية ، ففي مجاز القرآن أيضا عناية واضحة بالمسائل الصوتية واللهجية [3] ، واهتمام بالقراءات جميعاً المشهور منها والشاذ [4] ، ووقوف عند قضايا الاعراب والاساليب اللغوية [5] ، وحين اكثر ابو عبيدة من الاستشهاد بالشعر والرجز فانه لم يدع الشاهد يمردون تعليق عليه بشرح او تفسير [6] .

---

(١) المجاز من ١/١ - ٧ .
(٢) المجاز من ١/٨ - ١٩ .
(٣) انظر مثلا : ١/ ٢٣٤
(٤) مثلا : ١/٦٨-٦٩
(٥) ٢/ ٢٢٦ ، ٢٢٧
(٦) ٢/ ٢٣٧

كمـــا استشهـد بالقرآن نفسه [1] ، وبالحديث الشريف [2] ، وامثال العرب [3] ، وغير ذلك مما عرضنا لأمثلته في معاني القرآن للفراء ، وحسبنا بها امثلة على ما ندعيه في هذا الكتاب . غير ان الكتابين اختلفا في ظواهر عامة يمكن اجمالها في امـور ، منها : طغيان الناحية اللغوية (بمعناها الضيق) على كتاب ابي عبيدة ، وضمـور النواحي الاخرى او قلتها ، في حين كان البحث النحوي وعلم القراءات هو الجانب البارز في كتاب الفراء ، اكثر من الجوانب الاخرى ، وتفسير ذلك لدى العلمـين يعود الى توجه كل منهما في دراساته المختلفة الى الجانب الذي برز في كتابه ، وكلاهما مشهور بميدانه العلمي . ومنهـا : تبـاين علاجهما لبعض الاستعمالات اللغـوية القرآنية ، وقد مرت الاشارة الى ذلك في الكلام على كتاب الفراء ، ومن امثلة هذا الخلاف ، ذهاب ابي عبيدة الى ان (لا) في قوله تعالى : (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) من حروف الزوائد لتتميم الكلام ، والمعنـى الغاؤهـا ، ومجـاز الآية ـ حسب تعبيره ـ غير المغضوب عليهم والضالين [4] . اما الفراء فقد رد عليه دون ان يسميه وانما وصفه بقوله : (قال بعض من لا يعرف العربية ان معنى . . .) [5] ، ويتضح من الرد انه يعني ابا عبيدة . وبنى رده على انكار زيادة (لا) في هذه الآية ، وان قال بزيادة بعض الحـروف في القـرآن ، فـ (لا) في الآية غـير زائـدة وهـي الصحيحة في الجحد ـ كما يعبر الفـراء ـ وشرط زيادتهـا ان تكون متصلـة بجحـد قبلها ، ومن هذا المنطلق رد شواهد ابي عبيدة وخرجها [6] . والفراء في هذا الموضع وغيره يعبر عن حروف الزيادة بـ (الصلة) تأدبا وتحرجا ، في حين يعبر ابو عبيدة عنها بحروف الزوائد . ومنها ايضا : اختلاف مسلك الرجلين في تفسير القرآن ، ففي الوقت الذي نجد فيه الفراء متمسكا بالنقل عن الاوائل ومعتمدا على المأثور عن

---

(1) ٢/ ١٧٤
(2) ٢/ ٢٠٨
(3) ٢/ ١٢٠
(4) المجاز ١/ ٢٥
(5) المعاني ١/ ٨
(6) المعاني ١/ ٨

السلف ، نجد قبالته آبا عبيدة متحررا من هذا الارتباط بالسلف وآثارهم محكما اللغة بما تزخر من شواهد في تفسير الالفاظ وبيان معاني الآيات ، لأنه لم يجد القرآن خارجا على اساليب اللغة وقواعدها ، كما نص في مقدمته التي اشرنا اليها ، ولم يجد ضيرا من استخدام عقله ورأيه الخاص في تفسير القرآن ، تمده في ذلك ثقافته اللغوية والأدبية والمنطقية ، وربما كان هذا الاختلاف بين الاثنين صدى للخلاف المدرسي بينهما ، إذ صدر الفراء عن منهج الكوفيين في اعتماد المنقول والمأثور ، وصدر ابو عبيدة عن منهج البصريين في اعتماد المعقول والمقيس .

وكان صنيع أبي عبيدة من تفسير القرآن بالرأي - كما سماه معاصروه - قد قوبل بالرفض والانكار ، لخروجه على المألوف لدى الدارسين القدماء كوفيين وبصريين ، فلا يجب أن نعجب من حدة إنكار الفراء عليه إذ يقول : « لو حُمِلَ الي ابو عبيدة لضربته عشرين في كتاب المجاز »[1] ، فهناك من البصريين من بلغ به الانكار هذا الحد ، وأولهم الأصمعي الذي اشتهر بتحرجه من القول في القرآن ، فقد حمل على أبي عبيدة وتفسيره القرآن برأيه[2] ، ومثله أبو حاتم السجستاني الذي قال : « إنه لكتاب ما يحل لأحد أن يكتبه ، وما كان شيء أشد علي من أن أقرأه قبل اليوم ، ولقد كان أن أُضرب بالسياط أهون علي من أن أقرأه »[3] . وغير ذلك من مواقف العلماء التي تدل على مدى التأثم الذي كان يغمر نفوس هؤلاء وهم يقرأون تفسيراً وضعه أبو عبيدة معتمداً فيه على رأيه ، ومع ذلك فان هذه الحملة على الكتاب لم تقلل من شأنه في الدراسات القرآنية اللغوية .

معاني القرآن للأخفش :

وأما كتاب معاني القرآن للأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة[4] ، فنسخته المخطوطة الفريدة ناقصة الأول ، إذ تبدأ بالكلام على ألف (اسم) وانها موصولة

---

(١) معجم الادباء ١٩/ ١٥٩ وانظر : تاريخ بغداد : ١٣/ ٢٥٥

(٢) إخبار النحويين ٦١ ومعجم الادباء ١٩/ ١٥٩ .

(٣) طبقات النحويين ١٩٤

(٤) مخطوط في مكتبة آستانه قدس بايران رقمه (٢٢٠) ، يحققه السيد عبد الأمير الورد رسالة للدكتوراه .

تذهب بالتصغير[1] ، فربما فاتنا فيما سقط منها معرفة سند الروايه ومقدمة المؤلف ، وأشياء من هذا القبيل تنير لنا السبيل في دراسة الكتاب ، إلا انّا وجدنا في آخر الكتاب ذكراً لعرض الكتاب من أوله الى آخره قام به أبو عبد الله اليزيدي على عمه أبي جعفر احمد بن محمد اليزيدي سنة ثلاث وخمسين ومائتين ، وكان الأخير قد عرضه على الأخفش نفسه في حياته[2] . وهو خبر يوثق نسبة الكتاب الى مؤلفه ويصحح مادته . وتجمع المصادر على أن الأخفش الف كتابه معاني القرآن بطلب من الكسائي بعد ان لقيه في بغداد اثر حدوث المناظرة الزنبورية بين الكسائي وسيبويه ، ومجيء الأخفش للثأر من الكسائي الذي انتصر في هذه المناظرة وأخفق فيها سيبويه ، فألف الأخفش كتابه المعاني ، وعمل الكسائي كتابه عليه ، وعمل الفراء كتابه على كتاب الأخفش وكتاب الكسائي[3] . واستناداً الى هذه الرواية رجح أحد الدارسين المحدثين أن يكون زمن تأليف الأخفش لكتابه محصوراً بين سنتي ١٧٩ و ١٨٢ ، مقدراً بينهما وفاة سيبويه[4]

وقد وهم هذا الباحث فيما رجحه وقدره ، فلا يمكن ان يكون الأخفش ألف كتابه قبل سنة (١٨٨) ، وهي السنة التي ألف فيها أبو عبيدة كتابه مجاز القرآن[5] . وقد مر بنا ذكر ذلك في موضعه . لأن الأخفش أفاد من كتاب أبي عبيدة وتأثر به ان لم نقل مقالة أبي حاتم من أنه : « أخذ كتاب أبي عبيدة في القرآن فأسقط منه شيئاً وزاد شيئاً وأبدل منه شيئاً ، قال أبو حاتم : فقلت له : أي شيء هذا الذي تصنع ، من أعرف بالغريب أنت او أبو عبيدة ؟ فقال : أبو عبيدة ، فقلت هذا الذي تصنع ليس بشيء . فقال : الكتاب لمن أصلحه وليس لمن أفسده[6] » . وعلى الرغم من مبالغة أبي حاتم في تصوير الافادة والتأثر ، فليس في كتاب الأخفش ما يدل على

---

(١) ق/ ١ ب

(٢) ق/ ١٨٥ ب

(٣) طبقات النحويين ٧٠ وانباه الرواة ٢/ ٣٦ .

(٤) عبد الأمير الورد : منهج الأخفش الأوسط في الدراسة النحوية ١١٢ .

(٥) معجم الأدباء ١٩/ ١٥٨

(٦) طبقات النحويين ٧٤ - ٧٥ .

صحة زعمه ، إلا أن الرواية تشير في الأقل إلى سبق أبي عبيدة في التأليف في القرآن ، وتأخر تأليف الأخفش عن سنة (١٨٨) فضلا عن سنة (١٨٢) وما قبلها .

وترتيب كتاب الأخفش ترتيب الكتابين السابقين ، من حيث ترتيبه السور وآياتها ، إذ ألتزم بتسلسلها القرآني نفسه ، سوى ما وقع فيه من اضطراب في تسلسل بعض الآيات داخل السورة ، فقدم منها ما حقه أن يتأخر ، وأخر ما يجب ان يتقدم ، كالذي حدث مثلاً لعدد من آيات سورتي (البقرة) و (النساء) وغيرهما . وإذا كان الأخفش قد سار على مبدأ الانتخاب الذي سار عليه سابقاه فيتناول ما أشكل من الآيات دون استقصائها ، فان عدد الآيات التي يعالجها من كل سورة تفسيراً وبياناً يتناقص حسب تسلسل السور ، لأن من آيات السورة المتأخرة ما يشبه في اشكاله آيات السور السابقة فيكتفي بما وضحه أولاً ، مستغنياً عن الاعادة والتكرار . هذا الى انه يهمل بعض الآيات دون تعليق او شرح [١] ، ويغلط في نص بعضها الآخر ، إذ تكون الآية ملفقة من آيتين في سورتين [٢] . كالذي حدث في الآية الثانية والستين من سورة التوبة والآية الخامسة والتسعين من سورة براءة .

كان الأخفش في (معانيه) متعدد المصادر والشواهد والموضوعات ، وهذا التعدد هو الذي سلك الكتاب في كتب التأليف المختلط ، فقد عني باللغات عناية واضحة ونص على كثير منها [٣] . وعمد الى القراءات فذكرها في مواضع الخلاف وذكر الوجه اللغوي لكل منها [٤] . وناقش مسائل تتصل بالرسم ومال الى رسم المصحف وكره مخالفته وان خالف القياس [٥] . واهتم بالنحو اهتماماً بالغاً ، فأطال بحث القضايا الاعرابية في الآيات ، منتمياً من خلال هذا البحث الى مدرسته

---

(١) ق ١٦٢/ أ

(٢) ق ١٠٥/ ب ، ق ١٢٧/ أ . وانظر في جميع ما قلناه : منهج الأخفش في الدراسة النحوية ١١٩ ـ ١٢١ .

(٣) ق ١٢/ب ، ق ١٤/أ ، ق ٢٦/ب ، ق ٣٣/ب ، ق ٣٥/ب ، ق ٧٤/ ب .

(٤) ق ١٤٨/ ب ، ق ٤٥/ أ ، ق ٩٥/ أ ، ق ١٩ / ب .

(٥) ق ٨/ أ ، ق ١١٩ / أ ، ق ٥٠ / أ ، ق ٣٣ / ب .

البصرية [1]. وكان للجوانب الصرفية نصيب من دراسته لمعاني القرآن، فوقف عندها وبين قواعدها [2]. ولم ينس الكلام على النواحي التفسيرية المحضة من الآية، فيذهب الى تأويلها غير مبتعد عن مرماها [3]. وهو في أثناء ذلك كله كثير الرواية عن أساتذته، يدعم بآرائهم رأيه أمثال: عيسى بن عمر [4]، ويونس بن حبيب [5]، وأبي زيد الانصاري [6]، وأبي عبيدة معمر بن المثنى [7]، وغيرهم، كما روى عمن لقيه من الاعراب الفصحاء أمثال: أبي السمال [8]، وأبي عبدالله [9]، وغيرهما. عدا ما نقله من آراء المفسرين والفقهاء وأهل التأويل [10]. وشواهده كثيرة ومتنوعة، من القرآن نفسه، والأمثال، ولغات العرب، وأكثرها من الشعر والرجز، ومنه قسم غير قليل لم ينسبه لقائله [11].

ولما كان الأخفش معروفاً بالنحو أكثر من سواه من فروع الدرس اللغوي، كان النحو هو الغالب على كتابه، مشبهاً في ذلك الفراء في معاني القرآن، ولما كان معتزلياً يؤمن بتحكيم العقل، كان منهجه العام يشير الى تفسيره القرآن بالرأي، مشبهاً في ذلك أبا عبيدة في مجاز القرآن. وعلى الرغم من أن كتاب الأخفش لم يبلغ شأن الكتابين السابقين، منهجاً، ولم يضف الى مادتيهما مادة جديدة، فانه نال من الدارسين اهتماماً كبيراً، واعتمد عليه المفسرون ونقلوا منه، وكان له في حلقات القراءة مكانة مرموقة [12].

---

(1) ق ١٠٤ / ب، ق ٩٧ / ب، ق ٢٢ / ب، ق ١١٣ / ب، ق ٥٤ / ب، ق ١٣٠ / أ
(2) ق ٥١ / ب
(3) ق ١٥٥ / أ، ق ١٧٧ / ب.
(4) ق ٥٢ / ب، ق ١٦٠ / ب، ق ١٨٣ / ب
(5) ق ٢٢ / ب، ق ٦٩ / أ، ق ١٣٢ / أ
(6) ق ١٤ / ب، ق ١٠٦ / أ
(7) ق ٥٤ / ب.
(8) ق ٣٨ / ب
(9) ق ٣٤ / ب
(10) ق ٥٧ / ب، ق ٧٤ / أ، ق ١٢١ / ب
(11) ق ٥٤ / ب، ق ٣٣ / ب، ق ٩٨ / ب.
(12) انظر: اضداد ابن الأنباري ٢٩٨ ومعجم الأدباء ١٨ / ١٩٨ وهمع الهوامع ٢ / ٢٠ ومغني اللبيب ٢ / ٥٧٤

تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة :

بقي لدينا من هذه المجموعة كتاب (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة [1] ، ولا نطيل في الكلام عليه ، بل نقف منه على أمثلة قليلة نسوقها دعما للملاحظات لاحظناها في الكتاب ، ذلك انه ابعد الكتب الأربعة ـ هو والثلاثة السابقات ـ عن اللغة وموضوعاتها ، واقربها جميعاً الى موضوعه الذي الف لأجله وهو التأويل . إذ بين ابن قتيبة في مقدمة الكتاب ان سبب تأليفه الرد على الملحدين الذين اعترضوا كتاب الله بالطعن والتحريف واللغو [2] . وهذه الحقيقة تشير الى الدقة في تناول الموضوع حين يفرد في كتاب ، فابن قتيبة الف كتابه هذا وبحث فيه ما يتصل بالتأويل والخلاف والسنة وما الى ذلك ، مدخراً في الوقت نفسه موضوعات اللغة القرآنية وما يتصل بها من تفسير لغريبها وشرح لمفرداتها وبيان لأساليبها وغير هذا من الموضوعات لكتاب آخر ألفه بعد كتابه الأول ، الا وهو (تفسير غريب القرآن) الذي سنأتي الى درسه في الفصل القادم ، إذ تصادفنا في مواطن كثيرة منه احالته القارىء على كتابه الأول[3]، حين يرى انه في موقف (تأويل) لا موقف (تفسير غريب) وكان قد ذكره في ذلك الكتاب .

و (تأويل مشكل القرآن) صدى من أصداء اهتمام ابن قتيبة بالبحث في أمور العقيدة ، فقد عرف عنه ولعه بالتأليف في هذا الجانب ، إذ وضع : دلائل النبوة ، جامع الفقه ، الالفاظ والرد على الجهمية والمشبهة ، الرد على القائل بخلق القرآن ، الجوابات الحاضرة ، المسائل والأجوبة [4] ، واشباه ذلك مما يسلك جميعاً ـ مع كتابه تأويل مشكل القرآن ـ في كتب الدين وفقهه والكلام وحجاجه . فكانت عنايته في الكتاب الذي نحن بصدده تنصب على « العرب وما خصهم الله به من المعارضة ، وقوة البيان واتساع المجاز ، ووجوه القرآن واللحن والتناقض والاختلاف والمتشابه

---

(١) طبع بتحقيق السيد أحمد صقر بمطبعة عيسى البابي في القاهرة سنة ١٩٥٤ م .

(٢) تأويل مشكل القرآن ١٧

(٣) انظر مثلاً : ص ٢١٠ ، ٢١٤ من تفسير غريب القرآن و ص ١/٢١٧ من القرطين .

(٤) الفهرست ١١٥ والنزهة ١٤٣ والأنباه ٢/١٤٣ والبغية ٢٩١ .

من القرآن ، والقول في المجاز والاستعارة والمقلوب والحذف والاختصار ، وتكرار الكلام والزيادة فيه والكناية ، ومخالفة ظاهر اللفظ معناه واللفظ الواحد للمعاني المختلفة ، ودخول بعض الصفات مكان بعض [1] » ، وغير ذلك من الموضوعات التي افرد كلاً منها بالكلام عليه والتمثيل له ،ومن ثم بثها في كتابه كلاً في موضعه[2]

وعلى الرغم مما قلناه من قرب انطباق العنوان على مادة الكتاب ومحاولة ابن قتيبة عدم الخروج على ما رسمه له ، فاننا نجد مادة لغوية ليست بقليلة مبثوثة فيه ، كما نجد في كتابه تفسير غريب القرآن مادة تأويلية مبثوثة فيه ، بل نعثر في الكتابين على كلام يكاد يكون بنصه الموحد في تفسير الآية نفسها ، كما في تعليقه على قوله تعالى : (الله نور السماوات والأرض مثل نوره . .) [3] ، فقد أردف هذه الآية بتفسير واحد في كلا الكتابين [4] . وربما تكون هذه المادة المتشابهة هي التي دفعت ابن مطرف الكناني (٤٥٤) ـ مع الدوافع التي ذكرها في المقدمة ـ الى الجمع بين الكتابين في كتابه (القرطين) [5] . وهذه المادة اللغوية تتعلق بما ذكرناه قبل قليل من عنايته بالمجاز والمقلوب والحذف والزيادة والتكرار وما الى ذلك [6] ، وينقل خلال ذلك آراء أشياخه ومن قبلهم من اللغويين أو يروي عنهم الشواهد ، أمثال : عيسى ابن عمر [7] ،وأبي عبيدة [8] ، والفراء [9] ، والأصمعي [10] ، والمازني [11] ، وأبي

---

(١) القرطين : مقدمة الناشر س ومقدمة المؤلف ١/ ٢

(٢) انظر مثلا : أول سورة البقرة والقرطين ١ / ٥ ـ ١٠

(٣) سورة النور ٣٥ .

(٤) تفسير الغريب ٣٠٥ وتأويل المشكل ٢٥٢

(٥) طبع بالقاهرة سنة ١٣٥٥ هـ بمطبعة ناشره محمد أمين الخانجي .

(٦) تأويل مشكل القرآن : ٧٩ ، ٣٤٢ ، ٣٩٦ ، ٤٠٧ .

(٧) القرطين ١٥٤

(٨) نفسه ٢٦٩ .

(٩) نفسه ٦ ، ٨ ، ٥٠ ، ٥٧ ٢٦٩

(١٠) نفسه ٩٢ ، ١٥٤ .

(١١) نفسه ٩٢

حاتم [1] ، وغيرهم . والكتاب كثير الشواهد متنوعها ، إلا أن أغلبها من الشعر وأغلبه منسوب . وبعد فهذه هي الملامح الرئيسـة لكتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، وقد رسمت لنا صورة كتاب يقترب من مسائل اللغة ولا يطيل عندها . إذ كانت عنايته متوجهة الى الجدل والحجاج والتـأويل ، فأشبـع ذلك بعمـق العالـم المتمرس والمناقش القوي ، وعلى ذلك نختلف مع من ذهب الى ان : « الكتاب في مجموعه كتاب لغة وان اتخذ صورة المجادلة مع الطاعنين على القرآن والدين [2] » .

وخلاصة البحث في كتب هذا الميدان ، انها مؤلفات وضعت لخدمة القرآن ، فعالجت نصه المقدس من جوانب مختلفة ، فاختلطت فيها المادة اللغوية بالنحـوية والصرفية والتشريعية والتفسيرية .

ـ التأليف المختلط بين موضوعات اللغة ـ

كتب النوادر والامالي :

وتمثل هذه الكتب المجموعة الثانية من التصانيف التي اختلطت فيها موضوعات اللغة نفسها ، اذ نقف فيها الى جانب اهتمامها بذكر اللفظ النادر والاستعمال الغريب والنص على اللغات المختلفة ، على عناية بالمسائل النحوية والصرفية ، وسرد لاخبار العرب وانسابهم ، وتعرض للقواعد العروضية فيما ترويه من شعر ، وما الى ذلك من المعارف التي اهتم بها واضعو هذه الكتب في ذلك العصر ، على اننا يجب ان نقرر ان الجانب اللغوي الذي تنصرف اليه عبارة (النوادر) في العنوان ، ابرز الجوانب في كتب النوادر وهو الطاغي على مادتها . ولما كان المؤلف يملي على تلاميذه مادة النوادر ، ويقوم التلاميذ بتدوين ذلك في كتاب ينسب الى الشيخ ، فقد عرفت بعض كتب النوادر باسم الامالي وهي تسمية تدل على ما تدل عليه الاولى ، الى حد بعيد .

وأول من وصل الينا خبر تأليفه كتاباً في النوادر هـو ابو عمرو بن العلاء (ت

---

(1) نفسه ١٥٤ ، ٢٦٩

(2) د . عبد الحميد الشلقاني : رواية اللغة ٢٦٨

١٥٧) ، ولعل كتابه خير مثل على ما أشرنا اليه من طريقة تدوين الكتاب عن المؤلف املاء . اذ يقول ابن النديم : « كتاب النوادر عن ابي عمرو بن العلاء[١] » . ثم الف الخليل بن احمد في النوادر (ت ١٧٥) ، على ما وجده بروكلمان من ذكر الكتاب في لسان العرب ٩/ ٢٤[٢] . ولم أجد هذا الذكر فيما توفر من طبعات اللسان . ثم الف معاصر الخليل ابو عبدالله القاسم بن معن المسعودي الكوفي (١٧٥) ، ويونس بن حبيب (١٨٢) كتابين كبيراً وصغيراً ، نقل من احدهما السيوطي بعض مادته[٣] ، وابو مالك عمرو بن كركرة (معاصر يونس) نقل منه السيوطي ايضاً نصاً واحداً[٤]. والكسائي (١٨٩) ثلاثة كتب أكبر وأوسط وأصغر ، نقل الزبيدي في معجمه نصا من احدها[٥] ، وابو اليقظان سحيم بن حفص النسابة ، وابو شبل العقيلي (عهد الرشيد ١٧٠ ـ ١٩٣) ، قال ابن النديم : « رأيته بخط عتيق باصلاح ابي عمر الزاهد نحو ثلثمائة ورقة[٦] » . وابو المضرحي ، رأى كتابه ابن النديم بخط ابن ابي سعد[٧].

وفي القرن الثالث الف في النوادر ابو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي (ت ٢٠٢) ، ونقل لنا السيوطي من كتابه بعضاً من مادته[٨] . وقطرب (٢٠٦) ، وابو عمرو الشيباني (٢٠٦) ثلاثة كتب اكبر وأوسط وأصغر ، وأورد السيوطي شيئاً من مادة الأول[٩] . والفراء (٢٠٧) ووصلت الينا اقتباسات منه في التكملة والتاج[١٠] ، وابو عبدالرحمن الهيثم بن عدي الطائي (٢٠٧) ، وابو محمد عبدالله بن سعيد

---

(١) الفهرست ١٣٠ .

(٢) تاريخ الادب العربي ٢/ ١٣٤ .

(٣) المزهر ٢/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦ ، ٢٨٩ والاقتضاب ١٩٣ ، ٢٠٥ وتاج العروس (لبأ) ١/ ٤١٧ .

(٤) المزهر ٢/ ٢١٤

(٥) تاج العروس (حضر) ١١/ ٤٦

(٦) الفهرست ٥١ .

(٧) نفسه ٥٣

(٨) المزهر ١/ ١١٠ ، ٢٥٠ ، ٢/ ٦٩ ، ١٠٦ ، ١٤٤ ، ١٥١

(٩) نفسه ١/ ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢/ ٤١ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ١٠٥ ، ١٥١ .

(١٠) التكملة والذيل والصلة (خوذ) ٢/ ٣٧٨ وتاج العروس (قرظ) ٥/ ٢٥٩ و (عند) ٣/ ٤٢٣ .

الأموي (استاذ ابي عبيد) ، وابو عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠) ، والاصمعي (٢١٣) كتابين : النوادر ، ونوادر الاعراب ، وعبدالرحمن بن بزرج (معاصر الاصمعي) ، استحسن الازهري كتابه ووجد فيه فوائد كثيرة [١]، وابو زيد الانصاري (٢١٥) ، والاخفش الاوسط سعيد بن مسعدة (٢١١) ، وابو الحسن علي بن محمد المدائني (٢١٥) ، وابو زياد عبدالله بن الحر الكلابي (٢١٥) ، وابو المنهال عيينة بن عبدالرحمن (تلميذ الخليل) ، وابو الحسن علي بن المبارك اللحياني (تلميذ الكسائي) ، روى السيوطي لنا نصا منه [٢] ، وابو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤) ، وابو عبدالله محمد بن يحيى بن المبارك اليزيدي (٢٢٧) ، وابو مسحل الأعرابي عبد الوهاب بن حريش (تلميذ اللحياني)، وابن الاعرابي محمد ابن زياد (٢٣١) ثلاثة كتب تحمل عنوان النوادر هي : النوادر ، ونوادر الزبيريين ، ونوادر بني فقعس ، ورابعاً عنوانه الامالي ، ومن الاخير نقول في بعض المصادر [٣] . وعمرو بن ابي عمرو الشيباني (٢٣١) ، وعلي بن المغيرة الاثرم (٢٣٢) ، وابو محمد عبدالله بن محمد التوزي (٢٣٣) ، واسحاق بن ابراهيم الموصلي (٢٣٥) كتابين : النوادر المتخيرة ، والاختيار في النوادر ، ولعلهما كتاب واحد . وابو عبدالرحمن عبدالله بن محمد بن هانىء النيسابوري (٢٣٦) ، وكتابه اكثر من الفي ورقة ، نظر فيه الازهري [٤] ، وابو الوازع محمد بن عبدالخالق ، واسم كتابه (نوادر الاعاريب الذين كانوا مع ابن طاهر بنيسابور) ، ودهمج بن محرز البصري ، رآه ابن النديم نحو مائة وخمسين ورقة ، وفيه اصلاح بخط ابي عمر الزاهد [٥] . وقريبة ام البهلول الاسدية ، وكتابها (النوادر والمصادر) ، وابو اسحاق ابراهيم بن سليمان ابن حبان النهمي ، وابو العميثل عبد الله بن خليد (٢٤٠) ، وابن السكيت (٢٤٦) ، وأبو حاتم السجستاني (٢٥٥) ، والزبير بن بكار القرشي (٢٥٦) كتابين : نوادر المدنيين ، نوادر النسب . واحمد بن ابي عبد الله الرقي ، وابو حنيفة

---

(١) تهذيب اللغة ١/ ١٩ .

(٢) المزهر ٢/ ٢٠٠ والتاج (برأ) ١/ ١٤٥ و (وجد) ٩/ ٢٥٨

(٣) درة الغواص ٧٤ وشرح نهج البلاغة ٥/ ٣٠ وخزانة الادب ٢/ ٤٠٧ .

(٤) تهذيب اللغة ١/ ٢٤

(٥) الفهرست ٦٨ ، ١٣٠

الدينوري (٢٨٢) ، واسماعيل بن اسحاق القاضي (٢٨٢) ، والحسن بن عليل العنزي (٢٩٠) وكتابه (النوادر عن العرب) ، وثعلب (٢٩١) كتابين : النوادر ، والمجالس ، وقد يسمى الاخير بالامالي . ونصر بن مضر الاسدي ، الذي روى عنه كتابه محمد بن الحجاج بن نصر الانباري[1] .

ولم يصل الينا من هذه المجموعة الكبيرة سوى اربعة كتب ، هي : النوادر في اللغة لأبي زيد الانصاري ، والنوادر لأبي مسحل الاعرابي ، وقطعة من النوادر لابن الاعرابي ، والمجالس لثعلب . وقبل ان ننتقل الى دراسة هذه الكتب اود ان اشير الى وهمين وقع فيهما بعض الدارسين المحدثين[2] ، الاول : انه عد ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) فيمن الف في النوادر عداً لا يقبله الشك ، ثم لا يكون هذا التأليف سوى صفحتين من كتابه (أدب الكاتب) تكلم فيهما ابن قتيبة على النوادر! والثاني : نسب كتاباً في النوادر الى من سماه (دلامز البهلول) معتمداً في ذلك - على الارجح - على الفهرست لابن النديم . والحقيقة انه لا وجود لشخص بهذا الاسم ، ذلك ان الطبعة التي رجع اليها هذا الباحث من الفهرست (ط الرحمانية) اوقعته واوقعت غيره من الباحثين بمثل هذا الوهم[3] . وقد كشفت لنا الطبعة الاخيرة منه (ط طهران) التحريف الذي اصاب الاولى ، والسقط الذي شوه العبارة ، فابن النديم يذكر أسماء الاعراب الفصحاء ويذكر من بينهم قريبة ام البهلول الاسدية ، ثم يقول : ولأم البهلول كتاب النوادر[4] فكلمة (ولأم) حرفت في تلك النسخة الى (دلامز) بعد ان سقط من هذه الاخيرة اسم (قريبة) ، والتحريف قريب بين الكلمتين فما أسرع ما تقرأ الواو دالا ، والميم التي ترسم احياناً هكذا (مـر) ميما وزايا . ويكون من جراء ذلك هذا الوهم الذي سبب في خلق مؤلف لا وجود له .

النوادر في اللغة لابي زيد :

أقدم ما وصل الينا من هذه الكتب ، كتاب (النوادر في اللغة) لأبي زيد

(١) الفهرست ٦٨ ، ١٣٠

(٢) د . حسين نصار : المعجم العربي ١/ ١٣٦ ، ١٤٢ .

(٣) د . عزة حسن : مقدمة النوادر لابي مسحل ٢٧ ، و د . عبد الحميد الشلقاني : رواية اللغة ٩٣ .

(٤) الفهرست ٥٣ ، وانظر : انباه الرواة ٤/ ١١٥

الانصاري ، وضمت النسخة التي طبع منهاالكتاب طريقين من الرواية[1] ، الاولى رواية الاخفش الاصغر ابي الحسن علي بن سليمان عن المبرد عن التوزي وابي حاتم عن ابي زيد ، والثانية رواية ابي سعيد السكري عن ابي الفضل الرياشي وابي حاتم عن ابي زيد . ونجد في ختام ذكر الروايتين في صدر الكتاب ما نصه : « قال ابو سعيد ـ اي السكري ـ هذا كتاب ابي زيد سعيد بن أوس بن ثابت مما سمعه من المفضل بن محمد الضبي ومن العرب[2] » . فماذا سمع من المفضل الضبي من مواد الكتاب ، وماذا سمع من العرب ؟

اختلف رواة الكتاب في تحديد ذلك ، فقال ابو حاتم : « قال لي ابو زيد : ما كان فيه من شعر القصيد فهو سماعي من المفضل بن محمد الضبي ، وما كان من اللغات وابواب الرجز فذلك سماعي من العرب[3] » . اما المبرد فنقل عن التوزي : « ان ابا زيد قال : ما كان فيه من رجز فهو سماعي من المفضل ، وما كان فيه من قصيد او لغات فهو سماعي من العرب»[4]. فلا خلاف في ان اللغات من سماع ابي زيد عن العرب ، وانما الخلاف في سماعه الرجز او القصيد من المفضل ، والكتاب يفصل في هذا الخلاف بان يقدم لنا نصوصا تصرح بسماع ابي زيد كلا النوعين الرجز والقصيد من المفضل[5] ومن العرب [6] . وما دمنا في الحديث عن سماع ابي زيد من المفضل ، يجدر بنا ان نشير الى ان احد الباحثين المحدثين ، كباحين اسرع الى انكار هذا السماع بقوله : « بالاضافة الى ان جزءاً من القصيد والرجز الذي بني عليه الكتاب كان رواية عن المفضل الضبي الكوفي ، وهو امر لم يكن للبصريين به عهد ولا عادة[7] » . ذلك ان المصادر نصت على ان المفضل الضبي قصد البصرة ، وانه

---

(١) نشر الكتاب أول مرة بتحقيق سعيد الخوري الشرتوني ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت عام ١٨٩٤م . واعيد نشره بالاوفسيت، بيروت سنة ١٩٦٧ م .

(٢) النوادر ١

(٣) نفسه ١ .

(٤) نفسه ٢

(٥) النوادر ٢ ، ١٥ ، ٣٣ ، ٥٣ ، ١١٤

(٦) النوادر ٥٧ ، ١١١ .

(٧) د . عبد الحميد الشلقاني : رواية اللغة ٩٦

اعلم من هبط عليها من غير البصريين[1]،وان ابا زيد ـ خاصة ـ روى عنه اشعار العرب[2] . فلا غرابة اذن من الرواية عنه في كتاب النوادر .

قسّم ابو زيد كتابه الى خمسة عشر باباً ، ثلاثة ابواب منها للشعر ، وسبعة للرجز ، وخمسة للنوادر . سوى كتاب (مسائية) وهو باب في النوادر ، يفرده ناس ، ويلحقه آخرون بالكتاب ، وقد وضعه المحقق في آخر الكتاب . وهو يشبه ابواب النوادر الى حد بعيد اسلوباً ومادة . وخلط هذه الابواب فيما بينها تقديماً وتأخيراً ، فلم يجعل ابواب كل نوع من هذه الانواع الثلاثة متتابعة بعضها يلي بعضاً . فقد يتكلم على باب من ابواب الشعر ، يتبعه بباب في الرجز ، ثم يعود الى الشعر ، فباب في النوادر ، وباب في الرجز وهكذا . ولم يقنعنا بجدوى هذا التقسيم فضلا عن اضطراب الترتيب ، فلا تختلف ابواب الشعر فيما بينها من حيث طبيعة المادة وطريقة المعالجة ، وكذلك ابواب الرجز ، بل لا تختلف ابواب النوعين الا من حيث ان الاولى خاصة بالشعر والثانية بالرجز ، اما ابواب النوادر فانها ان اختلفت شيئاً عن ابواب الشعر وابواب الرجز ، فانها لا تختلف فيما بينها ايضاً . يضاف الى ذلك تفاوت الابواب في الطول والقصر ، اذ يصل عدد صفحات بعضها الى اكثر من العشرين ، في حين لا يتجاوز الخمسة في بعضها الآخر[3] .

ومنهج ابي زيد في ابواب القصيد والرجز يقوم على ايراد القصيدة او القطعة ايراداً كاملاً ثم يقوم بشرح غريبها وتفسير الفاظها النادرة ، اما في ابواب النوادر فعلى النقيض من ذلك ، فهو يذكر اللفظة الغريبة ، او الاستعمال الشاذ ويعلق عليه ثم يأتي بالشعر شاهداً على ما يقول ، ولا ترتيب في مواد كل باب من ابواب الكتاب ، فلا القصائد والمقطعات مرتبة ترتيباً ما في ابواب الشعر والرجز ، ولا الالفاظ في ابواب النوادر ، وانما يأتي بمواد الباب متتابعة كيفما اتفق . والقصائد بشكل عام ليست بالطوال ، اذ لا تتجاوز اطول قصائد الكتاب خمسة وعشرين بيتاً[4] ، وقد

---

(١) طبقات ابن سلام ٢١ .

(٢) نزهة الالباء ٦٧

(٣) النوادر ١١ ، ٥٧

(٤) النوادر ١٠٩

تقصر المقطعة فلا تتجاوز البيت او البيتين[١] .

كان كثيراً ما ينسب هذه القصائد والمقطعات والاراجيز والشواهد المفردة الى قائليها ، وقليلاً ما يهمل ذلك[٢] . فان اعفى نفسه من ذكر اسم القائل احياناً ، فانه يذكر قبيلته او موطنه للدلالة على البيئة اللغوية للنص ، كأن يقول : « وقال راجز من حمير[٣] » . ومصدره في جميع ذلك سماعه من العرب وسماعه من المفضل ، كما اشرنا في صدر الحديث . وغالباً ما يحدد عصر الشاعر ، ويذكر بعد اسمه انه جاهلي ، او ادرك الاسلام ، او اسلامي[٤] ، وربما زاد في الدقة فحدد عصره بعصر شاعر آخر ، كأن يقول « ادرك الفرزدق[٥] » . ثم لا نجد رواية الشعر تجاوزت عصر الفرزدق وجرير[٦] في جميع الابواب .

والى جانب استشهاده بالشعر في ابواب النوادر استشهد بالقرآن الكريم[٧] ، وامثال العرب[٨] ، ولغاتهم المختلفة[٩] ، ولم يكن النص على هذه اللغات مقتصراً على ابواب النوادر ، بل نجده في سائر ابواب الكتاب ، وكثرته دليل اهتمامه بها ، ولم يخرج في نصه على لغات القبائل عن الاطلس اللغوي الذي اعتمده البصريون في اسسهم المنهجية ، فذكر لغات : تميم ، وبني كلاب ، واهل العالية ، وعليا مضر ، وسفلى مضر ، وبني كليب ، وبني عقيل ، وقيس ، وبني كعب ، وبني اسد[١٠] وغيرها . وذكر استعمالات خاصة نص على انها لغات ، دون ان يسمي

---

(١) النوادر ١٨٥ .
(٢) نفسه ١٨٤ ، ٥١ .
(٣) نفسه ١٠٥ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٨١
(٤) نفسه ٢٣ ، ٤١ ، ٦٠ ، ٦١ ، ١٠٥
(٥) نفسه ١٠٥
(٦) ص ٢٣٧ .
(٧) ص ١١ ، ٢٥٥
(٨) ص ٩٦ ، ١٣٢ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ .
(٩) ص ٣ ، ٢٤ ، ٩٧ ، ١٧١
(١٠) ص ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٩٣ ، ٢٢٥ ، ٢٤٥ ، ٢٥٣ .

قبائل هذه اللغات[1] . ونبه على بعض الاستعمالات العامية وخاصة في البصرة[2] . وكان يستقي هذه المادة اللغوية من الاعراب انفسهم بمشافهتهم ، فيذكر اسماءهم مرة ويتركها مرات ، وممن ذكر من هؤلاء الفصحاء : الحرمازي[3] ، وشماء فصيحة من كلاب[4] ، ومنتجع ، وابو خيرة[5] . وغيرهم .

واهم ما يلاحظ على الكتاب ان ابا زيد لم يمحضه للنوادر وان سماه بها، ذلك ان النادر في اللغة هو الساقط[6] ، وما سقط شذ عن الجمهور ، وبهذا المعنى ينبغي ان تكون نوادر الكلام . الا ان الذي وجدناه في كتاب ابي زيد غير هذا ، فقد تجوز المؤلف في فهم نوادر اللغة ، ووسع مدلول اللفظة لتشمل ما شذ عن القياس ، وما قل في الاستعمال وكان معدوداً في بابه ، وبهذا وضع ابو زيد مصطلحاً جديداً للنوادر ، أخذ به من جاء بعده ممن الف في هذا الفن كابن الاعرابي وابي مسحل ، كما ستتبين ذلك بعد .

فزخر الكتاب بامثلة كثيرة مما شذ عن القياس[7] ، وما غرب وقل في الاستعمال[8] ، ومما تفرق من الفاظ الظواهر اللغوية ، كالاضداد[9]، والمشترك[10]، والمترادف[11]، والابدال[12] وغير ذلك . وكان يعرض من خلال شرحه للابيات وتفسيره للالفاظ النوادر الى الفروق اللغوية بين الالفاظ[13] ، والقوانين الصوتية التي

(١) ص ٨٧
(٢) ص ٢٤٥
(٣) ص ١٠٢
(٤) ص ٢٨ ، ٢٣٨
(٥) ص ١٩٦
(٦) لسان العرب (ندر) ٥/ ٢٠٠
(٧) ١٣٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠
(٨) ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ١٧١
(٩) ٤ ، ٨٩
(١٠) ١٦٩ ، ١٩٩ ، ٢٠٧ ، ٢٤٣
(١١) ١٠٠ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٩٦ ، ٢٢٥
(١٢) ١٠٤ ، ١٣٦ ، ٢٠١
(١٣) ٨١ ، ٨٧ ، ١٣٤ ، ١٦٩ ، ١٨٧ ، ٢١٢ ، ٢٠٤

تتعلق بمخارج الحروف وبالهمز[1] ، وقواعد الادغام[2] ، وغير ذلك . على انه اورد ايضاً الفاظاً لا ينطبق عليها مفهوم الندرة لديه ، فلم تخرج عن القياس ، وهي كثيرة الاستعمال[3] . ومهما يكن من امر فان كل ذلك يعطينا صورة طغيان اللغة وموضوعاتها على الكتاب ، وذلك امر طبيعي لأن البحث في النوادر اللغوية من صميم بحوث اللغة ، ولكن الكتاب اشتمل الى جانب ذلك على مادة واسعة تتصل بالنحو[4] ، ونقل خلالها رأي الخليل في مثل قول العرب : (جُحْرُ ضَبٍّ خربٌ) بأنهم اتبعوا غلطاً منهم[5] . كما اشتمل على التفاتات كثيرة الى مسائل الصرف[6] ، وكان ينص احياناً على بعضها بأنها جارية على القياس في العربية[7] . كما اشار الى الضرورة الشعرية مما يتصل بالعروض[8] .

وليس جميع ما في الكتاب لأبي زيد مؤلفه ، وانما اضاف رواة الكتاب الى مادته كثيراً من آرائهم وتعليقاتهم وشروحهم[9] ، فنجد مثلاً الاخفش الاصغر ينبه على تصحيف وقع به ابو زيد[10] ، وينقل رأيا لابن الاعرابي[11] . كما نجد ابا حاتم يذكر مذهب شيخيه ابي عبيدة والاصمعي[12] ، ونجد الرياشي يشير الى رواية اخرى لما انشده ابو زيد[13] . واحيانا يصوب هؤلاء الرواة بعضهم بعضاً ، فأبو حاتم يغلّط ابا زيد في موضع من الكتاب ، فينبري الاخفش فيوهم ابا حاتم في تغليطه ويصحح

---

(1) ٢٩ ، ٢٠١

(2) ص ٣

(3) ٩٠ ، ١٣٢ ، ٢٢٧ ، ٢٤٣

(4) ص ١٣ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٦٣ ، ١٣٩ ، ٢٠٣

(5) ص ٢٣٩

(6) ٣٠ ، ٨٢ ، ٩٩ ، ١٨٤

(7) ١٧٢

(8) ص ٢١٠ ، ٢٠٣

(9) مثلا : ٢ ، ٦ ، ١٣١

(10) ص ١٦

(11) ص ١٦

(12) ص ١٣

(13) ص ١٩

مذهب ابي زيد[1] ، وامثال ذلك كثير جداً في الكتاب ، بحيث لو اردنا ان نخرج هذه المادة المضافة الى اصل الكتاب منه ، لكانت تساوي ثلث الكتاب او تزيد .
وهذا هو الذي يفسر لنا كثرة ورود اسماء الفراء وابن الاعرابي واللحياني وثعلب من الكوفيين[2] ، اذ كان الطريق الى آرائهم احد رواة الكتاب وهو علي بن سليمان الاخفش الاصغر الذي نطالعه في هذا الكتاب كوفياً محضاً ، بآرائه ومواقفه في الدفاع والرد وشيوخه[3] ، مضافاً الى اسماء البصريين كأبي عبيدة والاصمعي ، سوى رواة الكتاب منهم كأبي حاتم والسكري والتوزي والمبرد والرياشي وغيرهم ممن نقلوا آراء شيوخهم اولئك . وعلى اية حال فقد لقي الكتاب اهتماماً كبيراً من لدن الدارسين ، وأكبوا عليه ينهلون منه ، وممن قرظه واعتمد عليه الأزهري[4] ، ونقل منه ابو علي الفارسي ، وتلميذه ابن جنى[5] ، واعتمداه[6] .

كتاب النوادر لابن الاعرابي :

اما كتاب (النوادر) لابن الاعرابي ، فلم تصل الينا منه سوى قطعة مكونة من عشرين صفحة ، محفوظة في دار الكتب المصرية رقمها (٤٦٠ لغة - تيمور) ، وهي تمثل قسماً من الجزء الاول من الكتاب ، وكان هذا الجزء الذي يقع في سبع وثمانين ومئتي صفحة (ثلاث واربعين ومائة ورقة) محفوظاً في المكتبة الخالدية في القدس ، حين وصفه احمد سامح الخالدي ونشر منه اربع صفحات في مجلة الرسالة القاهرية سنة ١٩٤٨ ، الا ان هذا الجزء قد ثبت ضياعه الآن[7] .

روى الكتاب عن ابن الاعرابي ثلاثة من تلاميذه هم : محمد بن حبيب (ت ٢٤٥) ، وعلي بن عبد الله بن سنان الطوسي ، وابو العباس احمد بن يحيى ثعلب

---

(١) ص ١٨
(٢) ص ٢٨ ، ١٦ ، ٥١ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٦٥ ، ٦ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٧٦ ، ٧٤ ، ٧٥
(٣) ص ٢٨
(٤) تهذيب اللغة ١٢/١
(٥) الخصائص ١٥٧/٣ ، ١٦٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦
(٦) المحكم ٣/ ٢٧١
(٧) ابن الاعرابي ٢٢٠ (رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة الكاتبة) .

(ت ٢٩١ هـ)[١] . ورواية الاخير هي التي وصلت الينا في الجزء المفقود ، وفي القطعة الصغيرة الباقية منه . وقد رواه عن هؤلاء الثلاثة وسمعه منهم كثير من العلماء واللغويين مدى قرنين او اكثر من الزمان ، و قام بعضهم بشرحه والتعليق عليه ، والرد على ابن الاعرابي فيه[٢] . وقد حقق السيد كامل سعيد هذه القطعة المحفوظة من الكتاب ودرسها بعد ان اضاف اليها ما استطاع جمعه من نصوص الكتاب المنشورة في المصادر المختلفة ، وعددها قريب من مائتي نص ، وقد ضم كل ذلك الى دراسته عن ابن الاعرابي ، التي تعد بحكم المخطوطة حتى الآن[٣] .

لم يقسّم ابن الاعرابي كتابه على الابواب كما فعل ابو زيد ، كما لم يحاول ان يرتب مادته ترتيباً ما ، وانما جاء بهذه المادة متتابعة لا يفصل بينها فاصل ، ومختلطة لا ينظمها موضوع ، وغاية ما هناك انه قدم حديث النبي ﴿ص﴾ في وصف السحابة وجعله في اول الكتاب[٤] ، وكأنه يلمح في هذا الى ترتيب . الا اننا وجدناه يعود الى حديث آخر للنبي ﴿ص﴾ في وسط الكتاب[٥] ، بعد ان فصل بين الحديثين بصفحات من تفسير الالفاظ الغريبة ، وانشاد الشعر ، وسرد الاخبار . مما يجعلنا نعتقد ان تقديمه الحديث الأول لم يكن مقصوداً من حيث انه تقديم ترتيب .

كان عمله في الكتاب يقوم على شرح الالفاظ النادرة والاستعمالات الغريبة[٦] ، مستشهداً على ما يقول بآيات القرآن الكريم[٧] والشعر العربي[٨] قصيده ورجزه ، ولغات القبائل[٩] ، مورداً خلال ذلك ما يحفظه من اخبار العرب

---

(١) تهذيب اللغة ١/ ٢١ والفهرست ١٠٩ .
(٢) ابن الاعرابي (طبع بالآلة الكاتبة) ٢٠٦ - ٢٠٩
(٣) رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة الكاتبة ١٩٧٦
(٤) ابن الاعرابي ٢٣٢
(٥) نفسه ٢٥١
(٦) ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤
(٧) ص ٢٣٩
(٨) ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨
(٩) ص ٢٤١ ، ٢٥٠

وايامهم وانسابهم واسمائهم وحكمهم [1] ، وما الى ذلك من موضوعات ، ولكنه كان قليلاً ما ينسب البيت الى قائله واللغة الى اصحابها [2] . وبهذا يختلف عن ابي زيد الذي كان شديد العناية بهذه النسبة ، وان فاق ابا زيد بكثرة الاستشهاد والتوسع بالأخبار والتاريخ والانساب . وما ذلك الا صدى من اصداء الانتماء المدرسي ، فالكوفيون ـ وابن الاعرابي واحد منهم ـ عنوا بهذه الجوانب عناية فائقة . ومن هنا كانت تظهر على كتاب ابن الاعرابي صفة الادب والتاريخ الى جانب الصفة اللغوية التي طغت على كتاب ابي زيد طغياناً كبيراً . وسنجد هذه الخصائص واضحة ايضاً فيما سنعرض له من كتب ابن الاعرابي في الفصل القادم . وضمت هذه القطعة من النوادر ايضاً الفاظاً من بعض الظواهر اللغوية ، تشير الى اهتمام ابن الاعرابي بالتقاطها وجمعها ، وتعبر ضمناً عن الاساس الذي بنى عليه ابن الاعرابي فهمه لمصطلح النوادر ، وهو كما يبدو قريب من معناه السابق لدى أبي زيد في ابواب النوادر من كتابه فأورد عدداً من الفاظ الترادف ، والمشترك ، والاضداد ، والقلب والابدال ، والاشتقاق ، وما الى ذلك [3] . والتفت الى الفروق الدقيقة بين بعض الالفاظ وما تؤديه من دلالة [4] . يضاف الى ذلك ما نعثر عليه في النصوص المتفرقة التي جمعها دارس ابن الاعرابي من كتابه النوادر ؛ من معالجات نحوية [5] ، وصرفية [6] ، ونقدية [7] ، وغيرها . بحيث تقفنا ظواهر الكتاب هذه وخصائصه المنهجية امام مؤلف تظهر عليه النزعة الكوفية في العناية برواية الشعر والاكثار منه دون العناية بنسبته ، وفي الاهتمام بلغات العرب المختلفة دون الاهتمام بعزوها ، وفي الاحتفال باخبار العرب وانسابهم وادبهم وحكمهم وما دارت عليه مجالسهم واسمارهم . وتقفنا امام كتاب يجمع بين اللغة والادب والتاريخ ، دون ان يتمحض لأحد هذه الجوانب ، فاذا اضفنا الى ذلك ما دلت عليه النصوص المروية عنه من

---

(1) ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧

(2) ص ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠

(3) ص ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٤٩

(4) ص ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٧

(5) ابن الاعرابي ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٥٥

(6) نفسه ٣٤٢

(7) ٣٤٧-٣٤٨

مسائل النحو والصرف برزت صورة الكتاب الحقيقية ، وانجلت معالمه الاصلية .

كتاب النوادر لأبي مسحل :

واما كتاب (النوادر) لأبي مسحل الاعرابي ، فقد وصلت الينا منه ثلاث روايات ، الأولى رواية ابي العباس ثعلب ، والثانية رواية ابي العباس ابن الاعرابي اخي ابي عبد الله ابن الاعرابي الذي مرت قبل قليل دراستنا لنوادره ، والثالثة رواية ابي عبد الرحمن احمد بن سهل (صاحب ابي عبيد) ، ونسخت هذه الروايات جميعاً في كتاب ، ومن مخطوطته طبع الكتاب[1] . واكبر هذه الروايات رواية ثعلب ، ولا نعلم لماذا جعلها الناسخ قسمين مفصولين برواية ابي العباس ابن الاعرابي وهي اصغر الروايات ، وأخّر رواية ابن سهل وبها ينتهي الكتاب . وقرأ الكتاب على ثعلب تلميذه ابو عمر الزاهد (٣٤٥) وعلى الزاهد قرأه ابن خالويه (ت ٣٧٠) وعلى ابن خالويه قرأه محمد بن بلبل البغدادي ، وعلى نسخة الاخير نسخ علي بن عبيد الله الشيرازي مخطوطته التي وصلت الينا[2] .

وبين الروايات الثلاث اختلاف كبير في المادة المروية يشمل معظمها ، وبينها ايضاً اتفاق في بعض المواد ، وهذا الاتفاق لا يصل الى درجة اتحاد النص ، وانما اختلفت الروايات في المادة المتفق عليها في اثبات الشاهد المنشد وحذفه او اثبات اعلام الشيوخ وحذفها . فمما اتفقت فيه روايتا ثعلب وابن الاعرابي مادة (أبد)[3] و(أتت ماشية فلان)[4] . ومما اتفقت فيه روايتا ثعلب وابن سهل مادة (أرّث نارك)[5] و (أرشت بين القوم)[6] . على ان رواية ابن سهل - وقد قرئت على ثعلب[7] - اقل الروايات شواهد واعلاما ، وكأن الراوي تخفف منها ، كما قلل ابن

(١) نشره محققا د . عزة حسن بدمشق ١٩٦١ م

(٢) النوادر : صفحة العنوان والتي تليها

(٣) النوادر ١/ ٧٨ ، ١٨٧

(٤) نفسه ١/ ٦٤، ١٧٧

(٥) ١/ ٢٦ ، ٤٨٣

(٦) ١/ ١٠١ ، ٢/ ٤٨٤

(٧) ٢/ ٥٢٣

سهل من نسبة الشواهد الى قائليها ، وذكر اللغات وعزوها الى اصحابها ، خلافاً لما عني به الراويان الآخران من هذه الجوانب .

واذا كان كتاب ابي مسحل اقرب كتب النوادر الى اللغة ، واكثرها تمحضاً لموادها ، فانه يكاد يكون كتاباً في المشترك اللفظي ، لعنايته الكبيرة برصد الفاظ المشترك ومحاولة احصاء مفردات هذه الظاهرة ، اذ لا نعدم ان نعثر في معظم صفحات الكتاب على مواد المشترك[1] . على انه التفت الى الظواهر اللغوية الاخرى ، ونص على مفرداتها ، كالاضداد[2] ، والقلب[3] ، والابدال[4] ، والاتباع[5] ، والمعرب[6] ، والمثنى[7] . اضافة الى تعرضه لبعض مسائل النحو والصرف ، فذكر حذف الالف في (خير) و (شر) حين تستعملان للتفضيل ، مورداً فيها رأي الكسائي والبصريين[8] . وذكر نزع الخافض[9] ، والنصب على المصدر[10] ، وعرض للمصدر واسم المصدر[11] ، وصيغة مفاعيل ومفاعل[12] ، وفعيل وفعول[13] ، والمقصور والممدود ووزنهما[14] ، والمنقوص واحكامه[15] ، وما الى ذلك من امور . سوى استطراده احيانا في ايراد اخبار العرب وانسابهم ، وما

---

(١) انظر مثلا : ٨٨ ، ١٠٢ ، ١٣٦ ، ١٦٠

(٢) ١/ ١٨٢ ، ٢٢٧ ، ٢/ ٤٩١

(٣) ١/ ٧١ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٢٧١

(٤) ١/ ٣٢ ، ٨١ ، ٣٩٥ ، ٢/ ٥٠١

(٥) ١/ ١٤٤ ، ١٥٢ ، ٢٥٥ ، ٣٥١

(٦) ١/ ٨٢ ، ٣٢٧ ، ٣٧١

(٧) ١/ ١٢٢ ، ٢٩١ ، ٢/ ٤٦٧

(٨) ١/ ٣٥٥

(٩) ١/ ١٥٦

(١٠) ٢/ ٥٢٢

(١١) ١/ ٢٧٠ ، ٢/ ٤٤٦

(١٢) ١/ ٤١٩

(١٣) ١/ ٨٨

(١٤) ٢/ ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٧٦

(١٥) ٢/ ٥٠٨

يقصه خلال معالجاته اللغوية[1]

ونوادر ابي مسحل كنوادر ابن الاعرابي من حيث عدم التقسيم والترتيب، فلا ابواب للموضوعات ، ولا تنظيم معين للمواد ، سوى ما نجده في القسم الذي رواه احمد بن سهل من افراد باب خاص بالنخل[2] ـ سنقف عنده بعد قليل ـ وباب بعد بلا عنوان ، يعنى بذكر الالفاظ النادرة والاستعمالات الغريبة[3] ، لعله يمتد الى نهاية الكتاب ، اذ ليس هناك ما يشعرنا بانتهائه قبل ذلك ، وعليه فهو باب كبير ، يستغرق اكثر رواية ابن سهل ، وفيما عدا هذين البابين ، لا نعثر الا على محاولة لحصر المواد المتشابهة في مكان واحد دون تسميتها ، كالذي فعل من ايراد ما كان على افعل من الامثال واحداً بعد الآخر[4] ، وجمع عدد من الصفات وذكر مصادرها امامها[5] ، وجمع ما كان على مفاعل ومفاعيل من الجموع[6] ، واشباه ذلك .

وتمحض باب النخل لكل ما يتصل بموضوعه ، ففيه كلام على الفسيل وغرسه ، والسعف وانواعه ، والتمر ومراحل نضجه ، واللقاح وأوانه ، والنخل واصنافه ، الى آخر ما هنالك من امور تخص النخل . ووجود مثل هذا الباب في كتاب خلا من التبويب والتقسيم واختلطت فيه المواد واضطرب ترتيبها ، امر يثير التساؤل ويدعو الى الشك . فرحنا نحتمل ان يكون مقحماً على الكتاب ، ورجعنا الى اقدم ما وصل الينا من كتب النخل ، وهو كتاب (النخل) المنسوب الى الاصمعي[7] ، نعارض مادة هذا الباب عليه ، فتبين من هذه المعارضة ان باب النخل في نوادر ابي مسحل ما هو الا كتاب النخل المنسوب للاصمعي ، تقدمت بعض فقراته وتأخر بعضها الآخر ، فما نجده في الصفحة الأولى من باب النخل مثلاً

(1) ١/ ٢٦٢ ، ٤٠٣
(2) من ٢/ ٤٢٥ ـ ٤٤٠
(3) من ٢/ ٤٤١ ـ ٥٢٣
(4) ١/ ٢٥٨ ـ ٢٦٢
(5) ١/ ٣٢٠ ـ ٣٢٥
(6) ١/ ٤١٩ ـ ٤٢١
(7) نشرة الاب لويس شيخو في (البلغة) المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩١٤ م .

نجده في الصفحة الثانية من كتاب النخل ، وما نقرؤه في الصفحة الثالثة مثلا من الباب نقرؤه في الخامسة من الكتاب وهكذا ، أما المادة فهي هي تقريبا في كلا الموضعين ، فما الذي جاء بها هنا ، ومن كان وراء ذلك ؟ ونحن نعلم انه لم تكن بين الاصمعي البصري ـ ان صحت نسبة كتاب النخل اليه ـ وابي مسحل ورواة كتابه الكوفيين اي صحبة دراسية .

نشر كتاب النخل الذي نحن بصدد الحديث عنه في اعداد السنة الخامسة من مجلة المشرق بتحقيق المستشرق اوغست هفنر ، ثم نشر مرة اخرى مستقلاً . وفي كلتا النشرتين كان الكتاب منسوباً الى الاصمعي على الرغم من عدم ورود اسمه في صفحة العنوان ، الا ان كثرة ما ورد من اقتباسات لسان العرب من هذا الكتاب معزوة الى الاصمعي هي التي جعلت محققه لا يتمارى في نسبته اليه[1] . وحين نشر الاب لويس شيخو هذا الكتاب ـ بعد ان اصلح غلط طبعتيه السابقتين وضبطه بالشكل والحق به فهرس مفرداته ـ في مجموعته (البلغة) ، خالف هفنر في نسبته الى الاصمعي وقال : « اما نسبة الدكتور هفنر هذا الكتاب الى الاصمعي فهي على ما نظن تغليب ، لأن نسختنا التي اخذ عنها لا تصرح باسم الاصمعي . ومن المحتمل ان يكون الكتاب لأبي عبيد معاصر الاصمعي المتوفى سنة (٢٢٤ للهجرة) ومما يحملنا الى نسبته لأبي عبيد ان الشروح للمفردات توافق ما جاء في لسان العرب والمخصص لابن سيده منسوباً لأبي عبيد اكثر منها للأصمعي »[2] .

وقد حفز هذا الاحتمال الذي صرح به الاب شيخو احد الباحثين الى القيام بمعارضة الكتاب على باب النخل في (الغريب المصنف) لأبي عبيد[3] ، وبعد ان تمت له هذه المعارضة وجد ان الكتاب ليس الا هذه القطعة من الغريب المصنف ، حذفت منها اسماء الرواة ومعظم الشواهد الشعرية ، وتثبت الامثلة التي ذكرها هذا الباحث صحة ما توصل اليه[4] . وهذا لا يعني ان الاصمعي لم يؤلف كتاباً في

---

(١) النخل (البلغة) ٦٤

(٢) نفسه ٦٣

(٣) د . رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ٢١٣

(٤) نفسه ٢١٤

النخل ذكرته مصادر ترجمته[1] . ولكن يعني انه ليس هذا الكتاب الذي نشره هفنر وشيخو ، بل هو كتاب آخر قد ضاع مع ما ضاع من تراثنا القديم ، ومن الراجح ان يكون ابو عبيد نفسه قد اعتمده في هذا الباب الخاص بالنخل من كتابه الغريب المصنف ، لورود ذكر الاصمعي اكثر من مرة خلاله[2] . ومما يعضد هذا المذهب ان ابا عبيد ذكر الاصمعي منشداً لابيات غير موجودة في الكتاب المنسوب اليه[3] ، غير انها موجودة في باب النخل من كتاب النوادر لأبي مسحل[4] ، مما يدل على ان هذا الباب منتسخ عن باب النخل في الغريب المصنف لأبي عبيد ، ثم اقحم في كتاب النوادر وهو ليس منه . يضاف الى ذلك ما نجده في الكتاب المنسوب للاصمعي من الرواية عن الكسائي[5] ، وهو امر لم يكن بين الكسائي الكوفي والاصمعي البصري على الرغم من تعاصرهما في بغداد . في حين روى ابو عبيد في كتابه الغريب المصنف ، وفي باب النخل بالخصوص عن الكوفيين والبصريين[6] .

نخلص من ذلك الى ان باب النخل في نوادر ابي مسحل هو باب النخل في الغريب المصنف لأبي عبيد ، نسخ مستقلاً من الاخير ثم اقحم سهواً في الأول ، ويبدو ان ذلك قد حدث بعيد وفاة ابي مسحل (حدود ٢٥٠ هـ) وفي حياة ثعلب (المتوفى ٢٩١) ، ذلك ان هذا الباب قرىء على ثعلب ضمن كتاب النوادر . يدل على ذلك امران : الأول : النص على هذه القراءة في آخر المخطوطة[7] . والثاني : وجود التعليقات المعهودة في الكتاب على حواشي هذا الباب[8] . وهذه التعليقات كان قد وجدها الشيرازي (كان حيا سنة ٤٤٧) ناسخ الاصل الذي طبع منه الكتاب، على حواشي النسخة التي نقل عنها، فنقل هذه التعليقات ايضا[9] . ولا بد

(١) الفهرست ٦١
(٢) الغريب المصنف ٢٥٩
(٣) المصدر والصفحة انفسهما
(٤) النوادر ٢/ ٤٣٨
(٥) النخل (البلغة) ٦٩
(٦) الغريب المصنف ٢٥٩
(٧) النوادر ٢/ ٥٢٣
(٨) انظر مثلا ٢/ ٤٢٨ ، ٤٣٦
(٩) انظر النوادر (مقدمة المحقق) ١٤

ان تكـــون لأحد الذين قرأوا الكتاب ممن ذكرنا في صدر الموضوع . والذي نرجحه من امر باب النخل ان الذي كان وراء وجوده في نوادر ابي مسحل هو ابو عبد الرحمن احمد بن سهل احد الرواة الثلاثة للكتاب ، فقد عرف بصاحب ابي عبيد القاسم بن سلام كما ذكر ذلك في صدر روايته في الكتاب[١] ، وهذه الصحبة سببت توافره على الغريب المصنف ، فنسخ منه باب النخل . ثم لما دوّن روايته لنوادر ابي مسحل ، وقد وصلت الى الشيرازي ناسخ الاصل بخطه ، اقحم ذلك البـاب فيهـا غلطـاً وسهواً ، وهذا هو الذي يفسر عدم وجداننا لباب النخل في روايتـي ثعلـب وابـي العباس ابن الاعرابي واختصاص رواية ابن سهل به .

نعود الآن الى الكتاب لنكمـل دراستنـا لخصائصـه المنهجية ، فنجـد تنـوع الشوّاهد فيه ، اذ استشهد ابو مسحل بالقـرآن[٢] ، والحـديث[٣] ، والامثـال[٤] ، والشعر[٥] ، والرجز[٦] . واستشهاده بالحديث يعد مخالفة للمنهج الذي اخذ به غيره ممن توقف ازاء الاخذ بالحديث وهو في الغالب منهج البصريين . وابو مسحل في هذا وسع على نفسه مجال الدرس ، وانتظم مع اشياخه الكوفيين في الاعتماد على النقل والاثر . وكان في الشعر على هذا المنهج ايضاً ، اذ لم يقف عند العصر الذي وقف عنده غيره من الدارسين ، فقد امتد عصر الاستشهاد فيه الى ما بعد الفرزدق وجرير وابـن هرمـة ،فاضافـة الى استشهـاده بالشعـر الجـاهلي[٧] ، والاسلامـي[٨] ، والاموي[٩] ، استشهد لمعاذ الهراء المتوفـى سنـة (١٩٠ هـ) اي في عصر الـرشيد العباسي ، ببيت لم يعزه ابو مسحل ، وانما رواه عن الاموي استاذه . ولكن المصادر

(١) النوادر ، ٣١٥

(٢) [illegible] : ١/٩٣ ، ١٥٤ ، ٣٤٧ ، ٢/ ٤٦٤

(٣) ١/١٤٣ ، ٣٥٥ ، ٣٧٤

(٤) ١/ ١٦١ ، ١٦٨ ، ٢٥٨

(٥) ١/٦٨ ، ١٤٦ ، ٣٠٦ ، ٢/ ٤٦٤

(٦) ١/ ٢٧٤ ، ٢/ ٥١٠

(٧) ١/١١٣ ، ١٦٩

(٨) ١/٤٦ ، ١٦٢

(٩) ١/١٠٧ ، ١٥٣

التي ذكرها المحقق لتخريج البيت نسبته الى الهراء[1] . وفي هذا مخالفة وجدة . وهو حين يستشهد بالشعر او الرجز يشير احياناً الى الرواية الاخرى للبيت ، وقد يفسر بعض الالفاظ الغريبة فيه . يقول مثلا : « قال الراجز :

نادیت في الحي الا مذيدا فأقبلت فتيانهم تخويدا

وبعضهم يرويها : تهويدا . والمذيد : المعين . والتحويد : الاحضار الشديد » [2] .

وكان اطلسه اللغوي واسعا ايضا ، اذ لم يقتصر اخذه عن لغات القبائل التي تباني البصريون على فصاحتها فقط ، وانما جازها الى قبائل اخرى ، فالى جانب ذكره لغات : اسد ،[3] وتميم ، [4] وقيس ، [5] وكلاب ، [6] وكلب ، [7] وهذيل ، [8] وطيء ، [9] ذكر لغات اهل اليمن ، [10] وبني الحارث ، [11] وغيرها مما استبعد عن الدرس اللغوي . وشافه في هذا اترابه الاعراب الفصحاء كأبي السمال العدوي[12] ، وابي خيرة العدوي ، [13] وابي مرة الكلابي ، [14] وابي ثروان العكلي ، [15]

---

(1)
(2) ١/ ٢٧٤ وانظر : ١/ ٦٠، ٤٠٨
(3) ١/ ٨٥ ، ١٠٨ ، ١٢٢
(4) ١/ ٢٥٢ ، ٣٠٧ ، ٣٤٣
(5) ١/ ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢/ ٤٥٠
(6) ٢/ ٤٦٣ ، ٤٩٥
(7) ١/ ٣٤٤
(8) ١/ ٣٦٩
(9) ١/ ٢٩٥ ، ٣٢٦ ، ٢/ ٤٦٢
(10) ١/ ٤٩
(11) ٢/ ٤٢٧
(12) ٢/ ٤٦٣
(13) ٢/ ٤٨٢
(14) ٢/ ٤٨٢
(15) ١/ ٢٧٦

وابي عون الحرمازي ، [١] وغيرهم . وروى عن شيوخه الكوفيين كالكسائي ، [٢] والفراء ، [٣] والاموي ، [٤] وغيرهم ، ونقل طرفا من خلافاتهم كالذي كان بين الكسائي والفراء حول ضم الغين وفتحها في (غسلة) . [٥] . كما روى عن البصريين كأبي عبيدة مباشرة ، [٦] وعيسى بن عمر بوساطة الكسائي ، [٧] ويونس ابن حبيب بوساطة الفراء . [٨] .

ولولا هذه العناية الفائقة بالفاظ المشترك التي طغت على الكتاب ، لما اختلف مفهوم (النوادر) لدى ابي مسحل عما كان عليه لدى ابي زيد وابن الاعرابي ، فالنوادر : استعمال شاذ ، ومخالفة للقياس ، وفروق دلالية بين الالفاظ . فمن الاستعمال الشاذ ما نقله عن العبسيين انهم يقولون (مَغزل) بفتح الميم ، [٩] وعن الكلابيين انهم يقولون (نَعِمَ) في أنعَم . [١٠] ومن مخالفة القياس قولهم : (ما خيره وما شره من رجل) بحذف الالف : [١١] وجمعهم مثل حرة وكنة ولصة على حرائر وكنائن ولصائص . [١٢] ونص في كلا الموضعين على انه نادر لمخالفته للقياس . ومن الفروق المعنوية بين الالفاظ ما اورده في مادة (شرفة) وقول العرب (عيشي حعار) . [١٣] وأمثال هذا كثير في كتابه . غير انه اغنى مصطلح النوادر برافد آخر هو الفاظ الظواهر اللغوية لا سيما ظاهرة الاشتراك ، بما اورده في كتابه من ثروة لغوية منها .

---

(١) ٤٥٨/٢

(٢) ٥٢/١ ، ٨٦ ، ٢٢٣ ، ٣٤٤

(٣) ١٤٣/١ ، ١٤٤ ، ٢٤٧ ، ٥٠٤/٢

(٤) ٤٨/١ ، ٥٦ ، ١٥١ ، ٥٠٥/٢

(٥) ١٤٤/١

(٦) ٢٢٤/١

(٧) ٢٤١/١

(٨) ٢٥١/١

(٩) ٢٠٤/١

(١٠) ٤٦٣/٢ .

(١١) ٣٥٥/١

(١٢) ٢٣٩/١

(١٣) ٤٩٨/٢ .

وبعد فنحن واجدون في الكتاب ، ولا سيما الباب الذي يلي باب النخل في رواية ابن سهل ، مادة تشبه ما في نوادر ابي زيد الى حد كبير بعضها يتصل بالغريب مثل : ملحوجة ،[1] وقني وغني ، [2] وبعضها يتصل بالشعر والرجز . [3] ولعل المصدر الذي استقى منه الاثنان مادتيهما واحد ، فما كان من الغريب ولغات العرب ، فمما حكياه عن العرب . وما كان من القصيد والرجز فمما روياه عن المفضل الضبي . فأبو زيد روى عنه مباشرة كما مر ، وابو مسحل روى عن اشياخه عنه .

مجالس ثعلب :

واما مجالس ثعلب او أماليه كما تسميها بعض المصادر ، [4] فهو الكتاب الوحيد بين هذه الكتب الأربعة لا يحمل في عنوانه لفظ النوادر ، [5] وكان ذلك لعلة تستفاد من الفرق الواضح بين مادته ومادة اي من تلك الكتب . فكتب النوادر ـ وان كان بعضها يملى على الطلاب ـ كانت مادتها تتصل بالنوادر في مفهومها الذي اشرنا اليه لدى اصحابها ، وما خرج عن ذلك منها لا يبعد كثيرا عن موضوعها الاصلي الذي لاجله وضع الكتاب . في حين لا نجد في مجالس ثعلب موضوعا رئيسا لاجله عقدت المجالس وحررت الامالي فيها . وانما نقرأ اشتاتا من الموضوعات ، لا يربط بينها رابط ما ، سوى كونها مدونة في حلقة تعليمية خاصة فيها يلقي ثعلب ما يعن له من شعر او خبر او تفسير او مسألة في اللغة او النحو والصرف او جواب عن سؤال يوجه اليه ، فيسجل خلال ذلك طلابه ما تتابع عليهم من هذا الخليط العلمي الممتع ، فكان هذا الكتاب .

وذكرت لنا المصادر اسماء عدد ممن روى الكتاب ، [6] اشهرهم ابو بكر بن

---

(١) ٢/ ٤٥٤ ، ٤٨٣ وانظر نوادر أبي زيد ١٣٥

(٢) ٢/ ٤٥٥ ، ٤٣٦ وانظر في نوادر ابي زيد : ١٣٣

(٣) ٢/ ٤٧٧ وانظر في نوادر ابي زيد١٣٣.

(٤) انظر : المجالس ١/ ٣٨ وأمالي القالي ١/ ١٧٧ والمؤتلف والمختلف ١٧ ومعجم الادباء ١٦/ ١١٥ ولسان العرب ٩/ ٢٠٦ والمزهر ١/ ١٤٨ وشرح شواهد المغني ٦٧ وخزانة الادب ٢/ ١٢٥

(٥) طبع بتحقيق عبد السلام محمد هارون في دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨ واعيد نشره سنة ١٩٥٦ م

(٦) الفهرست (الرحمانية) ١١١ .

الانباري ، وابو عبد الله اليزيدي ، وابو عمر الزاهد ، وابن درستويه ، وابن مقسم المقرىء العطار ، وجل هؤلاء ممن تلمذ لثعلب . ولم يصل الينا من رواياتهم سوى رواية ابن مقسم ، وهي التي طبع منها الكتاب . ويبدو ان ابن مقسم هذا قد زاد في الكتاب شيئا ، بعضه له وبعضه لغيره ، حسب ما ينص عليه في موطنه .[1] كما يبدو من رواية ابن مقسم عن ثعلب هذه المجالس ، ان ثعلبا كان يملي هذه المادة في السنوات المتأخرة من حياته ، ذلك اننا نعرف ان ابن مقسم المتوفى (٣٥٤) كان قد ولد سنة (٢٦٥ هـ) ،[2] وان ثعلبا توفي سنة (٢٩١ هـ) فبين ولادة الاول ووفاة الثاني ست وعشرون سنة ، فاذا افترضنا حضور ابن مقسم حلقة ثعلب وهو ابن عشرين في الاقل ، استطعنا ان نحدد زمن هذه المجالس في السنوات الست الاخيرة من حياة ثعلب أي بين سنتي ٢٨٥ ـ ٢٩١ هـ .

الكتاب ـ في مخطوطته التي نشر منها ـ مقسم الى اثني عشر جزءا ، ولعل هذا التقسيم من عمل ابن مقسم راوي الكتاب ، اذ لا نجد فرقا واضحا بين جزء وآخر من حيث طبيعة الخليط الذي يحويه كل جزء ، كما لا يوجد ما يدل على ان الجزء اللاحق يتمم الجزء الذي قبله ، فكل جزء من اجزاء الكتاب وحدة قائمة بذاتها . فلا قيمة فعلية لهذا التقسيم ، ولا قيمة ايضا لما نجده في بعض هذه الاجزاء من ذكر لفظة (مجلس) عنوانا لقطعة من الجزء لا تختلف في شيء عن سائر الجزء مادة ومنهجا .[3] غير اننا نعثر في الجزء الثاني من هذا التقسيم على عنوان خاص هو (الاجزاء في القرآن) تكلم تحته ثعلب على عدد حروف القرآن ، كلها ، ونصفها ، وربعها ، وثلثها ، وخمسها ، وسدسها ، وسبعها . . الخ .[4] مستغرقا ست صفحات ، نقرأ في آخرها : (تم اجزاء القرآن) . وهذا هو العنوان اليتيم في كل الكتاب ، وقد ساغ وضعه على هذه القطعة منه ، لانطباقه على ما تحته .

اكثر ثعلب في مجالسه من انشاد الشعر ، فأنشد للجاهليين امثال زهير

---

(١) انظر مثلا : ١/ ٢٨ ، ١٣٦ ـ ١٣٨

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ٢٠٦ والبغية ٣٦ .

(٣) انظر : ١/ ٢٤ ، ١٢٨ ، ١٦٦ ، ٢٠٧ ، ٢٧١

(٤) ١/ ٥٠ ـ ٥٦

والاعشى[1] ، والمخضرمين امثال حسان وكعب[2] ، والاسلاميين امثال ذي الرمة وابن هرمة ،[3] والعباسيين امثال بشار وأبي نواس ،[4] حتى انشد لنفسه ايضا [5] تاركا الاغلب الاعم مما ينشده من قصائد ومقطعات دون تعليق ، وكأنه يرمي من ذلك الى تنبيه الطلاب على ما فيها من بلاغة ، او قصة ، او نكتة . وقد يفسر بعض ما ورد فيها من الفاظ غريبة ،[6] او يذكر اختلاف رواية احد ابياتها .[7] لينتقل الى ايراد اخبار العرب وقصص الاوائل ،[8] تاركا في الاكثر ما يورده دون تعليق ، ويشرح احيانا بعض الفاظ الخبر او القصة .[9] غير اننا كثيرا ما نجده يفسر الفاظا مختلفة لم ترد في الخبر المذكور قبلها والابيات المنشدة فيه [10] وكان موقفه من نصوص القرآن مختلفا ، فلم يورد آية من آياته الكريمات الا علق عليها بذكر تأويلها ، او بيان حكمها الشرعي ، او تفسير غريبها .[11] وكذلك كان مع الحديث الشريف يفسره ويستشهد به ،[12] ومع الامثال فصيحها وعاميها .[13]

وليس غريبا ان نجد ثعلبا في مجالسه نحويا قبل كل شيء، على الرغم مما طبعت به الاشعار والقصص والاخبار هذه المجالس بطابع الادب والتاريخ .[14] فكان لرياسته مذهب الكوفيين اثر واضح في الكتاب ، يتجلى بهذه الكثرة من المسائل النحوية التي عالجها وفصل القول فيها ، موردا رأيه وآراء شيوخه الكوفيين ، مثل

(1) ١/٩٩ ، ١٨٧
(2) ٢/٤٠٠ ، ٤٢٩
(3) ١/٤٢ ، ١٠١
(4) ١/٢٤ ، ٢/٦١١
(5) ١/١١٤
(6) ١/١٦٨
(7) ٢/٤٦١
(8) ١/٤ ، ٥ ، ٧ ، ١٠
(9) ١/٨
(10) ١/٥ ، ٦ ، ٧
(11) ١/٦ ، ٨ ، ٩ ، ١١
(12) ١/١١ ، ٢/٦٦١ .
(13) ١/٥٩ ، ٩٣ ، ٢٦٨ ، ٢/٥٣٧ ، ٦٦١
(14) انظر ايضا : ٢/٤٠٧ ، ٤٠٨

رأيه في نصب (عبد) في قولهم: (أعبدَ اللهِ ثوبا كسوته)،[1] والاستئناف وجواز النصب في قوله تعالى: (قالوا اساطير الاولين)،[2] ورده على المازني في شذوذ دخول الباء على الفاعل،[3] وعسى واحكامها[4] والاستثناء المنقطع،[5] و(إلاّ من) في الاستثناء،[6] وذكر رأي الفراء والبصريين في بئسما ولعلما،[7] وما الى ذلك مما يرسم له صورة النحوي المصرف لما يعرض له من هذه الاستعمالات والاساليب تصريف العالم المتمكن.

وعرض ايضا لمسائل التصريف وموضوعاته، فذدر صيغ اسم الآلة، والصفة المشبهة، وافعل التفضيل، والمبالغة وبناء فعلل وفعول وفعيل.[8] وخالف اصحابه الكوفيين في حذف الواو من (يَعِد) و(يزن) موافقا البصريين.[9] وعرج على الفاظ الظواهر اللغوية ينص عليها ويعالجها، فاورد عددا من الفاظ المشترك،[10] والاتباع،[11] والمقلوب من التراكيب مما ادخله اللغويون في الاضداد[12]، والتذكير والتأنيث،[13] وغير ذلك. سوى ما ذكره من مفردات التقطها من افواه العرب لم ترد في المعجمات وفاتت جمّاع اللغة.[14] وكان معتمده في كل ذلك لغات العرب يستقي منها قوانين اللغة ومفرداتها وحقائقها وظواهرها، وقد توسع في الاخذ عن القبائل، فزاد عديدها عنده، وبعد موطنها لديه، فذكر

---

(١) ١/ ١٠

(٢) ٢/ ٦٦٠

(٣) ١/ ٣٣٠

(٤) ٢/ ٤٦٣

(٥) ٢/ ٦٢٤

(٦) ١/ ١٣

(٧) ٢/ ٤١١

(٨) ١/ ١٥٠، ١٧٩، ٢٠٨، ٣٨٢، ٢/ ٥٣١، ٦١٣

(٩) ٢/ ٤٢٨

(١٠) ١/ ١١، ٢/ ٤١٠

(١١) ١/ ٧

(١٢) ٢/ ٤٣٨

(١٣) ١/ ٣٢١، ٢/ ٤٩٠

(١٤) ١/ ٧٩، ٩٠، ١٦٥، ٢٤٨، ٢/ ٤١١، ٤٨٦، ٥٥٤.

لغات : الازد ، واسد ، وبكر ، وتميم ، والحجاز ، وحمير ، وحنظلة ، وحنيفة ، وسليم ، وضبة ، وطيء ، وعكل ، وفقعس ، وقريش ، وقيس ، وقضاعة ، وكلاب ، وكلب ، وكندة ، وهوازن ، وغيرها .[1] وذكر من ظواهر هذه اللغات : الكشكشة والكسكسة .[2]

وروى ثعلب عن عدد من الشيوخ واللغويين ، وجلهم من الكوفيين ، امثال الكسائي ، والفراء ،[3] وكان اذا اختلف هذان في مسألة فهو مع الفراء ،[4] كما روى عن ابن قادم ، وابن الاعرابي ، والاثرم ، ومحمد بن حبيب ، وابي العالية ، وابن شبة ، وابي نصر وغيرهم .[5] وكانت روايته عن البصريين بوساطة غيرهم ، فقد روى عن ابن سلام ويونس بوساطة ابن شبة ، وعن الاصمعي بوساطة ابي نصر ،[6] وهكذا .

نخلص من ذلك الى ان مجالس ثعلب يختلف عن كتب النوادر باستيعابه لكل ما يعن للاستاذ المملي من مسائل اللغة والنحو والصرف والادب والشعر والتفسير والقصص والاخبار والنوادر ، فهو ابعد من تلك الكتب عن النوادر بمفهومها الذي وضعه ابو زيد وطوره ابو مسحل . واتفق معها في انه مجموعة امالٍ دونها الطلاب ، وانه وعاء اختلطت فيه الموضوعات اللغوية بغيرها .

وخلاصة القول في هذه المجموعة من كتب النوادر والامالي ، انها مؤلفات اشبهت كتب المعاني والمجاز في كونها مختلطة المادة ، وافترقت عن تلك في انها اقرب للغة واكثر تمحضا لها ، وانضج منهجا ودرسا ومادة .

---

(1) ٧٣/١ ، ٣٣ ، ٣١٤ ، ٥٩ ، ١:٠٠ ، ١٥٤ ، ٩١ ، ١٥٢ ، ٣٠٦ ، ٨ ، ٧٦ ، ٥٠ ، ١٣ ، ٢٢ ، ٣١ ، ١١٣ ، ١٨٥ ، ٤٢٢/٢ ، ٥٥٦ ، ٥٠٩ ، ٥٩٩ ، ٥٤٢ ، ٥٠٥ ، ٤١٦ .
(2) ١٠٠/١ ، ١٤١
(3) ١٣/١ ، ٥٣ ، ٧٤ ، ١٦٩ ، ١٩٠
(4) ٤٢٢/٢ ، ٥١٤
(5) ٧/١ ، ٨ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥٨
(6) ٨/١ .

الفصل الثاني

كتب الموضوعات اللغوية المستقلة

مقدمة ـ كتب الغريب : غريب القرآن ، غريب الحديث ، غريب اللغة – كتب اللغات : لغات القرآن ، لغات القبائل ، لحن العامة ، كتب الأمثال ـ كتب الاصوات : الهمز ، الحروف ، الوقف والابتداء ، الاصوات ـ كتب الحيوان : الحشرات ، الطير ، الابل والغنم ، الخيل ، الوحوش .

مقدمة :

كنا قد اشرنا في الفصل السابق الى ان التأليف في موضوعات اللغة وجمع مفرداتهامختلطه ومنستقله كان اسبق في الظهور من التأليف في موضوعات النحو والصرف على الرغم من تبكير اللغويين في وضع كتبهم في الميدانين الاخيرين . ودللنا على ذلك بما ذكرنا من اسماء الكتب ومؤلفيها ، ناصين على تواريخ وفيات هؤلاء المؤلفين ، لتكون هذه التواريخ معياراً لنا على تحديد السبق في كل تأليف . ذلك اننا لا يمكن أن نحدد بالدقة تاريخ تأليف الكتاب خلال حياة المؤلف ، فنعمد الى هذه الطريقة المرتضاة في البحث على ما فيها من احتمال الغبن الذي يقع بحق المؤلف الذي يتأخر تاريخ وفاته عن تاريخ وفاة مؤلف آخر ، في حين يكون الأول اسبق من الثاني في التأليف في فن من الفنون اللغوية التي اسنذكرها في هذا الفصل .

وحين كانت المؤلفات الخاصة بمتن اللغة قد سبقت مؤلفات النحو والصرف ، كانت فنون هذه المؤلفات اللغوية متفاوتة في الظهور ، فقد سبق بعضها بعضها الآخر في الزمن ايضاً . فالتأليف في الغريب او الامثال او اللغات مثلاً سبق التأليف في الحيوان والنبات وغيرهما من الموضوعات تبعاً للدافع والظرف الخاصين . ونحن في هذا الفصل نقصر كلامنا على عدد من الفنون اللغوية التي الف فيها المسلمون في القرون الثلاثة الاولى ، مبتدئين في دراسة هذه الموضوعات المختارة بأولها ظهوراً فالثاني وهكذا ، ذاكرين في كل منها اول الكتب ظهوراً فالثاني وهكذا

ايضاً ، واقفين على ما وصل الينا منها وقفة متريثة نستجلي بها منهج الكتاب ومادته لنضع ايدينا ـ بعد ذلك ـ على تطور منهج التأليف في كل فن ، مرجئين الى الفصل الثالث من هذا الباب الكلام على المعجمات اللغوية .

وقبل البدء بدراسة هذه المؤلفات لا بد لنا من تكرار ما سبق القول فيه ، من ان القرآن الكريم كان الحافز الاكبر لنشأة الدراسات اللغوية التي اصبحت شيئاً فشيئاً مكتبة لغوية ضخمة فانطلاقاً من حرص المسلمين على صون القرآن من الخطأ نشأت المؤلفات الخاصة بنقطه وشكله واعجامه ، ورغبة في فهمه واستيعاب احكامه نشأت الدراسات الخاصة بتفسيره وتوضيح معانيه ومراميه الدينية ، وخدمة للغته ودفاعاً عنها نشأت المحاولات الخاصة بذكر غريبه والنص على لغاته ، ثم توسعت هذه الدراسات بمرور الزمن ، واخذت تبتعد عن ميدانها الأول ألاَ وهو القرآن ، وصارت تطلب لذاتها ، ويؤلف فيها مستقلة عن الدافع القديم دافع خدمة القرآن ، حتى تضاءل وكاد يختفي في مثل كتب الحيوان والنبات وأشباهها .

* * *

كتب الغريب

١ ـ غريب القرآن :

يعد التأليف في غريب القرآن أول ما ظهر من فنون التأليف اللغوي ، وذلك انه نسب لابن عباس (ت ٦٨ هـ) كتاب في هذا الموضوع ، ويزعم بروكلمان انه كانت منه نسخة في برلين قبل الحرب العالمية الثانية[١] ، ولا ندري مدى صحة هذه النسبة بعد ان احجمت المصادر القديمة عن ذكرها ، فمن ذلك فهرست ابن النديم الذي ذكر ان أول كتاب الف في تفسير القرآن هو كتاب ابن عباس الذي رواه مجاهد عنه[٢] . وهو ـ فيما نعتقد ـ غير الكتاب الذي نحن بصدده ، لأن كتاب (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) الذي استخرجه الفيروز ابادي لا يعد كتاباً في غريب

(١) تاريخ الادب العربي ١/ ٣٣ عن المعجم العربي ١/ ٣٩ .

(٢) الفهرست ٥٠ .

القرآن وانما هو كتاب في التفسير ، ولا يخفى ما بين الغريب والتفسير من الاختلاف في المعالجة .

غير اننا نعرف ان ابن عباس كان يسأل عن معاني مفردات القرآن، وانه كان يفسرها تفسيراً لغوياً ، مستشهداً على ما يقول بالشعر العربي القديم ، يقول سعيد ابن جبير ويوسف بن مهران : « سمعنا ابن عباس يُسأل عن الشيء من القرآن فيقول فيه كذا وكذا ، اما سمعتم الشاعر يقول كذا وكذا[1] » . ونقل السيوطي انه : « قال ابو عبيد في فضائله : حدثنا هشيم عن حصين بن عبدالرحمن عن عبدالله بن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس انه كان يُسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر ، قال ابو عبيد : يعني كان يستشهد به على التفسير[2] » . وفي كتب التفسير واللغة والأدب نُقُولٌ كثيرةٌ عن ابن عباس تعضد هذا المنهج ، وتنقل عنه اقواله التي يدعو فيها الى اتباع هذه الطريقة في فهم غريب القرآن[3] .

واذا كنا لا نستطيع الجزم بحقيقة كتاب ابن عباس فنستطيع الظن انه من مرويات تلاميذه عنه ، اذ يحلو لاحد الرواة في جيل متأخر ان يجمع ما رواه متصلاً بابن عباس في كتاب ينسب اليه ، يقوي ذلك في نفوسنا امران ، الأول : ان السيوطي نقل لنا كثيراً من أقوال ابن عباس في غريب القرآن مروية عن ابن جرير عن المثنى عن عبدالله بن صالح عن علي بن طلحة[4] ، وربما كان الكتاب الذي نقل منه السيوطي برواية أحد هؤلاء مسندة الى ابن عباس . والثاني : ان كتاب (اللغات في القرآن) لابن عباس قد وصل الينا برواية اسماعيل بن عمرو بن راشد الحداد عن عبدالله بن الحسين بن حسنون المقرىء باسناده الى ابن عباس . فاسماعيل او ابن حسنون هو الجامع لشتات آراء ابن عباس في لغات القرآن ، حيث لم يؤلف ابن عباس هذا الكتاب . ومثله كتاب (تنوير المقباس) الذي مرت الاشارة اليه قبل قليل ، فهو من رواية محمد بن مروان عن الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس .

(١) الجامع لاحكام القرآن ١/ ٢٤ .

(٢) الاتقان ١/ ١٢١ .

(٣) الفاضل ١٠ وادب الاملاء والاستملاء ٧١ والاتقان ١/ ٢٠٦ .

(٤) الاتقان : ١/ ١١٤ .

وبامكاننا ان نتخذ من هذين الكتابين قرينة تكشف حقيقة كتابه الاول (غريب القرآن)

واشهر هذه الاسئلة الموجهة الى ابن عباس ما كان من نافع بن الازرق ونجدة ابن عويمر، حيث قصداه في المسجد الحرام وتوجها له بسؤالاتهما عن مفردات القرآن وغريبه ، فأجاب عنها ابن عباس واحدة واحدة على المنهج الذي اشرنا اليه ، ويوضحه المثل الآتي : « فقالا : يا ابن عباس اخبرنا عن قول الله عز وجل : (عَنْ اليمينِ وعن الشِّمال عِزين)[1] ، قال : عزين : حَلَقُ الرِّفاق . قالا : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، اما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يُهرَعون اليه حتى ... يكونوا حولَ مِنبَره عِزينا

قال نافع : يا ابن عباس اخبرني عن قول الله عز وجل : (وَابْتغوا اليه الوسيلة)[2] .

قال : الوسيلةُ : الحاجة ، قال : او تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، اما سمعت عنترة العبْسي وهو يقول :[3] :

إن الرجال لهم اليكِ وسيلةٌ ... إنْ يأخذوكِ تكحّلي وتخضّبي [4] »

وعلى هذا المنوال من السؤال والجواب المدعم بالشاهد الشعري يفسر ابن عباس ما يقرب من خمسين ومائتي لفظة من القرآن الكريم . وقد قام استاذنا الدكتور ابراهيم السامرائي بنشر هذه السؤالات محققة عن مخطوطة حديثة النسخ ، ببغداد سنة ١٩٦٨ بعنوان : سؤالات نافع بن الازرق الى عبدالله بن عباس .

ونصت المخطوطة على سند رواية السؤالات وهو قول الراوي : « حدثنا ابو

---

(١) سورة المعارج ٢٧ .

(٢) سورة المائدة ٣٥ .

(٣) ديوان عنترة ٢٠ .

(٤) سؤالات نافع بن الازرق ٩ .

الحسين عبد الصمد بن علي بن محمد مكرم المعروف بابن الطسي قراءة عليه من لفظه في مسجده بدرب رباح يوم الخميس لعشر خلون من ربيع الآخر من سنة اربع واربعين وثلثمائة قال : حدثنا أبو سهل السري بن سهل بن حربان الجند يسابوري بجند يسابور قراءة عليه سنة ثمان وثمانين ومائتين ، قال : حدثنا يحيى بن عبيدة الملي واسم ابي عبيدة بحر بن فروخ ، قال : اخبرنا سعيد بن ابي سعيد قال : حدثنا عيسى بن دأب عن حميد الاعرج وعبد الله بن ابي بكر بن محمد عن ابيه[1] » .

وقد شك في حقيقة وقوع هذه السؤالات عدد من الباحثين ، اشهرهم من العرب الشيخ محمد حسن آل ياسين[2] ، ومن المستشرقين كولد سيهر[3] . ذاهبين الى انها موضوعة ، قصد من ورائها الفائدة التعليمية ، اذ لا يمكن ان تتم كل هذه السؤالات وأجوبتها في جلسة واحدة كما يزعم رواتها ، كما انه لا يمكن ان تحفظ هذه السؤالات واجوبتها هذا الحفظ الدقيق الذي تناقلته الاجيال شفاهاً حتى دوّن بعد ابن عباس بعشرات بل مئات السنين . ومثل هذا الشك قيل في نسبة (تنوير المقباس) الى ابن عباس ايضاً[4]

وأقدم من نصت المصادر على تأليفه كتاباً في غريب القرآن هو ابو سعيد أبان بن تغلب بن رباح البكري (ت ١٤١ هـ) . يقول ياقوت الحموي في وصف هذا الكتاب : « وصنف ـ اي ابان ـ كتاب الغريب في القرآن الكريم ، وذكر شواهد من الشعر ، فجاء فيما بعد عبدالرحمن بن محمد الازدي الكوفي فجمع من كتاب ابان ومحمد بن السائب وابي روق عطية بن الحارث ، فجعله كتاباً فيما اختلفوا فيه وما اتفقوا عليه . فتارة يجيء كتاب ابان مفرداً ، وتارة يجيء مشتركاً ، على ما عمله عبدالرحمن»[5] . ولا نملك عن هذا الكتاب من المعلومات غير هذه ، وهي تفيدنا على

(١) سؤالات نافع ٨ .
(٢) منهج الطوسي في تفسير القرآن ٢١ .
(٣) مذاهب التفسير الاسلامي ٨٩ .
(٤) منهج الطوسي ٢٠ ـ ٢١ .
(٥) معجم الادباء ١٠٨/١ .

اختصارها انه كان سائراً على منهج ابن عباس في تفسيره الغريب من الاستشهاد بالشعر ، والظاهر ان طريقة الاستشهاد هذه راقت لمن جاء بعد ابن عباس ممن الف في الغريب ، فأخذوا بها دعماً لآرائهم وتوثيقاً لمعانيهم ، اذ ظلت متبعة الى عصر ابن قتيبة كما سنرى ذلك من دراسة كتابه .

وقد الف ابو فيد مؤرج السدوسي (ت ١٩٥هـ) في غريب القرآن ، وذكر الخطيب البغدادي والقفطي ان هذا الكتاب « رواه عنه اهل مرو[١] » . وألف في الموضوع بعده ابو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي (ت ٢٠٢)، والنضر بن شميل (ت ٢٠٣) ، وابو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠) ، والاصمعي (ت ٢١٣) ، الذي اتفق مع الدكتور حسين نصار في شكه في نسبة كتاب في غريب القرآن اليه ،[٢] ، فمع ان هذه النسبة لم يزعمها غير السيوطي ، فانه عرف عن الاصمعي تحرج شديد من التعرض لالفاظ القرآن[٣] .والف بعده الاخفش الاوسط سعيد بن مسعدة (ت ٢١١) وابو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤) الذي قال فيه ياقوت ان كتابه في غريب القرآن « منتزع من كتاب ابي عبيدة[٤] » . ثم الف محمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١) وابو عبدالرحمن عبدالله بن محمد العدوي المعروف بابن اليزيدي (تلميذ الفراء) ، وابن قتيبة (ت ٢٧٦) وكتابه هو الكتاب الوحيد الذي وصل الينا دون سائر الكتب السابقة .

غريب القرآن لابن قتيبة :

والكتاب ـ وقد نشره محققاً في القاهرة سنة ١٩٥٨ السيد احمد صقر ـ يمثل في منهجه نضجاً علمياً وعقلياً واضحاً . يتمثل ذلك بتقديمه للكتاب وتبويبه وترتيبه ومعالجته تفسير الالفاظ . فقد افتتح مقدمته بذكره انه قسم كتابه ثلاثة اقسام ، الاول : لتأويل اسماء الله الحسنى وصفاته واشتقاقها . والثاني : لتفسير المفردات

(١) تاريخ بغداد ١٣/ ٢٥٨ وانباه الرواة ٣/ ٣٢٧ .

(٢) المعجم العربي ١/ ٤٠ .

(٣) مراتب النحويين ٤٨ .

(٤) معجم الادباء١٦/ ٢٦٠ .

التي تكررت كثيراً في القرآن ، والثالث : لتفسير الغريب[1] . ثم يذكر غرضه ومنهجه في الكتاب وذلك انه اراد ان يختصر دون اخلال ، ويوضح دون اسهاب ، وان لا يستشهد على اللفظ المعروف ، ولا يحشو الكتاب بآراء النحاة واهل الحديث ، لأن ذلك يقلل الانتفاع به ، ويجعله شبيهاً بكتب السلف التي كان غرض هذا الكتاب ان يأتي على غير منوالها[2] . ثم يقرر ابن قتيبة ان كتابه مستنبط من كتب من سبقه من المفسرين واصحاب اللغة الكبار ، يختار منها ما كان اقربه في الدلالة اللغوية واشبهه بقصة الآية ، تاركاً التأويل البعيد والتفسير المكذوب ، ثم يمثل للتأويل البعيد والمنحول امثلة عديدة من القرآن مسجلاً حيرته بقوله : « لا ندري أمن جهة المفسرين لها وقع الغلط؟ او من جهة النقلة ؟[3] » وبهذا ينهي المقدمة ليدخل في صلب الكتاب .

وأول أقسام كتابه الثلاثة بعنوان (اشتقاق اسماء الله وصفاته واظهار معانيها) ويذكر فيه اسماء الباري عز وجل مبيّناً دلالتها اللغوية واشتقاقها وما يتصل بذلك من كلام، ناقلاً آراء غيره من العلماء كما في(الرَّحمن الرَّحيم)[4]، مستشهداً على ما يقول بالقرآن نفسه كما في (السَّلام)[5] ، وبالشعر كما في (سبُّوح)[6] ، وهكذا حتى يأتي على ستة عشر اسماً من أسمائه الحسنى ، يردفها ببعض صفاته جل شأنه وعددها عشر صفات فيكون مجموع الفاظ هذا القسم من الكتاب ستا وعشرين لفظة ، وهي تحتل خمس عشرة صفحة من مطبوع الكتاب[7] . ومما يلاحظ عليه في تسلسل هذه الاسماء والصفات انه لم يراع فيها ترتيباً معيناً ، اذ ليست مرتبة على الحروف الاولى ولا الاخيرة ، فمثلاً تبدأ هكذا : الرحمن الرحيم ، السلام ، القيوم والقيام ، سبوح . . . الخ . كما انها ليست مرتبة حسب ورودها في القرآن ، اذ

(١) غريب القرآن ٣
(٢) غريب القرآن ٣
(٣) المصدر نفسه ٥ .
(٤) غريب القرآن ٦
(٥) المصدر نفسه ٦ .
(٦) المصدر نفسه ٨ .
(٧) المصدر نفسه ٦ ـ ٢٠

ينبغي ان يأتي بعد السلام :المؤمن فالمهيمن حسب ورودها في قوله تعالى : (السَّلَامُ الْمُؤمِنُ الْمُهَيمِن)[1] . ولكن شيئاً من هذا غير موجود ، فهي غير مرتبة حسب ترتيب معين .

واما القسم الثاني فهو بعنوان (باب تأويل حروف كثرت في الكتاب) مثل : الجن ، الانس ، الثقلان ، الملائكة ، ابليس ، الشيطان ، يتوفّ الأنفس ، يوم يُنفخ في الصور وغيرها . ويتضح من ذلك انه لم يقصد بالحروف الالفاظ فقط وانما قصد الألفاظ والجمل مما شاع وروده وكثر في القرآن . وعداد هذه الحروف في هذا القسم اربعون حرفاً[2] ، والترتيب هنا مفقود كالقسم الاول ، فليست هذه الالفاظ والجمل مرتبة حسب نظام معين ، وهو يوشّي كلامه هنا ايضاً بآراء العلماء كما في (اساطير الاولين)[3] .وبالشعر كما في (السّورة)[4] . وبالقرآن كما في (الإفك)[5] . وهو يعنى بالاشتقاق في تفسير كل حرف ثم بدلالته اللغوية ، وقد يهملها متكلماً على ذكر نزول الآية او ما اشبه ذلك كما في (السَّبع الطِّوال)[6] .

اما القسم الثالث وهو عمدة الكتاب واصله فهو لتفسير غريب القرآن[7] ، وقد رتبه على ترتيب السور في القرآن ، فقد بدأ بالحمد فالبقرة وانتهى بالناس . كما رتب الآيات داخل السور ترتيبها الاصلي في القرآن ، فالغريب الوارد في آية (٣) مثلاً يأتي قبل الغريب الوارد في الآية (٧) ، وما في الآية (١٠) قبل ما في الآية (١٢) وهكذا حتى يأتي على السورة باكملها ، فهو ينتخب ألفاظاً غريبة من الآيات دون ان يحصي ذلك في كل آية ، وذلك حسبما يعتقد بغرابته او بعدمها .

وشرحه للغريب قصير مختصر ، فهو أحياناً لا يتعدى الكلمة الواحدة . كما ي

---

(١) سورة الحشر ٢٣ .
(٢) غريب القرآن ٢١ ـ ٣٧ .
(٣) المصدر نفسه ٣٧ .
(٤) نفسه ٣٤
(٥) نفسه ٣٠ .
(٦) نفسه ٣٥ .
(٧) نفسه ٣٨ ـ ٥٤٤ .

قوله تعالى : (حتّى يأتيكَ اليَقـين)[1] أي : الموت[2] . واحياناً يبلغ الصفحة الواحدة ، كما في قوله تعالى (لِيَستأذنكم الذّينَ ملكت أيمانكم)[3] ويُعد استشهاده بالشعر والحديث والمثل قليلاً بالنسبة لعدد الألفاظ الغريبة المفسرة في الكتاب ، وكان اكثر ما ينقل من آراء العلماء في غريب القرآن عن ابي عبيدة (ت ٢١٠) في كتابه مجاز القرآن ، والفراء (ت ٢٠٧) في كتابه معاني القرآن[4]، وفي الاشتقاق عن الاصمعي (ت ٢١٣)[5] . وفي التفسير عن ابن عباس ومجاهد والكلبي وغيرهم[6] ورجع القارىء في كثير من مواطن الكتاب تربو على مائة ، الى كتابه تأويل مشكل القرآن[7] ،مما جعلنا نعتقد ـ بعد الرجوع الى مواطنها في التأويل ومقارنتها بالغريب ـ بأن هناك تشابهاً كبيراً في معالجة الآيات في الكتابين ، كان السبب فيه تأثير كتاب تأويل مشكل القرآن على ذهن ابن قتيبة وهو يؤلف كتابه غريب القرآن ، فجاءت ظواهر كثيرة من ذلك الكتاب الى هذا ، بحيث اشتمل كتاب غريب القرآن على مادة تتصل بالتأويل والخلاف والسنة مما يعد خارجاً عن العمل اللغوي الذي يتطلبه تفسير الغريب ـ وقد سبقت الاشارة الى هذه الحقيقة ـ ، ومن يرجع الى الكتابين يجد امثلة التشابه الكبير مبثوثة فيهما كما في تفسير قوله تعالى : (الله نورُ السَّماواتِ والارضِ مثلُ نوره . . .)[8] مثلاً ، ومع ذلك كله يظل كتاب ابن قتيبة من اجل الكتب المؤلفة في هذا الموضوع التي كانت المنار الذي سارت على هداه كتب اللاحقين .

وقد الف بعده ثعلب (ت ٢٩١) ، ومحمد بن الحسن بن دينار الاحول ، وابو جعفر احمد بن محمد بن يزداد الطبري وكتبهم جميعاً في عداد المفقود الى الآن .

---

(١) سورة الحجر ٩٩ .
(٢) غريب القرآن ٢٤٠
(٣) سورة النور ٥٨ .
(٤) غريب القرآن ٧٤ ، ١٥٠ .
(٥) نفسه ٢١٥ .
(٦) نفسه ٢٢١ ، ٥٣٩ ، ٥٤٤ .
(٧) نفسه ٢١٠ ، ٢١٤ مثلاً .
(٨) سورة النور ٣٥ . انظر غريب القرآن ٣٠٥ وتأويل مشكل القرآن ٢٥٢ .

٢ ـ غريب الحديث

أول من تشير المصادر الى تأليفه كتاباً في غريب الحديث ـ حسب تاريخ وفاته ـ هو النضر بن شميل (ت ٢٠٣) ثم ابو بكر الحسين بن عياش الباجدائي (ت ٢٠٤) . إلا انها هذه المرة نصت على ان المؤلف الأول في هذا الفن ـ وان تأخرت وفاته ـ هو ابو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠) ، اذ يقول ابن الاثير : « اول من جمع في هذا الفن شيئا وألف ابو عبيدة معمر بن المثنى التيمي ، فجمع من الفاظ غريب الحديث والاثر كتابا صغيرا ذا أوراق معدودات ولم تكن قلته لجهله بغيره من غريب الحديث ، وانما كان ذلك لامرين : احدهما ان كل مبتدىء لشيء لم يسبق اليه ومبتدع لأمر لم يتقدم فيه عليه ، فانه يكون قليلا ثم يكثر وصغيرا ثم يكبر . والثاني ان الناس يومئذ كان فيهم بقية ، وعندهم معرفة ، فلم يكن الجهل قد عم ولا الخطب قد طم » .[1] ثم قال عن كتاب النضر بن شميل : « ثم جمع ابو الحسن النضر بن شميل المازني بعده كتاباً في غريب الحديث اكبر من كتاب ابي عبيدة وشرح فيه وبسط على صغر حجمه ولطفه » .[2]

فعبارة ابن الاثير صريحة في سبق ابي عبيدة غيره في التأليف في غريب الحديث ومعنى ذلك انه وصل الى علمه ان ابا عبيدة قد ألفه خلال القرن الثاني قبل تأليف النضر بن شميل ومعاصريه ممن سبقت وفاتهم وفاة ابي عبيدة ، في حين لم تكن عبارة ابن النديم في سبق ابي عدنان عبد الرحمن بن عبد الاعلى السلمي (معاصر ابي عبيدة) بهذا الوضوح اذ يقول : « وله من الكتب . . كتاب غريب الحديث وترجمته : ما جاء من الحديث المأثور عن النبي عليه السلام مفسراً . وعلى اثره ما فسر العلماء من السلف»[3]. فعبارته : (على اثره ما فسر العلماء من السلف) لا تقطع باسبقيته ، وانما تشير الى اثره في الكتب المؤلفة بعده وهو امر يصدق على كثير من الكتب المتأخرة المؤلفة في موضوعات مختلفة ، اذ يكون لها من الرواج ما تؤثر به فيما

---

(١) النهاية في غريب الحديث ١/ ٤

(٢) النهاية ١/ ٤

(٣) الفهرست ٥١

يؤلف بعدها في موضوعها . وعليه يكون حمل قول ابن النديم على معنى الاولية عند الدكتور حسين نصار وترجيحه على قطع ابن الاثير في هذا الشأن فية تكلف ظاهر[1] .

وألف بعد هؤلاء في غريب الحديث : ابو عمرو الشيباني (ت ٢٠٦) وقطرب (ت ٢٠٦) والفراء (ت ٢٠٧) والاصمعي (ت ٢١٣) الذي قال ابن النديم عن كتابه : « نحو مائتين (كذا) ورقة ، رأيته بخط السكري »[2] وقال عنه ابن الاثير ايضا : « ثم جمع عبد الملك بن قريب الاصمعي ، وكان في عصر ابي عبيدة وتأخر عنه كتابا احسن فيه الصنع واجاد ، ونيف على كتابه وزاد »[3] وألف بعده ابو زيد الانصاري (ت ٢١٥) والحسن بن محبوب السراد (٢٢٤) وسلمة بن عاصم الكوفي (تلميذ الفراء) كتبا في غريب الحديث لم يكتب لها الذيوع ، وهي مع الكتب السابقة لم تصل الينا ، وتعد جميعا ـ الى الآن ـ من الكتب المفقودة .

غريب الحديث لأبي عبيد :

أما كتاب ابي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤) فقد وصل الينا (وطبع في حيدر آباد بمراقبة د . محمد عبد المعين خان سنة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٧) ، بأربعة اجزاء ضخمة ، كان المؤلف قد مكث في تصنيفه اربعين سنة[4] فجاء كتاباً جامعاً مستوعباً عميقاً ، اثنى عليه العلماء على مر العصور ونهلوا منه واعتمدوه في تصانيفهم وزادوا عليه ، واشهر من زاد عليه ابو الهيثم الرازي (ت ٢٧٦) ،[5] على انه لم يسلم على الرغم من ذلك من النقد والتجريح والاتهام .[6] وألفت في الرد عليه كتب اشهرها الذي الفه ابن قتيبة .[7]

---

(١) المعجم العربي ١/ ٥٠

(٢) الفهرست ٦١

(٣) النهاية ١/ ٤

(٤) النهاية ١/ ٦

(٥) تاريخ بغداد ١٢/ ٤٠٥ ونزهة الالباء ١٩١ وانباه الرواة ٢/ ١٨٢

(٦) انظر : معجم الادباء ٦/ ١٦٣ ، ١/ ١٢١ وتاريخ بغداد ١٢/ ٤١٣

(٧) في هوامش كتاب ابي عبيد المطبوع نقول كثيرة عن كتاب (اصلاح الغلط في غريب الحديث لأبي عبيد) لابن =

والكتاب، بعد، خال من مقدمة يشرح فيها المؤلف سبب تأليفه الكتاب ويبين فيها منهجه فيه ، على ما هو مألوف في كتب المعاصرين لابي عبيد ، فهو يدخل الى صلب موضوعه مباشرة بشرحه حديث النبي (ص) : زُويتْ لي الأرض . . الخ .

ورتب ابو عبيد كتابه بان افرد احاديث النبي والصحابة كلا على حدة ، دون ان تتداخل احاديثهم فيما بينها ، فبدأ بأحاديث النبي ثم احاديث ابي بكر فعمر فعثمان فعلي فالزبير فطلحة حتى يأتي على الصحابة جميعاً ممن اثر عنه الحديث مما يدخل في كتابه ، حتى يختمه بأحاديث عبيد الله بن جحش . ثم بأحاديث لا يعرف اصحابها وبها ينتهي الجزء الرابع وهو آخر الكتاب ، غير انه لم يرتب الاحاديث في كل مسند من هذه المسانيد أو كل قسم من هذه الاقسام على ترتيب معين ، فهي غير مرتبة على الحروف ولا على الموضوعات وانما ذكرها الواحد بعد الآخر دون نظام .

وهو يتناول من الحديث اللفظة الغريبة ، فيذكر اشهر دلالاتها ان كانت تدل على اكثر من معنى ، ثم يتعرض لاشتقاقها ، بان يذكر الفعل وتصاريفه والمصدر ، وقد يزيد على ذلك بعض المشتقات الاخرى ، ثم يستشهد على ما يفسر بالقرآن والشعر والحديث نفسه وما الى ذلك من الاستعمالات الفصيحة التي يوردها ليدعم بها رأيه ، وهو بهذا وسع على نفسه وفسح لموضوعه ان يغنى ويعمق ويكون اكثر فائدة باشتماله على هذه الكمية من المرويات والاستشهاد .

فقد استشهد لزهير وعبيد بن الابرص والاخطل والعجاج ومالك بن الريب والطرماح والكميت[1] وغيرهم من جاهليين ومخضرمين واسلاميين وقد وقف عند حدود دولة بني العباس لا يستشهد لشعرائها ، مما يظهر انه من القائلين بترك الاستشهاد بشعرهم لشكه في فصاحتهم وهو موقف عدد غير قليل من العلماء ، الا انه لا ينسجم احياناً مع موقف اصحابه الكوفيين الذين كانوا اقل حذراً من غيرهم تجاه الشعراء العباسيين .

= قتيبة :انظر مثلا ص ١/٦٧ ـ ٦٨ . وقد نشره المستشرق الفرنسي جيرار لو كونت في مجلة (كلية القديس يوسف) بيروت ١٩٦٨ ويعرف بتبيين الغلط . . الخ .

(١) غريب الحديث ١/٧ ، ٨٨ ، ١٣٢ ، ٢٠٨ ، ٢٢٤ ، ٢٦٠ ، ٢/١٧٧ .

على ان أبا عبيد حين نقل آراء العلماء السابقين في تفسيره للالفاظ الغريبة لم يقصر نقله على الكوفيين وان كانوا هم الاكثر من بين هؤلاء العلماء ، فالى جانب نقله لآراء الكسائي ،[1] والفراء ،[2] وابي عمرو الشيباني ،[3] والاموي ،[4] والاحمر[5] وغيرهم من الكوفيين . نقل آراء ابي عبيدة[6] ، والاصمعي[7] ، وابي زيد[8] وغيرهم من البصريين ، وكان ينص احيانا على انه سأل أبا عمرو والاصمعي عن تفسير اللفظة التي هو بصددها[9] . مشركا في ذلك اثنين احدهما كوفي والآخر بصري مما يدل على عدم تعصبه لمذهب مدرسي معين في معالجته لغريب الحديث .

ولم يهمل ابو عبيد النص على اللغات المختلفة خلال شرحه للالفاظ الغريبة [10] كما لم يهمل التعرض للقراءات وذكر اختلافها ، حين يحتاج الى مثل هذا التعرض [11] وكان خلال ذلك كله يذكر مذاهب (اهل العلم) وآراءهم تاركاً هذه العبارة اعني أهل العلم ، مطلقة في دلالتها على مسماها ، وكأنه هنا لا يريد ان يذكر اسم صاحب الرأي ، او انه تذكر الرأي ونسي اسم صاحبه . وعلى كل حال فكتاب ابي عبيد من اهم الكتب المؤلفة في غريب الحديث ان لم يكن اهمها جميعاً خلا كتاب ابن قتيبة الذي سيأتي الحديث عنه .

وألف بعد ابي عبيد في هذا الفن ابن الاعرابي (ت ٢٣١) وعمرو بن ابي

---

(١) الغريب ١/ ١٥٦، ٢٤٩ ، ٢٨٨ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٢/ ٣٥ .
(٢) نفسه ٢/ ٣٠٧ ، ٤/ ٤٨٧
(٣) نفسه ٤/ ١١٨ ، ٤٨٧
(٤) نفسه ١/ ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٥) نفسه ١/ ٢٤٩
(٦) نفسه ١/ ٣ ، ١٣١ .
(٧) نفسه ١/ ٥٤ ، ٥٥ ، ٨٩ ، ١٣٠ ، ٢/ ١٢١
(٨) نفسه ٢/ ٢٢٥ ، ٤/ ٤٥ ، ٤٨٧
(٩) نفسه ٤/ ٦٧
(١٠) نفسه ١/ ٥٤ ، ٢٨٠ ، ٤/ ٦٤
(١١) نفسه ١/ ٣٢٨

عمرو الشيباني (ت ٢٣١) وعلي بن المغيرة الاثرم (ت ٢٣٢) وعبد الملك بن حبيب الالبيري (ت ٢٣٩) وابو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥) وابو عبد الله احمد بن عمران الاخفش (ت قبل ٢٥٠) وابو جعفر محمد بن عبد الله بن قادم (ت ٢٥١) وشَمِر بن حمدويه الهروي (ت ٢٥٥) وثابت بن عبد العزيز (ورّاق ابي عبيد) ومحمد بن سحنون (ت ٢٥٦) غير ان جميع هذه الكتب في عداد المفقود الى الآن .

غريب الحديث لابن قتيبة :

ان كتاب ابن قتيبة (ت ٢٧٦) وصل الينا وطبع بتحقيق الدكتور عبد الله الجبوري ببغداد ١٩٧٧ ، وهو في الحقيقة المتمم لكتاب ابي عبيد ، والسائر على طريقته ومنهجه ، وابن قتيبة نفسه يبين ذلك فيقول في المقدمة : « وقد كنت زماناً أرى ان كتاب ابي عبَيد قد جمع تفسير غريب الحديث ، وان الناظر فيه مستغن به ، ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة ، فوجدت ما تركه نحوا مما ذكر أو اكثر منه ، فتتبعت ما اغفل وفسرته على نحو ما فسر ، بالاسناد لما عرفت اسناده ، والقطع لما لم اعرفه ، واشبعت ذلك بذكر الاشتقاق والمصادر والشواهد من الشعر ، وكرهت ان يكون الكتاب مقصورا على الغريب ، فأودعته من قصار اخبار العرب وامثالها ، واحاديث السلف والفاظهم ما يشاكل الحديث أو يوافق لفظه لفظه ، لتكثر فائدة الكتاب ، ويمتع قارئه ، ويكون ذلك عونا على معرفته وتحفظه » .[1] فالدافع الأساسي الذي دفع ابن قتيبة لوضع كتابه ، هو اكمال كتاب ابي عبيد ، لأن الاخير لم يستطع ان يأتي على جميع الاحاديث ، فقد توفر ابن قتيبة على عدد منها يقارب ما في كتاب ابي عبيد ، جدير ان يوضع لأجل تفسير غريبها كتاب آخر ، وهو يرجو : « ان لا يكون بقي بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال » .[2]

ثم يبين ابن قتيبة ما خالف فيه منهج ابي عبيد ، وما تعقبه فيه ، فيقول :

---

(١) غريب الحديث ١/ ٥

(٢) نفسه ١/ ٦-٧

« ولم أعرض لشيء مما ذكره ابو عبيد ، إلا احاديث وقع فيها زلل ، فنبهت عليه ودللت على الصواب فيه ، وافردت لها كتاباً يدعى كتاب : (اصلاح الغلط) ، وإلا حروفاً تعرض في باب ولا يكمل ذلك الباب إلا بذكرها ، فذكرتها بزيادة في التفسير والفائدة ، ولن يخفى ذلك على من جمع بين الكتابين » .[1] فهو اذن لم يقتصر على ما أهمله أبو عبيد من الاحاديث ، بل نبه على زلله وخطئه ، حتى اذا وجد ان هذه التنبيهات كثيرة افردها في كتاب سماه (اصلاح غلط ابي عبيد في غريبه) ، وزاد في تفسير عدد من الالفاظ الواردة في كتاب ابي عبيد حين وجد انها بحاجة الى زيادة في الشرح ، لتكمل بها للدارس الفائدة .

وكتابه الذي بين ايدينا كتابان في الاصل ، جمع احدهما الى الآخر ، ويوضح ابن قتيبة امرهما بقوله : « وكنت حين ابتدأت في عمل الكتاب اطلعت عليه قوما من حملة العلم والطالبين له ، واعجلتهم الرغبة فيه والحرص على تدوينه عن انتظار فراغي منه ، وسألوا ان اخرج لهم من العمل ما يرتفع في كل اسبوع ، ففعلت ذلك ، حتى تم لهم الكتاب وسمعوه وحمله قوم منهم الى الامصار ، ثم عرضت بعد ذلك احاديث كثيرة فعملت بها كتابا ثانياً يدعى كتاب : (الزوائد في غريب الحديث) ، ثم تدبرت الكتابين ، فرأيت الاصوب في الرأي ان اجمعهما وأقدم ما سبيله ان يقدم ، وأؤخر ما سبيله ان يؤخر واحذف ما سبيله ان يحذف ، فمن رأى ذينك الكتابين على غير تأليف هذا الكتاب ، فليعلم انهما شيء واحد ، وان الاختلاف بينهما انما هو بتقديم وتأخير وحذف مكرر من التفسير » .[2]

نعود الآن الى صلب الكتاب فنبدأ بترتيبه ، وأول ما نلاحظه في هذا الترتيب انه نَهَجَ نهج ابي عبيد في تقسيم الكتاب على المسانيد ، اذ افرد احاديث النبي (ص) وصحابته وتابعيهم ومن بعدهم من تابعي التابعين ونفر من الخلفاء والولاة كلا على حدة ، ثم أفرد بعد ذلك باباً لأحاديث النساء ، وختم الكتاب بأحاديث غير منسوبة «سمعت اصحاب اللغة يذكرونها، لا أعرف اصحابها ولا طرقها ، حسنة الالفاظ لطاف المعاني ، تضعف على الاحاديث التي ختم بها ابو عبيد كتابه

---

(١) غريب الحديث ١/ ٥ .

(٢) نفسه ١/ ٥ ـ ٦

اضعافا »[1] وهو مثل ابي عبيد في اهماله ترتيب الاحاديث ضمن هذا التقسيم ، فلم يرتبها على الحروف ولا على الموضوعات ، ففي احاديث النبي (ص) يبدأ بتفسير حديثه : (أهلُ الجنّةِ الضعفاءُ المُغلَّبون . .) ثم بحديثه : (عليكم بالأبكارِ فانهنَّ اعذبُ أفواهـا . .) ثم بحديثـه : (مـا رأيت كاليومِ طاعـةَ قوم . .) وهـكذا ، واللفظة الغريبة المفسرة في الحديث الاول هي (جُواظ) ، وفي الثاني (انتَق) ، وفي الثالث (القَرون)[2]

إلا ان ابن قتيبة فاق ابا عبيد بدراسته في اول الكتـاب ، التـي وضعهـا : « لتبيين الالفاظ الدائرة بين الناس في الفقه وابوابه ،والفروض واحكامها ، لتعرف من اين اخذت تلك الحروف فيستدل باصولها في اللغـة على معانيهـا ، كالوضـوء والصلاة والزكاة والاذان والصيام والعتاق والطلاق والظهار والتدبير ، واشباهها مما لا يكمل علم المتفقه والمفتي الا بمعرفة اصوله » . ثم اتبع ذلك « تفسير ما جاء في الحديث والكتاب من ذكر الكافرين والظالمين والفاسقـين والمنافقـين والفاجـرين والملحدين، ومن اين أخذ كل اسم منها، ثم ما جاء في الحديث من ذكر اهل الاهواء الرافضة والمرجئة والقدرية والخوارج[3]» فاننا لم نجد مثل هذا في كتاب ابي عبيد ، بل لم نجد مقدمة مختصرة للكتاب كما اشرنا من قبل ، بل بدأ كتابه بذكر احاديث النبي وتفسيرها .

واما طريقة ابن قتيبة في الشرح ، فهي ان يبدأ بذكر الحديث كاملاً ، ثم يعقبه بذكر طرق السند ـ في الاحاديث التي يعرف اسنادها ـ مهما طالت ، ثم يأخذ بتفسير اللفظة أو الالفاظ التي يرى غرابتها في هذا الحديث ، في حين كان ابو عبيد يقدم السند على نص الحديث في كتابه ، وهـذا وجـه آخـر من أوجـه الاختـلاف بـين الطريقتين .ويضمّن ابن قتيبة تفسيره للغريب مختلف الشواهد من القرآن والشعـر والامثال وغيرها ، على المنهج الذي اتبعه ابو عبيد في غريبه ، وعلى منهجه ايضاً في

---

(١) غريب الحديث ١/ ٦

(٢) نفسه ١/ ١٠١ ـ ١٠٤

(٣) نفسه ١/ ٦

عدم التعصب لمذهب مدرسي معين ، ذلك انه روى عن علماء المدرستين آراءهم دون انحياز منه الى رأي او مذهب ، فقد روى عن عيسى بن عمر ،[1] وابي عمرو ابن العلاء ،[2] والاصمعي ،[3] والرياشي[4] ، وابي حاتم ،[5] وابي عبيدة ،[6] وابي زيد[7] وغيرهم من البصريين ، كما روى عن الكسائي ،[8] والفراء ،[9] وابن الاعرابي ،[10] وابي عمرو الشيباني[11] وغيرهم من الكوفيين ، ومروياته عنهم متنوعة ، فيها الشعر وفيها التفسير، وفيها اختلاف مذاهبهم اللغوية ، غير مهمل النص على ما يعرض له من الظواهر اللغوية واللغات .[12]

إصلاح الغلط لابن قتيبة :

ولا يكمل صنيع ابن قتيبة في تتبع ابي عبيد وتسقطه الا بكتابه الآخر (اصلاح غلط ابي عبيد في غريبه) ، وقد وصل الينا ايضا ، فمنه نسخة في مكتبة ايا صوفيا رقمها ص ٤٥٧ مصورة بدار الكتب المصرية ، ونسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق . ويأخذ ابن قتيبة فيه على ابي عبيد في ثلاثة وخمسين حديثا ، يرى ان أبا عبيد لم يفسرها تفسيرا صحيحا ، ووقع له فيها زلل يجب التنبيه عليه . إلا ان ابن قتيبة لم يغفل ثناءه على ابي عبيد وكتابه فقال في المقدمة : « . . ونذكر الاحاديث التي خالفنا الشيخ أبا عبيد رحمه الله في تفسيرها ، على قلتها في جنب صوابه ،

---

(١) غريب الحديث ٢/ ٤٨٦

(٢) نفسه ١/ ٥٠٢

(٣) نفسه ١/ ٣٣٢ ، ٥١٦,٣٨١

(٤) نفسه ١/ ٣٤٨ ، ٤٧٨ ، ٢/ ٣٧٩

(٥) نفسه ١/ ٢٦٠ ، ٥٤٢,٤٧٥

(٦) نفسه ١/ ٤٢٠

(٧) نفسه ٢/ ٣٣٢ .

(٨) نفسه ١/ ٤٢٤ ، ٢/ ٦١٩ .

(٩) نفسه ٢/ ٦٣٩ .

(١٠) نفسه ١/ ٣٠٩ .

(١١) نفسه ٢/ ٦٤٠ .

(١٢) نفسه ١/ ٤٢٤ .

وشكرنا ما نفعنا الله به من علمه »[1]

ولنأخذ نموذجاً من كلام ابن قتيبة يمثل لنا طريقته في الرد بعد ان نذكر نص كلام ابي عبيد . ففي حديثه عليه السلام : (إنَّ قريشاً كانوا يقولون : إنَّ مُحمداً صُنبور) قال أبو عبيد : « قال ابو عبيدة : الصُّنْبور : النخلة تخرج من اصل النخلة الاخرى لم تغرس . وقال الاصمعي : الصنْبور : النخلة تبقى منفردة ويدق أسفلها . . . قال أبو عبيد : فشبهوه بها يقولون : انه فرد ليس له ولد ولا اخ فاذا مات انقطع ذكره . قال ابو عبيد : وقول الاصمعي في الصُّنبور اعجب الى من قول ابي عبيدة ، لأن النبي عليه السلام لم يكن احد من اعدائه من مشركي العرب ولا غيرهم يطعن عليه في نسبه . . »[2]

اما رد ابن قتيبة على ذلك فقوله : « تدبرت هذا التفهير فلم أر النخلة اذا دق أسفلها وييس سعفها اولى بان تشبه بالفرد الذي لا ولد له ولا أخ ، من النخلة اذا غلظ اسفلها ورطب سعفها ، لأن هذه في الانفراد بمنزلة هذه ، ولا أدري أي شيء اوحشه من قول ابي عبيدة وهو الصواب ، فانما ارادوا ان محمداً ناشيء حدث بمنزلة الصنبور الذي يخرج من اصل النخلة ، يقولون : فكيف تتبعه المشايخ والكبراء وهو كذلك . . »[3] وعلى هذا المنهج من المناقشة والرد يسير ابن قتيبة في كتابه في جميع المواطن التي اشرنا الى عددها . الا اننا يجب ان نسجل للحقيقة ان ابن قتيبة في هذا الرد المقتبس هنا غلا في تغليط ابي عبيد ، ذلك ان المعنى الذي تمسك به ابو عبيد في (الصنبور) وهو : الفرد المقطوع النَّسَب ، هو المعنى اللغوي الذي ذهب اليه غيره من مفسري غريب الحديث في كتبهم ، ففي الفائق ان الصنبور : هو الابتر الذي لا عقب له .[4] وكأن قريشاً كانت تمني نفسها بموته فينقطع خبره وخبر دعوته .

---

(١) اصلاح الغلط ق ١ ـ ٢

(٢) غريب ابي عبيد ١/ ١٠ ـ ١١ .

(٣) اصلاح الغلط ق ٣٤ نقلا عن غريب ابي عبيد ١/ ١٠ ـ ١١ .

(٤) الفائق ٢/ ٣٩

المسائل والأجوبة لابن قتيبة :

ولابن قتيبة رسالة صغيرة بعنوان (المسائل والاجوبة) ، وصلت الينا فيما وصل من مؤلفاته ، نشرها القدسي في القاهرة/مطبعة السعادة ١٣٤٩هـ ونشرها بعد ذلك شاكر العاشور في مجلة المورد البغدادية العدد ٤/ ١٩٧٤ . وهي مما يلحق بدراسته في غريب الحديث ، فالمؤلف يشرح ويفسر عددا من احاديث النبي (ص) . مما يتضمن الفاظا غريبة تحتاج الى بيان ، وكلامه فيها يشعرنا ـ اضافة لما يشعرنا به عنوانها ـ انه يجيب عن اسئلة وردته مستفهمة عن هذا الغريب ، فيقول مثلاً : « سألتَ عن قوله : (لا دَاءَ ولا غَائلة ولا خَبْثة) . . وقوله (ولا غائلة) هو من قولك اغتالني فلان اذا احتال عليك بحيلة يتلف بها بعض مالك ، يقال : غالت فلانا غول اذا اذهبته ، والغضب غول الحلم ، والخمر غول العقل ، والمعنى لا حيلة عليك في هذا البيع يغتال بها مالك . . »[1] على ان هذه الاسئلة لم تتمحض لغريب الحديث ، وانما شملت مواضيع فقهية كثيرة ومصطلحات قرآنية واحكاما شرعية ، وظواهر لغوية تتصل بالترادف والاشتراك وما الى ذلك بحيث كان ما يخص غريب الحديث يمثل جانباً من جوانب مادتها .

وخلت هذه الرسالة من مقدمة نجد فيها ما يفيدنا في تحديد زمن تأليفها بالنسبة للكتابين السابقين ، إلا ان في اثنائها ما يدل على تأليفها بعد كتابه الكبير (تفسير غريب الحديث) ، ذلك انه يقول : « سألت عن احاديث ذكرت انك لم تجدها في كتابي المؤلف في تفسير غريب الحديث »[2] ثم يشرع بذكر هذه الاحاديث واحداً واحداً ويشرح غريبها ، فهذا الباب من هذه الرسالة اذن استدراك على كتابه الأول ، وعليه يكون صحيحاً اعتبار هذه الرسالة تتمة لجهوده في غريب الحديث وتكملة لكتابه (غريب الحديث) و(اصلاح غلط ابي عبيد) . ومن مجموع هذه الكتب ـ وكتابه (تأويل مختلف الحديث) ـ يبرز امامنا ابن قتيبة علما من اعلام الحديث ـ لغة وسندا وتأويلاً ـ بحيث فاق سابقيه بما وضع في ذلك ، وكان بحق المبرز السابق في هذا الميدان .

---

(١) المسائل والاجوبة ٣

(٢) المسائل والاجوبة ١٥ .

غريب الحديث للحربي :

وألف بعد ابن قتيبة في هذا الفن ابو اسحاق ابراهيم بن اسحاق الحربي (ت ٢٨٥) ، ولم يصل الينا من كتابه غير الجزء الخامس ، ورقمه في المكتبة الظاهرية بدمشق (١٥٨٠) ، وفي فهرس هذه المكتبة : « . . ويقع في خمس مجلدات تملك الظاهرية منه المجلدة الخامسة فقط »[١] والظاهر مما تدل عليه الاخبار ان الكتاب كان في الاصل في عشر مجلدات .[٢] الا ان يكون ناسخ نسخة الظاهرية قد أعاد تقسيم الكتاب على خمس مجلدات ، وان يكون في مخطوطة المجلد الخامس ما يدل على هذا الصنيع .

ويبدأ هذا الجزء بعد البسملة بباب (سجر) وقوله : « حدثنا حسين بن حريث بن . . بن حسين بن واقد عن الربيع بن انس عن ابي العالية : حدثني ابي في قوله تعالى : (واذا البحار سجرت) . . » وينتهي الجزء بفهرس ابوابه (تسمية ابواب المجلدة من اولها الى منتهى الكتاب) .[٣]

والكتاب مبوب على المسانيد وهو بهذا التبويب يحذو حذو كتابي ابي عبيد وابن قتيبة في تقسيمهما كتابيهما على المسانيد . وعدد مسانيد كتاب الحربي خمسة وعشرون مسندا مذكورة في كتب التراجم .[٤] وقد وصفه ابن الاثير وصفا دقيقا فقال : « وهو كتاب كبير ذو مجلدات عدة ، جمع فيه وبسط القول وشرح واستقصى الاحاديث بطرق اسانيدها ، واطاله بذكر متونها والفاظها وان لم يكن فيها الا كلمة واحدة غريبة ، فطال لذلك كتابه ، وبسبب طوله ترك وهجر ، وان كان كثير الفوائد جم المنافع فان الرجل كان إماماً حافظاً متقناً عارفاً بالفقه والحديث واللغة والأدب رحمة الله عليه . »[٥] وهذا هو الذي يفسر لنا تضخم الكتاب وصيرورته على عشر مجلدات .

---

(١) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية/ علوم اللغة العربية ١٠٦

(٢) طبقات الشافعية ٥/ ١٢١

(٣) فهرس الظاهرية ١٠٦ - ١٠٧

(٤) فوات الوفيات ١/ ٧

(٥) النهاية ١/ ٥

اما منهجه في الشرح داخل كل مسند ، فهو منهج التقليبات ، الذي اخذ به كتاب (العين) للخليل . وذلك بان « يأخذ غريب احاديث كل صحابي على حدة ، فيعدد هذه الاحاديث ويدرج في كل عدد مضاريب عدد من الحروف . فاذا ذكر غريب حديث ابن عباس ، قال مثلا : الحديث الخامس ، باب فرع . . باب عرف . . باب عفر . . باب رعف وهكذا »[1] ومثل هذا التنظيم للمواد لم نشاهده لدى ابي عبيد وابن قتيبة ، فقد فاقهما الحربي فيه ، ولعل ترتيبه هذا على التقليبات - مع ما فيه من دقة وتنظيم في التأليف - هو الذي يفسر جانباً من ترك الناس الكتاب وهجرهم له ، لصعوبة الرجوع فيه الى المادة المطلوبة . وفي ذلك يقول ابن الاثير : « لم يكن فيها - أي كتب غريب الحديث - كتاب صنف مرتبا ومقفى يرجع الانسان عند طلب الحديث اليه الا كتاب الحربي ، وهو على طوله وعسر ترتيبه لا يوجد الحديث فيه إلا بعد تعب وعناء » .[2]

ثم ألف في غريب الحديث المبرد (ت ٢٨٥) ، ومحمد بن عبد السلام الخشني (٢٨٦) وكتابه نيف على عشرين جزءاً ، خصص احد عشر جزءاً منها لحديث النبي ، وستة اجزاء لحديث الصحابة .[3] ثم الف ثعلب (٢٩١) وابن كيسان (٢٩٩) وذكر ابن النديم ان كتابه نحو اربعمائة ورقة .[4] ولم يصل الينا منها شيء .

٣ - غريب اللغة :

تعدت مؤلفات العلماء في الغريب حدود القرآن والحديث الى اللغة : شعراً ومثلاً وكلاما ، فوضع نفر من اللغويين كتبهم لتفسير مفرداتها الغريبة ، وصنيعهم تعبير صادق عن اهتمامهم بهذه اللغة التي جاء فيها التنزيل العزيز والاثر الشريف ، والحقيقة ان اهتمامهم بغريب اللغة رافق درسهم لغريب القرآن وغريب الحديث ،

---

(١) غريب ابن قتيبة ٢١٢/١
(٢) النهاية ٦/١
(٣) فهرسة ابن خير ١٩٥
(٤) الفهرست ٨٩

وقد مر علينا في الفصل الثاني من الباب الاول في عرضنا لاختلاط الدرس اللغوي لدى الدارسين اهتمام اكثرهم بالغريب والنص عليه والاستشهاد فيه ، إلا ان اول من وصل الينا خبر تأليفه كتاباً في ذلك هو : بزرج بن محمد العروضي (معاصر الكسائي) وكتابه (تفسير الغريب) ، ثم الأصمعي (ت ٢١٣) وكتابه (غريب الحديث والكلام الوحشي) وهو غير كتابه في غريب الحديث ، وابو زيد (ت ٢١٥) وكتابه (غريب الاسماء) وابو مسحل عبد الوهاب بن حريش الاعرابي تلميذ الكسائي وكتابه (الغريب الوحشي) ، وابو عمر الجرمي (ت ٢٢٥) وكتابه (تفسير غريب سيبويه) ، وابن الاعرابي (ت ٢٣١) وكتابه (تفسير الامثال) ،[1] وهارون بن الحائك (ت ٢٩٠) وكتابه (الغريب الهاشمي) ولعله تفسير غريب الهاشمي ، على نمط كتاب الجرمي السابق ، أي فسر الغريب الوارد في كتاب الهاشمي ، والراجح انه محمد بن عيسى الهاشمي ، من شيوخ ابي بكر ابن الانباري(ت٣٢٨هـ)[2] . ولم يصل الينا أي من هذه الكتب لنتبين منهج اصحابها في اختيار الغريب ، وفي الاستشهاد عليه ، وطريقة التبويب والترتيب وما الى ذلك . إلا اننا نستطيع ان نرجح انهم اختلفوا في طبيعة المادة التي ضمتها كتبهم ، ذلك ان حد الغرابة في اللفظة يتغير بتغير العصر ، فما تصدق عليه الغرابة من الالفاظ في زمن معين ، ولنفترض انه زمن المؤلف الأول بزرج بن محمد العروضي ، لا تصدق عليه بعد اكثر من مائة عام أي في زمن ابن الحائك المؤلف الاخير ، والعكس بالعكس ، والمسألة نسبية فيما بينهما من مؤلفات .

ذلك انه قد تهجر بعض الالفاظ في الاستعمال فتدخل في عداد الغريب ولم تكن كذلك ، او تحيا الفاظ في الاستعمال بعد موتها ، فتخرج من حظيرة الغريب الى غيرها وهكذا ، ويجب الا ننسى ايضاً ان البيئات التي اخذ اللغويون منها مادتهم تختلف غرابة باختلاف لهجاتها ، فهناك لهجات معينة اتفق العلماء على وفرة غريبها ووحشيها وخروجها عن سائر اللهجات الاخرى، كلهجة أزد شنوءة وبلحارث بن كعب وغيرهما .

---

(١) معجم الادباء ١٨/ ١٩٦ وانباه الرواة ٣/ ١٣١ .

(٢) الزاهر (رسالة دكتوراه مطبوعة بالآلة الكاتبة) ص ٧٩٨ .

كتب اللغات

١ ـ لغات القرآن :

كان من مظاهر عناية الدارسين بالقرآن عنايتهم بلغاته ، وهي عناية قديمة مبكرة ، اذ ظهرت اولى مؤلفاتهم في ذلك على يد ابن عباس (ت ٦٨) ايضا ، بكتاب وصل الينا برواية ابن حسنون المقرىء مسندة الى ابن عباس ، عنوانه (اللغات في القرآن) ، وهذا يعني ان التأليف في الغريب واللغات نشأ في وقت واحد ، ذلك ان التأليف في هذين الفنين من الفنون اللغوية ولد على يد مؤلف واحد .

والكتاب يشعر ان ابن عباس لم يكن المؤلف له على الشكل الذي وصلت الينا صورته ، ذلك انه حدث به اسماعيل بن عمرو بن راشد الحداد (ت ٤٢٩) عن عبد الله بن الحسين بن حسنون المقرىء (ت ٣٨٦) باسناده الى ابن عباس ، فهو من جمع وترتيب احد هذين المقرئين ، وما ابن عباس الا صاحب هذه المادة المهمة التي يزخر بها الكتاب على صغره ، فالاهتمام بلغات القرآن ـ اذا تحرينا الدقة في التعبير ـ واحصائها والنص عليها واحدة واحدة في الكتاب المقدس ، هو الذي نشأ على يد ابن عباس ، ثم رويت عنه هذه المعلومات اللغوية جيلا بعد جيل حتى جمعها احد المذكورين السابقين في كتاب نسبه الى ابن عباس ، والامر في الحقيقة على هذه الصورة التي نظنها ظناً .

ورتبت السور في الكتاب ترتيبها في المصحف ، فابتدأ بالبقرة وانتهى بالعاديات ، اذ يظهر انه لا لغات فيما بعدها من السور ، كما رتبت الآيات في كل سورة ترتيبها في المصحف ايضا ، ولكن هذا الترتيب الاخير ـ اعني ترتيب الآيات في السور ـ من عمل المحقق ، حيث ينص في مقدمته على ذلك[1] ، والمنهج فيه ان يذكر الآية التي فيها الاستعمال الخاص الذي يريد النص عليه ثم يذكر اللفظة ذاتها ، ثم يذكر بعدها اللغة التي اخذت منها عربية او اجنبية ، كقوله مثلا : « قال الله عز

---

(١) اللغات في القرآن ١٣ .

وجل : (أنؤمنُ كما آمن السُّفَهاء[1]) والسَّفيه الجاهلُ بلغة كنانة[2] » وقوله ايضا :
« قوله : (قاتَلَهُم الله[3]) يعني لعنهم بلغة حمير[4] » وقوله ايضا : (مقاليد السَّموات والأرض[5]) يعني مفاتيح وافقت لغة الفرس والانباط والحبشة[6] » ولا يستشهد على ما يقول بشيء سوى ما يذكره احيانا من آيات من سور اخرى فيها نفس اللفظة التي هو بصدد النص على لغتها[7] .

ويرى ابن عباس ان هذه الالفاظ جميعا عربية وافقت فيها العربية غيرها من اللغات فاللفظ عربي وهو سرياني في آن واحد ، او هو عربي وحبشي في وقت واحد ، وكثيرا ما يقول بعد نصه على اللغة بانه وافقت فيه العربية اللغة الفلانية . فهو في هذا المبدأ مع من يرى ان ليس في القرآن شيء غير عربي فهو خال من كل استعمال اجنبي ، خلاف من يرى ان القرآن استعار الفاظاً غير عربية وادخلها في الاستعمال حتى اصبحت من المألوف الشائع[8] .

ويوضح لنا هذا الكتيب ان لهجة قريش من بين لهجات العربية كانت هي الغالبة على لغة القرآن غلبة كبيرة ، تليها هذيل فكنانة فحمير الى آخر القبائل ، وقد عمل محقق الكتاب جدولا بنسبة الالفاظ الى هذه القبائل[9] . ويكشف لنا ايضا ان عدد القبائل القحطانية المأخوذ من لهجاتها اكبر من عدد القبائل العدنانية ، غير ان عدد الالفاظ المأخوذة من القبائل العدنانية اكبر بكثير من عدد الالفاظ المأخوذة من القبائل القحطانية[10] .

---

(١) سورة البقرة ١٣
(٢) اللغات في القرآن ١٧
(٣) سورة المنافقين ٤
(٤) اللغات في القرآن ٤٧
(٥) سورة الزمر ٦٣
(٦) اللغات في القرآن ٤١
(٧) نفسه ١٨ ، ٢٢
(٨) نفسه (مقدمة المحقق) ٨ ـ ٩ وانظر : الاتقان ١/ ٢٣١
(٩) اللغات في القرآن ٧
(١٠) نفسه (مقدمة المحقق) ٧ـ٨

ويجدر بنا اخيرا ان نشير الى ان الدكتور حسين نصار قد كشف الوهم في نسبة هذا الكتاب الى ابي عبيد القاسم بن سلام حين نشر على هامش تفسير الجلالين طبعة دار احياء الكتب العربية ، وان هذه الرسالة المنشورة على هذا الهامش هي كتاب (اللغات في القرآن) لابن عباس ، زيد عليها وهذب فيها في القرنين الخامس والسادس على يد رواة متأخرين يتصلون سندا برواة النسخة التي حققها المنجد[1] .

وقد فتح هذا الكتاب الباب امام الدارسين للتأليف في لغات القرآن ، فألف مقاتل بن سليمان ، وهشام بن محمد الكلبي (ت ٢٠٤) والهيثم بن عدي (ت ٢٠٦) والفراء (ت ٢٠٧) والاصمعي (ت ٢١٣) وابو زيد الانصاري (ت ٢١٥) كتبا لم تصل الينا جميعا ، على اننا نشك - مع الدكتور حسين نصار - في صحة ما نسبه ابن النديم الى الاصمعي من تأليفه كتاباً في لغات القرآن[2] ، لما عرف عنه من تحرج في التعرض لالفاظ القرآن .

٢ - لغات القبائل :

يتصل التأليف في لغات القبائل من حيث المنهج بلغات القرآن ، غير انه تميز منه بتمحضه للهجات العربية بعيدا عن القرآن ، واول من وضع كتاباً في هذا الفن هو يونس بن حبيب (ت ١٨٢) ثم الفراء (ت ٢٠٧) وابو عبيدة (ت ٢١٠) والاصمعي (ت ٢١٣) وابو زيد الانصاري (ت ٢١٥) وعمرو بن ابي عمرو الشيباني (ت ٢٣١) وعزيز بن الفضل الهذلي ، ولم يصل الينا واحد من هذه الكتب حتى الآن . ونسجل هنا اختلافنا مع الدكتور حسين نصار في عده ابا عمرو الشيباني ممن الف في هذا الفن باعتباره (الجيم) من كتب لغات القبائل[3] ، ونحن نميل الى عد الجيم من معجمات اللغة ندرسه مع (العين) في مكانها ان شاء الله .

٣- لحن العامة :

وهو موضوع يتصل بدراسة التطور اللغوي من جهة ، وبآثار الاختلاط

---

(١) المعجم العربي ١/ ٧٤

(٢) نفسه ١/ ٧٥

(٣) نفسه ١/ ٧٨

اللغوي الذي حدث في الامصار الاسلامية من جهة اخرى ، ذلك ان كتب لحن العامة تبحث في تصويب الاستعمال غير الصحيح والتنبيه عليه . فهي من هذه الناحية تعد كتباً تدرس الاساليب اللغوية اكثر من كونها كتباً تدرس المفردات ، على انها اهتمت بالمفردة وبالصوت وبالحركة ، غير ان اهتمامها بكل اولئك كان ضمن اهتمامها بالاسلوب، وهي ايضا تحفظ لنا تاريخ تسرب العامية الى الالسن، من حيث ان هذا الخطأ الذي تنبه عليه هو الذي صار فيما بعد الصورة التي استقرت عليها اللغة في امصارنا العربية . والملاحظ في كتب لحن العامة انها اختلفت في عناوينها واختلفت في مادتها ومنهجها الا انها تشترك في موضوعها وهدفها وسنعرض لاقسامها من خلال حديثنا عما وصل الينا منها .

ما تلحن فيه العوام للكسائي :

اول ما وصل الينا من كتب لحن العامة ، كتاب صغير منسوب لعلي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩) وضعه لهارون الرشيد بعنوان (هذا كتاب ماتلحن فيه العوام مما وضعه علي بن حمزة الكسائي للرشيد هارون . ولا بد لاهل الفصاحة من معرفته) وقد طبعت هذه الرسالة طبعتين : الاولى بتحقيق وتقديم بروكلمان في برسلاو ، وفي دار الكتب المصرية نسخة من هذا المطبوع رقمها (٢٣٧) لغة . والثانية بتحقيق وتقديم عبدالعزيز الميمني في المطبعة السلفية بمصر سنة١٣٤٤هـ مع رسالة (مقالة في كلا) لابن فارس و (رسالة الشيخ ابن عربي الى الامام الفخر الرازي). وقد شك في نسبتها إلى الكسائي محققها الميمني وذلك لأن المصادر القديمة التي ترجمت للكسائي وعددت آثاره لم تنسب له رسالة كهذه ، اضافة الى ان بعضا من مادة هذه الرسالة لا يلائم ما روى عن الكسائي من آراء في متون اللغة ومصادرها[1] . كما شك في نسبتها ايضا الدكتور حسين نصار مستندا الى ان في الرسالة رواية عن ابي زيد ، ولم يعرف عن الكسائي انه روى عنه شيئا ، لذا فهو يرجح نسبتها الى احد تلاميذ ابي زيد ممن الف في لحن العوام وهم : ابو عبيدة والاصمعي وابو نصر احمد بن حاتم والمازني وابوحاتم السجستاني وابو عبيد القاسم ابن سلام ، وقد استبعد من هؤلاء الاصمعي وابا حاتم السجستاني لعثوره في

(١) ما تلحن فيه العوام ٢٢

مصدرين قديمين على نصين مقتبسين من كتابيهما ، غير موجودين في هذه الرسالة ، ثم صرح بعدم امكانه نسبة الكتاب الى احد بعينه من هؤلاء المذكورين لأن كتبهم لم توصف[1] .

والحق اننا لسنا مع الباحثين فيما ذهبا اليه ، ذلك ان ما ذكراه من اسباب الشك ، لا تشكل ادلة قوية تطعن في نسبة الكتاب الى مؤلفه ، فعدم ذكره بين مؤلفات الكسائي في الفهارس القديمة ليس بدعا في هذا الكتاب ، فقد حدث مثل هذا في كتب اخرى ، اثبت الدرس انها صحيحة النسبة لمؤلفيها على الرغم من عدم ذكرها في ترجماتهم القديمة ، ولعل اقرب الامثلة الى ذلك كتاب (الحروف التي يتكلم بها في غير موضعها) لابن السكيت ، الذي يعد من كتب لحن العامة وسندرسه بعد قليل ، فهو ايضا غير مذكور في مؤلفات ابن السكيت في مصادر ترجمته . واما ما خالف رأي الكسائي من مضمون الكتاب فيرد الى ظاهرة شائعة بين اللغويين من اختلاف بين آرائهم في المسألة الواحدة ، وسبب ذلك ـ كما يبدو ـ انه يتهيأ للدارس بعد ذلك من المعلومات ما يدعوه الى ان يصحح رأياً سابقاً له ، ويغير على اساسها موقفه منه ، فاذا حدّد الكسائي في هذا الكتاب مثلا ان الصحيح في (نقم) فتح القاف لا غير ، ونجد ان الجوهري يروي عنه كسر القاف ، فمعنى ذلك انه قد تهيأ للكسائي معرفة جديدة ، وهي ان الكسر لغة ، فيصحح على اساسها الاستعمال ، فيروى عنه خلاف ما حدد اولا .

واما الرواية عن ابي زيد الانصاري في موطن واحد ، فهي ايضا لا تطعن في النسبة ، اذ قد يكون ذلك من اضافات الناسخ ، يؤيد هذا ان الكسائي قد الزم نفسه بعدم الرواية عن احد من العلماء : شيوخه وغير شيوخه ، بصريين وغير بصريين ، فوجود اسم ابي زيد في الكتاب[2] يوضح ان في ذكره اقحاما متأخرا قام به احد النساخ . وعليه فان هذه الشبه المثارة حول نسبة الكتاب إلى الكسائي شبه لا تكفي دليلاً قاطعاً على نفي هذه النسبة او الشك فيها . على اننا ـ من جانب آخر ـ حين

(1) المعجم العربي ١/ ٩٨ .

(2) ما تلحن فيه العوام ٣٠

نناقش هذه الشكوك ونختلف مع الباحثين في صحة النتيجة التي وصلا اليها ، فليس معنى ذلك اننا نكتفي بذكر الكسائي في صفحة العنوان من الكتاب لنقطع بصحة نسبته اليه . ولكننا نميل الى هذه النسبة بتحفظ بالغ ورائدنا في ذلك جواز الايمان بصحة نسبة الكتاب .

والكتاب يرصد الظواهر الجديدة في اللغة ، تلك التي برزت على السن المتكلمين في الحواضر العراقية ، حين ظهرت نتائج اختلاط اللغات فيها ، فكان من اثر هذا الاختلاط الخطأ في استعمال الصيغ والحركات . ومن هنا تعد رسالة الكسائي اول عمل من نوعه في تاريخ الدرس اللغوي اذ لم يسبق الى مثله ، وان وردت في مصنفات الاقدمين اشارات مشابهة قيمة ، غير انها لا ترقى الى اهمية التأليف فيها . ولذلك جاءت رسالة الكسائي صغيرة مختصرة ، فكل سابق صغير ثم يكبر وقليل ثم يكثر كما يقول ابن الاثير[1] .

ومنهجه في هذا الكتاب ان يذكر الوجه الصحيح في لفظ الكلمة ، ثم يستشهد على ما يقول من القرآن او الشعر او كليهما ، ثم يذكر الخطأ في لفظ الكلمة وهو ما تلحن فيه العامة ، هذا هو الاكثر ، ومثاله قوله : « تقول حَرَصْتُ بفلان ، بفتح الراء وقال الله عز وجل : (وما اكثر النّاس لو حَرَصْتَ بمؤمنين) ولا تقول تحْرَص بفتح الراء قال الله تعالى : (إن تحْرِصْ على هداهم فإن اللهَ لا يهْدِي من يضِلّ)[2] » . وهو احياناً يذكر الوجه الصحيح مستشهدا عليه مهملا النص على وجه الخطأ فيه مكتفيا بما ذكر من صوابه ، وكأن اللحن في ذلك معروف معلوم ، يقول : « وتقول كسَرتُ ظُفُر زيدٍ ، بضم الظاء والفاء جميعا . قال الله تعالى : (وعلى الّذينَ هادوا حرّمنا كلّ ذي ظُفُرٍ[3]) . . » وفي بعض المرات يهمل الاستشهاد ايضا ، ويكتفي بالنص على صواب التلفظ بالكلمة فقط ، يقول : « وتقول دَمَعَت عيني بفتح الميم[4] »

(١) لنهاية ١/ ٤

(٢) ما تلحن فيه العوام ٢٣

(٣) نفسه ٢٤

(٤) نفسه ٢٧

والكتاب يعالج على هذه الشاكلة مائة لفظة ولفظتين ، وفي اغلب هذه الالفاظ ينصبُ التصويب على (الحَركة) التي تعين باب الفعل ، او زنة الاسم ، وفي مواضع اخرى يكون التصويب خاصا بالمثنى والجمع ، او ببعض المشتقات ، او بالتذكير والتأنيث ولم يعتمد الكسائي في عرض المواد ترتيبا معينا ، فهو يبدأ بذكر : حرص ، نقم ، دع ، نفد ، عجز . . وهكذا دون ان تقسمها فصول على الموضوعات ، ودون ان ينظمها ترتيب الفبائي ، على نحو ما حدث في مؤلفات لاحقيه . وهي خصيصة واضحة في اكثر المؤلفات القديمة التي تؤلف لأول مرة في موضوعها .

وقد توالت بعد الكسائي كتب لحن العامة ، فالف ابو عبيدة (ت ٢١٠) والاصمعي (ت ٢١٣) وابو نصر احمد بن حاتم ، وابو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤) والمازني (ت ٢٢٥) وابن السكيت (ت ٢٤٤) ولم يصل الينا ـ فيما عدا كتاب ابن السكيت ـ منها شيء ، سوى نص واحد من كتاب الاصمعي نقله ابن يعيش[1] ، لايغني شيئا في معرفة منهج الكتاب .

الحروف لابن السكيت :

اما كتاب ابن السكيت فهو (الحروف التي يتكلم بها في غير موضعها) ، وقد وصل الينا وطبعه محققا الدكتور رمضان عبد التواب في القاهرة ١٩٦٩ ، وقد اجتهد المحقق في نسبة الكتاب الى ابن السكيت ، ذلك ان المصادر القديمة لم تذكر لابن السكيت كتابا بهذا العنوان ، وانما ذكرت له بين مؤلفاته كتابه (مجاز ما جاء في الشعر وحرف عن جهته) ، فقال المحقق : « ولعله هو الكتاب الذي نحققه هنا وننشره لاول مرة[2] » . وللمحقق الحق في هذا المذهب ، ذلك ان كثيرا من مواد الكتاب ، يدخل ضمن الاستعمال المجازي ، اي ان الذي حرف عن جهته في الاستعمال كان بسبب الاستعارة ، كما سنرى ذلك ، هذا اضافة الى ان كثيرا مما جاء في الباب الرابع

(١) شرح المفصل ٨/١

(٢) الحروف (مقدمة المحقق)٢٥

من الكتاب يتفق مع ما رواه السيوطي عن كتاب المثنى لابن السكيت[1] ، وهذا يعني ان الآراء هنا هي آراء ابن السكيت . ثم يقول المحقق : « والكتاب فضلا عن انه يبدأ برواية صريحة تنص على نسبته الى ابن السكيت ـ فهو يحمل طابعه في مؤلفاته ، ويتفق في بعض عبارته مع ما روي عنه في مصادر اخرى ولهذا لا نشك لحظة في انه له ، وان لم تذكره المصادر التي ترجمت له[2] » .

قسم ابن السكيت كتابهالصغير على اربعة ابواب بحسب الموضوعات التي يريد ان يبحثها ، فالاول عنوانه : (باب حروف تقع مستعارة) والمقصود بهذا مثلا استعمال (الأظلاف) للانسان وهي للشاء والبقر . او استعمال (المشَافِر) للانسان وهي للإبل . . وهكذا . وطريقته ان يذكر هذا الاستعمال المجازي (المحرَّف) ثم ينص على استعماله الحقيقي (الصواب) ، ثم يستشهد بالشعر على ما ذكر من الاستعمال المجازي باكثر من شاهد ، ولا يستشهد على غيره ، لان معناه الحقيقي لا يحتاج الى الشاهد . ومثال ذلك قوله : « ويقال للرّجل : إنه لغليظُ المشافِر ، وانه لغليظ الجَحَافِل ، وانما المشافر للابل ، والجحافل لذوات الحوافر . . قال الحطيئة :

سَقَوا جارك العَيمان لما تركته   وقَلَّصَ عن برد الشتاء مشافره

وقال آخر (الفرزدق)

فلو كنت ضَبِّياً عَرَفتَ قرابتي   ولكنَّ زنجياً غليظَ المَشافر[3] » .

ثم ينتقل الى الباب الثاني وهو (باب الحروف التي جوزتها العرب او غلطت فيها) وفيه يذكر ابن السكيت نماذج من اغلاط الشعراء في استعمالهم بعض الالفاظ من حيث انهم عنوا غيرها قريبة منها في مجال الدلالة ، كاستعمال النَّحل وهم يريدون العَسَل او الأُبلّة وهم يريدون البَصرة . او في استعمالهم اسماء الاعلام على غير نطقها الصحيح ، كاستعمالهم (سلاّم) والمقصود سُليمان او (سِير) .والمقصود

---

(1) المزهر ٢/ ١٩١ ـ ١٩٢

(2) الحروف (مقدمة المحقق) ٣١

(3) الحروف ٣٦

سيّار ، وطريقته في هذا الباب ذكر البيت الذي فيه اللفظة ثم ذكر الغلط في استعمالها بالتنبيه على المقصود . ومثاله قوله : « وقال الجَعْدي :

تقـولُ النَّصـارى قَتلنـا المسيح ولـم يقتُلـوه ولـم يُصلَّـبِ

وانما يريد : اليهود[1] » وقد وجه ابن السكيت هذه الاستعمالات المغلوط فيها بما نقل عن الاصمعي قوله : « ولما ارادوا ان يجيئوا بالشيء فلا يمكن ، فيأتون بشيء من سببه ، يستدل عليه به[2] » وهذا هو التوجيه الصحيح الشامل لاغلاط هذا الباب ، وليس في توجيه ذلك برده الى الضرورة الشعرية عند قدامة بن جعفر ومن تابعه من المحدثين[3] ، مذهب منطقي ، لأن ذلك لو صدق على تحريف الاعلام فانه لا يصدق على الشاهد المذكور ، اذ يمكن استبدال النصارى باليهود ، ثم لا يضطرب الوزن .

وعقد الباب الثالث وهو (باب الاسمين يغلب احدهما على صاحبه) لما ورد في الشعر من تغليب احد الاسمين على الآخر ، كقولهم (القَمَران) والمقصود به الشمس والقمر ، غلبوا القمر لتذكيره ، كتغليبهم الاب في الابوين . او قولهم (العُمَران) والمراد ابو بكر وعمر ، غلب عمر لانه اخف الاسمين ، ولم يلتزم في هذا الباب ذكر البيت فيما يريد النص عليه من التحريف كما فعل في البابين الاولين ، وانما اهمل ذلك في مواد كثيرة ، واكتفى بذكرها عارية عن شاهدها كما في (الاحْمَران) و (الأَصرَمان) و (الجَديدان) و (الجَوْنان) وغيرها[4] .. اما مثال الاول فقوله : « وقال آخر :

فقُـرى العـراقِ مسـيرُ يومٍ واحدٍ والبَصرتان وواسطٌ تكميله

اراد : الكوفة والبصرة[5] » . وهو يعطي المسوغ لهذا التغليب في بعض

---

(١) الحروف ٤٣ .

(٢) نفسه ٤٤ .

(٣) نفسه (مقدمة المحقق) ٢٨

(٤) نفسه ٥٢

(٥) نفسه ٤٩

المواطن ، فالتذكير مسوغ للتغليب ، والخفة مسوغ ، والقدم مسوغ ايضا في تغليب الحيرة على الكوفة في استعمال (الحيرتين) ، وهكذا .

وقد الف ابو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥) رسالة مستقلة في هذا الموضوع بعنوان (ما جاء اسمان احدهما اشهر من صاحبه فسميا به) نشرها محمد حميد الله في المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العراقي من ١/ ٣٧ - ٤٢ . وليس فيها اكثر من ذكر المثنى وسبب تغليب احدهما على الآخر ، وليس فيها تعرض الى لحن للعامة في ذلك .

اما الباب الرابع فهو (باب ما جاء مجموعا وانما هو اثنان او واحد في الاصل) ويعنى هذا الباب بذكر استعمالات العرب لصيغة الجمع وهم يطلقونها على المثنى او المفرد خطأ . فمثلا : « يقال : رجل عظيم المناكب ، وانما له منكبان[1] » ومثله « شديد المرافق ، وضخم المناخر . . وغليظ الوجنات وامرأة ذات اوراك »[2] وغيرها مما هو على هذه الشاكلة . وهذا الباب اقصر الابواب ، قلما استشهد فيه ابن السكيت ، بل كان يكتفي في هذه القلة بذكر صدر البيت او عجزه دون تمامه . وبهذا الباب ينتهي الكتاب .

ومما يلاحظ على هذا الكتاب انه يمثل تطوراً في التنظيم والتقسيم بالنسبة الى كتاب الكسائي ، وذلك بتبويبه الى ابواب ، على انه ظل يفتقر الى ترتيب المواد داخل كل باب فهي غير مرتبة ترتيباً معيناً . ثم يمثل تطوراً آخر في نوع المادة التي يبحثها ، فهو لم يعد يعالج الخطأ في الحركة والصيغة والوزن ، كما كانت عليه الحال عند الكسائي ، بل انصبت معالجته للخطأ في الاستعارة والدلالة والمثنى والجمع ، وهي امور اكثر تعقيداً من الاولى ، وسببه تطور العامية وفشوها حتى صارت تشمل كل اولئك في لغة الناس ، على اننا يجب ان لا نغالي في عد جميع ما ذكر ابن السكيت من اوجه الاستعمالات لحنا جد في الكلام ، لأن كثيراً من هذه المواد قديم ، ورد في

---

(١) الحروف ٥٣

(٢) نفسه ٥٤

اشعار الجاهليين ولغة صدر الاسلام ، ولها ما يسوغ استعمالها فيما دأبت عليه قوانين اللغة في المجاز والخفة والتعميم والمشابهة وما الى ذلك ، واذا وقع لأولئك القدماء شيء منها فهو على جهة التوسع في الاستعمال ، لا على جهة التحريف . على ان القسم الاكبر من الكتاب يخص ما طرأ من التحريف على اللغة ، وهو الداخل في موضوع لحن العامة .

والف بعد ابن السكيت في هذا الفن ابو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥) وابو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢) وثعلب (ت ٢٩١) والمفضل بن سلمة (ت ٣٠٠) ولم يصل الينا منها سوى كتاب ابن سلمة ، وبيت منقول من كتاب ابي حاتم في المؤتلف والمختلف[1] .

الفاخر لابن سلمة :

و(الفاخر فيما يلحن فيه العامة) للمفضل بن سلمة ، نشره اول مرة المستشرق : تشارلس ابتروس ستوري في ليدن سنة ١٩١٥ م واعاد نشره محققا : عبد العليم الطحاوي سنة ١٩٦٠ في القاهرة . وهو من اجل ما الف في هذا الموضوع ، ذلك انه يمثل تطورا ملحوظا في النظر الى مشكلة لحن العامة . فالمؤلف لم ينظر الى اللحن على انه مخالفة الاعراب ، او تحريف اللفظ عن موضعه في الاستعمال ، كما كان مفهوم اللحن عند سابقيه ، وانما نظر اليه على انه العدول عن معنى اللفظ الى معنى غيره ، وفهمه على غير ما فسره به ائمة اللغة وارباب المعاني[2] . على انه لم يهمل بحث نماذج من اللحن بمفهومه الاول القديم كقوله مثلا : « قولهم : جاء يضرب بأصدريه ، هذا مما تغلط فيه العامة ، لأن العرب انما تقول : جاء يضرب ازدريه ، اذا جاء فارغا[3] » فهو هنا ينص على غلط يتصل بتحريف اللفظ في الاستعمال يشبه صنيع ابن السكيت في بعض ابواب كتابه ، وقليلا

---

(١) المؤتلف والمختلف ٢٢

(٢) الفاخر (مقدمة المحقق) : و

(٣) الفاخر ٢٤٦

من صنيع الكسائي قبله . ومثل هذا في مواضع قليلة في الكتاب ، اما الاكثر الذي لاجله وضع التأليف ، فهو انه يعالج العبارات الشائعة على السن الناس وما كان يدور في كلامهم من الجمل التي تشبه الامثال في ثبات تركيبها ، فيردها ـ ما استطاع الى ذلك سبيلا ـ الى اصولها اللغوية ، وجذورها الاولى التي اخذت واشتقت صيغها ومعانيها منها

وقد بسط المؤلف في مقدمته للكتاب غرضه من وضعه فقال: «هذا كتاب معاني ما يجري على السن العامة في امثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب ، وهم لا يدرون معنى ما يتكلمون به من ذلك . فبينا من وجوهه على اختلاف العلماء في تفسيره ، ليكون من نظر في هذا الكتاب عالما بما يجري من لفظه ويدور في كلامه» ، ومن ذلك نفهم ان كتاب (الفاخر) ليس كتابا في الامثال بمفهومها الذي وضعت في كتب الامثال المعروفة ، وان دخلت الامثال في مادة الكتاب ، وشرط دخولها ، ان تكون في (شعبية) العبارات الاخرى الدارجة في اللغة اليومية ، ومن هنا نختلف مع زلهايم في عد الفاخر كتابا متمحضا للامثال ، مع اعترافه بان الامثال لا تبلغ في مجموعها نصف الفاخر[1] . ومثال ذلك قوله : «قولهم : اخزاه الله ، اي كسره واهانه واذله ، واصل الخزي ان يفعل الرجل فعلة يستحي منها وينكسر لها . وقال ذو الرمة :

خَزَايـةً ادركتـه عنـدَ جَولتِه من جانب الحَبْلِ مَخلوطاً بهـا الغَضَبُ

ويقال من الاستحياء خزي يَخزى خَزَاية . والخِزْي : الهَلاك والذُّل . يقال منه خَزِيَ يَخْزى خِزياً»[2] . ويتفاوت طول الكلام على العبارة الواحدة ، من الاسطر القليلة الى الصفحات الاربع او الخمس . كما يختلف الحديث عن العبارة باختلاف العبارة نفسها ، فلم يلزم المؤلف نفسه بمنهج معين في الشرح والتفسير ، كما انه لم يلزم نفسه بمنهج في الاستشهاد ، فتارة يستشهد على ما يورد من معان وآراء بشاهد او اكثر من الشعر والقرآن والحديث والمثل ، وتارة يترك الاستشهاد تركا تاما

(١) الامثال العربية القديمة ١٧٣

(٢) الفاخر ٩

ودارس الكتاب لا يشعر بان المؤلف يسير على مذهب مدرسي معين فيما يورده من نقل آراء ائمة اللغة ، فقد روى عن كوفيين امثال : الفراء ، وابن الاعرابي ، وابي عبيد ، وابي عمرو الشيباني ، والمفضل الضبي ، وروى ايضا عن بصريين امثال : الاصمعي وابي عبيدة ، وابي زيد ، ويونس بن حبيب ، والنضر بن شميل ، فالعصبية الكوفية التي نفترض ان نجدها في كتاب ابن سلمة غير موجودة ، وقد يكشف لنا ذلك عن غلبة الدرس البصري في بغداد وتأثيره حتى على الكوفيين من امثال مؤلفنا . وقد ضم كتابه احدى وعشرين وخمسمائة عبارة من هذه العبارات الشائعة ، وطول العبارة يختلف من الكلمة الواحدة كقولهم (احتلط)[1] . الى الجملة الطويلة كقولهم (ما يقدر على هذا من هو اعظم حكمة مِنك) . وهو لا ينسى خلال كلامه على بعض من هذه العبارات النص على الظواهر اللغوية التي كانت تعرض له فيها ، فأشار الى المشترك ، والاتباع ، والمعرب ، والقلب وغيرها[2] . غير ان المواد غير مرتبة في الكتاب ترتيباً ما ، فلم يقسم كتابه ابوابا وفصولا ، ولم ينظم الاقوال تنظيما الفبائيا على الحرف الاول او الاخير او اي صورة اخرى . ومع ذلك كله يظل كتاب (الفاخر) يمثل التطور الكبير الذي حصل في الدرس اللغوي في عصر المفضل ، ذلك ان الكتاب انصب في معالجته على (الاساليب) اللغوية ، بعد ان كان كتاب ابن السكيت خاصا بـ (المفردات) ، وكتاب الكسائي خاصا بـ (الاصوات) ، وهذا الاختلاف في جوانب المعالجة قد يكشف لنا عن تطور اللغة العامية في تلك العصور فبعد ان كان اللحن لم يشمل غير اصوات الالفاظ ، اصبح بعد مدة يشمل اللفظة كلها وهي في سياق الكلام ، ثم صار اللحن يشمل الاسلوب كله ، اي التركيب العام للجملة ، وهذا هو الذي وضحه كتاب ابن سلمة

* * *

---

(١) الفاخر ١١٤

(٢) نفسه ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦

كتب الامثال

بكر العرب المسلمون في وضع كتبهم في الامثال، ذلك ان التأليف في هذا الفن لم يتأخر في اغلب الظن عن التأليف في الغريب واللغات . اذ مر ان ابن عباس (ت ٦٨ هـ) اول من ألف في الموضوعين الاخيرين ، وكان يعاصره المؤلف الاول في الامثال . ذلك اننا اذا تجاوزنا (الصحيفة) التي دونت فيها بعض الامثال في العصر الجاهلي[١] . يكون عبيد بن شرية الجرهمي (معاصر معاوية) اول من الف في الامثال ، وكتابه من مصادر الميداني في كتابه[٢] . وفي زمانه مؤلف آخر هو صحار ابن العباس (او عياش) العبدي (معاصر معاوية) ، ثم الف علاقة بن كرشم (او كريم اوكرسم) الكلابي (معاصر يزيد بن معاوية) الذي يقول ابن النديم انه رأى من كتابه خمسين ورقة[٣] . وابو عمرو بن العلاء (ت ١٥٧ هـ) والشرقي بن القطامي واسمه ابو المثنى الوليد بن الحسين (ت ١٥٨ هـ) الذي ذكر الميداني ان كتابه من مصادره ايضاً[٤] ، والمفضل الضبي (حوالي ١٧٠ هـ) الذي وصل الينا كتابه ، وقد طبع أول مرة بالجوائب سنة ١٣٠٠ هـ ثم في القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ .

امثال المفضل الضبي :

وأول ما يمكن ملاحظته على الكتاب بعده عن الميدان اللغوي الذي نحن بصدده ، لخلوه تقريباً من الشروح اللغوية والتفسيرات المعنوية وذكر غريب الالفاظ واشتقاقاتها وما يتصل بذلك ، الا في مواضع قليلة جداً لا تجعل منه كتاباً في اللغة[٥] ، والسبب في ذلك واضح ، هو ان الجانب الادبي كان هو المميز لأعمال المفضل ، وهو طابع آثاره الباقية ، التي تشير الى عنايته برواية الشعر ، وأخبار العرب وأيامهم وأنسابهم ، اكثر مما تشير الى اي عناية اخرى . ولهذا جاء كتابه في

---

(١) الامثال العربية القديمة ٤٤ .

(٢) مجمع الامثال ١/ ٤ .

(٣) الفهرست ٩٠ .

(٤) مجمع الامثال ١/ ٤ .

(٥) امثال الضبي ٥ ، ١٢ ، ١٦ ، ٢٥ ، ٢٦ .

الامثال زاخراً بقصص هذه الامثال وما تتضمنه من ذكر الاشعار والاخبار والايام وما الى ذلك مما كان هو مصدر روايتها جميعاً ، سوى ما رواه عن غيره في مواضع قليلة[1] .

والنسخة التي طبع منها الكتاب لا تمثل الكتاب كما وضعه المفضل ، ذلك ان فيها زيادة واضحة ، ونقصاناً واضحاً ، فالزيادة في وجود أسماء لغويين متأخرين عن المفضل يروي عنهم كالكسائي (ت ١٨٩ هـ) وابن الاعرابي (ت ٢٣١ هـ) وغيرهما[2] . اما النقصان فبعدم وجود بعض قصص الامثال المروية عنه في كتابه[3] ، على ان اكثر مادة الكتاب وهي (١٦٠) مثلاً ، قد نقلت بقصصها من كتابه الى كتب الامثال المؤلفة بعده ، الا عدداً لا يتجاوز الربع ، لم ينقل عنه في كتب الامثال هذه .

وقد الف بعده في الامثال يونس بن حبيب (ت ١٨٢) ، ومن كتابه اقتباس في كتاب الامثال لحمزة الاصبهاني[4] . وعطاء بن مصعب (استاذ ابي عبيدة) وكتابه من مصادر كتاب الميداني[5] . وابو فيد مؤرج السدوسي (ت ١٩٥) ، وقد وصل الينا كتابه وطبع بتحقيق الدكتور رمضان عبدالتواب في القاهرة ١٩٧١ .

الامثال للسدوسي :

أهم ما يميز كتاب السدوسي عن كتاب الضبي السابق عناية المؤلف باللغة ، فهو لا يهمل التفسير اللغوي والاستطراد فيه الى ذكر امور تتعلق بما ذكر في الشرح لا علاقة لها بالمثل ، وهو في هذه الصفة يدخل الميدان اللغوي الذي لم يدخله كتاب المفضل الضبي ، واذا كان الكتابان قد تشابها في عدم ترتيب المواد (الامثال) ترتيباً ما ، فانهما قد اختلفا في عرض المادة والاستشهاد عليها وذكر المصادر .

---

(١) امثال الضبي ١٢ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٤٤ ، ٦٧ .
(٢) نفسه ٩ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٥٦ ، ٨٢ .
(٣) امثال ابي عبيد ق ٢٤ ، ٤٨ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٣٩ نقلاً عن : الامثال العربية القديمة ٧٥ .
(٤) ما كان على افعل من الامثال (مخطوط) : باب العين .
(٥) مجمع الامثال ١/٤ .

فالسدوسي اكثر من ذكر الرواة الذين سمع منهم تفسيراً او بيتاً او قصة تتعلق باحد الامثال المذكورة في كتابه ، وأغلب هؤلاء من الاعراب الذين شافههم في بواديهم أو ممن لقيهم بعد نزوحهم للحواضر ، كأبي خالد الكلابي[1] ، وابي الخنساء[2] ، وابي الدقيش[3] وكثير غيرهم . الا اني لم اجده راوياً عن اللغويين الا في موضع واحد ، ذكر فيه عيسى بن عمر (ت ١٥٤)[4] والسبب هو تقدم عصر السدوسي فهو لم يأخذ إلاّ عن طبقة الخليل واساتذته .

والشعر هو الاغلب الاعم من بين شواهد السدوسي ، اذ لم يستشهد بالقرآن الا في موضع واحد[5] في تفسير لفظة (المُبْسِل) ، ولم يستشهد بالحديث الا في موضعين[6] ولم ينسب الاول ، الا انه لا يكاد يخلو تفسيره لمثل من أمثاله من استشهاد بالشعر ، وقد يجره هذا الاستشهاد الى شرح لفظة غريبة وردت في البيت ، والتفسير هذا يجره الى الاستشهاد ببيت آخر ، وهذا يعطي الصورة الواضحة عن السدوسي اللغوي ، الذي يدفعه اختصاصه بعيداً عن الميدان الخاص متوغلاً في الغريب واللغات والتفسير المعنوي والاشتقاق وما الى ذلك كما في التعليق على المثل الاول (إقدحْ وأنتَ مُسْتَرخ ، إقدحْ بدِفلى في مَرَخ)[7] . وهناك امثال تركها المؤلف دون شرح ودون استشهاد مثل (لا أفعله ما حنَّ بَعير) و (لا أفعلُه حتى تُجَزَّ الظِّباء) و (جاء بالدّاهية الخنْفقيق)[8] .

وعني السدوسي باللغات كما اسلفنا ، ونص على كثير منها ، وانشد لشعرائها حتى انه أحياناً كان يوثق صحة استعمال الشاعر بأن يسأل قوم الشاعر عن ذلك ،

(١) امثال السدوسي ٥٣ .
(٢) نفسه ٨١ .
(٣) نفسه ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٨٠
(٤) نفسه ٨٦ .
(٥) امثال السدوسي ٥٣ .
(٦) نفسه ٥٢ ، ٧٧ .
(٧) نفسه ٣٨ .
(٨) نفسه ٧٤ .

مثال ذلك انه كان يفسر معنى لفظة وردت في بيت للاسود بن يعفر وبعد ذلك قال « فلم اسأل احداً من عشيرته ، الا قال ما وصفت[1] » . وقال في موضع آخر : « وسمعت رجلاً من هذيل[2] » .

ومما يلفت النظر في كتاب السدوسي انه يعد احياناً الفاظاً مفردة عداد الامثال مثل : (الجَمَّة) و (العرْض) و (الدگيف) وغيرها[3] ، فهل كانت هذه الالفاظ تطلق ويراد بها المثل ؟ اذ لا يظهر من تفسير المؤلف لها انها كذلك ، لأن غاية ما يفعل بعد ذكرها ، ان يذكر معناها اللغوي الذي تستعمل له ، وقد يستشهد ببيت يدل على هذا المعنى ، فقد يجوز ان تكون هذه الالفاظ منتزعة من امثال سقطت من المخطوطة ، سها الناسخ فلم ينسخ نص أمثالها ، ذلك ان محقق الكتاب وجد فيه نقصاً يتمثل بنصوص منقولة عنه لا توجد في المخطوطة[4] . أو ان تكون هذه الالفاظ مما يجب ان يلحق بالباب الموجود في آخر الكتاب وهو من الزيادات في النسخة ، فيه تفسيرات وشروح لالفاظ لغوية وردت في ابيات من الشعر[5] ، فربما يكون هناك ناسخ نقل من هذا الباب اشياء ووضعها في أماكن متفرقة في صلب الكتاب . وعلى كل حال ، فكتاب الامثال للسدوسي يمثل تطوراً في معالجة الامثال ، من حيث انها مادة لغوية لا مادة قصصية كما كانت عند المفضل الضبي .

ثم الف في هذا الفن النضر بن شميل (ت ٢٠٣) وهشام الكلبي (ت ٢٠٦) وابو عمرو الشيباني (ت ٢٠٦) وابو عبيدة (ت ٢١٠) والاصمعي (ت ٢١٣) وابو زيد (ت ٢١٥) وابو عثمان سعدان بن المبارك (ت ٢٢٠) فقد الف في الامثال ، وروى كتاب ابي عبيدة في الامثال[6] . وابو عبيد (٢٢٤) الذي وصل الينا كتابه ، وما زالت نسخته الاصلية بعيدة عن ايدينا . ذلك ان الذي نشره

---

(١) امثال السدوسي ٦٠ .

(٢) نفسه ٥٥ .

(٣) نفسه ٥٧ ، ٦١ .

(٤) امثال السدوسي (مقدمة المحقق) ٢٢ .

(٥) نفسه ٨٣ ـ ٨٦ .

(٦) بغية الوعاة ٢٥٤

المستشرق برتو سنة (١٨٣٦) لا يمثل غير فصلين من الكتـاب ، كما ان الكتـاب المنشور في (التحفة البهية) المطبوع في الجوائب باستانبول ١٣٠٢ هـ من ص ٢ - ص ١٦ ليس الا انتزاع الامثال من كتاب ابي عبيد وترتيبها على الحروف وهو غير ترتيب المؤلف ، ثم ان الذي نقله ابن عبد ربه في (العقد الفريد) ط القاهرة ١٩٤٢ ج ٣ من ص ٨١ - ص ١٣٦ ما هو الا مختصر لكتاب ابي عبيد . واما صنيع ابي عبيد البكري في كتاب (فصل المقال في شرح كتاب الامثال لابي عبيد) الذي طبع في الخرطوم ١٩٥٨ م بتحقيق عبدالمجيد عابدين واحسان عباس فهو الشرح والاختصار لا الشرح فقط ، وعلى هذا فان الصـورة الكاملـة للكتـاب ما زالـت بعيدة عن النور[١] . وقد درس كتاب ابي عبيد دراسة موسعة المستشرق الالماني زلهايم في كتابه (الأمثال العربية القديمة) ، من خلال عنايته بتحقيق (فصل المقال) للبكري فبسط القول في وصف مخطوطات الكتاب ، ومقدمة المؤلف ، وابواب الكتاب ، ومصادر ابي عبيد واساتذته ، ومضمـون الكتـاب ومنهجـه وترتيبـه ، واخـيراً انتشـاره في الآفاق[٢] ، وهي دراسة مستفيضة مغنية .

مختصر أمثال ابي عبيد :

اذا شئنا استجلاء المختصر الـذي ضمـه ابن عبـد ربـه الى كتابـه (العقـد الفريد) ، برزت امامنا ظواهر عدة ، منها : دقة التنظيم ، اذ نجد لأول مرة في كتب الامثال مادة مبوبة على الموضوعات ، فقد قسم ابو عبيد امثاله أقساماً بحسب الظروف التي تضرب بها ، فقسم لأمثال الرجـال واختـلاف نعوتهـم[٣] . وقسـم للامثال في القربى[٤] . وقسم للامثال في مكارم الاخلاق[٥] . وهكذا . وكل قسم من هذه الاقسام ينتظم أبواباً ، ففي القسم الخاص بأمثال العرب في الكلام : باب

---

(١) الامثال العربية القديمة ٩٥ .

(٢) نفسه ٨٥ - ١٢٩ .

(٣) العقد الفريد ٣/ ٩١ .

(٤) نفسه ٣/ ١٠١ .

(٥) نفسه ٣/ ١٠٤ .

(في حفظ اللسان) وآخر في (اكثار الكلام وما يتقى منه) وثالث في (الصمت)[1] ، وهكذا . ومنها : العناية باللغة في التفسير ، وهذه العناية تشمل ذكر معاني الالفاظ الغريبة ، واشتقاقها ، ومصدرها ، ولغاتها ، واختلاف الآراء فيها وما الى ذلك من امور تشير الى الميدان الذي فرضه المؤلف على كتابه[2] . ومنها : اعتبار المؤلف كثيراً من الاحاديث والحكم والاقوال الشائعة من الامثال[3] . وهي في حقيقتها ليست امثالاً ، فقول انس بن مالك : (لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يحترز من لسانه ولسان غيره) لا يمكن ان يعد مثلاً ، فليس في هذه النصيحة ذلك المعنى التجريدي - ان صح التعبير - المفترض في المثل. وليس فيها تلك القوة الدافعة لذكرها في موطن البلاء الذي يجره على الانسان لسانه، غير اننا نجد هذه القوة الدافعة في (ان البلاء موكل بالمنطق) مثلاً . ومن الظواهر ايضاً : قلة الاستشهاد وقلة ذكر العلماء الذين يذكر آراءهم ، وربما كان ذلك بسبب الاختصار ، فلم نجد ذكر الاصمعي مثلاً الا في مواطن قليلة جداً[4] . في حين حدثنا دارس الكتاب (زلهايم) حديثاً طويلاً عن شيوخه المذكورين في كتابه وكثرة عددهم فيه ووفرة مروياته عنهم . وأخيراً فنحن لا ندعي ان هذه الظواهر هي كل ظواهر كتاب ابي عبيد ذلك ان الذي بين ايدينا الآن هو المختصر ، ولا يخفى ما في الاختصار من طمس كثير منها . غير انها بمجملها تشير الى نضج واضح في النظر للامثال من الناحية اللغوية ، ذلك ان الاهتمام بالجانب اللغوي اطغى من الجانب القصصي فيه .

وألف بعد ابي عبيد في الامثال علي بن المبارك اللحياني (تلميذ الكسائي) ، وابن الاعرابي (ت ٢٣١) والتوزي (ت ٢٣٣) وابن السكيت (ت ٢٤٤) الذي قبس من كتابه ابو الفرج الاصبهاني و ابو عبيد البكري[5] ، وألف ايضاً ابو جعفر

---

(١) العقد الفريد ٣/ ٨١ - ٨٢ .
(٢) نفسه ٣/ ٨٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٨ .
(٣) نفسه ٣/ ٨١ .
(٤) نفسه ٣/ ٩٨ ، ٩٩ .
(٥) الاغاني (ساسي) ٢١/ ١٣٢ وفصل المقال ٢٦٧ .

محمد بن حبيب (ت ٢٤٥) ، الذي لم يصل إلينا من كتابه الا قطعة واحدة تبدأ بعبارة (من كتاب الامثال عن محمد بن حبيب اللغوي) مما يشير الى انها منتزعة من كتابه المفقود ، وقد نشرها محمد حميد الله مع كتابه (ما جاء اسمان احدهما أشهر من صاحبه فسميا به) الذي أشرنا اليه سابقاً في المجلّد الرابع من مجلة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٦ من ص ٤٤ ـ ٤٥ وقوام هذه القطعة صفحتان من المجلة المنشورة فيها .

قطعة من امثال ابن حبيب :

ليس في هذه القطعة من الكتاب سوى سبعة امثال ، وكلها تبدأ بـ (افعل من) ، وقد يشير هذا الى ان كتاب ابن حبيب في الامثال ، كان يحوي (ما كان على افعل من الامثال) كالذي وضعه بعد ذلك حمزة بن الحسن الاصفهاني في القرن الرابع . ويتضح الجانب اللغوي في شرحه للامثال باهتمامه بتفسير الالفاظ الغريبة وبالاستشهاد عليها وتفسير الالفاظ الغريبة في الشاهد نفسه . ويذكر لكل مثل من هذه الامثال قصة ، وينص على اسم الرجل الذي اطلق عليه المثل أول مرة ، الا المثل الاول فقد اكتفى بشرح لفظة غريبة فيه فقال : « أبْردُ مِنْ عِضْرِسٍ ، وهو الماء الجامد[1] » وليس في هذه القطعة ما يشير الى رواية عن راوية او رأي لاستاذ أو أخذ عن شيخ ، الا ما ذكره في قصة حاتم الطائي من خبر نقله ابن اخي ماوية زوجة حاتم[2] . وبعد فهي قطعة صغيرة لا يمكن ان تعطي الصورة الكاملة عن الكتاب الضائع الا ما ذكرناه .

ثم الف في الامثال ابو اسحاق ابراهيم بن سفيان الزيادي (ت ٢٤٩) وابو عكرمة الضبي (ت ٢٥٠ هـ) ، وقد وصل الينا كتاب الاخير وطبع بتحقيق الدكتور رمضان عبدالتواب في دمشق ١٩٧٤ م .

---

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي ٤/ ٤٤ .

(٢) نفسه ٤/ ٤٥ .

أمثال أبي عكرمة :

أول ما نلاحظه على هذا الكتاب انه هو المثال الذي حذا حذوه ابن سلمة في (الفاخر) ، ذلك ان ابا عكرمة يقول في المقدمة مبيناً غرضه من تأليفه : « هـذا كتاب الفناه من معاني كلام العرب السائر ، مما يحتاج الى تفسيره لكثرة استعماله ، وبيناه بشواهد من الشعر واللغة ، وفسرنا ذلك ونسبنا الى كل عالم قوله[1] » . واذا رجعنا بالذاكرة الى مقدمة الفاخر نجد الكلام هناك يشبه الكلام هنـا ، والغـرض واحد ، وهو تفسير التعبيرات والاقوال الشائعة على السنة الناس شيوع الامثال . حتى اننا نجد أبا عكرمة يبدأ بقولهم (حيّاكَ الله وبيّاك)[2] . وهو مفتتح تعبيرات الفاخر ايضاً . وعلى هذا الاساس زعمنا ان المفضل بن سلمة قصد في فاخره تقليد ابي عكرمة بشيء من التوسع والبسط . الا ان هناك فرقاً جوهرياً بين الاثنين ،جعلنا نعد (الفاخر) في كتب اللحن . الا وهو تعبير ابن سلمة في المقدمة : « هذا كتاب معاني ما يجري على السن العامة . . من كلام العرب[3] » . وهو يختلف عن قول ابي عكرمة : « هذا كتاب الفناه من معاني كلام العرب السائر » فالأول نص على ان مادة كتابه مأخوذة من السن (العامة) وهي في الاصل من كلام العرب ، فغلطت العامة في نطقها وفي معانيها ، وهو في الكتاب يصحح ويصوب ، وسقنا منه امثلة في كلامنا على كتابه في حين نجد ان مادة ابي عكرمة لا تخـرج عن (كلام العـرب) الفصيح كما ينص هو نفسه .

وكتاب الامثال لابي عكرمة غير مرتب على الحروف ولا على الموضوعات وهو بهذا يشبه كتاب السدوسي ويشبه ابا عبيد في توسيع دائرة المثل ، فيشمـل الحـكم القصار والاحاديث واقوال الزهاد[4] . ويشبههما في كثرة الاستشهاد ، وشواهده من القـرآن والحـديث والشعـر ، وكثـيراً ما يستطـرد في شرح المثـل الى شرح غريب

---

(١) امثال ابي عكرمة ٢٣

(٢) نفسه ٢٤ .

(٣) الفاخر : المقدمة .

(٤) امثال ابي عكرمة ٣٠ ، ١٠٣ ، ١٠٩ .

الشاهد ، وهو حين يذكر المثل او التعبير الذي يريد تفسيره يبدأه بقوله (وقولهم) واخذ ابن سلمة بهذا السنن في فاخره كما مر . وعنايته باللغة عناية كبيرة ، تتجلى في استقصائه لمعاني الالفاظ ومصادرها واشتقاقها وما يتصل بذلك من امور ، كما ينص على آراء العلماء فيما يشرح وخلافهم فيه ، فيوجه هذه الآراء ويأخذ باصوبها حسب رأيه[1] . واذ يقف بشواهده الشعرية عند الحدود المتعارف عليها عند اللغويين اعني عند شعراء العصر الاموي لا يتعداهم ، لا يقف عند حدود مدرسة لغوية معينة لا يتعداها ، فقد روى عن البصريين امثال الاصمعي[2] وابي عبيدة[3] والمازني[4] ويونس[5] كما روى عن الكوفيين أمثال : ابن الاعرابي[6] والفراء[7] والكسائي[8] وابن السكيت[9] ، الا انه قد ندت منه عبارات يستعمل فيها مصطلحات الكوفيين التي تميز درسهم عن درس البصريين[10] . هذا ولا يخلو كتابه من تعبيرات مثلية غير موجودة في سواه من كتب الامثال المتوفرة ، انفرد بذكرها ابو عكرمة الضبي[11] . وحين قلل ابو عكرمة من اهتمامه بذكر قصص الامثال كسلفه السدوسي ، فقد اكثر من الاهتمام باللغات فنص على عدد منها خلال شروحه للامثال وتفسيره لغريبها[12] . وقد اهمل ابو عكرمة ذكر المناسبة والظرف الذي يضرب فيه المثل ، وذكر اول من أطلق عليه هذا المثل او ذاك . واذا قل اهتمام الدارسين بكتاب ابي عكرمة فلم يذكروه ولم ينقلوا منه لاكتفائهم بكتاب ابي عبيد وغيره من الكتب الضخمة ، فان ذلك لا يقلل من اهميته وجدواه ، وخصوصاً بعد ان عرفنا أنَّهُ المعين

---

(١) امثال ابي عكرمة ٢٤ ـ ٢٥ ، ٣٢ ـ ٣٣ ، ٤٠ ـ ٤١ .

(٢) نفسه ٢٥ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٤١ .

(٣) نفسه ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٥٧ .

(٤) نفسه ٣٤ ، ٤٠ .

(٥) نفسه ٤٨ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٢ .

(٦) نفسه ٢٥ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ .

(٧) نفسه ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٧ ، ٤٨ .

(٨) نفسه ٢٩ ، ٤٠ ، ٥٨ .

(٩) نفسه ٣٠ ، ٨٦

(١٠) نفسه ٦٧ ، ٧٨ .

(١١) نفسه ٦٥ ، ٩٧ ، ١١٦ .

(١٢) نفسه ٢٩ ، ٦٤ ، ٩٠ ، ١١٠ ، ١٢٣ .

الذي نهل منه ابن سلمة في كتابه الفاخر .

وقد الف بعده الجاحظ(ت ٢٥٥هـ)، وابو جعفر احمد بن ابي عبد الله البرقي (ت ٢٧٤) وابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) وعلي بن المهدي الاصفهاني (ت بين ٢٧٨ - ٢٨٩ هـ) وثعلب (ت ٢٩١ هـ) والجنيد بن محمد بن الجنيد القواريري (ت ٢٩٨ هـ) ، كتبا في الامثال لم تصل الينا جميعاً .

* * *

كتب الاصوات

١ - الهمز :

يعد التأليف في الهمز أول ما ظهر من العناية ببحث علم الاصوات عند العرب ، لاتصاله - على ما يبدو - بعنايتهم بالقراءات القرآنية ، ذلك ان عبدالله بن ابي اسحاق الحَضرمي (ت ١١٧) ، الذي نص على انه أول من الف في الهمز ، او اول من عُمل كتابٌ مما املاه في الهمز ، كان من المهتمين بالقرا ءة معروفاً بقراءة شاذة[١] . ثم ألَّف بعده قطرب (ت ٢٠٦) والاصمعي (ت ٢١٣) وابو زيد (ت ٢١٥) الذي وضع كتابين هما : كتاب تحقيق الهمز ، وكتاب الهمز ، والاخير وصل الينا وطبع بتحقيق الاب لويس شيخو في بيروت سنة ١٩١٠ بعنوان (الهمز لابي زيد) . ولم يصل من كتابه الاول (تحقيق الهمز) غير اسطر قليلة ملحقة بكتابه الثاني (الهمز) فتركها المحقق[٢] . وقبل ان نتكلم عليه ، نود ان نشير الى ان ابن النديم قد ذكر له كتاباً بعنوان (اللِّين)[٣]، ونظن انه تصحيف (اللَّبن) استناداً الى طبعة (فلوجل) من الفهرست . كما صحف كتابه الاول (تحقيق الهمز) الى تخفيف الهمز في طبعة الفهرست المشار اليها[٤] .

---

(١) الفهرست ٣٣ ومراتب النحويين ١٢ .

(٢) الهمز (مقدمة المحقق) ٣ .

(٣) الفهرست (ط طهران) ٦٠ .

(٤) الفهرست (ط طهران) ٦٠ .

الهمز لابي زيد :

قسم ابو زيد كتابه ابواباً ، تختلف صغراً وكبراً ، فمنها ما يستغرق الاسطر القليلة ومنها ما يستغرق الصفحات القليلة ، ولكنه لم يسم هذه الابواب الستة والعشرين ، وانما يقول في اول كل باب (وتقول في باب من الهمز) او (وتقول في باب آخر من الهمز) ، ودارس مادة الكتاب يجد ان هذا التقسيم جاء بحسب موقع الهمزة من اللفظ ، او بحسب حركة الهمزة نفسها ، او بحسب حركة الحرف الذي قبلها ، فمثلاً باب لما كانت فيه الهمزة اخيرة على الالف : بسَأ ، أبأ ، نكَأ وهكذا(١)، وباب لما كانت فيه الهمزة متوسطة على الواو : بَؤسَ ، رَؤُفَ ، رَؤم وهكذا(٢) الا انه لم يلتزم هذا القيد التزاماً كاملاً فجاءت اغلب ابوابه مضطربة الترتيب في موادها ، بحيث يمكن ان يخرج من هذا الباب ما يدخل في ذاك ، ومن ذلك ما يدخل في هذا ، كما انه لم يراع ترتيباً معيناً لمواده داخل كل باب ، لا على الاحرف الاولى للمادة ولا على الاحرف الاخيرة ، وبالتالي نجد صعوبة في العثور على اللفظة المهموزة في كتابه .

وعلاجه للالفاظ يقوم على ذكر الفعل الذي فيه الهمزة ، وهو في صيغة الماضي ، ثم يذكر مضارعه او لا يذكر ، ثم يذكر المصدر فالمعنى ، وقد يستشهد عليه من الشعر، كقوله مثلاً : « وتقول : جَنَأ الرَّجل يَجْنَأُ جنوءاً على الشيء اذا أكَبَّ عليه . قال الشاعر :

أغاضِرُ لو شهِدتِ غداةَ بِنْتُمْ جُنوءَ العائِداتِ على وِسادي »(٣)

واستطراده الى المعاني الثانوية قليل جداً ، كما في (مَنَأت)(٤) وعزوه الشواهد الشعرية الى اصحابها قليل ايضاً(٥) ، فأغلب هذه الشواهد غير منسوب ، وهي لا

(١) الهمز ٦ .
(٢) نفسه ٧ .
(٣) نفسه ١٧ .
(٤) الهمز ٢٤ .
(٥) نفسه ٢٥ ، ٣٢ .

تتعدى الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين، امثال: زهير بن ابي سلمى ،متمم بن نويرة ، وذي الرمة[1] . وأحياناً يكتفي بشطر من البيت فيه موطن الشاهد[2]. ولا نجد في كل كتابه رواية عن مشايخه اللغويين ، اللهم الارواية واحدة عن ابي المهدي وهو من الرواة الاعراب الذين لقيهم ابو زيد[3] . والتفت الى اللغات واختلافها في معاني الالفاظ ونص على بعض منها[4] . في حين نجد في كتابه الفاظاً نص اللغويون على انصرافها الى معنيين ، وردوا كلا منهما الى لغة بعينها كالقرء التي قالوا انها تعني الطهر عند اهل العراق والحيض عند اهل الحجاز[5] في حين أهمل ذلك ابو زيد في كتابه فقال : « أقْرأتَ المَرأةُ اقراءً فهي مقْرىء اذا حاضت ، والقُرء الحيضة ، وجماعها القُروء[6] » فهي عنده بمعنى واحد هو الحيض لا غير .

ومهما يكن فان كتاب ابي زيد ـ وهو من الكتب الاولى في هذا الفن ـ قد مهد لغيره التأليف فيه ، وممن الف بعد ذلك في نهاية القرن الثالث : احمد بن محمد بن رستم بن يزداد الطبري (معاصر المبرد) وعنوان كتابه : صورة الهمز ، وهو مفقود .

٢ ـ الحروف :

الاصل في الكتب المؤلفة في الحروف ، ان يتناول المؤلف الحروف العربية حرفاً حرفاً ، ويبين خصائصه الصوتية ، منفرداً ومع غيره ، وبذلك يكون الكتاب دراسة لغوية فيها بحث الحروف المهموسة والمجهورة ، والشديدة والرخوة والمطبقة والمنفتحة ، والمستعلية والمنخفضة ، وحروف القلقلة ، ومخارج هذه الحروف واستعمالاتها وما الى ذلك مما يدخل ضمن الدراسة الصوتية ، وخير من يمثل هذا النوع من التأليف ـ وان تأخر عن القرن الثالث ـ احمد بن محمد بن المظفر الرازي (ت ٦٣٠) في كتابه الحروف (مخطوط مصور في معهد المخطوطات عن نسخة مكتبة لالِلي باستانبول رقمه في المعهد ١١٤ لغة) إلاّ أن الذي وصل الينا من كتب الحروف في القرون التي ندرسها لا يمثل ذلك .

---

(١) الهمز ١٩ ، ٢٨ ، ٢٩ .
(٢) نفسه ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ .
(٣) نفسه ٢٩ .
(٤) نفسه ٢٥ ، ٢٩ .
(٥) اضداد الاصمعي ٥ .
(٦) الهمز ٣٢ .

الحروف للخليل :

أول من نسب له كتاب في الحروف الخليل بن احمد الفراهيدي (ت ١٧٥) ، وأقدم من ذكر له هذا الكتاب الرازي المذكور قبل قليل ، ثم الذهبي (ت ٧٤٨) ثم الفيروز ابادي (ت ٨١٧) ثم السيوطي (ت ٩١١) . وعدم ذكره في المصادر القديمة التي ترجمت للخليل وذكرت آثاره هو الذي دفع الدكتور رمضان عبدالتواب محقق الكتاب الى الشك في نسبته الى الخليل[1]، ونحن مع المحقق في هذا الشك، الا اننا نضيف الى سنده سنداً آخر نستخرجه من مادة الكتاب الخيالية ومدى بعدها عن عقلية الخليل المبدعة ، فالكتاب ـ وهو في خمس صفحات ـ يقوم على تصور لا اساس له لمعاني اسماء الحروف ، وذلك بان يذكر الحرف ويذكر ان معناه كذا ، على المثال التالي : « الالف : الرجلُ الحقيرُ الضَّعيف . قال أوس :

هُنالِكَ أنتَ لا الفٌ مهينا

الباء : هو الرجل الكثير الجماع . قال المؤمل :

انبِئْتُ انَّكَ باءٌ حين تَلقاها وفي المعَارِكِ لا تَستَعْمل الباها »[2]

وهكذا حتى يأتي على الحروف جميعاً .

والخليل كما نعرفه مبتكراً عميقاً ـ يقوم درسه على النظر الموضوعي والملاحظة الدقيقة ـ يستبعد ان يضع شيئاً من هذا ، لبعده عن روح الدرس الرصين الذي تميز به . يضاف الى ذلك ان « ابيات الاستشهاد في الكتاب لا توجد في دواوين الشعراء الذين تنسب اليهم ، ولا في اي مكان آخر[3]» . كما ان معاني الحروف غير موجودة في المعجمات اللغوية المتوفرة لدينا ، ولا تشبهها ايضا معاني الحروف لدى الساميين الذين تقترب اسماء الحروف لديهم من معانيها في اللفظ ، او تتحد احياناً . فالباء في العبرية مثلاً تلفظ (بيَت) ومعناها لديهم (بيْت) ايضاً وهو الدار . والراء تلفظ

(١) الحروف (مقدمة المحقق) ٤ .

(٢) الحروف ٢٨ .

(٣) نفسه (مقدمة المحقق) ٥ .

(رَيش) ومعناها (روش) وهو الرأس وهكذا . فاليد التي صنعت هذه الشواهد وافتعلت هذه المعاني هي التي نسبت الكتاب الى الخليل .

والف الكسائي (ت ١٨٩) في هذا الفن كتابين : الحروف ، والهاءات المكنى بها في القرآن ، ثم النضر بن شميل (ت ٢٠٣) ووصل كتاب الأخير وطبع .

الحروف للنضر بن شميل :

حققه لويس شيخو اليسوعي في (البلغة) المطبوعة في المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩١٤ بعنوان (رسالة في الحروف العربية ، منسوبة الى النضر بن الشميل) ولفظة (منسوبة) تشير الى شك الناشر بنسبتها الى المؤلف . وكان المحقق قد نشرها اول مرة في مجلته (المشرق) ج ١٤ ص ٢٦٥ سنة ١٩١١ دون نسبة ، ثم نشرت في مجلة (العلم) البغدادية السنة الثانية/ العدد الثالث ص ١٢٨ ـ ١٣٣ سنة ١٣٢٩ منسوبة الى النضر بن شميل بعنوان (تشريح الحروف على الوجوه اللغوية) ، وبمقدمة قصيرة تقول : « . . رسالة وجيزة نادرة الوجود قديمة الخط والتأليف من مؤلفات العالم النحوي اللغوي النضر بن شميل من قدماء العلماء » ، فاعتمد ناشرها في البلغة على هذه النسبة ونقلها بتحفظ الى نشرته الجديدة على الرغم من تصريحه بعدم عثوره على ذكرها بين مؤلفات النضر في مصادر ترجمته القديمة .

ومهما يكن من امر فان مادة هذه الرسالة تشير الى قدم تأليفها ، اذ لا يبعد ان تكون مؤلفة في عصر النضر ، واذا لم يهدنا البحث الى معرفة مؤلفها الحقيقي ، فاننا نجتزىء منها نصاً نتبين فيه منهج الرسالة . يقول : « الباء على خمسة اوجه : باء الأصل مثل باء كَتَبَ وضرَبَ ، باء الوَصْل كقولك : مرَّ زيدٌ بعمرٍو ، باء البدل عن الميم نحو : سبَّد رأسه معناه سمَّد رأسَه ، باء القسم نحو : بالله ، باء الثَّمن نحو : اشتريت بِدَرهم »[1] ، وكان المؤلف في الاصل قد عدد معاني الحرف واحداً بعد الآخر ثم ذكر الأمثلة ، الا ان المحقق رأى ان يردف بكل معنى مثاله توضيحاً له .

---

(١) البلغة ١٦١

والرسالة على هذا تختلف في نظرتها للحروف عن رسالة الخليل ، ومادتها تميل الى مادة النحو ، فقد تعارف الدرس اللغوي على ان البحث في معاني الحروف على هذا النحو من اختصاص النحو . على اننا لا نعدم ان نجد فيها اشارات الى الابدال كما مر في النص السابق او في مواطن اخرى قليلة[1] . وليس في الرسالة سوى شاهدين شعريين غير منسوبين ، الاول في ابدال الجيم من الياء ، والثاني في ابدال الشين من الكاف . وسوى شاهدين من القرآن ، الاول في كاف التشبيه ، والثاني في لام التوكيد[2] .

ثم ألف الاخفش سعيد بن مسعدة (ت ٢١١) اللامات ، وابو عثمان المازني (ت ٢٤٩) الالف واللام ، وخلف البزاز (من أهل مكة) حروف القرآن ، ونسبت إلى ابن قتيبة (ت ٢٧٦) ارجوزة في الضاد والظاء .

ارجوزة في الضاد والظاء لابن قتيبة :

نشرها الدكتور داود الجلبي الموصلي في مجلة لغة العرب الجزء (٦) السنة (٧) من ص ٤٦١ - ٤٦٣ عن مجموع وجده في مدرسة الحجيات في الموصل ، ولا ذكر لها في مصادر ترجمة ابن قتيبة ، ونشك على هذا وعلى حداثة لغتها في نسبتها اليه ، وهي في خمسة واربعين بيتاً ، ضمنها الفاظ الضاد والظاء المتفقة في اللفظ والمختلفة في المعنى ، فالغَيْض (بالضاد) ما يعرض للماء من النقصان والغَيْظ (بالظاء) هو الغَضَب ، وهكذا ، ولولا تمسك الارجوزة بالضاد والظاء دون غيرهما من الحروف لكانت مادتها اقرب الى المشترك اللغوي ، الا ان العناية فيها منصبة على التفريق بين دلالتي هذين الصوتين في الكلمة . ومن أمثلة ابياتها :

واعلمْ بأنَّ الظَّهرَ ظَهرُ الرَّجلِ	والضَّهرَ أيضاً صخرةٌ في الجَبلِ
والظَّن في الإنسانِ إحدى التُّهم	وهكذا الضَّنُّ البَخيلُ فافْهمِ

ولا تضيف هذه الارجوزة الى اللغة مادة جديدة ، الا ما زعمه الناشر من ان

---

(١) البلغة ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) نفسه ١٦٥ .

لبعض الالفاظ المذكورة فيها كالفيظ والحَنْصل والظّب والمَرَظ والظّد والضّجّة والفِظّة معاني في المعجم تختلف عن المعاني التي اوردها الناظم لها[1] .

وذكر للمبرد (ت ٢٨٥) بعد ذلك كتابان في عنوانها لفظة الحروف الاول (الحروف) ، ونظن انه هو الداخل في هذا الباب من الدراسة ، والثاني (الحروف في معاني القرآن الى طه) وهو في معاني القرآن ، كما يتضح من هذا العنوان وكلاهما لم يصل الينا . اما كتاب (الحروف في اللغة) الذي ذكر في بعض ترجمات ابي عمرو الشيباني (ت ٢٠٦) على انه له ، فما هو الا كتابه (الجيم) المعجم المشهور ، يسمى بالحروف في اللغة ايضاً[2] . وسنأتي الى تفصيل ذلك في الفصل القادم .

٣ ـ الوقف والابتداء :

وهو من العلوم الصوتية المتصلة بالقراءة الشريفة ايضاً . وقد عني بالتأليف فيه اللغويون منذ عصر مبكر ، فكان ابو جعفر الرواسي (ت ١٨٧) أول من الف فيه كتابين كبيراً وصغيراً ، ثم الفراء (ت ٢٠٧) ، وابو عبد الرحمن عبدالله بن ابي محمد اليزيدي (تلميذ الفراء) ، وابو العباس ثعلب (ت ٢٩١) وابو الحسن ابن كيسان (ت ٢٩٩) وكتبهم جميعاً مفقودة .

٤ ـ الأصوات :

بهذا العنوان الف اللغويون ايضاً كتباً مستقلة ، لا نستطيع ان نقطع ـ وكلها مفقود ـ بشيء عن طبيعة المادة اللغوية التي ضمتها هذه الكتب ، غير اننا نرجح ان تكون في علم الاصوات ، على اننا نحتمل ان يكون بعضها بعيداً عن هذا الميدان ، اذ يمكننا تصور أحدها وهو يدور حول أصوات الحيوانات والاشياء والطبيعة وما وضع في اللغة لكل منها من لفظ .

---

(١) مجلة لغة العرب ٦/ ٤٦١ .

(٢) انباه الرواة ١/ ٢٢٤ ، ٢٢٧ .

وأول من ألف كتاباً بهذا العنوان : قطرب (ت ٢٠٦) ، ثم الاخفش (ت ٢١١) ، والاصمعي (ت ٢١٣) ، وابن السكيت (ت ٢٤٤) ، وابن ابي الدنيا (ت ٢٨١) . اما ابو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥) فكتابه يحمل عنواناً صريحاً في دلالته على مادته اللغوية الصوتية وهو (الادغام) ، وبحث ظاهرة الادغام في اللغة يدخل ضمن الدراسة الصوتية في كلا المنهجين القديم والحديث .

* * *

كتب الحيوان

كثرت مؤلفات اللغويين في الحيوان كثرة هائلة ، وتناولوا منذ عصر مبكر جداً انواعه المختلفة بالدرس والشرح لكل ما يتصل بها من صفات وأسماء وخصائص ، حتى كان ما وضعوه في الحيوان يفوق ما وضعوه في سائر الموضوعات المفردة الاخرى ، واذا كان الاغلب الاعم من هذه الكتب يعالج نوعاً معيناً من أنواع الحيوان كالكتب الموضوعة للحشرات ، او الموضوعة للطير ، او الابل او الغنم ، وأشباه ذلك ، فانهم وضعوا ايضاً موسوعات تناولوا فيها أكثر هذه الإنواع ، وهي التي اطلقوا عليها اسم الحيوان ، ككتاب الحيوان لابي عبيدة (ت ٢١٠ هـ)[1] . وكتاب الحيوان للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) . واذا لم يصل الينا الاول ، فقد وصل الثاني ونشره محققاً الاستاذ عبدالسلام هارون في القاهرة أول مرة سنة ١٣٥٧ هـ ، وأعاد نشره سنة ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م .

ويبدو ان العرب سُبقوا الى مثل هذه الكتب الجامعة في الحيوان ، سبقهم اليها علماء اليونان ، ذكر حاجي خليفة : « منها كتاب الحيوان لديمقراطيس ، ذكر فيه طباعه ومنافعه ، وكتاب الحيوان لارسطاليس ، تسع عشرة مقالة ، نقله ابن البطريق من اليوناني الى العربي . . ولارسطو ايضاً كتاب في نعت الحيوان الغير الناطق [كذا] ، وما فيه من المنافع والمضار[2] » . وأكبر الظن ان هذه الكتب لم

---

(١) الفهرست ٥٩ .

(٢) كشف الظنون ١/ ٤٥٦ .

تكن تولي الجانب اللغوي عناية كبيرة ، وانما تناولت الحيوان من جانبه العلمي الذي يتصل بالدراسة الطبيعية ، ولم نجد ـ غير الجاحظ ـ من اللغويين العرب ممن وصلت الينا مؤلفاتهم الحيوانية ، من يشير كتابه الى وقوفه على بعض تلك الآثار اليونانية المعربة . اما الجاحظ فانه يصرح في مواضع متعددة من كتابه بالنقل عن كتاب الحيوان لأرسطو ، ساكتاً عما ينقله مرة ، ومناقشاً أخرى ، ومعتذراً عنه بسوء الترجمة ثالثة[1] .

الحيوان للجاحظ :

يتضح من دراسة حيوان الجاحظ ، انه عني بالجوانب الطبيعية في دراسة الحيوان اكثر من الجانب اللغوي الذي تميزت به كتب الحيوان الأخرى ، ولعله تأثر في هذا كتاب ارسطو ، كما عني كثيراً بالقصص المتصلة بالحيوان وأخبار العرب وأشعارهم وما قالوه فيه[2] ، على انه لم يهمل الناحية اللغوية اهمالاً كاملاً ، فكثيراً ما يعرض للالفاظ بالشرح والتفسير والاستشهاد[3] . والكتاب يدل على سعة ثقافة الجاحظ ، اذ شمل النواحي العلمية والادبية اولاً . واللغوية ثانياً ، وأشبه في احتوائه على انواع الحيوان التي افردها اللغويون برسائل مستقلة ، معجمات المعاني التي ضمت مختلف الموضوعات التي افردت برسائل ايضاً .

١ ـ الحشرات :

ويشمل هذا اللفظ عند القدماء الحشرات بالمصطلح المعاصر وأكثر الزواحف والدواب ، بل أطلقوه أحياناً على الصيد مطلقاً كبر ام صغر ، وهذا واضح من النص الذي نقله ابن سيده عن ابي خيرة يعرف فيه بالحشرات[4] ، وأول من أفرد هذا الفن في كتاب هو ابو خيرة نهشل بن زيد الاعرابي (استاذ ابي عمرو بن العلاء) وقد

---

(١) الحيوان ١/ ١٨٥ ، ٢/ ٥٢ ، ٥/ ٥٠٢ ، ٦/ ١٩ ، ٧/ ٢٢٨ .

(٢) الحيوان ٧/ ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٣) نفسه ٣/ ٦٧ ، ٥/ ٥٠٢ ، ٦/ ١٤٨ ، ٧/ ١٧٧ .

(٤) المخصص ٨/ ٩١ .

روى عنه تلميذه المذكور كتابه الحشرات ، ثم الف ابو عمرو الشيباني (ت ٢٠٦) كتاب النحل والعسل ، وابو عبيدة (ت ٢١٠) كتابي الحيات ، والعقارب ، والاصمعي (ت ٢١٣) كتاب النحل والعسل ، وعلي بن عبيدة الريحاني (عهد المأمون ١٩٨ ـ ٢١٨) كتاب النحلة والبعوضة اوالنمل والبعوض[1] ، وابن الاعرابي (٢٣١) كتاب الذباب ، وابو نصر احمد بن حاتم (ت ٢٣١) كتاب الجراد ، وابن السكيت (٢٤٤) كتاب الحشرات ، وابو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥) كتبه الثلاثة : الحشرات ، والجراد ، والنحل والعسل ، وهشام بن ابراهيم الكرنبائي (تلميذ الاصمعي) كتاب الحشرات ، وابو بكر محمد بن اسحاق الاهوازي كتاب النحل واجناسه ، ولم يصل الينا اي من هذه الكتب . الا ان الفصول المعقودة لهذا الفن في الموسوعات المعجمية كالغريب المصنف والمخصص وغيرهما تشير الى ان المادة كانت تدور حول انواع هذه الحشرات واصواتها وبيوتها وعضها والوانها وما يتصل بذلك من أمور[2] .

٢ ـ الطير :

وقد خص اللغويون الطير بتأليف مستقل ، يتناولون فيه هذا الحيوان من الجوانب التي تناولوا فيها الحشرات ، وأول هؤلاء ابو عبيدة (ت ٢١٠) بكتابه الحمام ، ثم ابو نصر احمد بن حاتم (ت ٢٣١) بكتابه الطير ، وابن السكيت (٢٤٤) بكتابه منطق الطير ، وابو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥) بكتابه الطير ، ولم تصل الينا هذه الكتب جميعاً .

٣ ـ الابل والغنم :

وشملت عناية اللغويين الابل والغنم فأكثروا التأليف فيهما ووضعوا كتبهم يتحدثون فيها عن اعضائها واعمارها ونتاجها وادوائها وفوائدها وما الى ذلك مما يشعر باهتمامهم الفائق فيهما ، وليس ذلك بمستغرب ، اذ نعرف حق المعرفة ما كان لهذين

---

(١) الفهرست ١٣٣ .

(٢) المخصص : السفر ٨ .

الحيوانين من اثر في حياة اجدادنا العرب . وأول من ألف في ذلك ابو عمرو الشيباني (ت ٢٠٦) كتاب الابل ، ثم ابو عبيدة (ت ٢١٠) كتاب الابل ، والاخفش الاوسط (ت ٢١١) صفات الغنم والوانها وعلاجها واسنانها ، والاصمعي (ت ٢١٣) كتابي الابل ، والشاء ، وقد وصلا الينا .

ثم الف ابو زياد الكلابي (ت ٢١٥) كتاب الابل ، وابو زيد الانصاري (ت ٢١٥) كتبه الثلاثة : الابل والشاء ، ونعت الغنم ، والمعزى ، ونصر بن يوسف (تلميذ الكسائي) كتاب الابل ، وابو نصر احمد بن حاتم (ت ٢٣١) كتاب الابل ، وابن السكيت (ت ٢٤٤) الابل ، وابو حاتم السجستاني (٢٥٥) الابل ، واما كتاب (الجمل) لابي عبدالله محمد بن خالد البرقي فليس كتاباً مستقلاً ، وانما هو فصل من كتابه المحاسن[1] . وكذلك كتاب النعم والبهائم والوحش المنسوب لابن قتيبة (ت ٢٧٦) الذي نشره موريس بوج ببيروت سنة ١٩٠٨شاكاً في نسبته الى ابن قتيبة ومرجحاً نسبته الى ابي عبيدالقاسم بن سلام، فما هو الا الباب الخاص بهذا الفن في الغريب المصنف بعد حذف الشواهد واسماء الرواة من الاعراب واللغويين[2] . وسنأتي الى الكلام عليه في الفصل القادم .

وقد وهم ابن قاضي شهبة فعد لابن قتيبة كتاباً مستقلاً في (الابل)[3] ، وما هو الا جزء من كتابه المعاني الكبير[4] . وسنأتي اليه في الفصل القادم أيضاً .

كتاب الابل للاصمعي :

اما كتاب (الابل) **للاصمعي** فقد نشره محققاً المستشرق اوغست هفنر في (الكنز اللغوي) ببيروت سنة ١٩٠٣ ، بعد ان وصلت الينا روايتان مختلفتان له ، وقد احسن المحقق صنعاً بنشر الروايتين كلا على حدة ، ليضع امر اختلافهما بين يدي الدارسين . ولا غرابة في ورود روايتين مختلفتين لكتاب واحد للاصمعي ، فقد

---

(١) الفهرست ٢٧٧ .

(٢) المعجم العربي ١/ ١٢٥ .

(٣) طبقات ابن قاضي شهبة ٣٤٦ .

(٤) غريب الحديث ١/ ١٢٨ .

عرف عنه انه كان يملي بعض كتبه بشكل يخالف املاءه السابق للكتاب نفسه[1] . المهم ان احدى النسختين لا تحمل سند روايتها ، بل تبدأ بعبارة (قال ابو سعيد عبدالملك بن قريب الاصمعي . .) اما الاخرى فهي تبدأ بسند الرواية ، وذلك انها : « رواية ابي عبدالله محمد بن العباس اليزيدي عن ابن اخي الاصمعي ، مما رواه لنا الشيخ ابو الحسين المبارك بن عبدالجبار بن احمد الصيرفي عن ابي علي الحسن بن محمد بن موسى المقرى المعروف بالشاموخي عن ابي القاسم عمر بن محمد بن سيف عن ابي عبدالله اليزيدي (سماع)[2] لموهوب بن احمد بن محمد بن الخضر الجواليقي نفع به[3] » .

وتكاد النسختان او الروايتان تتفقان في المادة الاصلية للكتاب ، وتتشابهان في طريقة العرض والاستشهاد ، واوضح اختلافاتهما ما كان في تقديم بعض الابواب وتأخيرها ، ففي النسخة الاولى رتبت الابواب هكذا : ومما يذكر به غزارة الابل ، ما يذكر به البكء ، ومما يذكر من اسماء الابل ، ومما يذكر من ادواء الابل ، ومما يذكر من سير الابل ، ومما يذكر من الوان الابل . . . . . الخ اما ترتيب هذه الابواب في الرواية الثانية فهكذا : ومن سير الابل ، الوان الابل ،أسماء الاظماء ، ادواء الابل ، اسماء عدد الابل . فنرى ان الترتيب مختلف غير ان المادة واحدة مقدمة او مؤخرة ، سوى ما نجد من ورود عنوان باب او بابين في احدى النسختين غير موجود في النسخة الاخرى ، على ان مادة هذه الابواب موجودة في كلتا النسختين ، مندرجة تحت باب آخر ، او متروكة بلا عنوان .

والمواد في كل باب من هذه الابواب غير مرتبة ترتيباً معيناً كالابواب نفسها ، ففي باب ادواء الابل مثلاً نجد انه يبدأ بـ (المَغْلة) فـ (الحَقْلة) فـ (الرِّمْث) فـ (الحَبَج) . . الخ . . ومثال معالجته المواد قوله : « ومن ادوائها الشُّك يقال بعير شاكٌ وقد شكَّ يشكُّ شكاً ، اي به شيء من شكٍّ ، ومن ادوائها الطُّنى وهو ان تلزق

(١) شرح حماسة ابي تمام ٦٧ .

(٢) ساقطة من الاصل والسياق يستدعيها مقيسة على نص السند في كتاب (الشاء) الآتي .

(٣) الكنز اللغوي ١٣٧ .

الرئةُ بالجَنْب يقال طَنِيَ البعيرُ يَطْنى طَنىً شديداً ، قال وانشدنا للحارث بن مصرِّف :

أكويه إمّا أراد الكـيَّ مُعترضـا   كيَّ المُطَنّـى من النَّحْز الطنـى الطّحِلا

والمُطَنّى البعيرُ اذا دُووِيَ من الطَّنى . . .[1] » .

ونجد انه يعنى بذكر صيغ الفعل ومشتقاته ، ويستعين بالشرح والتفسير لما يراه اهلا لذلك ، ولا يغفل الاستشهاد حين يجد ضرورته ، ذلك انه تركه في كثير من مواد كتابه ، والغالب الاعظم من شواهده كانت من الشعر والرجز ، كما يعرج احياناً بعد ذكر الشاهد الى التعليق على لفظة فيه او شرح معناها أو ايجاز معنى البيت او الشطر بعبارة مختصرة واضحة ، كقوله مثلاً : « وقال آخر : داءٌ بهم غَمْـرٌ من الأفعالِ .أي بهم حسد[2] » . والكثير من شواهده الشعرية والارجاز غير منسوب ، وهو لم يتعد في زمن هذه الشواهد عصر بني امية ، سائراً في ذلك على منهج معاصريه من اللغويين والنحاة .

كتاب الشاء للاصمعي :

وأما كتابه الثاني (الشّاء) فقد نشره المحقق نفسه واعني به المستشرق هفنر في فينا سنة ١٨٩٦ م . وأول ما يطالعنا في الكتاب سند روايته ، فهو « رواية ابي علي الحسن بن احمد بن عبدالغفار الفارسي النحوي عن ابي بكر محمد بن السري السراج عن ابي سعيد الحسن بن الحسين السكري عن ابي اسحاق الزيادي عن الاصمعي ،مما رواه لنا الشيخ ابو الحسين المبارك بن عبد الجبار بن احمد الصيرفي (راوي كتاب الابل السابق) عن ابي الحسن احمد بن محمد بن احمد بن احمد بن محمد ابن عبدوس بن كامل السراج عن ابي علي الفارسي ، سماع لموهوب بن احمد بن محمد ابن الخضر بن الحسن بن محمد الجواليقي نفع به [3] » ولو جزنا الرسالة الى آخرها نجد

---

(١) الكنز اللغوي ١٥٣ .

(٢) نفسه ١٥٣ .

(٣) الشاء ٤ .

انها مذيلة بذكر سماعات كثيرة للغويين ومعارضات بنسخ لآخرين ، يتأخر بعضها الى اواسط القرن السادس [1] والرسالة على اختصارها ـ إذ لا تتجاوز بضع صفحات ـ اتت على جميع ما يذكر في حمل الشاء وولادتها وصفاتها وحليبها وامراضها وعيوبها وما يتصل بذلك ، بطريقة تشبه كثيراً طريقة المؤلف في كتابه (الابل) ، الا انه ترك التبويب في هذا الكتاب ، فلم يقسم المادة على الموضوعات كما فعل هناك ، بل ترك كلامه مرسلاً متصلاً ، يتنقل فيه من موضوع الى آخر دون فاصل .

وأعفى نفسه من ذكر مصادر علمه في هذا الفن فلم ينص على استاذ بعينه اللهمّ الا نصه على سؤاله بعض الاعراب دون ان يسميهم عن بعض الامور ، كقوله : « قلت لاعرابي : ما آيةُ حَمْل الشّاة ؟ قال : أن تَدْجو شعْرتُها وتسْتفيضَ خاصرَتُها ، ويَحْشُفَ حياؤها . تستفيض تنتفخُ لتبين . وتدْجو تحسُنُ وتَصْفو . . [2] » ونقف في هذا النص على ما وقفنا عليه من قبل من منهج الاصمعي في شرح غريب الالفاظ الواردة في النصوص ، وان خرج به هذا الصنيع عن كلامه الذي هو فيه . كما ان عنايته بذكر صيغ الافعال واشتقاقاتها وما يتصل بها من لغات واضحة في هذا الكتيب ، يقول مثلاً : « فاذا كان لبنُها قليلاً قيل قد بكأَتْ تبكأ وبكُؤت تبكُؤ وهي شاة بكيٌّ ، والصَّمردُ والدَّهينُ مثلُ البكيّ من الابل والغنم ، قال القُلاخُ :

هـاجَ وليـسَ هيـجُه بمُؤْتَمَـنْ ... على صَمارِيـد كأمثـالِ الجُؤَنْ

وقال آخر :

لهـا أحـورٌ أحـوى متـى يدعُ تأتِه ... جـوادٌ بِسَيِّء الحـالبَيـن دَهينُ» [3]

فنجد انه لم يستشهد هنا على مادة (بكَأَتْ) التي هو في صدد ذكرها وانما

---

(1) الشاء ١٨ ـ ١٩ .

(2) نفسه ٦ .

(3) الشاء ٩ ـ ١٠ .

استشهد على ما جاء به مرادفاً لمعناها وهو (صَمَاريد) في الشاهد الاول و (دَمِين) في الشاهد الثاني .

وشواهده على العموم قليلة في هذا الكتاب اذا قيست بشواهده في (الابل) مثلا ، واغلبها من الشعر والرجز ، وبعضها غير منسوب الى اصحابه ، اما نصه على نسبة اللغات فيكاد يكون معدوماً ، الا في موضعين او ثلاثة ، منها قوله : « قال والعمروس الحمل بلغة أهل الشام[1] » . ومهما يكن من شأن هذا الكتاب فان قيمته في كونه الكتاب الوحيد الذي بقي لنا من مجموع ما وضع في وصف الغنم .

٤ ـ الخيل :

ويدخل في هذا الفن الكتب المؤلفة في أسماء الخيل وأنسابها وحفيرها ورهانها والفرس وخلقه ، وقد اكثر العرب من التأليف في هذا المجال ، لما للخيل من أهمية بالغة في حياتهم ، ولما كان لهم من عناية خاصة بها ، فاقت عنايتهم بانفسهم . واول من الف في الخيل ابو مالك عمرو بن كركرة (استاذ الخليل) ، ثم ابو عمرو كلثوم ابن عمرو بن ايوب العتابي (عهد الرشيد) ، وابو المنذر هشام بن محمد الكلبي (ت ٢٠٤) انساب الخيل ، وابو عمرو الشيباني (ت ٢٠٦) ، وقطرب (ت ٢٠٦) خلق الفرس ، وابو عبيدة (ت ٢١٠) ثلاثة كتب هي الخيل ، واسماء الخيل ، وحفير الخيل ، والاصمعي (ت ٢١٣) كتابين هما الخيل ، وخلق الفرس ، وعلي بن عبيدة الريحاني (ت ٢١٩) صفة الفرس ، والمدائني (ت ٢٢٥) الخيل والرهان ، ومحمد بن عبدالله العتبي (ت ٢٢٨) ، وابن الاعرابي (ت ٢٣١) اسماء خيل العرب وفرسانها ، وابو نصر احمد بن حاتم (ت ٢٣١) ، وعمرو بن ابي عمرو الشيباني (ت ٢٣١) ، والتوزي (ت ٢٣٣) ، وهشام بن ابراهيم الكرنبائي (تلميذ الاصمعي) ، ومحمد بن حبيب (ت ٢٤٥) ، وابو محلم الشيباني (ت ٢٤٥) ، وابو ثروان العكلي : خلق الفرس ، وابو عكرمة عامر بن عمران الضبي (ت ٢٥٠) ، وابو الفضل العباس بن الفرج الرياشي (ت

(١) الشاء ١٨ .

٢٥٧) ، وابو محمد ثابت بن ابي ثابت (تلميذ ابي عبيد) ، وابن قتيبة (ت ٢٧٦ كتابين هما الخيل ،والفرس .واحمد بن ابي طاهر (ت ٢٨٠) .

اما كتاب (الخيل) المنسوب الى ابي عبدالله محمد بن الحسن (ت ١٨٩) في الطبعة الطهرانية من الفهرست لابن النديم[١] ، فما هو الا كتاب (الحيل) وقد صحف في تلك النسخة ، وقد ورد صحيحاً في نسخة (فلوجل)[٢] ، واثبت محقق الطهرانية ما ورد عند فلوجل في هامش نسخته مرجحاً عليه ما ورد في الاصل المصحف الذي بين يديه . ولو كلف المحقق نفسه معرفة اختصاص الرجل لأدرك بعده عن اللغة وانه فقيه مترجم مع الفقهاء ، فمن مؤلفاته : الكفالة ، الاقرار ، الدعوى ، البينات ، الحيل . . . الى آخر ما هناك من فنون الفقه واصوله وأحكامه ، فيكون كتابه في الحيل منسجماً مع سائر كتبه في الاختصاص . واما كتاب الخيل المنسوب الى النضر بن شميل (ت ٢٠٣) على انه كتاب مستقل في هذا الفن[٣]، فما هو الا باب من ابواب الجزء الخامس من كتابه الكبير(الصفات)[٤] . وعلى اية حال فان الذي وصل الينا من كتب هذا الفن لا يتجاوز الاربعة ، وهو عدد قليل بالنسبة لكثرتها ، وهي كتاب (انساب الخيل) للكلبي ، و (الخيل) لابي عبيدة ، و (الخيل) للاصمعي ، و (أسماء خيل العرب وفرسانها) لابن الاعرابي .

انساب الخيل للكلبي :

كتاب أنساب الخيل للكلبي مطبوع بتحقيق احمد زكي باشا في القاهرة بمطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٦ م ، وهو يبدأ بسند الرواية ، يقول ابو منصور موهوب ابن احمد الجواليقي : « إخبرنا ابو الحسين محمد بن عبدالواحد بن رزمة البزار ، اجازة ، قال : حدثنا ابو محمد علي بن عبدالله بن العباس بن العباس بن المغيرة

(١) الفهرست (طهران) ٢٥٧ .
(٢) نفسه (فلوجل) ٢٠٤ .
(٣) المعجم العربي ١/ ١٢٦ .
(٤) الفهرست (فلوجل) ٥٢ .

الشيباني الجوهري ، قال : حدثنا ابو الحسن الاسدي قال : حدثنا محمد بن صالح ابن النطاح ، قال : أخبرنا هشام بن محمد السائب عن ابيه ، قال : هذا كتاب نسب فحول الخيل في الجاهلية والاسلام»[1]. فالجواليقي سمع الكتاب وسمعه آخرون وقرأه غيرهم ، وكل هذه القراءات مدونة في آخر النسخة المحققة ، وتاريخ تدوينها سنة (٤٥٠ هـ)[2] .

وينصب اهتمام المؤلف في الكتاب على الاخبار المتعلقة بفضل الخيل وفضل ارتباطها وركوبها ، والاحاديث الشريفة الواردة في ذلك ، وعلى انساب هذه الخيل ، والقبائل التي اختصت بالمشهور منها ، وأسماء الخيل المشهورة وفي مقدمتها خيل النبي ﴿ص﴾ وما الى ذلك مما يدخل في البحث التاريخي البحت البعيد عن الميدان اللغوي .

والكتاب غير مبوب ولا مرتب ترتيباً معيناً ، اللهم الا ملامح من التسلسل التاريخي في الكلام على فحول الخيل ، فبعد ان يشبع الصفحات الاولى من الكتاب بذكر فضل الخيل بما يورده من أحاديث عن الرسول في ذلك ينتقل الى ذكر ابتداء العرب بانتاج الجياد من الخيل ، يقول : « فقال الازديون : ما لفرسنا هذا اسم الا (زاد الراكب) فكان ذلك اول فرس انتشر في العرب من تلك الخيل . فلما سمعت بنو تغلب ، اتوهم فاستطرقوهم ، فنتج لهم من زاد الراكب (الهُجَيّس) فكان أجود من زاد الراكب . فلما سمعت بكر بن وائل ، أتوهم فاستطرقوهم ، فنتجوا من الهجيس (الدّيناريّ) فكان اجود من الهُجَيّس[3] . . » وهكذا يسير به الموضوع حتى يقف عند خيول رسول الله ﴿ص﴾ فيسميها ويتحدث عنها ، لينتقل بعدها الى الكلام على المشهور من الخيول لدى القبائل ، فيعددها واحداً واحداً ويذكر بعد كل منها اسم القبيلة المالكة ، حتى يقترب من نهاية الكتاب ، فيختمه بذكر أسماء الخيول الجياد لدى العرب في الجاهلية والاسلام التي ذكرت في تضاعيف كتابه ، فيكون كأنه (الملخص) الملحق بالكتاب ، ويسمي في هذا الملخص مائة وسبعة

---

(١) انساب الخيل ٥ ـ ٦ .
(٢) نفسه ١٣٤ ـ ١٣٦ .
(٣) نساب الخيل ١٤ ـ ١٥ .

وخمسين فرسا سوى أفراس رسول الله وهي خمسة .

والكتاب مشحون بالشعر ، فهو لا يكاد يذكر اسم فرس او قبيلة او ما يتصل بذلك من نسبه وشهرته الا انشد ما يتيسر من الشعر الجاهلي والاسلامي منسوباً وغير منسوب ، وهو يوثق بذلك مادته ، بل يصرح بهذا المعنى فيقول : «الخيل المشهورة المعروفة المنسوبة وخيول العرب ، لا يختلفون في ذلك . ووجدنا في اشعار العرب دلالات على ما قالوا»[1] . فهو يعتمد على الشعر ويحكمه على صحة ما يقال في شهرة الخيل ونسبها ، فهو من مصادر المؤلف المهمة ، اضافة الى ما يرويه من أخبارها عن المحدثين والمفسرين امثال ابن عباس[2] ، والواقدي[3] ، وابي يوسف ، والاوزاعي[4] ، وغيرهم . فالكتاب ـ بهذه المادة وهذا المنهج ـ من كتب التاريخ والادب لا من كتب اللغة ، وقيمته اللغوية لا تذكر .

الخيل لأبي عبيدة :

أما كتاب ابي عبيدة الذي وقف على طبعه المستشرق كرنكو في حيدر آباد في الهند ١٣٥٨ هـ فهو يمثل نمطاً آخر من التأليف في الخيل، ويعد تطوراً في تناول هذا الموضوع ، ويتضح هذا التطور في سعة المادة ، ومحاولة الترتيب ، والعناية البارزة في اللغة . رواه ابو يوسف الاصبهاني عن ابي حاتم السجستاني عن ابي عبيدة مؤلفه[5] ، وقد بدأه أبو عبيدة بمثل ما بدأ به الكلبي كتابه ، بمقدمة يذكر فيها فضل الخيل والاخبار الواردة فيها ، واهميتها ، مستعيناً بما ورد في القرآن الكريم واحاديث الرسول واشعار العرب مما يؤيد ذلك .

وقسم ابو عبيدة كتابه ابواباً ، بعضها غير مسماة ، فبدأ برأس الفرس يصفه عضواً عضواً ، وانتقل الى صدره وكتفيه وانتهى بالارجل والظهر ، ثم انتقل الى ما

---

(١) أنساب الخيل ٢٠ .
(٢) نفسه ٢١ .
(٣) نفسه ١٨ .
(٤) نفسه ١٠ .
(٥) خيل ابي عبيدة ٢ .

سماه بـ (باب آخر) تكلم فيه على الكلكل والجوانح والمركل ، مما يشعر بأنه لم يلتزم ترتيباً معيناً في وصف جسد الفرس . ثم تحدث عن فحول الخيل واناثها واولادها ، وعن اسماء الطير في الفرس ،ودعاء الخيل ، وعيوبها ، وجودة خلقها ، وصفة عتقها ، وما يخالف الذكر فيه الانثى ، واسمائها ، وما يستحب منها ، والوانها ، وشياتها ، وصفاتها ، وقيامها ومشيها ، ونشاطها ، واصواتها ، وختم الكتاب بما (قالت العرب في اشعارها من صفة الخيل)[1] . الا انه يلاحظ على ابوابه شيء من الاضطراب وذلك لتكراره الكلام على الموضوع نفسه في أكثر من باب . او تقسيم الموضوع الواحد على اكثر من باب[2] . وتختلف هذه الابواب قصراً وطولاً ، فمن الاسطر القليلة الى الصفحات الكثيرة . وهو في اثناء ذلك يستشهد بالشعر والرجز ، فيكثر منه أحياناً ، ويعتدل احياناً اخرى ، ويترك الاستشهاد تركاً في مواضع اخرى قد تستغرق عدة صفحات ، فلم يلزم نفسه ـ مرة اخرى ـ بمنهج معين في الاستشهاد ، ولا يعلق على الشاهد اي تعليق ، فلا يفسر فيه لفظة ، ولا يوجز معناه ، ولا يستطرد لاستشهاد آخر غير متعلق بالمادة المذكورة تعلقاً مباشراً الا في مواطن قليلة جداً[3] ، وأغلب هذه الشواهد الشعرية منسوب لقائليها ، من الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين[4] . واسلوبه في ذلك كله اسلوب اللغوي الممسك بزمام مادته يصرفها انّى شاء ، يقول مثلاً في باب ما تستحب العرب في الخيل : « تستحب ان تكون ناصية الفرس شديدة السواد ، وتستحب لينها ولين شكيرها وطمأنينة عصفورها . والشكير ما أطاف بمنبت ناصيته من الزغب ، والعصفور منبت الناصية وذلك كله للحسن إلاّ لين ناصيته ولين شكيرها ، فان ذلك مما يستدل به على عتقه ، وهو ابين شاهد في الفرس على عتقه ، يجده اللامس تحت يديه كأنه السخام من لينه ، فان وجد فيه خشونة فانه لم يسلم من هجنة شائنة من العروق من غير العراب ، وكُره المَعْرُ في الفَرس والزَّعر والسَّفي والسَّعف في الناصية للقبح ، قال ابن مقبل العَجْلاني :

---

(١) خيل ابي عبيدة ١٣٦ ـ ١٧٣ .

(٢) نفسه ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ١٣١ .

(٣) نفسه ٦٩ .

(٤) نفسه ٣٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٧ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ٨٩ .

ذرعـتُ به العَيـنَ مستوزيـاً شـكير جَحـافِلِـه قـد كَتَن

كَتَن أي لَزج ، وقال ايضاً :

كأنَّ نقـاعـةَ خَطميـةٍ على حدّ مِرسَـنِـه إذْ رَسَن»[1]

وعلى هذا المنهج سار كتاب ابي عبيدة الذي قدم مادة غنية افاد منها كل من الف في الخيل بعده .

الخيل للأصمعي :

وجاء كتاب الخيل للاصمعي الذي نشره المستشرق اوجست هفنر في مجلة (SBWA) فيناج ١٣٢ × سنة ١٨٨٨ ثم أعاد طبعه في بيروت سنة ١٨٩٥ . ثم حققه الدكتور نوري حمودي القيسي ونشره في مجلة كلية الآداب بغداد ع ١٢ سنة ١٩٦٩ م . بأكثر من رواية ، اهمها رواية ابي علي الفارسي عن ابي عبدالله اليزيدي عن عبدالرحمن بن اخي الاصمعي عن عمه[2] ، وقرأ الكتاب جماعة وسمعه آخرون كلهم علماء ، عرف بهم المحقق[3] . ولم يقدم الاصمعي لكتابه كما فعل سابقاه الكلبي وابو عبيدة ، وانما بدأ بقوله : « كل ذات حافر : أجودُ وقتِ الحَمل عليها بعد نَتاجِها بسبعة أيام ، وحينئذ تكون فَريشاً ، والجِماع الفَرائش . قال ذو الرمة :

باتَـتْ يقحمـها ذو أزمَـلٍ وسَقَـتْ لـه الفرائشُ والسُـلـب القَياديدُ

ويقال لها اذا ارادت الفحل : قد استودقت ، وهي وديق . .[4] » فهو هنا يتكلم على وقت حملها ونتاجها ، ثم يتكلم على ولادتها ، وحال المهور وسن فطامها ، ثم يتحدث عن بعض صفات الفرس وصفات اعضائها ، وهو أطول حديث او فصل في الكتاب ، ذلك انه لم يترك عضواً من أعضاء الخيل دون ذكر .

---

(١) خيل ابي عبيدة ٦٨ - ٦٩ .

(٢) مجلة كلية الآداب ١٢/ ٣٤٩ .

(٣) نفسه ١٢/ ٣٥٠ .

(٤) مجلة كلية الآداب ١٢/ ٣٥١ .

ثم يعقد فصلاً لما (يستحب في الخيل)[1] ، و آخر لما (يكره من الخيل)[2] ، وثالثاً لموضوع (العيوب في الحافر)[3]، وفصلاً سماه (صفة مشي الخيل وعدوها)[4] ، وفصلاً (لألوان الخيل)[5] ، وفصلاً بعنوان (ومن الشيات)[6] ويختم كتابه بفصل طويل عن (الخيل المشهورة)[7] ، تحدث فيه عن أشهر خيول العرب في الجاهلية والاسلام واسمائها واخبارها واخبار فرسانها .

وكتاب الاصمعي - كما نستشف من دراسته - كتاب عني بالجانب اللغوي اكثر من عناية ابي عبيدة بهذا الجانب ، فان كتاب الاخير كما مر من دراسته مال الى الادب وذكر الاشعار والاخبار والروايات الى جانب ميله الى اللغة ، ولهذا جاء كتاب الاصمعي صغيراً بالنسبة لكتاب ابي عبيدة اذ لا يتجاوز ربعه او ثلثه . وعلى الرغم من تماثل المادة اللغوية في الكتابين ، فالاختلاف واضح في منهج الاستشهاد وذكر الاشعار ، اذ ان الاصمعي لم يعن بالشعر الا حين يستشهد فكان قليلاً منظماً .

ويستشف كذلك من دراسة الكتاب ان الاصمعي اعتمد على معرفة دقيقة باحوال الخيل وصفات خلقها الى جانب حفظه للغة ، في حين لا تتضح هذه الخصيصة لدى ابي عبيدة ، بل على العكس فان الدارس يقف في كتابه امام راوٍ جمع من العرب مادة كتابه دون ان يكون له علم بحقيقة معانيها ومسمياتها . يدل على ما ذهبنا اليه الخبر المروي عن الاصمعي ، اذ يقول : « دخلت انا وابو عبيدة على الفضل بن الربيع فقال يا اصمعي :كم كتابك في الخيل؟فقلت: جلد، قال: فسأل ابا عبيدة فقال : خمسون جلداً. فأمر باحضار الكتابين واحضار فرس، فقال لابي

(١) مجلة كلية الآداب ١٢/ ٣٦٧ .
(٢) نفسه ١٢/ ٣٧٠ .
(٣) نفسه ١٢/ ٣٧٢ .
(٤) نفسه ١٢/ ٣٧٣ .
(٥) نفسه ١٢/ ٣٧٥ .
(٦) نفسه ١٢/ ٣٧٧ .
(٧) نفسه ١٢/ ٣٧٩ .

عبيدة : اقرأ كتابك حرفا حرفا وضع يدك على موضع موضع من الفرس، فقال ابو عبيدة : لست بيطارا ، وانما هذا شيء اخذته وسمعته من العرب ، فقال : قم يا اصمعي فضع يدك على موضع موضع من الفرس . فوثبت فأخذت بأذني الفرس ووضعت يدي على ناصيته فجعلت اقول : هذا اسمه كذا ، حتى بلغت حافره فأمر لي بالفرس »[1] .

وقد روى الاصمعي في كتابه عن كبار اللغويين والاعراب الفصحاء : « حدثني حبيب بن شوذب ، وكان من أهل نجد ، وكان ينزل ضرية ، وهو مسن»[2] و « سمعت ابا عمرو بن العلاء يحدث»[3] و « حدثني رجل من أهل الشام[4] » و « حدثني جعفر بن سليمان » و « اخبرني عصام بن خُليف السُلمي[5] » و « انشدني خلف الاحمر لرجل يقال له ميسرة[6] » . وغير هذه الامثلة كثير ، مما يدل على سلامة منهجه العلمي .

أسماء خيل العرب وفرسانها لابن الاعرابي :

بقي لدينا من هذا الفن كتاب (اسماء خيل العرب وفرسانها) لابن الاعرابي وقد نشره المستشرق دلافيدا في ليدن سنة ١٩٢٨ م مع كتاب انساب الخيل للكلبي ، وعلى الرغم من عدم ذكره ـ بهذا العنوان ـ في كتب التراجم والفهارس القديمة ، الا ان وفرة نسخه المخطوطة وقدم بعضها ، ترك اطمئناناً على صحة نسبة الكتاب الى ابن الاعرابي لدى نفوس الباحثين ، وعلى رأسهم بروكلمان [7] ، وفؤاد سزكين[8] .

---

(١) نزهة الالباء ١٦٦ ـ ١٦٧ .

(٢) مجلة كلية الآداب ١٢/ ٣٨٢ .

(٣) نفسه ١٢/ ٣٨٣ .

(٤) نفسه ١٢/ ٣٨٤ ، ٣٨٦ .

(٥) نفسه ١٢/ ٣٨٥ .

(٦) نفسه ١٢/ ٣٨٧ .

(٧) G. der Arab Litteratur. S.I: 179.

(٨) Gesch des Arab Schrifttums. 3: 365.

يضاف الى ذلك ان جمهرة كبيرة من المصادر ومن اهمها : الفهرسـت ١٠٩ ومعجم الادباء ١٨/ ١٩٦ وانباه الرواة ٣/ ١٣١ ووفيات الاعيان ٤/ ٣٠٨ والوافي بالوفيات ٣/ ٧٩ وبغية الوعاة ٤٣ ، ذكرت له كتاباً بعنوان « الخيل » مما يحملنا على الظن ان يكون المقصود به الكتاب الذي نحن بصدده ، اذ لا يمكن ـ لو كانا كتابين مختلفين لابن الاعرابي ـ ان يهمل الاول فلا يذكر في كل المصادر التي تذكر الثاني .

ومادة الكتاب تمثل العنوان تمثيلاً صادقاً ، فقد انصبت عناية ابن الاعرابي فيه على ذكر القبائل وما اشتهرت به من خيول ، فبعد ان تحدث في أول الكتاب عن تاريخ استخدام العرب للخيل واصول الخيول العربية ، قسم كتابه تقسيماً قبلياً ، فجعل لكل قبيلة فقرة خاصة يتحدث بها عن خيل تلك القبيلة فمثلاً : خيل بني هاشم ، خيل قريش ، خيل الانصار ، خيل بني اسد ، وهكذا ، وهو خلال ذلك لا ينسى بطون كل قبيلة وافخاذها ، فيعرج على خيولها جميعاً[1] . ولا يهمل النص على اسم الفارس الذي اشتهر فرسه ، ويكمل ذلك بذكر اخباره وما قيل في فرسه من شعر ، وما يتيسر له من ذكر نسبه ونسب فرسه[2] .

على اننا لا نعدم ان نجد في الكتاب مادة لغوية مهمة تتمثل بشرح غريب الشعر الذي ينشده وبذكر رواياته المختلفة ، ويوجز في احايين كثيرة معنى البيت في عبارة او جملة ، واذا تعددت الابيات المنشدة ، وكانت من قصيدة واحدة ، فلا ينتظر ان يكملها فيبدأ بشرح غريبها ، وانما يجعل شرح كل بيت منها تحته[3] . ومع ذلك فقيمة الكتاب من الناحية اللغوية اقل منها من الناحيتين التاريخية والادبية شأنه شأن كتاب انساب الخيل للكلبي الذي سبق الكلام عليه .

٥ ـ الوحوش :

وهو لفظ أطلقته مؤلفات اللغويين على جميع الحيوانات البرية ، كالاسد والذئب والضبع والثعلب والحمار الوحشي والظبي والوعل وما شابه ذلك . وأول من

(١) أسماء خيل العرب ٧٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ .
(٢) نفسه ٩٠ ، ٩٢ .
(٣) أسماء خيل العرب ٨٢ ـ ٨٣ .

عرفنا وضعه مؤلفاً في هذا الفن . قطرب (ت ٢٠٦) وعنوان كتابه (ما خالف فيه الانسان البهيمة في اسماء الوحوش وصفاتها) وقد وصل الينا . وطبع بتحقيق المستشرق رودلف جاير ، اذ جعله ملحقاً بكتاب الوحوش للاصمعي بتحقيقه في فينا سنة ١٨٨٨ . ثم الف الاصمعي (ت ٢١٣) بعده كتابه الوحوش ، ووصل الينا أيضاً ، وحققه المستشرق (رودلف جاير) نفسه ، في فينا سنة ١٨٨٨ م .

وألف في الوحوش أيضاً ابو زيد (ت ٢١٥) ، وهشام بن ابراهيم الكرنبائي ، وابو عثمان سعدان بن المبارك (ت ٢٢٠) ، وابن السكيت (ت ٢٤٤) ، وابو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥) ، وابو محمد ثابت بن ابي ثابت ، والسكري (ت ٢٧٥) وبندار بن عبدالحميد الكرخي (تلميذ ابن السكيت) ، وابن قتيبة (ت ٢٧٦) وقد ذُكر له كتابان : الوحش ، والسباع والوحوش ، اما الاول فقد ذكره ابن قتيبة نفسه[1] . واما الثاني فليس كتاباً مستقلاً وانما هو باب من أبواب كتابه المعاني الكبير[2] . وسنأتي الى الكلام عليه في الفصل القادم .

الوحوش لقطرب :

قسم قطرب كتابه الصغير الى ابواب ، تحدث في كل منها عن أسماء أو صفات وحش معين ، فبدأ بأسماء الحمار ، ثم بأسماء البقر ، ثم الظبية ، فالوعل ، فالأسد فالذئب ، فالثعلب ، فالضبع ، فالارنب ، فالنعام ، ثم باب في أسماء القطيع ، وختم بباب في أصوات هذه الوحوش . ونحن حين نعرف ان الرسالة عبارة عن صفحات معدودات يتضح مدى الاختصار في الكلام على كل من هذه الوحوش ، اذ لا يتجاوز كل باب من الابواب المذكورة الاسطر القليلة ، فمادة هذه الرسالة أقل من مادة رسالة الاصمعي في الوحوش الآتي ذكرها ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة الى قطرب لأنه البادىء بالتأليف بالوحوش ، وكل بادىء مقل ، كما قررنا ذلك من قبل .

ومع ذلك فلا نعدم ان نجد فيها عناية واضحة بالاستشهاد ، اذ يكاد لا يترك

(١) الانواء ٤١ .

(٢) الفهرست ٨٥ .

مادة دون شاهد ، واكثر هذه الشواهد من الشعر والرجز ، للشعراء الجاهليين والاسلاميين لا يتعداهم ، ينسب بعضها لقائليها ويترك بعضها الآخر[1] ، واستشهد بالقرآن ايضاً في مواطن قليلة جداً[2] ، ونص على اللغات ، في مواطن اختلافها في الاسم ، يقول مثلاً في باب أسماء الحمار : « ويقال له العِفْوُ والعُفُوُ والعَفْو والعَفا يا هذا لغة[3]» ويقول في مكان آخر : « والخَزومةُ البقرةُ بلغةِ أهل اليمن وأهل العالية[4] » .

على اننا من جانب آخر نفتقد النص على المصادر ، فلا نعثر على ذكر لغوي او راوٍ استقى منه شيئاً من مادته ، سوى ما يذكره عن (بعضهم) دون تسمية ، كقوله : « الا ان بعضهم زعم أن النَّخَّة العبيد[5] » . وهو بهذا يشبه صنيع الاصمعي في ابله ، الا انه يخالفه في عدم اعتداده بذكر صيغ الفعل واشتقاقاته ، أو الاستطراد في شرح لفظة غريبة وردت في شاهد ، او التعليق على عبارة جانبية ، وكل همه ما هو في صدده ، وقد يكون هذا من اسباب عدم تضخم الرسالة ، يضاف الى سبب الاسبقية . وهو الى هذا كله لم يرتب المواد في كل باب ترتيباً معيناً ، فمرة يبدأ بانثى الوحش ، ثم بالذكر او بالعكس[6] . وأخرى يبدأ بولد الوحش ثم بأبويه او بالعكس[7] . كما ان الالفاظ غير مرتبة ترتيبا هجائياً ، ففي باب الاصوات مثلاً نجد الالفاظ هكذا: نهق ، شحج ، سحل ، حشرج . الخ[8] . وعلى كل فالكتاب بداية فتحت الباب للدارسين ، فأدلوا من بعده بدلائهم ، وبقي للأول فضل السبق .

---

(١) ما خالف فيه الانسان ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) نفسه ٤٠ .

(٣) نفسه ٣٠ .

(٤) نفسه ٣١ .

(٥) نفسه ٣٨ .

(٦) ما خالف فيه الانسان ٣٧ .

(٧) نفسه ٣٦ .

(٨) نفسه ٤٠ .

الوحوش للأصمعي :

أما تقسيم الاصمعي لكتابه فيشبه الى حد كبير تقسيم قطرب ، وذلك بافراده لكل وحش من الوحوش بابا خاصاً يتكلم فيه على اسمائه وصفاته ، والوحوش عند الاصمعي نفسها التي عند قطرب ، وهي الحمار والبقر والظباء والوعول والنعام والاسود والذئاب والضباع والثعالب والارانب ، وهي بهذا التسلسل الذي يوافق تسلسلها عند قطرب بفرق يسير . الا ان الاصمعي خالف قطرباً بافراده في بعض الابواب فصولاً تتفرع مواضيعها من أصل الباب ، ففي باب أسماء البقر وصفاتها افرد فصلاً لأسماء اولادها ، وفصلاً لأسماء أقاطيعها . ومثل ذلك في باب أسماء الظباء وصفاتها . وهذا التبويب الجديد يدل على تطور في المنهج يقربُه خطوة نحو النضج . فبعد ان كانت هذه المادة مضطربة متداخلة عند قطرب ، أخذت مواضيعها تنكشف وتتوضح وتنفرد عند الاصمعي ، على ان الباب الذي عقده قطرب لاصوات الوحوش في آخر رسالته ، دخلت مادته في مكانها من كل باب لدى الاصمعي ، فحين يتحدث عن الاسد مثلاً يتحدث عن زئيره في الباب نفسه ، وذلك أجمع لمادة الباب .

أما مواد الكتاب فهي أوسع من مواد قطرب ، ففيه إضافات في أسماء الوحوش وفي صفاتها وطباعها وبيوتها وأسماء أولادها وأصواتها وكل ما يتعلق بها . وفيه ما درج عليه الاصمعي من استطراد وشرح غريب واهتمام بالتصريف وتعليق على الالفاظ والشواهد كمثل قوله : « ويقال للأسدِ الرئبال والمُحرَّب والمُغَيِّظ وقال ابو ذؤيب :

كأنَّ مُحَرَّباً من أسْدِ تَرج يُنازِلُهم لنابَيْه قَبيبُ

أي صَوت وهي القَبْقَبة . . . ويقال ليثٌ هصورٌ والجماع هُصرٌ ، ويقال هَصَرْتُ الشَّيء اذا ثنيته ، وقال الآخر :

تُقلى جَماجمُهم والبيضُ تأخذهُم كالليث يسرُع فيهم وهو مُهتصرُ

ومهصور وهَصِر إسمان اشتقا من هذا[1] » .

وحين ترك الاصمعي النص على المصدر الذي استقى منه ، اكثر من الشواهد الشعرية ، قصيداً ورجزاً ، وكأنه يعوض بذلك عن اغفال ذكر اساتذته ورواته ، وكفى بالشعر مصدراً ، وأخَصّه الذي يقول فيه (أنشدني)[2] . وبين أيدينا في هذا الكتاب ما يدل على ذلك - اعني اعتماده على الشعر فيما يثبت من معان والفاظ - فهو يقول : « والصَّيْدَنُ لم أسمعه الا في شعر كُثَيّر[3] » . فالشعر هو الحكم وهو المصدر والمورد . كما استشهد بأمثال العرب ، كقوله : « والأنثى أُرْوِيَّةٌ والجميع أُرويٌّ وأروى يقال في مثل من أمثال العرب : أنتَ كبارح الأروى قليلاً ما تُرى . يقال ذلك للرجل اذا استبطىء في الزيارة[4] » ونص على لغات العرب في مواطن قليلة كمثل قوله : « الخِشْفُ والغزال والجَحْشِ في لغة هذيل[5] » . وقوله : «الهِجْرِسُ في لغة اهل الحجاز القِرد وفي لغة غيرهم الثَّعلب ، قال والسرحان في لغة هذيل الاسد وفي لغة غيرهم الذِئب[6] » .

وأهم ما يؤخذ على الكتاب ، عدم ترتيبه مواد كل باب ترتيباً الفبائياً او أي ترتيب آخر ، شأنه في ذلك شأن كتاب قطرب . بحيث يصعب العثور على المبتغى من الالفاظ او المعاني الا بعد قراءة الباب من أوله . ومع ذلك فيعد كتاب الاصمعي أكثر مادة وأوضح منهجاً من سابقه .

---

(١) الوحوش ٢٦ .
(٢) نفسه ٢١ .
(٣) نفسه ٢٩ .
(٤) الوحوش ١٩ .
(٥) نفسه ١٨ .
(٦) نفسه ٢٩ .



الفصل الثالث

المعجمات اللغوية

لفظة معجم لغة واصطلاحاً ـ أمم سبقت الى وضع المعجم ـ المعجمات العربية ـ العين للخليل : سند روايته ، نسبته الى مؤلفه ، منهجه ، مادته اللغوية ، اثره في الدرس اللغوي ـ الجيم لابي عمرو الشيباني : اسمه ، منهجه ، أثره ـ التقفية في اللغة للبندنيجي : منهجه ، مادته ، أثره ـ الغريب المصنف لأبي عبيد : أثره ـ الالفاظ لابن السكيت ـ المعاني الكبير لابن قتيبة ـ الجراثيم المنسوب لابن قتيبة .



١ ـ لفظة (معجم) لغة واصطلاحاً :

تأتي مادة (عجم) في اللغة للدلالة على الابهام والاخفاء ، وعدم البيان والافصاح[١] فمنها الاعجم : الذي لا يفصح ، والاعجم ايضاً : كل كلام ليس بعربية ، واستعجمت الدار عن جواب السائل : سكتت[٢] ، وباب الامير معجم : اي مبهم مقفل ، ونظرت في الكتاب فعجمته : اي لم أقف حق الوقوف على حروفه[٣] ، وصلاة النهار عجماء : لأنه لا يجهر فيها بالقراءة ، وقد عجم العود : اذا عضه ليعلم صلابته من خوره[٤] . وهكذا تنصرف صيغة (فَعَل) من هذه المادة الى معاني الابهام وعدم الايضاح .

اما صيغتا (فعَّل) بالتضعيف ، و (أفْعَل) بالهمز ، فانهما تأتيان لتدلا على عكس ذلك ، «فتعجيم الكتاب : تنقيطه كي تستبين عجمته ويصح»[٥] . والعجم النقط بالسواد مثل التاء عليه نقطتان ، يقال : أعجمت الحرف وعجَّمه ايضاً تعجيماً ، ولا يقال عجمه . ومنه حروف المعجم « وهي الحروف المقطعة التي يختص أكثرها بالنقط من بين سائر حروف الاسم ، ومعناه حروف الخط المعجم . . . وناس يجعلون المعجم بمعنى الاعجام مصدراً ، مثل المخرج والمدخل ، اي من شأن هذه الحروف ان تعجم[٦] » .

---

(١) سر صناعة الاعراب ١/ ٤٠ .

(٢) العين (الجزء المطبوع) ٢٧٤ .

(٣) اساس البلاغة ٤١ .

(٤) المحيط في اللغة ١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦ .

(٥) العين ٢٧٤ .

(٦) الصحاح ٥/ ١٩٨١ ـ ١٩٨٢ .

يقول ابن جني : « ثم انهم لما قالوا : اعجمت الكتاب اذا بينته وأوضحته ، فهو اذن لسلب معنى الاستبهام لا اثباته[1] » . ويشرح فكرة السلب هذه ويمثل لها فيقول : « قولهم : أعجمت وزنه أفعلت ، وأفعلت هذه وان كانت في غالب أمرها انما تأتي للاثبات والايجاب ، نحو اكرمت زيداً ، اي أوجبت له الكرامة ، فقد تأتي أفعلت ايضاً يراد بها السلب والنفي ، وذلك نحو : اشكيت زيداً اذا أزلت له عما يشكوه . . . فكذلك ايضاً قولنا : أعجمت الكتاب : أي أزلت عنه عجمته . . . . ونظيره أيضاً أشكلت الكتاب : أي أزلت اشكاله . وقالوا ايضاً : عجّمت الكتاب ، فجاءت فعّلت للسلب ايضاً[2] » .

ومن معنى السلب هذا اطلقت لفظة (معجم) على الكتاب الذي يراعي في ترتيب مادته ترتيب الحروف ، فكأن هذا الكتاب يزيل ابهام هذه المادة المرتبة على حروف المعجم ويبينها ويوضحها بما يجمعه من مواد لغوية وغير لغوية منسقاً لها ومرتباً إياها على حروف المعجم . وقد مرَ اطلاق المعجم على مثل هذا الكتاب بمراحل قبل ان يستقر مصطلحاً على كتب اللغة التي عرفت بعدئذ بالمعجمات . فأطلقت أول مرة على سبيل الاشارة في عنوان الكتاب الى ان مادته مرتبة على الحروف ، ككتاب « الاغاني على حروف المعجم » لحبيش بن موسى الضبي[3] ، وكتاب « معاني العروض على حروف المعجم » لبزرج بن محمد العروضي[4] ، وذلك باضافة لفظة (حروف) الى (المعجم) ، وكلا الكتابين من كتب القرن الثالث ، ثم تخفف الناس من هذه الاضافة ، مكتفين بكلمة (الحروف) للدلالة على حروف المعجم ، ككتاب « صناعة الغناء وأخبار المغنين وذكر الاصوات التي غني فيها على الحروف » لقريص المغني (ت ٣٢٤ هـ)[5] وغيره .

وظهرت ملامح المصطلح بعد ذلك على يد رجال الحديث ، الذين سبقوا

---

(١) الخصائص ٣/ ٧٥ ـ ٧٦ ، وانظر : شرح الرضي على الشافية ١/ ٩١ والمزهر ١/ ٢٣٠ .

(٢) سر صناعة الاعراب ١/ ٣٩ .

(٣) معجم الادباء ٧/ ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

(٤) الفهرست ٧٢ .

(٥) الفهرست ١٥٦ .

اللغويين في استخدام (المعجم) في عناوين كتبهم ، فنجد (معجم الصحابة) لأبي يعلى احمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي الموصلي الحافظ محدث الجزيرة (ت ٣٠٧ هـ) ، و (المعجم الكبير) و (المعجم الصغير) في أسماء الصحابة لابي القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي المحدث المعروف بابن بنت منيع (ت ٣١٥ هـ) ، والمعجم (الكبير) و (الاوسط) و (الصغير) في قراءات القرآن وأسمائه لأبي بكر محمد بن الحسن النقاش الموصلي (ت ٣٥١ هـ) ، و (معجم الشيوخ) ، لأبي الحسين عبدالباقي بن قانع بن مرزوق البغدادي (ت ٣٥١ هـ) والمعجم (الكبير) و (الاوسط) و (الصغير) لابي القاسم سليمان بن احمد الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)، و (معجم الشيوخ) لابي بكراحمد بن ابراهيم الاسماعيلي (ت ٣٧١ هـ) ، و (معجم الشيوخ) لعمر بن عثمان البغدادي المعروف بابن شاهين (ت ٣٨٥ هـ) ، و (معجم الصحابة) لاحمد بن علي المهداني المعروف بابن لال (ت ٣٩٨) وغير ذلك كثير[١] . على ان هؤلاء المؤلفين لم يخرجوا في هذا الاستعمال عن الدلالة السابقة ، واعني بها دلالة (حروف المعجم) ، اذ قصدوا من ذكر لفظة (المعجم) الترتيب على الحروف لا غير ، ولكنهم طوروا استخدامها بتقديمها في العنوان ، ممهدين لاستخدامها مصطلحاً لمعجمات اللغة .

ولكننا لا نستطيع ان نقطع بشيء في أول استخدام للمصطلح في المعجمات اللغوية ، فليس بين أيدينا ما يشير الى هذه الاولية ، غير انه لا يبعد ان يكون استخدام المصطلح في اللغة قد رافق استخدامه في معجمات الصحابة والشيوخ السابق ذكرها ، لاشتراك معجمات اللغة مع تلك ، في ترتيب موادها على الحروف[٢] ، ثم أخذت كلمة (معجم) تقترب شيئاً فشيئاً من دلالتها المعروفة الآن . فاذا قيل معجم فلا يتبادر الى الذهن الا الكتاب الذي يجمع الفاظ اللغة ومعانيها وشواهدها مراعياً ترتيب الحروف اي ترتيب ، واذا صح ما افترضناه من بدء استخدام لفظة (معجم) في كتب اللغة ، فيكون ذلك في حدود اوائل القرن

---

(١) فهرسة ابن خير ٢١٥ ، وانظر : مقدمة الصحاح ٣٨ ـ ٣٩ و المعجم العربي ١/ ١٣ ـ ١٤ والمعاجم العربية ١٦ .

(٢) المعجم العربي ١/ ١٤ والمعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث ٩ .

الرابع ، اي في زمن ظهور معجم الصحابة لابي يعلى التميمي (ت ٣٠٧ هـ) والمعجمين الكبير والصغير لابي القاسم البغوي (ت ٣١٥ هـ) .

وقد ذهب استاذنا الدكتور السامرائي الى انه « لم يطلق على المعجم اسم المعجم الا في اواخر القرن الرابع الهجري ، اما قبل ذلك فهو كتاب ، وأول معجم بهذا الاسم هو معجم مقاييس اللغة[1] » . وليس في المصادر ما يدل على تأخر اطلاق المعجم على المعجم الى اواخر القرن الرابع ، كما انه ليس في مقاييس اللغة لابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) ما يشير الى اطلاقه المصطلح لأول مرة . وكل ما يمكن ان نستفيده من مذهب استاذنا انه يعضد افتراضنا المتقدم ، في ان استعمال المعجم مصطلحاً على معجمات اللغة ، تم خلال القرن الرابع ، وهو القرن الذي شهد (الجمهرة) لابن دريد (٣٢١ هـ) ، و (تهذيب اللغة) للأزهري (٣٧٠ هـ) ، و (المحيط في اللغة) للصاحب بن عباد (٣٨٥ هـ) ، و (المجمل) و (مقاييس اللغة) لابن فارس (٣٩٥) و (الصحاح) للجوهري (٣٩٨ هـ) ، وليس في اي من هذه المعجمات ما يشير اشارة واضحة الى استخدامه المصطلح في العنوان وغير العنوان . على انه لا يبعد ان يكون معروفاً لدى أصحاب هذه المعجمات والمشتغلين باللغة بدلالته على المعجم ، دون ان يقيد ذلك في المعجمات نفسها . اما اطلاق (القاموس) على المعجم ، فهو اطلاق متأخر ، سببه شيوع (القاموس المحيط) للفيروز ابادي (ت ٨١٦ هـ) ، اذ اصبحت كلمة (القاموس) تقابل في الاستعمال كلمة (المعجم) ، فصار كل معجم قاموساً[2] ، والأصل ذاك .

٢ ـ أمم سبقت الى وضع المعجم :

لم يكن العرب أول من عرف التأليف المعجمي من بين الامم ، فقد سبقهم الى ذلك الآشوريون والصينيون واليونانيون والهنود ، اذ وضعت كل امة من هذه الامم معجمات في لغتها ترجع اليها ، على ان هذا السبق لا يعني ان العرب تأثروا بما

---

(١) محاضرات الدكتور ابراهيم السامرائي (مدونتي) ٦ .
(٢) المعجم العربي ١/ ١٤ .

وضع هؤلاء ، أو قلدوهم في جانب من جوانب العمل المعجمي ، بل كان العرب - وهم يضعون أول معجماتهم اللغوية - مبتكرين غير مقلدين ، ومبدعين غير متأثرين ، لانهم صدروا الى ذلك بدوافع عربية محضة ، على رأسها خدمة لغة القرآن كتاب العربية المقدس ودستور الدين ، وصون العربية من الضياع والدروس، وحراستها من الخطأ والدخيل . هذا عدا انه لم تتهيأ السبل التي تكفل للعرب الاطلاع على تلك المعجمات الاجنبية القديمة ، وعلى الرغم من ان « فكرة تكوين معجم هي فكرة متأخرة ، اذ عرف التأليف المعجمي اول مرة في العين،في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري[1] » ، الا ان ذلك يُعَدّ بالنسبة الى تاريخ العربية التي ورثناها في النصوص الجاهلية تبكيراً شديداً . ومهما يكن من أمر فلست بصدد اعادة القول فيما فصلت الكلام عليه في موضوع « اصالة الدراسات اللغوية عند العرب[2] » .

فقد وضع الآشوريون معجماتهم خوفاً على لغتهم من الضياع ، وكانوا قد تركوا نظام الكتابة الرمزية القديمة ، وأخذوا بنظام الاشارات المقطعية او الالفبائية ذات القيم الصوتية ، فعسرعليهم معرفة النظام الجديد ، فلجأوا الى وضع قوائم خاصة ، جمعوا فيها الاشارات المقطعية ، وشرحوها بما كان لديهم في النظام القديم ، وقد ساعدهم على ذلك ان لغتهم السومرية القديمة لم تكن قد انقرضت بعد ، لانها بقيت حية في أفواه الكهنة يستعملونها في شعائرهم الدينية ، وحفرت هذه القوائم على قوالب الطين ، وحفظت في مكتبة آشور بانيبال الكبيرة في قصر (قويونجيك) في نينوى (٦٦٨ - ٦٢٥ ق . م) ، ثم اكتشفت هذه القوائم (او معجمات الرموز والاشارات المقطعية) في اعمال التنقيب العلمية ، فكانت مصدراً مهماً لدراسة اللغة الآشورية[3] .

ووضع الصينيون المعجمات ايضاً ، وأقدم ما وضع منها : معجم (يوبيان) لمؤلفه كويي وانج ، وقد طبع سنة ٥٣٠ بعد الميلاد ، تلاه معجم آخر عنوانه

---

(١) محاضرات الدكتور ابراهيم السامرائي (مدونتي) ٧ .

(٢) انظر : الباب الاول/ الفصل الثاني .

(٣) مقدمة الصحاح ٤٠ نقلاً عن : حضارة بابل وآشور ٤١ - ٤٧ .

(شوفان) لمؤلفه هو شن ، وقد طبع سنة ١٥٠ قبل الميلاد ، وهذان المعجمان يعدان أساس معجمات الصين واليابان المعتبرة[١] .

وعرف اليونانيون المعجمات ، وتكثروا من وضعها ، حتى ذكر اثينيوس خمسة وثلاثين كتاباً على انها معجمات لغوية ، وجميعها مفقود ، ولعل في اعتبارها جميعاً من المعجمات ما يدعو الى الشك . الا ان الثابت انهم عرفوا المعجمات التي يختص أغلبها بمفردات كتاب معين او شخص معين او موضوع معين ، فقد وضع ابولونيوس السكندري وكان في عهد الامبراطور اغسطس قبل الميلاد معجماً خاصاً بالفاظ هومير الشاعر ، ووضع يوليوس بولكس وكان في عهد كمودس اوسع معجمات اليونان ، مرتباً حسب الموضوعات ، يشبه المخصص لابن سيده ، فهو معجم من معجمات المعاني ، وهو في عشرة كتب ، وقد وصلت الينا ، كما وضع هلاديوس السكندري (حوالي ٤٤٠ ب . م) معجماً آخر ، ووضع أريون الطيبي (حوالي ٤٥٠ ب . م) معجمه الاشتقاقي ، وقد طبع في لبزج سنة ١٨٢٠م . وهزيشيوس السكندري (القرن الرابع الميلادي) معجم اللهجات والمحليات وأمونيوس السكندري معجم ما اتفق لفظه واختلف معناه ، وفاليريوس فيلكس (عهد السيد المسيح) معجماً عنوانه (في معاني الالفاظ) وما يزال مختصره باقياً الى الآن . هذا سوى المعجمات الخاصة بالغريب او الفاسد او الدخيل او العامي من الالفاظ والعبارات ، او المعجمات الخاصة بالطعام ، والشراب ، والحيوان ، والمترادف ، والادوية وغيرها[٢] .

وعرف الهنود العمل المعجمي ايضاً ، فقد وضعوا معجمات لالفاظ اللغة السنسكريتية مرتبة على الحروف ، وقد نسب الى هذه اللغة انها كانت ترتب حروفها بحسب مخارجها[٣] ، كما وضعوا معجمات خاصة بالمترادف والمشترك ، أقدمها معجم امارسنها المشتهر باسم (اماراكوسا) ، الذي وضع قبل القرن السادس الميلادي ، وهو معجم مترادفات في ثلاثة ابواب الحق به فصل عن المشترك اللفظي

---

(١) الصحاح ومدارس المعجمات العربية ٥٥ ومقدمة الصحاح ٤٠ ـ ٤١ والمعاجم العربية ١٥ .

(٢) المعجم العربي ١/ ٢٢٤ ومقدمة الصحاح ٤١ ـ ٤٢ والصحاح ومدارس المعجمات العربية ٥٨ والمعاجم العربية ١٥ وكلها تنقل عن دائرة المعارف البريطانية : مادة معجم : Dictionary .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية : مادة الخليل .

وآخر عن الكلمات غير المتصرفة ، وكلمات التذكير والتأنيث . . . وقد رتب المؤلف جزء المترادفات بحسب الموضوعات ، وجزء المشترك اللفظي بحسب الحروف الساكنة في أواخر كلماته[1] » ، ووضع بعد ذلك ساسفاتا معجمه الخاص بالمشترك اللفظي (حوالي القرن السادس الميلادي) ورتب الفاظه ترتيباً نادراً « فقد شرح اولاً الكلمات التي تحتاج لبيان معناها الى بيت كامل ، ثم الكلمات التي تحتاج نصف بيت ، ثم تلك التي تحتاج ربع بيت[2] » ، ومثل هذا في الموضوع وأعني المشترك اللفظي معجم آخر تلاه زمناً من تأليف هيا كاندرا « ويقع في سبعة أبواب ، الستة الاولى على التوالي للاسماء ذات المقطع الواحد ، المقطعين ، الثلاثة الى الستة . اما السابع فيعالج الكلمات غير المتصرفة ، والى جانب ترتيب الكلمات بحسب عدد مقاطعها نظر الى الحرف الاول ، والحرف الساكن الاخير[3] » .

هذه هي أهم ملامح تاريخ المعجم لدى الامم التي سبقت العرب الى وضع معجماتها ، ولكنها لم تسبقهم الى الابتكار ، ولم تسد عليهم باب الابداع ، الذي ظل مشرعاً ويظل الى الابد ، لأن الابتكار والابداع ليسا ملكاً لأمة ، او وقفاً على اخرى ، وقد رأينا من الاوصاف الموجزة التي وصفت بها معجمات الامم القديمة هذه ، انها تختلف اختلافاً كبيراً عن المعجمات العربية منهجاًومادةً واستيعاباً وترتيباً .

٤ ـ المعجمات العربية :

أشرنا في صدر الفصل الأول من هذاالباب الى ان التأليف مر بمراحل ، تميزت المرحلة الاولى منها بالتأليف المختلط ، وقد درسنا كتبه في الفصل الأول ، وتميزت المرحلة الثانية بالتأليف المستقل على الموضوعات ، وقد درسنا آثاره في الفصل الثاني ، اما المرحلة الثالثة فكانت مرحلة جمع مواد اللغة وحصرها في كتب اصطلح على تسميتها بعدئذ بالمعجمات ، وهي التي نخصص لها هذا الفصل الثالث ، وقد أفادت كتب هذه المرحلة من كتب المرحلتين السابقتين كثيراً ، اذ اعتمدت على ما

---

(١) البحث اللغوي عند الهنود ٩٤ .

(٢) نفسه ٩٦ .

(٣) نفسه ٩٦ .

جاءت به كتب التأليف المختلط وكتب الفنون اللغوية المستقلة ، فيما أحصته من مواد اللغة . ولا يشذ عن اطراد هذه المرحلة التأليفية ، ويخرق القاعدة المنطقية المفترضة في ذلك سوى معجم (العين) للخليل بن احمد الفراهيدي المتوفى سنة (١٧٥ هـ) ، اي انه الف في خلال المرحلتين الاولى او الثانية ، ولولا ذلك لكان افتراضنا في تسلسل المراحل الثلاث صحيحاً الى حد كبير .

وكان الدافع الاساسي الذي دفع اللغويين الى وضع معجماتهم ، هو الدافع نفسه الذي دفعهم الى وضع كتبهم السابقة ، وهو خدمة القرآن ونصوص التشريع ، وصون اللغة من الخطأ وحفظها من الضياع ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « فاحتيج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث ، فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين[1] » . ولما كان الغرض الرئيس من وضع المعجمات هو جمع مفردات اللغة ومحاولة احصائها وشرحها والنص على معانيها والاستشهاد لها بمختلف الشواهد الشعرية والنثرية ، فقد تشعبت للغويين مناهج هذا العمل ، فمنهم من اختار جمع المواد حسب الالفاظ مرتباً اياها ترتيبه الخاص ، ومنهم من رأى جمع المواد حسب الموضوعات مبوباً لها حسب المعاني، واختلفت لدى الطائفتين طرق الترتيب فذهبت الطائفة الاولى الى ترتيب الالفاظ على مخارج الحروف ، او على الحروف الهجائية ، ناظرة الى الحرف الاول للفظة ، أو الحرف الأخير لها ، أو كليهما . وذهبت الطائفة الثانية الى ايراد الالفاظ الخاصة بالموضوع المعقود له الباب ، والاستشهاد لكل منها او لبعضها ، او الى ايراد النصوص الشعرية الخاصة بالباب ، واستخراج الالفاظ منها وشرحها[2] . ومهما يكن من أمر فاننا سنذكر ما وصل الينا خبره من هذه المعجمات الى نهاية القرن الثالث ، وندرس ما وصل الينا منها في ذلك العصر ، متتبعين أثر كل منها فيما جاء على منهجه من معجمات العصور التالية .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ٤٨٤ .

(٢) انظر : المعاجم العربية ١٨ والبحث اللغوي عند العرب ١٣٥ وأثر القرآن في تطور النقد العربي ١٥٣ ومجلة مجمع اللغة العربية المجلد ٤٧ ، ٢/ ٣٨٩ ومجلة المجمع العلمي العربي المجلد ٤٠ ١/ ٣١٠ ـ ٣٢٢ وعلم اللغة لوافي ٦٨ .

وأول معجمات الالفاظ : (العين) للخليل بن احمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) وهو أول معجم في العربية ، يليه (الجيم) للنضر بن شميل (ت ٢٠٣) ، و (الجيم) لأبي عمرو الشيباني (ت ٢٠٦)، و (الجيم) لابي عمرو شمر بن حمدويه الهروي (ت ٢٥٥) . و (التقفية في اللغة) لليمان بن ابي اليمان البندنيجي (ت ٢٨٤) ، و (البارع في علم اللغة) لابي طالب المفضل بن سلمة بن عاصم (ت ٣٠٠) . ولم يصل الينا من هذه المجموعة سوى العين للخليل ، والجيم لابي عمرو ، والتقفية للبندنيجي ، وسندرس كلاً من هذه المعجمات في هذا الفصل ، أما الجيم للنضر بن شميل ، فلا نملك منه سوى ذكره في الفهرست [1] ، وقد ضنت المصادر بوصفه والكلام عليه ، وسلكناه في المعجمات قياساً على معاصره الجيم لابي عمرو ، ولا يشير عنوانه الى غير ذلك . واما الجيم لشمر بن حمدويه ، فقد وصفه القفطي وقال : « ألف ـ أي شمر ـ كتاباً كبيراً في اللغات ، أسسه على حروف المعجم ، وابتدأه بحرف الجيم ، فأشبعه وجوده ، الا انه طوله في الشواهد والشعر والروايات الجمة عن ائمة العرب وغيرهم من المحدثين ، وأودعه من تفسير القرآن بالروايات عن المفسرين ، ومن تفسير غريب الحديث اشياء لم يسبقه الى مثلها احد تقدمه ، ولا ادرك شأوه فيه من بعده [2] » ونقل عن الازهري انه قال : « ورأيت انا من أول ذلك الكتاب تفاريق أجزاء بخط محمد بن قسورة ، فتصفحت أبوابها فرأيتها في غاية الكمال » ووجد الازهري انه « أخذ بعض حروفه من العين ، عزاها الى محارب ، وأظنه رجلاً من أهل مرو ، وكان سمع كتاب الليث منه [3] » وأما البارع في علم اللغة للمفضل بن سلمة فقد ذكره ابن النديم وقال : « كتاب البارع في علم اللغة ، والذي خرج منه الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء [4] » . ويمكننا ان نستنتج من هذا التعليق الموجز ما يأتي : اولاً ـ انه مات قبل ان يتمه ، وثانياً ـ انه سار فيه على نظام المخارج والتقليبات ، وثالثاً ـ انه خالف الخليل في ترتيب مخارج

---

(١) الفهرست ٥٨ .

(٢) الانباه ٢/ ٧٧ .

(٣) تهذيب اللغة ١/ ٣٠ .

(٤) الفهرست ٨٠ .

الحروف ، ووافق سيبويه في هذا[1] ، وذلك انه بدأ بالهمزة والهاء ولم يبدأ بالعين . وعدّ الصغاني (ت ٦٥٠هـ) معجم البارع هذا من مصادره في معجمه (التكملة والذيل والصلة) دون ان يشير الى عدم تمامه[2] .

وأول معجمات المعاني : (الصفات) لابي خيرة نهشل بن زيد الاعرابي (استاذ ابي عمرو بن العلاء) ، يليه (الغريب المصنف) للقاسم بن معن الكوفي (معاصر الخليل) ، و (الصفات) للنضر بن شميل (ت ٢٠٣) ، و (الغريب المصنف)،لابي عمرو الشيباني (ت ٢٠٦) ، و (الصفات) لقطرب (ت ٢٠٦) و (الصفات) للاصمعي (ت ٢١٣) ، و (الصفات) لابي زيد الانصاري (ت ٢١٥) ، و (الغريب المصنف) لابي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤) ، و (الغريب المصنف) لعمرو بن ابي عمرو الشيباني (ت ٢٣١) ، و (الالفاظ) لابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ) ، و (المعاني الكبير) لابن قتيبة (ت ٢٧٦) ، و (الجراثيم) له ايضاً[3] . ولم يصل الينا من هذه المجموعة سوى الغريب المصنف لابي عبيد والالفاظ لابن السكيت ، والمعاني الكبير لابن قتيبة ، و قطعة من الجراثيم له . ووصفت المصادر بعض ما لم يصل الينا من هذه المعجمات بأوصاف موجزة لا تزيد على بضع كلمات أو بضعة اسطر ، واحجمت عن وصف أكثرها . فكتاب الصفات للنضر بن شميل ـ كما عرفه ابن النديم ـ « كتاب كبير يحتوي على عدة كتب ، الجزء الاول : يحتوي على خلق الانسان والجود والكرم وصفات النساء ، الجزء الثاني : يحتوي على الأخبية والبيوت وصفة الجبال والشعاب والامتعة ، الجزء الثالث : للابل فقط ، الجزء الرابع : يحتوي على الغنم والطير والشمس والقمر والليل والنهار والالبان والكمأة والآبار والحياض والارشية والدلاء وصفة الخمر ، الجزء الخامس يحتوي على الزرع والكرم والعنب (او الغيث) وأسماء البقول والاشجار والرياح والسحاب والامطار وكتاب السلاح وكتاب خلق الفرس[4] » .

(١) الكتاب ٢/ ٤٠٤

(٢) التكملة والذيل والصلة ١/ ٨ .

(٣) الفهرست ٧٥ ، ٧٨ وانباه الرواة ١/ ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٢٠٢ ، ٢/ ٣٥ ، ٣/ ١٤ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٢٠ ، ٣٥٢ وكشف الظنون ١٢٠٩ .

(٤) الفهرست ٧٧ وانباه الرواة ٣/ ٣٥٢ . ووفيات الاعيان ٢/ ٢١٤ .

ولا ادري لماذا أطلق على البابين الاخيرين من الجزء الخامس دون سائر ابواب المعجم اسم الكتاب ، ولا يحتمل ان يكونا كتابين مستقلين عن معجمه لأن ابن النديم وتبعه القفطي قالا بعد ان انتهيا من ايراد هذا الثبت الذي نقلته هنا : « وله ـ اي للنضر ـ بعد ذلك من الكتب المصنفة ما لا يدخل في هذا الكتاب ، كتاب . .[1] » . مما يشعر ان كتاب السلاح ، وكتاب خلق الفرس ما هما سوى بابين من ابواب الجزء الخامس من الصفات ، ولعل النضر كان قد الحقهما بمعجمه بعد ان وضعهما مستقلين اولاً ، فبقيت لفظة الكتاب عالقة بهما . وذهب القفطي الى ان كتاب الصفات هذا هو الاصل الذي احتذاه ابو عبيد القاسم بن سلام في الغريب المصنف ، وان كتاب النضر أكبر من كتاب ابي عبيد وأجود منه[2] . اما (الصفات) للاصمعي فقد وصفه الأزهري بانه « يشبه كلامه ، غير ان الثقات لم يرووه عنه[3] » .

هذا ما جاءت به المصادر من تعريف اثنين من معجمات هذه الطائفة ، وسكتت عن الاخرى مكتفية بالذكر ، والحق ان اولى كتب هذا النوع من معجمات المعاني ، لم يكن يصدق عليها اسم المعجم الا بتأول بعيد ، ذلك انها لم يقصد من وضعها الجمع المستوعب والاحصاء الدقيق ، وبخاصة كتاب الصفات لابي خيرة ، وكتاب الغريب المصنف للقاسم بن معن ، وكل ما هناك انها مثلت مرحلة تالية للتأليف في الموضوعات المستقلة ، فنهض مؤلفو الصفات والغريب المصنف ، بجمع اكثر من موضوع في كتاب، سمي بالصفات مرة ، وبالغريب المصنف اخرى غير مقتصر على صفة شيء واحد ، او غريب ميدان لغوي واحد ، بعد ان كان هذا الاقتصار شأن كتب المرحلة السابقة ، ولا بد ان تكون اولى هذه المحاولات متميزة بقلة المادة ، وقلة عدد الابواب ، ثم ينمو المنهج ويتسع شأن كل المحاولات الجديدة . وعليه فان اعتبارنا اول كتب الصفات معجماً ، جاء لكونه ممثلاً لبداية المنهج الذي سارت عليه معجمات المعاني ، لا لكونه معجم معان بالمصطلح العلمي المعروف .

---

(۱) الفهرست ۷۷ والانباه ۳/ ۳٥۲ .

(۲) انباه الرواة ۳/ ١٤ .

(۳) تهذيب اللغة ۱/ ۱٥ .

١ ـ معجمات الالفاظ

العين : للخليل بن احمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ)

حقق الاب انستاس ماري الكرملي قطعة منه ، ونشرها سنة ١٩١٤م ، وحقق الدكتور عبدالله درويش قطعة اكبر من تلك قليلا ونشرها على انها الجزء الاول سنة ١٩٦٧ . ثم حقق الاستاذان الدكتور مهدي المخزومي والدكتور ابراهيم السامرائي الجزء الاول ، وهو الآن في المطبعة . واشهر مخطوطات العين : مخطوطة مكتبة السيد حسن الصدر في الكاظمية ، المنسوخة سنة ١٠٥٤ هـ . ومخطوطة مكتبة شوراي ملي في طهران ، المنسوخة سنة ١٠٨٧ هـ . وهي التي اعتمد عليها في الدراسة . ذلك انها أسلم من صاحبتها تصحيفاً وتحريفاً ، وأقل منها نقصاناً وسقطاً ، فهي اولى منك في ان تكون الاصل في الدراسة وان تأخرت عنها بضع سنين . والثالثة مخطوطة مكتبة المتحف العراقي ، وهي متأخرة اذ نسخت سنة ١٣٥٥ هـ . وغيرها .

سند روايتـه

صرحت لنا المصادر القديمة ، ومنها العين نفسه ، بطرق متعددة لرواية العلماء والدارسين لكتاب العين ، وكل هذه الطرق تنتهي لليث بن المظفر بن نصر بن سيار (ت حوالي ١٨٠ هـ) وتلتقي فيه ، ولا غرابة في هذا ، لأن الليث كان الحامل الوحيد للكتاب عن الخليل ، والسبيل المنفردة اليه ، بعد ان خصه الخليل به دون سواه من تلامذته ، حين وجد الاستاذ ان تلميذه « بارع الادب ، بصيرٌ بالنحو والشعر والغريب[1] » . وقد رواه عن الليث ستة من أصحابه هم : ابو معاذ عبدالله بن عائذ ، وابو معاذ عبدالجبار بن يزيد ، ومحمد بن منصور المعروف بالزاج المحدث (حفيد الليث) ، وبندار بن لزة الاصفهاني ، ومعروف بن حسان ، ومحارب (رجل من أهل مرو) ، وعن هؤلاء روى الناس .

١ ـ طريق النسخ التي وصلت من العين : ففي الصفحة الثانية من المقدمة نقرأ : « قال ابو معاذ عبدالله بن عائذ : حدثني الليث بن المظفر بن نصر بن سيار

---

(١) طبقات ابن المعتز ٩٧

عن الخليل بجميع ما في هذا الكتاب[1] » . وابو معاذ عبدالله بن عائذ هذا غير معروف ، ولم يقع لأحد من الباحثين ذكره في كتب التراجم ، فذهب المستشرق برونلش الى ان اسمه محرف عن ابي معاذ عبدالجبار بن يزيد الذي يذكر راوياً عن الليث في أكثر من طريق[2] . والحق اننا ليس بنا حاجة الى مثل هذا المذهب في الاعتقاد بالتحريف ، اذ لا يشترط في كل علم يمر علينا ذكره ان يكون معروفا ترجمت له كتب الطبقات ليكون مقبولاً سالماًمن التحريف ، لأن ذلك أمر بعيد المنال ، فقد سكتت كتب التراجم عن كثير من أمثال هذه الاعلام ، وأقرب الامثلة لهذا إثنان من رواة العين عن الليث هما معروف بن حسان ، ومحارب ، فهما ايضا غير معروفين ، فهل يصح الذهاب الى ان اسم كل منهما محرف عن اسم آخر ، واتحاد الكنية بين ابي معاذ عبدالله بن عائذ وابي معاذ عبدالجبار بن يزيد ، لا يرجح صحة الاعتقاد بالتحريف ، فما اكثر ما تتفق كنى الرواة والنحاة واللغويين المشاهير فضلاً عن غيرهم .

٢ ـ طريق شمر بن حمدويه ؛ فقد روى ابو عمرو شمر بن حمدويه الهروي (ت ٢٥٥ هـ) كتاب العين عن محارب عن الليث عن الخليل . قال الازهري عن محارب هذا : « وأظنه رجلاً من أهل مرو ، وكان سمع كتاب الليث منه[3] » .

٣ ـ طريق ابن درستويه وابن العلاء السجستاني : فقد ذكر ابو محمد بن درستويه (ت ٣٤٧ هـ) انه سمع كتاب العين عن ابي الحسن علي بن مهدي الكسروي (ت حدود ٢٨٥ هـ) عن محمد بن منصور المعروف بالزاج المحدث (حفيد الليث) عن الليث بن المظفر عن الخليل ، وسمعه مع ابن درستويه من هذا الطريق ابن العلاء السجستاني ثم اخذ دعلج نسخة ابن العلاء[4]

٤ ـ طريق احمد بن فارس : ذكر ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) انه روى كتاب العين :

---

(١) العين : (الجزء المطبوع) ٥٣ .

(٢) مجلة (اسلاميكا) المجلد الثاني ص ٦٩ . عن المعجم العربي ١/ ٢٢٧

(٣) تهذيب اللغة ١/ ٣٠ .

(٤) الفهرست ٤٣ ، ٦٥ .

« اخبرنا به علي بن ابراهيم القطان فيما قرأت عليه، اخبرنا ابو العباس احمد بن ابراهيم المعداني عن ابيه ابراهيم بن اسحاق عن بنـدار بن لزة الاصفهانـي ومعروف بن حسان عن الليث عن الخليل[1] » . ويشعرنا ابن فارس في موطن آخر ذكر فيه طريق روايته العين ان احد الراويين بندار بن لزة الاصفهانـي ومعروف بن حسان يكنى ابا معاذ ، اذ يقول « حدثنا علي بن ابراهيم القطان عن المعداني عن ابيه عن ابي معاذ عن الليث عن الخليل[2] » ، والراجح انه معروف بن حسان ، لأن بندارا يكنى ابا عمرو[3] ، وبهذا اضاف ابا معاذ ثالثاً لرواة العين وقد تنبه الى ذلك ايضاً الدكتور حسين نصار[4] ، وقد يقوي هذا ما ذهبناالیه من ان اتحاد الكنية لا يعني اتحاد الراوي ، وهذه كنية تكنى بها ثلاثة من رواة العين .

٥ ـ طريق ابي علي الغساني : قال السيوطي : « روى ابو علي الغساني كتاب العين عن الحافظ ابي عمرو بن عبدالبر (ت ٤٦٣) عن عبدالوارث بن سفيان عن القاضي منذر بن سعيد عن ابي العباس احمد بن محمد بن ولاد النحوي (ت ٣٣٢) عن ابيه عن ابي الحسن علي بن مهدي (ت حدود ٢٨٥) عن ابي معاذ عبدالجبار بن يزيد (ت حدود ٢٤٠) عن الليث بن المظفر بن نصر بن سيار عن الخليل[5] » . والقـاضي منـذر بن سعيد هو صاحـب النسخـة المكتوبـة بالقيروان والمعارضة بنسخة شيخـه ابـن ولاد بمصر لا بمـكة كما وهـم احـد الباحثين[6] ، وأظنه قد التبس عليه قول ابي بكر الزبيدي في مختصره مشيراً الى هذه النسخة والى نسخة اخرى اذ يقـول : « فهـذا كتـاب منـذر بن سعيد القاضي الذي كتبه بالقيروان وقابله بمصر بكتاب ابن ولاد ، وكتاب ابن ثابت

(١) مقاييس اللغة ١/ ٣ .
(٢) نفسه ٣/ ١٩٨ .
(٣) معجم الادباء ٧/ ١٢٨ وبغية الوعاة ١/ ٤٧٦ .
(٤) المعجم العربي ١/ ٢٢٧ .
(٥) المزهر ١/ ٥٦ ـ ٥٧ .
(٦) د . حسين نصار : المعجم العربي ١/ ٢٨٢ .

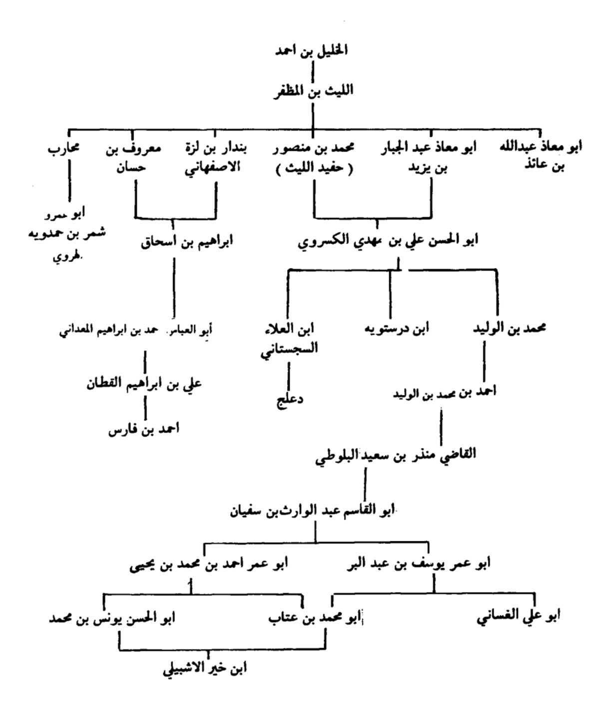
المنتسخ بمكة قد طالعناها[1] » . فهو طالع نسختين الاولى نسخة منذر بن سعيد المكتوبة بالقيروان والتي قابلها على نسخة استاذه ابن ولاد بمصر ، والثانية نسخة ابن ثابت المكتوبة بمكة .

٦ ـ طريق ابن خير الاشبيلي : ذكر ابن خير (ت ٥٧٥) في معجم شيوخه طريق روايته العين فقال : « حدثني به شيخنا ابوالحسن يونس بن محمد بن مغيث رحمه الله اذنا ومشافهة ، عن القاضي ابي عمر احمد بن محمد بن يحيى بن الحذاء وحدثني به ايضاً الشيخ ابو محمد بن عتاب رحمه الله ، اجازة عن ابوي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري واحمد بن محمد بن يحيى بن الحذاء ، قالا : حدثنابه ابوالقاسم عبدالوارث بن سفيان بن جبرون ، قال : حدثني به القاضي منذر بن سعيد البلوطي عن ابي العباس احمد بن محمد بن الوليد المعروف بولاد التميمي النحوي عن ابيه محمد بن الوليد عن ابي الحسن علي ابن مهدي عن ابي معاذ عبدالجبار بن يزيد عن ليث بن المظفر (بن نصر) بن سيار الليثي عن ابي عبدالرحمن عن (كذا : زائدة) الخليل بن احمد بن عمرو ابن تميم الفراهيدي رحمه الله[2] » . وهي تشبه الطريق السابقة ، بل هي عينها ، اذ يلتقي ابن خير بأبي علي الغساني في ابي عمر يوسف بن عبدالبر ومنه تتوحد طريقهما الى الخليل . ولتوضيح طرق الرواية المتعددة ، صنعنا لها شجرة تجمعها :

---

[1]) مختصر العين : مقدمة المؤلف وانظر : طبقات الزبيدي ٣١٩ وجذوة المقتبس ٤٧ .

[2]) فهرسة ابن خير ٣٤٩ ـ ٣٥٠ .


الخليل بن احمد
الليث بن المظفر
ابو معاذ عبدالله بن عائذ
ابو معاذ عبد الجبار بن يزيد
محمد بن منصور (حفيد الليث)
بندار بن لزة الاصفهاني
معروف بن حسان
محارب
ابو عمرو شمر بن حمدويه الهروي.
ابراهيم بن اسحاق
ابو الحسن علي بن مهدي الكسروي
محمد بن الوليد
ابن درستويه
ابن العلاء السجستاني
أبو العباس حمد بن ابراهيم المعداني
علي بن ابراهيم القطان
احمد بن فارس
دعلج
احمد بن محمد بن الوليد
القاضي منذر بن سعيد البلوطي
ابو القاسم عبد الوارث بن سفيان
ابو عمر يوسف بن عبد البر
ابو عمر احمد بن محمد بن يحيى
ابو علي الغساني
ابو محمد بن عتاب
ابو الحسن يونس بن محمد
ابن خير الاشبيلي

نسبته الى مؤلفه :

لعل الخلاف الذي قام حول نسبة العين الى الخليل فريد في سعته وعمقه، اذ لم نعهد مثله في كتاب آخر قبله او بعده ، وربما كان ذلك دليل قيمته العلمية ، واثره في نفوس الدارسين ، واثارته الدهشة التي غمرت اذهانهم . فمنذ ان حط العين في البصرة والعلماء بين مصحح ومشكك ومنكر لنسبته الى الخليل،والراجح ان تأخر قدوم الكتاب بالنسبة لوفاة مؤلفه،هو الذي فتح الباب للطعن في نسبته اول الامر، ثم تصدى من يدعم هذا الطعن بادلة يصطنعها من هنا وهناك ، فقد نقل ابن النديم قول ابي بكر بن دريد : « وقع بالبصرة كتاب العين سنة ثمان واربعين ومائتين ، قدم به وراق من خراسان ، وكان في ثمانية واربعين جزءا فباعه بخمسين دينارا ، وكان سمع بهذا الكتاب انه بخراسان في خزائن الطاهريين ، حتى قدم به هذا الوراق[1] » . وهذا يعني انه كان بين ظهوره في البصرة سنة (٢٤٨ هـ) وبين وفاة الخليل سنة (١٧٥ هـ) اكثر من سبعين سنة ، فهل كان الكتاب خلال هذه المدة مجهولا لدى الدارسين ؟ ان عبارة ابن دريد « وكان سمع بهذا الكتاب انه بخراسان في خزائن الطاهريين حتى قدم به هذا الوراق » تنفي هذا الجهل ، وتصرح بسماع العلماء بوجوده في خراسان محفوظا في خزائن الطاهريين ، فوقوعه بالبصرة لم يكن مفاجئا لدارسيها بوجوده وانما كان مفاجئا لهم بمنهجه المبتكر ورسمه المبدع ، فانكار المنكرين له انما كان بهرا من هذا الكتاب ، وحسدا لليث راويه الوحيد عن الخليل ، وقد فاتهم ان يكونوا هم الرواة عنه ، والطريق لعمله الفذ .

ولعل اوضح الامثلة على ما ازعمه موقف ابي علي القالي (ت ٣٥٦هـ) اسوقه هنا قبل ان اعرض لاقوال الدارسين في نسبة الكتاب . يقول ابو علي القالي : « لما ورد كتاب العين من بلد خراسان في زمن ابي حاتم انكره ابو حاتم واصحابه اشد الانكار ودفعه بابلغ الدفع ، وقد غبر إصحاب الخليل بعد مدة طويلة لا يعرفون هذا الكتاب ولا يسمعون به ، منهم : النضر بن شميل ، ومؤرج ، ونصر بن علي ، وابو الحسن الاخفش وامثالهم ، ولو ان الخليل الف الكتاب لحمله هؤلاء عنه ، وكانوا

---

(١) الفهرست ٦٤

اولى بذلك من مجهول الحال ، غير مشهور في العلم تفرد به وتوحد بالنقل له[1] » ، فانكار القالي وما نقله من انكار ابي حاتم السجستاني(ت٢٥٥هـ) ، انما يعتمد عدم معرفة اصحاب الخليل الذين ذكرهم بهذا الكتاب وعدم سماعهم به . ويعتمد النيل من الليث راويه والانتقاص من مكانته العلمية ، وان اصحاب الخليل البصريين اولى من الليث برواية الكتاب .

اما السند الاول فقد هدمه ابن دريد بما صرح به من انه « سمع بهذا الكتاب انه بخراسان في خزائن الطاهريين حتى قدم به هذا الوراق[2] » ، وهدمه ايضا كتاب (المدخل الى كتاب العين) للنضر بن شميل (ت ٢٠٣)[3] ، الذي عده القالي في اصحاب الخليل الذين لا يعرفون العين ولا يسمعون به . واما السند الثاني فتبطله اماديح الدارسين لليث وثناءوهم عليه ، يقول الازهري : « كان الليث صاحب الخليل بن احمد رجلا صالحا[4] » ، ويقول ابن المعتز : « كان بارع الادب ، بصيرا بالنحو والشعر والغريب[5] » ، وغير ذلك مما يدل على علو كعبه في العلم ، ورسوخ قدمه في اللغة[6] فهو ليس « مجهول الحال غير مشهور في العلم » كما يقول القالي .

ومن التناقض الواضح الذي وقع فيه القالي ـ وهو مستمر في عرض رأيه ـ قوله : « ثم درج اصحاب الخليل فتوفي النضر بن شميل سنة ثلاث ومائتين ، والاخفش سنة خمس عشرة ومائتين ، ومؤرج سنة خمس وتسعين ومائة ، ومضت بعد مدة طويلة ثم ظهر الكتاب بأخرة في زمان ابي حاتم وفي حال رياسته ، وذلك فيما قارب الخمسين والمائتين ، لأن أبا حاتم توفي سنة خمس وخمسين ومائتين ، فلم يلتفت احد من العلماء اليه يومئذ ، ولا استجازوا رواية حرف منه ، ولو صح الكتاب عن الخليل لبدر الاصمعي واليزيدي وابن الاعرابي واشباههم الى تزيين كتبهم وتحلية علمهم بالحكاية عن الخليل والنقل لعلمه ، وكذلك من بعدهم كأبي

(١) المزهر ١/ ٨٤ .

(٢) الفهرست ٦٤ .

(٣) نفسه ٥٨ ونزهة الالباء ١١١ .

(٤) تهذيب اللغة ١/ ٢٨ والمزهر ١/ ٧٨ .

(٥) طبقات الشعراء ٩٧ .

(٦) مراتب النحويين ٣١ وانباه الرواة ٢/ ٤٢ ومعجم الادباء ١٧/ ٤٣ وبغية الوعاة ٢/ ٢٧٠ .

حاتم وأبي عبيد ويعقوب وغيرهم من المصنفين ، فما علمنا احدا منهم نقل في كتابه عن الخليل من اللغة حرفا[1] » . فيبدو ان القالي نسي انه قال في صدر كلامه ان كتاب العين قد ورد من بلد خراسان في زمن ابي حاتم ، لانه يريد ممن توفي قبل وروده الى البصرة ومنها الى بغداد ان ينقلوا منه ويحكوا عنه ، فالاصمعي توفي سنة (٢١٣ هـ) واليزيدي (٢٠٢ هـ) وابن الاعرابي (٢٣١ هـ) وابي حاتم (٢٥٥ هـ) وموقفه من الكتاب معروف ، وابو عبيد (٢٢٤ هـ) ويعقوب ابن السكيت (٢٤٤هـ) ، فكيف يروي عنه هؤلاء والكتاب لم يرد الى حواضر الدرس في العراق الا « فيما قارب الخمسين والمائتين » كما يقول .

واما قوله بان الكتاب «لم يلتفت احد من العلماء اليه يومئذ ، ولا استجازوا رواية حرف منه» فمردود بقول السيوطي : «وقديما اعتنى به العلماء وقبله الجهابذة[2] » . وبما سنعرض له من اثار هذه العناية وهذا القبول . ولعل القالي نفسه من اكثر العلماء استفادة من العين ورجوعا اليه ونقلا منه ، فقد وضع معجمه (البارع) مقلدا فيه العين منهجا وتبويبا ، واكثر من النقل عنه حتى كاد ان يدخله برمته في بارعه ، فقال محقق البارع « ولكنني بعد ان حققت النص وقعت على حقيقة طريفة جديرة بالاعلان ، هي ان البارع ما هو الا كتاب العين للخليل بن احمد الفراهيدي[3] » وقد عزا القالي اكثر هذه النقول وهي متحدة حرفا حرفا مع كتاب العين ـ الى مؤلف العين الخليل بن احمد[4] . فالقالي حين زعم انه لم يلتفت احد من العلماء الى العين ، ولا استجازوا رواية حرف منه ، التفت هو اليه ، واجاز لنفسه الرواية عنه[5] . وهذا يفسر لنا ما ذهبنا اليه من ان انكار المنكرين ـ واغلبهم كالقالي في موقفه وتناقضه ـ انما كان في حقيقته اعجابا دفينا ودهشة غامرة غطى عليهما التعصب على الخليل والحسد من الليث .

---

(١) المزهر ١/ ٨٤ .

(٢) المزهر ١/ ٤٥ .

(٣) البارع ٥٢ .

(٤) البارع انظر مثلا : ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٨٤ ، ١٠٠ ، ١٣٦ ، ٢١٩ .

(٥) انظر : فهرسة ابن خير ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

ومهما يكن من امر فان الذين انكروا نسبة كتاب العين كثر ، اشهرهم : النضر بن شميل (ت ٢٠٣) وابو حاتم السجستاني (ت٢٥٥هـ) وابو علي القالي(ت ٣٥٦ هـ) والازهري (ت ٣٧٠) وابو بكر الزبيدي (ت٣٧٩) وابن النديم (ت٣٨٠هـ) وابن فارس (ت ٣٩٥) ، وغيرهم[١]. وقد اسهب الدارسون المحدثون في عرض آرائهم ومناقشتهم والرد عليها[٢] ، وسنكتفي بالايجاز خشية الاعادة والتكرار .

اما النضر بن شميل فقد روي انه سئل عن كتاب العين فانكره « فقيل له : لعله الفه بعدك ، فقال : او خرجت من البصرة حتى دفنت الخليل »[٣] .ويكذب هذه الرواية امران : الاول ان كتاب العين لم يرد البصرة الا فيما قارب الخمسين والمائتين ، وتوفي النضر سنة (٢٠٣هـ) ، فكيف يسأل عن كتاب لا علم لاحد به حتى ذلك التاريخ ؟ . والثاني ان النضر رحل الى خراسان ، واقام زمنا بمرو ، وحدث في الاولى وسمع منه ، حتى مات بها سنة ثلاث ومائتين[٤] . ويبدو انه خلال وجوده هناك وقف على كتاب العين واعجب به ، والف كتابه (المدخل الى كتاب العين)[٥] ، ولما لم يصل الى علم الدارسين في العراق خبر هذا المؤلف ، وضعوا على لسانه تلك الرواية المصطنعة في الانكار .

واما ابو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥) وابو علي القالي (ت ٣٥٦) فقد عرضنا لرأيهما فيما مضى من الكلام فلا نعيد .

واما الازهري (ت ٣٧٠ هـ) فقال : « فمن المتقدمين الليث بن المظفر الذي نحل الخليل بن احمد كتاب العين جملة لينفقه

---

(١) المزهر ١/ ٧٦ ـ ٩٥ .

(٢) انظر : المعجم العربي (نصار) ١/ ٢٨٠ والمعاجم العربية (درويش) ٢٦ ومقدمة كتاب العين ([illegible]) ٧ وعبقري من البصرة (المخزومي) ٦٧ والبحث اللغوي عند العرب (عمر) ١٣٨ ورواية اللغة (الشلقاني) ١٢٠ والمعاجم العربية (احمد) ٤١ ودلالة الالفاظ (انيس) ٢٣٢ ومقدمة الصحاح (عطار) ٦١ .

(٣) معجم الادباء ١٧/ ٥١ .

(٤) مراتب النحويين ١٠٨ والفهرست ٧٧ والانباه ٣/ ٣٤٩ والبغية ٤٠٤ .

٥) معجم الادباء ١٩/ ٢٤٣ .

باسمه »[1] وللازهري قولان آخران يناقضان رأيه هذا ، نكتفي بهما رداً على انكاره ، الاول : قوله : « ولم ارَ خلافا بين اللغويين ان التأسيس المجمل في اول كتاب العين لابي عبد الرحمن الخليل بن احمد ، وان ابن المظفر اكمل الكتاب عليه بعد تلقفه.اياه عن فيه ، وعلمت انه لا يتقدم احد الخليل فيما اسسه ورسمه[2] » . فان كان التأسيس للخليل ، وان الليث اكمل الكتاب على الخليل متلقفاً اياه من فم الخليل، فالكتاب كله للخليل . والثاني : قوله « حتى توهم بعض المتحذلقين ان الخليل لم يفِ بما شرط ، لانه اهمل من كلام العرب ما وجد في لغاتهم مستعملا[3] » قاصدا بذلك البشتي الذي الف كتاب (التكملة) مستدركا فيه على العين ، يقول الازهري : « ولما قرأت هذا الفصل من كتاب البشتي استدللت به على غفلته وقلة فطنته وضعف فهمه ، واشتففت انه لم يفهم عن الخليل ما اراده ، ولم يفطن للذي قصده[4] » . فالبشتي صاحب التكملة ، قد اساء فهم الخليل صاحب العين .

واما ابو بكر الزبيدي (ت ٣٧٩) فقد انكر النسبة مستندا الى امرين ، الاول : الرواية في الكتاب عن متأخرين في العصر عن الخليل كالاصمعي (ت ٢١٣) ، وابي عبيد (ت ٢٢٤هـ) وتلميذه المسعري ، وابن الاعرابي (ت ٢٣١) وغيرهم ، فكيف يمكن ان يروي الخليل عن ابي عبيد مثلا وعمره حين توفي الخليل ست عشرة سنة او احدى وعشرين سنة ، فضلا عن الرواية عن تلميذه المسعري . والثاني: انبناء اكثر الآراء في الكتاب على مذهب الكوفيين ، مما لا يصح نسبتها الى الخليل البصري ، من ذلك ترتيب مخارج الحروف الذي يخالف ترتيب سيبويه ناقل علم الخليل ، ومنه ادخال الرباعي المضاعف في باب الثلاثي المضاعف وهو من مذهب الكوفيين وغير ذلك[5] .

---

(١) تهذيب اللغة ١/ ٢٨ .

(٢) نفسه ١/ ٤١ .

(٣) تهذيب اللغة ١/ ٥٣ .

(٤) نفسه ١/ ٥٣ .

(٥) مختصر العين : المقدمة ، والمزهر ١/ ٤٢ - ٤٣ .

والحق ان وجود الرواية عن المتاخرين في كتاب كالعين ، تناوله الدارسون بالرواية والشرح والتعليق والاستدراك لا يكفي وحده للطعن في نسبته الى مؤلفه ، اذ يمكن للنسخ المتكرر للكتاب ان يدخل فيه ما ليس منه ، وذلك بتدوين هذه الزيادات المثبتة على حواشي الكتاب في متنه ، فتكون كأنها اصلية . وهذا الذي تعرض له كتاب العين لم يكن بدعا بين مؤلفات اللغويين ، اذ مر بنا في الفصل الاول من هذا الكتاب النوادر لابي زيد الانصاري (ت ٢١٥هـ) وهو مليء بهذه الزيادات ، وهي تمثل اراء كثير من اللغويين البصريين والكوفيين المتأخرين عن ابي زيد في العصر كأبي حاتم (ت ٢٥٥ هـ) والتوزي (ت٢٣٣ هـ) والسكري (ت ٢٧٥) والمبرد (٢٨٥هـ) من البصريين ، وابن الاعرابي (ت ٢٣١ هـ) واللحياني (تلميذ الكسائي) وثعلب (٢٩١ هـ) من الكوفيين[1] . ومثله كتاب النوادر للاصمعي (ت ٢١٣) الذي وقع بيد مؤلفه بعد مدة من تأليفه ، فانكر منه اكثر من ثلثه[2] . فهل يسوّغ لنا هذا ان ننكر على ابي زيد والاصمعي كتابيهما .

وانبناء آراء مؤلف العين على مذهب الكوفيين ، قول لا دليل عليه ، والامثلة التي ساقها ابو بكر الزبيدي على هذا الزعم ، لا تثبت له ما يريد ، فمخالفة الخليل للبصريين في بعض آرائه ، لا تعني موافقته للكوفيين[3] . وبغض النظر عن كل هذا فنحن نخالف الزبيدي في اعتبار الخليل بصريا محضاً لا يجوز ان تصدر عنه آراء يوافق فيها الكوفيين . فلم يكن الخليل بصرياً ولا كوفياً . وانما كان رأس المدرستين ، ومنه تفرعتا على يدي الكسائي وسيبويه ، فلا عجب ان نجد له آراء ونظرات تمثل اصول هاتين المدرستين ، فلم تكن البصرة من حيث كونها مدينة مدرسة ينتمي اليها الخليل ، بقدر ما كان يحدده منهجه في دراسة اللغة من هذا الانتماء .

اما ابن النديم (ت ٣٨٠هـ) فقد قال في معرض كلامه على العين : «ولم يرو هذا الكتاب عن الخليل احد ، ولا روي في شيء من الاخبار انه عمل هذا

(١) النوادر ١٣ ، ١٩ ، ١٨ ، ١٦ ، ٢٨ ، ٥١ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٧٦ .

(٢) تهذيب اللغة ١/ ٥ .

(٣) تهذيب اللغة ١/ ٢٩ .

البتة[1] » . وهو في هذا القول يناقض نفسه اكثر من مرة ، مرة حين اورد في كتابه بعض طرق رواية العين ، واخرى حين نسب الى الخليل كتاب العين وهو في معرض ترجمته فقال : « وله من الكتب المصنفة كتاب العين[2] » . وثالثة حين نسب الى الخليل ايضاً كتاب (فائت العين)[3] ، واخيرا حين ذكر : « ان الليث من ولد نصر بن سيار صحب الخليل مدة يسيرة ، وان الخليل عمله ـ اي كتاب العين ـ له[4] » . كما يرد قوله بما ذكرته المصادر الاخرى من طرق رواية العين ، على ما ذكرناه في موضعه ، وبما روي عن جمهرة من اللغويين من تصحيحهم النسبة الى الخليل ، على ما سنذكره في موضعه .

وأمّا ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) فقد اعتمد في انكاره على عبارة الخليل الواردة في آخر العين وهي قوله «هذا آخر كلام العرب» ، ذاهبا الى ان هذه العبارة لا تصدر عن الخليل «فقد كان الخليل اورع واتقى لله جل ثناؤه من ان يقول ذلك[5] » . وتصدى الازهري للرد على هذه الشبهة موضحا قصد الخليل من عبارته ، فقال : « وانما اراد الخليل رحمه الله ان حروف أ ب ت ث عليها مدار جميع كلام العرب ، وانه لا يخرج شيء منها عنها ، فاراد بما الف منها معرفة جميع ما يتفرع منها الى آخره ، ولم يرد انه حصل جميع ما لفظوا به من الالفاظ على اختلافها[6] » . والحق ان ابن فارس حين انكر على الخليل عبارته ، كان منساقا الى ذلك بسوء الفهم الذي ابانه الازهري ، وهذا وحده لا يسلكه في المنكرين على الخليل كتابه ، لانه مر بنا راويا للعين ، وقد ذكر سند روايته المتصل بالخليل ، واعتمد عليه في معجمه مقاييس اللغة ، وعرض لمصادره فيه وقال : « فاعلاها واشرفها كتاب ابي عبد الرحمن الخليل بن احمد المسمى كتاب العين، اخبرنا به . .[7] » .

---

(١) الفهرست ٦٤ .

(٢) نفسه ٦٤ .

(٣) نفسه ٦٥ .

(٤) نفسه ٦٤ .

(٥) الصاحبي ١٨ .

(٦) تهذيب اللغة ١/ ٥٣ .

(٧) مقاييس اللغة ١/ ٣ .

هذه اهم آراء المنكرين ، لعلنا وفقنا في الرد عليها ومناقشتها ، اما المدافعون عن الكتاب الذين صححوا نسبته واثبتوها للخليل ، فكثيرون ، اشهرهم : المبرد (ت ٢٨٥هـ) وثعلب(ت ٢٩١) وابن المعتز (ت ٢٩٦) وابن دريد (ت ٣٢١) وابن ولاد(ت ٣٣٢) والزجاجي (ت ٣٣٧) وابن درستويه (ت ٣٤٧) وابو الطيب اللغوي (ت ٣٥١) والسيرافي (ت ٣٦٨) وابو بكر الزبيدي (ت ٣٧٩) وابن جني (ت ٣٩٢) وابن فارس (ت ٣٩٥) وجمهور كبير من الدارسين عاش بعد هؤلاء لم يخرج عما ذهب اليه السسابقون[١]. واختلفوا فيما ينسب الى الخليل من الكتاب ، التأسيس وحده دون الحشو ، او التأسيس والجزء الاول ، او التأسيس والحشو كله ، واختلافهم لا يؤثر في اجماعهم على ان الكتاب للخليل بعضه او كله ، واليك اقوالهم :

أما المبرد (ت ٢٨٥) والزجاجي (ت ٣٣٧) وابن درستويه (ت ٣٤٧) فلم تصل الينا أقوالهم الصريحة في نسبة الكتاب والدفاع عنها ، وانما نستدل عليها بما نقله السيوطي من قوله متحدثاً عن العين : « وقديماً اعتنى به العلماء وقبله الجهابذة ، فكان المبرد يرفع من قدره ، ورواه ابو محمد بن درستويه وله كتاب في الرد على المفضل بن سلمة فيما نسبه اليه من الخلل ، ويكاد لا يوجد لابي اسحاق الزجاجي حكاية في اللغة الا منه[٢] » .

وأما ثعلب (ت ٢٩١) فقال : « انما وقع الغلط في كتاب العين لأن الخليل رسمه ولم يحشه . ولو كان حشاه ما بقّى فيه شيئاً ، لأن الخليل رجل لم ير مثله . وقد حشا الكتاب قوم علماء الا انهم لم يؤخذ منهم رواية ، وانما وجد بنقل الوراقين ، فاختل الكتاب[٣] »

وأما ابن المعتز (ت ٢٩٦) فذكر تصنيف الخليل للعين ، وانه « نمّقه وحبّره ،

---

(١) فهرسة ابن خير ٣٤٩ ونزهة الالباء ٥٥ ومقدمة ابن خلدون ٤٥٥ والمزهر ١/ ٥ .

(٢) المزهر ١/ ٥٣ .

(٣) مراتب النحويين ٥٧ .

وأخرجه في اسرى ظرف ، وأحسن خط[1] » . وان الخليل كان « منقطعاً الى الليث فلما صنف كتابه العين خصّه به ، فحظي عنده جداً ، ووقع منه موقعاً عظيماً ووهب له مائة الف ، وأقبل على حفظه وملازمته ، فحفظ منه النصف[2] » . وروى ابن المعتز ان زوجة الليث غارت من جارية اشتراها ، فأغاظته باحراق نسخة العين الوحيدة التي كانت بحوزته « فاستدرك النصف من حفظه ، وجمع على النصف الباقي علماء أهل زمانه . . . فاذا تأملته تراه ـ أي العين ـ نصفين ، النصف الأول اتقن وأحكم ، والنصف الاخر مقصر عن ذلك[3] » . ونحن نشك في صحة هذه القصة ، فعنصر الوضع فيها واضح جلي .

وأما ابن دريد (ت ٣٢١) فقال : « وقد ألف ابو عبدالرحمن الخليل بن احمد الفرهودي رضوان الله عليه كتاب العين ، فاتعب من تصدى لغايته ، وعنى من سما الى نهايته ، فالمنصف له بالغلب معترف ، والمعاند متكلف ، وكل من بعده له تبع ، أقر بذلك أم جحد ، ولكنه رحمه الله ألف كتابه مشاكلاً لثقوب فهمه ، وذكاء فطنته ، وحدة أذهان أهل دهره[4] » .

وأما ابن ولاد (ت ٣٣٢ هـ) الذي مر بنا انه صاحب النسخة التي عارض بها منذر بن سعيد نسخته من كتاب العين ، فقد قال في كتابه المقصور والممدود : « لعل بعض من يقرأ كتابنا ينكر ابتداءنا فيه بالألف على سائر حروف المعجم ، لأنها حرف معتل ولأن الخليل ترك الابتداء به في كتاب العين[5] » ، وقال ايضاً : « ويحتاج من هذا الى ان يعلم الطريق التي وصل الخليل منها الى حصر كلام العرب ، فاذا عرف هذه الاشياء عرف موضع ما يطلب من كتاب العين[6] » .

---

(١) طبقات الشعراء ٩٧ .

(٢) نفسه ٩٧ ومعجم الادباء ١٧/ ٤٦ والمزهر ١/ ٣٩ .

(٣) طبقات الشعراء ٩٨ والمزهر ١/ ٣٩ .

(٤) الجمهرة ١/٣ .

(٥) المزهر ١/ ٩٠ .

(٦) نفسه ١/ ٩١ .

وأما ابو الطيب اللغوي (ت ٣٥١) فقال : « وأبدع الخليل بدائع لم يسبق اليها ، فمن ذلك تأليفه كلام العرب على الحروف في الكتاب المسمى بكتاب العين ، فانه هو الذي رتب ابوابه ، وتوفي من قبل ان يحشوه[1] » . ويشعرنا مجمل كلام ابي الطيب انه يرى ان عدم تحشية الخليل للكتاب لا تعني ان الكتاب ليس للخليل ، بل الكتاب من بدائع الخليل التي لم يسبق اليها ، على حد تعبيره .

وأما السيرافي (ت ٣٦٨) فقال وهو يتحدث عن الخليل : « عمل أول كتاب العين المعروف المشهور ، الذي به يتهيأ ضبط اللغة[2] » .

واما ابو بكر الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ) فذكر كتاب العين وقال : « واكبر الظن فيه ان الخليل سبب أصله ، ورام تثقيف كلام العرب ، ثم هلك قبل كماله ، فتعاطى اتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه ، فكان ذلك الخلل الواقع به ، والخطأ الموجود فيه[3] » . والزبيدي يشير هنا الى ما كان اخذه على الكتاب من خلل وخطأ وقعا به ، مما دفعه الى انكاره على الخليل ، الا انه انكار من « يربأ بالخليل عن نسبة هذا الخلل اليه ، او التعرض للمقاومة له والرد عليه[4] » ، وعليه فالخليل مسبب أصله وراسم منهجه ، وغيره حشاه فوقع فيما وقع فيه .

وأما ابن جني (ت ٣٩٢) فانه اشبه الزبيدي في موقفه الى حد بعيد ، فانه منع ان ينسب الى الخليل ما في العين من التخليط والخلل والفساد ، وانها أشياء أدخلها غيره الى الكتاب ، وقال : « وان كان للخليل فيه عمل ، فانما هو أنه أومأ الى عمل هذا الكتاب ايماء ، ولم يله بنفسه ولا قرره ولا حرره ، ويدل على انه قد كان نحا نحوه اني أجد فيه معاني غامضة ، ونزوات للفكر لطيفة ، وصنعة في بعض الاحوال مستحكمة[5] » .

---

(١) مراتب النحويين ٥٧ .

(٢) اخبار النحويين البصريين ٣٠ .

(٣) مختصر العين : المقدمة .

(٤) نفسه وانظر : المزهر ١/٨٢ .

(٥) الخصائص ٣/٢٨٨ والمزهر ١/٤٠ .

وأما ابن فارس (ت ٣٩٥) فقد مر بنا قوله وهو يعدد مصادره : « فأعلاها وأشرفها كتاب ابي عبدالرحمن الخليل بن احمد المسمى كتاب العين[١] » . وحسبنا به دليلاً على اثباته نسبته ، ان لم نلتفت الى كونه راوياً للكتاب بسند متصل الى الخليل[٢] .

ونحن مع هؤلاء في الذهاب الى اثبات نسبة العين الى الخليل ، ومع من ذهب منهم الى انه له تأسيساً وحشواً ، وما هذه الحكاية عن المتأخرين فيه ، والاخطاء التي وقعت به ، الا أثر من آثار النسخ ، بل نحمل الليث نفسه وزر بعضها ، اذ كثيراً ما ينص الليث على ان روايته عن غير الخليل[٣] ، وقد وصف الليث طريقة الخليل في تأليف العين فقال : « فكان يملي عليّ ما يحفظ ، وما شك فيه يقول لي : سل عنه فاذا صح فاثبته ، الى ان عملت الكتاب[٤] » . فلعله كان يثبت ما هو غير صحيح ، دون ان يكون للخليل يد فيه ، وقد افادنا هذا الخبر ان الخليل كان يحشو الكتاب بما يملي على الليث مما يحفظ ، وهو يدحض رأي من نفى الحشو عن الخليل . وأفادنا ايضاً ان الكتاب تم في حياة الخليل . وصفوة القول ان العين للخليل بدليل النقل والعقل وذلك لكثرة من نسبه اليه من القدماء ، سواء في ذلك رواته ، ام سواهم من اللغويين والنحاة وأصحاب الطبقات ، ممن عرضنا لهم جميعاً فيما مر من البحث .

منهجه :

لما كان هدف الخليل من وضع معجمه ضبط اللغة وحصرها[٥] ، فقد خطا لتحقيق هذا الهدف خطوات علمية مدروسة ، بدأها بترتيب الحروف ، ثم بتقسيم الابنية ، واخيراً بتقليب اللفظة على اوجهها ، يقول الليث : « كنت اصير الى الخليل بن احمد ، فقال لي يوماً : لو ان انسانا قصد والف حروف الف وباء وتاء وثاء

---

(١) مقاييس اللغة ١/٣ .

(٢) نفسه ٣/ ١٩٨ .

(٣) العين ٤٣ ، ٦٢ ، ١٠٨ ، ٧٠ ، ١٢٥ ، ٥٩ ، ٨٦ ، ١٢٧ .

(٤) الفهرست ٦٥ .

(٥) معجم الادباء ٦/ ٢٧٧ والمزهر ١/ ٣٨ .

على ما أمثله ، لاستوعب في ذلك جميع كلام العرب ، فتهيأ له أصل لا يخرج عنه شيء منه بتة ، قال : فقلت له : وكيف يكون ذلك . قال : يؤلفه على الثنائي ، والثلاثي ، والرباعي ، والخماسي ، وانه ليس يعرف للعرب كلام اكثر منه ، قال الليث : فجعلت استفهمه ويصف لي ولا أقف على ما يصف ، فاختلفت اليه في هذا المعنى اياماً ، ثم اعتل وحججت فما زلت مشفقاً عليه ، وخشيت ان يموت في علته فيبطل ما كان يشرحه لي فرجعت من الحج ، وصرت اليه فاذا هو قد الف الحروف كلها على ما في صدر هذا الكتاب[1] » .

وحين أقبل الخليل على الحروف لم يرتض ترتيبها الابجدي القديم ، ولم يقنعه ترتيبها الهجائي المعروف « فأعمل فكره فيه فلم يمكنه ان يبتدىء التأليف من أول أ ب ت ث وهو الألف ، لأن الالف حرف معتل ، فلما فاته الحرف الأول كره ان يبتدىء بالثاني وهو الباء ، الا بعد حجة واستقصاء النظر ، فدبر ونظر الى الحروف كلها وذاقها ، فصير أولاها بالابتداء أدخل حرف منها في الحلق[2] » ومعنى هذا انه نظر الى الحروف على انها أصوات تخرج من جهاز النطق فعمد الى ترتيبها على اساس مخارجها من هذا الجهاز ، وذلك بتذوقها واحداً واحداً ، « وانما كان ذواقه اياها انه كان يفتح فاه بالألف ثم يظهر الحرف ، نحو أب ، أت ، أح ، أع ، أغ ، فوجد العين أدخل الحروف في الحلق ، فجعلها أول الكتاب ، ثم ما قرب منها الأرفع فالارفع ، حتى أتى على آخرها وهو الميم[3] » . فكان ترتيبه للحروف هكذا : ع ح هـ خ غ ـ ق ك ـ ج ش ض ـ ص س ز ـ ط د ت ـ ظ ث ذ ـ ر ل ن ـ ف ب م ـ و ا ي ـ الهمزة[4] . وسمى المجموعة الاولى التي تبتدىء بالعين : حلقية ، لأن مبدأها من الحلق . والمجموعة الثانية التي تبتدىء بالقاف : لهوية لأن مبدأها من اللهاة . والمجموعة الثالثة التي تبتدىء بالجيم : شجرية لأن مبدأها من شجر الفم اي مفرج الفم . والمجموعة الرابعة التي تبتدىء بالصاد : أسَلية لأن مبدأها من اسلة

(١) الفهرست ٦٤ ـ ٦٥

(٢) العين (الجزء المطبوع) ٥٢

(٣) نفسه ٥٢ .

(٤) نفسه ٥٣ ، ٦٥ .

اللسان ، وهي مستدق طرف اللسان . والمجموعة الخامسة التي تبتدىء بالطاء : نطعية لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى . والمجموعة السادسة التي تبتدىء بالظاء : لِثوية لأن مبدأها من اللثة . والمجموعة السابعة التي تبتدىء بالراء : ذَلقية لأن مبدأها من ذلق اللسان وهو تحديد طرفي ذلق اللسان . والمجموعة الثامنة التي تبتدىء بالفاء : شَفَوية لأن مبدأها من الشفة . والمجموعة التاسعة الاخيرة وهي حروف العلة والهمزة : هوائية لانها لا يتعلق بها شيء[1] . وهي بمجموعها « في العربية تسعة وعشرون حرفا ، منها خمسة وعشرون حرفاً صحاحاً لها أحياز ومخارج ، واربعة هوائية[2] » .

وعندما تم للخليل ترتيب الحروف على هذا النحو الدقيق ، انتقل الى اللغة التي تتكون مادتها من هذه الحروف ، فوجد ان « كلام العرب مبني على اربعة اصناف ، على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسيُّ[3] » ، وانه ليس في العربية بناء يقل عن الثنائي او يزيد على الخماسي ، فالثنائي مثل : قد ، لم ، هل ، لو ، بل وغيرها من الادوات والزجر[4] ، دون الاسماء ، لأن « الأسمَ لا يكون اقلَّ من ثلاثة احرف ، حرف يبتدأ به ، وحرف يحشى به الكلمة ، وحرف يوقف عليه[5] » . الا اذا استعمل الثنائي استعمال الاسم بادخال التشديد عليه ، فيقال : هذه لوٌّ مكتوبة ، وهذه قدٌّ حسنةُ الكِتْبة[6] . والثلاثي من الافعال مثل : ضرب ، خرج ، دخل ، ومن الاسماء مثل : عمر ، جمل ، شجر . والرباعي من الافعال مثل : دحرج ، هملج ، قرطس ، ومن الاسماء مثل : عبقر ، وعقرب وجندب . والخماسي من الأفعال مثل : اسحنكك واقشعر واسحنفر واسبكر ، والف الوصل هنا « ليست من اصل البناء ، وانما ادخلت هذه الالفات في الافعال وامثالها من

---

(١) العين ٦٥ .

(٢) نفسه ٦٤ .

(٣) نفسه ٥٣ .

(٤) نفسه ٥٣ .

(٥) نفسه ٥٥ .

(٦) نفسه ٥٥ .

الكلام ، لتكون الالف عمادا وسلما للسان الى حرف البناء »[1] . ومن الاسماء مثل : سفرجل وشمردل وقبعثر . قال الخليل : « وليس للعرب بناء في الاسماء ولا في الافعال اكثر من خمسة احرف . فمهما وجدت زيادة على خمسة احرف في فعل واسم ، فاعلم انها زائدة على البناء ، وليست من اصل الكلمة »[2] .

ونظر في هذه الابنية فوجد فيها الصحيح والمعتل ، وفرق بينهما في كل بناء ، فقسم الابنية على هذا الاساس الى : الثنائي الصحيح ، وهو ما كان في صورته من حرفين صحيحين مثل (زل) ، وان شدد ثانيهما فكانا (زلَّ) او كررا فكانا (زلزل)[3] ، لأنه يرى ان الاصل في جميع هذه الصور حرفان هما الزاي واللام . والثلاثي الصحيح ، وهو ما كان من ثلاثة احرف صحاح مثل : طرز ، زبد ، نزل[4] . والثلاثي المعتل ، وهو ما كان من حرفين صحيحين وحرف علة واحد ، مثل : ذود وثدى ، ووتد[5] . والثلاثي اللفيف ، وهو ما كان من حرف صحيح واحد وحرفي علة متصلين او منفصلين مثل : وفى وروى[6] . والرباعي الصحيح ، وهو ما كان حروفه الاربعة صحاحا مثل : صملك ، وكردس[7] . والخماسي الصحيح ، وهو ما كانت حروفه الخمسة صحاحا مثل : سفرجل ، وجرنفس[8] . والرباعي والخماسي المعتلان ، وهما ما كان احد حروفهما او اكثر من حروف العلة مثل : آوى ، آية ، يؤ يؤ[9] . وتناول الخليل هذه الابنية على هذا الترتيب عند تناوله لكل حرف من الحروف الصحاح ابتداء بالعين وانتهاء بالميم ، سوى الرباعي والخماسي المعتلين ، فقد اخرهما الى ختام الكتاب حين عقد بابا للحروف المعتلة . وذلك انه قسم كتابه على الحروف حسب ترتيبه لها ، فبدأ بحرف العين ، وقسمه الى

---

(١) العين ٥٤ .

(٢) نفسه ٥٥ .

(٣) العين (مخطوط) ق ٢٠٩ أ .

(٤) نفسه ق ٢٠٩ ب ، ٢١٠ أ .

(٥) نفسه ق ٢٢١ ب - ٢٢٢ أ .

(٦) العين (مخطوط) ق ٢٤٠ ب ، ٢٤٩ أ .

(٧) نفسه ق ١٦٢أ .

(٨) نفسه ق ١٧٧ ب .

(٩) العين (مخطوط) ق ٢٥١ ب - ٢٥٢ ب .

ابواب : باب الثنائي ، باب الثلاثي الصحيح ، باب الثلاثي المعتل ، باب اللفيف ، باب الرباعي ، باب الخماسي[1] . وهكذا فعل في سائر الحروف الى الميم .

اقترب الخليل من هدفه ، وبقي عليه ان يخطو الخطوة الاخيرة للوصول اليه ، وقد تم له ذلك باهتدائه الى فكرة التقليب ، اذ وجد انه بمقدوره ان يأخذ كل بناء من هذه الابنية الاربعة ، فيقلبه على جميع اوجهه الممكنة فيحصل على وعاء يضم جميع الفاظ اللغة ، فلا يفلت منها شيء عنه ، ولما لم تكن جميع مقلوبات هذه الابنية مستعملة في اللغة ، نص في كل مادة من مواد كتابه على المستعمل من مقلوباتها .

فرأى « ان الكلمة الثنائية تتصرف على وجهين نحو : قد ، دق . . . والكلمة الثلاثية تتصرف على ستة اوجه ، وتسمى مسدوسة ، وهي نحو : ضرب ، ضبر ، برض ، بضر ، رضب ، ربض . والكلمة الرباعية تتصرف على اربعة وعشرين وجها ، وذلك ان حروفها وهي اربعة احرف ، تضرب في وجوه الثلاثي الصحيح وهي ستة اوجه ، فتصير اربعة وعشرين وجها ، يكتب مستعملها ويلغى مهملها . . والكلمة الخماسية تتصرف على مائة وعشرين وجها ، وذلك ان حروفها ، وهي خمسة احرف تضرب في وجوه الرباعي وهي اربعة وعشرون حرفا (كذا ولعلها وجها) فتصير مائة وعشرين وجها ، يستعمل اقله ويلغى اكثره[2] » .

وحين انتهى الخليل من رسم منهج الكتاب ، اخذ بتطبيقه خطوة خطوة ، فبدأ بالحروف بأولها في الترتيب الذي وضعه لها ، وهو العين ، وبدأ فيه بأول الابنية التي وجد كلام العرب لا يخرج عنها ، وهو الثنائي ، وراح يؤلف العين مع الحروف واحدا واحدا ، وبدأ بتأليف العين مع اقرب الحروف اليه في الترتيب وهو الحاء ، ثم العين وما يلي الحاء في الترتيب وهو الهاء ، ثم العين وما يلي الهاء وهو الخاء ، ثم العين وما يلي الخاء وهو الغين ، ولما لم يجد العين مستعملا مع اي من هذه الحروف الحلقية في ثنائي ولا غيره ، حكم باهمالها[3] . حتى اذا وصل في التأليف الى باب العين والقاف وجد ان (عق) مستعمل فشرح المادة ، ثم طبق نظام التقليب ، فوجد ان

---

(١) العين (المطبوع) ٦٨ ، ١١٠ ، (المخطوط) ق ٤٣ ب ، ٥٢ ب ، ٥٧ ب .

(٢) العين (المطبوع) ٦٦ .

(٣) نفسه ٦٩ .

(قع) مستعمل ايضا وشرحه[1]، وهكذا مع الباب الذي يليه وهو باب العين والكاف ، وجد فيه (عك) مستعملا ، وكذلك مقلوبه (كع)[2] ، وهكذا حتى وصل الى باب العين والميم ، وهو آخر الحروف الصحاح ، فشرح فيه (عم) ومقلوبة (مع)[3] وبهذه المادة ينهي باب الثنائي ، فينتقل الى باب الثلاثي الصحيح المبدوء بحرف العين ، ويفعل فيه ما فعل في الثنائي ، غير انه يحصل من تقليب كل مادة فيه على ستة اوجه لا وجهين ، ينص على المستعمل منها والمهمل ، ومثل ذلك في باب الثلاثي المعتل ، وباب الرباعي الذي يحصل من تقليبه ـ نظريا ـ على اربعة وعشرين وجها ، وباب الخماسي الذي يفترض ان يحصل منه على اربعة وعشرين ومائة وجه ، لم يجد الخليل مستعملا من وجوه هذين البناءين الا القليل[4] . واذ ينتهي الخليل من حرف العين ينتقل الى الحرف الذي يليه وهو الحاء ، ويقسم المواد فيه على الابنية نفسها ، ويقلبها على النظام نفسه ، وهكذا في سائر الحروف الى الميم . ونقف من خلال تتبع منهج الخليل في الكتاب على ملاحظة التناقص الكمي في مواد الحروف كلما اقتربنا الى نهاية الكتاب ، فمواد حرف العين اكثر من مواد حرف الحاء ، ومواد الحاء اكثر من الهاء وهكذا حتى لا نجد للميم شيئا يذكر من المواد[5] . وذلك انه في تقليبه للمواد ، ادخل كثيرا منها في الحرف الاسبق في الترتيب ، فلا داعي لتكرارها في الحرف اللاحق ، فمادة (عمر) مثلاً ، من مواد حرف العين لابتدائها به ، وحين يعالج تقليباتها (عرم) ، (رعم) (رمع) ، (معر) (مرع) فانما يعالجها في حرف العين ، وبذلك أخرج من حرف الراء (رعم ، رمع) ومن حرف الميم (معر ، مرع) .

مادته اللغوية :

اشرنا في تضاعيف كلامنا السابق الى اشياء تتصل بمادة الكتاب ولعل اكثر

---

(١) العين ٧٠ ـ ٧٣ .

(٢) ٧٥ ـ ٧٦ .

(٣) ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(٤) العين (المخطوط) ق ٤٣ ب ، ٥٢ ب ، ٥٧ ب .

(٥) العين (المخطوط) ٢٥٠ أ .

اشاراتنا كانت الى البحوث الصوتية التي تضمها المقدمة القيمة في صدره [1] . وكان الخليل قد بسط فيها القول على خطواته التي خطاها لرسم منهجه في العين ، ولنا في قابل فصول الرسالة عودة الى بعض آرائه وتوصلاته التي عرضها في هذه المقدمة . ولا بد لنا بعد ان وضحت معالم (التأسيس) ان نقف على ظواهر (الحشو) وهو ما اطلقه القدماء على شرح الالفاظ .

وطريقته في معالجة الالفاظ تدل على اهتمامه بايراد المشتقات والصيغ المختلفة كما في (لعق) و(جدع)[2] ، وذكر الصفات كما في (رقع)و(لكع) ، (كعر) و(كلع)[3] ، مفرقا بين صفة المذكر وصفة المؤنث كما في (هجع) و(رقع) و(كرع) ،و(كلع) و(عجف)[4] ، ناصا على المفرد منها والجمع كما في (هجع) و(عقب) ، و(عجن)[5] ، ملتفتا في اثناء ذلك الى الفروق الدلالية بين المصادر المتعددة للمادة ، او بين صفاتها كما في (نعق) و (قبع) و (عجب)[6] ، والى وحدة الدلالة احيانا في مقلوبات الاصل الواحد كما في (عت)[7] .

وتنبيء شروحه عن وقوف الخليل على ظواهر تطور اللغة ، اذ اشار في اثنائها الى القلب كما في (ضفع)[8] ، والنحت كما في (حيعل)[9] ، والاضداد كما في (شعب)[10] والمعرب كما في (عمص)[11] . كما تنبيء هذه الشروح عن معرفة واسعة وعن اطلاع على ما دون في عصره من موضوعات لغوية مستقلة ، فقد عرض

---

(١) حقق الشيخ محمد حسن آل اسين هذه المقدمة في العددين ٩ ، ١٠ من مجلة البلاغ ١٩٧٧م ، ثم افردها في مستل طبع في السنة نفسها .

(٢) العين (المطبوع) ١٩٠ ، ٢٥٠ .

(٣) ١٧٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ .

(٤) ١١٣ ، ١٧٩ ، ٢٢٦ ، ، ٢٢٩ ، ٢٦٨ .

(٥) ١١٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٦٥ .

(٦) ١٩٤ ، ٢٠٧ ، ٢٧١

(٧) ٩٤ .

(٨) ٣٢٩ .

(٩) ٦٨ .

(١٠) ٣٠٦ .

(١١) ٣٦٩ .

الى ما يتصل بالحيوان كما في (عق) و(عك) و(كتع) و(عجب)[1] ، والنبات كما في (عض) و(نبع) و(عقف) ، و(قفع) و(عمق)[2] ، والمواضع والبلدان كما في (عق) و(قمع) و(عمق)[3] ، والاعلام والانساب كما في (عك) و(قطع) و(عتك) و(عقبْ) و(عكل)[4] .

وكثيرا ما نجد الخليل وهو يعالج مسألة نحوية كما في (كتع) و (لكع) و (عجف)[5] ، او صرفية كما في (قطع) و(قرع) و(لعق)[6] . كما نجده معنياً بالقياس في مواضع عديدة من الكتاب ، يذكر وجهه وينص على ما يخالفه دون ان يخطئه لغة كان او شذوذا كما في (قطع) و(عقر) و(لعق) و(نقع) و(عكن) و(عكف) و (جدع) و(عجف) و(عشب)[7] . يقول مثلا : « والأقطعُ : المقطوعُ اليد ، والجَمعُ قُطْعان ، والقياس أن تقول : قُطْع لأن جمع أفْعَل فُعْل الا قليلا ، ولكنهم يقولون :قُطع الرجل لأنه فُعِل به[8] » .

وكان يعتمد فيما يفسر على الشواهد نثرية وشعرية ، فاستشهد بالقرآن الكريم كما في (خشع) و(عتق) و(قنع) و(عكف) و(عجف) و(صعد)[9] ، واشار الى اختلاف القراءة احيانا كما في (عكف)[10] ، واستكثر من الاستشهاد بالحديث الشريف كما في (عق) و(عج) و(ضع) و(عش) و(عهر) و(خشع) و(خلع)[11] وهو بهذا الاستكثار وسع مجال الاستشهاد مطلقا مصدراً لغويا مهما من

---

(١) ٧٣ ، ٧٥ ، ٢٢١ ، ٢٧١ .
(٢) ٨٣ ، ١٠٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢١١ .
(٣) ٧٣ ، ٢١٢ .
(٤) ٧٥ ، ١٥٦ ، ٢٢١ ، ٢٠٦ ، ٢٢٨ .
(٥) ٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٦٨ .
(٦) ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٧٧ ، ١٩٠ .
(٧) ١٥٣ ، ١٧١ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٥٠ ، ٢٦٨ ، ٣٠٥
(٨) ١٥٣ .
(٩) ١٢٩ ، ١٦٦ ، ١٩٣ ، ٣٣٢ ، ٢٦٨ ، ٣٣٧ .
(١٠) ٢٣٣ .
(١١) ٧٠ ، ٧٧ ، ٨٤ ، ٨١ ، ١٢١ ، ١٢٩ ، ١٣٧ .

عقاله ، مخالفا ما تعارف عليه اللغويون ـ وبخاصة البصريين ـ بعده من التقليل من شأن هذا المصدر[1]، الا ما ثبت لديهم صحته من الاحاديث سندا ومتنا، حتى كاد الحديث يختفي من كتبهم شاهدا على اللغة سوى ما شذ من هذه الكتب مما لا يقاس عليه منهج عام . على ان اللغويين عموما بصريين وكوفيين لم يقفوا من الحديث في اللغة وقوفهم منه في النحو ، اذ كان تحرجهم من الاستشهاد به في النحو اكثر ، على تفاوت بينهم في ذلك . واستشهد الى جانب ذلك بالامثال كما في (عظ)[2] ،وبالاقوال المأثورة عن السجاع والفصحاء كما في (عك) و(جذع)[3] .

اما الشعر فهو اكثر انواع الشواهد عنده ، وقد وسع مجاله ايضا ،فالى جانب استشهاده للجاهليين امثال: النابغة كما في (ذع) و (عر)[4] ، وامرىء القيس كما في (خلع) و (عقص)[5]، والاعشى كما في (عقص)[6]، ولبيد كما في (عقر)[7] ، والمخضرمين امثال : الحطيئة كما في (قعد)[8] ، وعلى بن ابى طالب كما في (زعق)[9] ، والاسلاميين امثال : جريركما في (عق)[10]، والاخطل كما في (عر)[11] والطرماح كما في (هكع) و (علق)[12] ، والكميت كما في (علق)[13] ، فقد استشهد للعباسيين امثال : بشاربن برد كما في (جعب)[14]

---

(١) الاقتراح ١٧ وهمع الهوامع ١/ ١٠٥ وخزانة الادب ١/ ٤ ـ ٥ .

(٢) ٩٥ .

(٣) ٧٥ ، ٢٥٢ .

(٤) ٩٦ ، ٩٧ .

(٥) ١٣٧ ، ١٤٥ .

(٦) ١٤٥ .

(٧) ١٧٠ ، ١٧١ .

(٨) ١٦١ .

(٩) ١٥٢ .

(١٠) ٧٣ .

(١١) ٩٧ .

(١٢) ١١٢ ، ١٨٦ .

(١٣) ١٨٧ .

(١٤) ٢٧٢ .

وحفص الاموي كما في (عقل) و(نقع) [1] ، وبذلك مد عصر الاستشهاد ليشمل فصحاء الشعراء العباسيين المعروفين بتمكنهم من اللغة ، وقد خالف بهذا جمهور اللغويين الذين حظروا الاستشهاد بشعراء هذا العصر ، ووقفوا عند ابراهيم ابن هرمة من الامويين . [2] . وفي العين شعر غير منسوب ، ولعل الخليل لم يكن يجهل نسبته كما في (لقع) و (جعف) و(عضد) . [3]

وليس للخليل طريقة معينة في ايراد الشاهد الشعري ، فقد ينشده بعد شرح معنى اللفظة كما في (عز) [4] ، وقد ينشده خلال الشرح ولما ينته منه كما في (حَيْعَل)[5] ، وقد ينشده قبل ذكر اللفظة وشرحها ، وهذه الحالة تكون في الغالب في المواد التي ترد عرضا في اثناء معالجة اللفظة المعقود لها الباب كما في (حيعل) و (قع) [6] . ولم يلتزم الخليل ايضا بموقف موحد من هذه الشواهد ، فقد لا يتعرض للتعليق على البيت وهو الاكثر كما في (خضع) و(عرق) [7] ، وقد يجمل بعده معناه العام كما في (عقل) و(وقع) [8] ، واحيانا يذكر اختلاف الرواية فيه كما في (عرق) و(قرع) [9] ، واخرى يورد خبرا يتعلق بالبيت كما في (قعد) [10].

وعني الخليل باللهجات واللغات عناية كبيرة ، ونص على كثير من ظواهرهما . فمن اللهجات العربية التي ذكر استعمالاتها : لهجة هذيل كما في (قنع) [11] ، ولهجة اهل اليمن كما في (علق) [12] ، وغيرهما . وكان احيانا يكتفي

---

(1) ١٨٣ ، ١٩٥ .

(2) خزانة الادب ١/ ٦ .

(3) ١٩٠ ، ٢٦٩ ، ٣١٢ .

(4) ٧٨ .

(5) ٦٨ .

(6) ٦٨ ، ٧٣ .

(7) ١٣٠ ، ١٧٥ .

(8) ١٨٣ ، ٧٣ - ٧٤ .

(9) ١٧٦ ، ١٧٨ .

(10) ١٦١ .

(11) ١٩٣ .

(12) ١٨٥ .

بالنص على ان هذا الاستعمال لغة ، دون ان ينسب هذه اللغة الى قائليها كما في (قطع) و(عقر) و(فضع)[1] ، اما لشهرة اللغة التي ينص على استعمالها، بحيث لا يحتاج معها ذكر القائلين ، واما لعدم استحضاره للنسبة حين ذكر اللغة ، او لأنه لا يرى ضرورة لذكرها . وعرض لبعض ظواهر اللهجات ، فذكر عَنْعَنة تميم وكَشْكَشة ربيعة كما في (عن)[2] ، وقطعة طيء كما في (قطع)[3] ، يقول : « ويُقال : من تَرك عَنْعَنَةَ تَميم وكَشكشةَ ربيعة فهم الفصحاء ، أما تميم فانهم يجعلون بدل الهمزة العين ، قال شاعرهم :

ان الفؤادَ على الذّلفاءِ قد كمدا — وحبها موشكٌ عَنْ يَصْدَع الكبدا

وربيعة تجعل مكان الفاء (كذا ولعلها محرفة عن الكاف) شيناً ، قال :

تضحكُ منيِ أنْ رأتْني احترشْ — ولو حَرَشْتِ لكشفْتِ عنْ حِرِشْ

ويقال : بل يقولون : عَلَيْكِشْ وبِكِشْ ، ويقال : بل يبدلون في كل ذلك[4] » . وشك في بعض ما بلغه عن الخلافات اللهجية فلم يقطع بصحته ، واحتمل ان يكون لثغة لا لغة[5] كما في (ذعق) . والتفت الى التطور اللغوي الذي يصيب اللغة في الحواضر ، مما يعبر عن المراحل التاريخية الاولى للعامية كما في (عق) ، يقول : « ونوى العَقوق : نوى هش لين رخو المِضْغَة ، تُعلَفُه الناقة العَقوق الطافاً لها فلذلك اضيف اليها ، وتأكله العجوز ، وهي من كلام اهل البصرة ، ولا تعرفه الاعراب في بواديها[6] » . كما اشار الى غير العربية من اللغات ، كاشفا عن سعة ثقافته كما في (كنع) ، يقول : « وكنعان بن سام بن نوح ، ينسب اليه الكنعانيون ، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية[7] » ، على ان ذلك لا يعني معرفته بالكنعانية .

---

(١) ١٥٨ ، ١٧٢ ، ٣٢٩ .
(٢) ١٠٤ .
(٣) ١٥٦ .
(٤) ١٠٤ .
(٥) ١٦٨
(٦) ٧١ .
(٧) ٢٣٢ .

وزخر الكتاب بالرواية عن الاعراب الفصحاء أمثال : زائدة كما في (عهق) و (دهع) و (قعث)[1] ، ومبتكر الاعرابي كما في (قعث)[2] ، وعرام بن الاصبغ السلمي[3] كما في (عهج) و (عثج)[4] ، وأعراب لم يسمهم الخليل ، مكتفياً بأن ينسب ما يورده الى (أعرابي) كما في (قطع) و (قفع)[5] . ويبدو من بعض مواطن الرواية عن هؤلاء ان الخليل كان يعرض عليهم ما يريد تدوينه ، ولعل الليث هو الذي كان يفعل ذلك بطلب من الخليل ، وقد مر ان الخليل كان يوصيه بالسؤال عما يشك فيه والتثبت منه ، يقول : « والعَثَوْثَجُ ، البعير الضخم السريع المجتمع الخلق ، يقال : اعْثَوْثَجَ واعْثَوْجَجَ اعثيجاجاً ، ولم يعرفه عرام[6] » . والى جانب الرواية عن الاعراب نجد الحكاية عن عدد من الدارسين اللغويين أمثال : سيبويه (ت ١٨٠ هـ) كما في (كرع)[7] ، وابي عبيدة (ت ٢١٠) والاصمعي (ت ٢١٣) كما في (هجع)[8] ، وغيرهم . وكنا قد رجحنا ان تكون هذه النصوص مما أضيف الى أصل الكتاب وأقحم فيه ، لاعتبار تأخر هؤلاء الدارسين في العصر عن الخليل وتلمذتهم له ، وان لم نجد في مناهج القدماء ما يمنع من الحكاية عن اثبات المعاصرين . ومما يعضد مذهبنا في ان النقل عن هؤلاء مقحم ، اننا نجد في الكتاب عبارة (قال غير الخليل) كثيرة التردد كما في (قطع)[9] .

وكان العلماء قد اخذوا على مادة الكتاب مآخذ كثيرة ، لا نريد ان ندخل في مناقشتها وابطالها ، فقد كفانا الاقدمون مؤونة ذلك ، ونكتفي بعبارة ابي الطيب اللغوي (ت ٣٥١ هـ) المجملة التي عقب بها على ذكره لكتاب المفضل بن سلمة

---

(١) ١١٢ ، ١١٩ ، ١٦٩ .

(٢) ١٦٩ .

(٣) ترجمته في معجم الادباء ١٣/١٢ .

(٤) ١١٣ ، ٢٥٣ .

(٥) ١٥٣ ، ٢٠٠ .

(٦) ٢٥٣ .

(٧) ٢٢٧ .

(٨) ١١٣ .

(٩) ١٥٧ .

(ت ٣٠٠هـ) في الطعن بكتاب العين ، فقال : « رد شيئاً كثيراً من كتاب العين اكثره غير مردود[1] » . غير اننا وجدنا في بعض هذه المآخذ ما يشير الى الادعاء المحض بوجودها في العين وهو بريء منها، من ذلك قول ابي بكر الزبيدي (ت ٣٧٩ هـ) : « لم أسمع بالتاسوعاء وأهل العلم مختلفون في عاشوراء ، فمنهم من قال : انه اليوم العاشر من المحرم ، ومنهم من قال : انه اليوم التاسع[2] » ، وهو بهذا يرد على زعم الخليل بان تاسوعاء هو اليوم التاسع من المحرم ، وعاشوراء هو العاشر منه ، فالتاسوعاء لم يسمع به الزبيدي ، وعاشوراء لا يعني العاشر ، بل قيل انه التاسع أيضاً . اما الرجوع الى العين فيقفنا على انه لا وجود لتاسوعاء في مادة (تسع) فيما توفر من نسخ الكتاب[3] . وعاشوراء فقد قال الخليل في مادة (عشر) « وعاشوراء : اليوم العاشر من المحرم ، ويقال : بل التاسع[4] » . فلم يقطع بأن عاشوراء اليوم العاشر فقط ، وانما نقل قول من قال انه يعني التاسع ايضاً . وبهذا ينجلي تهافت المأخذ وضعفه ، ولا نقول الكذب فيه .

أثره في الدرس اللغوي :

منذ ان وطىء العين أرض البصرة ، بل منذ ان تم تأليفه ، والعلماء في شغل به ، وقد مر بنا تبين مواقفهم منه في الدفاع والانكار ، وقد تمخضت هذه المواقف عن عدد كبير من الكتب تدور في فلك العين ، وتقوم بحوثها حوله ، استدراكاً ونقداً ودفاعاً واختصاراً ، ومن هذه الكتب معجمات لغوية اتخذت من منهج العين منهجاً لها سارت عليه ، ونحن نذكر الآن من هذه المكتبة الغنية ما أسعفت المصادر بذكره وذكر مؤلفه[5] ، دون الخوض في التفصيلات ، مرتبين ذلك تاريخياً .

---

(١) مراتب النحويين ٩٧ .

(٢) المزهر ١/ ٦٦ .

(٣) العين (المخطوط) ق ٢٧ أ .

(٤) نفسه ق ٢٠ أ ، والجزء المطبوع ٢٨٨ .

(٥) مراتب النحويين ٩٧ . وتهذيب اللغة ١/ ٣٢ ، ٤٠ والفهرست ٤٣ ، ٦٢ ، ٦٣ والبداية والنهاية ١٠/ ١٦١ . وفهرسة ابن خير ٣٥٠ ومعجم الادباء ١١ / ٧٥ وانباه الرواة ١/ ١٠٧ ، ٢٥٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٤/ ٩٣ ، ٩٧ والمزهر ١/ ٤٠ ، ٤٤ وبغية الوعاة ٢٤٥ .

وأول هذه الكتب كتاب (فائت العين) للخليل بن احمد (ت ١٧٥ هـ) مؤلف العين ، ثم كتاب في الاستدراك على العين لم يذكر اسمه صريحاً لابي فيد مؤرج السدوسي (ت ١٩٥ هـ) ومثله لنصر بن علي الجهضمي (معاصر السدوسي) وآخر في هذا الموضوع للنضر بن شميل (ت ٢٠٣) ، وللنضر ايضاً كتاب (المدخل الى كتاب العين) ، وهؤلاء الثلاثة وأعني بهم السدوسي والجهضمي وابن شميل تلاميذ الخليل ، وظهر بعد ذلك كتاب (الاستدراك على الخليل) لابي تراب (تلميذ شمر بن حمدويه المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) ، وكتاب (الرد على الخليل واصلاح ما في كتاب العين من الغلط والمحال) لابي طالب المفضل بن سلمة (ت ٣٠٠ هـ) .

وفي القرن الرابع يظهر كتاب (التوسط) لابن دريد (ت ٣٢١) ، ثم كتاب (الرد على المفضل في نقضه على الخليل كتاب العين) لابراهيم بن محمد المعروف بنفطويه (ت ٣٢٣) ، فكتاب (ما أغفله الخليل في كتاب العين) لابي عبدالله محمد الكرماني النحوي (ت ٣٢٩) وكتاب (فائت العين) لابي عمر الزاهد (ت ٣٤٥) ، وكتاب (الرد على المفضل في الرد على الخليل) وكتاب (الرد على من نفى كتاب العين عن الخليل) وكلاهما ـ ولعلهما كتاب واحد ـ لابن درستويه (ت ٣٤٧) ، وكتاب (التكملة) لاحمد بن محمد البشتي الخارزنجي (ت ٣٤٨) وكتاب (الحصائل) لابي الازهر البخاري (معاصر الازهري) ، وكتاب (الرد على الليث) لابي منصور الازهري (ت ٣٧٠) ، وكتاب (الاستدراك لما اغفله الخليل) لمحمد بن جعفر الهمذاني (ت ٣٧١) ، وكتاب (المستدرك من الزيادة في كتاب البارع لابي علي البغدادي على كتاب العين للخليل بن احمد) وكتاب (استدراك الغلط الواقع في كتاب العين) وكتاب ـ او رسالة ـ (الانتصار للخليل فيما رد عليه في العين) وكتاب (مختصر العين) وكلها لابي بكر الزبيدى (ت ٣٧٩) ، وكتاب (مختصر العين) لابي الحسن علي بن القاسم السنجاني ، وفي القرن الخامس ظهر كتاب (غلط العين) للخطيب الاسكافي (ت ٤٢٠) وكتاب (تلقيح العين) لابي غالب بن التياني (ت ٤٣٦هـ) ، ولم يصل الينا من هذه المجموعة سوى (مختصر العين) للزبيدي[1] .

---

(١) طبعت منه قطعة في المغرب بتحقيق علال الفاسي ومحمد بن تاويت الطنجي د . ت .

ومن المعجمات التي ترسمت منهج العين : (الجمهرة) لابن دريد (ت ٣٢١ هـ)[١] ، والبارع لابي علي القالي (ت ٣٥٦)[٢] و (تهذيب اللغة) لابي منصور الازهري (ت ٣٧٠)[٣] ، و (المحيط في اللغة) للصاحب بن عباد (ت ٣٨٥)[٤] ، و (المحكم) لابن سيده (ت ٤٥٨)[٥] . وقد سارت جميع هذه المعجمات في اثر العين ترتيب حروف وتقسيم أبنية وتقليب مواد ، ولم تخالفه الا في أشياء طفيفة لا تذكر كمخالفة ابن دريد في ترتيبه الحروف ، فقد اختار ترتيبها الهجائي لسهولته وشيوعه ، وكمخالفة بعض هذه المعجمات لتقسيم أبنية الثنائي والثلاثي وغيرهما ، مما لا يعد خروجاً على المنهج الذي احتذته . اما مكاثرة هذه المعجمات بعدد المواد فلا تعد من المخالفة في شيء ، وشأن المعجمات في ذلك شأن كتب الاستدراك ، اذ فاتها جميعاً ان العين بمنهجه المحكم يستوعب كل الذي استدركته من المواد ، بل كان الخليل ينظر الى هذه المستدركات وهو يضع أصول منهجه .

* * *

الجيم : لابي عمرو الشيباني (ت ٢٠٦ هـ)

وهو ـ كما مر ـ ثاني ثلاثة معجمات بهذا العنوان ، أولها : الجيم للنضر بن شميل (ت ٢٠٣ هـ) ، وثالثها : الجيم لابي عمرو شمر بن حمدويه الهروي (ت ٢٥٥ هـ) ، وقدمنا اننا لا نعرف عن الاول سوى عنوانه ، فلم تصفه لنا المصادر وعن الثاني سوى انه ضاع بعد ان ضن به مؤلفه على الناس ، وانه ابتدأه بحرف الجيم ، ونتف أوصاف اخرى لا تغني شيئاً مر الكلام فيها . وقد وصل الينا من هذه الثلاثة معجم ابي عمرو الشيباني ، وقد طبع في ثلاثة اجزاء[٦] ، عن نسخة محفوظة

---

(١) طبع في حيدر آباد في ثلاثة أجزاء بتحقيق كرنكو سنة ١٣٤٤ ـ ١٣٥١ هـ .

(٢) نشرت منه قطعة مصورة في لندن بعناية فولتون سنة ١٩٣٣ م ، ثم طبع كاملاً في بيروت في مجلد واحد بتحقيق هاشم الطعان سنة ١٩٧٥ م .

(٣) طبع في القاهرة بتحقيق عبدالسلام هارون وجماعة سنة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٧ م .

(٤) طبع منه الجزء الاول في بغداد بتحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين سنة ١٩٧٦ والثاني بتحقيقه ايضاً في بغداد ١٩٧٨ .

(٥) طبع في القاهرة بتحقيق مصطفى السقا وجماعة سنة ١٩٥٨ م .

(٦) طبعت في القاهرة بتحقيق ابراهيم الابياري وجماعة سنة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٧ م .

بالاسكوريال بمدريد نسخت في حدود القرن الرابع او الخامس الهجريين في أقوى الآراء[1] ، وقوبلت على ثلاث نسخ ، الاولى : نسخة ابي موسى الحامض (ت ٣٠٥) والثانية : نسخة ابي سعيد السكري (ت ٢٧٥) ، والثالثة : نسخة لم يذكر الناسخ الذي قام بالمقابلة عنها وعن صاحبها شيئاً[2] . وقد أكمل الناسخ بهذه المقابلة نسخته وسد نقصها وصححها ، يقول : « اقتفيت بهذه النسخة نسخة ابي موسى الحامض فاستدركت بها أكثر شكوكي ، ووجدت فيها ما ذكر السكري انه سقط عليه من ورقة فنقلته ، فكان زائداً على ما ذكر انه سقط عليه بضعفه ، وقد بينت ذلك في مواضعه[3] » . ثم يذكر انه أعلم على مواطن التصحيح بحرف (ض) اشارة الى لقب الحامض ، وانه وجد في نسخة الحامض زيادة ورقتين في حرف الفاء على نسخة السكري نقلهما وبيّن موضعهما[4] .

اسمه :

قسم ابو عمرو كتابه أبواباً ، مرتبة على الحروف الهجائية ، جاعلاً لكل حرف منها بابا خاصاً ، مبتدئاً بباب الالف ومنتهياً بباب الياء ، وهذا يعني انه سلك السبيل الشائعة في اتخاذه الترتيب الهجائي للحروف ، وانه لم يعمد الى ترتيب جديد يتقدم به حرف ويتأخر آخر من حروف الهجاء وفق اسس صوتية معينة ، وذلك ما لم نكن نتوقعه من معجم سماه مؤلفه (كتاب الجيم) ، اذ يسرع التصور أول مرة الى انه ابتدأ بالجيم لعلة من العلل يشرحها ابو عمرو في مقدمته . غير ان الكتاب ـ وقد عري من المقدمة ـ لم يبدأ بحرف الجيم . ذلك ان الدارس سبق له ان وقف على معجم سماه مؤلفه (العين) فوجد فيما شرحه الخليل في المقدمة من دراسة الحروف وتقديمه حرف العين ، ومن ابتداء ابواب الكتاب بهذا الحرف ما يسوغ التسمية .

والذي يظهر من ذكر الكتاب في المصادر ، ان الجهل بحقيقة تسميته قديم ، يقول القفطي : « ... وسماه كتاب الجيم ، وأوله الهمزة ، ولم يذكر في مقدمة

(١) الجيم : مقدمة المحقق ، مجلة لغة العرب ، السنة السابعة ١١/ ١٥٧ .
(٢) الجيم مقدمة المحقق : ١/ ٤٤ .
(٣) الجيم ١/ ٥١ .
(٤) نفسه ١/ ٥١ .

الكتاب لِمَ سماه الجيم ، ولا علم احد من العلماء ذلك[1] » . ثم يسرد من أخبار العلماء ما يدل على صحة زعمه ، ويقول ابن مكتوم : « سئل بعضهم : لِمَ سُمِّيَ كتاب الجيم . . فقال : لأن أوله حرف الجيم ، كما سمي كتاب العين ، لأن أوله حرف العين . قال : فاستحسنا ذلك ، ثم وقفنا على نسخة من الجيم فلم نجده مبتدئاً بالجيم[2] » . فالمجيب كما يبدو لم يعتمد معرفة حقيقية باصل التسمية وانما ذهب الى قياس الجيم على العين ، فلما وقعت لدى المستحسنين جوابه نسخة ، من الجيم ذهبت بالتعليل وابطلته . ولعل من أسباب هذا الجهل ان ابا عمرو الشيباني ضن بجيمه على الناس ، كالذي نسب خطأ من بعده الى شمر بن حمدويه بكتابه ، يقول ابو الطيب اللغوي متحدثاً عن كتاب الشيباني : « وأما كتاب الجيم فلا رواية له ، لأن ابا عمرو بِخل به على الناس فلم يقرأه عليه احد[3]» .

واذا استقرينا بعد هذا معجمات اللغة للوقوف على معنى الجيم فيها ، فلا نعثر على ضالتنا قبل القاموس المحيط للفيروز ابادي المتوفى (٨١٧ هـ) ، يقول : « والجيم : الديباج ، سمعته من بعض العلماء نقلاً عن ابي عمرو مؤلف كتاب الجيم[4] » . ويعلق الزبيدي على هذا بقوله : « وقوله (سمعته) يدل على ان المصنف لم يطلع على كتاب الجيم كما هو ظاهر[5] » . وينقل الزبيدي ايضاً قول الفيروز ابادي في كتابه (بصائر ذوي التمييز) متحدثاً عن ابي عمرو الشيباني : « وله كتاب في اللغة سماه الجيم ، كأنه شبهه بالديباج لحسنه[6] » . وذكر الفيروز ابادي ايضاً ان من معاني الجيم : الابل المغتلمة[7] ، وتسقطه الزبيدي فقال : « وقوله (الابل المغتلمة) وهم ، والذي نقله بنفسه في البصائر عن الخليل قال : الجيم عندهم : الجمل المغتلم[8] » . وهذا الذي نقله الفيروز ابادي في البصائر عن

---

(1) انباه الرواة ١/ ٢٢٤ .

(2) المزهر ١/ ٩٠ .

(3) مراتب النحويين ١٤٥ .

(4) القاموس المحيط : جيم ٤/ ٩٧ .

(5) تاج العروس ٨/ ٢٣٦ (جيم) .

(6) ٨/ ٢٣٦ .

(7) القاموس المحيط ٤/ ٩٧ .

(8) تاج العروس ٨/ ٢٣٦ .

الخليل لم ينقله عن العين فليس فيه هذه المادة، وانما عن الرسالة المنسوبة الى الخليل باسم (الحروف)[1] ، وقد مرت دراستنا لهذه الرسالة في الفصل السابق وشكنا في نسبتها الى الخليل ما لا نكرره هنا ، وذكر الزبيدي ايضا ان من معاني الجيم : الروح ، مستشهداً لهذا المعنى ببيت غير منسوب ، ونص على انه يروى رواية اخرى[2] ، وليس في روايته الثانية لفظ (الجيم) الذي هو موطن الاستشهاد .

نخلص من ذلك الى ثلاثة معان مذكورة للجيم لا غير ، هي : الديباج ، والجمل المغتلم ، والروح . ونحن نشك في صحة ورودها في اللغة للاسباب الآتية :

١ ـ اننا لم نجد مادة الجيم ومعانيها في معجمات اللغة المتقدمة ، اذ لو كانت قد وردت عن العرب ، لكانت تلك المعجمات اولى بذكرها من القاموس المحيط ، وتاج العروس ، بل نص الاخير على ان المادة مما أهمله الجوهري[3]، مثلا .

٢ ـ طعن الزبيدي في صحة ما أورده الفيروز ابادي من معنى (الديباج) منسوباً الى ابي عمرو الشيباني ، بانه سمع ولم يطلع ، يؤ يد ذلك ما روي عن ضن الشيباني بكتابه على الناس ، وعدم روايته او قراءته عليه وعلى غيره[4] .

٣ ـ طعن الزبيدي في صحة نقل الفيروز ابادي معنى (الابل المغتلمة) عن الخليل بأنه نقله عنه في البصائر (الجمل المغتلم) ، يضاف الى ذلك ان رسالة (الحروف) التي نقل الفيروز ابادي منها المعنى المذكور عن الخليل ، لم يثبت انها للخليل، وفي نسبتها اليه شك كبير ، ذلك انها لم تنسب اليه في جميع مصادر ترجمته القديمة ، واول من ذكرها هو احمد بن محمد الرازي المتوفى (٦٣٠ هـ) في كتابه (الحروف)[5] وبين القرن الثاني والقرن السابع خمسة قرون لم تعرف فيها رسالة الحروف .

---

(١) الحروف ٢٨ .

(٢) تاج العروس ٨/ ٢٣٦ .

(٣) تاج العروس ٨/ ٢٣٦ .

(٤) مراتب النحويين ١٤٥ .

(٥) الحروف ٤ .

٤ ـ الشك في صحة معنى (الروح) الذي ذكره الزبيدي المتوفى (سنة ١٢٠٥ هـ) منفرداً به ، للشك في الشاهد الذي اعتمد عليه في استخراج هذا المعنى ، لعدم نسبته اولاً ، ولاحتمال صحة روايته الثانية العارية من لفظ الجيم موطن الشاهد ثانياً .

فاذا بطلت هذه المعاني الموضوعة للجيم ـ ولا يصلح منها سوى (الديباج) عنواناً للكتاب ـ فماذا يكون وراء اختيار ابي عمرو الشيباني للجيم عنواناً لمعجمه ؟ من الدارسين المحدثين من مال الى ما أورده الفيروز ابادي من ان المقصود بالجيم هو الديباج تشبيهاً له في الحسن[1] . ومنهم من ذهب يعلل هذه التسمية بخصوصية في حرف الجيم كان ابو عمرو الشيباني ينظر اليها حين ألف كتابه ، وصاحب هذا الرأي هو محقق الجزء الاول من الكتاب ، بسطه في المقدمة التي كتبها في صدره[2] . خلاصته ان الكتاب ـ كما هو بين أيدينا ـ من صنع صانع غير ابي عمرو الشيباني ، وأن ابا عمرو لم يكمله ولم يتول ترتيبه بنفسه . لأن الكتاب ـ وقد سمي بالجيم ـ كان يجب ان يبدأ بحرف الجيم ، كما بدأ العين بحرف العين . ولم يسم ابو عمرو كتابه بالحروف التي تسبق الجيم كالباء والتاء والثاء ، لأن هذه الحروف تورث اللبس ، ويسرع اليها التصحيف ، فيحتاج معها الى ما يزيل هذا اللبس بالذكر مع الباء ، بموحدة تحتية ، ومع التاء بمثناة فوقية ، وهكذا ، فيثقل العنوان ويطول . يضاف الى ذلك ان اختياره للجيم كان مبنياً على اسس صوتية ، فقد اخضع ابو عمرو الحروف للدراسة ، وتناولها من حيث اتصافها بالجهر والهمس ، فوجد ان الجيم حرف من تسعة عشر حرفاً تتصف بالجهر ، ولعله كان يرى كسابقه النضر بن شميل مؤلف الجيم انه ـ اي حرف الجيم ـ على رأس هذه الحروف المجهورة . وحرف الجيم كذلك ـ في تقسيم الحروف الى شديدة ورخوة ومتوسطة ـ أحد ثمانية حروف تتصف بالشدة ، وبالجمع بين الجهر والشدة يكون الجيم أحد ستة حروف تجمع بين الصفتين ، والجيم بعد هذا حرف يجب معه التحفظ في النطق حتى لا

---

(١) د . رمضان عبدالتواب : فصول في فقه العربية ٢٣٩ ، د حسين نصار : المعجم العربي ١/ ٧٨ ـ ٧٩ ومجلة كلية الشريعة ، سنة ١٩٦٥/ ١٩٦٦ ، ٢/ ٣١ .

(٢) ابراهيم الابياري : مقدمة الجيم ٣٧ ـ ٤١ .

يلتبس بالشين . وعليه فان « هذه الاعتبارات لا شك كانت مدعاة هذا الاختيار[1] » .

ولنا على هذا الذي ذكره الاستاذ المحقق ملاحظات ، نجملها بما يأتي :

١ ـ انه لا دليل يؤ يد ما ذهب اليه ، وما قرره من الاعتبارات التي كانت ـ على حد زعمه ـ مدعاة اختيار هذه التسمية ، فالمصادر لم تفصح بشيء من ذلك ، بل صرحت بجهلها بحقيقة التسمية كما مر ، وليس في الكتاب مقدمة تشير الى هذا . وكل ما أورده المحقق لا يخرج عن نطاق الحدس والتخيل .

٢ ـ ولا دليل ايضاً على ان الكتاب من صنع صانع غير ابي عمرو ، وان ابا عمرو لم يتولّ اكماله وترتيبه ، بحجة انه لم يبدأ بحرف الجيم ، فقدم النسخة التي بين ايدينا يدل على غير ذلك ، فهذه النسخة المكتوبة في القرن الرابع الهجري ، قد عورضت على نسخ ثلاث منها نسخة السكري (ت ٢٧٥ هـ) ونسخة الحامض (ت ٣٠٥ هـ) كما مر بيانه ، وهذا يعني ان من أصول نسختنا ما كتب في القرن الذي أدركه ابو عمرو وتوفي فيه ، بل ان نسخة ابي عمرو نفسه كانت احد الاصلين اللذين انتسخت منهما نسخة السكري ، اذ نقرأ في احدى صفحات الكتاب ما نصه : « قال السكري : هذا آخر باب العين من نسخة مفضل عن نسخة ابي عمرو ، ويتلوه باب العين من أصل ابي عمرو نفسه[2] » . فلو كان ترتيب الحروف مخالفاً في هذه الاصول لما وصل الينا في النسخة المطبوعة لأخذ به ناسخها الذي كلف نفسه بمقابلة نسخته على تلك النسخ ، او لنبه عليه في الاقل ، كما نبه في مواطن كثيرة من الكتاب على الزيادة والسقط فيها[3] . ولا يحتمل بعد ذلك ان يحدث هذا الاختلاف في هذه الحقبة الضيقة المتصلة من حياة السكري بحياة ابي عمرو ، فقد ولد السكري سنة (٢١٢ هـ)[4] ولما يهلك ابو عمرو ، على الرواية التي تزعم ان وفاته

---

(١) الجيم ١/ ٤١ .

(٢) ٣/ ٢٨٣ .

(٣) الجيم ١/ ٤٥ ـ ٤٦ .

(٤) انباه الرواة ١/ ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

تأخرت عن هذه السنة[1] . هذا اذا لم نأخذ بما توهمه ابو الطيب اللغوي من تلمذة السكري لابي عمرو الشيباني[2] .

٣ ـ اذا كانت الحروف التي تسبق الجيم في الترتيب الهجائي تورث اللبس لتشابه رسمها كالباء والتاء والثاء ، فماذا عن الالف أو الهمزة ، وهو أول الحروف في هذا الترتيب ، بل الهمزة أول الحروف في الترتيب المخرجي ايضاً عند سيبويه[3] .

٤ ـ اذا كانت الجيم تتصف بالجهر فماذا يميزها عن تسعة عشر حرفا تتصف بالجهر ايضاً ، واذا كانت شديدة فماذا يقدمها على ثمانية حروف تتصف بالشدة ، واذا كانت تجمع الى الجهر الشدة فماذا يفردها عن ستة حروف تجمع الصفتين ، واذا كانت ـ من غير احتراز في النطق ـ تلتبس بالشين فماذا يفضلها على الشين .

٥ ـ انه رجع فيما ذكره من خصائص حرف الجيم الصوتية الى كتاب (النشر في القراءات العشر) لابن الجزري المتوفى (٨٣٣ هـ) وهو مصدر متأخر بالنسبة لأوليات علم الاصوات ، وكان يجب الرجوع الى مقدمة الخليل في العين ، وكتاب سيبويه ، لانه إن كان هناك احتمال في وقوف ابي عمرو الشيباني على دراسة صوتية تفتح أمامه باب اختيار الجيم ، فانما هي دراسة الخليل في هذين الكتابين ، ومخالفات سيبويه في الكتاب ، دون سواهما .

نخلص من ذلك الى عدم موافقتنا المحقق في رأيه ، وان في التسمية سبباً آخر . وقبل ان نعرض الى ما نرجحه فيها ، لا بد لنا من ان نتعرف على الاسماء الاخرى التي اطلقت على الكتاب . يقول القفطي : « وصنف ابو عمرو كتاب (الحروف) في اللغة ، وسماه كتاب الجيم[4] » . ويقول ايضاً : « ونقلت من كتاب اليمني في طبقات النحاة واللغويين ان كتاب (الجيم) هو كتاب (الحروف) الذي صنفه ابو عمرو[5] » . ويقول ايضاً : « كتاب (اللغات) وهو (الجيم) ويعرف

---

(١) انباه الرواة ١/ ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٢) مراتب النحويين ١٤٥ .

(٣) الكتاب ٢/ ٤٠٥ .

(٤) انباه الرواة ١/ ٢٢٤ وانظر : نور القبس ٢٧٧ ووفيات الاعيان ١/ ١٨١ .

(٥) الانباه ١/ ٢٢٦ .

بكتاب (الحروف)[1] » ويقول ابن النديم : « وله من الكتب . . . كتاب النوادر المعروف بحرف الجيم[2] » . وعلى هذا يكون للجيم ثلاثة أسماء اخرى هي : الحروف ، اللغات ، النوادر . غير ان الذي يدل عليه تتبع هذه الاسماء انها ليست مرادفة للجيم ، وانما هي أسماء لكتب مستقلة :

١ ـ فابن النديم الذي مر انه ذكر كتاب النوادر المعروف بحرف الجيم ، ذكر في جملة مؤلفات ابي عمرو الشيباني (كتاب الحروف)[3] . والصغاني (ت ٦٥٠ هـ) ذكر في جملة مصادره التي رجع اليها في معجمه : التكملة والذيل والصلة : « كتاب الحروف لابي عمرو الشيباني ، وكتاب الجيم له[4] » . وكذلك فعل في معجمه (العباب) فذكرهما بخطه منفردين من مصادره فيه[5] . وكلا الذكرين يدل على انهما كتابان لا كتاب واحد .

٢ ـ ويقول ابو الطيب اللغوي (ت ٣٥١) وهو يتحدث عن ابي عمرو : « وهو صاحب كتاب (الجيم) وكتاب (النوادر) وهما كتابان جليلان . فاما (النوادر) فقد قرىء عليه ، وأخذناه رواية عنه . أخبرنا به ابو عمر محمد بن عبدالواحد قال : أخبرنا ثعلب عن عمرو بن ابي عمرو الشيباني ، عن ابيه . واما كتاب الجيم[6] . . . » وينقل القفطي قول اليمني متحدثاً عن كتاب الجيم: « قال : وجميع ما فيه خارج عن كتابه (النوادر) وفيهما علم كثير[7] » . وعدالسيوطي مؤلفاته فجعل الجيم والنوادر كتابين[8] ، وكذلك هما في النصين السابقين .

٣ ـ لم ينسب ابن النديم كتاباً في (اللغات) لابي عمرو ، كما لم يذكر ان

---

(١) الانباه ١/ ٢٢٧ .

(٢) الفهرست ١٠٢ .

(٣) نفسه ١٠٢ .

(٤) التكملة ١/ ٨ .

(٥) العباب (مخطوط) ق ٤ ب .

(٦) مراتب النحويين ١٤٥ .

(٧) انباه الرواة ١/ ٢٢٦ .

(٨) بغية الوعاة ١/ ٤٤٠ .

للجيم اسماً آخر هو اللغات ، ومثله اغلب أصحاب كتب التراجم والطبقات ، وانما نسب ابن النديم الى ابنه عمرو بن ابي عمرو الشيباني ، وقد ترجم له ضمن ترجمته لأبيه ، كتاب (اللغات)[1] . فلعل القفطي وابن خلكان التبس عليهما الامر ، وهما ينقلان عن الفهرست ، فظنا ان الكتاب لابي عمرو ، وانه هو الجيم ، كما التبس عليهما من قبل ، فظنا ان الحروف هو الجيم . كما ان في عبارة القفطي « وله من التصانيف . . . كتاب اللغات و هو الجيم ويعرف بكتاب الحروف » ما يشعر بان يكون المقصود من ذكر (اللغات) هو الموضوع لا العنوان ، ومادة الكتاب تعضد ذلك ، ولعل حرفاً سقط من الاصل ، لو ذكر لكانت العبارة : كتاب في اللغات وهو الجيم ويعرف بكتاب الحروف . وبهذا التخريج تقبل عبارة القفطي ، والا فلا وجه لأن يكون الكتاب هو اللغات وهو كتاب الجيم وهو كتاب الحروف .

الذي نذهب اليه بعد هذا كله ، ان اسم الجيم الذي اطلق على هذا المعجم الذي بين أيدينا لحق الكتاب سهواً من كتاب الجيم الذي لم يصل الينا ، وهذا الذي وصل الينا انما هو كتاب الحروف ، وأدلتنا على ذلك هي :

١ - انه مرتب على الحروف ، اي ان أبوابه مرتبة ترتيب الحروف الهجائية ، وان مواد كل باب مرتبة بحسب الحرف الاول منها .

٢ - انه لم يبدأ بالجيم ، او لم يكن للجيم فيه امتياز خاص ، لأي اعتبار من الاعتبارات كما يفترض في كتاب مثله .

٣ - توافر العلماء عليه وعلى نسخه في عصر مؤلفه وبعده ، كما دل على ذلك معارضة نسخته الباقية على نسخة السكري (ت ٢٧٥) والحامض (٣٠٥) ونسخة ثالثة ، اما الجيم « فلا رواية له ، لأن ابا عمرو بخل به على الناس فلم يقرأه عليه أحد[2] » .

٤ - انّ الصفحة الاولى من مصورة الكتاب التي تحمل اسم الكتاب وذكر المعارضة

---

(١) الفهرست ١٠١ .

(٢) مراتب النحويين ١٤٥ .

وأسماء من توالوا على ملك النسخة ، قد كتبت بخطوط مختلفة كما يشير المحقق في هامشها[1] ، وهذا يرجح ان يكون العنوان مقحماً على هذه الصفحة ، بعد ان سقط العنوان الاصلي منها .

٥ ـ ان الصغاني ـ وقد مر انه رجع الى كتابي ابي عمرو (الحروف) و (الجيم) في معجمه التكملة ـ لم يذكر فيما نقله عن ابي عمرو عن اي من الكتابين هو ، الا انه ذكر مرة في مادة (جيأ) انه عن كتاب (الحروف) لابي عمرو الشيباني[2] ، ومرة في مادة (ثوب) انه عن كتاب (الجيم) لابي عمرو[3] ، فما نقله عن كتاب الحروف موجود بنصه في الكتاب الذي بين ايدينا[4] ، وما نقله عن كتاب الجيم لا وجود له في كتاب الجيم .

وطروء اسم الجيم على كتاب الحروف الذي عريت نسخته من الاسم طروء قديم ، ولعل ذلك حدث بعيد عصر الصغاني (ت ٦٥٠) ، لأن نقل السيوطي عن الجيم[5] ـ الذي يرجح انه كان عن النسخة المحققة نفسها ، لأنها هي النسخة التي دخلت مصر ملكاً لابن هشام الانصاري النحوي المعروف (ت ٧٦١ هـ) وصارت من بعده لابنه محمد (ت ٧٩٩)[6] ـ يتفق مع ما في كتاب الجيم . ومرد هذا السهو الذي لصق اسم الجيم بالكتاب الى شهرة كتاب الجيم الذي الفه ابو عمرو الشيباني ، وقلته في يدي الناس ، لما روي من ضن مؤلفه به عليهم ، وما اورثه ذلك من الخطأ في ان يكون هو كتاب الحروف ، وهو كتاب النوادر وهو كتاب اللغات ، حتى اذا وقعت نسخة من كتاب الحروف عارية من الاسم الى احد المتعلمين او الوراقين كتب عليها : (كتاب الجيم) سهواً .

---

(١) الجيم ١/ ٥١ .
(٢) التكملة ١/ ١٤ .
(٣) نفسه ١/ ٨٠ .
(٤) الجيم ١/ ١٣٦ .
(٥) المزهر ١/ ٢٧٥ .
(٦) الجيم ١/ ٤٤ ، ٥١ .

منهجه :

مر أنّ ابا عمرو قسم الكتاب ابواباً على الحروف المجائية ، ولم يخالف ترتيب هذه الحروف الا بتقديمه باب الواو على باب الهاء . وأورد في كل باب الالفاظ التي تبدأبذلك الحرف، دون ان ينظر الى الحرف الثاني وما بعده ، وعليه فلا ينقسم الباب الى فصول بحسب الحرف الاخير او غيره ، كالذي نجده في المعجمات التي طورت هذا النظام . فترك ابو عمرو المواد وهي على هذا النحو من عدم الترتيب ، ومن حق بعضها ان يتقدم وبعضها ان يتأخر ، وأورث ذلك شيئاً من التعقيد والعناء في الرجوع الى الكتاب من حيث اراد مؤلفه السهولة واليسر ، وذلك ان طالب المادة لا يقف عليها الا بعد النظر في الباب من أوله . ولعل ذلك من بقايا ظاهرة عدم الترتيب في كتب المرحلة السابقة من التأليف .

ولم يلتزم ابو عمرو بايراد الجذر اللغوي اولاً للمادة التي يشرح معناها ، وان نظر اليه في اعتبار الحرف الاول ، وانما يأتي باللفظة على صيغتها التي وردت اليه ، فقد تكون المادة فعلاً ماضياً مثل : سَفَدَ ، سَنَخَ ، اسْتَلَّت[1] . او مضارعاً مثل : يَسوم[2] . أو أمراً مثل : شَيِّدْ حَوْضَك ، صَفِّحْ ناقتَك[3] . وقد تكون مصدراً مثل : السَّهْو ، الإسْجاد[4] . أو مشتقاً مثل : الأَرْثَع ، الأَزْبر ، الأَملج[5] ، والزَّامج ، السَّاطي[6] ، والزَّنيم ، الجَرين[7] ، والمَسْلوس ، المَشْنوفة[8] ، والشَّبُوب[9] ، والصَّمَّاء[10] ، وصَناع[11] . وقد ترد بصيغة الجمع مثل : الزَّيازي ، العَراصيف ،

---

(1) ٢/ ١٠٠ ، ١١١ .

(2) ٢/ ١١٢ .

(3) ٢/ ١٢٩ ، ١٧٢ .

(4) ٢/ ١٠٠ ، ١١٢ .

(5) ٢/ ٣٢ ، ٧٠ ، ٩٨ .

(6) ٢/ ٧١ ، ١٢٢ .

(7) ٢/ ٧٦ ، ١٠١ .

(8) ٢/ ٤٤ ، ١٣٨ .

(9) ٢/ ١٥٠ .

(10) ٢/ ١٧٣ .

(11) ٢/ ١٧٣ .

العَلاجيم[1] . أو ترد بصيغة المؤنث مثل : المُعْرِضَة من النساء[2] . وغير ذلك من الصيغ والأبنية .

ولم يكن شرحه للالفاظ على نسق واحد ، فقد يورد اللفظة دون شرح البتة كما في (جَهَشَتْ) و (ضَمَن)[3] ، ولعله كان يرى ان معناها معروف فلا تحتاج الى شرح ، وقد يكتفي بعدها بشرح قصير كما في (الضَّوَع)[4] ، او بالاشارة الى موطن الاستعمال دون شرح المعنى ، كقوله : « الإعذار : يقال للغلام وللجارية[5] » . ويعمد أحياناً بعد ذكر معنى اللفظة الى التمثيل ، فيصطنع عبارة يوضح بها وجه الاستعمال كما في (الجَعار) و (الضريس)[6] ، كقوله في الاخيرة : « وقال : الضَّريس : التَّمر والبُسر والكَعك . تقول : أضْرِسْنا من ضَرِيسكَ هذا ، أي أعطنا نأكله » . على أن شرحه للالفاظ في مواطن غير قليلة يفتقر الى البيان والايضاح ، كقوله مثلاً : « والجادِرُ حين طلع ورقُه ، فقد جَدَر ، وهو الجَدَر[7] » ، ويستنبط من هذا ان الجادر نبات وان لم تتضح صفته . كما كان كثيراً ما يورد اللفظة التي يريد شرحها وهي في سياق لغوي ، غير منتزعة منه ، كقوله : « وقال : يقول الرامي لصاحبه : لا تُعادِني فأُسِيءَ الرمي : أي لا تَدْنُ مني فتشغلني[8] » . وفي بعض المرات كان يقدم المعنى على اللفظة كقوله : « واذا كانت السفينة خالية : قالوا : هي جُراب : واذا كانت شاحنة ، قيل هي آمِد[9] » . وقوله : « ويقال للرجل اذا كان حَسَنَ الجسم : انه لجَرِيم[10] » .

---

(1) ٢/ ٦٩ ، ٢٣٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(2) ٢/ ٢٧١

(3) ١/ ١٣٣ ، ٢/ ١٩٤

(4) ٢/ ١٩٥ .

(5) ٢/ ٣٤٦ .

(6) ١/ ١٢٥ ، ٢/ ١٩٥ .

(7) ١/ ١٣٣ .

(8) ٢/ ٢٥٣ .

(9) ١/ ١٣٢ .

(10) ١/ ١٣٥ .

ولا نعدم ان نجد في أغلب ابواب الكتاب ، الفاظاً يتكرر شرحها ، كما في (جِثوة)[1] ، (جَريم)[2] ، (عَراصيف)[3] ، (اجتَزَمت)[4] . واخرى دخلت أبواباً غير أبوابها ، فنجد مثلاً (الأشْوال) و (يَشْمُس) و (بَشوق) و (خنَّ السَّفينة) و (خَلَق) جميعاً في باب الجيم[5] ، وليس الحرف الاول منها جيماً . ونقف في بعض المواد على شرح مضطرب التعبير كما في (تجَاذَوْا)[6] ، أو على كلام مقطوع الصلة يشعر ان فيه بقية[7] ، ويعود جميع ذلك الى النسخ ، ولعل من آثاره ايضاً ـ وأعني النسخ ـ ما نعثر عليه من أخطاء التصحيف والتحريف ، وان كان من هذه الاخطاء ما يعود الى الطباعة كالذي حدث لكلمة (بِبَاض) فأصبحت (بَيباض)[8] . غير ان الخطأ الطباعي بعيد عن مثل قوله : « وقال : أجَمَعَ فلان إبلَ فلان ، اذا جمعها فاستقاها ، فقد جَمَعها[9] » ، والصواب ان يقول (فقد أجْمَعها) لانها هي المادة ، ولما سقطت الالف من قلم الناسخ فات المحقق ان يتنبه اليها لما بين أجْمَعَ وَجَمَع من اللبس[10] . ومن هذ الاخطاء ما كان وهماً من المؤلف او سهواً ، فلا نرى فيه أثراً من آثار النسخ ، كقوله : « وقال : قد جِيدَ الى كذا وكذا ، اذا اشتهاه ، وهو قول ذي الرمة ؛ تعاطيه تاراتٍ اذا جِيدَ جودةً . وقول لبيد : ويَجُودِ من صُبابات الكرى[11] » . وليس في قولي ذي الرمة ولبيد ما يشهد بأن (جِيدَ) يتعدى بالحرف كما قال ، وان شهدا بصحة المعنى ، فتمام بيت ذي الرمة :

تُعاطيه تاراتٍ اذا جِيدَ جودةً رُضاباً كطعمِ الزَّنجَبيلِ المُعسَّلِ

---

(1) ١/١١٥ ، ١٢٧ .
(2) ١/١٢٧ ، ١٣٥ .
(3) ٢/٢٣٩ ، ٢٦٢ .
(4) ١/٣٠ ، ١٣٥ .
(5) ١/١١٤ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٧ .
(6) ١/١١٨ .
(7) ١/١٣٧ .
(8) ١/١٢٥ .
(9) ١/١٢٠ .
(10) انظر المحيط في اللغة ١/٣٠٣ .
(11) ١/١٢٩ .

وتمام بيت لبيد :

وَمجُــودٍ من صُبابــاتِ الكَــرى　　عــاطِف النُّمــرقِ صَدْقِ المُبْتَذَلْ

وعليه يكون صواب العبارة : قد جِيدَ كذا وكذا ، بحذف (الى)[1] .

وعني ابو عمرو في شروحه لمعاني الالفاظ بذكر صيغ كثير من هذه الالفـاظ ومشتقاتها ، فاذا كانت المادة فعلاً مثلاً نراه يورد أبنيته الاخرى ، وقد يذكر المصدر كما في (جمَرت) و (جَفر)[2] ، أو الصفة كما في (جَحْمَت)[3] ، ويورد أحياناً صيغة المؤنث كما في (الجَبُوب) و (الجَرين)[4] ، أو صيغة الجمع وبعض المشتقات كما في (الجَرين)[5] ، ونبه في بعض المواد على صيغتي الممدود والمنقوص فيها كما في (الجَلاء)[6] ، وأشار الى وحدة المعنى في فعل وأفعل ، كقوله : « وقال : أجهدَ في حاجتي ، وجَهَد لي ، سواء[7] » . والى الفروق اللغـوية الدقيقـة بين الالفـاظ ، كقوله : « وقال : أجْهَتْ فلانةُ على زوجها فلم تحمل ، وأوْجَهَتْ عليه فما حملت له ولداً[8] » . وكان لا يتردد في النص على شكه في صحة المعنى الذي سمعه ، كقوله في مادة (تَجَشَّمت) وقد أورد كل ما سمعه من معانيها المستعملة : « وانا أشك فيه ، وأخافُ ان يكون الاعرابيُّ تَخَرَّصه[9] » .

وحرص ابو عمرو في معالجاته لمعاني الالفاظ على الاستشهاد لها ، وأكثر من الشواهد الشعرية دون النثرية ، حتى لا نكاد نقف على شاهد من القرآن الكريم أو الحديث الشريف ، وبهذا يختلف عن الخليل الذي تكثر من الاستشهاد بهما في العين وبخاصة استشهاده بالحديث ، على اننـا لا نعـدم ان نجـد ابـا عمـرو مستشهـداً

---

(١) انظر : تاج العروس ٧/ ٥٣٠ .

(٢) ١/ ١١٨ ، ١٢١ .

(٣) ١/ ١٢٠

(٤) ١/ ١٢٠ ، ١٢١

(٥) ١/ ١٢١

(٦) ١/ ١٢٦ .

(٧) ١/ ١١٧ .

(٨) ١/ ١١٧ .

(٩) ١/ ١١٩ .

بالامثال ، وأقوال الفصحاء ، على ندرتها في كتابه ، كالذي فعله من استشهاده بالمثل في (جاهِدي)[١] ، وبقول الاحنف في (جَحَفَتْ)[٢] . هذا ما كان من أمر الشواهد النثرية ، أما الشعرية فهي تمثل الاغلب الأعم من شواهده ، حتى عز ان نجد مادة لم يستشهد لها بشيء من الشعر .

ولم يكن لابي عمرو طريقة معينة في انشاد الشاهد الشعري ، فاختلف موضعه باختلاف المادة ، اذ يأتي في الاكثر بعد ذكر المعنى كما في (المُضيف)[٣] ، وقد يأتي في اثناء الشرح ولما يكمل كما في (الطِّيخ)[٤] ، وقد يتقدم اللفظة ومعناها وذلك ان يبدأ المادة بانشاد البيت ثم ينتزع منه اللفظة ذاكراً اياها وينص على معناها كما في (يجّاى)[٥] ، وقد يتقدم ايضاً دون ان يذكر بعده اللفظة ومعناها ، مكتفياً به متضمناً لها ولمعناها الذي يوضحه السياق الشعري[٦] ، ومثله تقريباً ان يقدم اللفظة مردفاً اياها بالشاهد دون ذكر المعنى مكتفياً به عن ذلك كما في (العَجَرات) و (المُعشرات)[٧] ، وقد يكون الشاهد منشداً لغير اللفظة المتحدث عنها ، وانما للفظة ترد في استطراده في الشرح ، او لقصة ترد في اثنائه كما في (تَضابَرتْ)[٨] .

والشاهد الشعري بيت كامل في الغالب[٩] ، ويحلو لابي عمرو أحياناً ان ينشد ما قبله او ما بعده[١٠]، وقد يأتي بالمقطعة او القصيدة[١١]، ولكنه في مواضع اخرى يكتفي من البيت بشطر منه كما في (الأظاليف)[١٢]، او بجزء منه أقل من شطر[١٣] ،

(١) ١٢٢/١ .
(٢) ١٢٦/١ .
(٣) ١٩٥/٢ .
(٤) ٢٠٦/٢ .
(٥) ١٣٧/١ .
(٦) ١٣٥/١ ، ١٥٧/٢ ، ١٩٤ .
(٧) ٢٩٠/٢ ، ٢٩١ .
(٨) ١٩٨/٢ .
(٩) ٢٢٢/٢ ، ٢٢٣ ، ١٣٨ .
(١٠) ١٩٩/١ .
(١١) ٣١٧/٢ .
(١٢) ٢٢٣/٢ .
(١٣) ١١٣/١ ، ١١٥

اذا وجد انهما يفيان بالغرض ويؤديان ما عليهما . وعني في كثير من المواضع بالتعليق على الشاهد ، ويختلف هذا التعليق باختلاف البيت ، فنراه تارة يوجز بعده معناه العام كما في (الجَنَز)[1] ، واخرى يفسر بعض غريبه[2] ، وقد يطيل في هذا التفسير فيتناول معظم ألفاظه حين يجد انها جميعاً محتاجة اليه[3] . وثالثة يورد قصته وظروف قوله ، وفي هذه الحالة يقدم التعليق على البيت ممهداً لانشاده[4] . وأغلب شواهده منسوب الى شعرائها من الجاهليين أمثال : أوس ، وعدي بن زيد ، وتأبط شراً ، ولبيد ، والنابغة[5] ، وغيرهم . والمخضرمين أمثال : حسان ، وحميد ، وابي الاسود ، ومعن[6] ، وسواهم . والاسلاميين أمثال : ذي الرمة ، والاخطل ، والمرار الفقعسي ، ونصيب[7] ، وغيرهم . ولم يتعد شعراء هذه الطبقة ، وبذلك خالف الخليل مرة اخرى ، اذ استشهد الاخير لبعض العباسيين . وتفسير هذه المخالفة يعتمد على غرض ابي عمرو من وضع معجمه ، اذ لم يكن على أساس منهجي كان يتمسك به ، لأن الكوفيين ـ وابو عمرو منهم ـ كانوا أكثر تسامحاً من سواهم في مد عصر الاستشهاد ، كما ظهر من دراسة كتبهم في الفصول السابقة ، غير ان توجه ابي عمرو الى جمع الالفاظ الغريبة والعناية بها دون سواها في كتابه هو الذي أملى عليه الاقتصار على شعر الطبقات الثلاث هذه ، لما يمده هذا الشعر من الالفاظ النادرة التي حشا بها معجمه ، ولم يكن في شعر العصور التالية ما يفي بهذا الغرض من التأليف الذي « جمع فيه الحوشي ولم يقصد المستعمل[8] » . وفي الكتاب سوى ذلك شعر كثير غير منسوب[9] .

واهتم ابو عمرو كثيراً بلغات القبائل ، وتوسع في النص على استعمالاتها

---

(1) ١/١٢٣ .
(2) ١/١٢٩ .
(3) ١/١٣٠ ، ١٣٣ .
(4) ٢/٢٠٧ .
(5) ٢/٣١٥ ، ٣٣٣ ، ٣٤١ ، ٣٤٠ ، ٣٤٦ .
(6) ٢/٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٤٠ ، ١/١٢٦ ، ١٣٠ .
(7) ١/١٢٦ ، ١٣١ ، ٣١٤ .
(8) أنباه الرواة ١/٢٢٦ .
(9) ٢/٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٥ .

اللغوية، من خلال ما ينسبه الى افراد هذه القبائل دون تسمية لهجاتها، فيقول : قال السعدي ، قال العذري ، قال الكلبي ، قال المكي ، قال الاسعدي ، قال الاكوعي ، قال الباهلي ، قال السروي ، قال الخزاعي ، قال الحارثي ، قال الهمداني[1] ، وهكذا . وبلغ من اهتمامه بذلك انه نكاد لا نجد مادة من المواد غير معزوة الى لهجتها بهذه الطريقة من العزو الى أحد رجالها ، وهو لا يريد بهذه الاسماء المنسوب اليها القول رجالاً بأعيانهم ، وانما يرمي الى ان هذا اللفظ بهذا المعنى هو في لغة بني سعد أو بني عذرة أو كلب وهكذا . وكثيراً ما نجد في الكتاب الفاظاً تبدو كأنها غير منسوبة الى لهجتها ، وانما تبدأ بعبارة (وقال) كما في (العاني) و (عَزَف) و (العيث) و (أعْطَن) وغيرها[2] من المواد المتتابعة ، مما يشعر ان القائل هو ابو عمرو الشيباني ، ولكني أميل الى تفسير ذلك بانها جميعاً معطوفة على القول المنسوب قبلها فلو عدنا الى الالفاظ المذكورة قبل قليل لوجدنا انه نسب قبلها بصفحتين الى الاسعدي بقوله : « وقال الاسعدي : بكْرةٌ عُطبول : اي خيار[3] » . ثم بدأ في المواد بعدها بعبارة (وقال) اي وقال الاسعدي ايضاً ، ولكنه تخفف من ذكره لانه لم يرد التكرار ، لأن العطف واضح . ولم يقف اهتمام ابي عمرو باللهجات عند هذا الحد ، بل ذهب الى النص احياناً على الفروق اللغوية بينها في الحركة ، يقول مثلاً : « وقال الضبي : جَثْوة ، وقال القشيري : جِثْوة . وقال الضبي : جِوالق ، وقال القشيري : جُوالق[4] » . ومثل هذا الاهتمام الكبير باللهجات لا نجده في المعجمات الاخرى .

ومن جانب آخر نجد ابا عمرو أهمل ذكر شيوخه من العلماء اللغويين ، فلا نعثر على اسم احدهم في الكتاب ، وكأنه لم يرو عنهم شيئاً فيه ، ولا يبعد ذلك ، لأنه تلقف مواده من الناطقين بها شفاهاً كما وضح ذلك من النص على المنسوبين الى قبائلهم . غير انه ذكر اعلام عدد من الرواة ، ونسب اليهم شيئاً من الالفاظ أمثال :

---

(١) ١/١٧٧ ، ٢٣١ ، ٢٤٦ .

(٢) ٢/ ٢٤٠ .

(٣) ٢/ ٢٣٨ .

(٤) ١/١٢٧ .

معروف[1]، وابي الجراح[2] ، وابي الخرقاء[3] ، وابي زياد[4] ، وغيرهم . وهؤلاء ـ كما يبدو ـ من الاعراب الفصحاء الذين لقيهم ابو عمرو وأخذ عنهم ، ولعل ابا الجراح هو ابو الجراح العقيلي الذي ذكره ابن النديم في الاعراب الفصحاء[5] ، أما ابو زياد فهو أحد اثنين بهذه الكنية من الاعراب ، الاول ابو زياد الاعور بن براءالكلابي ، عده ابن النديم في الفصحاء مع ابي الجراح[6] ، والثاني ابو زياد يزيد بن عبدالله بن الحر الكلابي ، ترجم له ابن النديم مع البداة الفصحاء وذكر له من الكتب : النوادر ، الفرق ، الابل ، خلق الانسان[7] . واما معروف وابو الخرقاء فغير معروفين ولم اقف لهما على ذكر . ولا أرجح ان يكون معروف هو معروف بن حسان راوي كتاب العين عن الليث بن المظفر (ت حدود ١٨٠ هـ) في سند رواية ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ)[8] ، لتأخر معاصرته لابي عمرو . وقد أفاد ابو عمرو كما يبدو مما سبق به من آثار اللغويين في الموضوعات المستقلة في الابل ، والمطر ، والكرم وغيرها ، كما يتضح ذلك مثلاً في تتبعه لمراحل نضج العنب في مادة (العزم)[9] ، وذكره لأنواع المطر في القلة والكثرة وتعدد اسمائه في مادة (المدارك)[10]، بل لا نستبعد ان يكون وقف على (العين) أيضاً ، لما نجده في بعض المواد من التشابه الكبير في الشرح والمعالجة كما في مادة (جون)[11]و (الجرئض)[12] .

نخلص من ذلك كله الى ان الكتاب مصدر مهم من مصادر دراسة لهجات

---

(١) ١/٢٣٣ ، ٢٣٠ ، ٢/٢٥٣ .
(٢) ١/٣٠٨ .
(٣) ١/١٢٢ ، ١٢٣ .
(٤) ٢/١٠٢ .
(٥) الفهرست ٧٠ .
(٦) نفسه ٧٠ .
(٧) الفهرست ٦٧ .
(٨) مقاييس اللغة ١/٣ .
(٩) الجيم ١/ ١٥٥ .
(١٠) نفسه ١/ ١٥٥ .
(١١) العين (المخطوط) ق ١٧٥ ب والجيم ١/ ١١٨ .
(١٢) العين ١٦٥ ب والجيم ١/ ١٢٣ .

القبائل العربية ، والالفاظ اللغوية الغريبة ، والاستعمالات النادرة ، وهو حصيلة جهود كبيرة بذلها المؤلف في جمع أشعار القبائل ، اذ روي انه جمع نيفاً وثمانين ديواناً من دواوين أشعار القبائل وأخرجها للناس[1] ، وكان الكتاب بهذا التخصص بالغريب والنادر من الالفاظ مصداق ما عرف عن ابي عمرو من انه « كان الغالب عليه النوادر وحفظ الغريب واراجيز العرب[2] » . والكتاب من حيث انه معجم لغوي وضعه « صاحب ديوان اللغة والشعر[3] » فاق (العين) عناية : باللغات ، والغريب والشعر ، وأقصر عنه منهجاً : في حصر اللغة ، وفي ترتيب المواد ، وفي مصادر الاستشهاد .

أثره :

أول من تأثر بهذا الكتاب - اذا صح انه الجيم - ابو عمرو شمر بن حمدويه الهروي (ت ٢٥٥ هـ) الذي وضع معجمه على هذا الاسم ، الا انه خالفه بتقديم حرف الجيم[4] ، وضاع مع الكتاب علة هذا التقديم ، على ان ابا عمرو الشيباني كان قد تأثر هو ايضا بتسمية النضر بن شميل (ت ٢٠٣ هـ) لكتابه بالجيم[5] .

واذا كان الخليل قد رتب الحروف ترتيبها المخرجي المعروف ، فان ابا عمرو الشيباني ارتضى ترتيبها الهجائي الذي وضعه نصر بن عاصم (ت ٨٩ هـ) ، فقسم على أساسها أبواب معجمه ، فكان بذلك رائد المعجمات التي اتخذت من هذا الترتيب أساساً لمنهجها في جمع الالفاظ ، بغض النظر عن اختلافها في اعتبار الحرف الأول أو الأخير من المادة ، وأشهر هذه المعجمات : التقفية للبندنيجي (ت ٢٨٤ هـ) ، والصحاح للجوهري (ت ٣٩٨ هـ) ، وأساس البلاغة للزمخشري (ت ٥٣٨) ، والعباب للصغاني (ت ٦٥٠) ، ولسان العرب لابن منظور (ت ٧١١ هـ) ، والقاموس المحيط للفيروز ابادي (ت ٨١٧ هـ) ، وتاج العروس للزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) .

---

(١) الفهرست ١٠١ وانباه الرواة ١/ ٢٢١ .

(٢) انباه الرواة ١/ ٢٢٨ وانظر : تهذيب اللغة ١/ ٦ .

(٣) انباه الرواة ١/ ٢٢٢ .

(٤) تهذيب اللغة ١/ ٣٠ وانباه الرواة ٢/ ٧٧ .

(٥) الفهرست ٥٨ .

وأكثر هذه المعجمات تأثراً بكتاب ابي عمرو : أساس البلاغة للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) ، فلم يكتف الزمخشري بتقسيم معجمه على الحروف الهجائية ، وانما قدم باب الواو على باب الهاء أيضاً ، كالذي فعله ابو عمرو ، وهو خلاف المشهور في ترتيب الحروف ، واخذ في ايراد الالفاظ في كل باب باعتبار حرفها الأول ، كما اخذ به ابو عمرو ، غير ان الزمخشري طور هذا المنهج واكمل نقصه بالنظر الى الحرف الثاني والثالث من كل لفظ ، وعلى هذا المنهج المحكم المستوحى من كتاب ابي عمرو جاء أساس البلاغة .

***

التقفية في اللغة : لابي بشر البندنيجي (ت ٢٨٤ هـ)

وهو ثالث معجمات الالفاظ التي سلمت من عوادي الزّمن ، ووصلت الينا مما وضع قبل نهاية القرن الثالث ، بعد العين للخليل ، والجيم لابي عمرو الشيباني . واحتفظت مكتبة ايا صوفيا في استنبول بنسخته الفريدة ، التي فرغ منها ناسخها علي ابن علي بن احمد بن رضى بن مسلم سنة (٥٩١ هـ) . وقد طبع الكتاب محققا في مجلد كبير[1] .

منهجه : أشرنا ونحن نتكلم على المعجمات التي تأثرت بمنهج الجيم لابي عمرو، الى ان التقفية واحد من تلك، اذ اختار البندنيجي ان يقسم معجمه الى ابواب مرتبة ترتيب الحروف الهجائية ، كما فعل من قبله أبو عمرو ، ولكنه خالف أبا عمرو في اعتباره الحرف الأول من الفاظ كل باب ، وذهب الى اعتبار الحرف الاخير منها ، وهو الذي عناه بالقافية . واذا كان ابو عمرو قد اهمل النظر في الحرف الثاني والثالث من الالفاظ ، فاضطرب ترتيبها وعسر الوقوف على احداها ، فقد اشبهه البندنيجي في هذا ، اذ اهمل النظر في الحرف الأول والثاني من الالفاظ مكتفياً باعتبار قوافيها في تقسيمها على الابواب ، فوقع معجمه بمثل ما وقع به الجيم من سوء التصنيف وقلة الافادة ، سوى فرق يسير سنأتي على ذكره . ويبدو ان البندنيجي تأثر معجما سبقه بالاسم نفسه لابن قتيبة ، ذكره ابن النديم وهو يعدد كتبه وقال : « كتاب التفقية (التقفية) هذا كتاب رأيت منه ثلاثة اجزاء نحو ستمائة ورقة بخط

---

(١) حققه الدكتور خليل ابراهيم العطية ، وطبعته وزارة الاوقاف ببغداد سنة ١٩٧٦ م .

برك ، وكانت تنقص على التقريب جزءين وسألت عن هذا الكتاب جماعة من اهل الخط فزعموا انه موجود ، وهو اكبر من كتب (كتاب) البندنيجي واحسـن[1]» .

وقدم المؤلف لكتابه بمقدمة قصيرة ، اشار فيها الى سبب تسميته بهذا الاسم فقال : «لأنـه مؤلف على القوافي ، والقافية : البيت من الشعـر[2]» .وتصرح المقدمة بان الكتاب وضع املاء لا تدوينا من المؤلف ، ولا بد من ذلك لأن البندنيجي كان اعمى[3] . اذ تبدأ المقدمة بعبـارة« هذا كتاب. التقفية املاء ابي بشر[4]» ، وكان هذا التلميذ المملي عليه هو المتحدث في هذه المقدمة احيانا ، ثم يعود فينقل كلام المؤلف على منهجه في كتابه . واول خطوة خطاها البندنيجي في رسم منهجه انه «نظر في الكلام فوجده دائرا على الحروف الثمانية والعشرين الموسومة بألف با تا ثا عليها بناء الكلام كله عربيه وفصيحه ، فهي محيطة بالكلام ، لأنه ما من كلمة الا ولها نهاية الى حرف من هذه الثمانية والعشرين حرفاً[5]» .

وبعد ان اختار الترتيب الهجائي للحروف ، ووجد ان جميع الألفاظ تنتهـي باحد هذه الحروف «اراد ان يجمع من ذلك ما قدر عليه وبلغه حفظه ، اذ كان لا غنى لاحد من اهل المعرفة والادب عن معرفة ذلك ، لأنه يأتي في القرآن والشعر وغير ذلك من صنوف الكلام[6]» . فالغرض من جمع هذه الألفاظ التي حفل بها القرآن والشعر والكلام انه وجد في اهل المعرفة والادب حاجة اليها ، وهذه الحاجة تمثل الدافع الظاهر لتأليف الكتاب ، ولا بد من ترتيب المواد فيه لأنه « لو جمع ذلك على غير تأليف متناسق ثم جاءت كلمة غريبة يحتاج الرجل الى معرفتها من كتابنا هذا لصعب عليه ادراكها لسعة الكلام وكثرته ، فألفه تأليفا متناسقاً ليسهل على الناظر فيما يحتاج الى معرفته[7] » .

---

(١) الفهرست ١١٥ ـ ١١٦

(٢) التقفيه ٣٦ .

(٣) نكت الهميان ٣١٢ .

(٤) التقفية ٣٦ ؛

(٥) نفسه ٣٦ .

(٦) نفسه ٣٦ .

(٧) التقفيه ٣٦ .

فخطا لأجل ذلك خطوته الثانية التي رسم فيها حدود الابواب ، قال : « ونظرنا في نهاية الكلام ، فجمعنا الى كل كلمة ما يشاكلها ، ما نهايتها كنهاية الاول قبلها من حروف الثمانية والعشرين ، ثم جعل ذلك ابوابا على عدد الحروف ، فاذا جاءت الكلمة مما يحتاج الى معرفتها من الكتاب، نظرت الى آخرها ما هو من هذه الحروف ، فطلبته في ذلك الباب الذي هي منه ، فانه يسهل معرفتها ان شاء الله[1] » . وهذا يعني انه قسم ما جمعه من الألفاظ أقساماً بحسب الحرف الاخير منها وسمى كل قسم منها باباً فجعل الالفاظ المنتهية بالباء مثلا في باب الباء ، والمنتهية بالعين في باب العين ، والمنتهية باللام في باب اللام ، وهكذا .

وحيث انتهى من ذلك انتقل الى الخطوة الاخيرة التى يزيد بها من تحديد موقع اللفظة في الباب وهي الخطوة التي امتاز بها التقفية على الجيم من حيث المنهج ، وتعد تطورا فيه . وذلك انه «قد يأتي من كل باب من هذه الثمانية والعشرين ، ابواب عدة لأنا انما الفناه على وزن الأفاعيل، فلينظر الناظر المرتاد وزن الكلمة في اي الأبواب هو فانه يدرك الذي يطلب[2]» . فالمؤلف لم يقف عند تقسيم الكتاب الى ابواب بحسب الحروف ، وانما عمد الى كل باب يقسمه فصولا اطلق على كل منها عبارة (قافية اخرى) او (باب آخر) بحسب الاوزان او (الافاعيل) . فلو اخذنا مثلا باب الباء ـ وهو يضع غالبا كلمة (فصل) قبل اسم الباب ، فيقول (فصل : باب الباء) ـ فنجد انه يبدأ هذا الباب بألفاظ: السأب، الجأب ، الوأب ، الرأب[3]، وغيرها مما على هذا الوزن ، ثم ينتقل الى مجموعة اخرى من الألفاظ يسميها (قافية اخرى) ويدرج في هذا القسم امثال: الأوب، الجَوْب، الثَّوب ، الحوب . . . الجَيّب ، الشَّيّب ، العَيّب ،[4] ، وغيرها . وهذه المجموعة وان اتفقت مع الاولى في الوزن فانها تختلف عنها في ان عينها واو او ياء ، وهي عند المؤلف كما يبدو صفة تسوغ افرادها ، والا فانه يؤاخذ على تسميتها بقافية اخرى ، لأنه يجوز ان تكون هي والمجموعة الاولى قوافي قصيدة واحدة .

ثم يعود الى (قافية اخرى) فيها مثل : الخَبب ، السَبب ، الشَبب ، الصَبب ،

---

(١) التقفية ٣٧ .

(٢) ٣٧ .

وغيرها[1]. و(قافية اخرى) فيها مثل : الشرْجب ، الجَسرْب ، الشوْقب ، الشوْذَب ، وغيرها[2] . و(قافية اخرى) فيها مثل : الشبْاب ، الربْاب ، السحْاب ، السُباب ، وغيرها[3] . و(قافية اخرى) فيها مثل : التجْبيب ، التْسربيب التْشبيب ، التْببيب ، وغيرها[4] . و(قافية اخرى) فيها مثل : الجَابة (مسهلة في الشعر) ، الإجابة الاهابة ، الصبْابة ، الجنابة ، وغيرها[5] .
و(قافية اخرى) فيها مثل : العَروبة ، المَثوبة ، الحَلوبة ، القَتوبة ، الركوبة ، وغيرها[6] . و(قافية اخرى) فيها مثل الجَربة ، الحَلبة ، السرَبة ، الأربة العَطبة ، وغيرها[7] . و(قافية اخرى) فيها مثل : الزْرب ، الأزب ، الخَشْب ، الزْغب ، وغيرها[8] . ولعله وهم في افراد هذه المجموعة ، لأن الفاظ هذه القافية تدخل جميعا في المجموعة الاولى . و(قافية اخرى) فيها مثل : اللاحب ، غارب ، مأرب (مسهلة في الشعر) ، العازب ، القارب ، وغيرها[9] . و(قافية اخرى) فيها مثل : التقربة ، التجربة ، المسغبة ، المقربة ، وغيرها[10]. وبهذه القافية ينتهي باب الباء ، وقد سار على هذا المنهج في سائر ابواب المعجم . وهو بهذا ضيق مجال البحث عن اللفظة ، وسهل الوقوف عليها ، من حيث كونها لفظة يراد الوقوف عليها بالصيغة التي اوردها هو ، والا فهو امر تتحكم به المصادفة الى حد بعيد ، لأنه لم يكرر اللفظة في جميع قوافي الباب مقلبا اياها على جميع اوجهها المحتملة في التقفية. فالذي يريد معرفة معنى (السّاغِب) مثلا ، فانه لا يجد اللفظة في الفصل المعقود لهذه القافية من الباء ، وانما يجد (السّغَب) و(المَسْغَبة) كلا في الفصل الخاص

---

(1) ١٤٧ .
(2) ١٦٠ .
(3) ١٧٠ .
(4) ١٨١ .
(5) ١٩٦ - ١٩٧ .
(6) ٢٠٠ .
(7) ٢٠٢ .
(8) ٢٠٥ .
(9) ٢٠٧ .
(10) ٢٠٨ .

بقافيته[1] ، وعلى هذا فانه يجب على طالب (السّاغِب) ان يراجع باب الباء بقوافيه جميعا عسى ان يعثر على ما يريد .

وكان البندنيجي قد ختم مقدمته للكتاب بقوله : « واول ما ابتدىء في كتابنا هذا الالف ، لانها اول الحروف وعلى ذلك جرى امر الناس ، ثم نؤلفه على تناسقه[2]» وجعل الالف اربعة ابواب لا بابا واحدا كسائر الحروف ، الاول : باب الالف الممدودة وفيه مثل : الإِباء ، الخَباء ، الهَباء ، الحِرْباء[3] . وليس فيه (قافية اخرى) او اي تقسيم آخر . والثاني : باب الالف المهموزة ، وفيه مثل : النَّبأ ، الصَّدأ ، الظَّمأ ، الحَمأ[4] . وفي داخله (باب منه آخر) اورد فيه مثل : الجَبْأة ، النَّبأة ، الحَمأة ، الكَمأة[5] . و(باب منه آخر) فيه مثل : الظَّاءة ، الفَناءة ، الرَّداءة[6] . و(باب آخر) فيه مثل : اللألأة الجأجأة ، الصأصأة ، الدأدأة[7] . ويلاحظ هنا انه يخالف تسمية الفصول عما درج عليه في اغلب ابواب الكتاب ، كما يلاحظ انه لم يلتزم في هذا الباب نفسه بمصطلح موحد للفصول ، فمرة (باب منه آخر)وأخرى (باب آخر) . والثالث : باب الالف المهموزة في التسكين، وفيه مثل : السرء، الملء، الخبء، الجبء[8] . ولا نجد مسوغا لافراد هذا الباب، فما فيه يدخل الباب الذى قبله المعقود للألف المهموزة . والذى يدعو الى التأمل في هذا الباب ان فيه الفاظا ليست منه ، احتلت فيه اربع صفحات تبدأ بمادة (الدَّبا) وتنتهي بمادة (العَشا)[9] ، ومن حق هذه الألفاظ ان تدخل الباب الذي يليه المعقود للألف المقصورة . وهذا جعلنا نشك في صحة ورودها هنا ، خصوصا انه لم يفردها بعنوان صغير ، ولعل ذلك من هفوات الناسخ التي لم يفطن اليها المحقق . والرابع : باب

---

(1) ١٥٦ ، ٢٠٨ .

(2) ٣٧ .

(3) ٣٨ - ٣٩ .

(4) ٨٣ .

(5) ٨٦ .

(6) ٨٧ .

(7) ٨٨ - ٨٩ .

(8) ٩١ .

(9) ٩٢ - ٩٥ .

الالف المقصورة وفيه مثل : الإبـا ، الجَبا ، الغَضا ، الشِفا[1] ، الطُلى ، العُلى[2]. وافرد منه مجموعة من الألفاظ بعنوان (فصل) لا نراها تختلف عن سائر الفاظ الباب في شيء[3] .

ويمكن ان نلاحظ بعد ذلك ملاحظتين، الاولى: انه كان بامكان البندنيجي الا يخالف ما سار عليه في معجمه من اعتبار الباب للحرف والفصل للقافية، فيجمع ابواب الالف في باب واحد هو باب الالف ويجعل ما اصطنعه من ابواب اربعة فصولاً في ذلك الباب الرئيس تمثل قوافيه . والثانية : انه لم يلتفت وهو يسعى الى حشد الالفاظ المقفاة في باب الالف المقصورة الى اختلاف اصولها ، فقد توزعت مواد هذا الباب على بابي الواو والياء في المعجمات التي سارت على منهجه .

وبعد ، فالبندنيجي لغوي شاعر ،[4] ، وقد روي انه كان يرتزق بشعره[5] ، وشعر الارتزاق صنعة محضة مفرغة من الصدق والترسل ، فلا بد اذن من توفير ادوات هذه الصنعة ، واهمها القافية ، ومعاناة البندنيجي لها هي الحافز النفسي الخاص الى وضع معجمه ، يتوافر فيه على ما يريد منها ، الى جانب ما وجده من حاجة غيره من الشعراء والأدباء وسائر الناس الى مثله ، واذا كان كتابه (التقفية) صورة من صور العناية بالشعر ، فان كتابيه الآخرين (العروض) و(معاني الشعر)[6] اللذين لم يصلا الينا ، يشيران الى تعدد جوانب هذه العناية .

مادته :

لما كان غرض البندنيجي من وضع معجمه خدمة اهل الشعر والادب خاصة ، والناس عامة ، فانه اختار لكتابه الألفاظ التي تتصف بالفصاحة اولا ، وبعدم الغرابة ثانيا ، وقد صرح بذلك في مقدمته فقال : « واضفنا الى كل كلمة من

(١) ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) ١٠٤ .

(٣) ١٠٥ - ١٢٦ .

(٤) معجم ما استعجم ١/ ٢٨١ .

(٥) انباه الرواة ٤/ ٧٣ .

(٦) معجم الادباء ٢٠/ ٥٦ وانباه الرواة ٤/ ٧٣ .

كل باب ما يشاكلها من الكلام الفصيح ، الذى لا يجهله العوام ، ليكون ذلك اجمع لما يريده المرتاد لما وصفنا[1] » . فاختلف بذلك عن سابقيه الخليل وابي عمرو ، اذ جمع الاول في كتابه الغريب من الألفاظ الى غيره ، وقصر الثاني جمعه على الغريب النادر في الاكثر دون الشائع المعروف ، اما البندنيجي فاختار المتداول المستعمل من الألفاظ الفصيحة مما لا يجهله اكثر الناس ، وهو النوع الذى يحقق هدفه المنشود .

وبناء على هذا فقد اعفى البندنيجي نفسه من شرح كثير من الألفاظ ، لعله يساوي المشروح منها في مجموع الكتاب ، اذ وجدها مألوفة مستعملة ، لا تحتاج الى تفسير ، فاكتفى بذكرها ، مثال ذلك ما بدأ به باب التاء فقال : « النَّبات . والسُّبات من النوم . والثَّبات . والشَّتات : الفراق . والفُتات : ما فُتّ[2] » . واذا كان هنا يهمل مرة ويشرح اخرى ، فانه في احايين كثيرة كان يورد العديد من الألفاظ غير المشروحة واحدة بعد الاخرى ، وكأنه لا يريد ـ وقد وجد معناها معروفا ـ الا اثبات فصاحتها في اللغة ، وقبولها القافية في الشعر ، فقال في (قافية اخرى) من باب الحاء : « الصبيح . والمليح . والشحيح . والصحيح . والمديح . والنجيح . والقبيح . والذبيح . .[3] » .

ولا يزيد شرحه للألفاظ احيانا على الكلمة او العبارة ، كما مر في النص المنقول من باب التاء ، وكما في قوله : «فالسَّنيح : ما اتاك عن يمينك ، والبَريح : ما اتاك عن شمالك . والنَّطيح : ما استقبلك . والصَّفيح : الحِجارة العِراض . والصرِّيح : الخالص[4] » على انه يطيل في مواضع اخرى مشبعا اللفظة تفسيرا ، وان لم يبلغ في هذه الاطالة مبلغ المعجمات الضخمة التي تلته ، بل بعض التى سبقته ايضا كالعين مثلا ، يقول في احدى قوافي الفاء : « والإخلاف : في الوعد ، يقال : وعد الرجل فأخلف ، واخلفته انا اخلافا اذا وجدته مُخْلِفاً . وتقول : أخلف الله عليك بخير وخَلَف الله ايضا . ويقال : أخلف الله لك وأخلفَ عليك وأخلفَ فوهُ اذا تغيرت

(١) التقفية ٣٧ .

(٢) ٢١٠ .

(٣) ٢٦٩ .

(٤) ٢٦٩ .

ريحُه ، وقال : بان الشبابُ وأخلفَ العُمُرُ . ويقال : خَلَف ايضا[1] » .

وما دام المؤلف مهتما بالتقفية ، فانه كان يحشد ما استطاع من الألفاظ المتشابهة في الوزن ، دون ان يعنى بايراد الاصول المجردة لهذه الألفاظ ، وانما كان يأتي بها على اي بناء كان او اية صيغة ما دامت كل مجموعة منها متفقة الافاعيل ، مشبها بذلك ابا عمرو الشيباني ، ومختلفا عن الخليل ، وعمن تأخر عنه من اصحاب المعجمات . وجاءت جمهرة الألفاظ في التقفية على بناء المصدر او اسمه مجردين مرة ومزيدين اخرى ، مثل :(الرَّجف)و (الرَّشف)و (الزَّحف)[2] ، ومثل (الاشتفاف)و(الاعتساف) و (الاستهداف)[3] . ويلي المصدر واسم المصدر في الكثرة : صيغة الجمع ، مثل (السِّمات) و(الهبات) و(الصِّفات)و (الصِّلات)[4]، وقد اورد هذه الالفاظ في باب التاء ولولا اعتبار القافية لما دخلت هذا الباب ، لأن التاء فيها احد حرفي علامة الجمع ، وليس اصيلا فيها . وكان اذا اورد لفظة من هذه الصيغة ، نص في كثير من الاحيان على المفرد منها ، فيقول : « والمِقات : جمع مِقَة وهى العِشق . والكُرات : جمع كُرة . والهِنَات : جمع هِنَة ، وهي الامور المكروهة والدواهي . والابات : جمع إبة . .[5] » وهكذا . واذا كانت الألفاظ التي جاءت بصيغة المفرد مذكرة في الغالب ، فان المؤنث منها كثير ، حتى ان الفاظ بعض القوافي مؤنثة جميعا ، مثل : (الزُّبية) و (النُّهية) و(التَّحيّة) و (الحِلية) و (الفدية)[6] .

وطريقة البندنيجي في ترتيب الالفاظ ومعالجتها اوهمت محقق التقفية في دراسة له غير التي في صدر الكتاب ، ان المؤلف تأثر في ذلك بكتب الاجناس ، فقال : « ويلوح لي ان اعتماده على المفردة في معجمه من آثار حفظه لكتاب الاجناس

---

(١) ٥٨٠ .

(٢) ٥٧٥ .

(٣) ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ .

(٤) ٢١١ .

(٥) ٢١١ .

(٦) ٦٩٨ .

للاصمعي وغيره ، فقد شاع التأليف بهذا الضرب في القرن الثالث[1] » ، ثم يقتبس من كتاب الاجناس لابي عبيد امثلة يحاول ان يجد في التقفية ما يشبهها ليقول بعد ذلك : « فكما ان كتب الاجناس لا تصر (كذا) اهتماما لايراد الالفاظ وفق اي منهج معين او ترتيب واضح نلمح ذلك في التقفية ، فليس ثمة اى ترتيب هجائي في ايراد الألفاظ[2] » . والحق ان كتب الاجناس مؤلفات وضعت لجمع مواد المشترك اللفظي وذكر المعاني التي ينصرف اليها كل لفظ ، دون ان تعنى بأي نوع آخر من الألفاظ ، شأنها شأن كتب ما اتفقت الفاظه واختلفت معانيه ، ولا تختلف عنها الا في الاسم . فهي اذن من الكتب المختصة المختصرة التي يفترض في مثلها الا ترمي الى اكثر من الجمع والتعليق اليسير ، وهي ظاهرة لم تشع في كتب الاجناس حسب ، بل في جمهور الرسائل الموضوعية المختصة . هذا الى ان كتب الاجناس لم تكن خالية تماما من منهج تسير عليه ـ وان اهملت في الاكثر ترتيب الألفاظ على الحروف ـ في ايراد موادها . اذ التزمت مثلا بتكرير اللفظ المشترك مع كل معنى من معانيه مثل : « الآل : آل الشّخص .والآل : السرّاب . والآل : الرجل يشهد بالزور . والآل الولي[3] » . وهذا الالتزام كما يبدو هو الذي اوهم الدارس بالتأثر ، وبينهما اكثر من وجه يختلفان فيه .

وعني البندنيجي بالشواهد عناية كبيرة ، فأكثر منها نثرية وشعرية ، ونستطيع ان نتصور عمق هذه العناية بعد ان عرفنا مقدار اقتصاده بالشرح والتفسير ، وكأنه كان يحمل هذه الشواهد القسط الاكبر من عبء توضيح المعنى وبيانه ، فتنوعت شواهده وبخاصة النثرية منها ، فاستشهد بآيات القرآن الكريم ،[4] ، والحديث الشريف[5] ، والامثال واقوال الفصحاء[6] ، وغيرها . ولا يلفت النظر في ذلك سوى كثرة استشهاده بالحديث ، ولعله لم يكن يرى حظر الاستشهاد به كغيره من

---

(١) مجلة المورد ، المجلد الخامس ٣٠٢/٤ .

(٢) نفسه ٣٠٢/٤ .

(٣) اجناس ابي عبيد ٢ .

(٤) ١٠٠ ، ١١٩ ، ١٥٥ ، ٣٤٨ ، ٥٦٩ ، ٦٩١ .

(٥) ٧٢ ، ٢٠٠ ، ٢٢٨ ، ٣٩٨ ، ٤٨٢ ، ٦٥٣ .

(٦) ٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٨ ، ٤٢٣ ، ٥٣٠ .

اللغويين ، وبهذا اشبه الخليل في عدم التوقف ازاء الاخذ به ، بل اشبهه في التوسع بهذا الاخذ . على انه خالف أبا عمرو الشيباني في ذلك وفي مجمل شواهده النثرية ، التي لم يعن بها ابو عمرو عناية تذكر .

واكثر من الشعر ايضا قصيدا ورجزا ، فأنشد للجاهليين امثال : زهير[١] ، والحارث بن حلزة ،[٢] وامرىء القيس[٣] ، وتأبط شرا[٤]، وغيرهم ، وللمخضرمين امثال : حسان[٥] والحطيئة[٦] ، وكعب بن مالك[٧] ، وغيرهم ، وللاسلاميين امثال : ذي الرمة[٨] ، والاخطل [٩] ، وجرير[١٠] ، والفرزدق[١١]، والراعي[١٢] ، وغيرهم . ولم يقف في هذه الطبقة عند ابن هرمة الذى استشهد[١٣] له وانما جاوز ذلك الى اوائل العباسيين مثل : اسحاق الموصلي[١٤]، مشبها بذلك الخليل ايضا الذي مد عصر الاستشهاد في العين الى هذه الطبقة كما مر ، وخالف ابا عمرو الذي وقف عند حدود الطبقة السابقة . واذا لم ينسب البندنيجي طائفة من هذه الشواهد الى شعرائها[١٥] ، فان عددها قليل قياساً الى ما نسب منها .ـ

وموضع البيت الشاهد لدى البندنيجي بعد ذكر معنى اللفظة ، وهو الموضع الطبيعي له ، ولم اجده ، خالف طريقته في هذا ، مخالفا الخليل وابا عمرو اللذين

---

(١) ٤٤ ، ٥٦، ٢٣٢ ،

(٢) ٣٩ ، ١٥٥ ، ٢٩٢ .

(٣) ١٢٤ ، ٢٦٥ ، ٥٩٥ .

(٤) ٦٠٩ .

(٥) ١٥٦ ، ٣٢٩ ، ٣١١ .

(٦) ٦٣٧ .

(٧) ٢٩٥ ، ٧٠٣ .

(٨) ٥١ ، ٦١ ، ٥٤٥ ، ٦٩٧ .

(٩) ٥٧٧ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ .

(١٠) ٥١ ، ٤٠٨ ، ٥٤٨ .

(١١) ٤٤٢ ، ٥٨٦ ، ٥٩٠ .

(١٢) ١٦٦ ، ٢٥٣ ، ٣١٥ .

(١٣) ٤٠٥ .

(١٤) ٢٧٩ .

(١٥) ١٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٨٨، ٤٨٣ .

كانا يغيران من موضعه احيانا تقديما وتأخيرا . وكثيرا ما يعلق المؤلف على البيت تعليقات مختلفة بحسب ما يقتضيه البيت نفسه ، فتارة يشرح بعض الفاظه ، كقوله في مادة (الاظلاف) : « والاظلاف : التوبير ، ويقال : ظلفت ايضا في المعنيين :

ألم اظلِف عن الشعراءِ نفسي كما ظَلَفَ الوسيقةُ بالكراعِ
فلا اقتات الا فوقَ قُفٍ يذل بذي الحوافِر او يَفاعِ

الكراع : الغِلظُ من الارض . والوسِيقةُ : ما جمعت من الابل وسقتَه ، والاسم : الظَّلَف ومقتات : مُتبع[1]» وعلى الرغم من انه انشد البيت الثاني استطراداً ، فانه أولاه، عنايته في شرح لفظة منه . ونراه تارة اخرى يذكر رواية ثانية للبيت يقول مثلا : « والمكاء : طائر لا يغرد الا في الربيع بين الرياض ، قال ابو النجم :

حتى اذا العَودُ اشتهى الصَّبوحا وسكت المكـاء ان يصيحا
وهبت الافعى بأنْ تشيحا

يروى : تسيح وتشيح ، فمن رواه تسيح ..[2]» ويبين الفرق المعنوي بين الروايتيـــن . ونجده ثالثة يورد خبرا يتعلق بالبيت ، كقوله : « والحِذوة : العَطية ، بكسر الحاء وضمها ، قال ابو ذؤيب :

وقائلة ما كان حذوة بعلها غداتئذٍ من شاء قردٍ وجامل

قرد : بطن من هذيل ، وبلغني انهم كانوا زناة ، واياهم يريد الناس بقولهم : أزنى من قرد[3] » .

وهذا الاهتمام بالشواهد لا نجد مثله باللغات ، اذ كان اهتمام البندنيجي بها ضئيلاً ، فلم يعرض الى خلافاتها اللغوية واستعمالاتها الخاصـة ، الا في مواضـع معدودة من الكتاب ، ولئن نسب بعض هذه اللغات وسمى قبائلها[4] ، لقد اهمل نسبتها احياناً ، مكتفياً بالنص على ان صورتي اللفظ لغتـان ، كقولـه : « والجِرو

---

(١) ٥٨٢ وانظر : ٤٧ .
(٢) ٥٢ .
(٣) ٧١ - ٧٢ .
(٤) ٢٧٦ ، ٣٧٦ ، ٤٨٠ ، ٦٦١ ، ٦٧٧ .

والجَرو لغتان : جرو الكلب وغيره [1] » . واذا كانت القراءات تمثل جانباً من جوانب الخلافات اللهجية ، فقد اشار اليها المؤلف ، [2] ، كما اشار الى بعض الظواهر اللغوية من خلال معالجته للالفاظ ، كظاهرة التضاد [3] ، وان لم ينص على ان اللفظة من الاضداد في جميع المواضع [4] . واشار الى المعرب من الألفاظ ، كقوله : « والبَرَق : الحَمَل ، وهي فارسية معربة [5] » . ولعل وجود مثل هذه المواد في الكتاب من آثار اطلاعه على كتب اللغويين المستقلة في هذه الموضوعات ، او مما سمعه من اساتذته الثقات ، وكان البندنيجي يشترط لصحة ما يسمع ان يكون من ثقة ، يقول مثلاً « والشكب : فرخ الكركي ، قال ابو بشر : ولم اسمعه من ثقة [6] » . على ان ابن الاعرابي وثعلباً صححاه [7] .

اما شيوخه الذين نقل عنهم في الكتاب ، فانه لم يسمع منهم شيئاً ، وانما روي ان البندنيجي تلمذ لابن الاعرابي (ت ـ ٢٣١) وابي نصر الباهلي (ت ـ ٢٣١) ، وعلي بن المغيرة الاثرم (ت ـ ٢٣٢) ، وابن السكيت (ت ـ ٢٤٤) وابي اسحاق الزيادي (ت ـ ٢٤٩) وابي الفضل الرياشي (ت ـ ٢٥٧) [8] ، ولكنهم لم يكونوا شيوخه في (التقفية) ولم يرد ذكر احدهم فيه ، وانما روى البندنيجي في كتابه عن ابي عمرو بن العلاء (ت ـ ١٥٧) [9] ، والخليل بن احمد (ت ـ ١٧٥) [10] ، ويونس بن حبيب (ت ـ ١٨٢) [11] ، والفراء (ت ـ ٢٠٧) [12] ،

---

(١) ٦٧٣ .

(٢) ٤٨٢ ، ٥٩٩ .

(٣) ٦١٦ ، ٦٩٨ .

(٤) ١٣٩ ، ٢١٠ ، ٥٩٤ .

(٥) ٦٠٣ .

(٦) ١٣٨ - ١٣٩

(٧) ١٣٩ (الهامش) .

(٨) معجم الادباء ٢٠/ ٥٦ وانباه الرواة ٤/ ٧٣ ونكت الهميان ٣١٣ وبغية الوعاة ٢/ ٣٥٢ .

(٩) ١٩٢ ، ٦٦٩ .

(١٠) ٦٧٣ ، ٦٨٧ .

(١١) ٥٢٤ ، ٦٦٩ .

(١٢) ٦٠١ .

وابـي عبيدة (ت ـ ٢١٠)[١] ، والاصمعـي (ت ـ٢١٣)[٢] ، وابـي زيد (ت ـ٢١٥) [٣] وابي حاتم (ت ـ ٢٥٥) [٤] ، وهم ممن لم يتلمذ لهم ، لأنه لم يدرك الاوائل منهم ، وادرك من بعدهم حدثاً ، غير انه كان يمكن ان يتلمذ لابي حاتم ولكن لم يرو عنه ذلك ، ولعل ذلك يعود لامرين : الاول ان البندنيجي لم يقصد البصرة وانما قصد بغداد فأخذ عمن اخذ فيها ، والثاني انه لما تصدر ابو حاتم مجالس الدرس اللغوي بأخرة من حياته كان البندنيجي المولود سنة (٢٠٠هـ) قد شب عن طوق التلمذة ، واكتملت شخصيته العلمية . ولا شك ان الحكاية عن هؤلاء تمت بوساطتين ، الاولى : شيوخه الذين سمع منهم ، وكانوا قد سمعوا من اولئك ،ولم يذكر اسماء شيوخه الذين كانوا الوساطة بينه وبين العلماء المذكورين كما اسلفنا . والثانية : مؤلفات اولئك العلماء ، ويظهر من بعض نقوله عنهم انها عن مؤلفاتهم ، لاتحاد النص المنقول في الكتاب مع ما في تلكم المظان ، كما يتضح ذلك من اتحاد حكايته عن الخليل مع ما في (العين) مثلاً[٥] . ومثله كثير جهد المحقق في تتبعه وموازنته[٦] .

وبعد ، فنحن واجدون في تضاعيف الكتاب ثلاثة اسماء ترد معلقة على كثير من المواد ، والتعليقات بمجملها تهتم بتصويب ما اخطأ فيه البندنيجي ، او بالاستدراك عليه في الشروح والشواهد[٧] . واصحابها هم : ابو جعفر احمد بن عبد الله بن مسلم الدينوري ، نجل ابن قتيبة (ت ـ ٣٢٢ هـ) وابو عمر الزاهد ، محمد بن عبد الله ، المعروف بغلام ثعلب (ت ـ ٣٤٥ هـ) وابن خالويه ، ابو عبد الله الحسين بن احمد الهمداني (ت ـ ٣٧٠ هـ) ولم تذكر لنا كتب الطبقات ان هؤلاء تلمذوا للمؤلف والذي يبدو انهم كانوا قد درسوا الكتاب وعنوا بمادته ، وكان

---

(١) ٥٩٩ ، ٦٢٤ .
(٢) ٦٠٤ ، ٦٢٤ .
(٣) ٦٠٤ .
(٤) ٥٩٠ .
(٥) ٦٧٣ ، ٦٨٧ والعين (المخطوط)ـ٥١ ب ، ٢٤٤ ب .
(٦) مجلة المورد ٤/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .
(٧) ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٩

لهم عليه ملاحظات ، لعلها كانت مدونة على حواشي الاصل الذى نسخت منه النسخة ، ثم ادخل الناسخ هذه الحواشي في متن الكتاب منسوبة الى اصحابها[1]؛ وليس التقفية بدعاً في هذا ، فقد مر بنا كتاب (النوادر) لابي زيد(ت ـ٢١٥) ، ورأينا كثرة التعليقات التي اقتحمته لعدد اكبر من العلماء الدارسين .

أثــره :

اشرنا الى ان التقفية من حيث انه مبوب على الحروف الهجائية مسبوق بالجيم لابي عمرو الشيباني ، وافترضنا ان يكون متأثراً به . الا انه من حيث اعتباره الحرف الاخير من الألفاظ في ترتيبها على القوافي ، السابق الى هذا المنهج ، وقد احتذته المعجمات التي اختارت فكرة التقفيه في ترتيب مفرداتها ، كالصحاح للجوهري (ت ـ ٣٩٨ هـ) ، والعباب والتكملة للصغاني (ت ـ ٦٥٠ هـ) ، ولسان العرب لابن منظور (ت ـ ٧١١ هـ) والقاموس المحيط للفيروز ابادي(ت ـ٨١٧هـ)وتاج العروس للزبيدي (ت ـ ١٢٠٥ هـ)واذا كان البندنيجي قد اهمل الحرفين الاول والثاني من مواده فان هذه المعجمات نظرت اليهما وطورت منهجه فعرف بنظام الابواب والفصول .

* * *

٢ ـ معجمات المعاني :

الغريب المصنف : لابي عبيد القاسم بن سلام (ت ـ٢٢٤هـ)

وهو اقدم ما وصل الينا من معجمات المعاني ، وتوجد منه نسخ في بعض المكتبات اذ تقتني مكتبة احمدية في تونس نسخة كتبت سنة (٤٠٠ هـ) رقمها ٣٩٣٩ ، ومكتبة الفاتح باستانبول نسخة رقمها (٤٧٠٦) ، ودار الكتب المصرية نسختين رقمهما (٤و١٧٦) ، ومكتبة المتحف العراقي نسخة رقمها (١٦٢٨ لغة) كتبت في اوائل هذا القرن ، لخزانة احمد تيمور باشا ، ثم وقعت في ملك الاب انستاس ماري الكرملي[2] ، وعلى هذه النسخة اعتمد في الدراسة .

---

(١) التقفية ٢٥ .

(٢) الغريب المصنف ١ وتاريخ بروكلمان ١/ ١٠٦ والمخصص لابن سيده دراسة ودليل ٢٤ ومجلة المناهل المغربية ، السنة الثالثة٦/ ٤٦١ .

وقبل ان نتجه الى صلب الكتاب ، ارى ان نقف قليلاً على ما قاله القفطي في حقه ، قال وهو يتحدث عن ابي عبيد : «وقد سبق الى اكثر مصنفاته ، فمن ذلك (الغريب المصنف) ، وهو من اجل كتبه في اللغة ، فانه احتذى فيه كتاب النضر بن شميل المازني الذي يسميه كتاب (الصفات) ، وبدأ فيه بخلق الانسان ، ثم بخلق الفرس ، ثم بالابل ، فذكر صنفاً بعد صنف ، حتى اتى على جميع ذلك . وهو اكبر من كتاب ابي عبيد وأجود[1]» والى مثل هذا كان ابن النديم قد ذهب[2] .

والحق ان في ذلك غلواً كبيراً ، فلو وازنا بين ما ذكره ابن النديم من اجزاء كتاب (الصفات) وابوابه ، وكتب الغريب المصنف وابوابه ، لظهر الفرق الكبير فيما استجد في الغريب المصنف من الكتب والابواب ، فكتاب الصفات خمسة اجزاء تضم ما يقرب من ثلاثين باباً ، على ما ذكر ابن النديم[3] . ولعل مصطلح (الجزء) في الصفات يقابل مصطلح (الكتاب) في الغريب المصنف . فان كان كذلك ، فالغريب المصنف ثلاثون كتاباً او قريب من ذلك ، تضم ما يقرب من الف باب ، تختلف طولاً وقصراً ، يبلغ اطولها سبع صفحات واقصرها نصف سطر . يضاف الى هذا ان ابا عبيد حين التزم ذكر مصادره من اللغويين والاعراب الفصحاء في اغلب ما يورده من مواد ، ظهر مدى اعتماده على مثل الاصمعي (٢١٣) وابي عبيدة (٢١٠هـ) وابي زيد (٢١٥) وغيرهم من البصريين والكسائي (١٨٩) وابي عمرو الشيباني (٢٠٦) والفراء (٢٠٧) وغيرهم من الكوفيين • حتى ان تتبع احدهم في الباب يشعر ان ابا عبيد ينقل عنها في كتابه بنصه . كالذي نجده مثلاً في ابواب (النخل)[4] ، اذ يعز ان نقرأ فقرة من فقرات هذه الابواب لا تبدأ بقال الاصمعي ، وموادها تشبه ما في كتاب (النخل) المنسوب الى الاصمعي الى حد كبير .

فكيف يكون بعد هذا كتاب الصفات للنضر المثال الذي احتذاه الغريب المصنف ، او ان يكون اكبر من كتاب ابي عبيد او اجود على ما يزعم القفطي ؟ ونقل

---

(١) انباه الرواة ٣/ ١٤ .

(٢) الفهرست ٧٧ .

(٣)نفسه ٧٧ .

(٤) الغريب المصنف ٢٥٩ - ٢٦٨ .

ابن النديم عن المشعري (المسعري) تلميذ ابي عبيد انه قال : « سمعت ابا عبيد يقول : هذا الكتاب احب الي من عشرة آلاف دينار ، يعني الغريب المصنف ، وعدد ابوابه على ما ذكر الف باب ، ومن شواهد الشعر الف ومائتا بيت[1] » . ونقل السيوطي عمن قال : «عددت ما تضمنه الكتاب من الالفاظ ، فألفيت فيه سبعة عشر الف حرف وسبع مئة وسبعين حرفاً [2] »غير ان ابا عبيد قال في الرد على اسحاق الموصلي الذي زعم ان في الغريب المصنف الف حرف خطأ : « كتاب فيه اكثر من مائة الف يقع في الف ليس بكثير ، ولعل اسحاق عنده رواية وعندنا رواية فلم يعلم فخطأنا[3] » .

وذكر القفطي ان ابا عبيد قال متحدثاً عن كتابه الغريب المصنف :« مكثت في تصنيف هذا الكتاب اربعين سنة ، اتلقف ما فيه من افواه الرجال ، فاذا سمعت حرفاً عرفت له موقعاً في الكتاب بت تلك الليلة فرحاً [4] » وهو يشبه ما قاله في كتابه (غريب الحديث)[5] ، ولعل وجود لفظ (الغريب) في كلا الكتابين اوقع الرواة في الوهم ، فنسبوا للثاني ما قاله في الاول وبلغ الكتاب من المنزلة ان قال فيه شَمِر :«ما للعرب كتاب احسن من مصنف ابي عبيد [6] » .

ولم يكن ما اتهم به الغريب المصنف من محاكاة غيره بدعاً بين كتب ابي عبيد، فكتابه «في غريب القرآن منتزع من كتاب ابي عبيدة[7] »،وكتابه«في غريب الحديث فانه اعتمد فيه على كتاب ابي عبيدة في غريب الحديث [8] »ولم اهتد الى تفسير كل ذلك ، الا ان يكون المقصود سبق اولئك العلماء ابا عبيد الى التأليف في هذه الموضوعات ، فابو عبيدة (ت ـ ٢١٠) سبق ابا عبيد الى التـأليف في غريب

---

(١) الفهرست ١٠٧ .

(٢) بغية الوعاة ٣٧ وانظر : الانباه ٣/ ٢١ .

(٣) انباه الرواة ٣/ ٢٠ .

(٤) الانباه ٣/ ٢٢ .

(٥) نفسه ٣/ ١٦ .

(٦) نفسه ٣/ ٢٣ .

(٧) معجم الادباء ١٦/ ٢٦٠ .

(٨) نفسه ١٦/ ٢٦٣ .

القرآن وغريب الحديث ، كما سبق النضر بن شميل (ت ـ ٢٠٣) الى تأليف (الصفات) . فان كان ذلك ما أرادوا فنعم، على انهم لم يتهموا غيره بمثل ما اتهم به ، وكثيرون هم الذين سبقوا الى موضوعاتهم كأبي عبيد ، فيكونون قد ارادوا غير السبق ، ارادوا مادة الكتاب نفسها انها (منتزعة) من كتاب غيره ، وهذا ما ابطله البحث العلمي المقارن . اما ان يكون النضر قد ارتضى منهج معجمات المعاني المؤلفة قبله باسم الصفات أو الغريب المصنف ، فوضع كتابه متوسعاً في المادة ومطوراً للمنهج ومقترباً من العمل المعجمي ، فجاء ابو عبيد وارتضى المنهج وشارك في تطويره فوضع الغريب المصنف مضيفاً اليه الجديد من الابواب والمعاني والالفاظ ، فان ذلك لا يعني ان ابا عبيد احتذى كتاب النضر ، وانما يعني انه اختار النظام نفسه لا غير ، وهذا يصدق على الاغلب الاعم من معجمات المعاني منذ ابي عبيد .

نعود الآن الى الكتاب ، واول ما نفتقده فيه مقدمة يبسط المؤلف فيها الكلام على المنهج والمصادر وطبيعة المادة وما الى ذلك مما يعيننا على التعرف على الكتاب والاحاطة بموضوعه ، مثله في هذا مثل كثير من مؤلفات عصره ، واقربها مثلاً اليه (الألفاظ) لابن السكيت ،و (المعاني الكبير) لابن قتيبة ، وسيأتي درسهما . الا ان مصادر ترجمته تذكر انه حين الف الغريب المصنف قدمه الى عبد الله بن طاهر وكانت بينهما صحبة ، فأجزل له العطية[١] .

قسم ابو عبيد معجمه على ما يقرب من ثلاثين كتاباً تمثل الموضوعات الرئيسة ، مثل : كتاب خلق الانسان ،[٢] ، كتاب النساء[٣] ، كتاب اللباس[٤] ، كتاب الاطعمة[٥] ، كتاب الامراض[٦] ، كتاب الدور والارضين[٧] ، كتاب

(١) معجم الادباء ١٦/٢٥٨ .

(٢) الغريب المصنف ٢ ـ ٥٩ .

(٣) نفسه ٥٩ ـ ٧٤ .

(٤) ٧٦ ـ ٨٨ .

(٥)٨٨ ـ ١١٠ .

(٦) ١١٠ ـ ١٢٥ .

(٧) ١٢٥ ـ ١٣٨

الخيل[1] . كتاب السلاح[2] . كتاب الطير[3] كتاب الحشرات[4] ، كتاب الأواني والقدور[5] وغيرها . ثم قسم كل كتاب على ابواب يختلف عددها ومقدار مادتها بحسب الكتب ، وهي تمثل الموضوعات التي تتفرع من الموضوع المعقود له الكتاب . ففي كتاب خلق الانسان مثلاً نجد : باب تسمية خلق الانسان ونعوته ،[6] . وباب نعوت خلق الانسان [7] ، وباب نعوت دمع العين وغؤورها وضعيفها وغير ذلك[8] . وباب اسماء النفس[9] ، حتى ينتهي الكتاب بباب نزع الولد الى ابيه والصحة في النسب[10] ، ولا يزيد هذا الباب على ثلاثة اسطر ، وبلغ طول كتاب خلق الانسان سبعاً وخمسين صفحة ولعله من اكبر كتب المعجم .

ونلاحظ في كتاب خلق الانسان ان تتابع الابواب فيه لم يكن وفق اساس موضوعي معين ، وانما جاء بها كيفما اتفق ، وهذا ما نجده في جميع كتب الغريب المصنف ، اذ لا منهج في ترتيب الابواب ، وهو يصدق ايضاً على جميع معجمات المعاني التي سارت على نظامه كما سنرى في (الالفاظ) و(المعاني الكبير) و(الجراثيم) . ويبدو من اعتماد ابي عبيد في هذا الكتاب على الكسائي ، وابي عمرو الشيباني ، والاصمعي ، وابي زيد ، وابن الاعرابي[11] ، انه وقف على كتبهم في خلق الانسان ، وخصوصاً الاصمعي فهم[12] ، جميعاً - سوى الكسائي - ممن الف في هذا الموضوع . على ان موازنة مادة الغريب المصنف بكتاب الاصمعي لا

---

(1) ١٣٨ - ١٤٥ .
(2) ١٤٦ - ١٦٥ .
(3) ١٦٥ - ١٧٠ .
(4) ١٧١ - ١٧٦ .
(5) ١٧٧ - ١٩٩ .
(6) ٢ - ١٣ .
(7) ١٤ - ١٦ .
(8) ١٧ - ١٩ .
(9) ١٩ - ٢٨ .
(10) ٥٩ .
(11) ٢١ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩ .
(12) حققه اوغست هفنر ونشره في (الكنز اللغوي) ببيروت سنة ١٩٠٣م ص ١٥٨ - ٢٣٢ .

تدل على النقل الحرفي او الاعتماد المباشر ، بل كان ابو عبيد فوق هذا اكثر من الاصمعي عدد الفاظ ، واقل منه استشهاداً بالشعر[1] والتفاتاً الى الصيغ المختلفة للمادة .

ومثل هذا ما نلاحظه في كتاب الخيل الذى ضم احد عشر باباً[2] ، عالج فيها حملها ونتاجها وولادتها وفطامها وصفات اعضائها وما الى ذلك ، معتمداً على الاصمعي في اغلب مواضع الكتاب ، على انه لم يضف الى مادة الاصمعي في كتابه شيئاً يذكر[3] ، وكان اكثر منه اختصاراً في الشرح واقل استشهادا بالشعر . ونقول ذلك ايضاً في كتاب الوحش[4] وكتاب السباع[5] ، اما كتاب النخل فانه يبدأ كثيراً من فقراته بقال الاصمعي[6] ، مما يشير الى اعتماده الكبير على كتاب الاصمعي ، وموازنته بكتاب النخل المنسوب الى الاصمعي تعضد ما نذهب اليه[7] ، واما كتاب الحشرات ، الذى افرد فيه باباً للجراد[8] وباباً لليعاسيب والجنادب[9] ، وباباً للعظاء والحرباء[10] ، وباباً للحيات ونعوتها[11] ، وباباً للعقارب[12] ، وباباً للنمل والقمل[13] ، وباباً للذباب[14] ، وغيرها . وعالج فيها صفات هذه الحشرات واسماءها المختلفة ، ملتفتاً الى ما يتصل بالألفاظ من صيغ ومشتقات ، وذاكراً بعض اللغات ، ومنشداً قليلاً من الشعر . فان مادة هذا الكتاب دون الشواهد والاعلام

---

(١) ١٨ ، ٢١

(٢) ١٣٨ ، ١٤٥

(٣) انظر : الخيل للاصمعي (مجلة كلية الآداب ، ١٩٦٩ م) ص ٣٥١ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩

(٤) ٤٣١ - ٤٣٦

(٥) ٤٣٦ - ٤٤٦ وانظر : الوحوش للاصمعي ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٢٩

(٦) ٢٥٩ - ٢٦٨

(٧) النخل للاصمعي (البلغة) ٦٤ - ٧٢

(٨) ١٧١

(٩) ١٧١

(١٠) ١٧٢

(١١) ١٧٣

(١٢) ١٧٤

(١٣) ١٧٥

(١٤) ١٧٦

بنصها في كتاب النعم والبهائم والوحش المنسوب الى ابن قتيبة[1]، وسنقف على هذا في دراستنا لكتاب (الجراثيم) .

وعقد ابو عبيد باباً لنوادر الاسماء[2] ، وآخر لنوادر الافعال[3] ، ولم يجمعهما بكتاب مفرد ، وانما الحقهما بكتاب الاواني والقدور دون مسوغ . ولم يمحض كلا منهما لما خصه به ، فنجد في نوادر الاسماء بعض الافعال ، وفي نوادر الافعال بعض الاسماء ، فاوقعه هذا بتكرير بعض المواد . على انه كان مقتصداً كعادته ، فحين يذكر اللفظ لا يلتفت الى صيغه وتصاريفه ، سوى ما يكسع به الاسم المفرد من ذكر جمعه ، او الفعل الماضي من ذكر مضارعه او مصدره احياناً نادرة . وشرحه قصير وشواهده قليلة اكثرها غير منسوب ، وكان عماده في هذين البابين على ابي عمرو الشيباني والفراء وابي عبيدة والاصمعي والاحمر ، كما نقل عن بعض الاعراب الفصحاء كأبي الجراح وابي العدبس وابي الوليد ، ولم يكن النقل عن مثل هؤلاء الاعراب مطرداً في جميع ابواب المعجم ، وانما ذكرهم هنا لما تقتضيه النوادر من مشافهة هؤلاء .

وهذه الظواهر التي لمسناها في هذه الكتب نجدها ايضاً في كتاب امثلة الاسماء[4] ، وكتاب امثلة الافعال[5] ، اللذين عالج فيهما اوزان الاسماء وصفاتها ، وصيغ الافعال وتعديها ولزومها وما يشتق منها ، ووقف عند دلالة فعل وافعل اتفاقاً واختلافاً ، وهو فيهما على طريقته في الاختصار وقلة الاستشهاد وعزو الآراء الى اصحابها . ومثل هذا في الابواب المخصصة للمصادر ، مثل باب مصادر الافعال بالجسد وغيره[6] ، وباب اسماء المصادر التي لا تشتق منها افعال[7] ، وباب

---

(١) النعم والبهائم ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١١٣ ، ١٢٢

(٢) ١٨٣ - ١٩٢

(٣) ١٩٢ - ٢٠١

(٤) ٢٨١ - ٣١٧

(٥) ٣١٧ - ٣٣٢

(٦) ٥٥١ - ٥٥٢

(٧) ٥٥٢ - ٥٥٤

المصادر في العدد[1] ، وباب المصادر التي عليها مثال فَعَلْتَ فَعَلاً بفتح العين[2] وباب المصادر على مثال مفعول[3] . وهو في هذه الابواب ينقل اكثر ما ينقل عن الكسائي (ت١٨٩) وابي زيد (٢١٥هـ) ، ولا يلتفت فيها الى اكثر من ذكر الفعل او اللفظ الذي اخذ منه المصدر ، مع قلة شديدة من الشواهد .

ونلاحظ في الباب الذي عقده للمثنى باسم (باب الاسمين يضم احدهما الى صاحبه فيسميان جميعاً به)[4] ، والذى اعتمد فيه على الكسائى والفراء وابن الكلبي والاصمعي والاحمر وابي زيد[5] ، نلاحظ انه لم يدرج فيه على ايراد اللفظ والاستشهاد له ، وانما كان يقدم الشاهد على اللفظ ، وذلك بان ينتزع من البيت اللفظ ويشرحه ، ولعله في هذا متأثر بأبى عمرو الشيباني الذي فعل ذلك كثيراً في معجمه كما مر ، ولعل ابن قتيبة ايضاً تأثر ابا عبيد فاختار هذا المنهج اساساً لمعجمه (المعاني الكبير) ، كما سيأتي درسه .

وخص الهمز بثلاثة ابواب ، باب الهمز[6] وباب ما يهمز من الحروف وها لا يهمز[7] ، وباب ما ترك فيه الهمز واصله الهمز[8] ، ولا تتعدى بمجموعها ثلاث صفحات ، اورد فيها الألفاظ المهموزة دون ان يعنى بشرحها او الالتفات الى صيغها ومشتقاتها ، واقتصد بالشواهد كثيراً سوى بيت غير منسوب وحديث لعبد الله بن سلام، وعماده فيها على الكسائي وابي عمرو وابي عبيدة والاحمر واليزيدي والاصمعي وابي زيد ، ويبدو من كثرة النقل فيها عن الاخير انه وقف على رسالته في الهمز ، وموازنة الابواب بهذه الرسالة تعضد ذلك ، فبين مادتيهما شبه كبير[9] ، كما تدل

---

(١) ٥٥٤

(٢) ٥٥٥

(٣) ٥٥٥

(٤) ٥٤٣ ـ ٥٤٦

(٥) ٥٤٥ ، ٥٤٤ .

(٦) ٥٤٨ ـ ٥٥٠

(٧) ٥٥٠

(٨) ٥٥٠ ـ ٥٥١

(٩) الهمز لابي زيد ٦ ، ٧ ، ١٧ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٢

موازنة هذه الابواب بباب الهمز في كتاب (الالفاظ) لابن السكيت على رجوع ابن السكيت اليها والنقل منها[1] . ومثل هذا ما نجده في كتاب الاطعمة[2] ، وكتاب مكارم الاخلاق[3] ، وباب النفي في قولك مالك منه بد ، وباب الطيالسة والاكسية[4] ، اذ لم يكتف ابن السكيت بنقل عنوانات هذه الكتب والأبواب الى (الفاظه) وانما اخذ كثيراً من موادها[5] .

ويقفنا باب القصاع والآنية في الغريب المصنف[6] الذي اعتمد فيه ابو عبيد على الكسائي والفراء وابي زيد كثيرا، واستشهد فيه ببيتين لا غير، على ان اكثر مادته دخلت بنصها كتاب الرحل والمنزل او باب الرحل وآلاته والاواني من كتاب الجراثيم المنسوب الى ابن قتيبة[7]، سوى انها في الموضع الاخير متخففة من اسماء اللغويين والشواهد على قلتها ، وسنأتي عليه . كما نجد شيئا قليلا من مادة هذا الباب دخل (الفاظ) ابن السكيت[8] .

والتفت ابو عبيد وهو يجمع موضوعاته الى الفاظ الظواهر اللغوية فعقد لها ابوابا ، بابا للاضداد[9] ، اعتمد فيه على ابي عبيدة والاصمعي وابي زيد[10]، والاول والثاني ممن الف في الاضداد[11]. وبابا للمقلوب[12]، وبابا للمبدل من الحروف[13]، مثل مَدَهَه ومَدَحَه . وبابا للمحوَّل من المضاعف[14]، مثل قصَّيتُ

(١) الالفاظ ٦٧٢ ، ٦٧٣

(٢) ٨٨ - ١١٠

(٣) ٤٤٨ - ٥١٨

(٤) ٧٨ - ٧٩

(٥) الالفاظ ٦٣٥ ، ٥٦٨ - ٦٢١ ، ٢٧٠ ، ٦٧٠

(٦) ١٨١ .

(٧) الرحل والمنزل (البلغة) ١٣١ .

(٨) الالفاظ ٥٣١ ، ٥٣٢ .

(٩) ٥١٨ - ٥٢٥ .

(١٠) ٥٢١ ، ٥٢٠ ، ٥١٨ .

(١١) الفهرست ٨٠ ، ٨٢ وحقق اوغست هفنر اضداد الاصمعي وطبعه ببيروت ١٩١٣ .

(١٢) ٥٢٥ - ٥٢٩ .

(١٣) ٥٢٩ - ٥٣٠ .

(١٤) ٥٣١ .

أظفاري بمعنى قَصَصْت . وبابا للاتباع[1] ، وبابا للتذكير والتأنيث[2] ، وبابا لما دخل من غير لغات العرب في العربية[3] ، اعتمد فيه على ابي عبيدة والاصمعي على وجه الخصوص ، والتفت في معالجة اللفظ فيه الى اصله ، ولغته ، ومعناه ، ومقابله العربي ، مع قليل من الاستشهاد . وبابا للاسماء المختلفة للشيء الواحد[4] ، وبابا للاجناس ، وهي الفاظ المشترك ، يقول فيه : « سمعت الاصمعي يقول : العرض خلاف الطول ، والعَرض ما كان من مال غير نقد والجمع عُروض ، والعَرض الجبل ، قال ذو الرمة :

كما تَدَهْدا من العَرضِ الجَلاميدُ

والعَرض الامر يعرض للرجل يبتلى به ، والعَرض ايضا حطام الدنيا[5] . . . »وهكذا يعالج سائر الالفاظ ، اختصار في الشرح وقلة في الاستشهاد ، وندرة في الرواية . ونحن نعلم ان ابا عبيد افرد هذا النوع من الالفاظ بكتاب مستقل[6] .

وعقد للغات ثلاثة ابواب، الاول للحروف التي فيها لغتان بمعنى واحد[7] ، والثاني للحروف التي فيها ثلاث لغات بمعنى واحد ، والثالث للحروف التي فيها اربع لغات بمعنى واحد[8] . وطريقته في معالجة مواد هذه الابواب لا تختلف عن طريقته المعهودة ، وظواهر المنهج عين ظواهره السابقة . ثم عرج على اللحن ، فخص لحن العامة بباب (ما خالفت فيه العامة لغات العرب من الكلام[9]) لم يأت فيه ـ وهو صفحة واحدة ـ بشيء جديد . وخص لفظة اللحن بباب سماه باب

---

(١) ٥٣١ ـ ٥٣٣ .

(٢) ٥٣٣ ـ ٥٣٤ .

(٣) ٥٣٩ ـ ٥٤٢ .

(٤) ٥٧٢ ـ ٥٧٣ .

(٥) ٥٩٥ .

(٦) الاجناس ط احمد .

(٧) ٥٣٤ ـ ٥٣٦ .

(٨) ٥٤١ .

(٩) ٥٤٢ ـ ٥٤٣ .

اللحن ، لا يتجاوز الاسطر القلائل ، قال فيه : « ابو زيد : لحن الرجل يَلحن لحناً اذا تكلم بلغته ، ولحَنْتُ له لحناً اذا قلتَ له قولا يفقهه عنك ، ويخفى على غيره . ولحَنه عنّي لحناً اي فهمه ، والحنته انا اياه الحانا . غيرُه : لاحَنت الناس فاطنتهم ، ولحنَ الرجل : اذا أخطأ في الاعراب[1] » . وهذا البـاب بنصـه ، ولا يلي موضعـه موضع الباب السابق ، وانما تفصلهما ابواب . وهو قليل المادة موجز الشرح ، خال من الشواهد ، ولم يسم فيه من الاعلام غير ابي زيد ، ولم يصرح باسم الآخر الذى اشار اليه بعبارة (غيره) . وكان قد عقد بابا لعيوب الشعر[2] ، وآخر لما يقال في القوافي[3] ، ولعل مؤلف الجراثيم تأثر بصنيع ابي عبيد فعقد لهذا الموضوع بابا في آخر كتابه[4] .

نخلص من هذه الوقفات الدارسة لكتب الغريب المصنف وابوابه ، الى ان ابا عبيد تميز فيه بمنهج خاص لا يخلو من عيوب ، اهمها : عدم ترتيب ابواب الكتاب الواحد ترتيبا ما ، وعدم ترتيب مواد الباب ترتيبا ما . والاختصار الشديد في تفسير الالفاظ ، والقلة المفرطة في الشواهد مع عدم تنوعها اذ لم تتجاوز الشعر والقرآن الى الحديث الا نادرا[5] . وعدم تجاوز الشعر عصر الامويين[6] ، مع كثرة مواضع اهمال نسبته[7] . على انه من الجانب الآخر اختص بحسنات اهمها انـه يعـد تطـورا في معجمات المعاني ، عدد الفاظ وعدد ابواب ، وان مؤلفه التزم نسبة الآراء والاقوال الى اصحابها اللغويين والاعراب[8] بل كاد يلتـزم ايضـا بالنص على الآراء المتفقـة والاخرى المختلفة[9] ، فحفظ لنا بذلك من اللغة قدرا كبيرا .

---

(١) ٦٤٩ .

(٢) ٥٦١ .

(٣) ٥٦٢ .

(٤) فهرست مخطوطات الظاهرية ٨٢ .

(٥) ٥٤٩ .

(٦) ٥٩ ، ٥٢٠ ، ٣٨٩ ، ٥٩٥ .

(٧) ٣٨٩ .

(٨) ٧٨ ، ٧٩ ، ٤٦٨ ، ٤٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ .

(٩) ٧٩ ، ٦٣٧ .

اثـــره :

اول ما ظهر حوله رسالة (فيما انكرته العرب على ابي عبيد القاسم بن سلام ووافقته) لابي سعيد محمد بن هبيرة الاسدي (معاصر ابن المعتـز)[1] ، تلا ذلك كتاب (ما انكره الاعراب على ابي عبيد فيما رواه او صنفـه) لابـي عمـر الزاهـد (ت ٣٤٥)[2] ، ثم كتاب (شرح ابيات غُريب (كذا) المصـنف) لابـي محمـد يوسف بن الحسن السيرافي (ت ٣٨٥)[3] ، وكتـاب (شرح الغـريب المصـنف) لاحمد بن محمد بن احمد المرسي (ت حدود ٤٦٠)[4] ، وكتاب (مختصر الغـريب المصنف) لابي يحيى محمد بن رضوان النميري (ت ٦٥٧)[5] . هذا سوى اثره فيما جاء بعده من معجمات المعاني ، مما سنعرض الى بعضها الآن .

الالفاظ : لابن السكيت (ت ٢٤٤ هـ)

وهو ثاني ما وصل الينا من معجمات المعاني ، غير انه لم يصل كما وضعـه المؤلف ، وانما وصل تهذيب الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) له . فعرف الكتاب بتهذيب الالفاظ ، وطبعة الاب لويس شيخو اليسوعي محققـا في بـيروت بمطبعتـه الكاثوليكية سنة ١٨٩٥هـ . ثم اعاد الاب اليسوعي طبع الكتاب حاذفا منه زيادات التبريزي وشروحه وتعليقاته ، مسميا اياه (مختصر تهذيب الالفاظ) ، وكان عليه ان يسميه كتاب (الالفاظ) لآنه هو المتن دون التهذيب ، وكان نشره ببيروت في المطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٩٧م . وقد اعتمدنا التهذيب في الدراسة دون المختصر ، وذلك لعلة سيرد تفصيلها في موضعه ، وهي ان مادة التهذيب التي تعود للخطيب التبريزي لم تكن جميعا في حواشي الاصل ، كما هو عليه المطبوع وانما دخل بعضها متن الكتاب . وليس في الكتاب مقدمة تعزى لابن السـكيت ولا اخـرى للخـطيب التبريزي ، وانما تصدرت احدى النسختين اللتين طبـع منهما الكتـاب ، مقدمـة

---

(١) الفهرست ١١٠ .

(٢) نفسه ١١٤ .

(٣) انباه الرواة ٤/ ٦٢ .

(٤) بغية الوعاة ١/ ٣٦١ .

(٥) نفسه ١/ ١٠٤ .

الخطيب التبريزي لكتابه الذى هذب به اصلاح المنطق لابن السكيت ، يبـدو ان الناسخ نقلها في هذا الكتاب لما وجد فيها من فائدة . ولما رأى من تشابه عمل المهذب في كلا الكتابين . وهي تشير الى ان الدافع الذى دفع التبريزي الى تهذيب اصلاح المنطق ما وجده من التكرار والزيادة في بعض مواضع الكتاب ، وما اصاب بعض الشواهد من الخلل ، وما افتقـرت اليه بعض الالفـاظ من تفسـير[1] . ولعـل هذه الاسباب هي التي دفعته ايضا الى تهذيب (الالفاظ) . ويتصدر النسخة الثانية من نسختي تهذيب الالفاظ ذكر بعض من قرأ الكتاب على الخطيب التبريزي او سمعه عليه ، وهذه القراءات والسماعات تصرح بان كاتبها هو التبـريزي نفسـه ، فهـو المتحدث فيها والمؤ رخ لها ، مما يشير الى ان النسخة كتبت في حياته ، يعضد ذلك ما دونه الناسخ في اولها : « كتاب تهذيب الالفاظ لابـي يوسف يعقـوب بن اسحـاق السكيت رحمه الله . هذبه الشيخ الامام الاوحد ابو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي ادام الله امتاع اهل الادب ببقائه[2] » .

والكتاب بصورته التي بين ايدينـا ، مقسـم الى (١٤٨) بابـا مختلفـة طولا وقصرا ، منهـا ما يزيد على عشر صفحـات[3] ، ومنهـا ما يقـل عن الصفحـة الواحـدة[4] وليس في الكتـاب تقسيم آخـر ، فلا يجمـع الابـواب المتشابهـة في موضوعها (كتاب) ، ولا ينقسم الباب الواحد الى فصول صغيرة تتفرع منه ، وانما تتابعت ابواب الكتاب واحدا بعد الاخر ، وبهذا يختلف ابن السكيت عن ابي عبيد الذي كان يعنى بتفريع الأبواب الصغيرة من الباب الكبير . على اننا لا نستطيع ان نقطع في ان هذا من صنع ابن السكيت او الخطيب التبريزى ، لانه يوجد بيننا وبين الصورة الاولى للكتاب وسيط ، ولعل هذا الوسيط ـ وهو يهذب الكتاب ـ مد يده الى التقسيم ايضا ، وان لم يصرح في مقدمته لاصلاح المنطق انـه فعـل ذلك . وعلى الرغم من ذلك فاننا لا نعدم ان نجد ونحن نتابع مواضع الابـواب في الكتـاب ،

---

(١) تهذيب الالفاظ (المقدمة) ١٥ .

(٢) تهذيب الالفاظ (المقدمة) ١٤

(٣) ٥٧٠ .

(٤) ٥٠٢ .

محاولة وضع الابواب المتشابهة او المتقاربة في موضوعها في مكان واحد ، كالذى نجده مثلا من تتابع الابواب المتعلقة بالنساء وصفاتهن[١] ، او الابواب الخاصة بصفات الشمس والقمر والليل والنهار[٢] .

واذا كانت جل ابواب (الالفاظ) معقودة للموضوعات المختلفة المألوفة في معجمات المعاني ، مثل : باب الغنى والخصب ، باب الفقر والجدب ، باب الجماعة . . . باب المرض . . . باب الشجاعة . . . باب التهمة . . . باب الدعاء للانسان . . . باب الجوع ، وغيرها[٣] ، فاننا نجد بينها ما يند عن موضعهِ ، مخالفا طبيعة الموضوعات الاخرى ، من ذلك باب لم يضع له المؤلف عنوانا ، نقرأ فيه : « قال الاصمعي : يقال : احسن النساء الاسيلة الضخمة . . . واغلظ المواطىء الحصا على الصفا ، واشد الرجال الاعجم الضخم[٤]» . . ويستغرق هذا الباب ما يقرب من صفحتين ، ملأهما ابن السكيت بمثل هذه العبارات المبدوءة بصيغة التفضيل ، وكان يمكنه ان يسميه ابن السكيت (باب الافعل من الاشياء) مثلا ، ولعله لم يفعل تنبها منه الى مخالفته سائر الابواب . واورد فيه العبارات دون ترتيب معين ، وهذا دأبه في جميع ابواب الكتاب ، ولم يفسر من الفاظ هذه العبارات ، الا ما يراه محتاجا الى التفسير[٥] . اذ اورد الكثير منها دون ان يعلق عليه بشيء ، وسار على هذا في سائر ابواب كتابه ايضا ، وبدأ الباب بالرواية عن الاصمعي[٦] ، وهي الرواية اليتيمة عن اللغويين ، وانما نقل في موضعين من الباب عن (بعض الاعراب) دون ان يسميه[٧] ، وكل شواهده، فيه بيتان وشطر من بيت[٨] ، وكلها

---

(١) ٣١٤ ـ ٣٨٢ .

(٢) ٣٨٣ ـ ٤٢٨ .

(٣) ١ ، ١٥ ، ٣٠ ، ١٠٩ ، ١٦٨ ، ٢٦٧ ، ٥٨٠ ، ٦٣٢ . وقارن بالغريب المصنف : ١١٠ ، ٤٥٨ ، ٥٠٨ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

(٤) ٥٥٥ .

(٥) ٥٥٦ .

(٦) ٥٥٥ .

(٧) ٥٥٦ .

(٨) ٥٥٥ ، ٥٥٦ .

غير منسوب ، وذكر فيه مرة لغة اهل الحجاز[1] . وجملة ما يقال في هذا الباب انه يحمل اغلب ظواهر الكتاب .

ومن ذلك ايضا آخر ابواب الكتاب ، وهو الذي سماه (باب ما تكلمت به العرب من الكلام المهموز فتركوا همزه ، فاذا افردوه همزوه ، وربما همزوا ما ليس بمهموز) فيه مثل قوله : « ويقولون : لك الفدا والحما ، مقصور ، اذا كان مع الحما لا غير . فاذا افردوها قالوا : فداءٌ لك وفداءً لك وفداءٍ لك وفِدى لك وفَدى لك . .[2] » واحتل هذا الباب صفحة ونصف صفحة ، اورد فيه ابن السكيت ما اختاره من الالفاظ المهموزة التي ترك العرب همزها ، ومن الالفاظ غير المهموزة التي همزها العرب ، معتمدا في ذلك على ابي عمرو بن العلاء والكسائي وابي عبيدة من اللغويين[3] ، وعلى امرأة من العرب لم يسمها ولم ينسبها الى قبيلتها ، وعلى (بعضهم) ممن لم يسم ايضاً[4] .

على ان ابن السكيت في هذا الباب اكثر تنوعا في المصادر من الباب السابق، إذ عرض هنا للقراءات ، فذكر قراءة الحسن ، ومخالفتها لقراءة ابى عمرو بن العلاء[5] ، كما اضاف الى استشهاده بالشعر والقرآن استشهاده بالحديث[6] ، وان لم ينسب ما اورده من شعر ورجز . وصفوة ما يقال انه اشبه في ظواهره الباب السابق ، فقد اضطرب ترتيب الالفاظ التي يأتي بها المؤلف احيانا في عبارات ، واهمل تفسير بعض الالفاظ ، واوجز تفسير بعضها الآخر ، وقدم الشاهد الشعري على المادة ، فبعد ان انشده استخرج منه اللفظة وشرحها[7] . ووجود هذا الباب يشير الى تأثره بما وضع قبله من رسائل مستقلة تعالج الهمز ، ولعله اطلع على بعضها ، مثل (الهمز) لابن ابى اسحاق (١١٧ هـ) و (الهمز) لابي زيد (ت ٢١٥) ، وغيرهما .

---

(١) ٥٥٧ .

(٢) ٦٧٢ .

(٣) ٦٧٣ .

(٤) ٦٧٢ .

(٥) ٦٧٣ .

(٦) ٦٧٢ .

(٧) ٦٧٢ .

وتدل موازنة هذا الباب بالابواب الثلاثة المعقودة للهمز في الغريب المصنف على وقوف ابن السكيت على الكتاب الاخير ، اذ سبقه ابو عبيد الى فكرة هذا الباب والى بعض مادته ، اذ كان ثاني ابواب الهمز في الغريب المصنف (لما يهمز من الحروف ومالا يهمز) والثالث (لما ترك فيه الهمز واصله الهمز)[1] ضمنهما ابو عبيد من الالفاظ ما نجد على وفاقه لدى ابن السكيت ، على اننا لا نستطيع ان نجزم بنقل ابن السكيت عن الغريب المصنف ، لانه روى في بابه عمن روى عنهم ابو عبيد في ابوابه من اللغويين فيمكن ان يكون قد نقل عن اولئك مباشرة ، دون وساطة الغريب المصنف .

وما دمنا في الكلام على الموازنة بين الكتابين ، يجدر بنا ان نذكر ان موضوعات الغريب المصنف او (معانيه) اوسع من معاني كتاب (الالفاظ) ، ذلك اننا لا نجد في كتاب ابن السكيت كثيرا من ابواب الغريب المصنف ، وقد مر بنا كثير منها ، من ذلك ما عقده ابو عبيد من ابواب : الحشرات ، والخيل ، وخلق الانسان [2] ، وابواب : امثلة الاسماء ، والمصادر ، والافعال[3] ، وابواب : نوادر الاسماء ، ونوادر الافعال ، والتثنية ، وغير ذلك[4] ، وابواب : المعرب ، والاضداد ، والترادف[5] . على ان ابن السكيت كان قد افرد بعض هذه الموضوعات برسائل مستقلة ، ككتابه (المكنى والمبنى والمثنى)[6] وكتابه (الاضداد)[7] وغيرهما . وكنا نتوقع ان نجد الامر على عكس ما وجدناه ، لأن ابن السكيت حين اختار (الالفاظ) عنوانا لمعجمه ، اشعرنا بسعة العنوان وشموله كل انواع الالفاظ ، فلو اطلق لنفسه الحرية في الجمع وزيادة المادة والابواب لما كان خارجا على الاسم ، لان كل ما يورده لا يخرج عن كونه الفاظا غير مقيدة الموضوع . في حين كان ابو عبيد اوسع منه مادة ،

---

(١) الغريب المصنف ٥٥٠ - ٥٥١ .

(٢) نفسه ٢ ، ١٣٨ ، ١٧١ .

(٣) نفسه ٢٨١ ، ٣١٧ ، ٥٥١ .

(٤) نفسه ١٨٣ - ٢٠١ ، ٥٤٣ .

(٥) نفسه ٥١٨ ، ٥٣٩ ، ٥٧٢ .

(٦) ذكره السيوطي في المزهر ٢/ ٩٣ ونقل منه وضمه ابن السكيت الى كتابه (اصلاح المنطق) ٣٩٤ - ٤٠٤ .

(٧) طبعه اوغست هفنر ضمن (ثلاثة كتب في الاضداد) ببيروت ١٩١٢م .

واضيق عنوانا ، لأنه اراد به الغريب من الالفاظ دون سواه ، ومهما يكن من امر فان المثال الذى احتذته معجمات المعاني هو الغريب المصنف لا الالفاظ .

وبعد ، فان ابن السكيت لم يخرج عن المألوف في اسسه المنهجية ، بل لم تكن له شخصية منهجية واضحة ، ذلك انه حين استشهد بالشعر ، لم يخرج عن الطبقات الثلاث الاولى ، الجاهليين مثل امرىء القيس[١] ، والاعشى[٢] . والمخضرمين مثل الحطيئة[٣] ، وحسان بن ثابت[٤] والاسلاميين مثل الاخطل[٥] ، وابن هرمة[٦] . كما روى عن رجال المدرستين ، البصريين مثل : يونس وابي عبيدة والاصمعي وابي زيد[٧] ، والكوفيين مثل : الكسائي والفراء وابي عمرو الشيباني وابن الأعرابي[٨] . كما روى عن اعراب فصحاء مثل : افار بن لقيط ومكوزة وغنية الكلابية[٩] . واستشهد بامثال العرب[١٠] ، ونسب بعض الالفاظ والاستعمالات الى لغات القبائل العربية مثل بني اسد واهل الحجاز وبني بلعنبر[١١] . واستشهد بالحديث الشريف احياناً[١٢] ، واستشهد مرة بكلام الاصمعي (ت ٢١٣) ، قال : « وما يليق درهما » ولا يليق بكفة درهم ، اى لا يلصق بها ولا يثبت فيها ، وقال الاصمعي للرشيد : يا امير المؤمنين ما الاقتني البصرة حتى قدمت عليك[١٣] » . ولولا ان يكون الاصمعي من الرواة العلماء ، لكان الاحتجاج بكلامه يعد مدا لعصور الاستشهاد حتى تلج الدولة العباسية . وفي كتاب ابن

(١) ٦١٠ ، ٦٦١ .
(٢) ٦٦ ، ٢٢٧ .
(٣) ٨٦ ، ٦١٣ .
(٤) ٢٨٠ ، ٥٦٨ .
(٥) ٢٦٢ ، ٦٥٦ .
(٦) ٢٩ ، ٥٢٣ .
(٧) ١ ، ٢ ، ٣ ، ٥ ، ١٣ ، ٣٢٩ ، ٦٧٣ .
(٨) ٥ ، ٩ ، ١٣ ، ٦٨ ، ٢٧٣ ، ٦٧٢ .
(٩) ٦٤ ، ٦٥ ، ٥٣٢ ، ٦٤٥ .
(١٠) ٩٢ ، ٢٠٢ ، ٤٣٥ .
(١١) ٢٧٣ ، ٣٤٤ ، ٤٠٩ ، ٥٥٧ .
(١٢) ٦٧٢ .
(١٣) ٤٩٢ .

السكيت طائفة من الاخبار والقصص ، اوردها المؤلف خلال ايراده الالفاظ ، وبعضها يطول حتى يستغرق قريبا من صفحتين[1] . ويبدو ان زيادات لحقت الكتاب ، وهي ليست منه في الاصل ، بعضها اقحم في المتن ، وبعضها الحق في الآخر[2] ولعل الخطيب التبريزي كان وراء كثير منها ، يقول مثلا : « والتغبة بالتاء والياء . قال ابو عمر : هو التغبة بالتاء والباء ، قال المتنبي : وهو الصواب[3] » . وواضح ان ابا عمر ـ ويرجح ان يكون الزاهد ـ والمتنبي متأخران في العصر عن ابن السكيت ، فالرواية عنهما انما هي رواية المهذب الخطيب التبريزي .

وخلاصة القول ان في كتاب (الالفاظ) لابن السكيت ثروة لغوية كبيرة جعلت منه مصدرا مهما في بابه ، وهو وان أقصر عن الغريب المصنف ، قد كان له ـ بعد الغريب المصنف ـ الاثر في نمو معجمات المعاني وتطور منهجها بما يرفده من الفاظ ومعان وشواهد .

***

المعاني الكبير : لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)

وهو من معجمات المعاني الضخمة ، على انه لم يصل الينا كاملا ، فقد ذكره ابن النديم باسم (معاني الشعر الكبير) ، ووصفه وصفا ضمنه فهرسا للكتب التي يحتوي عليها المعجم ، والابواب التي يحتوي عليها كل كتاب ، فكان مجموعه اثنى عشر كتابا هي : كتاب الفرس ، كتاب الابل ، كتاب الجرب (الحرب) ، كتاب العرور (القدور) ، كتاب الديار ، كتاب الرياح ، كتاب السباع والوحوش ، كتاب الهوام ، كتاب الايمان والدواهي ، كتاب النساء والعزل (الغزل) ، كتاب النسب واللبن (الشيب والكبر) ،كتاب تصحيف العلماء ، ويتفرع من مجموع هذه الكتب (١٨١) بابا تختلف طولا وقصرا[4] . غير ان الذي وصل الينا اقل من ذلك ، فقد اجرى مصحح الكتاب عبد الرحمن بن يحيى اليماني موازنة بين ما ذكره ابن النديم وما

---

(١) ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

(٢) ٦٧٤ وما بعدها .

(٣) ٦٣٥ .

(٤)) الفهرست ١١٥ .

تحتوي عليه المخطوطة ، فوجد انه ليس في الاخيرة خمسة كتب هي : كتاب الابل ، كتاب الديار ، كتاب الرياح ، كتاب النساء والغزل ، كتاب تصحيف العلماء ، كما وجد ان ابواب الكتب الاخرى التي احتفظت بها النسخة تختلف عددا عما ذكره ابن النديم[1] . وهو ـ اي الباني ـ الذى رجح التصحيف في اسماء الكتب التي وضعناها بين قوسين وكان المستشرق الدكتور كرنكو(F.Krenkow) قد قام بتحقيق الكتاب عن نسخة وحيدة بجزءين ، احتفظت مكتبة أيا صوفيا باستانبول بالأول (٤٠٥٠) ، واحتفظ القسم العربي بمكتب الهند بلندن بالثاني (١١٥٥) . وطبع الكتاب في ثلاثة اجزاء بحيدر آباد الدكن سنة ١٣٦٨هـ .

والكتاب من حيث تقسيمه على الكتب ، وتقسيم الكتب على الابواب ، يشبه الى حد بعيد الغريب المصنف ، ويختلف عن تهذيب الالفاظ ، وهو اكثر تنظيما من التهذيب . كما انه يختلف عنهما في الاساس الذي بُني عليه ، فاذا كان ابـو عبيد وابن السكيت يجمعان الالفاظ الخاصة بالباب المعقود لها ، ويوردانها فيه أولا ، ثم يستشهدان على ما يشاءان منها بالشعر ، فان ابن قتيبة ذهب الى منهج آخر ، فقد عقد الباب للشعر المتضمن لمعاني ذلك الباب ، ينشد اولا ثم يتناول ما ورد في البيت او المقطعة من الفاظ يتعهدها بالشرح والتمثيل . ولنأخذ مثلا لذلك ، عقد بابا في كتاب الخيل سماه (الأرساغ وما يحمد من يبسها وغلظها) بدأه هكذا : « قال امرؤ القيس :

تبـارى الخَنـوف المستقـل زماعَـه   ترى شخصه كأنـه عود مشجبِ

الخَنوف : الذي يرمي بيديه في السير ، فهـو اسرع له وأوسـع . والزمـاع : جمـع زَمعة ، والزَمعة تكون لما له ظلف ولكنه أراد المستقل ثُنَته : وهو الشعر المعلـق في مآخير قوائمه ، وأراد أنها لا تمس الارض ولكنه يستقل بها ، لان ارساغه غير لينة . وقال ابو دواد :

وأرسـاغ   كأعـنـاقِ   ضبـاعٍ   اربـعٍ   غلـبِ

---

(١) المعاني ١/ كد ، كه .

الغلب : الغلاظ الرقاب ، واحدتها غلباء . وقال الجعدي . . .[1] » . وهكذا يسير بالباب من الانشاد والشرح ، حتى ينتقل الى باب غيره ، وهذا دأبه في المعجم كله .
ويعد هذا المنهج الجديد تطورا مهما في معجمات المعاني ، اذ اقتربت به من هدفها الاول ، وهو العناية بالمعاني اكثر من الالفاظ ، اذ رمى ابن قتيبة من هذا المنهج ، الى اهمية السياق اللغوى في تحديد معاني الالفاظ ، اذ ربما ابتعد بعضها عن معناه الحقيقي وهو بعيد عن سياقه اللغوي ، هذا من جهة . ومن جهة اخرى اراد ابن قتيبة ان يحصر ألفاظ معجمه بالشعر ، للدلالة على صحة ورودها في اللغة ، ويقوم هذا الشعر مقام الاستشهاد على الالفاظ، وليس في كتابه لفظة أصيلة في بابها المعقود لها لم ترد في الشعر ، اللهم الا ما استطرد اليه اثناء شروحه من الالفاظ مما لا يتصل بموضوع الباب الذي هو فيه . في حين لم يلتزم ابو عبيد وابن السكيت الاستشهاد على كل لفظةمن الفاظ معجميهما ، ولعل ما لم يستشهدا عليه أكثر، وبهذا اقصرا عن ابن قتيبة في جمع الصحيح الفصيح من الالفاظ . واذا كان ابن قتيبة قد تأثر بهذا المنهج بكتب (معاني الشعر) او (ابيات المعاني) التي الفت قبله[2] ، فانه طوره باستخدامه في معجم معانيه .

وعندما أراد ابن قتيبة أن يدون معاني اللغة معتمدا على الشعر ، فانه لم يقصر ذلك على شعر الاعصر الثلاثة المعروفة ، وان تكثر من شعرها ، وانما تجاوز ذلك الى العصر الرابع . فأخذ من الجاهليين أمثال : امرىء القيس والحارث بن حلزة والاعشى[3] ، والمخضرمين أمثال : حسان بن ثابت والحطيئة وكعب بن زهير[4] ،

---

(١) المعاني ١/ ١٦٤ .

(٢) الفهرست : أبو ثروان العكلي ٥٢ ، المفضل الضبي ٧٥ ، مؤرج السدوسي ٥٤ ، النضر بن شميل ٥٨ . ابن كناسة ٧٧ ، الاصمعي ٦١ ، الاخفش ٥٨ ، أبو نصر احمد بن حاتم ٥٦ ابن الاعرابي ٧٦ ، ابو العميثل ٥٥ ، ابن السكيت ٧٩ ، عبد الرحمن بن اخي الاصمعي ٦١ ، البندنيجي ٩٠ ، ثعلب ٨١ ، الاشنانداني ٩١ ، أبو ذكوان القاسم بن اسماعيل ٦٥ ، وانظر : كنايات الجرجاني ٩٣ . ودرة الغواص ٣٤ وفهرسة ابن خير ٣٨٢ ومعجم الادباء ١٨/ ١٩٦ والمؤتلف والمختلف ١٥٢ وانباه الرواة ٣/ ١٣١ ووفيات الاعيان ٤/ ٣٠٨ والوافي بالوفيات ٣/ ٧٩ وبغية الوعاة ٤٣ وخزانة الادب ١/ ٩ وبروكلمان (الذيل الاول) ١٦٦ ، ١٦٩ وكحالة ٧/ ١٨٨ .

(٣) ١/ ١٢ ، ٢٧٦ ، ٣٤٣ ، ٢/ ٥٦٣ ، ٣/ ١٢٠٢ .

(٤) ١/ ١٨٣ ، ٢٣٥ ، ٣٣٦ .

والاسلاميين : أمثال الاخطل وجرير وابن هرمة[1] ، وأخذ أيضا من العباسيين أمثال : بشار بن برد وخلف الاحمر[2] . على أنه لم يكثر من الاعتماد على شعراء هذا العصر ، وانما انتخب منهم من عرف بفصاحته وسليقته العربية أمثال من ذكرنا . ولم يكن ابن قتيبة بدعا في هذا ، فقد سبقه الى الاستشهاد بشعر هؤلاء الخليل في العين كما مر من استشهاده ببشار وحفص الاموي . ومهما يكن من أمر فان ابن قتيبة بمده عصر الاستشهاد على هذا النحو من الاحتراز كان اقرب الى طبيعة العمل المعجمي .

وكان المؤلف كثير العناية بلغات القبائل ، ينص عليها ويذكر أوجها من خلافاتها ، ومنهجه في تناول استعمالاتها ينسجم مع منهجه في تحديد الشاعر فبعد أن مد عصر الشعر ، وسع أطلسه اللغوي فشمل قبائل أبعدها الدرس اللغوي عنه ، فابن قتيبة لم يرتض الاقتصار في الاخذ على لغات بني أسد ، وبكر بن وائل ، وتميم ، وثقيف[3] ، واشباهها . وانما رأى الالتفات الى اللغات التي وصمها الدرس اللغوي بالخروج على المألوف بدعوى التأثر باللغات الاعجمية المجاورة ، فوجه عنايته الى مثل لغة بلحارث بن كعب ، وجذام ، وخثعم[4] ، وغيرها . وكان أحيانا يذكر أن اللفظة تلفظ على وجهين ، دون أن ينص على اللغتين[5] .

والتفت في اثناء معالجاته للالفاظ الى بعض الظواهر اللغوية ، ووقف عندها ، فذكر الاضداد ، والمشترك ، والمعرب من الالفاظ الاعجمية وهي في الاكثر فارسية[6] ، كما عرض الى الألفاظ التي يغلط فيها الناس وهو المسمى بلحن العامة ، يذكر فيها وجه الغلط ويبين صوابه[7] . ولم يغفل عن الأمثال مصدرا من مصادر

---

(1) ١/١٤٥ ، ٢١٣ ، ٤٥٣ ، ٢/٨٦٤ ، ٩٥٨ .
(2) ١/٤٣٣ ، ٢/٦٦٦ .
(3) ١/٩٦ ، ٢٤٢ ، ٤٢٦ ، ٢/٦٣٥ ، ٧٥٦ ، ٩٠٦ ، ٩٢٢ .
(4) ١/٢٦٥ ، ٥٧٧ ، ٥٨٣ ، ٢/٩٢٨
(5) ١/٣٧ .
(6) ١/٢٨٨ ، ٤٣٠ ، ٥٠٤ .
(7) ١/١٢ ، ٣٧٨ .

الاستشهاد ، يوثق بها صحة ما ينطق به الشعر[1] ونراه أحيانا يقف على ما ينشده من شعر وقفة الاديب الناقد لا اللغوي ، فيعلق على معنى البيت تعليقا نقديا[2] .

أما شيوخه فأكثرهم من البصريين كأبي عمرو بن العلاء (١٥٧ هـ)[3] ، وابي عبيدة (٢١٠ هـ)[4] ، والاصمعي (٢١٣ هـ)[5] ، وأبي زيد (٢١٥)[6] ، وأبي حاتم (٢٥٥ هـ)[7] ، والرياشي (٢٥٧ هـ)[8] ، وغيرهم . وأقلهم من الكوفيين كأبي عمرو الشيباني (٢٠٦ هـ)[9] ، وابن الاعرابي (٢٣١)[10]، وغيرهما . وهذه النسبة المتفاوتة في رجال المدرستين هي ما كنا نتوقعه ، لان ابن قتيبة وان عدّ فيمن خلط المذهبين ، كان يغلو في البصريين[11]. على أنه لم يقدح أحدا من شيوخه على اختلاف مذاهبهم العلمية ، بل احترم آراءهم جميعا ، وكان ينقل خلافاتهم في تفسير الالفاظ او رواية الابيات بكل أمانة[12].

وبعد ، ففي الكتاب ثروة لغوية مهمة ، لا غنى للدارس عنها . واذا كان الغريب المصنف قد أربى عليه بعدد الكتب والابواب والالفاظ ، ولعل (الالفاظ) لابن السكيت قد اربى عليه بعدد الالفاظ أيضا ، فان (المعاني الكبير) فضل ذينك المعجمين بجدّة المنهج وصحة الالفاظ ، وبثروته الأدبية النقدية التي تمثّل عناية ابن قتيبة المزدوجة بالمعاني ، معنى اللفظة وهي مفردة ، والمعنى العام للبيت الذي هي فيه . وهي الوجهة التي كان يجب ان تتجه اليها معجمات المعاني .

* * *

---

(١) ٢/٦٧٤ ، ٨٨٠ ، ١٠٩٠ .

(٢) ١/٢٨٣ .

(٣) ١/٣٧ ، ٢/٨٥٥ .

(٤) ١/١٤٢ ، ٢/٦٨٦ .

(٥) ١/٣٠٩ ، ٥٠٨ ، ٢/٦٩٤ ، ٧٣٤ .

(٦) ١/١٩٧ ، ٢/٨٣٢ .

(٧) /٤٤ ، ٢/٦٥٨ .

(٨) ١/١٨٥ ، ٢/١٠٢٩ .

(٩) ١/١١٨ ، ٣/١٢٤٤ .

(١٠) ١/١١٥ ، ٢٠٤ ، ٣/١٢٤٨ .

(١١) الفهرست ١١٥ .

(١٢) المعاني ١/٣٧ ، ٤٢٨ .

الجراثيم : المنسوب الي ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)

في المكتبة الظاهرية بدمشق كتاب في اللغة ، رقمه فيها (١٥٩٦) ، وعنوانه (الجراثيم) ، كتب على صفحته الاولى : تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم . يقع هذا الكتاب في (٢٢٠) ورقة ، ٢٠ × ١٧،٥ سم ، وهو مكتوب بخط نسخي قديم مقروء ، اعجمت بعض حروفه وضبطت بالشكل . وليس فيه اسم الناسخ أو تاريخ نسخه ومكانه ، ويبدأ بعد البسملة بقول المؤلف : « الحمد لله رب العالمين . . المخلوقين ، فالملائكة عالم ، والجن عالم ، والانس عالم ، والطير عالم والوحوش والانعام عالم . .[1]» ويختم بقوله :ممثلا للمتقارب مع التقطيع :

وقد كنت ذا ميعة في شبابي اصيد الغزال الربيب الغريرا[2]

والكتاب من حيث تقسيمه على الابواب والكتب ، يشبه الى حد بعيد الغريب المصنف لابي عبيد ، والالفاظ لابن السكيت ، فمكانه اذن بين معجمات المعاني ، ويضم من الابواب والكتب : باب النفس والجسم والشخص ، باب الالوان، باب الالسنة والكلام والاصوات والسكوت ، كتاب النساء ونعوتهن وغير ذلك ، باب البهت والدهش والقيافة والتطير والتمائم ، باب الطيب والنتن واللباس والعري ، أبواب الطعام وألوانه واللحم ومعالجته واطعام الناس ، أبواب اللبن والشراب ، باب الاقامة والتلبث واللزوق واللزوم وما اليها ، باب نوادر مثل : حسب وعشير وقصار ، باب الطبيعة والملاهي والميسر ، باب آخر من النوادر : روية الرجل من غير ارادة ، باب الرحل و آلاته والاواني في السفر والحضر والدور والبيوت والاخبية والأبنية ، باب يجمع ابواب الشر صغيرها وكبيرها ، باب الازمنة والرياح واسماء الدهر ، باب السحاب والمطر والوداع ، باب الجبال والارضين والفلوات والاودية ، كتاب النخل والكرم ،كتاب الخيل ونعوتها والسلاح واعماله ، باب السلاح ونعوته ، كتاب النعم والبهائم والوحش والسباع والطير والهوام وحشرات الارض ، باب نوادر الاسماء ، باب نوادر الافعال ، باب عيوب الشعر واسماء القوافي[3] .

---

(١) فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (علوم اللغة العربية) ٨٢ .

(٢) نفسه ٨٢ .

(٣) فهرس الظاهرية ٨١ ـ ٨٢ ومجلة آداب المستنصرية ، السنة الثانية ٢/ ١٢٢ ـ ١٢٣ .

ولا ندري ـ والكتاب بعيد عن ايدينا ـ السبب الذي دفع المؤلف الى تسمية بعض فصول الكتاب بالابواب وبعضها الآخر بالكتب ، أو اطلاق لفظة (أبواب) على الباب الواحد ، ومهما يكن السبب فالكتاب يحمل عيوب هذه المدرسة في الترتيب والتبويب ، ولعل ابن السكيت في الألفاظ كان اكثر تنظيما لأبوابه .

المؤلف كما تصرح صفحة العنوان بكنيته واسمه (ابو محمد عبد الله بن مسلم) هو ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ولا يعرف غيره بهذه الكنية والاسم ، وان لم تذكر المخطوطة أنه (ابن قتيبة) . وعلى أساس الكنية والاسم هذين نسب بروكلمان الكتاب الى ابن قتيبة[١] ، ودل على نسخته الفريدة في دمشق ، ولو أبعدنا نسبة بروكلمان الكتاب الى ابن قتيبة لما عثرنا على مثلها في اي مرجع آخر ، فليس في كتب الطبقات والتراجم والفهارس القديمة ما يشير الى وجود مثل هذا الكتاب بين مؤلفات ابن قتيبة ، وهو أمر يدعو الى التأمل ، اذ كيف نفسر سكوت المصادر القديمة جميعا عن نسبة مثل هذا الكتاب الضخم الى ابن قتيبة ـ ان كان الكتاب له ـ ولا تغفل عن نسبة رسائله الصغيرة اليه ؟ وقبل الاجابة عن هذا السؤال ، نتعرف على ما طبع من أبواب هذا الكتاب :

١ ـ كتاب النعم والبهائم والوحش والسباع والطير والهوام وحشرات الارض :

نشره المستشرق الأب موريس بوج(P. Muarice Bouges) ببيروت سنة ١٩٠٨ ، وقدم له بمقدمة وصف فيها نسخة المخطوطة الدمشقية ، وسجل شكّه بنسبة (النعم والبهائم) الى ابن قتيبة، ورجح ان يكون لأبي عبيد القاسم بن سلام مستندا في ذلك الى اسباب قوية[٢] ، وتبعه في ذلك الدكتور حسين نصار ، ومال الى نسبته الى ابي عبيد أيضا ، لما وجده من تشابه المادة والمعالجة بل اتحادها مع ما في الابواب المعقودة للغرض نفسه من الغريب المصنف . وقال : « ولا خلاف بينهما ، الا في أن هذا حذف شواهد أبي عبيد ، وأسماء اللغويين والاعراب الذين ذكرهم»[٣] . وذهب الدكتور عبد الله الجبوري ايضا الى الشك في نسبته الى ابن

---

(١) تاريخ بروكلمان ٢/ ٢٢٨ .
(٢) النعم والبهائم ٢ ـ ٣ .
(٣) المعجم العربي ١/ ١٢٥ .

قتيبة ، الا انه خالف سابقيه في ترجيحهم أن يكون لابي عبيد ، وذهب الى انه (لمؤلف عاش بعد ابن قتيبة) [1] ، مستدلا على ذلك بعدد من الادلة استقاها من دراسته للكتاب ، أرجحها :

١ ـ أن المؤلف ينقل عن ابن قتيبة ، وأنه في الموضع الذي ينقل فيه عن ابن قتيبة ينفي ان تكون المادة مما ذكره الخليل أو أبو عبيد[2] . مما يدل على أن المؤلف ليس أبا عبيد ولا ابن قتيبة .

٢ ـ أن المؤلف ينقل عن الجاحظ (ت ٢٥٥) في الحيوان ، ويرد عليه احيانا[3] . مما يدل على تأخره عن أبي عبيد (ت ٢٢٤) في الاقل .

٣ ـ ان المؤلف ينقل في احدى المواد شك علي بن عبد العزيز (ت ٢٨٧ هـ) في صحتها[4] ، والاخير من رواة أبي عبيد وتلاميذه .

ونقل الدكتور الجبوري بعد هذا سبق الدكتور اسحاق موسى الحسيني الى الشك في نسبة الكتاب الى ابن قتيبة[5] ، كما نقل تصحيح الدكتور عبد الحميد سند الجندي هذه النسبة استنادا الى أنه : « طعّمه ببعض الالفاظ كعادته حين يتحدث عن الكلمة احيانا ، وحين يقارن بين اللفظين الفارسي والعربي . وأنه كان يناقش الجاحظ ويخطئه في بعض الالفاظ على طريقته المعهودة »[6] . ورد الدكتور الجبوري على حجتيه بأن « المقارنة بين الالفاظ العربية والفارسية أمر مألوف عند أهل اللغة والادب . . . وأما نقد الجاحظ فلم يكن ابن قتيبة بدعا بين الناقدين ، فقد رد عليه غير واحد من علماء اللغة وأهل الادب » [7] ويخلص الى ما نقلناه أولا من ان الكتاب لمؤلف تأخر عن ابن قتيبة « وكتابه عبارة عن نصوص لغوية مجموعة من كتب اهل

---

(١) مجلة آداب المستنصرية ، السنة الثانية ٢/ ١٢٦ .

(٢) النعم ١٢٢ .

(٣) النعم ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥ .

(٤) النعم ١١٣ .

(٥) مجلة آداب المستنصرية ٢/ ١٢٦ نقلا عن كتاب (ابن قتيبة) ٥٦ (النص الانجليزي) .

(٦) مجلة آداب المستنصرية ٢/ ١٢٦ نقلا عن كتاب (ابن قتيبة) ١٦٦ .

(٧) مجلة اداب المستنصرية ٢/ ١٢٦ .

اللغة ولا سمة لطابع التأليف فيه» ،واستنتاجه صحيح الى أبعد الحدود كما سنرى بعد .

٢ ـ كتاب النخل والكرم :

نشره المستشرق الدكتور أوغست هفنر (Dr. Auguste Haffner) في مجلة المشرق ، السنة الخامسة ، ونسبه الى الاصمعي (ت٢١٣هـ) وذكر في المقدمة حجته في هذه النسبة فقال : « هذا الفصل ورد في النسخة الدمشقية (اي كتاب الجراثيم) من الصفحة ٢٦١ الى ٢٩٣ . وليس في أول الفصل ذكر اسم الاصمعي ، لكن صاحب لسان العرب قد نقل كثيرا من هذا الكتاب بحرفه الواحد ، وهو يعزوه مطلقا الى الاصمعي ، فلا نتمارى في نسبته اليه» [١] .

وأعاد نشره الأب لويس شيخو اليسوعي ، وأضافه الى مجموعته (البلغة) ، بيروت سنة ١٩١٤ ، ورجح نسبته الى أبي عبيد القاسم بن سلام وردّ ما ذهب اليه هفنر بقوله : « أما نسبة الدكتور هفنر هذا الكتاب الى الاصمعي فهي على ما نظن تغليب . لان نسختنا التي اخذ عنها لا تصرح باسم الاصمعي » [٢] . وحجة اليسوعي في نسبته الى ابي عبيد « أن الشروح للمفردات توافق ما جاء في لسان العرب والمخصص لابن سيده منسوبا لابي عبيد اكثر منها للاصمعي » [٣] . ثم استدرك على هذا باحتمال آخر وهو « أن يكون الكتاب لابي حاتم السجستاني تلميذ الاصمعي كما رواه عن استاذه وعن ابي عبيد ، فجمع بين روايتيهما ، ولذلك ترى اسمه في أول كتاب الكرم» [٤] .

وقد مر في دراستنا كتاب (النوادر) لابي مسحل . ووقفنا على باب النخل فيه، أن معارضة كتاب النخل المنسوب الى الاصمعي أو أبي عبيد، بباب النخل في الغريب المصنف ، تهدي الى القطع بأنه هو نفسه في الموضعين ، سوى أنه

(١) البلغة ٦٤ .

(٢) البلغة ٦٣ .

(٣)نفسه ٦٣ .

(٤) نفسه ٦٣ .

في نسبته إلى الاصمعي حذفت منه اسماء الرواة ومعظم الشواهد الشعرية[1]. وهذا يعضد مذهب اليسوعي في نسبة كتاب النخل الى ابي عبيد، على ان هفنر لم يبعد عن الحقيقة كثيرا في نسبته الى الاصمعي ، ذلك أن أبا عبيد كان عيالا على الاصمعي في هذا الباب من الغريب المصنف[2] .

ودرس الدكتور رمضان عبد التواب كتاب (النخل والكرم) المنشور في البلغة ، فوجد أنه كتابان ، الاول (النخل) والثاني (الكرم) ، وتوصل من دراسته للاول الى ما ذكرناه من أنه هو (باب النخل) في الغريب المصنف حذفت منه الشواهد والاعلام ، وساق أمثلة من النصوص المعارضة بالغريب المصنف ، كلها تؤيد ما توصل اليه . وقال في الاخير : « ان هذا الكتاب مختصر من كتاب النخل في الغريب المصنف لابي عبيد يقينا ، ولا يوجد اي مبرر للقطع بنسبته الى الاصمعي كما فعل هفنر ، ولا الى ترجيح هذه النسبة كما فعل شيخو» [3] . أما النصف الثاني أو الكتاب الثاني وهو (الكرم) فقد وضع تحت عنوانه عبارة (عن أبي حاتم السجستاني) ، وهذه العبارة دفعت هفنر الى ان يقول في الهامش : « كذا في الاصل والظاهر أن ابا حاتم السجستاني روى كتاب الكرم عن الاصمعي ، ولعله روى أيضا عنه كتاب النخل السابق ذكره[4]»

أما الدكتور رمضان فقد قطع بنسبته الى أبي حاتم ، استنادا الى :

١ ـ الاسناد الذى تصدر الكتاب ، اذ نقرأ في أوله : « حدثنا الحسن بن عليّ الطوسي قال : حدثنا أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري ببغداد قال : أخبرنا أبو حاتم سهل بن محمد بن عمر السجستاني قال : قال الطائفي : يقال لشجر العنب . . » [5] ، ولا ذكر للاصمعي في هذا الاسناد .

(١) الباب الثاني ٪ الفصل الاول ص : ١٣٠ ، وفصول في فقه العربية ٢١٣ ـ ٢١٤

(٢) الغريب المصنف ٢٥٩ .

(٣) مجلة المكتبة ، السنة السابعة ، العدد (٥٧) ، آذار ١٩٦٧ ص ١٥ .

(٤) البلغة ٧٣ .

(٥) البلغة ٧٣ .

٢ ـ ان ابن النديم نسب الى ابي حاتم كتابا في (الكرم)[١] ، ولم يذكر أحد من مصنفي الطبقات والتراجم كتابا للاصمعي بهذا الاسم .

٣ ـ أن القالي نقل عن ابي حاتم في المواد المتعلقة بالكرم في معجمه (البارع) ما هو بنصه في كتاب (الكرم) المنشور في البلغة[٢] .

ويخلص من كل ذلك الى قوله : « لتؤمن معي بأن كتاب (الكرم) لابي حاتم لا للاصمعي[٣] » .

٣ ـ باب الرّحل وآلاته والأواني في السفر والحضر والدور والبيوت والاخبية والابنية :

نشره الأب لويس شيخو اليسوعي باسم (كتاب الرّحل والمنزل) في مجموعته (البلغة) بيروت ١٩١٤ . ولم يضع اسم المؤلف تحت اسم الكتاب كعادته في سائر كتب (البلغة) ، مما يشعر بشكه في نسبته ، وتحدث في المقدمة عن مخطوطة الجرائيم التي تضم هذا الباب ، فقال : « وما لا ينكره أحد أن الكتاب من آثار قدماء اللغويين ، ومن عجب الامور أن معجم لسان العرب وكتاب المخصص لابن سيده يكاد ان يذكر ان معظم مضامين هذا الكتاب متفرقة في مظانها وبحرفها الواحد وهما ينسبانها لابي عبيد المتوفى سنة ٢٢٤هـ »[٤] . ويمكن أن نستنتج من هذا قوله بنسبة كتاب الرحل والمنزل الى ابي عبيد .

ودراسة الكتاب تقفنا على أن مؤلفه تأثر بكتاب (الالفاظ) لابن السكيت (ت ٢٤٤) ، وذلك للشبه الكبير في طريقة ايراد المواد ، ومعالجتها ، وايجاز شروحها ، وللشبّه في المواد نفسها ، اذ نجد عددا منها يشير الى نقله من هناك وان لم يصرح المؤلف بذلك[٥] . كما نقف في الكتاب على ظاهرة سبقت في كتاب النعم

---

(١) الفهرست ٨٧ .

(٢) البارع ١١٧ ، ١٢١ والكرم ٨٩ ، ٧٥

(٣) مجلة المكتبة ١٦ .

(٤) البلغة ١٢١ .

(٥) البلغة ١٣١ وتهذيب الالفاظ ٥٣١ ـ٥٣٢ .

والبهائم ، وهي عناية المؤلف بعقد الموازنة بين الالفاظ العربيّة والفارسية[١] . وهي الظاهرة التي زعم الدكتور عبد الحميد سند الجندي أنها من خصائص منهج ابن قتيبة ، وراح يستند اليها في تصحيح نسبة (النعم والبهائم) الى ابن قتيبة[٢] . وهي تدل على اية حال أن المؤلف من أصل فارسي . وتقفنا دراسة الكتاب ايضا على أن المؤلف من الكوفيين ، لاقتصار النقل عن الشيوخ على الكسائي والفراء والمفضل[٣] ولهذه الظاهرة ظلال في كتاب (النعم والبهائم) أيضا[٤] . ولعل في كون المؤلف كوفيا ما يدفع نسبته الى ابن قتيبة ، لأن الاخير كان ميالا الى البصريين ، وقد عده ابن النديم فيمن خلط المذهبين ، وان قال عنه انه « كان يغلو في البصريين[٥] » . كما ذكره الزبيدي في الطبقة السادسة من اللغويين البصريين (طبقاته ٢٠٠) . وبعد فالكتاب ضنين بالشواهد الا ما ندر[٦] ، وباللغات الا ماقل[٧] ، ولولا ما وجدناه في الكتاب من التأثر الواضح بالالفاظ لابن السكيت ، لكان ما ذهب اليه اليسوعي من نسبته الى ابي عبيد مقبولا الى حد بعيد ، الا ان المؤلف متأخر عن ابن السكيت فضلا عن ابي عبيد .

٤ ـ ابواب اللبن والشراب :

نشره الأب لويس شيخو اليسوعي في مجموعته (البلغة) ببيروت ١٩١٤ ، وجعله ملحقا بكتاب (اللبأ واللبن) لابي زيد (ت ٢١٥ هـ) المنشور قبله ولم ينسب اليسوعي الكتاب الى احد ، واكتفى بقوله : « في كتاب الجراثيم المنسوب لابن قتيبة . . . فصل شبيه برسالة ابي زيد السابق ذكرها في اللبن والشراب ، ننقله هنا . . .[٨] » .

(١) البلغة ١٢٧ ، ١٢٨ .
(٢) مجلة آداب المستنصرية ٢/ ١٢٦ .
(٣) البلغة ١٣١ ، ١٣٢ .
(٤) النعم والبهائم ٣٢ ، ٥٦ .
(٥) الفهرست ١١٥ وانظر الانباه ٢/ ١٤٧ .
(٦) البلغة ١٣٠ ، ١٣١
(٧) نفسه ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٦ .
(٨) البلغة ١٤٦ .

ولا تشير دراسة الكتاب الى اكثر من ان المؤلف هو مؤلف الكتاب السابق، واعني به (الرحل والمنزل) ، لما بين الكتابين من شبه كبير في التناول والمعالجة والاختصار في الشرح والتخفف من الشواهد والاعلام واللغات ، فليس فيه سوى اربعة ابيات شواهد[1] ، ورواية واحدة عن اعرابي هو ابو العافية الرياحي[2] ، وليس ما عدا ذلك الا الفاظا ترد مبعثرة من غير نظام او ترتيب ، شأنه في هذا شأن سائر الابواب الاخرى المنشورة . وهي جميعا تشير الى ان هذه الفوضى في ايراد المواد من ظواهر كتاب (الجراثيم) كله .

٥ـ أبواب متفرقة :

نشرها الأب لويس شيخو اليسوعي ملحقة بكتاب (فقه اللّغة وسر العربية) للثعالبي ، الذي نشره في بيروت / المطبعة الكاثوليكية .

نخلص من وقفاتنا على المنشور من أبواب كتاب الجراثيم المنسوب الى ابن قتيبة ، وما سجل حولها من شكوك وما رجح فيها من نسبة ، الى أن مؤلف الكتاب ليس ابن قتيبة ، وذلك لان مؤلف الجراثيم : (١) متأخر في العصر عن ابن قتيبة . (٢) كوفي المذهب . (٣) متأثر بأبي عبيد وابن السكيت خاصة . فمن هو المتّصف بهذه الصفات والمخطوطة تقول : تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم ؟

انه : أبو محمد عبد الله بن رستم، في أكبر الظن. ترجم له القفطي في موضعين من كتابه ، قال في الأول : « مستملي يعقوب بن السكيت . كان قد استفاد من يعقوب وطبقته . وكتب بخطه الكثير وأفاد الطالبين »[3] وقال في الثاني : « مستملي يعقوب بن السكيت . كان مذكورا بالعلم والفضل ، وروى عن يعقوب . حدث عنه قاسم بن محمد الانباري ، وكان ثقة »[4] . وشبيه بهذا ما قاله الزبيدي والسيوطي في ترجمته[5] ، وجعله الزبيدي في الطبقة الرابعة من اللغويين

(١) ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ .

(٢) ١٥١ .

(٣) انباه الرواة ٢/ ١٢٠ .

(٤) ٢/ ١٣٠ .

(٥) طبقات النحويين واللغويين ٢٢٨ وبغية الوعاة ٢/ ٤٢ .

الكوفيين . فاذا ترجح ان يكون التحريف قد لحق الراء والتاء في (رستم) فصارت تقرأ (مسلم) ، فان في هذه الترجمات ما يشير الى اتصاف الرجل ببعض ما افترضناه ، فهو كوفي متأخر في العصر عن طبقة ابن قتيبة ، متأثر بابن السكيت بحكم استملائه اياه وروايته عنه . ولعل في (رستم) ما يشير الى نسب فارسي ، نفسر به عنايته بالموازنة بين العربية والفارسية . ولقبه ابن النديم بالشامي : « على مذهب الكوفيين ، وله من الكتب : كتاب مسائل مجموعة »[1] ولم يذكر له غيره . ولعله يعني به كتابه الجراثيم ، وهو في حقيقته مسائل (أو : رسائل) مجموعة . وربما كان في تلقيبه بالشامي ما يشير الى سكناه الشام شطرا من حياته ، ولعله الف كتابه هناك ، وبذلك يتضح السرّ في وجود نسخته الوحيدة في الشام الى اليوم . وكتابه ـ كما سبقت الاشارة ـ ليس تأليفا بالمعنى العلمي للتأليف ، ولكنه مسائل (رسائل) مجموعة ، من هنا وهناك ، له ولغيره من اللغويين . وبهذا نفسرّ هذا التطابق بين بعض أبوابه وأبواب (الغريب المصنف) أو بعض مواده ومواد (الالفاظ) .



(١) الفهرست ١١١ .

الباب الثالث

الأسس المنهجية واختلاف اللغويين فيها

الفصل الأول الأسس المنهجية في دراسة اللغة

الفصل الثاني أشهر اللغويين وخلافاتهم المنهجية



الفصل الأول

الأسس المنهجية في دراسة اللغة

مقدمة ـ الاستقراء ـ السماع والقياس ـ المادة اللغوية (الشواهد) : القرآن الكريم وقراءاته ، الحديث النبوي الشريف ، الشعر ، اللهجات ، نتائج ـ التقدير والتأويل ـ العمل ـ التعليل ـ المنهج الوصفي والمنهج التعليلي .



مقدمة :

يتناول هذا الفصل مناهج اللغويين العرب في دراستهم للغة ، ويحاول الوقوف على طريقتهم في الكشف عن الحقائق اللغوية ووصفها وتقعيد القواعد الخاصة بها ، ومدى شمولها للغة العرب ، وقابلية هذه القواعد على التجدد والتطور ، ومناقشة الاقدمين في صحة استشهادهم وفترة الاستشهاد التي وقفوها عند ابراهيم بن هرمة في اواسط القرن الثاني الهجري ، حيث استبعدوا الاستشهاد بمثل شعر بشار وابي نواس ، الذي قال فيه الجاحظ انه كانْ من افصح الشعراء ، وحتى بالمتنبي والمعري وهما لغويان ، ولهما آراء لغوية مدونة في كتب اللغة والادب .

ولم يقف هذا الفصل عند حدود القرن الثالث لا يتعداها كالذي الزمنا به انفسنا عند كلامنا على تطور التأليف في الباب الثاني ، وانما امتد الى ما بعد القرن الثالث ، لأن طبيعة البحث هنا تقتضي هذا الامتداد لتتبع سير المنهج وتطوره . كما لم يهمل هذا الفصل ـ ما وجد الى ذلك ضرورة ـ ان يعرج على فروع الدرس اللغوي الاخرى من غير علم اللغة ،واعني الصرف والنحو لاتصالها بعلم اللغة في مناهج اللغويين ومصنفاتهم وبالقاعدة التي يرتكز عليها الدرس اللغوي عموماً . وعليه فيمكن البت من خلال هذا البحث في امكان التجديد في الدرس اللغوي وتطويره ، على اساس الايمان بتطور اللغة واساليبها وصياغاتها وتراكيبها ، اذ ان لغة اولئك القدماء تختلف عما هي عليه الآن في جميع مظاهرها وصورها .

الاستقراء :

تأتي مادة (قَرَىَ) ـ ومثلها (قَرَوَ) ـ في اللغة للدلالة على التتبع والنظر

والتلمس ، اذ يقــال :«قَرَوْتُ الارضَ وتقريتُهــا واستَقْريتُهــا : تتبَّعْتُــها[1] » .
و« يَستقريها ويَقروها اذا سار فيها ينظر حالَها وأمرَهـا ، ومـا زلـت أستَقـري هذه الارض قريةً قرية[2]» اي انظر في حالها وامرها قرية قرية ، ومن هذا المعنى اطلقت لفظة (الاستقراء) مصطلحاً على ما يقوم به الدراسون المعنيون ببحث موضوع ما من تتبع مادته واستقصائها وجمعها من مصادرها المعتمدة ، وهذا ما فعله اللغويون الاوائل حين سعوا الى استقراء اللغة من افواه العرب لغرض تدوين الفاظها ومعانيها وقواعدها الشاملة .

وكان البصريون ـ كما مر بنا في مبحث الرواية ـ اسبق من الكوفيين الى دراسة اللغة والنحو ، واقدم من هؤلاء قياماً بالاستقراء ، وقد تلمذ الـكوفيون الاوائـل للبصريين كما هو معروف[3] ، يقول ابن سلام : « وكان لاهل البصرة في العربية قدمة ، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية[4]» . وقال ابن النـديم وهـو يعلل لمنهجه : « انما قدَّمنا البصريين اولاً ، لأن علمَ العربية عنهـم أُخِذ[5]» . غـير ان الكوفيين مع ذلك لم يتفقوا مع اساتيذهم البصريين على صحة الاساس الذى بنى عليه البصريون استقراءهم للغة ، فاختلفت المدرستان في هذا ، وكان لكل منهما اطلس لغوي خاص اعتمدته في الاستقراء ، ولـم يخـل كلا المنهجـين من جانـب ضعف واضح .

فقد « سعى البصريون للاخذ عن قبائل معينة ، وهدفهم هو الوصـول الى تقعيد اللغة الادبية المشتركة ، غير انهم لم يفرقوا فيما اخذوه عن هذه القبائل ، بين تلك اللغة المشتركة ولهجات الخطاب . . . ولم يكن الكوفيون اقل منهـم حظـاً في الاضطراب والخلط ، لانهم اخذوا اللغة عن كل العرب ، ولم يفرقوا كذلك بـين اللغة المشتركة ولهجات الخطاب[6]»

---

(١) اساس البلاغة ٥٠٥
(٢) العين (المخطوط) ق ١٤٦ ب
(٣) انباه الرواة ٢/٢٥٨
(٤) طبقات فحول الشعراء ١٢ .
(٥) الفهرست ١٠٢
(٦) فصول في فقه العربية ٨٩

فالاساس الاول الذى اختلفت فيه المدرستان هو تحديد القبائل التي تؤخذ من لهجاتها اللغة او اطلاقها . فرأى البصريون تحديدها بالقبائل التي تسكن اواسط الجزيرة العربية دون غيرها ذاهبين الى ان هذه القبائل هي الفصحى ، وان القبائل التي سكنت اطراف الجزيرة العربية فسدت لهجاتها بمخالطة الامم الاعجمية المجاورة (انظر الخريطة) . وفي هذا يقول الفارابي (ت ٣٥٠ هـ) : « الذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدي وعنهم اخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم واسد ، فان هؤلاء هم الذين عنهم اكثر ما اخذ ومعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين . ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فانه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن اطراف بلادهم المجاورة لسائر الامم الذين حولهم[1] » . في حين لم يشترط ذلك الكوفيون بل اطلقوا الاخذ عن القبائل العربية ما سكن منها اواسط الجزيرة العربية وما تطرف منها ، ذاهبين الى ان الاجماع قائم على ان جميع قبائل العرب تتكلم العربية ، وانه لم يثبت فساد السنتها بالمخالطة فعلاً ، وانما هو الافتراض المحض ، وعليه فيجب الاخذ عنها جميعاً دون الاقتصار على بعضها[2] .

وارى ان في قول الفارابي - الذي يمثل وجهة النظر البصرية - نظراً ، من جهتيه النظرية والتطبيقية ، فان من المفروض ان تستعرض جميع لهجات العربية ، فيوضع على اساس هذا الاستعراض الشامل القواعد اللغوية . كما ان القرآن فيه من لغات القبائل اكثر من القبائل التي ذكرها الفارابي في قوله السابق ، ففي القرآن ما ينسب الى لغات الأزد والأوس والخزرج وجرهم وحمير وحضرموت وغيرها كثير[3] . بل فيه من اللغات السامية كالنبطية والسريانية والعبرانية والحبشية الشيء الكثير ايضاً ، سوى ما فيه مما ينسب الى الفارسية[4] . وقد اكتسبت هذه المفردات

---

(١) الاقتراح ٩ والمزهر ٢١١/١

(٢) مدرسة الكوفة ٣٧٦ وما بعدها

(٣) لغات القرآن ١٧ ، ١٨ ، ٤٧ .

(٤) نفسه ٢٢ ، ٤١ وانظر : المزهر ١/ ١٥٩ وضحى الاسلام ٢٤٨/٢ ، ٢٤٩

الاعجمية ملامح العربية حتى نسيت اصولها واتحدت مع المفردات العربية فصارت منها . ولا خلاف بين علماء العربية في صحة الاستشهاد بالقرآن كله بل بوجوبه فيما اتفق فيه الاستعمال ، فلماذا تستبعد لهجات هذه القبائل العربية حين ينظر اليها على أنها لهجات تطرفت قبائلها في السكن ، ويؤخذ بها حين يستشهد بما استعمل القرآن من الفاظها .

والحق ان البصريين والكوفيين اغفلوا التفريق بين اللهجات العربية واللغة المشتركة ، فاللهجات في واقعها لغات التخاطب بين افرادها ، في حين كان افراد القبائل يلجأون الى اللغة المشتركة اذا ارادوا ان ينشئوا ، فلغة الشعر والخطابة وغيرهما من ضروب الانشاء الفني لغة تكاد تكون موحدة بين القبائل العربية جميعاً[1] ، وان ظهر فيها ما يشير الى خلافات لهجية ، غير انها تختلف عن لغة التخاطب في القبيلة ، وان « خاصية اللغة المشتركة الاساسية انها لغة وسطى تقوم بين لغات اولئك الذين يتكلمونها جميعاً[2] » وقد نشأت هذه اللغة العامة المشتركة بفعل ظروف اقتصادية وثقافية قبل الاسلام ، وزاد الاسلام من انتشارها ورسوخها بفعل عامل جديد هو العامل الديني ، يقول الدكتور ابراهيم انيس : « اقدم ما نستطيع تصوره في شأن شبه الجزيرة العربية ، هو ان نتخيلها وقد انتظمتها لهجات محلية كثيرة ، انعزل بعضها عن بعض ، واستقل كل منها بصفات خاصة ، ثم كانت تلك الظروف التي هيأت لبيئة معينة في شبه الجزيرة فرصة ظهور لهجتها ثم ازدهارها والتغلب على اللهجات الاخرى[3] »

هذه اللهجة التي كتبت لها الغلبة هي لهجة قريش ، وقد سادت ـ كما اشرنا قبل قليل ـ لاعتبارات دينية وتجارية وسياسية ، فكانت مكة والمدينة والطائف زاخرة بالاسواق التجارية ، تلجها القبائل للاجتماع والتجارة وقرض الشعر في المواسم فعمل ذلك على سيادة لغة قريش . يضاف اليه سبب مهم هو ان لغة قريش لغة

---

(١) في اللهجات العربية ٤٦
(٢) اللغة (فندريس) ٣٤١
(٣) مستقبل اللغة العربية ٧

متحضرة ، ابتعدت عن الغريب ، واخذت مفرداتها من سائر القبائل[1] ، لأن الوافدين الى قريش كانوا يؤثرون فيها ، فتختار احلى مفرداتهم وتضمها الى مفرداتها ، يقول الفراء (ت ٢٠٧) : « كانت العرب تحضر الموسم في كل عام ، وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات العرب ، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا افصح العرب ، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الالفاظ[2] » . والكلمات المنسوبة الى مذحج والى ازد مثلاً هي ليست كذلك في الحقيقة وانما هي قريشية ، وقد دخلت في صلب لغة قريش . ولغة قريش هذه لغة صافية ليس فيها غريب ولا مستكره[3] ، وهي ملتقى اللهجات المختلفة ، واخذت توسع دائرتها فتأثرت بها القبائل وكان التأثر بها اكبر وأكثر من تأثيرها بها ، واصبحت هي لغة الخطباء والفصحاء عند سائر العرب ولهذا عمت ، وهذا ما يفسر لنا ان الشعراء من مختلف القبائل كانوا ينظمون بلغة قريش ، على الرغم من وجود خلافات لغوية يسيرة في اشعارهم .

وكان الميل الى لهجة قريش في بعض الاحيان بدوافع دينية اكثر منها دوافع لغوية ، حتى طغى ذلك على ابن خلدون وظن ان معيار الفصاحة في لغات القبائل مستمد من نسبة بعد هذه القبائل وقربها من قريش ، وان دارسي اللغة الاوائل المستقرين للهجات القبائل انما لحظوا هذا البعد والقرب الجغرافي في وضعهم قواعد اللغة ، فيقول : « ولهذا كانت قريش افصح اللغات العربية واصرحها لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني اسد وبني تميم ، واما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان واياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لامم الفرس والروم والحبشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الاعاجم ، وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند اهل الصناعة العربية[4] » .

---

(١) الخصائص ٢ / ١١ والصاحبي ٢٣ وفقه اللغة (وافي) ١٠٤

(٢) المزهر ١ / ١٣٣ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ٦٤٩ والمزهر ١ / ١٣٣ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ٦٤٩ .

والحق ان هذا لم يكن معيار الدارسين في تحديد فصاحة اللهجات ، وانما كان المعيار يقوم على تحديد مواطن القبائل العربية ، فما توسط منها في شبه الجزيرة عدت فصحى القبائل ، وعلى نسبة قربها من الوسط كانت نسبتها في الفصاحة ، حتى كانت القبائل المتطرفة في السكن تعد من القبائل التي تأثرت بلغات الامم الاعجمية لمتاخمتها لها في الموطن (انظر الخريطة) ، وهذا هو المستفاد من قول الفارابي الذي نقلناه سابقاً ، بل نص الفارابي على ان لغات قيس وتميم واسد فصحى اللغات « فان هؤلاء هم الذين عنهم اكثر ما اخذ ومعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف » ولم يسلك قريشاً بينها ، بل لم يذكرها فيما عد من اللغات المعتمدة .

وفي قول ابن خلدون نفسه ما يوحي بالتناقض ، اذ جعل بني اسد وبني تميم مثلاً ممن اكتنف قريشاً ، او من البيئات اللغوية القريبة من قريش ، واكبر الظن ان الذي جره الى هذا وجدانه كثيراً من الاستعمالات ينسب الى تميم او الحجاز في المصادر اللغوية القديمة ، في حين ان كلا منهما اقليم واسع يضم عدة قبائل وعدة لهجات لا يمكن ان تخضع لصفات لغوية موحدة بمجرد تسمية الاقليم الممتد الاطراف (انظر الخريطة) لاننا نعرف ان طريقة نطق مدن الحجاز ليست في كل المواضع متفقة بل توجد بينها اختلافات شديدة[1] . يعضد ذلك ما روي عن النبي (ص) حين سقطت من يده السكين ، فأشار على ابي هريرة ان يسلمها له ، فلم يفهم ابو هريرة مراد النبي (ص) لأنه كان يسمي السكين (مُدْيَة) ، وابو هريرة من قبيلة دوس التي عاشت على مسافة غير بعيدة من مكة (انظر موقعها في الخريطة) ، وكان اهلها على اتصال بالبيئة الحجازية قبل الاسلام[2] .

وحين درس اللغويون لهجتي قريش وتميم قالوا ان الاولى افصح والثانية اقيس ، وضربوا لذلك مثلاً قوله تعالى : (ما هذا بشرا)[3] في إعمالها واهمالها ، فاهمالها تميمي واعمالها حجازي ، وقريش حجازية . غير انهم قالوا ـ في الوقت

(١) التطور اللغوي التاريخي ٢٨ واللغات السامية (نولدكه) ٧٨ .

(٢) في اللهجات العربية ١٧٧ .

(٣) سورة يوسف [illegible]



مصادر هذه الخريطة :

١ـ اطلس التاريخ الاسلامي : هاري هازارد وجماعة .

٢ ـ الاطلس التاريخي للعالم الاسلامي : عبد المنعم ماجد وعلى البناء .

٣ ـ الاطلس التاريخي : عدي يوسف مخلص .

٤ ـ في اللهجات العربية : د . ابراهيم انيس .

٥ ـ مجموعة الوثائق السياسية : محمد حميد الله .

٦ Chaim Rabin ancient west arabian.

٧ DJAMBATAN.Historical Atlas of the Muslim Peoples.

نفسه ـ انهم عندما ارادوا تدوين اللغة وجدوا ان لغة حاضرة الحجاز قد فسدت[1] ، فكيف ينسجم هذا مع قولهم بفصاحتها ؟ اليس وراء هذا التناقض (مجاملة) لقريش صاحبة السلطان والحكم كما يقول نولدكه[2] ، وكان الدارسون يستندون في نسبة الفساد الى لغات القبائل الى سندين ، الاول : مجاورة الامم الاعجمية ، والثاني : اقامة التجار الاجانب بين اهلها . اما الاول فهو الذي نص عليه الفارابي وابن خلدون كما مر ، واما الثاني فهو الذى اشار اليه الفراء بقوله السابق « كانت العرب تحضر الموسم . . . » اي للتجارة ، ومثله ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) حين تحدث عن فصاحة قريش[3] .

اقول انهم قدموا هذا دون دليل مقنع ، والا فما هي مظاهر ذلك التأثر . وكان عليهم ان يقدموا الشواهد المتأثرة باللغات الاعجمية ، ثم يوازنوا بينها وبين شواهد اخرى من كلام العرب ، ليتبين للدارسين مدى تأثر هؤلاء بالاعاجم ومدى بعد اولئك عن هذا التأثر . واذا كان صحيحاً ان تاجراً واحداً يفسد لغة قبيلة ، فكيف لا تفسد لغة قريش في مكة وقد عاش بين ظهرانيها كثير من التجار ، او لغة اسد وقد استوطنت الكوفة وفيها كثير من التجار ايضاً ؟ . ان نظرة القدماء الى اللغة على انها (توقيف) هي التي حالت دون نظرتهم اليها باعتبارها ظاهرة اجتماعية تخضع للتطور ، فاذا كان القرآن قد نزل بلغة قريش ، فكيف نفسر وجود الالفاظ العبرية والسريانية والفارسية وغيرها فيه ؟ واذا كانت قريش ـ وهي فصحى اللهجات العربية كما يقولون ـ قد حوت الفاظاً اعجمية ، فلماذا لم يؤخذ بلغات القبائل الاخرى المتاخمة للامم المجاورة ؟ فهل محصوها وغربلوها ليجدوا ان فيها من الاثر ما يغطي على فصاحتها واساليبها الاصلية ومفرداتها الاولى ، بحيث تجاوز ما يعرف بتقارض اللغات الطبيعي ؟ الواقع ان الاختلافات التي اشاروا اليها بين لهجة قريش وغيرها ، او بين اللهجات عموماً لا تتجاوز الاختلاف في الاصوات والاختلاف في الابنية ، اما الاسلوب العام فلم يمسه شيء . ولا ثبات ذلك فنحن نستعرض الان

(١) المزهر ١/٢١٢ والاقتراح ١٩ .
(٢) اللغات السامية ٧٨ .
(٣) الصاحبي ٢٣ .

هذه الخلافات كما حصرها القدماء في مصنفاتهم[1] ، لنخلص الى الحقيقة التي اشرنا اليها :

١ـ الاختلاف في الأصوات :

أ ـ الاختلاف في السين والصّاد والزّاي ، مثل : صراط وسراط وزراط . فالصّاد لغة قريش ، واشمام الصاد زاياً لغةُ قيس ، والسّين لغة عامة العرب غير قريش ، والزاي لغة عُذرة وكَعْب وبَني القَين[2] .

ب ـ الاختلاف في القاف والكَاف : بعض العرب ومنهم بنو تميم يلفظون القاف صوتاً بين الكاف والقاف ، ومنه قول الشاعر : ولا اكَول لكَدر الكَوم . . الخ ،[3] اي ولا أقول لقدر القوم .

جـ ـ الاختلاف في اصوات المد : ومنه الاختلاف في الفتح والامالة ، فبعض العرب يؤثرون الفتح وبعضهم الامالة كما في قضى ورَمى . والفتح لغة اهل الحجاز والامالة لغة عرب وسط الجزيرة وشرقيها كتميم واسد وطيء . ولهذا شاعت الامالة في قراءات اهل الكوفة واهل البصرة ، والائمة الذين يميلون هم ابو عمرو بن العلاء والزيات والكسائي .

د ـ الاختلاف في الفتح والكسر ، كما في الفعل المضارع : تَعلم تِعلم ، نَعلم نِعلم ، وأعلم إعلم . ومن الكسر الواضح (إخال) . والكسر لغة جميع العرب الا اهل الحجاز . ونقل ابن فارس عن الفراء في نَستعين ونِستعين انه قال : هي مفتوحة في لغة قريش ، وأسد وغيرهم يقولونها بكسر النون[4] . ويذكر القرطبي ان كسر النون في نِستَعين لغة تميم

---

(١) معاني القرآن ٢/ ١٤٤ والصاحبي ١٩ والبحر المحيط ١/ ٢٥ والنشر في القراءات العشر ١/ ٢٣ ولسان العرب ٦/ ٩ ومحاضرات الدكتور المخزومي (مدونتي) ٧ .

(٢) البحر المحيط ١/ ٢٥ .

(٣) الصاحبي ٢٥ .

(٤) الصاحبي ١٩ .

وقيس واسد وربيعة[1] .

هـ - الاختلاف في الحركة والسكون : كما في مَعَكم مَعْكم ، فبعض القبائل يفتح العين وبعضها يسكن .

و - الاختلاف في الهمز والتليين : ومعروف ان قريشاً واهل الحجاز يسهلون اية همزة ترد اي لا ينبرون سوى الهمزات التي يبتدأ بها[2] .

ز - الاختلاف في التخلص من التقاء الساكنين : فبعضهم يتخلص بالكسر وبعضهم يلجأ الى غير الكسر ، مثل قوله تعالى : (واشتروُا الضَّلالـةَ بالهدى)[3] بالضم ، والاكثر : (واشترِوا الضّلالةَ . .) بالكسر .

ح - الاختلاف في الابدال والادغام ، كما في : المُهتَدون والمُهدّون .

٢ - الاختلاف في الابنية :

أ - الاختلاف في صورة الجمع : مثل أسرى وأسارى في جمع اسير ، وسُرْط وأسرطَة في جمع سراط ، وحُمُر وأحمِرة في جمع حِمار .

ب - الاختلاف في الزيادة : مثل انظر وأنظور .

جـ - الاختلاف في التضعيف والفك : مثل ردّ واردُد ، ولم يردَّ ولم يردُد ، ومن يشاقّ ومن يشاقِق . التضعيف لغة بني تميم والفك لغة اهل الحجاز . ومنه ايضاً فكه بالياء مثل : أمّا وأيْما .

د - الاختلاف في الحذف والاثبات : مثل استحييْت واستحيْت ، بياءين لغة اهل الحجاز ومنه قوله تعالى : (تَمْشي على استحياء[4]) وقولـه أيضـاً : (يستَحْيون من النّاس) . وبياء واحدة لغة تميم وبكر بن وائل .

---

(١) الجامع لاحكام القرآن ١/ ١٤٦ .

(٢) لسان العرب ١/ ١٤ ، ٧/ ٤٠ .

(٣) سورة البقرة ١٦ .

(٤) سورة القصص ٢٥ .

هـ ـ الاختلاف في ابدال الحروف : مثل أولئِكَ وأولالِكَ .

و ـ الاختلاف في التقديم والتأخير : مثل جَذَبَ وجَبَذَ ، والصّاعِقة والصّاقِعَة .

ز ـ الاختلاف في الوقف على الهاء : مثل هذه أُمَّةْ وهذه أُمَّة ، وفاطِمَةْ وفاطِمَة .

ح ـ الاختلاف في بعض الاسماء ، ومنه الاختلاف في اسم الروح الامين : اهل الحجاز يقولون جِبريل بكسر الفاء على (فِعْليل) ، وتميم وقيس وكثير من اهل نجد يقولون جَبْرئيل . والكلمة ساميَّة : جبر بمعنى رجل ، وايل بمعنى الله ، وجميعاً تعني رجل الله . وكذلك اختلفوا في ميكائيل ، وقال الحجازيون ميكال ، ومنه قول الشاعر :

عَبَدوا الصَّليبَ وكذَّبوا بمحمد وبجَبرئيل وكذَّبوا ميكالا

اقول : لعل في الشاهد ما يدعو الى الشك ، فان لم يكن مصنوعاً فبامكاننا حمل استعمال الشاعر لميكال على الضرورة ، لأن الشاعر باستعماله جَبرئيل ليس حجازياً ، لعدم جواز جمعه بين لغتين من غير ضرورة .

ط ـ الاختلاف في الاعراب والبناء كما في (أمس) : فهي مبنية على الكسر عند اهل الحجاز ، وبنو تميم يوافقونهم على البناء على الكسر في حالتي النصب والجر ، اما في الرفع فيرفعونها كقولهم : ذهبَ أمسُ بما فيه[1] .

ي ـ الاختلاف في تحديد نوع الكلمة ، كما في (هلمَّ) : فهي عند اهل الحجاز اسم فعل تبقى هكذا في المفرد والمثنى والجمع ، وبهذا نزل القرآن ايضاً ، فقال تعالى : (هَلُمَّ الينا) و(هلمَّ شُهداءكم) . اما في لغة بني تميم فهي متصرفة تلحقها الضمائر المختلفة : هلمَّ ، هلمّاَ ، هلُمّوا ، هلمّي ، هلمُمْنَ .

---

(١) لسان العرب ٦/ ٩ .

ك ـ الاختلاف في التذكير والتأنيث : مثل هذه البقر وهذا البقر .

ل ـ الاختلاف في المطابقة بين الفعل والفاعل في العدد تقدم الفعل او تأخر : الالتزام بالمطابقة لغة بني الحارث ، وهي اللغة التي سميت بلغة اكلوني البراغيث[1] . وقد جاء بها القرآن ايضاً ، قال تعالى : (وأسرّوا النَّجوى الذين ظَلَموا)[2] ، وجاء في الحديث ايضاً : « يتعاقبون فيكم ملائكةُ بالليل وملائكةٌ بالنهار » ، على ان هذا الحديث قد روي رواية اخرى لا يكون فيها شاهداً على ما نحن بصدده .[3] .

م ـ الاختلاف في استعمال المثنى بالالف مطلقاً : وعلى ذلك قراءة قوله تعالى : (أن هذانِ لساحرانِ)[4] ، وقول الشاعر :

وأطرقَ إطراقَ الشّجاعِ ولو يَرى مساغاً لناباهُ الشجاع لصمَّما

وذكر الفراء هذا الشاهد ، ونسب لغة استعمال المثنى بالالف مطلقاً الى بني الحارث بن كعب وخثعم وبني كنانة ، وحكى هذه اللغة ابو الخطاب الاخفش والكسائي وابو زيد ، وعلق الفراء على قول العرب : (هذا خط يدا أخي بعينِه) بأن هذه اللغة هي الاقيس ، ولهذا اتفق العرب على (كِلا)[5] .

٣ ـ الاختلاف في الاعراب فمن ذلك :

أ ـ الاختلاف في نصب الخبر في النفي بما ورفعه : فالنصب لغة اهل الحجاز ، وبذلك جاء التنزيل العزيز ، قال تعالى : (ما هذا بَشراً)[6] ، والرفع لغة تميم .

---

(١) كتاب سيبويه ١/ ٥، ٦٠ .

(٢) سورة الانبياء ٣ .

(٣) الاقتراح ١٩ .

(٤) سورة طه ٦٣ .

(٥) معاني القرآن ٢/ ١٤٤ .

(٦) سورة يوسف ٣١ .

ب ـ الاختلاف في نصب الخبر المستثنى ورفعه في النفي بليس : مثل ليس الطيبُ الا المسكَ والا المسكُ . فالنصب لغة اهل الحجاز ، والرفع لغة تميم . هذه هي اهم الخلافات اللغوية بين اللهجات العربية ، نخلص من دراستها الى انها ترجع في الاعم الاغلب الى الاصوات والابنية ، اما التأليف الجملي العام فلم يمسه اختلاف اللهجات في شيء . وعلينا في ضوء ذلك ان نعيد النظر فيا ابعد من اللهجات العربية عن الدراسة بحجة التأثر بالامم المجاورة الاعجمية ، وان نقوم اسس الفصاحة تقويماً جديداً يستند الى اطلس لغوي يأخذ بعين الاعتبار المادة اللغوية اللهجية لا الموطن الجغرافي معياراً في القبول والرفض.

ولم يقف الخلاف في أسس الاستقراء عند هذا الحد ، واعني به الخلاف في فصاحة اللهجات ، وانما تجاوز ذلك الى الخلاف في الأخذ عن اهل الحضر . فالبصريون منعوا الاخذ عن هؤلاء لأن السنة البداة تفسد لطول مقامهم في الحضر ، يقول ابو عمرو بن العلاء (ت ١٥٧ هـ) : « لم أرَ بدوياً اقام في الحضر الا فسد لسانه . غير رؤبة والفرزدق»[1] . فالاصل ان يفسد لسان البدوي في الحضر فلا يؤخذ عنه ، اما رؤبة والفرزدق فمن الشواذ الذين لا يقاس عليهم ، ولا تنتقض بهم قاعدة مطردة . اما الكوفيون فقد اجازوا الأخذ عمن يوثق به من الاعراب الحضريين ، فأضافوا الى مصادرهم اللغوية مصدراً يستمد مادته من اللغات التي ابعدها البصريون ، وهي « لهجات عرب الارياف الذين وثقوا بهم ، كأعراب سواد الكوفة من تميم واسد واعراب سواد بغداد من اعراب الحطمية»[2] ، اذ لم يجدوا في السنة هؤلاء فساداً ظاهراً .

ولو تتبعنا النقد البصري الذي كان يوجه الى هذا المنهج لوقفنا على عمق الخلاف في هذه المسألة ، ولنقرأ بعض ما وجه للكسائي (ت١٨٩ هـ) مثلا من هذا النقد . يقول ابو زيد (ت ٢٥٥ هـ) : « قدم علينا الكسائي البصرة فلقي عيسى والخليل وغيرهما ، واخذ منهم نحواً كثيراً ، ثم صار الى بغداد فلقي اعراب

(١) خزانة الادب ١/ ٢٠٤ .

(٢) مدرسة الكوفة ٣٣١ وانظر : العربية (فك) ٦١ .

الحطمة ، فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن ، فأفسد بذلك ما كان اخذه بالبصرة كله»[1] . ويقول ابو حاتم (ت ٢٥٥ هـ) : « وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل ، الا حكايات عن الاعراب مطروحة ، لأنه كان يلقنهم ما يريد»[2] ويقول ابن درستويه (ت ٣٤٧ هـ) : «كان الكسائي يسمع الشاذ الذى لا يجوز الا في الضرورة ، فيجعله اصلا فيقيس عليه ، واختلط باعراب الابلة ، فافسد بذلك النحو»[3] . حتى ان هذا المنهج الكوفي صار مدعاة لسخرية البصريين ، فقام الرياشي (ت ٢٥٧ هـ) يتندر على الكوفيين بقوله : « إنّما أخذنا اللُّغةَ عن حَرَشَةِ الضِّبابِ وأكَلةِ اليرابيع ، وهؤلاء يأخذونها عن أكَلَةِ الشّواريز وباعَةِ الكَواميخ»[4] .

وبغض النظر عن صواب المنهج الكوفي او خطله ، فان الباحث في المادة اللغوية البصرية يقف على ان البصريين لم يكونوا دائماً متمسكين بما الزموا به انفسهم من عدم الاخذ عن الحضري ، وند من بعضهم ما يخالف منهجهم ، فقد روي عن يونس بن حبيب (ت ١٨٢هـ) انه كان يستشهد في اللغة بكلام ابي علي الاسواري الفارسي الاصل البصري المسكن ، الذى ذكر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) انه كان يجلس اليه العرب والفرس ، فكان يُتَعَجَّب من فصاحته فلا يُدرى باي اللسانين افصح[5] . واستشهد البصريون جميعاً بشعر رؤبة والفرزدق وكلاهما حضري بنص ابي عمرو بن العلاء الذى نقلناه قبل قليل معترفاً بأن لسانيهما لم يفسدا . ومثل رؤبة والفرزدق كثير من الشعراء . كما نجد ابن النديم (ت حدود ٣٨٠هـ) حين تحدث عن الاعراب الفصحاء الذين اخذ عنهم البصريون والكوفيون ، والذين وضعنا لاسمائهم مسرداً في الباب الاول ، ذكر في تراجمهم ان هؤلاء سكنوا الحواضر ، وتكسب بعضهم بتعليم الصبيان ، وتخرج عليهم جماعة من علماء اللغة والنحو[6] . فالزعم بان البصريين انما اخذوا اللغة عن حرشة الضباب واكلة اليرابيع

---

(١) انباه الرواة ٢/ ٢٧٤ .

(٢) مراتب النحويين ٧٤ .

(٣) بغية الوعاة ٢/ ١٦٤ .

(٤) اخبار النحويين ٦٨ والفهرست ٦٤ والاقتراح ٨٤ .

(٥) البيان والتبيين ١/ ٢٨٣ .

(٦) الفهرست ٨٥ وما بعدها .

زعم لا يعضده سلوك البصريين ، مثله مثل زعم الفارابي فيما نقلناه عنه في صدر هذا الكلام من ان اللغويين اخذوا فيما اخذوا من لغات القبائل عن (بعض الطائيين) ، فحين استعمل الطائيون الاسم الموصول (ذو) و(اللذون)[١] ، اهملت الدراسة اللغوية ذلك ولم تأخذ به . على اني ـ متواضعاً ـ لم افهم هذا التبعيض ، فهل كان (بعض الطائيين) يتكلمون بما يخالف لغة سائر الطائيين فافردوا واخذ عنهم ولـم يؤخذ عن سواهم من ابناء طيء نفسها ؟

* * *

السماع والقياس :

السماع هو الرواية ، وذلك ان يكون الراوي سمع بنفسه ما يرويه عن غيره فإن كان هناك ما يفصل بين الراوي السامع والمروي عنه، كأن يكون بينهما راو آخر أو كتاب مؤلف، فيعد ذلك رواية لا سماعاً ، فالسماع، في اللغة : « هو الأخذ المباشر للمادة اللغوية عن الناطقين بها »[٢] . وهذه المباشرة هي التي تفرق بين السماع والرواية ، فالرواية عامة والسماع خاص لا يصدق الا على المشافهة .

ومن الطبيعي ان يكون اهتمام الدارسين الاوائل بالسماع عن العرب كبيراً ، لأن هؤلاء هم الذين تصدوا لجمع المادة اللغوية وتدوينها ، فروي ان الكسائي سأل الخليل : « مـن اين اخـذت علمـك هذا ؟ فأجابـه : من بوادي الحجـاز ونجـد وتهامة »[٣] . ونقل ياقوت ان الكسائي : « خرج الى الحجاز فأقام مدة في البادية ، حتى حصل من ذلك ما ذكر انه افنى عليه خمس عشرة قنينة من الحبر غير ما حفظه »[٤] . ومثل الكسائي واستاذه الخليل جمهرة كبيرة من العلماء ، حتى عد ابـو عمـرو بن العلاء والاصمعي بعده من المتمسكين بالسماع[٥] .

---

(٢) اصول التفكير النحوي ٢١

(٣) انباه الرواة ٢/ ٢٥٨ .

(٤) معجم الادباء ١٣/ ١٦٨ .

(٥) الخصائص ١/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .

ولا بد ان تخضع اسس السماع عن العرب الى الاسس المعتمدة في الاستقراء ، فكان السماع لدى البصريين مبنياً على ما رسموه في اطلسهم اللغوي للقبائل العربية وما حددوه من تفاوت نسبتها في الفصاحة ، يتجلى ذلك في قول ابي زيد الانصاري : « لست اقول قالت العرب الا اذا سمعته من هؤلاء : بكر بن هوازن وبني كلاب وبني هلال او من عالية السافلة او من سافلة العالية »[1] . فالسماع من هؤلاء دون غيرهم هو الذي يسوغ لابي زيد ان يقول قالت العرب ، والا فان سماعه من غيرهم ليس من كلام العرب . وحين كان السماع لدى الخليل يعتمد مشافهة الاعراب - كما مر في النص - والنقل عن القراء واستقرار السليقة في نفسه ، نجده كذلك لدى تلميذه سيبويه ، مضيفاً اليه النقل عن علماء اللغة الموثقين ، مبعداً الاستشهاد بالحديث الشريف[2] ، على ما سنبسط الكلام عليه .

وكان علماء اللغة يشترطون في النقل شروطاً ذكرها ابو البركات الانباري (ت ٥٧٧هـ) بقوله : « النقل هو الكلام العربي الفصيح المنقول بالنقل الصحيح ، الخارج عن حد القلة الى حد الكثرة »[3] . وتنطبق هذه الشروط انطباقاً تاماً على موارد السماع لدى سيبويه واساتيذه[4] ، وعلى ما اضافه سيبويه من النقل عن العلماء الموثقين . وقام ابن هشام ببيان مصطلحي القلة والكثرة وغيرهما فقال : «اعلم انهم يستعملون غالباً وكثيراً ونادراً وقليلاً ومطرداً ، فالمطَّردُ لا يتخلَّفُ ، والغالبُ اكثرُ الاشياءِ ولكنه يتخلف والكثيرُ دونَه ، والقليلُ دونَ الكثير ، والنادرُ اقلُ من القَليل . فالعشرون بالنسبة الى ثلاثة وعشرين غالبُها ، والخمسة عشر بالنسبة اليها كثيرٌ لا غالب ، والثلاثةُ قليلُ ، والواحد نادرُ ، فعلم بهذا مراتب ما يقال فيه ذلك»[5] . وعلى الرغم من ذلك كله فان الدارسين على اختلاف اسسهم المنهجية في السماع متفقون على ان السماع اصل والقياس فرع عليه ، وان السماع ينقض قياساً سابقاً ،

---

(١) نوادر ابي زيد ٥ .

(٢) المدارس النحوية ٨٠ .

(٣) لمع الادلة ٨١ .

(٤) الكتاب ١/ ٢٩٠ ، ٢/ ١٢٧ .

(٥) المزهر ١/ ٢٣٤ .

يقول ابن جني . « اذا اداك القياس الى شيء ، ثم سمعت العرب نطقت فيه بشي آخر على قياس غيره فدع ما كنت عليه ، وهذا يشبهه شيء من اصول الفقه ، نقض الاجتهاد اذا بان النص بخلافه[1] » .

اما القياس فهو مصدر قايَسَ بين الشيئين اي قَدَر ، وقاس الطبيب الشَّجَة بالمقياس أي قدَّر غَورها به ، وبينهما قِيسُ رُمح وقِيسُ اصبَع أي قَدر[2] . وهو في المصطلح العلمي تقدير الفرع بحكم الاصل ، ولا بد له من اربعة اركان : اصل وفرع وعلة وحكم[3] . ويعد استخدام القياس من الاسس المنهجية في دراسة اللغة ، وقد اخذ به اللغويون جميعاً ، البصريون منهم والكوفيون ، غير انهم اختلفوا في كثرة الاخذ به والاعتماد عليه . اذ كان البصريون اكثر من سواهم ميلاً الى استخدامه في دراساتهم .

وكان عبد الله بن ابي اسحاق الحضرمي (ت ١١٧هـ) اول من اسس استخدام القياس في اللغة ، فقيل انه : « كان اول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل[4] » . وقال ابن سلام : « وقلتُ أنا ليونُس : هل سمعتَ من ابن ابي اسحاق شيئاً ؟ قال : سألته يوماً : هل سمعتَ أحداً يقول الصَّويق يريدُ السَّويق ؟ قال : بنو تميم تقول ذلك ، عليك بباب في النَّحو ينقاس[5] » . وقد حفظ لنا سيبويه في كتابه وابن سلام في طبقاته اغلب آراء ابن ابي اسحاق ونظراته في القياس .

ثم جاء اللغويون بعده ووسعوا الاخذ بالقياس ، فاعتمد عليه عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٥٤هـ)[6] ، وابو عمرو بن العلاء (ت ١٥٧هـ) الذى قال فيه ابن

---

(١) الخصائص ١/ ١٢٥ والاقتراح ٨٣ .
(٢) اساس البلاغة ٥٣٠ .
(٣) لمع الادلة ٩٣ .
(٤) طبقات ابن سلام ١٤ .
(٥) نفسه ١١ .
(٦) الكتاب ١/ ١٩٩ ، ٢٦١ ، ٣١٣ والموشح ٤١ .

جني : « كان ممن نظروا في النحو والتصريف وتدربوا او قاسوا »[1] . وقد استخدمه يونس بن حبيب (ت ١٨٢هـ)في مذاهبه التي تفرد بها[2] . ومثله الخليل بن احمد (ت ١٧٥هـ)الذي مر بنا خلال دراستنا معجمه (العين)لجوؤه الى القياس في احايين كثيرة ، حتى نسب اليه والى سيبويه (ت ١٨٠هـ)انهما يريان ان : « ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم »[3] . وركن اليه ايضاً الأخفش الاوسط (ت ٢١١هـ)وابو عثمان المازني (ت ٢٢٥هـ)وابو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ)من البصريين[4] ، وابو جعفر الرواسي (ت ١٨٧هـ) ومعاذ الهراء (ت ١٩٠هـ) والفراء (ت ٢٠٧هـ)وغيرهم من الكوفيين ، فحين اجاب الفراء عن سؤال وجه اليه ، علل جوابه بقوله : « قِستُه على مذاهبنا في العربيّة[5] » .

وكان اساس القياس عند هؤلاء الاوائل جميعاً يقوم على السماع والرواية ، وقد عرفنا أنَّهم ممن شافه العرب، فلم تكن لديهم قاعدةلغويةلا يمكن تغييرها، اذ لم يجدوا حرجاً في كثير من الاحيان من تعديل قواعدهم ان اقتضى الامر ، حتى تشمل الحقائق اللغوية .وما اختلاف الكسائي وسيبويه في المسألة المعروفة بالزنبورية الا دليل على استخدام القياس المعتمد على السماع[6] ، وان اختلفت اسسه كما قدمنا . وحين لم يكن القياس في هذا العصر عبداً للقاعدة كما اصبح فيما بعد ، بحيث يخضع لها كل شيء ، فان استعصت على ان تشمل استعمالاً ما ، قالوا شاذ يحفظ ولا يقاس عليه . اقول حين كان الامر كذلك راح الدرس اللغوي بما جد فيه من اصطناع القياس يستقل بضاعة ابن ابي اسحاق ، فيقول ابن سلام : « سمعت ابي يسأل يونس عن ابن ابي اسحاق وعلمه ، قال : هو والبحر سواء وهو الغاية . قال : فأين

---

(١) الخصائص ١/ ٢٤٩ ، ٣/ ٧٣ وانظر : الانصاف ٢٠٧ والمغني ٥١٥ والهمع ١/ ١١٥ .

(٢) الخصائص ٢/ ٦١ ، ٣/ ٧١ والمنصف ٢/ ٨٥ والمغني ٨٢ وشرح التصريح ١/ ٧٤ .

(٣) المنصف ١/ ١٨٠ .

(٤) المنصف ١/ ١٨٠ والخصائص ١/ ٣٥٧ .

(٥) النزهة ٦٧ .

(٦) مجالس العلماء ٨ وطبقات الزبيدي ٦٨ ونور القبس ٢٨٨ والانصاف ٧٠٢ وانباه الرواة ٢/ ٣٥٨ والمغني ٩٣ ومعجم الادباء ١٣/ ١٨٥ ، ١٦/ ١١٩ والاشباه والنظائر ٣/ ١٥ والبغية ٢/ ٢٣٠ ومجلة المجلة ، السنة ٩ العدد ١٠١/ ١٩٦٥م .

علمه من علم الناس اليوم . قال : لو كان في الناس اليوم من لا يعلم إلاّ علمه لضحك منه ، ولو كان فيهم من له ذهنه ونفاذه ونظره لكان اعلمَ الناس »[1] .

ويبدو ان اقبال الدارسين على القياس وكثرة اصطناعهم اياه في دراسة اللغة يعود الى سبب تعليمي يتلخص بقول الدكتور عبد الحميد الشلقاني : « ومن الدوافع التي وجهت اصحاب القياس الى وجهتهم هذه فيما اعتقد ، ان كثرة بالغة من طلاب اللغة لم يكونوا من العرب ، فكانت مسألة القياس ووضع اللغة تحت كليات عامة اسهل بكثير من محاولة الاحاطة باللغة وحصر ما يمكن حصره منها عن طريق السماع[2]» . وما ذهب اليه الدكتور الشلقاني صحيح الى حد بعيد ، ولعل قوله يفسر لنا ايضاً ميل البصريين اكثر من الكوفيين الى اصطناع القياس حتى عد من سمات منهجهم في دراسة اللغة ، ذلك ان طلاب اللغة من غير العرب في البصرة يُربي عددهم كثيراً على امثالهم في الكوفة ، كما مر من دراستنا لهذين المصرين في الباب الاول .

والحق انه لا يمكن ان يستغني الدرس اللغوي عن القياس ، وفي كل لغة شيء من القياس ، ذلك ان اللغات الحية وغير الحية لا تخلو من صيغ قياسية وصيغ شاذة ، فلا ضير من اصطناع القياس وتطبيقه اذا كان المراد به القياس اللغوي ، وكنا قد اشرنا الى ان الذي استخدمه الاوائل كان قياساً مقبولاً لأنه لم يخرج عن دائرة القياس اللغوي[3] ، فقد رأى الخليل مثلاً أنه اذا اجتمع واوان في كلمة فتقلب أولاهما همزة او تاء ، ففي تصغير واصِل نقول (أُوَيْصِل) ومن حقها في الاصل ان تكون وُوَيَصِلا ، والاسم من وَلَج (تَولَج) وليس وَوْلَجَا . فلم ينعت الخليل ما وصفه وقرره بالشذوذ او الخروج عن القاعدة لأنه غير مقيس على مثيله في اللغة ، بل وضع له القاعدة المناسبة .

اما القياس الذى اصبح اصطناعه على غرار القياس الفقهي من الاسس

(١) طبقات ابن سلام ١٢ وانظر : نزهة الالباء ٢٤ .

(٢) رواية اللغة ٣١٩ .

(٣) كتاب سيبويه ١/ ٣١٣ .

المنهجية في الدرس اللغوي ، فهو الذي يجب تنقية الدرس منه ، بعد ان صار الغاية من دراسة اللغة لا الوسيلة الى وضع قواعدها[1] . والضير في اصطناع القياس الفقهي الذي يقوم على رصد العلة ، وعلى الدرس اللغوي ان يرفض هذا النوع منه لأنه اجنبي عنه ، وليس في قول ابي البركات الانباري : « فان بينهما من المناسبة ما لا خفاء فيه ، لأن النحو معقول من منقول ، كما ان الفقه معقول من منقول[2]» ما يسوغ الاخذ بهذا القياس وان نص على النحو دون غيره ، ذلك ان الدراسة اللغوية عموماً ـ ومنها النحو ـ ابعد ما تكون في طبيعتها عن (المعقول) . فمن القياس الفقهي مثلاً : الخمرة حرام لعلة الاسكار ، فان قيل ما حكم الفقاع ؟ قيل اذا توفرت فيه علة تحريم الخمرة وهي الاسكار حرم لاشتراكه معها في العلة . فهذا النوع من القياس غير وارد في اللغة ، اذ لا يمكن تعليل اللغة هذا التعليل الفلسفي . وهو معيب من ناحيتين ، الاولى : ان القياس الفقهي ـ لا الفقه ـ يفترض ان اللغة ثابتة وانها قوالب غير متغيرة وهو يناقض فكرة ان اللغة متطورة لا تستقر على حال . والثانية : انه قياس تعليمي لا غناء فيه ولا جدوى منه في الوقوف على حقائق اللغة وقوانينها ، وكثير من امثلته في مصنَّفات أَصحابه يدل على أنها أمثلةٌ لا واقع لها في اللغة[3] ، كقولهم مثلاً : كيف تبني من ضَرَبَ على فَعْلَلَ ؟ ولا وجود لبناء (ضرْبَبَ) في اللغة .

ويبدو ان محاولات ربط اللغة بالفقه ، ثم تطبيق قياس احدهما على الآخر ، محاولات قديمة ، فيروى ان بشرا المريسي المعتزلي قال للفراء (ت ٢٠٧هـ) يوماً : « اريد ان أسألك مسألةً في الفقه ، ما تقول في رجلٍ سها في سجدتي السَّهو؟ قال : لا شيء عليه . قال : من أين لك ذلك ؟ قال : قِستُه على مذاهبنا في العربية ، وذلك أن المصغَّر لا يصغَّر ، وكذلك لا يُلتفتُ الى السَّهو في السَّهو»[4] . كما يشير ابن جني الى ان الاخفش الاوسط (ت ٢١١هـ) كان يصطنع القياس الفقهي وان له تأليفاً فيه ،

---

(١) انظر : اصول النحو العربي ١١٦ .

(٢) الاقتراح ٣ .

(٣) كتاب سيبويه ٢/ ٤٢ ، ٥٨ .

(٤) نزهة الالباء ٦٧ .

فقال : « سبقني ابو الحسن الى هذا ، وكان مختصراً وانا اكملت ما بدأ به[1]»، ولا نعهد للاخفش كتاباً يبحث فيه هذا الموضوع . وعلى الرغم من تصريح ابن جني (ت ٣٩٢هـ)بأنه يكمل ما بدأ به الاخفش ، وانه آخذ بهذا القياس في دراسة اللغة ، الا ان امثلة تطبيقه لهذه المحاولة قليلة في آثاره اللغوية لو قيست بآثار غيره ، والاكثر في هذه الآثار استخدامه القياس اللغوي [2] ، ذلك انه يمتاز بسعة الاطلاع والدقة ، وهو من المشافهين للاعراب على قلتهم في زمانه ، وعلى صلة بالمصادر الحية للغة كصلته بأبي عبد الله الشجري من الاعراب[3] ، وعنده خروج كثير عن السبيل المرسومة للقياس الفقهي ، شأنه في ذلك شأن اسلافه من العلماء من ذكرنا منهم ومن لم نذكر .

غير ان تطبيق القياس الفقهي بحذافيره لم يتم الا على يد ابي البركات الانباري (ت ٥٧٧هـ)في كتابيه : (الاغراب في جدل الاعراب) و (لمع الادلة) ، يقول الانباري : « ان النحو كله قياس[4]». ويقول ايضاً : « واذا بطل ان يكون النحو رواية ونقلاً وجب ان يكون قياساً وعقلاً[5]». هذه هي حدود الدرس النحوي عند الانباري ولا نريد ان نخوض في مناقشته ما دام الامر يخص النحو وحده دون اللغة ، وهو خارج عن خطة البحث . الا اننا نشير الى ان الدكتور مازن المبارك نسب قول الانباري الاخير الى ابن جني ، دون ان نعلم مصدره في ذلك[6] . وفي حدود اطلاعنا على آراء ابن جني ، نجد انه يقول في باب (اللغة المأخوذة قياساً) من احد كتبه : « ومعاذ الله ان نرى ان جميع اللغة تستدرك بالادلة قياساً[7]» . وهذا يخالف قول الانباري المنسوب اليه . على ما بين مصطلحي (اللغة) و(النحو) من فروق . قد يكون ابن جني والانباري التفتا اليها في قوليهما .

* * *

(١) الخصائص ١/ ٢

(٢) ابن جني النحوي ١٥١ .

(٣) الخصائص ١/ ٧٦ ، ٧٨ ، ٢٤٠ ، ٢/ ٢٦ .

(٤) لمع الادلة ٩٥ .

(٥) نفسه ٩٩ .

(٦) النحو العربي : العلة نشأتها ١١٢ .

(٧) الخصائص ٢/ ٤٣ .

المادة اللغوية (الشواهد) :

انبنت مواقف اللغويين العرب من الشواهد على اسسهم في الاستقراء والسماع والقياس ، ولذلك فقد تباينت هذه المواقف تبعاً للاساس الذى تستند اليه ، فالبصريون عموماً يختلفون مع الكوفيين في اهمية الشاهد ومبلغ الاعتماد عليه وانواعه ، ولما كان القرآن الكريم وقراءاته ، والحديث الشريف ، وكلام العرب الشعري والنثري ، تمثل جميعاً مصادر الدرس اللغوي ، كان اهتمام القدماء بها كبيراً ، ونرى الآن ذلك :

١ ـ القرآن الكريم وقراءاته :

يعد القرآن الكريم لدى اللغويين جميعاً اعلى انواع الشواهد مرتبة ، لانه افصح الكلام وابلغ التعبير ، يقول البغدادي : « كلامه عز اسمه افصح كلام وابلغه ، ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشاذه[١] » ، ذلك ان القرآن وصل الينا بقراءات مختلفة ، منها المتواتر ومنها الآحاد ومنها الشاذ ، فالمتواتر هو القراءات السبع المشهورة والآحاد هو القراءات الثلاث التي تلحق بالسبع وما بمرتبتها من قراءات الائمة ، والشاذ هو ما دون هذه القراءات[٢] . وكل واحدة من هذه القراءات تتصل اسناداً بالنبي (ص) على الرغم من اختلافها عن الاخرى ، يقول ابن خلدون : « ان الصحابة رووه ـ اي القرآن ـ عن رسول الله (ص) على طرق مختلفة في بعض الفاظه ، وكيفيات الحروف في ادائها »[٣] ، والاسناد الصحيح هو الاصل الاعظم والركن الاقوم[٤] .

واشتهر من القراء : ابو عبد الرحمن السلمي في الكوفة ، وزر بن حبيش ، وعاصم بن ابي النجود . وحمزة الزيات ، وعلي بن حمزة الكسائي ، وابو عمرو بن العلاء في البصرة ، وعبد الله بن عامر في الشام ، ونافع في المدينة ، وابن كثير في

(١) خزانة الادب ١/ ٤ .

(٢) غاية النهاية ١/ ٣٥٠ والمحتسب ١/ ٣٢ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ٩٩٤ .

(٤) الاتقان ١/ ٧٥ .

مكة . وكان اللغويون والنحاة الاوائل ـ كما مر بنا في الباب الاول ـ من القراء الاوائل المعنيين بوجوه الخلاف بين القراءات ، ذلك ان القراءات تمثل جانباً من جوانب اختلاف اللهجات ، ففي القراءات اوجه نحوية متعددة ،حتى انه قدنُصَّ على بعض الالفاظ انه يصح فيه الرفع والنصب والجر ، وهذا يشير الى الخلافات اللغوية بين لهجات القبائل ، وقد دخلت القرآن على شكل قراءات سمي بعضها شاذة[1] . ويفترض بالدرس اللغوي ان يستعين بهذه القراءات للوقوف على تلك الخلافات اللغوية .

وكانت الطبقة الاولى من اللغويين امثال : عبد الله بن ابي اسحاق (ت ١١٧) وعيسى بن عمر (ت ١٥٤) وابي عمرو بن العلاء (ت ١٥٧) وغيرهم طبقة قراء ، فقد عرف الاول والثاني من هؤلاء بقراءتين شاذتين[2] ، وعرف الثالث بقراءة مشهورة ، هي احدى السبع الموثقات . وقد درس على اولئك جماعة من اللغويين ، اهتموا بالقراءة امثال يونس (ت ١٨٢هـ) والخليل (ت ١٧٥ هـ) وسيبويه (ت ١٨٠ هـ) ومؤ رج السدوسي (ت ١٩٥هـ) والنضر بن شميل (ت ٢٠٣هـ)وغيرهم . وكان الخليل قد اخذ القراءة عن حمزة ، واخذ الكسائي عن الخليل ، ثم استقل بقراءة مشهورة ، واتخذ منهجاً خاصاً به في القرآن[3] .

غير ان البصريين منذ سيبويه حاولوا ان يخضعوا هذه القراءات الى قواعدهم واقيستهم ، فما وافق هذه القواعد المقررة قبلوه واحتجوا به ، وما خالفها رفضوه ووصفوه بالشذوذ[4] . ومر انهم شديدو الاعتداد بالقاعدة والاخذ بالقياس ، فدفعهم ذلك الى تقديم القاعدة على النص القرآني الموثق المنقول بالسند الصحيح ، على عكس ما يفترض بالدرس اللغوي الذى يجب ان تسير قواعده خلف النصوص الفصيحة وعلى هدى استعمالاتها المختلفة .[5] والبصريون بهذا المنهج لم يخالفوا

(١) محاضرات الدكتور السامرائي (مدونتي) ١٧ .

(٢) الفهرست ٣٣ .

(٣) نفسه ٧٢ .

(٤) الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري ٤٠ ومدرسة الكوفة ٣٣٧ .

(٥) الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري ٤١ .

الكوفيين حسب ، وانما خالفوا القراء ايضاً ، ذلك ان « ائمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الافشى في اللغة ، والا قيس في العربية ، بل على الاثبت في الاثر ، والاصح في النقل والرواية ، واذا ثبت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير اليها[1] » .

اما الكوفيون فكان موقفهم من القراءات يعتمد على احترامها والاخذ بها والتحرج من مخالفتها ، منطلقين الى ذلك من اسسهم المنهجية في دراسة اللغة ، وقد مر انهم يرجحون السماع والرواية حين يصطدمان بالقاعدة المقيسة ، لذا كان اتباع القراءة مبنياً على اساس منهجي ، يقول الفراء : « اتباع المصحف اذا وجدت له وجهاً من كلام العرب وقراءة القراء أحبُّ اليَّ من خلافه ، قال : كان ابو عمرو بن العلاء يقرأ : (إنَّ هذين لساحران)[2] ولست اجترىء على ذلك ، وقرأ : (فأصدَّقَ وأكون) فزاد واوا في الكتاب ، ولست استحب ذلك[3] » . وموقف الفراء هذا ـ وهو يمثل موقف الكوفيين ـ ينسجم مع موقف القراء انفسهم ، يقول الجزري : « كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت احد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً ، وصح سندها ، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل انكارها ، بل هي من الاحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، ووجب على الناس قبولها ، سواء أكانت عن الائمة السبعة او عن العشرة او عن غيرهم من الائمة المقبولين ، ومتى اختل ركن من هذه الاركان الثلاثة اطلق عليها ضعيفة او شاذة او باطلة ، سواء أكانت عن السبعة او عمن هو اكبر منهم[4] » .

وكان سيبويه يأخذ احياناً بقراءة الجمهور ، حين يرى انها توافق كلام العرب ، فان وجد قراءة تخالف قراءة الجمهور يهمل ذكرها ولا يعرض لها[5] ، ومثله

(١) النشر ١/ ١٢ وانظر : الاقتراح ١٤
(٢) سورة طه ٦٣ .
(٣) الصاحبي ١١ وانظر : تفسير القرطبي ١١/ ٢١٦ .
(٤) النشر ١/ ٩ .
(٥) الكتاب ١/ ٤٢٣ وانظر : ١/ ٣٩١ .

ما فعل البصريون . فدعا ذلك الدكتور شوقي ضيف الى ان يقول : «وتوقف نفر منهم - يعني - البصريين - ازاء احرف قليلة في القراءات وحدها لا تطرد مع قواعدهم ، بينما تطرد معها قراءات اخرى آثروها[1] » . مقرراً ذلك منهجاً لهم لا يحيدون عنه . الا ان تتبع ذلك في المصادر لا يعضد الباحث الكريم ، بل يدل على ان البصريين غلطوا قراءة الجمهور ايضاً ، ووصفوا المشهور من القراءات بالضعف والشذوذ .

فقد ضعف البصريون قراءة حمزة قوله تعالى : (واتّقوا اللّه الذي تساءلونَ به والارحامِ) لأنه عطف على الضمير المخفوض دون اعادة الخافض ، حتى قال المبرد « لا تحلُّ القراءةُ بها[2] » . وهي قراءة قرأ بها ايضا عبدالله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وابراهيم النخعي، والاعمش ، والحسن البصري ، وقتادة ، ومجاهد ، وروايتها صحيحة لا سبيل الى ردها[3] ، وهل بعد قراءة هؤلاء الائمة من شك في صحة ورودها او عربيتها ؟ يقول الفخر الرازي معلقاً على انشاد سيبويه بيتين غير منسوبين شاهدين على صحة هذا الاستعمال : « والعجب من هؤلاء النحاة انهم يستحسنون اثبات هذه اللغة بهذين البيتين المجهولين ، ولا يستحسنون اثباتها بقراءة حمزة ومجاهد مع انهما كانا من اكابر علماء السلف في علم القرآن[4] » . فسيبويه استشهد ببيتين مجهولين دون القراءة المشهورة والبصريون منعوا ذلك وضعفوا القراءة بل حرموها .

وغلط البصريون ابن عامر في قراءته قوله تعالى : (وكذلِكَ زُيِّنَ لكثيرٍ من المشركين قتلُ اولادَهم شركائِهِم[5]) لفصله بين المصدر المضاف الى الفاعل بالمفعول ، فمنعوا ذلك ورموا ابن عامر بالجهل باصول العربية[6] . اما الكوفيون فاجازوا

---

(1) المدارس النحوية ١٩ .

(2) شرح المفصل ٣/ ٧٨ .

(3) نفسه ٣/ ٧٨ .

(4) تفسير الفخر الرازي ٣/ ١٩٣ -١٩٤

(5) سورة الانعام ١٣٧ .

(6) الانصاف : مسألة ٦٠ .

ذلك ، وعلل ابو حيان لصحة مذهبهم « بوجودها في هذه القراءة المتواترة المنسوبة الى العربي الصريح المحض ابن عامر الآخذ القرآن عن عثمان بن عفان قبل ان يظهر اللحن في لسان العرب ، وبوجودها في لسان العرب في عدة ابيات[1] » . واستشهد الفراء على صحة هذا الاستعمال بقول الشاعر :

وزججتــهـا بمَـزَجـةٍ   زجَّ القَلــوصَ أبـي مـزادة

ووجه على ذلك قراءة ابن عامر[2] . ولم يدرك البغدادي (ت ١٠٩٣هـ) معالجة الفراء لهذه القراءة وتقليبها على اوجهها المحتملة ، فذهب الى ان الفراء يطعن بابن عامر[3] ، من حيث انه يصحح قراءته .

واجمع البصريون على تغليط قراءة نافع مقرىء المدينة قوله تعالى : (ولَكُم فيها معائِش)[4] بالهمز ، اذ يجب ان تقرأ معايِش لأن الياء اصلية في الكلمة[5] ، في حين هي مثل مصائِب ومكائِد اللتين غلطت العرب كلها في لفظهما مهموزتـين ، سوى كونها وردت في قراءة سبعية ، فلا يمكن ان تكون القاعدة اولى من قراءة نافع واصح من لغة العرب ، ومثل هذا كثـير في تغليط قراءة نافـع وتضعيفهـا[6] ، او وصف قراءة عبد الله بن مسعود بالشذوذ ، فقد قرأ قوله تعالى : (وليُسجَنَنَّ عتّى حين)[7] بأبدال الحاء عينا من حتى[8] . وهذا من خصائص لهجة هذيل التي ينتسب اليها ابن مسعود واطلـق اللغـويون على هذه الخصيصـة مصطلـح (الفَحْفَحَة) يريدون بذلك ذم هذه اللغة والانتقاص منها[9]، فرموا قراءته بالشذوذ[10]. وقد مر

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٢٩

(٢) معاني القرآن ١/ ٣٥٧ .

(٣) خزانة الادب ٤/ ٣١٩- ٣٢١ .

(٤) سورة الاعراف ١٠ .

(٥) البحر المحيط ٤/ ٢٧١ .

(٦) الانصاف : مسألة ٩٣ .

(٧) سورة يوسف ٣٥ .

(٨) المحتسب ١/ ٣٤٣ .

(٩) المزهر ١/ ٢٢٢ والاقتراح ٨٣ .

(١٠) الانصاف : مسألة ١٧ . وانظر : محاضرات الدكتور السامرائي (مدونتي) ٣٥ .

ان القراءات متواترها وآحادها وشاذها معتمدة جميعاً في القراءة واللغة ، والشاذ منها لا يعني بعده عن كلام العرب ، وانما يتصل هذا الوصف بقوة السند وضعفه ، يقول ابن جني : « غرضنا أن نرى وجه ما يسمى الآن شاذاً ، وأنه ضارب في صحة الروايةِ بجرانه ، آخذ من سمت العربية مهلة ميدانهِ[1] » .

نخلص من ذلك الى ان اللغويين حين فتحوا منذ اواسط القرن الثاني باب الطعن على القراءات ، ضيقوا على انفسهم وعلى الدرس اللغوي ، وكان البصريون منهم هم الذين فتحوا هذا الباب [2] ،فحرموا الدرس اللغوي مصدراً مهما من مصادره حين ابعدوا قراءات القرآن واستعمالاتها المختلفة عن مجاله واستساغوا تخطئة هذه القراءات ، ووقعوا في تناقض واضح ، لانهم اجمعوا على ان القراءات « تُؤثَرُ رواية ولا تتَجاوز[3] » ، وانها صحيحة السند الى النبي (ص) وصحابته الاوائل .

٢ ـ الحديث النبوي الشريف :

كانَ موقف اللغويين من الاستشهاد بالحديث شبيها بموقفهم من الاستشهاد بالقراءات ، من حيث انهم رفضوا ـ ولا سيما البصريين ـ الاحتجاج به في اللغة ، يقول ابو حيان : « ان الواضعين الاولين لعلم النحو المستقرئين (كذا) للاحكام من لسان العرب كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر والخليل بن احمد وسيبويه من ائمة البصريين ، والكسائي والفراء وعلي بن المبارك الاحمر وهشام الضرير من ائمة الكوفيين لم يفعلوا ذلك ـ اي الاحتجاج بالحديث ـ وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين[4] » . فحين ضيق اللغويون على انفسهم في القراءات ، عمدوا الى رافد آخر يسدون مجاريه ، فاستبعدت الاحاديث النبوية عن مصادر الدرس ، مستندين في ذلك الى سندين :

الاول : ان الحديث روي قسم كبير منه بالمعنى دون اللفظ ، وفي هذا يقول ابو

(١) المحتسب ١/ ٣٢ .

(٢) المدارس النحوية ١٩ .

(٣) الخصائص ١/ ٣٩٨ .

(٤) الاقتراح ١٧ والهمع ١/ ١٠٥ .

حيان : « انما ذكر العلماء ذلك لعدم وثوقهم ان ذلك لفظ الرسول (ص) اذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن الكريم في اثبات القواعد الكلية[١] » . ورد ذلك « بأن النقل بالمعنى انما كان في الصدر الاول قبل تدوينه في الكتب وقبل فساد اللغة ، وغايته تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به فلا فرق[٢] » . يضاف الى ذلك أن المحدثين من دارسي مصطلح الحديث قد كفوا اللغويين مؤونة الكشف عن الأحاديث الصحيحة الموثقة ، والأحاديث غير الصحيحة المشكوك فيها ، فقد محصوها ودققوا فيها سنداً ومتناً ، فخرجوا بتقسيم واضح سليم لمجموع الأحاديث ، فكان منها الصحيح والحسن والضعيف . . الخ ، وليست الأحاديث التي أجمعوا على صحة نسبتها إلى النبي (ص) لفظاً ومعنى قليلة[٣] ، ومع ذلك فقد استبعدت عن مجال الدرس اللغوي عموماً ، الا شذرات معدودة لا تكاد تذكر[٤] .

الثاني : ان بعض رواة الحديث كانوا من الاعاجم ، فوقع اللحن فيما رووه . ورد الاستاذ طه الراوي هذه الحجة بقوله : « والقول بان في رواة الحديث اعاجم ليس بشيء ، لأن ذلك يقال في رواة الشعر والنثر اللذين يحتج بهما ، فان فيهما الكثير من الاعاجم . وهل في وسعهم ان يذكروا لنا محدثاً ممن يُعتدّ به يمكن ان يوضع في صفّ حماد الراوية الذى (كان يكذب ويلحن ويكسر) ، ومع ذلك لم يتورع الكوفيون ومن نهج منهجهم عن الاحتجاج بمروياته، ولكنهم تحرجوا في الاحتجاج بالحديث . ثم لو وصل الامر برواة الحديث الى هذه الدركة من الجهل بالعربية سليقة وصناعة لما صح الاحتجاج بمروياتهم في الشريعة يجهلون العربية من طرفيها ، ولم يقل بذلك قائل[٥] » .

وذكر ان ابن الصائغ (ت ٦٨٠ هـ) وابا حيان (ت ٧٤٥ هـ) كانا من اعلام المانعين من الاستشهاد بالحديث[٦] ، وكان يقابلهما ابو الحسن المعروف بابن خروف

(١) خزانة الأدب ١/ ٥ .
(٢) نفسه ١/ ٥ .
(٣) الرواية والاستشهاد باللغة ٨٦ وما بعدها .
(٤) خزانة الادب ١/ ٥ .
(٥) نظرات في اللغة والنحو ٢١- ٢٢ .
(٦) خزانة الادب ١/ ٩ .

وابن مالك اللذين عنيا بالحديث وتكثرا من الاستشهاد به ، وتبعهما في ذلك الرضي الاسترابادي وزاد عليهما الاحتجاج بكلام اهل البيت[1] . والحق ان اللغويين الاوائل لم يتحرجوا من الاستشهاد بالحديث في اللغة قدر تحرجهم من الاستشهاد به في النحو ، اذ كانوا في اللغة اوسع اخذاً للحديث ، على خلاف واضح ايضاً بين البصريين والكوفيين ، اذ كان البصريون اكثر تزمتاً من الكوفيين حتى في اللغة ، وقد مر بنا في دراستنا للمعجمات اللغوية اعتماد المعجمات الكوفية على الحديث بقدر اكبر مما نجده في المعجمات البصرية[2] ، ومرد ذلك ـ شأن اختلاف الفريقين في الاعتماد على القراءات ـ الى تمسك البصريين بالقاعدة وتقديمها على النص ، واعتدادهم باقيستهم التعليمية الموضوعة . يقابله استعداد الكوفيين الى تغيير القاعدة ان اوجب ذلك نص معتمد ، وصدورهم عن منهج يعتد بالرواية والنقل اعتداداً بالغاً .

فمما ذكره السيوطي (ت ٩١١ هـ) ان ابن مالك استشهد بحديث النبي (ص) في الصحيحين: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» على لغة أكلوني البراغيث ، حتى صار يسميها لغة يَتَعاقبون . وذكر السيوطي ان السهيلي استشهد به ، ثم خرج الواو فيه على انها علامة اضمار ، لأنه حديث مختصر رواه البزار مطولاً كذا :« ان الله تعالى ملائكة يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنّهار[3] ». وعلى هذه الرواية فانه لا يصحح لغة اكلوني البراغيث . والحق ان هذه اللغة صححها القرآن الكريم بقوله : (وأَسرّوا النّجوى الذينَ ظَلَموا)[4] ،وصححها حديثُ النبي (ص) المروي في الصحيحين ، وصححها الشعر العربي كقول عمرو بن ملقط الطائي :

يلومونَنــي في اشتــراءِ النّخيل أهلي فكلهُــم يَعذلُ[5]

---

(١) الاقتراح ١٧ وخزانة الادب١/ ٩ .

(٢) العين (الجزء المطبوع) ٧٠ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٢١ ، ١٢٩ ، ١٣٧ والتقفية ٧٢ ، ٢٠٠ ، ٢٢٨ ، ٣٩٨ ، ٤٨٢ ، ٦٥٣ والغريب المصنف ٥٤٩ وتهذيب الالفاظ ٦٧٢ .

(٣) الاقتراح ١٩ .

(٤) سورة الانبياء ٣ .

(٥) شرح شواهد المغني ٢٦٥ .

وصححها الاستعمال السامي القديم ، لان « الاصل في اللغات السامية ان يعامل الفعل فيها معاملته في لغة اكلوني البراغيث ، وقد بقي من هذا الاصل في العربية امثلة في اللهجات المختلفة[1] » . وعلى الرغم من كل ذلك فان اللغويين منعوا استعمال هذه اللغة ، وانتقصوا منها بنسبتها الى طيء وبلحارث بن كعب وأزد شنوءة[2]، من القبائل التي كثيراً ما نسبوا اليها ما لا يروق لهم من الاساليب اللغوية ، حتى عد هذا الاسلوب من لحن الخاصة[3] . وما ذلك الا لأن هذه اللغة لم تستوعبها قواعدهم ، وان هذه النصوص الموثقة تبطل اقيستهم ، فرفضوها جميعاً ، بل رفضوا الاستشهاد بالحديث جملة ، خوفا على القاعدة من ان يصيبها التغيير .

٣ ـ الشعر :

لم يكن امر الشعر مختلفاً كثيراً عن سواه من مصادر اللغة كالقراءة والحديث ، وحين اقبل الدارسون عليه ، لم يكن مهيأ كله لديهم ، فقد ضاع اكثره من يديهم ، يقول ابن سلام : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم اصح منه ، فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالامصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤ ولوا الى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فالفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك ، فحفظوا اقل ذلك وذهب عنهم منه اكثره[4] » . وجاء عن يونس بن حبيب ان ابا عمرو بن العلاء قال : « ما انتهى اليكم مما قالته العرب الا اقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير[5] » . وبذلك خسر الدرس اللغوي مادة مهمة تكشف له كثيراً من القواعد والاساليب والاستعمالات مما بقي غامضاً تتنازعه الآراء والاجتهادات منذ القديم .

---

(١) فصول في فقه العربية ٨١ .

(٢) شواهد التوضيح والتصحيح ١٩٢ وشرح درة الغواص ١٥٢

(٣) درة الغواص ٦٥ .

(٤) طبقات فحول الشعراء ١٦ .

(٥) نفسه ١٦ .

وعلى الرغم من هذا فان اللغويين وقفوا مما وصل اليهم من الشعر مواقف انبنت على اسسهم المنهجية التي مر بيانها ، فقد ضيقوا على انفسهم في الاستشهاد بالشعر ايضاً ، اذ اشترطوا فيما يستشهد به التقدم في العصر ، والبداوة وعلم قائله بالعربية ، وبصحة نسبته اليه ، ولم يخرج عن هذه الشروط احياناً الا المتأخرون من اللغويين كما سنرى ، على تفاوت بين المتقدمين منهم في شدة الاخذ بهذه الشروط ، اذ كان البصريون اكثر تمسكاً بها من غيرهم . فقد قسم اللغويون الشعراء الى طبقات[1] :

الطبقة الاولى : الجاهليون : امثال امرىء القيس وزهير والنابغة والاعشى .
الطبقة الثانية : المخضرمون : امثال حسان بن ثابت وكعب بن زهير والحطيئة .
الطبقة الثالثة : الاسلاميون : امثال الفرزدق وجرير والاخطل وذي الرمة .

يقول البغدادي : « فالطبقتان الاوليان يستشهد بشعرهما اجماعاً . واما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها . وقد كان ابو عمرو بن العلاء وعبد الله ابن ابي اسحاق والحسن البصري وعبد الله بن شبرمة يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة واضرابهم . . . في عدة ابيات اخذت عليهم ظاهراً ، وكانوا يعدونهم من المولدين ، لانهم كانوا في عصرهم ، والمعاصرة حجاب[2] » . فوقفوا الاستشهاد عند اواسط القرن الثاني ، وابراهيم بن هرمة آخر من يستشهد بشعره[3] ، يقول ابن قتيبة : « حدثني عبد الرحمن عن الاصمعي انه قال : ساقة الشعراء ابن ميادة وابن هرمة ورؤبة وحكم الخضري ومكين العذري وقد رأيتهم أجمعين[4] » .

وحين تكون المعاصرة حجاباً دون الاستشهاد بالشعر ، ورؤية الشاعر سبباً لعده من الساقة الذين يقف عندهم عصر الاستشهاد ، تبدو المسألة نسبية محضة لا تقوم على اساس علمي متين ، فالشعراء الذين عاصروا الطبقة الاولى من اللغويين متقدمون بالنسبة للطبقة الثانية منهم او الثالثة ، والعكس صحيح ايضاً فالشعراء

(١) خزانة الادب ١/٣ .
(٢) خزانة الادب ١/٦ .
(٣) الاقتراح ٢٧ والخزانة ١/٦ ، ٢٠ .
(٤) الشعر والشعراء ٧٢٩ .

الذين تقدموا في العصر عن اللغويين المتأخرين عاصروا اللغويين الذين كانـوا في زمانهم ، وهكذا . يقول ابن رشيق : « كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالاضافة الى من كان قبله . وكان ابو عمرو يقول : لقد احسن هذا المولد حتى لقد هممت ان آمر صبياننا برواية شعره ، يعني بذلك شعر جرير والفرزدق ، فجعله مولداً بالاضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين . قال الأصمعي : جلسـت اليه عشر حجّـج فما سمعتـه يحتـج ببيت اسلامي[1] » .

فالاساس اذن اساس نفسي لا علمي ، فابو عمرو بن العلاء يعترف للفرزدق وجرير بأن شعرهما جدير بالروايةلولا تأخر زمنه بالنسبة إلى عصره،كما اعترف بهذا لمعاصرهما الاخطل فقال : « لو ادرك الاخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما فضلـت عليه أحداً[2]» . ومثل هذا ما قال الاصمعي عن بشار : «بشار خاتمة الشعراء ، والله لولا ان ايامه تأخرت لفضلته على كثير منهم »[3] . فدراسـة شعـر هذه الطبقـة ، وبخاصة شعر الفرزدق وجرير والاخطل ومن بعدهم بشار ، هدى ابا عمرو بن العلاء والاصمعي الى ان يعترفا لهؤلاء الشعراء بالجودة والتمـكن وسلامـة اللغـة ومجاراة العربية حتى لم يجدا ما يمنع من الاحتجاج بشعرهم سوى تأخر العصر . وهل بعد هذا ما هو اشد تنكبا عن المنهج العلمي ؟

وبعد ان استقر رأي اللغويين بعد ابي عمرو بن العلاء على صحة الاستشهاد بشعر الطبقة الثالثة من الناحية النظرية ، عمد اللغويون الى مراجعة اشعـار هذه الطبقة ، للوقوف على بداوة هذا الشاعر وحضارة ذاك ، لان البداوة كانت شرطاً من شروط ما يحتـج به من الشعـر ، وشملـوا بهـذه المراجعـة بعض شعـراء الطبقتـين الاولين ، فكانت حصيلة هذه المراجعة ان حكموا على قسم من الشعراء بالضعف في اللغة وعدم الفصاحة ولين اللسـان ومـا الى ذلك ممـا يبعـد شعرهـم عن مجـال الاستشهاد ، ولنقف على طرف من احكامهم تلك :

(١) العمدة ١/ ٥٦ .
(٢) الاغاني ٧/ ١٧٤ .
(٣) الاغاني ٣/ ٢٣ .

يقول المفضل الضبي : « كانت الوفود تفد على الملوك بالحيرة ، فكان عدي ابن زيد يسمع لغاتهم فيدخلها في شعره[1] » . ويقول ابن سلام : «كان عدي بن زيد يسكن الحيرة ويراكن الريف فلان لسانه وسهل منطقه فحمل عليه شيء كثير وتخليصه شديد »[2] . ويقول الاصمعي : « عدي بن زيد وابو دواد الايادي لا تروي العرب اشعارهما ، لأن الفاظهما ليست بنجدية[3] » . ويقول ابن قتيبة عن امية بن ابي الصلت : « واتى بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب . .وعلماؤنا لا يرون شعره حجة في اللغة »[4] . ويقول الاصمعي عن القحيف العامري العقيلي : « ليس بفصيح ولا حجة[5] » ويقول هو ايضاً : « ذو الرمة طالما اكل المالح والبقل في حوانيت البقالين[6] » . وحين استشهد ابو حاتم ببيت الكميت :

أَبْرِقْ وأرعِدْ يا يزيـ ـدُ فما وعيدُكَ لي بضائر

قال الاصمعي : « الكميت جرمقاني من اهل الموصل ليس بحجة ، ولكن الحجة هو الذى يقول :

إذا جاوزتْ من ذاتِ عرقٍ ثنيةً فقل لأبي قابوس ما شئتَ فارعدِ

وهو شاعر جاهلي وشاعرك متأخر[7] » . فاضاف الى تأخر عصر الكميت - وهو من دواعي رفض شعره - كونه من اهل الموصل ، يعني بذلك انه متحضر ، وكفى بهذا دليلاً على فساد لسانه .

ولو اعدنا النظر في هذه الاحكام وفي امثالها مما ضمته المصادر القديمة ، لخرجنا من ذلك بنتائج ، منها :

١ـ انها صادرة عن لغويين بصريين ، فأغلبها منسوب الى الاصمعي ، والباقي الى

(١) الموشح ٧٣ .
(٢) نفسه ٧٣ .
(٣) نفسه ٧٣ .
(٤) الشعر والشعراء ٤٢٩ .
(٥) الموشح ٢٢٠ .
(٦) الخصائص ٣/ ٢٩٥ .
(٧) امالي القالي ١/ ٩٦ .

ابي عمرو بن العلاء وابن سلام وابن قتيبة وغيرهم ، ولا نكاد نقف على مثلها منسوباً الى كوفيين ، وما نقلناه من قول المفضل الضبي ، ليس فيه ما يشعر بنقد موجه الى عدي بن زيد ، بقدر ما يشعرنا من تقرير حقيقة ، ربما لا يراها المفضل عيباً .

٢ ـ انها تنسجم مع اسسهم المنهجية في الاستقراء وتنبني عليها ، فمثلما وقفوا في الاستقراء عند حدود مكان معين لا يتجاوزونه ، وقفوا في الشعر على حدود زمان معين لا يتجاوزونه ، ومثلما اشترطوا البداوة فيمن يؤخذ عنه من الاعراب ، وحظروا الاخذ عمن سكن الحضر منهم ، فعلوا مثل ذلك مع الشعراء . وهذا التوافق بين الاسس في المجالين ، وصدور التطبيق عن النظرية ، يدل على وحدة منهج تمسك بها البصريون .

٣ ـ انهم كانوا يصدرون الى هذه الاحكام من احترام بالغ لقواعدهم واقيستهم ، وهو ما تلمسناه في مواقفهم من القراءة والحديث ايضاً ، اذ وجدوا في اشعار هؤلاء ما يخرج على قواعدهم المقررة واقيستهم التي لا تتغير ، فرموا قائليها بما رموهم به ، ولعل اوضح مثل على ما نزعمه موقف الاصمعي من بيت الكميت الذي استشهد به ابو حاتم ، ذلك ان الكميت استعمل الفعل (أرعَدَ) بصيغة الرباعي ، وكان يجب ـ كما يريد الاصمعي ـ ان يستعمله بصيغة الثلاثي كما ورد في بيت الشاعر الجاهلي ، ففي استعمال الكميت خروج عن الاصل ، والكميت على هذا الاساس « جرمقاني من اهل الموصل ليس بحجة » . على اننا لو شئنا ان نتلمس مثل هذا الخروج عن القواعد لدى الشعراء الجاهليين ، لوجدنا الشيء الكثير ، ولعل اهم ذلك ما سمي بالاقواء ، يقول الدكتور رمضان عبد التواب : « ويمكننا ان نعد من اللحن كذلك ، ما يسمى لدى العروضيين بالاقواء . والاقواء في رأي اللغويين المحدثين ليس في الحقيقة من الخطأ في الموسيقى ، كما يريد اصحاب العروض ان يحملونا على هذا الفهم ، بل هو في الواقع خطأ نحوي[1] » . غير ان الاطمئنان النفسي الى الشعر الجاهلي باعتباره قديماً ، هو الذي حال دون اعتبار الاقواء لحناً .

---

(١) فصول في فقه العربية ٧٥ .

ويبدو ان حملة اللغويين على معاصريهم من الشعراء وتلحينهم اياهم ، كقول الآمدي : « اللحَّن لا يكاد يَعرى منه احد من الشعراء المحدثين[1] » او قوله : « والمتأخرون لا يكادون يَسلمون من اللَّحن ، وهو في اشعارهم كثير جداً[2] » ، دفعت نفراً من الشعراء الى تعلم النحو اغناء لقرائحهم وتقوية لسلائقهم ، كالكميت والطرماح من شعراء الطبقة الثالثة ، وبشار وابي تمام واسحاق الموصلي والشريف الرضي وحفص الاموي من شعراء الطبقة الرابعة التي نما في الدرس اللغوي مذهب يجوِّز الاستشهاد بشعر من يوثق بعربيته من شعرائها ، كان الخليل ابن احمد قد رسم طريقه ، وبدأ العمل به منذ ان وضع العين ، فقد مر انه استشهد بشعر بشار وحفص الاموي في معجمه[3] ، ثم تلقف عدد من اللغويين منه هذا المذهب ، واقتنعوا بصحته وعملوا به ، فاستشهد البندنيجي بشعر اسحاق الموصلي[4] ، واستشهد الجوهري بشعر اسحاق الموصلي ايضاً وبشعر ابي تمام[5] ، واستشهد الزمخشري بشعر ابي تمام ، واعتذر لذلك بقوله : « وهو وان كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة ، فهو من علماء العربية ، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه[6] » . واستشهد ابن منظور من المتأخرين بشعر الشريف الرضي[7] ، وسوى هؤلاء كثير جداً .

غير ان الاصمعي لم يغير من موقفه من الكميت والطرماح على الرغم من اعترافه لهما بتعلم النحو ، فيقول : « الكميت تعلم النحو وليس بحجة وكذلك الطرماح ، وكانا يقولان ما قد سمعاه ولا يفهمانه »[8] ، ويقول ايضا : « الكميت ابن زيد ليس بحجة ، لأنه مولد ، وكذلك الطرماح »[9] ، ويقول عن شعر

---

(١) الموازنة ١/ ٢٨ .
(٢) نفسه ١/ ٤١٦ .
(٣) العين (الجزء المطبوع) ١٨٣ ، ١٩٥ ، ٢٧٢ .
(٤) التقفية ٢٧٩ .
(٥) الصحاح : حلأ ، مضر .
(٦) الكشاف ١/ ٤٣ .
(٧) لسان العرب : الا .
(٨) الموشح ٢٠٩ .
(٩) نفسه ٢٠٨ .

الكميت : « ليس هذا بكلام فصيح »[1] . ومع ان الكميت كان من شعراء الطبقة
الثالثة الا ان هذا لا يمنع الاصمعي من تفضيل بشار عليه من الناحية اللغوية ، اذ
يقول : « لم يتعلق على بشار بشيء ، وتعلق على الكميت »[2] ، واذا كان الكميت
لم يحتج بشعره لتأخر عصره ، فكيف ببشار ؟ الذي يبدو ان ذلك يعود الى احد
سببين محتملين :

الاول : يتعلق بالتقرب الى بشار خوفا من لسانه وقد عاصر الاصمعي بشارا ، ذلك
ان سيبويه احتج « في كتابه ببعض شعره تقربا اليه ، لأنه كان هجاه لترك الاحتجاج
بشعره ، ذكره المرزباني وغيره[3] » . واذا كان كتاب سيبويه لا يعضد هذه الرواية ،
فانها تقفنا على مبلغ تحرج اللغويين من التعرض لشعره بالنقد ، بل على اهتمام بشار
بعناية اللغويين بشعره .

الثاني : يتعلق بلغة الشعر عند بشار ، فالظاهر انه لم يكن في شعره خروج عن
الاقيسة البصرية ، كالذي وجدوه في شعر الكميت ، ولعل (البصرية) هي التي
طبعت شعر بشار وتعصب الاصمعي بطابع واحد ، ولذا لم يتعلق على بشار بشيء
وتعلق على الكميت . وهذا الموقف من الكميت ـ على هذا التفسير ـ صنو موقف
عبد الله بن أبي اسحاق وابي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر وسواهم من
البصريين من شعر الفرزدق[4] ، وقد مر ان الفرزدق في رأي البصريين الأوائل ممن
يرفض شعره ولا يحتج به[5] ، لأن فيه ـ كما يظهر من نقداتهم عليه ـ خروجا على
الاقيسة .

ودفع كل ذلك اللغويين الى العناية بنسبة الشعر الى قائله ، بل اشترطوا هذه
النسبة فيما يستشهد به منه ، يقول البغدادي : « لا يجوز الاحتجاج بشعر او نثر لا
يعرف قائله ، مخافة ان يكون ذلك الكلام مصنوعا او لمولد او لمن لا يوثق بكلامه[6] » .

---

(١) الموشح ١٩٧ .
(٢) الموشح ١٩٤ .
(٣) الاقتراح ٢٧ .
(٤) طبقات ابن سلام ١٥ .
(٥) خزانة الادب ١/ ٣ .
(٦) نفسه ١/ ٨ .

وهذا الذي يمنعه البغدادي لم يكن كذلك في دراسات اللغويين الاوائل ومعجماتهم ، ففيها الكثير من الشعر غير المنسوب ، وكان الخليل والكسائي وابو عمرو الشيباني يسمعون الشعر من افواه الشعراء فيحتجون به في اللغة دون تسمية القائل ، وكانوا هم انفسهم لا يعرفون القائل احيانا[1] . ومن اقرب الامثلة الى هذا صنيع سيبويه في الكتاب « فان سيبويه اذا استشهد ببيت لم يذكر قائله ، واما الابيات المنسوبة في كتابه الى قائليها ، فالنسبة حادثة بعده ، اعتنى بنسبتها ابو عمر الجرمي[2] » . فلم تكن نسبة البيت الى القائل حتى ذلك الحين شرطا في قبوله حجة في اللغة ، وانما جد ذلك في الدرس اللغوي بعد ان فشا الكذب في رواية الشعر ، واصطناعه للاغراض التعليمية ، والخوف من ان يكون قائله ممن لا يوثق بعربيته من الشعراء المحدثين ، ويكفي ان نمثل له بتعليق احد رواة كتاب النوادر على قول الشاعر : (وما عهد كعهدك يا أماما) قال: « انشدنا هذا البيت ابو العباس محمد بن يزيد عن عمارة على غير ضرورة ، وهذا شيء يصنعُه النحويون ليعرِّفوك كيف مجراه متى وقَعَ في شعر[3] » . فلم يكتف بان صنعه حتى نسبه الى عُمارة ، ومثله كثير في كتب اللغة والنحو .

٤ـ اللهجات :

اشرنا الى انه قد استبعدت اللهجات التي جاورت الامم الاعجمية عن مصادر الدرس اللغوي ، فتلك التي جاورت الفرس والنبط والحبشة والروم وغيرها من الامم وحتى بعض القبائل الحجازية ، استبعدوها لتأثرها بلغات تلك الامم[4] ، والسبب المباشر في هذا الاستبعاد ، ان اللغويين شموا في هذه اللهجات الفاظا حبشية وعبرانية وسريانية وفارسية وغيرها من الكلمات الدخيلة ، ويمكننا ان نناقش ذلك من جهتين :

الأولى : ان وجود مثل هذه الالفاظ في اللغات السامية لا يدل دلالة قاطعة على دخولها

(١) تاريخ بغداد ١١/ ٤١١ والمزهر ١/ ١٤٠ ، ١٤١ .
(٢) خزانة الادب ١/ ١٧٨ .
(٣) النوادر ٣١ .
(٤)الاقتراح ١٩ والمزهر ١/ ٢١١ وانظر : مقدمة ابن خلدون ٦٤٩ .

الى العربية ، وانما يشير الى احتمال ان تكون هذه الالفاظ ـ سوى الفارسية منها ـ عربية في الاصل ، وهي مشتركة بين العربية واخواتها ، لأن العربية كما هو معروف في تقسيم الاسر اللغوية من اللغات السامية[1] .

الثانية : ان قسما من الدارسين ذهبوا الى انه ليس في لغة القرآن والعربية لغة اجنبية او الفاظ دخيلة ، وانما هي الفاظ عربية لانها خضعت لناموس اللغة وجرت على عاداتها وقواعدها[2] .

ويبدو ان ايمان بعض الدارسين بتوقيف اللغة وبانها موحاة الى آدم والى الانبياء من بعده الى خاتم الانبياء (ص) حيث وقفت بلا تطور لانها اكتملت اصولها ، هو الذي دفعهم الى تفسير خلافات اللهجات البعيدة بانها خروج عن اصول اللغة ، في حين تكون هذه الخلافات امرا طبيعيا للتطور الذى يولده الاستعمال . واول من اشار الى فكرة توقيف اللغة ابن عباس في تفسيره للآية الكريمة : (وعلَّمَ آدمَ الاسماءَ كلَّها)[3] ، ثم ذهب مذهبه عدد من الدارسين اشهرهم واشدهم حماسا ابن فارس[4] ، وسيأتي تفصيل ذلك في مكانه من الرسالة .

نتائج :

نخلص من كل ما سبق الى حقائق عدة كان ينبغي ان يلتفت اليها الدرس اللغوي في مناهجه ، اهمها :

١ ـ تشير الاختلافات اللغوية بين القبائل الى ان اللهجات العربية كانت ما تزال تحتفظ بعاداتها اللغوية الأولى، ولم تخضع لسلطان لهجة قريش التي فرضت سيطرتها فيما بعد على لغة التخاطب وصارت لغة العرب عامة . وان اللهجة التي فرضت سلطانها كان قد نالها بعض التحريف على السنة هذه القبائل بسبب عاداتهم اللغوية القديمة ، فنشأت بسبب هذا اختلافات ظهرت في قراءة القرآن .

---

(١) علم اللغة ١٧٠ ونشأة اللغة عند الانسان والطفل ٥٠

(٢) الصاحبي ٢٩ .

(٣) سورة البقرة ٣١ .

(٤) الصاحبي ٥ والمزهر ١/٨ .

٢ ـ ان اللهجة التي فرضت سيطرتها وصارت لغة الادب ولغة المحادثة الى حد ما ، إنما تمثل مزيجاً موحداً من لهجات القبائل العربية ، ولم تعد تمثل لهجة قبيلة بعينها هي قبيلة قريش . ذلك انه ليس بين المطولات الجاهلية خلافات لغوية واضحة ، في حين اختلف الشعراء في انتسابهم الى القبائل ، مما يشير الى ان هذه المطولات منظومة بهذه اللغة الموحدة . وان القرآن انما نزل بهذه اللغة ايضا ، بدليل قوله تعالى : (وهذا لسانٌ عربيٌّ مُبين)[١] ، وقوله تعالى : (انّا أنزلْناهُ قرآنا عربيا)[٢] ، وقوله تعالى : (كتابٌ فُصّلت آياته قُرآناً عربياً)[٣] ، وقوله تعالى : (وكذلك او حينا اليك قرآناً عربيّا)[٤] ، وقوله تعالى :(إنا جعلناه قُرآنا عربيّا)[٥] ، وهذه اللغة التي وصف بها القرآن هي اللغة التي ذابت فيها لهجات القبائل واضفي عليها طابع وحدها في الاسلوب والمقومات اللغوية . غير ان عدم التفريق بين هذه اللغة المشتركة واللهجات ـ كعدم التفريق بين لغة الشعر ولغة النثر ـ اوقع اللغويين بمزالق بعيدة .

٣ ـ ان مصادر الدرس اللغوي هي كلام العرب في جميع بيئاته اللغوية بسماته المشتركة وخصائص اسلوبه وطريقة التأليف فيه ، ولا يفترض بالدارسين ان يعزلوا قوما عن مصادر الاستشهاد ، ولا ضربا فصيحا من ضروب الكلام ، فالقراءة المتواترة والحديث الصحيح والشعر والخطب والامثال وكلام العرب الموثوق بفصاحتهم ، كل اولئك مصادر مهمة للدرس اللغوى .

* * *

التقدير والتأويل :

وهما من الاسس المنهجية التي اخذ بها اللغويون ، على ان الاخذ بهما في النحو اظهر منه في اللغة ، غير ان دراسة اللغة لم تسلم منهما أيضا ، وأكبر الظن ان لجوء اللغويين الى التقدير والتأويل في اللغة نابع من اعتقادهم بانها ثلاثية الحروف ،

---

(١) سورة الشعراء ٥٦ .
(٢) سورة طه ٢٠ .
(٣) سورة فصلت ٤١ .
(٤) سورة الشورى ٤٢ .
(٥) سورة الزخرف ٤٣ .

وانها ثابتة لا تتغير ، ذلك ان التقدير « يرتكز على دعوى اعادة صياغة المادة اللغوية ، ويبني هذه الدعوى على تصور سموط بعض اجزاء هذه المادة ذاتها من التركيب[1] » . فلا بد ـ اذن ـ ان يكون هناك تقدير للحرف الثالث في كل الصيغ التي وردت ثنائية الاصوات ، وان الحرف الثالث هذا حذف لعلة ، ففي (يد) مثلا قالوا ان اصلها (يَدَيٌ) بدليل جمعها على ايدي ، وقد حذفت الياء لثقل التنوين والدال ، وكذلك (اب) و (اخ) واضرابهما ، فهي جميعاً على وزن (فَعَل) لأن اصلها (أَبَوٌ) و (اخَوٌ)[2] .

والحق ان هذه التقديرات لم تكن لتوجد في اللغة لولا قولهم بتوقيف اللغة وقدمها واحتفاظهم بالاشكال القديمة التي حرصوا على ان تكون هي الاشكال التي يسار عليها في التعبير ، شأنهم في ذلك شأن فلاسفة اليونان ، وافتراضهم المثل العليا ، اذ كل شيء لديهم مقيس على تلك المثل العليا ، وكذلك الامر في اللغة ، فكل التقديرات والتأويلات نشأت بفعل القياس على تلك القواعد الثابتة ، ذلك « ان التأويل كان الوسيلة التي لجأ اليها النحاة للتوفيق بين القواعد وبين النصوص المخالفة لها ، المنسوبة في الوقت نفسه الى عصر الاستشهاد[3] » . ومن ذلك ما اشرنا اليه من رجع الكلمات الثنائية الى ثلاثية ، على اساس انها في الاصل كذلك .

ونظرية الثنائية فيها جانب كبير من الصحة ، ذلك اننا نرجح مع غيرنا ان اللغة كانت ثنائية في الاصل ، ثم انتقلت الى المرحلة الثلاثية[4] . وهذا الانتقال كان بزيادة حرف علة او بالتضعيف او بزيادة حرف ساكن ، فمادة (رد) مثلا ثلثت هكذا : رادَ ، ردَّ ، ردَمَ[5] . وهذا لا يعني ان كل كلماتها صارت ثلاثية وانما الغالب الاعم منها ، وبقي في اللغة كلمات ثنائية تعبر عن المرحلة السابقة . وحين نريد ان نجمع الكلمة الثنائية نلجأ الى تثليثها قبل الجمع ، لأن الجمع من احكام الثلاثي ،

---

(١) اصول التفكير النحوي ٢٨٣ .

(٢) شرح الاشموني ١/ ٨٠ وانظر : اساس البلاغة ١٠ ، ١٣ ، ٧١١ .

(٣) اصول التفكير النحوي ٢٦١ .

(٤) نشوء اللغة ونموها واكتهالها ١٠٧ والمعجمية العربية ٢١٩ ، ٢٢١ .

(٥) سر الليال في القلب والابدال ٥ والفلسفة اللغوية ٢١ ، ٥٧ ، ٩٩ ومقدمة لدرس لغة العرب ١٢٤ .

ففي (يد) مثلا نجمع على ايدي لأن المفرد الثلاثي (يَدَيُ) ، ومثلها (اب) التي تجمع علىآباء ، وهي في الاصل (آباو) جمع ابو ، ابدلت ابدال سماء وبناء اللتين هما في الاصل (سماو) و(بناي) لأن القاعدة تقضي بانه اذا تطرفت الواو او الياء وكان قبلهما الف زائدة قلبتا همزة[1] .

والتثليث انما يكون بحرف يزاد كثيرا ، واللغة نفسها اتخذت من اصوات المد او التضعيف احرفا لزيادة الكلمات الثنائية ، فمن امثلة زيادة اصوات المد : (وُوفقَ) وامثاله ، و (قام) والافعال الجوف ، و (رمى) و (دعا) وكل الافعال الناقصة . ومثال زيادة التضعيف قول ابي زبيد الطائي :[2]

ليتَ شعري وأين منّي ليت إن ليتا وإن لواً عناءُ

وقد نص الخليل على ان التضعيف الذي زيد في (لو) انما هو علامة الحرف الثالث[3] ، مشيرا بذلك الى التثليث .

واصوات المد في العربية وسائر اللغات السامية لا تعد من اصول الكلمة ، وقد لا ترسم في الكلمة المكتوبة . وقد اشار الخليل الى ان الضمة والفتحة والكسرة وما يتبعها من واو والف وياء زوائد ،يتوصل بها الى النطق بالساكن ، والاحرف السواكن هي اصل الكلمة[4] . والكلمة - في العلم اللغوي الحديث - لا تدل على معناها الا من خلال الاحرف الساكنة ، ولا دخل لاحرف المد في تحديد المعنى ، اذ لا يتغير المعنى اذا حذفت هذه الاحرف[5] . وتنبه الخليل الى ذلك امر غريب ، اذ لا يمكن ان يكون الا لمن يعرف اللغات السامية ، وهو لا يعرف ايا منها .

واذا كان تقدير الحرف الثالث في الثنائيات اهم مظاهر هذا المنهج في اللغة فان للتقدير والتأويل مظاهر متعددة في النحو ، لأن النحاة - كما اشرنا - اكثروا منه في اغلب ابواب النحو ، ومن امثلة ذلك :

---

(1) شرح ابن عقيل ٣/ ٢٣٥ .

(2) شعر أبي زبيد الطائي ٢٤ .

(3) العين (الجزء المطبوع) ٥٥ .

(4) كتاب سيبويه ٢/ ٣١٥ .

(5) اللغات السامية (ولفنسون) ٢٨٣ وفقه اللغة (وافي) ١٢ وفصول في فقه العربية ٣٠ - ٣١ .

١ ـ تقدير فعل محذوف بعد (اذا) و (لو) في الجملة الشرطية ، ففي قول طَرَفة[١] :

إذا القومُ قالوا من فتى خلتُ أنّني عُنيتُ فلم أكسل ولم أتبلّد

قالوا ان الجملة هنا اسمية ، لانها مصدرة باسم ، واذا : اداة شرط ، والقوم : فاعل لفعل محذوف هو فعل الشرط والمحذوف يفسره المذكور ، والتقدير : اذا قال القوم قالوا . ومثل هذا ما قالوا في قوله تعالى : (إذا السّماءُ انفطرت)[٢] وقوله تعالى : (اذا السماءُ انشقّت)[٣] واشباه ذلك .[٤] وأوّلَ البصريون قوله تعالى : (قل لو انتُم تملكون)[٥] بأنه : لو تملكون تملكون[٦] . وما ذلك الا لأنهم عدّوا الجمل التي دخلت عليها (إذا) و (لو) جملاً اسمية ، متمسكين باساس شكلي هو ان هذه الجمل مصدرة باسم ، ولما كانت القاعدة لا تجوز دخول هاتين الاداتين على الجمل الاسمية ، قدروا لها افعالا تتصدر هذه الجمل ، في حين ان هذه الجمل لا تعدو كونها جملا فعلية وان تصدر الاسم فيها ، اذ لا قيمة لهذا التصدر مقابل ما يفصح عنه السياق الفعلي فيها .

٢ ـ تقدير فعل ناصب لمثل : أهلاً وسهلاً ، وهنيئا مريئا ، فقدروا في الاولى : جئت أهلاً وحللت سهلاً ، وفي الثانية : أكلت هنيئاً وشربتَ مريئاً .

٣ ـ تقدير فعل ناصب للمصادر المنصوبة ، مثل : أتوانياً وقد جدَّ قرناؤك ، وصبراً في مجال الموت صبراً ، فقدروا في الاولى : أتتوانى توانياً ، وفي الثانية : إصْبِرْ صبراً .

٤ ـ تقدير فعل ناصب لمثل: الاسدَ الاسدَ ، واياكَ والاسدَ ؛ فقدروا في كليهما الفعل (إحذَرْ) .

---

(١) شرح القصائد التسع المشهورات ١/ ٢٥٣ وشرح المعلقات السبع ١٥٣ .

(٢) سورة الانفطار ١ .

(٣) سورة الانشقاق ١ .

(٤) المغني ١١ .

(٥) سورة الاسراء ١٠٠ .

(٦) المغني ٢٦٨ .

٥ ـ تقدير فعل ناصب لمثل : القرطاسَ ، والعصفورَ ، فقدروا النصب بفعل واجب الحذف او ترك اظهاره .

٦ ـ تقدير فعل ناصب للمنادى : فكل منادى في اصله مفعول به لفعل نابت عنه (يا) النداء ، وقدروه (ادعو) .

ولا نريد ان نطيل في ذكر الامثلة ، او نوسع من مناقشتنا لها ، لانها تدخل في ميدان لم تعن بدراسته هذه الرسالة وهو النحو ، ولكنا نذهب في تفسير النصب في الاسماء والمصادر المذكورة في الامثلة السابقة ، الى انها وقعت في سياق فعلي ، او كانت في جو فعلي ، او كانت هي نفسها مستعملة استعمال الافعال ذاتها . فتكرار الاسد في قولنا : الاسدَ الاسدَ سوغ عدم التصريح بالفعل ، والتكرار نفسه ناب مناب الفعل ، والقرطاس انما نصب لأنه يقال لمن كان متهيئا لرمي شيء ، فالقائل يرى هيئة الرامي والظروف المحيطة به واستعداده للرمي ، وكلها حالة تدعو الى عدم التصريح بالفعل ، فالقرطاس منصوب لانه وقع في سياق فعلي . فالظرف العام دعا الى ان تكون هذه الالفاظ جميعا منصوبة بفعل مضمر ، او لانها وقعت في سياق فعلي . وليس هناك افعال حذفت نعمل على تقديرها في اللغة او نؤ ول الكلام على اساس وجودها فيه ، لان هذه الافعال لم ينطق بها في يوم من الايام .

* * *

العمل :

ورد ذكر العمل مصطلحا في اللغة في زمن الخليل ، ولعله اول من استخدمه في الدرس اللغوي ، يقول سيبويه : « زعم الخليل ان هذه الحروف ـ اي ان واخواتها ـ عملت عملين الرفع والنصب[1] » ، ثم شاع استخدامه وتصيده في اللغة لدى الدارسين من بعده . ولا ريب ان المصطلح متمحض للنحو دون اللغة ، ذلك ان فكرة العمل تقتضي ان يكون هناك تركيب يتضمن العامل والمعمول ، ويظهر فيه اثر الاول في الثاني ، ودراسة العمل في هذا التركيب من ميادين النحو . وما دام الامر كذلك فليس من دأبنا ان نطيل في دراسته او نوسع من الكلام على مظاهره وامثلته ، لأن ذلك يبدو خارج الحدود المرسومة للرسالة . غير ان الذي نريده هنا من

(١) الكتاب ١/ ٢٨٠ وانظر فيه : ١/ ٢٨٢ ، ٤٨ ، ٤٣٥ ، ٤٤٩ ، ٢٥٥ والمغني ٢٣٨ .

ذكر العمل ، ان نتعرض الى اثر دراسة الاصوات اللغوية في انتقال فكرة العمل منها الى النحو ، وقد سبق الى تلمس ذلك استاذنا الدكتور المخزومي[1] .

فحين درس الخليل الاصوات في العربية دراسة دقيقة ، اقر اكثر نتائجها الدرس الصوتي الحديث ، على ما سيأتي تفصيله فيما بعد ، وجد في اثناء ذلك ان لبعض الاصوات تأثيرا في بعضها الآخر ، فاذا اجتمع في لفظة صوتان احدهما مهموس والآخر مجهور اثر احدهما في الآخر « وما يزال به حتى يزحزحه الى مثل مخرجه ، ليكون عمل اللسان في الحرفين واحدا ، وليتحقق الانسجام الموسيقي[2] » ، ورأى ان بعض الاصوات المطبقة اذا جاورت الاصوات المنفتحة اثر المطبق في المنفتح حتى يحاول تغييره « كالمماثلة الجزئية التي تتمثل في بناء افتعل والافتعال ، في اصطبر واضطر واصطنع وغيرها »[3] .

واكبر الظن ان هذه الدراسة هي التي لفتت انظار الدارسين القدماء الى فكرة العمل « حتى يخيل الى الدارس انهم كانوا - اذ قالوا بفكرة العامل - متأثرين بما لاحظوه من تأثير الحرف في الحرف في اثناء تمازج الحروف ، واختلاط بعضها ببعض حين تتألف منها الكلمات[4] » ، فكما هو بين الصوت والصوت من التأثير ، يكون بين الكلمة والكلمة اذا جاورتها ، ولا شك ان هذه الفكرة كانت أول الامر ساذجة الأثر بسيطة التطبيق ثم عمقت وتشعبت .

ومما يستدل به على اثر التجاور في العمل لدى النحاة ، انهم ذهبوا الى بطلان عمل ان واخواتها حين تقترن بهن (ما) الحرفية ، فيرتفع الاسم بعدها ، ويصح دخولهن على الجملة التي يتصدر فيها الفعل ، كقوله تعالى : (قلْ إنَّما يوحى الي أنَّما الهُكم الهٌ واحد)[5] . ونقل سيبويه رواية الخليل عن العرب قولهم (إنَّ بك زيدٌ

---

(١) مدرسة الكوفة ٢٦٩ وما بعدها .

(٢) نفسه ٢٧١ .

(٣) نفسه ٢٧١ .

(٤) مدرسة الكوفة ٢٩٩ .

(٥) سورة الانبياء ١٠٨ انظر : كتاب سيبويه ١/ ٢٨٠ وشرح قطر الندى ١٤٩ .

مأخوذٌ) ولم يعلل الاهمال[1] ، وجوز الفراء الغاء عمل إنَّ اذا فصلت عن اسمها بفاصل كقولنا (إنَّ في الدار زيدٌ قائمٌ) ، معللا ذلك بانها حين تباعدت عن اسمها الغي عملها واهملت .[2] كل ذلك يشير الى عامل التجاور وتفاعل الكلمات ، وكأن النحاة ذهبوا « الى ان الاعراب مظهر من مظاهر تأثير بعض الكلمات في بعض ، كما اثر بعض الحروف في بعض[3] » .

وعناية الخليل باللغة مبكرة ، ولا بد ان تكون دراسته للاصوات سبقت دراسته للنحو ، لانبناء الاخيرة على الاولى ، ووجود دراسة الاصوات في آخر كتاب سيبويه لا يدل على تأخر دراستها ، ذلك انه اختص الجزء الاول من الكتاب بالنحو ، سوى المقدمة وابواب تقسيم الاسم والفعل وضرورة الشعر ، وكان الجزء الثاني للصرف ابتداء من باب (الممنوع من الصرف) ، وللدراسة الصوتية ابتداء من (باب الابدال) الى آخر الكتاب ، والابدال والاعلال والادغام دراسات صوتية محضة ، وهي نتائج للدرس الصوتي ، وعلى هذا فان (الكتاب) مؤلف من دراسات ثلاث : نحوية وصرفية وصوتية . وتأخر الصوتية في الموضع لا يعني تأخرها في الزمن . وبهذا ندرك المراحل التي خطتها فكرة العمل حتى استقرت مصطلحاً نحوياً .

* * *

التعليل :

نشأ التعليل للظواهر اللغوية مع نشأة الدرس اللغوي ، فقد اخذ به الدارسون الاوائل ، على انه لم يكن حتى عصر الخليل وطبقته اكثر من تفسير لا يبعد به عن منطق اللغة ، ورسم الخليل حدوده حين قال : « ان العرب نطقت على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقام في عقولها علله وان لم ينقل ذلك عنها ، واعتللت انا بما عندي انه علة لما عللته منه ، فان اكن اصبت العلة فهو الذي التمست ، وان تكن هناك علة له اخرى فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجيبة النظام والاقسام ، وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق

(1) كتاب سيبويه ١/ ٢٨٣ .

(2) معاني القرآن ٢/ ٥٧ .

(3) مدرسة الكوفة ٢٧٣ .

او بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة ، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال : إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا ، وجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار ، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة ، إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل ان يكون علة لذلك ، فان سنح لغيري علة لما عللته من النحو هي اليق مما ذكرته للمعلول فليأت بها[1] » ولم يخرج الخليل فيما نقل من تعليلاته عن هذا المنهج اللغوي السليم[2] . على الرغم مما قيل من انه استطاع ان يستنبط من العلل ما لم يستنبط أحد وما لم يسبق اليه[3] .

ولكن اللغويين منذ اواسط القرن الثالث اخذوا يفلسفون هذا التعليل ، وصارت العناية بأمر العلة تأخذ اكثر اهتمام الدارسين ، واصبحت المفاضلة تقوم على مقدار ما يحسن هذا اللغوي او ذاك من صنعة التعليل ، اذ يروي ابو الطيب اللغوي (ت ٣٥١ هـ) عن ابي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) أنه ينعت الكسائي (ت ١٨٩ هـ) بالضعف بالعلم لأن « علمه مختلط بلا حجج ولا علل[4] » ، ويروى عنه أيضاً وهو يحمل على البغداديين أنهم « يحفظون مسائل من النحو بلا علل ولا تفسير[5] » .

وحين ترجمت علوم اليونان في القرن الرابع ، صارت الفلسفة والمنطق اطاراً عاما لجميع الدراسات ، ومنها الدراسات اللغوية ، فنجد في هذا القرن وما قبله بقليل مصنفات تصنف من أجل العلل ، فيروى أن لابن كيسان (ت ٢٩٩ هـ) كتابا اسمه (المختار) في ثلاثة مجلدات او أكثر يبحث في علل النحو[6] ، والف الزجاجي (ت ٣٣٧ هـ) تلميذ ابن كيسان كتابا في العلل هو (الايضاح[7]) ، يضاف إلى ذلك ان العلة كانت اساسا لمصنفات هذا القرن ، فلا تكاد تخلو صفحة من صفحات

---

(١) الايضاح في علل النحو ٦٦ .

(٢) الكتاب ١/ ٣١٠ ، ٣٢٤ ، ٣٨٩ والايضاح ٧٧ .

(٣) طبقات النحويين ٤٣ وانباه الرواة ١/ ٣٤٣ .

(٤) مراتب النحويين ١٢٠

(٥) نفسه ١٦٠

(٦) انباه الرواة ٣/ ٥٨ .

(٧) طبع بتحقيق مازن المبارك في القاهرة سنة ١٩٥٩ م .

شرح الرماني او شرح السيرافي لكتاب سيبويه من تعليلات هي بالمنطق اشبه منها بغيره[1] ، وذلك ان الاوساط العلمية في ذلك الوقت كانت لا تشهد للدارس بالتمكن من العلم الا اذا جمع الى اتقانه اللغة او الفقه او غيرهما من العلوم اتقانه للفلسفة ، يقول الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) : « لا يكون المتكلم جامعا لاقطار الكلام متمكنا في الصناعة يصلح للرياسة ، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة »[2] .

وتكلم ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) في الخصائص على العلة كلاما يدل على امتلاكه حسا لغويا مميزاً في أكثر الاحيان[3] ، بعكس ما فعله ابو البركات الانباري (ت ٥٧٧ هـ) في كتابه (اسرار العربية) الذي وضعه لبيان او تعليل الظواهر اللغوية والنحوية ، وكان قد وضع كتابه (الاغراب في جدل الاعراب) لتعليم الدارس فن الجدل والمناظرة وتقوية ملكته فيهما ، وكتابه (لمع الادلة) لوضع اصول النحو على غرار اصول الفقه . ووقوف عاجل على امثلة من تعليلاته في الكتاب الاول ، كتعليله رفع المبتدأ او تعليله رفع الفاعل[4] ، يوضح مدى سيطرة الفلسفة والمنطق على التعليل اللغوي في هذا العصر ، ومن آثار هذه السيطرة ايضا :

١ ـ القول بأن الحركات الاعرابية أثر من آثار العامل ، ولكل تأثير علة[5] .

٢ ـ التنازع ، وهو ان يتقدم فعلان ويتأخر عنهما معمول ، وكل منهما يقتضي هذا المعمول ، فمنعوا ذلك انطلاقا من الفكرة المنطقية بأنه لا يجوز ان تجتمع علتان على معلول واحد ، فاذا حدث ذلك فيكون المعمول لأحد الفعلين والآخر مضمر[6] .

٣ ـ رفع المبتدأ والخبر ، قالوا انه لا يجوز ان يكونا مترافعين ، لأن ذلك يلزم الدور

---

(١) محاضرات الدكتور المخزومي (مدونتي) ١٢

(٢) الحيوان ٢/ ١٣٤

(٣) الخصائص ١/ ٢١ ، ٣٧ وانظر : ابن جني النحوي ٢١٢

(٤) اسرار العربية ٣٤ ، ٣٥

(٥) الاشباه والنظائر ١/ ٧٣ ، ٧٥

(٦) شرح الرضي على الكافية ١/ ٨٤ وانظر : الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري ٦٦

وهو محال عقلا ومنطقا ، فلا يكون المبتدأ علة رفع الخبر ، والخبر علة رفع المبتدأ ، لأنه لا يجوز ان يكون الاول سبب الثاني والثاني سبب الاول وهكذا ، وهو باطل[1] .

٤ - تعليل ورود (اللهم) ، وتخبطهم فيه[2] ، وسنأتي الى درسها في الباب الرابع . وغير ذلك من مظاهر التعليل المصطبغ بالفلسفة والمنطق والكلام[3] .

والحق أنه لا يمكن ان يستغني الدرس اللغوي عن التعليل ، ولا ضير في اصطناعه والمقبول منه هو الذي يستخدمه علم اللغة لا الذي يخرج عن ذلك . فالذي يهدف اليه علم اللغة هو تفسير الظواهر اللغوية وتعليلها ، وهذا لا يتم الا بعد الوقوف على اكثر من لغة ، وكذلك يصدر علم اللغة عن كثير من المعرفة والاطلاع على دراسات لها صلة باللغة كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم وظائف الاعضاء وغيرها من العلوم[4] . ولو اخذنا مثلا ظاهرة التذكير والتأنيث في العربية ، لوجدنا ان هناك الفاظا تذكيرها مجازي واخرى تأنيثها مجازي ، ولكن العرب انثوا هذه الالفاظ ، وربما خالفتهم شعوب اخرى في هذه الالفاظ ، فالشمس في الفرنسية مذكر وهي في العربية مؤنث ، فدراسة هذه الامور من الناحية النفسية الاجتماعية من خصائص علم اللغة ، ومثل ذلك البحث عن سبب نصب الاسم الذي يلي (ان) وما الى ذلك من ظواهر لغوية . في حين كان ميدان اللغوي القديم لغة واحدة هي العربية ، ومن هنا اقصر الدارسون عن ان يفسروا ظواهر هذه اللغة ، ووقعوا فيما وقعوا فيه من تعليلات مصطنعة غريبة لا علاقة لها بالاسباب الحقيقية للظواهر .

* * *

المنهج الوصفي والمنهج التعليلي :

المنهج الوصفي - كما يدل عليه الاسم - هو المنهج الذي يقوم على تقرير ما هو

(١) الخصائص ١/ ١٦٦ والانصاف ٣٣ والاشباه والنظائر ١/ ٢٦٣ وهمع الهوامع ١/ ١٩٥
(٢) كتاب سيبويه ١/ ٣١٠ والانصاف مسألة : ٤٧ وشرح المفصل ٢/ ١٦
(٣) اصول النحو العربي ١٣٢
(٤) علم اللغة (وافي) ١٠ - ١٢

واقع ، او تفسيره تفسيرا لا يخرج به عن نطاق اللغة ، فهو ـ اذن ـ اما تقريري او تحليلي ، اما المنهج التعليلي فهو الذي يقوم على تعليل الاحكام اللغوية تعليلا عقليا منطقيا ، مستندا الى الاحتجاج والجدل . وكان الدرس اللغوي حتى اواسط القرن الثالث سائرا على المنهج الوصفي في تناوله الموضوعات اللغوية الى حد كبير ، ذلك انه الى هذا الحين لم يتأثر بعد بالدراسات العقلية التي سادت الوسط العلمي بعد ذلك . وقد مر بنا اكثر من دليل على تمسك اللغويين الاوائل بالمنهج الوصفي في دراسة اللغة ، فقد سبق موقف الخليل وبعض شيوخه واصحابه من السماع والقياس ، والتقدير والتأويل ، والعامل والتعليل ، وما الى ذلك من اسس الدرس اللغوي ، وكان موقفهم ازاء ذلك موقف الواصف الذي يفسر ما يرى انه يلائم روح اللغة من غير تمحل واغراب[1] . يقول الخليل مثلا : « والأقطع : المقطوع اليد ، والجمع قُطْعان ، والقياس ان تقول : قُطْع ، لأن جمع أفْعَل/فُعْل الا قليلا ، ولكنهم يقولون : قُطِع الرجل لأنه فُعِلَ به[2]» .

اما اللغويون الذين اعقبوا هذه الطبقة ، فقد بعدوا في درسهم عن ذلك المنهج ، واخذوا يدرسون اللغة على المنهج التعليلي ، متأثرين في ذلك بالدراسات الفقهية والفلسفية ، مترسمين موضوعات هذه الدراسات فيما يضعون من ابحاث ومصنفات ، وكان هذا المنهج التعليلي يشمل كل فروع دراسة العربية : اللغة والنحو والصرف دون تمييز ، لأن اللغويين هم أنفسهم صرفيون ونحويون. فمثلا استعار الدرس اللغوي[3] :

١ ـ فكرة الاستحسان من الاصوليين ، وهو عبارة عن دليل ظني يقابل القياس الجلي الذي تسبق اليه الاذهان[4] . وكان ابن جني يقول : « ان علته ضعيفة غير مستحكمة ، الا أن فيه ضربا من الاتساع والتصرف، من ذلك تركك الاخف الى الاثقل من غير ضرورة ، نحو قولهم : الفتوى والبقوى والتقوى

(١) كتاب سيبويه ١/ ١٧٢ ، ١٧٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦

(٢) العين (الجزء المطبوع) ١٥٣

(٣) انظر : ابو البركات الانباري ودراساته النحوية ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٩٠

(٤) لمع الادلة ١٣٣ ـ ١٣٤ والاقتراح ٨١

والشروى ونحو ذلك . الا ترى انهم قلبوا الياء هنا واوا من غير استحكام علة ، اكثر من انهم ارادوا الفرق بين الاسم والصفة(١) ».

٢ ـ فكرة استصحاب الاصل ، وهو يعني « ابقاء حال اللفظ على ما يستحقه في الاصل ، عند عدم دليل النقل عن الأصل(٢) » . واستدلوا به على اعراب الاسم المتمكن ، وبناء فعل الامر(٣) .

واعتد هذا المنهج بالعلة واحكامها ، وبعلة العلة ، وبما يلحق القياس من وجوه الاستدلال ، مثل :

١ ـ الاستدلال بالتقسيم ، وهو ان تعرض الاقسام التي يجوز ان يتعلق بها حكم من الاحكام ، فتبطل جميعا ويبطل بابطالها الحكم المتناقش فيه(٤) .

٢ ـ الاستدلال بالاولى ، وهو ان يبين الفرق في المعنى الذي تعلق به الحكم في الاصل وزيادة(٥) .

٣ ـ الاستدلال ببيان العلة ، وهو ان تبين علة الحكم ، ويستدل بوجودها في موضع الخلاف ، ليوجد بها الحكم(٦) .

٤ ـ الاستدلال بالاصول ، وهو ان يتعارف على اصول معينة يعتمد عليها في تحديد الحكم(٧) . وغير ذلك كثير من صور استعارة موضوعات الفقه واصوله واستخدامها في اللغة .

وقد مرت الاشارة في اكثر من موضع الى ان العلماء الاقدمين درسوا اللغة من نواحيها المتعددة ، فدرسوا اصواتها وتاريخها وتطورها وصرفها ونحوها وغير ذلك .

---

(١) الخصائص ١/ ١٣٣ ـ ١٣٤ وانظر : لسان العرب (شري)
(٢) الاغراب ٤٦ وانظر : التعريفات ٢٧
(٣) الاغراب ٦٣ ـ ٦٤ ولمع الادلة ١٤١ ـ ١٤٢ والاقتراح ٧٦
(٤) لمع الادلة ١٢٧
(٥) نفسه ١٣٢
(٦) لمع الادلة ١٣٢
(٧) نفسه ١٣٣ .

ودارس كتاب سيبويه (ت ١٨٠ هـ) والكتب المؤلفة بعده يجد خليطا من الدراسات المختلفة الصوتية والصرفية والنحوية والعروضية[1] . وعلى عهد المازني (ت ٢٢٥ هـ) الذي عمل كتابا خاصا في التصريف ، اخذت الدراسات تتميز بعضها من بعض . وعلى الرغم من ان كتاب المازني افرد علم الصرف من غيره ، الا ان الدرس الصرفي ظل مختلطا مع غيره ، ففي المقتضب للمبرد (ت ٢٨٥ هـ) شيء من هذا الاختلاط[2] ، على ان المبرد بعد المازني في الزمن . وفي اصول ابن السراج (ت ٣١٦ هـ) ايضا نجد مثل هذا الاختلاط ، وقد سار على منهج كتاب سيبويه ، وزاد عليه بعض نقوله عن اشياخه وبعض آراء كوفية[3] .

اما ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) فقد اثرى الدرس اللغوي بمادة مهمة ، الا انه عمق المنهج التعليلي في دراسته ، بل نستطيع ان نعده المخطط له[4] ، ولكن نضج المنهج واستكماله لم يتم الا على يد ابي البركات الانباري (ت ٥٧٧ هـ) بعد وضعه كتبه الثلاثة الشهيرة (اسرار العربية ، ولمع الادلة ، والاغراب في جدل الاعراب) فاثقل الدرس بقيود ما استطاع التخلص منها ، وقد ابان الانباري نفسه ذلك في مقدمة احد كتبه وهو يتحدث عن سبب تأليفه[5] . والغريب ان يعد الاستاذ سعيد الافغاني محقق الاغراب واللمع صنيع ابي البركات الانباري في وضعه « قواعد تشبه ما للمحدثين وقياس وعلل يشبهان ما للفقهاء والمتكلمين ، عملا حقق امنية طالما تطلع اليها الكثيرون منذ المائة الثانية[6] » ، وذهب استاذنا الدكتور المخزومي إلى « ان المحقق وهم من جهتين :

الاولى : في متابعة الانباري في جعل اصول النحو وقواعده وقوانين الجدل والمناظرة الغاية التي يقف عندها جهد الدارس .

---

(١) الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري ٣٢ وما بعدها

(٢) نفسه ٣٥

(٣) الاصول في النحو ١/ ٢٤

(٤) ابن جني النحوي ٢٠٧

(٥) الاغراب ٣٥ - ٣٦

(٦) الاغراب واللمع : مقدمة المحقق

الثانية : في الاشادة بما وضعه الانباري ، وجعله مؤسسا لثلاثة فنون هي : فن الجدل وفن الخلاف ، وفن الاصول في النحو على نسق اصول الفقه ، وجعله المبتكر لهذه الفنون . وفي هذا اغفال لاعمال الدارسين الذين سبقوه الى ذلك كله ، والذين تأثر هو بهم من دون ريب ، ولا سيما ابن جني في كتابه الخصائص الذي سبق قوله في مقدمته : « انا لم نر احدا من علماء البلدين تعرض لعمل اصول النحو على مذهب اصول الكلام والفقه[1] » ، اي قبله . ولم يلاحظ المحقق ان هذا الذي عده ابتكارا وامنية تطلع الى تحقيقها الدارسون منذ المائة الثانية ، هو من الامراض التي اودت بحياة الدرس اللغوي وادت الى جموده ووسعت الجفوة بينه وبين الدارسين »[2] .

بعد ابي البركات الانباري صار النحو ـ على وجه الخصوص ـ مادة تضيع فيها جهود النحاة ، على الرغم من توفر حسن النية لديهم ، فابن الحاجب (ت ٦٤٦) مثلا يضع (الكافية) ، وينص على انها مختصرة ، فطلب اليه ان يوسع مادتها فشرح الكافية[3] ، ثم نظم الشرح شعرا ، فقيل له : ان النظم يحتاج الى شرح ، فشرح النظم[4] ، وكل هذه الاعمال مادة واحدة لمؤلف واحد . وكذلك ابن مالك (ت ٦٧٢ هـ) ، فقد نظم النحو في اربعة آلاف بيت ، ثم اختصرها في الف بيت ، ثم شرحها في كتابه التسهيل ، ثم شرح التسهيل[5] . وصفوة القول ان النحو انتهى منذ أن جُمّد في القرن الرابع ، حين فرضت عليه ، وعلى كل فروع الدرس اللغوي مناهج غريبة لم تخدم هذا النوع من الدراسة .

نتائج :

« يمكننا أن نقف من خلال هذا التتبّع التاريخي لتطور منهج الدرس اللغوي على النتائج الآتية :

(١) الخصائص ١/ ٢ وانظر : ابو البركات الانباري ودراساته النحوية ٢٠٤ ـ ٢٠٧

(٢) محاضرات الدكتور المخزومي ١٩٧٤/ ١٩٧٥ م .

(٣) هذا الشرح مطبوع في الاستانة سنة ١٣١١ هـ

(٤) كشف الظنون ٢/ ١٣٧٤

(٥) ابن الحاجب النحوي ٤٧

١ ـ اخطأ اللغويون في دراستهم للغة من جهتين : الاولى ، حين درسوا موضوعاتها وفق منهج اجنبي عنها استعاروه من الفقه والكلام ، وقد مرت امثلة ذلك . والثانية : حين تجاوزوا حدود امكانياتهم ، وراحوا يخوضون فيما ليس من شأنهم ، فبينما هم يدرسون الكلام العربي صوتا وابنية وظواهر ويستنبطون قواعدهم ، اذا بهم يوسعون دائرة عملهم ، فلا يكتفون بتسجيل ما هو من اسلوب العرب وما ليس من اسلوبهم . بل راحوا يعللون ويتأولون ويرجعون هذه الكلمة او تلك الى اصل تخيلوه ، ويحكمون على هذه الصيغة بأنها صواب وعلى تلك بأنها خطأ ، وهذا ما يجب ان يقال وذاك ما يجب ان يتجنب ، وهذا ليس من عملهم . فليس من وظيفتهم ان يرجعوا بعض صور التعبير الى اصول لا وجود لها او يخطئوا ابناء اللغة ، لأن ذلك يقتضيهم ان يلموا باكثر من لغة ، وان يقابلوا لغة بلغة ، وان يوازنوا ظاهرة بظاهرة ، وهذا ما لم يتوفر لهم ، لأن اللغوي العربي ـ كما اشرنا قبل ـ اقتصر عمله على لغة واحدة هي العربية ، والالمام باللغات الاخرى مما لم يتهيأ مثله للدارسين العرب قدمائهم والمتأخرين منهم . ووظيفة دارس اللغة تسجيل ما يقوله الكتاب والشعراء المعروفون بفصاحة القول ، ومصاحبة ما يطرأ عليه من تغير ، وتدوين ما يقع في الاستعمال الجاري بين هؤلاء ، واستخلاص الموازين والضوابط ، واذا تجاوز اللغوي هذه الحدود وأراد ان يبين لنا ان ما يقوله هؤلاء لحن وان الصواب ما يراه هو ، فقد وسع حدود سلطانه ، وكان في تجاوزه هذا دارسا فاشلا ، لا يختلف عن اولئك الذين دونوا على فصحاء العرب اغلاطا من اللغويين المتأخرين »[١] .

٢ ـ ان المتكلمين في لغة ما هم مصدر الحقائق اللغوية والقواعد النحوية ، وهذا يعني ان الالفاظ التي ترد على لسان الناطقين بتلك اللغة هي الالفاظ الصحيحة في عصر تدوينها بغض النظر عن اصولها التاريخية ، ولذلك ينبغي الفصل بين طريقة البحث الوصفية وطريقة البحث التاريخية ، ولا يجوز الخلط بينهما ، فاذا اردنا ان نصف لغة ما فعلينا ان نصفها كما ترد على ألسنة المتكلمين بها في

---

(١) محاضرات الدكتور المخزومي ٩٧٤/ ١٩٧٥ .

ذلك العصر ، ولا علاقة لذلك بالاصول التاريخية للالفاظ ، لأن لتلك طريقه اخرى في البحث والدرس ، والاستعمال هو الحكم بين ما هو من كلام العرب وما هو ليس من كلامهم ، ويدخل ضمن كلام العرب كل ما كان جاريا على ألسنتهم في اثناء وضع القواعد والاصول ، وكان واضحا عند اللغويين القدماء - كما مر - ان الثقات من الفصحاء لم يكونوا مصدر الدارسين دائما ، وكانت الاصول الموضوعة تعدو عليهم احيانا ، وهو امر لا يقبل في البحوث اللغوية العلمية .

٣ - يجب ان نضع نصب اعيننا ان دراسة اللغة بفروعها المختلفة ليست الا وسيلة الى الغاية ، والغاية هي وصف ظواهر اللغة ، ووضع القواعد المستنبطة من هذا الوصف ، وبالتالي تعويد الدارسين على ان يؤلفوا جملة سليمة واضحة اللفظ والدلالة ، وهذا ما لم يتوفر لدى كثير من اللغويين ، فهم ارادوا الخير للدرس اللغوي ولكن لم يكتب كل الخير له ، بسبب المنهج الذي فرضوه عليه ، وبسبب تجاوزهم الحدود التي كان يجب ان يقفوا عندها ، مؤمنين بان رسم سبل التعليل المنطقي هي الغاية التي يجب ان يصل اليها جهدهم .

خلاصة .

نخلص من ذلك كله الى ان المنهج الملائم لطبيعة الدرس اللغوي هو المنهج الوصفي ، الذي يقرر ما هو موجود فعلا من ظواهر واستعمالات ، او يفسره في ضوء اللغة نفسها ، ولا فرق في ذلك بين علم اللغة والنحو ، الا ان النحو اقل احتياجا للتفسير من اللغة . ويأخذ المنهج الوصفي بالهدف المعنوي من الكلام ، ذلك ان فهم المعنى المقصود من العبارة يقود الى حقيقة الاعراب ، وعلم المعاني الذي دخل كتب البلاغة كله دراسة لغوية نحوية .

الا ان الدكتور داوود عبده ذهب الى غير هذا ، فحمل على المنهج الوصفي ، ورأى انه ليس منهجا سليما في دراسة اللغة ، وانه يجرد اللغة من اجلّ الخصائص التي جعلت من علم اللغة علما ، ولا بد من التعليل في دراسة اللغة[1] . وفي هذا

---

(١) ابحاث في اللغة (ط بيروت) ١٦٧

مغالطة ، لأن الذين يتبنون المنهج الوصفي في علم اللغة قد لا يتبنون المنهج نفسه في النحو ، فالظواهر اللغوية لا يمكن ان تفسر او تعلل الا في ضوء علم اللغة ، اما التعليلات النحوية فشيء غير ذلك ، فالنحوي يستقري الاستعمالات ثم يستخلص قاعدة يشيعها بين الناس دون ان يلجأ الى التفسير والتعليل .



الفصل الثاني

أشهر اللغويين وخلافاتهم المنهجية

اشهر اللغويين : الخليل ـ سيبويه ـ الكسائي ـ الفراء ـ ابو عبيدة ـ الاصمعي ـ ابو عبيد ـ ابن السكيت ـ ابن قتيبة ـ ثعلب .

ملامح مدرسية في اللغة : مقدمة في حد المدرسة ـ المدارس القديمة ـ عوامل نشأتها ـ خصائص منهج كل منها ـ مسائل الخلاف اللغوية بينها .

اللغويون والظواهر اللغوية : القلب والابدال ـ الاشتقاق والنحت ـ الترادف ـ الاشتراك ـ التضاد .

اشهر اللغويين

١ ـ الخليل بن احمد الفراهيدي[1] :

ولد في عمان سنة مائة هجرية ، من قبيلة ازد المعروفة ، وترك موطنه الى البصرة يافعا ، فنشأ بها ، وتلقى اولى علومه على يد اكابر إساتذتها امثال ابي عمرو ابن العلاء وعيسى بن عمر وغيرهما ، حتى اذا اكتمل علمه ونضج فكره اصبح استاذ البصرة بلا منازع ، وتلمذ له الكبار من اللغويين امثال سيبويه والكسائي والنضر بن شميل ومؤ رج السدوسي والاصمعي وغيرهم . كان الى جانب اتصافه بالعلم والابداع ورعا زاهدا قانعا بما هو فيه ، وكان يقرن الى ابن عون في الزهد والتقوى ،ورُوي انه كان يحج سنة ويغزو اخرى ، وحين دعاه سليمان بن علي الى زيارة الاهواز وكان والياعليها، اجابه بقوله :

أبلغْ سُليمانَ أنّي عنه في سَعَةٍ　　　وفي غنىً غيرَ أنّي لستُ ذا مالِ
سَخى بنفسي أني لا ارى احداً　　　يموت هُزلاً ولا يبقى على حالِ
والفقر في النفس لا في المال نعرفه　　　ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

كان فذا فريدا ، وقد مر في اكثر من موضع من هذه الرسالة ما يدل على ذلك ، فريادته في اللغة والنحو والعروض وعلمه بالموسيقى والرياضة امور معروفة مشهورة لا تحتاج الى شرح ، قال النضر بن شميل : « أُكلت الدنْيا بعلم الخليل وكتبه، وهو في خُصٍّ لا يُشعَر به[2]» . وقال سفيان بن عيينه : «من أحب أن ينظرَ إلى

(١) انظر ترجمته في : اخبار النحويين البصريين ٣٠ ومراتب النحويين ٢٧ وطبقات النحويين ٤٧ ونزهة الالباء ٣٢ .
(٢) الصاحبي ١٨ .

رجلٍ خُلق من الذهب والمسك فلينظر الى الخليل بن احمد »[1] ، وتوفي الخليل على اقوى الروايات سنة ١٧٥ هـ .

٢ ـ سيبويه[2] :

هو عمرو بن عثمان بن قنبر وسيبويه لقب غلب عليه ، ولد لاسرة فارسية في قرية قريبة من شيراز ببلاد فارس ، فنزح وهو في سن مبكرة الى البصرة طلبا لعلوم الحديث والفقه ، فتلمذ لحماد بن سلمة المحدث المشهور ، ومنه انتقل لدراسة اللغة والنحو على مشايخ العصر ، فتلمذ لعيسى بن عمر وابي الخطاب الاخفش الاكبر ، وكان اكثر اخذه عن الخليل اذ لازمه ملازمة الظل ، فكان انبه تلاميذه واكثرهم رواية عنه ، ويشهد بذلك (كتابه) . كما اخذ عن يونس بن حبيب وابي عمرو بن العلاء وابي زيد الانصاري . واخذ النحو عن سيبويه جماعة ، اشهرهم الاخفش الاوسط سعيد بن مسعدة وقطرب . وكان الاخفش اسن من سيبويه وصحب الخليل قبل صحبته له ، واصبح بعد وفاة سيبويه الطريق الوحيد الى كتابه ، اذ درسه عليه الجرمي والمازني وغيرهما .

لم يصب كتاب في اللغة ما اصابه كتاب سيبويه ، فقد اكب عليه الدارسون منذ عصره الى اليوم يتدارسونه وينهلون منه ويفخرون به ، يقول ابن خلكان : كان اعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو ولم يوضع فيه مثل كتابه . ويقول الازهري : وقد نظرت في كتابه فرأيت فيه علما جما ، ويحكى انه تخرق في كم المازني بضع عشرة مرة . ويقول الزجاج : اذا تأملت الامثلة من كتاب سيبويه تبينت انه اعلم الناس باللغة . وتوفي سيبويه على الارجح سنة ١٨٠ هـ .

٣ ـ علي بن حمزة الكسائي[3] :

ولد ونشأ في الكوفة ، وتلقى علومه فيها على يد ابي جعفر الرؤاسي ومعاذ

---

(١) الصاحبي ١٨ .

(٢) انظر ترجمته في : طبقات النحويين ٦٦ وتاريخ بغداد ١٢/ ١٩٥ ونزهة الالباء ٣٨ ومعجم الادباء ٦/ ٨١ واخبار النحويين ٣٧ والفهرست ٥١ وانباه الرواة ٢/ ٣٤٦ ووفيات الاعيان ٣/ ٤٦٥ وتهذيب اللغة ١/ ١٩ وبغية الوعاة ٣٦٦ .

(٣) انظر ترجمته في : معجم الادباء ١٣/ ١٦٨ ونزهة الالباء ٨٢ ـ ٨٣ وغاية النهاية ١/ ٥٣٨ والنشر ١/ ١٧٣ وتهذيب التهذيب ٧/ ٣١٤ وبغية الوعاة ٣٤٧ وتاريخ بغداد ١١/ ٤١٢ .

الهراء ، ثم قصد البصرة ليستزيد فيها علما ، فسمع من الخليل واعجب به ، وسأله عن مصدر علمه ، فقال له : بوادي الحجاز ونجد وتهامة ، فذهب الى البوادي وشافه اعزابها وانفد خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة سوى ما حفظ ، وعاد الى البصرة ، ووجد الخليل قد توفي وتصدر مجلسه يونس فأخذ عنه وناظره في مسائل اقر له يونس بها ، فعاد الى الكوفة للتدريس ، فلم يطل مقامه ، إذ تركها قاصدا بغداد ، فطاب له فيها المقام ، فقد تصدر للدرس واتصل بالخلفاء فأكرموه واحسنوا اليه ، ودرس في بغداد كتاب سيبويه على الاخفش مقابل اجر .

وكان الكسائي مقرئا قبل توجهه للغة والنحو ، فقد تلمذ في القراءة لحمزة ، ثم استقل بقراءة خاصة اصبحت من القراءات المشهورة ، فكانت للكسائي حلقة يجلس فيها على كرسي ، ويتلو القرآن من اوله الى آخره ، والناس يسمعون ويضبطون عنه . فهو لم يتعلم العربية - كما يروى - الا على كبر ، وممن تلمذ له في اللغة الفراء وعلي بن المبارك الاحمر وهشام بن معاوية واللحياني وابن الاعرابي وغيرهم . وفي بغداد حدثت بين الكسائي وغيره من البصريين مناظرات في المسائل اللغوية ، اشهرها التي كانت بينه وبين سيبويه ، حيث وضعت المسألة الزنبورية هذه - في تقديرنا - اساس الخلاف المدرسي بين البصرة والكوفة ، كما سيأتي بيان ذلك . وتوفي الكسائي في الري سنة ١٨٩ هـ

٤ - يحي بن زياد الفراء[١] :

ولد بالكوفة سنة اربع واربعين ومائة ، وكان ابوه مولى لقبيلة بني منقر ، ودرس اول الامر على ابي جعفر الرؤاسي، ثم قصد البصرة كما فعل الكسائي من قبل ، ولقي فيها يونس بن حبيب واخذ عنه شيئا ، ثم توجه الى بغداد ولقي الكسائي فصاحبه واخذ عنه ، وكان من مناصريه في مجلسه مع سيبويه الذي اشرنا اليه قبل

(١) انظر ترجمته في : طبقات النحويين ١٤٣ ومراتب النحويين ٨٦ وتهذيب اللغة ١/ ١٨ والفهرست ٩٨ ونزهة الالباء ٦٥ ونور القبس ٣٠١ ووفيات الاعيان ٥/ ٢٢٥ وشذرات الذهب ٢/ ١٩ والكنى والالقاب ٣/ ١٤ وتاريخ بروكلمان ٢/ ١٩٩ وتاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ١١٧ والاعلام ٩/ ١٧٨ .

قليل . وروى عن اعراب وثق بهم مثل أبي الجراح وأبي ثروان وأبي فقعس وأبي دثار وغيرهم . وهو أول من قعد لدرس تفسير القرآن ومعانيه في مسجد من مساجد بغداد الى جانب منزله ، وكان ينزل بازائه الواقدي .

اخذ عنه جمهرة من العلماء امثال سلمة بن عاصم والطوال ومحمد بن سعدان وابن السكيت ومحمد بن قادم وغيرهم ، وكان الناس لرغبتهم بكتابه (معاني القرآن) يشترون كل خمس اوراق بدرهم من الوراقين ، اتصل بالمأمون وأدب ولديه ، واملى كتابه (الحدود) في اصول النحو بطلب منه . قال ثعلب : انه كان يتفلسف في تصانيفه حتى يسلك في الفاظه كلام الفلاسفة . ولعل ذلك من اثر اعتزاله في الرأي . وقيل في الفراء : انه لولا الفراء ما كانت اللغة ، لانه حصلها وضبطها ، ولولاه لسقطت العربية ، لانها كانت تتنازع ، ويدعيها كل من اراد ، ويتكلم الناس عليها من مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب . وتوفي سنة ٢٠٧ هـ .

٥ ـ ابو عبيدة معمر بن المثنى[1] :

ولد في البصرة سنة عشر بعد المائة ، لابوين رقيقين من يهود باجروان في فارس . كان مولى لتيم قريش فلقب بالتيمي . اخذ في اول عهده عن ابي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب ، حتى اذا برز ناظر استاذه ابا عمرو مناظرة الند ، وقال ابو حاتم عن مذهبه انه كان يرى رأي الخوارج الصفرية ، وانه كان يكتم ذلك . اخذ عنه الاثرم والتوزي وابو عبيد القاسم بن سلام والمازني وابو حاتم وغيرهم . وكان ابو عبيدة من اعلم الناس بانساب العرب وايامهم وكتبه في ذلك كثيرة معروفة ، يقول ثعلب : من اراد اخبار الجاهلية فعليه بكتب ابي عبيدة . وقد استقدمه الرشيد الى بغداد ليقرأ عليه شيئاً من هذه الكتب وليختص بمنادمته .

غلب عليه الشعر والغريب ، وهو من اوائل من الف في الغريب كما مر ذلك

---

(١) انظر ترجمته في : اخبار النحويين البصريين ٥٢ وطبقات النحويين واللغويين ١٩٢ ومراتب النحويين ٤٤ وتهذيب اللغة ١/ ١٤ والفهرست ٧٩ ونزهة الالباء ٦٨ وانباه الرواة ٣/ ٢٧٦ وتاريخ بغداد ١٣/ ٢٥٢ ووفيات الاعيان ٤/ ٣٢٣ ومعجم الادباء ١٩/ ١٥٤ ونور القبس ١٠٩ والفلاكة والمفلوكون ١٠١ وبغية الوعاة ٣٩٥ والنجوم الزاهرة ٢/ ١٨٤ وشذرات الذهب ٢/ ٢٤ وبروكلمان ٢/ ١٤٢ .

من دراسة كتب الموضوعات اللغوية في الباب الثاني . الا انه في النحو ـ كما يقول الازهري ـ مخل كثير الخطأ ، ويقول ابو حاتم : انه كان ينشد البيت مختلف العروض ويخطىء اذا قرأ القرآن نظرا ، وغير ذلك من المطاعن التي تمثل ـ في اكبر الظن ـ حملة بولغ فيها عليه لما اشتهر عنه من شعوبية مقيتة وخارجية متعصبة وبذاءة لسان لم يسلم منها احد . وقد توفي سنة ٢١٠ هـ .

٦ ـ عبد الملك بن قريب الاصمعي[1] :

ولد في البصرة سنة ثلاث وعشرين ومائة . اخذ عن ابي عمرو بن العلاء وخلف الاحمر ، وسمع شعبة بن الحجاج والحمادين ومسعر بن كدام ، وحكى شيئا يسيرا ـ من العروض لا من اللغة ـ عن الخليل . وكان ابو زيد وابو عبيدة يخالفانه ويناوئانه كما يناوئهما ، فكلهم كان يطعن على صاحبه بانه قليل الرواية . وقد اخذ عنه ابو حاتم السجستاني وابو عبيد القاسم بن سلام واحمد بن محمد اليزيدي ونصر ابن علي الجهضمي وابن اخيه عبد الرحمن وابو الفضل الرياشي وغيرهم من ائمة اللغة والرواية .

قدم بغداد ايام الرشيد ، وكان صاحب لغة وغريب واخبار ونحو وملح ، يكره اختراع المعاني والعناية بالعروض ، واكبر الظن ان سبب ذلك انه لم يستطع استيعاب علم العروض ، عندما حاول ان يدرسه على الخليل ، والقصة معروفة ، فقد اشار عليه الخليل بترك هذا الدرس بقوله : كيف تقطِّع هذا البيت :

إذا لم تَستَطِعْ امرأً فَدَعْهُ وجاوِزْهُ إلى ما تَستَطِيعُ

ففهم الاصمعي مغزى الخليل وترك الدرس . ونقل عنه انه كان يحفظ ستة عشر الف ارجوزة . وكان من اوثق الناس في اللغة واسرعهم جوابا واحضرهم ذهنا ، كثير التوقي لتفسير القرآن . توفي سنة ٢١٣ هـ .

---

(١) انظر ترجمته في : اخبار النحويين ٤٥ وطبقات النحويين ١٨٣ ومراتب النحويين ٤٦ وتهذيب اللغة ١/ ١٤ والفهرست ٨٢ ونزهة الالباء ٧٤ وتاريخ بغداد ١٠/ ٤١٠ وانباه الرواة ٢/ ١٩٧ ونور القبس ٢١٥ ووفيات الاعيان ٢/ ٣٤٤ والنجوم الزاهرة ٢/ ١٩٠ والانساب ١/ ٢٨٨ وبغية الوعاة ٣١٣ وشذرات الذهب ٢/ ٣٦ وبروكلمان ٢/ ١٤٧ والكنى والالقاب ٢/ ٣٢ والاعلام ٤/ ٣٠٧ .

٧ ـ ابو عبيد القاسم بن سلام[1] :

ولد سنة احدى وخمسين ومائة ، كان ابوه عبداً رومياً لرجل من اهل هراة ونشأ ابو عبيد مولى للازد في خراسان، ثم ولي قضاء طرسوس ايام ثابت بن نصر بن مالك . قدم بغداد وحدث بها ما اخذه عن ابي زيد الانصاري وابي عبيدة والاصمعي واليزيدي وغيرهم من البصريين ، وابن الاعرابي وابي زياد الكلابي ويحيى الاموي وابي عمرو الشيباني والكسائي والفراء من الكوفيين . وروى الناس من كتبه نيفاً وعشرين كتاباً في القرآن والفقه غير كتبه في اللغة والغريب . توفي في مكة سنة ٢٢٤ هـ .

٨ ـ ابو يوسف يعقوب بن اسحاق السكيت[2] :

كان ابوه اسحاق الملقب بالسكيت معلم صبيان في قرية دورق بخوزستان ، ويرجح بروكلمان انه آرامي الاصل . درس ابن السكيت على الفراء وابي عمرو الشيباني وابن الاعرابي من الكوفيين وروى عنهم ، كما اخذ عن الاصمعي وابي عبيدة والاثرم من البصريين ، والتقط اللغة من افواه الاعراب . حتى كانت مصنفاته الكثيرة مضرب المثل في الجودة والاتقان والثقة . وقيل : ما عبر على جسر بغداد كتاب في اللغة مثل (اصلاح المنطق) . وكان سبب قعود ابن السكيت للدرس وقصدهم اياه انه عمل شعر ابي النجم العجلي وجودّه .

وعرف عنه انه عالم بنحو الكوفيين وعلم القرآن واللغة والشعر ، راوية ثقة ، وقد عدوا علم الكوفيين منتهياً اليه والى ثعلب ، وكانا ثقتين امينين ، ويعقوب اسنّ

---

(١) انظر ترجمته في : طبقات النحويين واللغويين ٢١٧ ومراتب النحويين ٩٣ وتهذيب اللغة ١/ ١٩ والفهرست ١٠٦ ونزهة الالباء ٩٣ وانباه الرواة ٣/ ١٢ ونور القبس ٣١٤ وتاريخ بغداد ١٢/ ٤٠٣ ومعجم الادباء ١٦/ ٢٥٤ ووفيات الاعيان ٣/ ٢٢٥ والنجوم الزاهرة ٢/ ٢٤١ وبغية الوعاة ٣٧٦ وشذرات الذهب ٢/ ٥٤ والكنى والالقاب ١/ ١١٣ وبروكلمان ٢/ ١٥٥ والاعلام ٦/ ١٠ .

(٢) انظر ترجمته في : طبقات النحويين ٢٢١ ومراتب النحويين ٩٥ وتهذيب اللغة ١/ ٢٣ والفهرست ١٠٨ ونزهة الالباء ١٢٢ وتاريخ بغداد ١٤/ ٢٧٣ ونور القبس ٣١٩ ومعجم الادباء ٢٠/ ٥٠ ووفيات الاعيان ٥/ ٤٣٨ والفلاكة والمفلوكون ١٣٦ والنجوم الزاهرة ٢/ ٣١٩ وبغية الوعاة ٤١٨ وشذرات الذهب ٢/ ١٠٦ والعدة في الرجال (مخطوط) ١٩١ والذريعة ٢/ ٢١٤ .

واقدم واحسن الرجلين تأليفاً ، وثعلب اعلمهما بالنحو . فان ابن السكيت احتاج الى الكسب فجعل يتعلم النحو بعد ان كان يؤدب صبيان العامة بدرب القنطرة ببغداد . وتوفي سنة ٢٤٤ هـ .

٩ ـ عبد الله بن مسلم بن قتيبة :[1] :

لقب بالدينوري نسبة الى مدينة (دينور) التي ولي القضاء بها . ولقب ابوه بالمروزي نسبة الى (مرو) وكان اعجمياً تركياً . اخذ ابن قتيبة عن ابي حاتم والرياشي وعبد الرحمن بن اخي الاصمعي واسحاق بن راهويه ومحمد بن زياد الزيادي . وكان فاضلا في اللغة والنحو والشعر ، عالماً بغريب القرآن ومعانيه . قيل : انه كان يغالي في مذهب البصريين الا انه خلط المذهبين ، وحكى في كتبه عن الكوفيين . اخذ عنه جملة من العلماء منهم ابنه القاضي احمد وابن درستويه وغيرهما واقرأ كتبه ببغداد الى حين وفاته ، وكانت سنة ٢٧٦ هـ .

١ ـ ابو العباس احمد بن يحيى ثعلب[2] .

ولد سنة مائتين ، وابتدأ النظر في العربية والشعر واللغة سنة ست عشرة ، وحفظ كتب الفراء فلم يشذ منها حرف ، وعني بالنحو اكثر من غيره ، فلما اتقنه اكب على الشعر والمعاني والغريب ، اذ نظر في النحو وله ثماني عشرة سنة ، وصنف الكتب وله ثلاث وعشرون سنة ، وكان يدرس كتب الفراء وكتب الكسائي درساً . لازم ابن الاعرابي بضع عشرة سنة ، وسمع من محمد بن سلام الجمحي وعلي بن المغيرة الاثرم

(١) انظر ترجمته في: طبقات النحويين ٢٠٠ ومراتب النحويين ٨٤ وتهذيب اللغة ١/ ٣٠ والفهرست ١١٥ ونزهة الالباء ١٤٣ وتاريخ بغداد ١٠/ ١٧٠ وانباه الرواة ٢/ ١٤٣ ووفيات الاعيان ٢/ ٢٤٦ والنجوم الزاهرة ٣/ ٧٥ وبغية الوعاة ٢٩١ وشذرات الذهب ٢/ ١٦٩ والعلة في الرجال (مخطوط) ٨١، بروكلمان ٢/ ٢٢٢ والكنى والالقاب ١/ ٣٧١ وتاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ١٧٠ والاعلام ٤/ ٢٨٠ .

(٢) انظر ترجمته في : طبقات النحويين ١٥٥ ومراتب النحويين ٩٥ وتهذيب اللغة ١/ ٢٦ والفهرست ١١٠ وتاريخ بغداد ٥/ ٢٠٤ ونزهة الالباء ١٥٧ وانباه الرواة ١/ ١٣٨ ونور القبس ٣٣٤ ووفيات الأعيان ١/ ٨٤ ومعجم الادباء ٥/ ١٠٢ والنجوم الزاهرة ٣/ ١٣٣ وبغية الوعاة ١٧٢ وشذرات الذهب ٢/ ٢٠٧ وروضات الجنات ١/ ٢٠١ وتاريخ بروكلمان ٢/ ٢١٠ والكنى والالقاب ٢/ ١١٥ وتاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ١٨٠

وسلمة بن عاصم وعبيد الله بن عمر القواريري وخلف والزبير بن بكار وابي الحسن احمد بن ابراهيم .

أدب اولاد محمد بن عبد الله بن طاهر ، وناظر المبرد وجالس ابن كيسان . واخذ عنه محمد بن العباس اليزيدي وعلي بن سليمان الاخفش الأصغر ونفطويه وابو عمر الزاهد وابن عرفة وابو بكر بن الانباري وابو موسى الحامض وابراهيم الحربي وغيرهم . توفي سنة ٢٩١ هـ .

* * *

ملامح مدرسية في اللغة

المدرسة في المصطلح العلمي لفظ يطلق على جماعة من الدارسين تشترك في وجهة النظر ، ويكون لها منهج خاص يؤلف منها جبهة علمية ، ويرتبط افرادها برباط الرأي الموحد . وعلى هذا فهناك مدرستان في الدراسة اللغوية قديماً هما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ، لصحة انطباق الحد المذكور على كلتا المدرستين ، ونحن نختلف مع من نفى صفة المدرسة عن الكوفيين على هذا الاساس[١] . ونختلف ايضاً على الاساس نفسه مع من اطلق على جماعة من الدارسين في بغداد اسم المدرسة البغدادية واخرى في مصر اسم المدرسة المصرية وثالثة في الاندلس اسم المدرسة الاندلسية .[٢] ولا نريد ان ندخل في الكلام على مناقشة ذلك والتفصيل فيه لأنه خارج عن موضوعنا من جهة ، ولأن نشوء هذه المدارس المزعومة تم بعد القرن الثالث او في اواخره مما لا يدخل في العصر الذي ندرسه ونؤرخ له .

والقدماء انفسهم اطلقوا على منهج البصريين اسم المذهب ومثله على منهج الكوفيين ، وهم يقصدون بهذا الاسم ما نقصد بالمدرسة ، ولكنهم اطلقوا على تلاميذ المبرد وثعلب « الجماعة الذين خلطوا المذهبين[٣] » ، ولم يطلقوا عليهم اسم المدرسة او المذهب وعياً منهم لطبيعة المنهج . واتخذت المدرستان اسميهما من المدينة

---

(١) كوتولد فايل : مقدمة كتاب الانصاف للانباري ١٠ ، ١٢

(٢)د . شوقي ضيف : المدارس النحوية ٢٤٠

(٣) الفهرست ١١٥ وطبقات النحويين واللغويين ٢٠٠ واخبار النحويين ١٨

التي نشأت فيها كل منهما ، وحين استوطن الكوفيون بغداد اطلق عليهم احياناً اسم البغداديين او المذهب البغدادي[1] . وهو كما يظهر غير التسمية المعاصرة لمن خلط المذهبين بالمدرسة البغدادية المشار اليها .

وقد حدد اصحاب الطبقات الذين ترجموا لعلماء المدرستين بداية المدرسة البصرية باساتذة الخليل او بمن هم ابعد من ذلك ، بل رجعوا بها احياناً الى ابي الاسود ، وبداية المدرسة الكوفية باساتذة الكسائي ممن عاصر الخليل كأبي جعفر الرواسي ومعاذ الهراء[2] . وفي هذا بعد واضح عن الدقة في معرفة منهج هؤلاء الدارسين القدماء في دراسة اللغة ، وتخبط في تحديد مفهوم المدرسة في هذه البداية . ودفعهم الى ذلك ـ كما يبدو ـ امران : الاول اتخاذ البلد الذي ينزل فيه هؤلاء الدارسين معياراً لانتمائهم المدرسي ، والثاني المنافسة بين المدرستين على الايغال في قدم الدراسة والفخر على الاخرى بذلك .

والحق انه لم تصل الينا اغلب آثار اولئك القدماء وخاصة قدماء الكوفيين ، لكي يتيسر لنا الحكم بوجود خلافات مدرسية منذ ذلك الحين ، وما وصل الينا من آثارهم ونظراتهم لا يدل على خلاف ، ففي آرائهم وانظارهم منهج آخذ بالنمو والنضج يحمل في طياته ملامح المنهجين اللذين استقلا بعدئذ على يد سيبويه والكسائي رأسي المدرستين البصرية والكوفية . وعلى هذا فنحن نتفق مع استاذنا الدكتور المخزومي الذي حدد بداية المدرستين بتلميذي الخليل[3] ، وان الدرس اللغوي حتى عصر هذه التلمذة كان بصري النشأة موحد المنهج ، نهل منه البصريون والكوفيون على حد سواء ، ثم فرضت على كلا الفريقين عوامل خاصة ان تختلف السبيل ويتباين المنهج .

وهذه العوامل تتصل بالبيئة العامة التي عاش فيها كل من سيبويه والكسائي ، وبالتوجه الخاص لكل منهما ، اما البيئة العامة فقد اشبعنا الكلام عليها في الباب

---

(١) سر صناعة الاعراب ١/ ١٩٧

(٢) انظر : طبقات النحويين ٢٠٩ ونزهة الالباء ٦٤ ، ٦٦ وبغية الوعاة ٣٩٣ ، ٣٣ والفهرست ٩٦

(٣) مدرسة الكوفة ٧٤ وما بعدها

الاول حين تحدثنا عن البصرة والكوفة[1] ، وخلاصة ذلك انه وجد في البصرة نزوع الى الدراسات الفلسفية والكلامية ، انضجت منه الترجمات جانباً ، والصراعات المذهبية جانباً آخر ، وغذته روافد الجوار والمجتمع المتعدد العروق والمشارب ، وعلى نقيض ذلك الكوفة التي نزعت الى الدراسات النقلية نزوعاً كبيراً فبحكم كونها منزلا للمحدثين والرواة واصحاب الاخبار والايام والشعراء والقراء ، قلت عنايتها بالدراسات العقلية وزادت هذه العناية بالرواية والنقل . وحين يكون سيبويه في جو البصرة ذاك ، والكسائي في جو الكوفة هذا ندرك اثر كل من البيئتين عليهما ، يضاف الى ذلك دراسة سيبويه للفلسفة والمنطق ، شأنه في ذلك شأن اغلب رجال مدرسته ، اذ صرفته هذه الدراسة الى منهج في اللغة متأثر بها ، يقابله اهتمام الكسائي بالقراءة واختصاصه بقراءة معروفة بحيث توجه الى الرواية توجهاً مباشراً .

والمشهور بين الدارسين قديماً وحديثاً ان الخلافات العلمية التي نشأت بين المدرستين من جراء تباين المنهجين انما هي في النحو ، او بعبارة ادق اغلبها واظهرها في النحو ، وهذا صحيح الى حد كبير ، وذلك بسبب طبيعة الدرس النحوي . الا اننا لا نعدم ان نعثر في كتب اللغة القديمة والمصنفات الموضوعة في المسائل الخلافية ، على خلافات مدرسية في مسائل اللغة ، وهي وان قلت انما تشير الى ان الخلافات كانت اشمل من ان تقتصر على النحو وحده دون اللغة ، وان المدرسة منهما كانت تفرض منهجها على سائر فروع الدرس اللغوي . ولما كان التعرض للخلافات النحوية ليس من موضوع الرسالة ، رأينا من المفيد دراسة الخلافات اللغوية ، وذلك بعرض منهجي المدرستين بشكل عام ، ثم تطبيقه على مسائل لغوية منتخبة .

وابرز ما يتسم به منهج البصريين الاخذ بالقياس ، والتحري عن العلة ، واصطناع التعليل ، واتباع التأويل البعيد ، وينبني على هذه الاسس عدم الالتفات الى ما خالف القياس وان كان لغة او قراءة او شعراً فصيحاً . وينبني على ذلك ايضاً استخدام العقل والمنطق في تفسير الظاهرة اللغوية ، وان سبب هذا الاستخدام مخالفة نص مروي . وابرز خصائص منهج الكوفيين الاعتداد بالرواية ، والاهتمام

(1) انظر : الفصل الأول ٤٦ ـ ٥٠ .

بالمنقول والمأثور ، واحترام النص قراءة او شعراً او مثلاً ، والاخذ بقليل من القياس والتعليل ، وجر هذا المنهج الى الاخذ بالشاهد اليتيم والاعتماد عليه ، وباللغة المتطرفة وان خالفت الاكثر والتمسك بالنادر المروي وان شذ .

هذه اهم خصائص المنهجين كما تؤيدها آثار الفريقين ، وتدلل عليها نظراتهم وآراؤهم ومواقفهم اللغوية ، وهي - كما اشرنا قبل قليل - خصائص واضحة في الدرس النحوي ، فهل في الدرس اللغوي الخاص شيء منها ؟ هذا ما سنقرره بعد عرض عدد مما وسعنا الوقوف عليه من المسائل الخلافية في اللغة :

١ - ذهب الكوفيون في ترتيب مخارج بعض الاصوات مذهباً يخالف البصريين ، فقد جعل الفراء مخرج الياء والواو واحداً ، اما سيبويه فعد الياء مع الحروف الشَّجريّة أي الجيم والشين . وجعل الفراء مخرج الفاء والميم بين الشفتين ، وجعل سيبويه الفاء شَفَويَّة سِنّية ، اي تشترك الشفَّة والأسنان جميعاً في اخراجها[١]

٢ - واختلفوا في ادغام المثلين ، فذهب الكوفيون الى جواز ادغامهما في كلمتين ، اما البصريون فاشترطوا في ذلك شرطين ، الاول الا يكون المثلان همزتين مثل : قرأ آية ، والثاني الا يكون قبلهما حرف ساكن غير لين مثل ؛ شهرُ رَمضان[٢] والذي سوغ للكوفيين جواز الادغام في الموضعين اللذين منع البصريون الادغام فيهما ، ان ابا عمرو بن العلاء كان يؤثر الادغام فيهما في القراءة[٣] وهذا الاعتماد على القراءة يؤيد ما زعمناه في منهجهم من احترام القراءة والاخذ بالشاهد الفريد

٣ - واختلفوا في حركة همزة الوصل ، فذهب الكوفيون الى انها « تتبع حركة عين الفعل فتكسر في إضرب اتباعاً لكسرة العين وتضم في أُدخُل اتباعاً لضمة العين[٤] » وذلك لانها جيء بها لئلا يبدأ بالساكن ، وما دام كذلك وجب ان

---

(١) الكتاب ٢/ ٤٠٤ وشرح الرضي على الشافية ٣٤٦

(٢) شرح الاشموني ٤/ ٣٦٧

(٣) المصدر نفسه ٤/ ٣٦٧

(٤) الانصاف مسألة ١٠٧ .

تكون حركتها تابعة لعين الفعل طلباً للمجانسة ، اما البصريون فذهبوا الى انها مكسورة في الاصل « وانما تضم في أدخُل ونحوه لئلا يخرج من كسر الى ضم لأن ذلك مستثقل[1] » ، ودليل الكوفيين على ما ذهبوا اليه من طلب المجانسة ان العرب تقول (مُنتُن) و (مِنتِن) مجانسة بين الميم والتاء في الحركة ، وكذلك (المِغيرة) و(يُسروع) و (الأسود بن يُعفُر) و (أخوك لإمِك) . وقرأ حمزة والكسائي : (فلإمِهِ الثّلث) وقرأ الحسن : (الحمدِ لِله) وقرأ ابن ابي عبلة : (الحمدُ لُله) . فاذا كانت العرب قد توخت في جميع ذلك المجانسة فقد توختها ايضاً في حركة همزة الوصل . اما دليل البصريين على ان الاصل فيها الكسر « لانها زيدت على حرف ساكن ، فكان الكسر اولى بها من غيره ، لأن مصاحبتها للساكن اكثر من غيره ، الا ترى انه الاكثر في التقاء الساكنين ، فحركت بالكسر تشبيها بحركة الساكن اذا لقيه ساكن ، لأن الهمزة انما جيء بها توصلا الى النطق بالساكن ، كما ان الساكن انما حرك توصلا الى النطق بالساكن الآخر[2] » .

٤ ـ ومثله اختلافهم في نقل حركة همزة الوصل الى الساكن قبلها ، فقد اجازه الكوفيون ومنعه البصريون . واعتمد الكوفيون على ما ورد لديهم من قراءة : (الّمَ الله لا اله الآ هو) بفتح الميم ، ونقل الكسائي عن بعض العرب قراءته : (مناعٍ للخير معتدٍ مريبنَ الذي) بفتح التنوين وقراءة بعض العرب أيضاً (بسم الله الرحمن الرحيمَ الحمد لله) بفتح الميم .وقراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع المدني أحد القرأة العشرة :(واذْ قُلناللملائكةُ اسْجدوا)بضم الهاء .هذاعدا ما يؤيده القياس في كونهاهمزة متحركة يجوز أن تنقل حركتها الى الساكن قبلهاكهمزة القطع .اما البصريون فذهبوا الى المنع« لأن الهمزة انما يجوز أن تنقل حركتها إذا ثبتت في الوصل نحو من ابوك في منْ أبوك وكم ابلُك في كمْ إبلك فاما همزة الوصل فتسقط في الوصل فلا يصح أن يقال ان حركتها تنقل إلى ما قبلها لأن نقل حركة معدومة لا يتصور ولو جاز أن يقال ان حركتها

(١) الانصاف : مسألة ١٠٧ .
(٢) الانصاف مسألة ١٠٧
(٣) نفسه مسألة ١٠٨

تنقل لكان يجب ان يثبتها في الوصل[٣] » .

٥ ـ واختلفوا في الضمائر، فـ(أنا) عند الكوفيين اصل برمته لا زيادة فيه ، وهو عند البصريين مكون من الهمزة والنون فقط ، والالف زائدة وهي امتداد لفتح النون ، وهذا الفتح جيء به ابتعاداً بالضمير عن الادوات[١] . وكذلك (أنت) ومثيلاتها ، فالكوفيون ـ وفي مقدمتهم الفراء ـ يرون انها جميعاً الضمير غير قائلين بزيادة التاء[٢] . اما البصريون فيرون ان الضمير الهمزة والنون دون التاء ، والتاء للدلالة على الخطاب كالكاف التي تدل على ذلك[٣] . وفي (هوَ وهيَ) ذهب الكوفيون الى ان الضمير الهاء وحدها ، وذهب البصريون الى ان الواو والياء جزء من الضمير . واحتج الكوفيون بحذف الواو والياء في (هُما) ، وبقول العُجَير السَّلولي :

فبَيْناهُ يشرْي رَحلَه قال قائلٌ   لمنْ جملٌ رِخْوُ الملاط نجيبُ

أراد فبينا هو ، وقول الآخر :

بَيْناهُ في دارِ صدقٍ قد أقام بها   حيناً يعلّلُنا وَما نعلّلُه (زحاف جائز)

أراد بينا هو ايضاً ، وقول الآخر :

إذاهُ سيمَ الخسفَ آلى بِقَسمْ   باللّه لا يأخذُ إلاّ ما احتكَمْ

أراد اذا هو ، وقول الآخر :

دارٌ لسُعدى إذْهِ من هَواكا

اراد إذ هي . اما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : « الدليل على ان الواو والياء اصل ، انه ضمير منفصل والضمير المنفصل لا يجوز ان يبنى على حرف واحد ، لأنه لا بد من الابتداء بحرف والوقف على حرف ، فلو كان الاسم هو الهاء وحدها لكان يؤدي الى ان يكون الحرف الواحد ساكناً متحركاً وذلك محال[٤]» . وكذا الحال في

(١) شرح المفصل ٣/ ٩٤ وشرح الاشموني ١/ ١٢٦

(٢) شرح المفصل ٣/ ٩٥ وشرح الرضي على الكافية ٢/ ١٠

(٣) الكتاب ٢/ ٦٧

(٤) الانصاف : مسألة ٩٦ .

(إياك واياهُ واياَيَ) فالكوفيون يرون ان الكاف والهاء والياء هي الضمائر وايا عماد ، وذلك لأن الكاف والهاء والياء هنا هي نفسها التي تكون في حال الاتصال ، فحين انفصلت احتاجت الى عماد تعمد عليه . يدل على ذلك ان التثنية والجمع تلحق هذه الحروف دون ايا التي تلزم لفظاً واحداً . اما البصريون فقالوا : « اجمعنا على ان احدهما ضمير منفصل ، والضمائر المنفصلة لا يجوز ان تكون على حرف واحد ، لأنه لا نظير له في كلامهم ، فوجب ان تكُون ايا هي الضمير ، لأن لها نظيراً في كلامهم والمصير الى ما له نظير اولى من المصير الى ما ليس له نظير[1] » .

٦ ـ واختلفوا في اسم الاشارة (ذا) والاسم الموصول (الذي) ، فذهب الكوفيون الى ان الاسم منهما الذال وحدها ، بدليل حذف الالف والياء منهما في التثنية فنقول (ذانِ وذينِ) و (اللذانِ واللّذَيْنِ) ، وذهب البصريون الى ان (ذا) هي الاسم و (الذي) هي الاسم ، واحتجوا على ذلك بمثل ما احتجوا به قبل من : « انه لا يجوز ان تكون الذال وحدها فيهما هو الاسم وذلك لأن ذا والذي كل واحد منهما كلمة منفصلة عن غيرها ، فلا يجوز ان يبنى على حرف واحد ، لأنه لا بد من الابتداء بحرف والوقوف على حرف ، فلو كان الاسم هو الذال وحدها لكان يؤ دي الى ان يكون الحرف الواحد ساكناً متحركاً وذلك محال[2] »

٧ ـ واختلفوا في الابنية ، فالكسائي والفراء من الكوفيين يرون ان الكلمة العربية ثلاثية ، لا تقل ولا تزيد ، اما الرباعي والخماسي ففيهما زائد عن الاصل . اما البصريون ـ وعلى رأسهم سيبويه ـ فعندهم ان الرباعي والخماسي بناءان مستقلان[3] . وحجة الكوفيين تنحصر في انه لما كان اصل كل الابنية (فعل) اي فاء وعين ولام ، ووزن جعفر (فَعْلَل) ووزن سفرجل (فَعَلَّل) كان في جعفر لام زائدة وفي سفرجل لامان زائدتان . اما البصريون فاحتجوا بأنه لو كان في جعفر حرف زائد لوجب ان يوزن بلفظه فنقول (فعلر) لو كان الراء

(١) الانصاف : مسألة ٩٨ ، وانظر في هذه المسألة : شرح الرضي على الكافية ٢/ ١٢ وهمع الهوامع ١/ ٦١

(٢) الانصاف : مسألة ٩٥

(٣) شرح الرضي على الشافية ١٩ والانصاف مسألة ١١٤

زائداً ، و(فعفل) لزيادة الفاء ، و (فعّل) لزيادة العين ، و (جفعل) لزيادة الجيم ، ومثله سفرجل ، ولما لم يقل احد بهذا بطل ان يكون في هذين اللفظين حرف زائد .

ويتفرع عن اختلافهم في هذا الاساس اختلافهم في بنية الاسماء الستة وترددها بين الثنائية والثلاثية[1] . واختلافهم في وزن (صَمَحْمَح) و(دَمَكْمَك[2]) وتحديد اصولها . واختلافهم في زنة عدد من الابنية والكلمات مثل : سيّد وهيّن وميّت[3] ، ومثل : خَطايا[4] . ومثل : إنسان[5] ، وأشياء[6] . ومثل : يَعِد ويَزِن[7] .

٨ ـ واختلفوا في اشتقاق كلمة (الاسم) ، فذهب ثعلب من الكوفيين الى انه مشتق من الوَسْم وهو العلامة ، وذهب المبرد من البصريين الى انه مشتق من السموّ وهو العلو[8] . واحتج الكوفيون « بان الاسم وسم على المسمى وعلامة له يعرف به » اما البصريون فاحتجوا بان « السموّ في اللغة العلو . . . والاسم يعلو على المسمى ويدل على ما تحته من المعنى » ، واحتج البصريون ايضاً بانه لما كان الاسم يخبر به وعنه والفعل يخبر به ولا يخبر عنه والحرف لا يخبر به ولا يخبر عنه ، سما الاسم على قرينيه الفعل والحرف فاشتق لهذا السبب من السمو . والحق ان الفريقين بعدا عن الصواب ، وذلك ان اللفظة سامية وهي تقابل (شَيم) العبرية التي تعني اسم . وعليه فلا حاجة الى التعسف في اثبات اصلها الذي اشتقت منه ، لانه قد تكون جامدة ، وجدت لتدل هذه الدلالة في العربية ، خصوصاً ان في الاسم لغات كثيرة لا يصدق عليها ان تشتق من الوسم او السمو .

---

(١) الانصاف مسألة ٢ وانظر : شرح الاشموني ١/ ٨٠
(٢) الانصاف مسألة ١١٣
(٣) الانصاف : مسألة ١١٥
(٤) نفسه مسألة ١١٦
(٥) نفسه مسألة ١١٧
(٦) نفسه مسألة ١١٨
(٧) الانصاف : مسألة ١١٢
(٨) الانصاف : مسألة ١ .

٩ ـ واختلفوا في المصدر والفعل ايهما مشتق من الآخر ، فذهب الكوفيون الى ان المصدر مشتق من الفعل وفرع عليه ، وذهب الى عكس ذلك البصريون ، ودليل الكوفيين على ما ذهبوا اليه ان المصدر يصح لصحة الفعل ويعتل لاعتلاله ، وان الفعل يعمل في المصدر ، وان المصدر يذكر تأكيداً للفعل ، وهذه جميعاً تثبت اصالة الفعل وفرعية المصدر ، أما البصريون فأهم حججهم على ان المصدر اصل والفعل فرع عليه « ان المصدر يدل على زمان مطلق والفعل يدل على زمان معين . . . ولما ارادوا استعمال المصدر وجدوه يشترك في الازمنة كلها ، لا اختصاص له بزمان دون زمان ، فلما لم يتعين لهم زمان حدوثه لعدم اختصاصه ، اشتقوا له من لفظه امثلة تدل على تعين الازمنة[1] » . وعندي ان البصريين كانوا في هذا المذهب اقرب الى فهم اللغة ، وارتباطها بالتطور الذهني للناطقين ، ذلك ان الدرس الحديث يذهب الى ان الشعوب في اطوار نشأتها الاولى تميل الى عدم التخصيص وهو الاطلاق الذي عبر به البصريون عن المصدر ، ثم تقترب شيئاً فشيئاً من التحديد والتخصيص كلما تطورت عقليتها ونمت مداركها ، واكبر الظن ان العربي القديم كان يعبر بالمصدر (جوع) عن كل ازمان الجوع ، ثم حدد هذه الازمان بـ (جعتُ) و (أجوع) و (جائع) . . الخ . عندما اصاب ذهنه شيئاً من التطور .

١٠ ـ واختلفوا في اللام الاولى من (لَعلَّ) ، فالكوفيون يرون انها اصلية ، بحجة ان لعل حرف ، وحروف الحرف كلها اصلية ، لأن حروف الزيادة تدخل على الاسماء والافعال دون الحروف . اما البصريون فقالوا بزيادة هذه اللام ، وحجتهم في ذلك شعر العرب ، وقد رووا منه أبياتاً استعملت فيها (عَلَّ) من غير لام ، منها قول العجير السلولي :

لك الخير عللنا بها علَّ ساعةً ... تمر وسهواءً من اللّيلِ يذهبُ

وقول ام النُّحيف وهو سعد بن قُرط :

تربَّصْ بها الأيامَ علَّ صروفَها ... سترمي بها في جاحمٍ متَسعِّرِ[2]

(١) الانصاف : مسألة ٢٨

(٢) الانصاف : مسألة ٢٦

والبصريون في هذه المسألة متمسكون بالنقل على غير عادتهم ، والكوفيون غالطوا انفسهم في الحجة التي استندوا اليها ، ذلك انهم يقولون بزيادة حرف في حرف كقولهم بزيادة اللام والكاف في لكن وهي من اخوات لعل[1] . وعلى الرغم من تأييدنا لمذهب البصريين في هذه المسألة ، فنحن نتساءل عما منعهم من التصريح بفكرة الضرورة الشعرية في هذه الابيات ، كالذي فعلوه في الرد على الكوفيين في مسألة الضمير ، فقد سبق لهم ان رجعوا بشواهدهم في ذلك الى الضرورة .

١١ـ واختلفوا في جمع مثل (طَلحة) و (عُقْبة) ، فجوز الكوفيون جمعه بالواو والنون ، ولم يجوز ذلك البصريون[2] . ودليل الكوفيين على الجواز دليل لا يخلو من اصطناع وتمحل ، ذلك انهم قاسوا طلحة على (حَمراء) و (حُبلى) علمين ، ولما كان جمع حمراء وحبلى جائز بالواو والنون ، وعلامتاهما اشد تمكناً في التأنيث من الهاء ، جاء جمع طَلحة على طَلحون . اما البصريون فعمدوا الى المنطق يمنعون به هذا الجواز ، وذلك ان في طلحة « علامة التأنيث ، والواو والنون علامة التذكير ، فلو قلنا انه يجوز ان يجمع بالواو والنون ، لادى ذلك الى ان يجمع في اسم واحد علامتان متضادتان وذلك لا يجوز[3] » . والحقيقة ان الكوفيين على صواب في تجويزهم الجمع بالواو والنون ، الا انهم لم يستطيعوا اقناعنا برأيهم اذ كان عليهم ان يقولوا ان الهاء هذه ليست علامة التأنيث بدليل اطلاق (طلحة) علماً على المذكر وما دام الامر كذلك ، فينظر في تجويز الجمع بالواو والنون جنس المطلق عليه ، وفي العربية استعمالات كثيرة فيها هذه الهاء ولا يراد منها التأنيث ، وربما كانت المبالغة اشهر هذه الدوافع .

١٢ ـ واختلفوا في حذف علامة التأنيث من نحو طالق وطامث وحائض وحامل ، فذهب الكوفيون في تعليل ذلك الى اختصاص المؤنث به دون المذكر ، فلا يحتاج الى علامة تفرق بين الجنسين . اما البصريون فذهبوا في تعليلهم حذف

---

(١) الانصاف : مسألة ٢٦ .

(٢) الانصاف : مسألة ٤

(٣) الانصاف : مسألة ٤

علامة التأنيث الى انهم قصدوا به النسب ، اي انها في معنى ذات طلاقٍ وطمثٍ وحيضٍ وحمل . واضاف البصريون تعليلا آخر هو حمل هذه الالفاظ على المعنى ، وكأنهم قالوا شيء حائضٌ وشيءٌ طامث . . الخ[1] . ولا يخفى ما في تفسير الكوفيين من دقة وحس لغوي ، وما في تفسير البصريين من تعسف وتأول بعيد ، ذلك ان هذه الصفات تطلق ولا يراد بها غير المؤنث لانعدامها في المذكر ، والسامع لا يلتبس عليه شيء من ذلك ، فتخففوا من الهاء لعدم الحاجة اليها ، والهاء هي التي تمنع اللبس وتفرق بين المذكر والمؤنث في الصفات المشتركة ، ثم لما اطرد في العربية دخول الهاء في صفات الانثى لحقت هذه الصفات ايضاً فقالوا مُرضِع ومُرضِعَة .

١٣ ـ واختلفوا في مد المقصور ، فالكوفيون جوزوه في ضرورة الشعر ، ولم يجوزه البصريون[2] . واعتمد الكوفيون في هذا التجويز على شواهد شعرية كثيرة ، منها قول الشاعر :

سيُغنيني الذي أغناك عنّي ... فلا فقرٌ يدومُ ولا غِناء

وقول الآخر :

لم نرحِّبْ بأنْ شخصتَ ولكنْ ... مرحباً بالرضاءِ منكَ وأهلا

اما البصريون فحجتهم في عدم التجويز اعتبارهم المقصور هو الاصل لأن الفه تكون اصلية وزائدة ، والممدود فرع عليه لأن الفه لا تكون الا زائدة ، ومد المقصور معناه رد الأصل الى غير الأصل ،ولهذا جوزوا قصر الممدود اعتماداً على هذا الاساس الذي بنوه ، اما شواهد الكوفيين فقد طعنوا في صحة بعضها ووجهوا بعضها توجيهاً آخر .

١٤ ـ واختلفوا في السين التي تدخل على المضارع لتفيد الاستقبال ، فذهب الكوفيون الى ان اصلها سوف ، ولم يوافقهم البصريون على ذلك وذهبوا الى

---

(١) الانصاف : مسألة ١١١

(٢) الانصاف : مسألة ١٠٩

انها اصل بنفسها[1] . واستند الكوفيون في مذهبهم هذا الى أن (سوفَ) حين كثر استعمال العرب لها وجريانها على السنتهم تخففوا من بعض حروفها ، فحذفوا الواو والفاء وابقوا السين ، واحياناً يكون الحذف في الفاء وحدها ، او الواو وحدها ، فقد نقلوا عن العرب انهم قالوا (سَوْ أفعل) و (سَفْ أفعل) في (سوفَ أفعل) وظاهرة الحذف في العربية بسبب كثرة الاستعمال واضحة ، فالعرب تقول مثلا : لا ادر ولم أُبَل ولم يكُ .. الخ وهم يريدون : لا أدري ولم أُبالِ ولم يكُنْ . يضاف الى ذلك ان السين تدل على ما تدل عليه سوف من الاستقبال . اما البصريون فاكتفوا في البرهنة على رأيهم ان قالوا : « قلنا ذلك لأن الاصل في كل حرف يدل على معنى ان لا يدخله الحذف ، وان يكون اصلا في نفسه ، والسين يدل على معنى ، فينبغي ان يكون اصلا في نفسه لا مأخوذاً من غيره[2] » . غير عابئين بشواهد الحذف التي رواها الكوفيون ، متهمين اياها بالشذوذ وبمخالفة القياس .

١٥ ـ واختلفوا في (لَيسَ) ، فذهب الفراء والكوفيون بعده الى ان اصلها (لا أَيْس) بدليل قول العرب : إئتني به من حيث أَيْسَ ولَيْس ، وجِيءْ به من أَيْسَ ولَيْس ، اي من حيث هو وليسَ هو[3] . وذهب البصريون الى انها فعل غير متصرف بمنزلة (ما) في النفي ، واصلها (لَيِسَ) بكسر الياء[4] . والحق ان الفراء اصاب كثيراً في مذهبه ، ذلك انها ـ اي ليس ـ سامية قديمة ، يقابلها في العبرية (يِشْ) و (لويِشْ) اي يوجد ولا يوجد ، وهو المعنى المقصود من قول العرب الذي نقله الفراء .

١٦ ـ واختلفوا في (لكنَّ) ، والفراء من الكوفيين يرى ان اصلها(لكنْ أنَّ) حذفت النون من لكنْ والهمزة من أنَّ للتخفيف ، ورأى الكوفيون بعده انها

---

(١) الانصاف : مسألة ٩٢ وشرح المفصل ٧/ ٤٨ وهمع الهوامع ٢/ ٧٢ .

(٢) الانصاف : مسألة ٩٢

(٣) لسان العرب (ليس)

(٤) المغني ١/ ٢٢٧ ولسان العرب (ليس)

مركبة من (لا والكاف الزائدة وأنْ) وحذفت الهمزة من ان للتخفيف[1] . اما البصريون فلم يروا فيها تركيباً وقالوا ببساطتها على الرغم من غرابة بنائها في اللغة . ولم نعثر على حجج الفريقين في الدفاع عن مذهبيهما ، اذ يظهر ان المسألة كانت بينهما اجتهادية . والراجح ان الذي دفع الكوفيين الى البحث فيها انهم وجدوها تلفظ بما لا ترسم به ، فلامها في اللفظ (لا) .

١٧ ـ واختلفوا في (اللّهمَّ) ، فذهب الفراء وبعده الكوفيون الى انها في الاصل (يا أللّه أُمنّا بخَير) ثم حذفوا منها حروفاً وكلما لكثرة الاستعمال تخفيفاً ، كما حدث ذلك في هلمّ وويلُمّه وايْش وعِمْ صَباحاً والاصل في ذلك كله هل أمَّ وويلُ أمه وأي شيء وانْعَم صباحاً ، فالحذف لطلب الخفة كثير في العربية . اما البصريون فذهبوا الى ان هذه الميم المشددة هي عوض (يا) للنداء ، وحجتهم في ذلك انهم وجدوا العرب تحذف هذه الميم اذا ادخلت (يا) هذه ، وكلا المحذوف والعوض حرفان والمعنى في كليهما واحد ، فالميم المشددة عوض يا[2] . ورد الكوفيون حجة البصريين بما اوردوه من شواهد شعرية جمعت فيها (يا) والميم المشددة ، كقول الشاعر :

إنّي إذا ما حدثٌ ألمّا ... أقول يا اللّهمَّ يا اللّهماّ

وشواهد اخرى ، وقد طعن في صحتها البصريون ، وقالوا في بعضها بالضرورة ، والراجح ان صيغة اللهم متأثرة بالسامية وعلى الاخص العبرية ، اذ نجد فيها (إلوهيم) التي تطلق ويراد بها لفظ الجلالة ، وهذه الياء والميم وان كانت علامة الجمع في العبرية ، الا انها قد تستعمل للتعظيم في هذا المقام[3] .

١٨ ـ واختلفوا في بعض المركبات مثل : الاّ الاستثنائية ، فقد ذهب الفراء والكوفيون الى انها مركبة من (إنَّ) و(لا) ثم خففت النون وادغمت في اللام[4] . وذهب البصريون ـ كما يشعر بذلك سيبويه ـ الى انها بسيطة غير

(١) المغني ١/ ٢٢٦ وشرح المفصل ٨/ ٧٩

(٢) الانصاف : مسألة ٤٧ والكتاب ١/ ٣١٠ وشرح المفصل ٢/ ١٦

(٣) مدرسة الكوفة ٢٢٣

(٤) شرح المفصل ٢/ ٧٦ وشرح الرضي على الكافية ١/ ٢٢٦

مركبة[1] . وكذلك (لهنك) التي يرى الفراء انها في الاصل (والله إنَّكَ) حذف منها حرف الجر ولام التعريف وقصرت اللام الوسطى ثم حذفت همزة انك[2] . اما سيبويه فلا يرى فيها تركيباً ، وانما رأى ان الهاء فيها مبدلة من الهمزة والاصل ان تكون (لإنَّك) ، والعرب كثيراً ما تبدل هذين الصوتين في الكلمة الواحدة[3] . وفي (مَهْما) ذهب الكوفيون الى انها مركبة من (مَـهْ) اسم الفعل المعروف و (ما) ، اما البصريون فذهبوا الى انها مركبة من (ما) الشرطية و (ما) الزائدة ، ثم حذفت الالف الاولى وابدلوها هاء ، ابتعاداً عن التكرار[4] . وذهب الكوفيون في (كَمْ) الى انها مركبة من (ما) زيدت عليها الكاف ، والعرب قد تزيد في الاول كما تزيد في الآخر ، فمما زادت في الاول : هذا وهذاك ، ومما زادت في الآخر قوله تعالى : (إما تُرِيَنّي ما يوعدون) . وحين شاعت (كما) في الاستعمال حذفوا الالف واسكنوا الميم . كما فعلوا في (لِمَ) حين حذفوا منها الالف واسكنوا الميم ، قال الشاعر :

يا أبا الاسود لِمْ أسلَمْتَني لهموم طارقات وذِكَرْ[5]

اما البصريون فذهبوا الى انها مفردة موضوعة للعدد واحتجوا لذلك بقولهم :
« انما قلنا انها مفردة لان الاصل هو الافراد ، وانما التركيب فرع ، ومن تمسك بالاصل خرج عن عهدة المطالبة بالدليل ، ومن عدل عن الاصل افتقر الى اقامة الدليل لعدوله عن الاصل ، واستصحاب الحال احد الادلة المعتبرة[6] »

نكتفي بهذا القدر من المسائل اللغوية التي اختلف فيها البصريون والكوفيون ، انتخبنا هنا جزءاً مهماً منها ، وهي اكثر من هذا العدد بقليل ، غير اننا

(١) الكتاب ٢/ ٦٧ .
(٢) شرح الرضي على الكافية ٢/ ٣٥٧
(٣) الكتاب ٢/ ٤٧٤
(٤) الكتاب ١/ ٤٣٣ وشرح الاشموني ٤/ ١١
(٥) الانصاف : مسألة ٤٠ والصاحبي ١٢٩
(٦) الانصاف : مسألة ٤٠

نهدف من هذا الاختيار ان نثبت صحة ما زعمناه في الكلام على منهج المدرستين في تناول المسائل اللغوية . فقد رأينا البصريين مهتمين بالتفسير العقلي للظواهر اللغوية متبعين التأويلات البعيدة ، آخذين بالقياس وتحكيم المنطق ، رافضين كثيراً من الشواهد الشعرية والقرآنية ، منكرين صحتها مرة ، وشاكين في نسبتها اخرى ، وموجهين لها وجهات مخالفة للظاهر ثالثة ، فاذا اعيتهم الحجة في بعض المسائل ، تمسكوا بما يسمونه (الاصل) فلا يحتاجون معه الى الحجة ، لأن (استصحاب الحال احد الادلة المعتبرة) كما يقولون .

وفي الجانب الآخر وجدنا الكوفيين يجنحون الى الرواية ، معتمدين على ما يروونه من الشعر والقراءات واقوال العرب فيما يصدرون من احكام وتفسيرات ، ولم يترددوا في الاعتماد على شاهد واحد في بناء رأي او تقعيد قاعدة على انهم لم يهملوا القياس اهمالا كاملا ، بل استخدموه استخداماً يوثق الرواية ، ويدعم النقل ، وكانوا في كثير من المسائل اقرب الى طبيعة الدرس اللغوي ، والمنهج الوصفي في تعليلهم لمسائل اللغة فلم يحكموا المنطق ، ولم يشطوا في التأويل . على انهم جميعاً ـ بصريين وكوفيين ـ بعدوا عن الحقيقة في كثير من معالجاتهم اللغوية ، لنقص ادواتهم العلمية ، واهمها معرفتهم باللغات السامية ، اذ جعلهم جهلهم بها يتخبطون في الاجتهادات المحضة ، وسنقف على مظاهر ذلك في الباب القادم .

اللّغويون والظّواهر اللغويّة

١ ـ القلب والابدال :

نعني بالقلب تقديم بعض أصوات الكلمة على بعض ، مثل : جذب وجبذ ، ويئس وأيس . وأمثلته كثيرة في العربيّة . والظاهر انه يحدث في الغالب اعتباطا ، اي دون قاعدة محددة يسير عليها ، سوى الرغبة في تخفيف اللفظ ، فالناطق بفطرته يميل الى السهولة في الكلام ، فيقدّم بعض اصوات الكلمة ويؤخر اخرى . وهو أقل من الابدال وقوعا في اللغة[1] . وأول من أشار اليه من اللغويين

---

(١) نشوء اللغة العربية ١٦ ومقدمة لدرس لغة العرب ٢١٤ والفلسفة اللغوية ٥٩ وفقه اللغة وخصائص العربية ٦٨ .

الخليل بن أحمد ، فذهب الى أن كلا من صورتيه لهجة قبيلة[1] وعليه فلم يرَ فيه قلباً . اما ما كان في اللهجة الواحدة فسببه ما ذكرناه من الرغبة في التخفف ، الآ ان من اللغويين من لم يدرك حداثة بعض المقلوبات ، اذ يجد شيوعها في اللّغة واستعمال مشتقاتها ، فيحكم بأصالتها[2] . ومنهم من ادرك ذلك فاستشعر عدم الفصاحة فنفى ان يكون في القرآن شيء من المقلوب كابن فارس ، الذي قسم المقلوبات الى قسمين : في الكلمة كجَذَبَ وجَبَذ ، وفي القصة كقولهم : كانَ الزّناءُ فريضةَ الرّجمِ[3] .

وتنبه آخرون الى ان من المقلوب ما تختلف صورتاه في المعنى ، بل يتضاد هذا المعنى أحياناً ، فقد روى ثعلب عن ابن الاعرابي ان (الرّوش) الأكلُ الكثير ، و (الوَرْشُ) الأكلُ القليل[4] . الا ان لغويي البصرة بعد الخليل خلطوا بين نوعين من القلب في اللغة . . ، اذ لم يفرقوا بين القلب في مثل : جَذَبَ وجَبَذَ ،وفي مثل : هارٍ وهايرٍ[5] . وأغلب الظن ان هذا الخلط هو الاساس الذي بنى ابن درستويه عليه كتابه في (إبطال القلب) منكراً فيه وجود هذه الظاهرة في اللغة[6] ، اذ ذهب مذهب النحاة الذين لم يعدّوا من القلب ما كان لكل صورة أصل اشتقت منه ، وان هذا الاصل لغة قوم والاصل الثاني لغة آخرين . والعربية بعد لم تنفرد باحتواء هذه الظاهرة ففي اخواتها الساميات وخاصة العبرية امثلة غير قليلة منه[7] .

أما الابدال فيعني ابدال صوت من كلمة بصوت آخر، وهو كثير في اللغة أيضاً ، ويقع بين الأصوات المتقاربة في الحيز او المخرج ، وبين المتباعدة ايضاً ، والاول هو الأغلب حدوثاً[8] . واللغويون اختلفوا في هذا الشرط وعدمه ؛ اعني قرب المخرج

---

(١) العين ٣٢٩ .

(٢) المزهر ١/ ٤٨١ .

(٣) الصاحبي ١٧٢ وعنه في المزهر ١/ ٤٧٦

(٤) لسان العرب ٦/ ٣٠٨ (روش) .

(٥) تاريخ آداب العرب ١/ ١٨٦ .

(٦) المزهر ١/ ٤٨١ .

(٧) تاريخ اللغات السامية ١٦٥ .

(٨) ابدال أبي الطيب (المقدمة) ١/ ٩ والتطور اللغوي التاريخي ١٠٦ .

وبعده ؛ فالخليل ـ وهو أول من أشار الى الابدال ومثّل له[1] ـ لم يقف في القول بالابدال عند الالفاظ التي يقترب فيها صوتا المبدل والمبدل منه، ففي الوقت الذي نص فيه على (الذُعاق والزُعاق) وحار فيها فلا يَدري أهي لغةٌ أم لُثْغَة[2] ، والصوتان من حيز واحد . نص ايضاً على الابدال في (جاسوا حاسوا) وقيام الجيم مقام الحاء[3] ، وكل منهما من مخرج ، فالجيمُ شَجريَّةٌ مجهورة والحاءُ حَلقيَّةٌ مَهموسَة .

وكذلك الاصمعي لم يجد قرب المخرج شرطاً في الابدال ، فيما روي عنه من الفاظ ، فقد روى ابدال الميم من النون في (النغْر والمَغْر) لقرب الصوتين في المخرج[4] ؛ وروى أيضاً ابدال الباء من الهاء في (البَشاشَة والهَشاشَة) والباء شفوية مجهورة والهاء حلقية مهموسة[5] . ومثل الخليل والاصمعي في هذا المذهب اكثر لغويي ذلك العصر ، كالكسائي الذي روي عنه (أَحَمَّ الأمر وأجَمّ) ، وابن السكيت الذي روي عنه (رجلٌ محُارف ومجُارف)[6] ، وابن الاعرابي الذي روي عنه اجتس الخبَر اجْتِساسا واحتَسَّه احْتِساسا)[7]، وقال : « جائز في كلام العرب أن يعاقبوا بين الضاد والظاء فلا يخطىء من يجعل هذه في موضع هذه »[8] وغيرهم ممن لم يشترطوا قرب المخرج . حتى اذا جاء ابن جني ودرس الابدال رأى ضرورة أن يكون الصوتان من مخرج واحد ، فقال في ابدال الثاء من الحاء : « العلّة في فساده ان أصل القلب في الحروف انما هو في ما تقارب منها »[9] . ويجدر بنا ان نذكر ان اغلب الدارسين يطلقون على الابدال قلبا ولا يفرقون بين الاثنين ، واوضح ما يكون ذلك

---

(١) العين ٩٥، ١٦٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ .

(٢) العين ١٦٨ .

(٣) الصاحبي ١٧٣ .

(٤) نوادر ابي زيد ٧٤ .

(٥) القلب والابدال لابن السكيت ١٠٥ .

(٦) نفسه ٢٩ ـ ٣٠ .

(٧) نفسه ٢٠٥ وأمالي القالي ٢/ ٧٨ .

(٨) وفيات الاعيان ٣/ ٤٣٣ .

(٩) سر صناعة الاعراب ١/ ١٩٧ .

في تسمية ابن السكيت كتابةَ (القلب والابدال) وهو يريد بها الابدال وحده .
وأول من اطلق مصطلح الابدال على هذه الظاهرة هو الفراء[1] ، لا الاصمعي كما ذهب احد الباحثين[2] .

والتفت اللغويون الى امكان تفسير الابدال بان تكون احدى صورتيه لغة قبيلة والاخرى لغة قبيلة ثانية ، ولعل عبارة الخليل في الذُعاق والزُعاق « سمعنا ذلك من بعضهم وما نَدري ألغةٌ أم لُثْغة »[3] ، تشير الى سبقه في لمح هذا التفسير . وأخذ منه اللغويون هذه الاشارة وصرحوا بها كأبي الطيب اللغوي الذي قال : « ليس المراد بالابدال ان العرب تتعمد تعويض حرف من حرف ، وانما هي لغات مختلفة لمعان متفقة ، تتقارب اللفظتان لغتين لمعنى واحد »[4] . والى هذا ذهب الجوهري أيضا[5] . وفسرّوا أيضا ما كان منه في اللهجة الواحدة بأن في كل صورة من صورتيه معنى ليس في الاخرى ، وذلك حين قالوا بجواز حصوله في لغة القبيلة الواحدة .
فقد علق ابن السكيت على (أرْبَد وأرمَد) بقوله : « وقال بعضهم ليس هذا من الابدال ، وأرمد على لون الرَّماد وأرْبَد إغبّر »[6] . وقال ابن الاعرابي في (الجَثْو والجَذْو) : « الجاذِي على قدميه والجاثِي على ركبتيه . وقال ثعلب : الجَذْو على أطرافِ الأصابع والجثْو على الرُكب »[7] . واستمر هذا النظر الدقيق الى الفروق اللغوية بين صورتي الابدال الى ابن جني ، فقد اكثر من النص على امثلته ، وشرحها مستشهداً عليها[8] .

وكان الخليل قد ذهب الى أنه اذا اتفقت الكلمتان في أصلين من اصولها الثلاثة فلا بد أن يكون الاصل الثالث مبدلا ولا بد أن تكون الكلمتان من أصل واحد[9] ،

---

(١) معاني القرآن ١/ ٤١ ، ٢/ ٣٨٤ .
(٢) التنوخي : مقدمة ابدال ابي الطيب ١/ ٦ .
(٣) العين ١٦٨ ولسان العرب (ذعق) والمزهر ١/ ٥٥٦ .
(٤) المزهر ١/ ٤٦٠ .
(٥) الصحاح ١/ ١٣١ ، ٤٧٥ .
(٦) القلب والابدال ١٠ .
(٧) لسان العرب (جذا) .
(٨) سر صناعة الاعراب ١/ ٢٠٥ ، ٢١٨ .
(٩) العين : المقدمة .

وعليه فلا مانع من وقوعه في اللّهجة الواحدةَ؛ واذا كان الخليل لم يشر الى اتحـاد الكلمتين في المعنـى ، فان الفـراء قد نص عليه فقـال : « يقـال فلان من جِنْثِـكَ وجِنْسِك بمعنى واحد[1] ». وحين نصل الى ابن جني نجده رافضاً القول بالاصل الواحد الذي قال به الخليل إذا لم يكن هناك دليل يدل عليه، فقال: «واذا ورد في بعض حروف الكلمة لفظان مستعملان فالوجه وصحيح القضـاء أن تحـكم بأنهما كليهما اصلان منفردان ، ليس واحد منهما أولى بالاصلية من صاحبه فلا تزال على هذا معتقداً له ، حتى تقوم الدلالة على ابدال احد الحرفين من صاحبه »[2] . ومن الابدال ما يكون نتيجة التصحيف وقد نبه عليه القدماء ، ومن أمثلته : أَعْلَلْتُ الإبلَ وأغْلَلْتُها ، وقد نص الازهري على انها تصحيف[3] . ومعجمات اللغة مليئة بمثل هذه المواد .

٢ ـ الاشتقاق والنحت :

ويقصد بالاشتقاق توليد بعض الالفاظ من بعض، بحيث ترجع جميع المشتقات الى اصل يحدد معناها المشترك ويشير الى معناها الخاص[4] . وهو عند القدماء نوعان: أصغر وأكبر . وحدوا الاصغر بأنه : « أخذ صيغة من اخرى مع اتفـاقهما معنـى ومادة أصلية ، وهيئة تركيب لها ، ليدل بالثانية على معنى الاصل بزيادة مفيدة »[5] . وحدوا الاكبر بقولهم : « أن تأخذ أصلا من الاصول الثلاثية ، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً ، تجمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منهـا عليه »[6] ، وهذا حده عند ابن جني من اللّغويين ، اما عنـد سواه فان مصطلـح (الاكبر) يعني اتفاق الالفاظ في حرفين واختلافها في الثالث مثل : الرَّمس والدَّمْس والنمس والطَّمس والغَمس وهي جميعاً بمعنى الكتمان[7] .

---

(١) ابدال ابي الطيب ١/ ١٧٤ .

(٢) سر صناعة الاعراب ١/ ٢١٩ .

(٣) لسان العرب ١١/ ٤٦٨ (علل) .

(٤) طرق تنمية الالفاظ ٤١ ودراسات في فقه اللغة ١٧٤ .

(٥) المزهر ١/ ٣٤٦ .

(٦) الخصائص ٢/ ١٣٤ .

(٧) الفائق ١/ ٥٠٨ .

وقد ذهب القدماء في حقيقة الاشتقاق مذاهب متعددة ، فالاغلب منهم اعتدل في موقفه ورأى ان بعض الكلام مشتق وبعضه غير مشتق ، وعلى رأس هؤلاء الخليل وسيبويه والاصمعي وابو زيد وابو عمرو الشيباني وابن الاعرابي . ومنهم من زعم أن الكلم كلّه أصل أو بحكم الاصل لانكارهم الاشتقاق الجديد ، والقائلون بهذا هم المؤمنون بتوقيف اللغة ، اذ قال قائلهم : « وليس لنا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير ما قالوه ، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه ، لان في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها »[1] . فأدى ذلك الى ان يقف آخرون في الجهة الاخرى ويدعون ان الكلم كله مشتق[2] . والحق ان الفريقين الاخيرين وهما فيما ذهبا اليه ، ذلك ان اللغة في تطور والحاجة الى مفرداتها في ازدياد ، فقد تدعو الحاجة الى اشتقاق معين لم يكن موجوداً ، لان المشتقات لم تشتق في عصر واحد وانما زادت شيئاً فشيئاً ، والذي زاد فيها قياس الجديد على القديم ، وعليه تكون قاعدة القياس في الاشتقاق مستمرة جيلا بعد جيل ، وهذا يدفع اصحاب فكرة المنع بحجة ان الكلم كله أصل . اما ان الكلم كله مشتق فمردود نقلا بما ورد من اصول اشتق منها ، وعقلا بانه لا يمكن وجود مشتقات بلا اصول .

وكان الخليل في العين ، وما طبقه فيه من طريقة التقليبات ، هو الذي أوحى الى ابن جني وغيره بفكرة الاشتقاق الاكبر ، وان اختلف الامران ، فطريقة الخليل لا تشترط وحدة المعنى في التقليبات الستة ، اما الاشتقاق الاكبر فيشترطها في الالفاظ التي يمكن تطبيق الاشتقاق الاكبر عليها . ذلك ان اصحاب هذا الاشتقاق لا يدّعون قياسيته في اللغة ، مثل قولهم بعدم قياسية الاصغر فيها ، فابن جني يقول : « واعلم أنّا لا ندعي ان هذا مستمر في جميع اللغة ، كما لا ندّعي للاشتقاق الأصغر انه في جميع اللغة ، بل إذا كان ذلك متعذراً صعباً كان تطبيق هذا واحاطته أصعب مذهباً وأعزّ ملتمساً »[3] . وعليه يكون قول السيوطي : « وليس معتمداً في اللغة - أي الاشتقاق الأكبر - ولا يصح أن يستنبط به اشتقاق في لغة العرب ، وانما جعله أبو

---

(١) الصاحبي ٣٣ .

(٢) المزهر ١/٣٤٨ .

(٣) الخصائص ٢/١٣٨ .

الفتح بياناً لقوة ساعده»[1] ، تعليقاً واهياً لا يقوم على أساس ، لأن الرجل لم يدع اطراده في اللغة ، بل صرح بتعذر تطبيقه في جميع المفردات ، وهو انما مثل له في كتابه ببضع مواد يظهر في بعضها التكلف[2] .

وقد وقع اللّغويون في اوهام كبيرة حين عرضوا لبعض المشتقات ، ذلك انهم اغفلوا النواحي الحسية والمعنوية في المواد التي يبحثون فيها عن الاصل ، وعن المشتق ؛ فالمفروض أن تكون المواد الدالة على الاشياء الحسية هي الاصل والدالة على الاشياء المعنوية فرع عليها مشتقة منها[3] ، الا انهم قلبوا ذلك احياناً ، فأبو عمرو بن العلاء وافق أعرابياً زعم أن (الخَيْل) مشتق من (الخُيلاء) التي فى مشي الخيل[4] . وابن فارس يرى ان (الجِنّ) مشتق من (الاجْتِنان) وهو التَستّر[5] وان كان (الجِن) من الاشياء غير الحسية ، غير ان افتراض انها كائنات غير منظورة أَدْخَلُ بها في الحسيّات من (الاجْتِنان) . ومن اللغويين من اغرب في تلمس الاصل ، فراح يطلب الكلمة الاعجمية من اصل عربي ، كالذي فعله ابن دريد حين جعل (الفِرْدَوْس) من (الفَرْدَسَة) وهي السَّعة[6] . ولم يفت اللغويين ان ينبهوا على ذلك فقال ابن السراج : « مما ينبغي ان يحُذَر منه كل الحَذَر ان يشتق من لغة العرب لشيء من لغة العجم ، قال: فيكون بمنزلة من ادعى ان الطيرٌ ولد الحوت[7] » .

اما النحت فهو عملية تكوين كلمة من كلمتين او اكثر ، فتدل على معنى كان موجوداً في الاصول المنحوتة . وهو على هذا الاساس يشبه الاشتقاق او نوع منه ، من حيث انه توليد للالفاظ[8] . وهو في اللغة انواع منها : نحت من جملة ، مثل :

(١) المزهر ١/ ٣٤٧ .
(٢) الخصائص ٢/ ١٣٣ - ١٣٩ .
(٣) انظر : في اللهجات العربية ١٩٩ .
(٤) طبقات النحويين ٢٩ والمزهر ١/ ٣٥٣
(٥) الصاحبي ٦٧
(٦) الجمهرة ٣/ ٣٣٣
(٧) المعرب ٣
(٨) انظر : دراسات في فقه اللغة ٢٤٣ وفقه اللغة لوافي ١٨٠

(بَسْمَلَ) و (حَمْدَلَ) و (حَوْقَلَ) من بسم الله والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله . ومنها نحت من مركب اضافي ، مثل : (عَبْشميّ وتَعَبْشَمَ) و (عَبْدَري وتَعَبْدَرَ) و (عَبْقَسِي وتَعَبْقَس) من عبدِ شَمس وعبدِ الدّار وعبدِ القَيس[1] . ومنها نحت من اصلين مستقلين ، مثل (بَزْمَخَ) من زَمَخَ وبَزَخَ[2] .

وأول من أشار الى النوع الاول هو الخليل ، اذ يقول ابن فارس : « والاصل في ذلك ما ذكره الخليل ، من قولهم (حَيْعَلَ الرجل) إذا قـال : حَيَّ على »[3] . وهو أيضا - أي الخليل - أول من أشار الى النوع الثاني فقال: «فأخذوا من كلمتين متعاقبتين كلمة واشتقوا فعلا ، قال :

وتضحـكُ منّـي شيخـةٌ عبشميةٌ كأنْ لم تَرَى قَبلي أسـيراً يمَانيا

نسبها الى عبد شمس ، فأخذ العين والباء من عبد ، واخذ الشين والميم من شمس ، واسقط الدال والسين ، فبنى من الكلمتين كلمة ، فهذا من النحت وهو من الحجة ، وما وجد من ذلك فهذا بابه »[4] . وقد عرض لهذين النوعين تلميذه سيبويه[5] ، ومن بعده جمهرة من العلماء[6] . أما النوع الثالث فصاحبه ابن فارس الذي طبقه تطبيقاً - لا يخلو من تعسف في مواضع كثيرة - في معجمه مقاييس اللغة . يقول : « وهذا مذهبنا في ان الاشياء الزائدة على ثلاثة أحرف فأكثرها منحـوت ، مثـل قول العـرب للرجـل الشـديد (ضِبَطْـر) من ضَبَـطَ وضَبَـرَ . وفي قولهـم (صَهْصَلِق) انه من صَهَلَ وصَلَقَ ، وفي (الصَلْدَم) انه من الصَّلْدِ والصَّدْم »[7] . وكان ابن فارس دقيقا حين قيد قاعدته بكلمة (فأكثرها) لان الرباعـي والخماسي عنده ضروب : « فمنه مانحت من كلمتين صحيحتي المعنى مطردتي القياس ، ومنه

---

(١) المزهر ١/ ٤٨٥

(٢) مقاييس اللغة ١/ ٣٣١

(٣) الصاحبي ٢٧١ وامالي القالي ٢/ ٢٧٠ .

(٤) العين ٦٨ - ٦٩ .

(٥) الكتاب ٢/ ٨٨ .

(٦) المزهر ١/ ٤٨٢ .

(٧) الصاحبي ٢٢٧ وعنه في فقه اللغة للثعالبي ٥٧٨ والمزهر ١/ ٤٨٢ .

ما أصله كلمة واحدة وقد الحق بالرباعي والخماسي بزيادة تدخله ، ومنه ما يوضع كذا وضعا »[1] . فمثال الاول عنده (البُحْتُر) فهو منحوت من بَتَر وحَتَر . ومثال الثاني (بَلْذَمَ) الباء هي الزائدة والاصل لَذِم . ومثال الثالث (الكُرنافَة)[2] . الا ان أكثر تطبيقات النوع الاول اوكثيراً منها اجتهاد محض ، ونحن مع من ذهب الى ان ابن فارس في هذا المذهب لا يعدو الظن والتخمين والتأويل البعيد[3] ، وان خالفناه في هذا الاطلاق .

٣ ـ الترادف :

وهو أن يكون للمعنى الواحد أو المسمّى الواحد عدة ألفاظ ، بحيث تنصرف جميعا للدلالة عليه . وقد أشار اليه سيبويه ، في كلامه على تقسيم الكلم من حيث الدلالة ، وجعله القسم الذي عبر عنه بـ(اختلاف اللفظين والمعنى واحد) ، ومثل له بقولهم : ذهب وانطلق[4] . ونقل قطرب هذا التقسيم واخذ به[5] . وقد بكر اللغويون في جمع هذه المترادفات ، فتكثروا في هذا الجمع وبالغوا في تصيّده ، حتى روي ان الاصمعي يحفظ للحجر سبعين اسما[6] ، وابن خالويه يحفظ للسيف خمسين اسما[7] ، ويجمع للاسد خمسمائة اسم ، وللحية مائتين[8] . فكان من اسباب هذه المكاثرة والمفاخرة ، أن تصدى نفر من اللّغويين لانكار الترادف والطعن بهذه البضاعة الضخمة ، مستندين في ذلك الى ان المترادفات ليست متساوية في الدلالة على معناها أو مسمّاها . وما دامت كذلك فليست مترادفة ، لان شرط الترادف، أن تكون المفردات دالة بالتساوي على المسمّى الواحد ؛ اضافة الى شرط ورودها في اللغة الواحدة .

---

(١) مقاييس اللغة ١/ ٥٠٥ .

(٢) مقاييس اللغة ١/ ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٥/ ١٩٤

(٣) د . مصطفى جواد : المباحث اللغوية ٨٦

(٤) الكتاب ١/ ٨ .

(٥) اضداد قطرب ٢٤٣

(٦) الصاحبي ٤٤ .

(٧) المزهر ١/ ٤٠٥

(٨) الصاحبي ٤٣

وظهر هذا التيار مرافقا لحركة الجمع ، فقد وصل الينا قول ابن الاعرابي : « كل حرفين اوقعتهما العرب على معنى واحد ، في كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه ، ربما عرفناه فاخبرنا به ، وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله[1] » ، ففتح الطريق لمن جاء بعده من رجال هذا التيار ، الذين راحوا يفسرون ورود هذه المفردات ، ويعتلون لوجودها في اللغة ، فذهب ثعلب وابن فارس وابو علي الفارسي ، الى ان الاسم فيها واحد وما سواه صفات ، اشاعها الاستعمال حتى حلت محل الاسم الاول في اطلاقها على المسمى . يقول ابن فارس : « ويسمى الشيء الواحد بالاسماء المختلفة ، نحو : السيف والمهند والحسام ، والذي نقوله في هذا : ان الاسم واحد هو السيف ، وما بعده من الالقاب صفات ، ومذهبنا ان كل صفة منها فمعناها غير معنى الاخرى . . . وهو مذهب شيخنا ابي العباس احمد بن يحيى ثعلب[2] » . والى مثل هذا ذهب ابو علي الفارسي في حواره مع ابن خالويه في مجلس سيف الدولة[3] .

اما ابن درستويه وابن جني فذهبا في تفسير المترادف مذهبا آخر يقود الى الانكار ، وذلك ان تكون هذه المترادفات من بيئات لغوية متعددة ، ولا مانع بعدئذ من اتحادها في الدلالة ، لأن الاقدمين حددوا المنع في اللهجة الواحدة ، فقالوا : « وينبغي ان يحمل كلام من منع الترادف على منعه في لغة واحدة ، اما في لغتين فلا ينكره عاقل[4] » . ومهما يكن من امر فابن درستويه يقول : « وليس يجيء شيء من هذا الباب ـ اي الترادف ـ الا على لغتين متباينتين كما بينا ، او يكون على معنيين مختلفين ، او تشبيه شيء بشيء[5] » . اما ابن جني فيقول : « كلما كثرت الالفاظ على المعنى الواحد كان ذلك اولى بان تكون لغات لجماعات اجتمعت لانسان واحد من هُنا وهُنّا[6] » . وبعض هذه المترادفات من لغات غير عربية ادخلها الاستعمال ثم

(١) اضداد ابن الانباري ٧

(٢) الصاحبي ٩٦

(٣) المزهر ١/ ٤٠٥

(٤) نفسه ١/ ٤٠٥

(٥) المزهر ١/ ٣٨٤

(٦) الخصائص ١/ ٣٧٤

التدوين في المترادف ، ومن امثلتها (عَنْبَسة) من اسماء الاسد وهي حبشية[1] .

وفسر المترادف ـ فيما عدا ذلك ـ بالمجاز ، وذلك بان تكون هذه المفردات مستعملة على سبيل الاستعارة ثم تشيع وتقوم مقام الاسم ، وقد اشار الى ذلك ابن درستويه بقوله (او تشبيه شيء بشيء) الذي مر قبل قليل ، وهذا التشبيه هو ما نعني بالمجاز . وذكروا ان من دواعي وروده ان تكثر طرق الاخبار عما في النفس ، والتوسع في طرق الفصاحة والبلاغة ، والحاجة الى شرح الخفي بما يرادفه[2] . فكان قطرب يذهب الى انه « انما اوقعت العرب اللفظين على المعنى الواحد ليدلوا على اتساعهم فى الكلام[3] » . وهي افتراضات وهمية لا تقوم على اساس ، اذ لا يعقل ان يضع فرد او جماعة كل هذا المترادف لدواع كهذه .

٤ ـ الاشتراك :

وهو ان تنصرف اللفظة الواحدة الى معنيين او اكثر ، بدلالة متساوية على المعاني ، في لغة واحدة ، والى مثل هذا ذهب الاصوليون[4] ، اما المناطقة فاشترطوا الا يسبق وضعه لمعنى من هذه المعاني على وضعه للمعنى الآخر[5] . وهو على هذا الاساس نقيض المترادف ، وقد اشار اليه سيبويه في تقسيمه للكلم ، وهو القسم الذي عبر عنه بـ (اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين) ومثل له بقولهم : وَجدْتُ عليه من المَوْجِدة ووجدتُ إذا أردتَ وجدانَ الضالّة، وأشباه هذا كثير[6] . وعنه اخذ قطرب هذا التقسيم واحتذاه[7] .

وتكثر منه اللغويون الرواة ، وجمعوا منه مادة كبيرة ، بحيث رووا ان لبعض الالفاظ ما يزيد على خمسين معنى ، ولعل لفظة (العَجوز) التي ذكرها الفيروزابادي

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ١/ ٤٥

(٢) المزهر ١/ ٤٠٥

(٣) اضداد ابن الانباري ٧

(٤) المزهر ١/ ٣٦٩

(٥) المنطق للمظفر ١/ ٤٤

(٦) الكتاب ١/ ٨

(٧) اضداد قطرب ٢٤٣

خير مثل على ذلك ، فقد ذكر ازاءها سبعين معنى او يزيد . مثل :الإبرة والأرض والأرنب والأسد والإلْف من كل شيء والبَحر والبطل والبقرة والتّاجر والتُرس والتّوبة وغيرها[1] . وكانت هذه المكاثرة ، وهذا التزيد غير المحدود في الفاظ المشترك ، هي التي قسمت الدارسين ايضا الى قائل بالمشترك مدافع عنه والى منكر له معلل لوروده ، كالذي رأيناه من تباين مواقفهم من المترادف .

والذي عليه اكثر الرعيل الاول من اللغويين القول بالاشتراك ، وعلى رأس اولئك الخليل وسيبويه وابو عبيدة والاصمعي وغيرهم ، فقد اثبتوه وتوسعوا فيه مستندين الى الشواهد العربية التي لا سبيل الى الشك فيها[2] . ثم اضاف من جاء بعدهم من القائلين بالمشترك دليل العقل الى دليل النقل . فعند هؤلاء « انه واقع لنقل اهل اللغة ذلك في كثير من الالفاظ . ومن الناس من اوجب وقوعه ، قال : لأن المعاني غير متناهية والالفاظ متناهية ، فاذا وزع لزم الاشتراك . وذهب بعضهم الى ان الاشتراك اغلب[3] » .

اما المنكرون واغلبهم من الرعيل اللاحق لاولئك ، فراحوا يعتلون لورود هذه الكثرة من الفاظ المشترك ، فأبو علي الفارسي انكر ان يكون الاشتراك مقصودا في اصل الوضع ، وانما سببه تداخل اللغات ، او الاستعارة التي تشيع فتصير بمنزلة المعنى الأول ، فيقول : « اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ، ينبغي الا يكون قصدا في الوضع ولا اصلا ، ولكنه من لغات تداخلت ، او ان تكون كل لفظة تستعمل بمعنى ثم تستعار لشيء فتكثر وتغلب ، فتصير بمنزلة الأصل[4] » . اما ابن درستويه ، فقد انكر الاشتراك لما فيه من عدم الابانة ، وعلل مجيء النادر منه باللغات ، او بحذف واختصار وقع في الكلام ، فقال : « فلو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين ، لما كان ذلك ابانة ، بل تعمية وتغطية ، ولكن قد يجيء الشيء النادر من هذا لعلل » ثم يذكر هذه العلل ويقول : « وانما يجيء ذلك في لغتين متباينتين ،

(١) القاموس المحيط ٢/ ١٨١

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية الملكي ٢/ ٢٣٣ لسنة ١٩٣٥ .

(٣) المزهر ١/ ٣٧٠ وانظر : الإحكام للآمدي ١/ ٢٤

(٤) المخصص ١٣/ ٢٥٩

او لحذف واختصار وقع في الكلام ، حتى اشتبه اللفظان ، وخفي ذلك على السامع وتأوَّلَ فيه الخطأ[1] » . فهو مع ابي علي الفارسي في تفسير بعض الفاظ المشترك باللهجات المتداخلة ، وهو تفسير علمي ، ايدته مرويات الاقدمين وشواهدهم[2] ، والى مثله ذهب الآمدي في دراسته للمشترك[3] .

واذا كان ابو علي الفارسي قد ذكر الاستعارة علة من علل نشأة المشترك وذكر ابن درستويه الحذف والاختصار علة اخرى في هذه النشأة ، فان ابن درستويه اوقفنا على علة اخرى مهمة تفسر ورود المشترك ، الا وهي التطور الدلالي الذي يصيب بعض الالفاظ ، وذلك من خلال مناقشته للمثل الذي ساقه سيبويه اولاً ، واللغويون بعده ، للمشترك ، وهو لفظ (وَجَد) الذي ينصرف الى الودّ ووجدان الشّيء والغَضب . . . الخ فيقول : « فظن من لم يتأمل المعاني ولم يتحقق الحقائق ان هذا لفظ واحد ، قد جاء لمعان مختلفة وانما هذه المعاني كلها شيء واحد ، وهو إصابةُ الشيء خيراً كانَ أو شراً[4] » . اذن فهناك تطور دلالي لحق المعنى الاول العام فصرفه الى معان اخرى تشترك في احتوائها على شيء من ذلك المعنى الشامل وتختلف فيما بينها في معنى خاص . وهذا المذهب في تفسير المشترك ايده الدرس اللغوي الحديث ، ووقف بوساطته على حقائق لغوية كانت خافية على اسلافنا الاقدمين[5] .

٥ ـ التضاد :

وهو ان تنصرف اللفظة الواحدة الى معنيين متضادين . وعليه فهو يشبه الاشتراك ، في كون اللفظة منهما تدل على اكثر من معنى ، ويفترق عنه في ان التضاد رهين بمعنيين لا اكثر ، وان هذين المعنيين متضادان لا مختلفان . واكثر اللغويين على ان التضاد نوع من المشترك ، ولكنه نوع اخص منه ، والى ذلك ذهب سيبويه

---

(١) المزهر ١/ ٣٨٥

(٢) نفسه ١/ ٣٨١

(٣) الإحكام في اصول الأحكام ١/ ٢٤

(٤) المزهر ١/ ٣٨٤

(٥) انظر : من اسرار اللغة ٤١ وفقه اللغة لوافي ١٨٦ وفي اللهجات العربية ١٩٥ ودراسات في فقه اللغة ٣٠٧

وقطرب وابو حاتم والمبرد وابن الانباري وابن فارس وابن سيده والسيوطي[١] ، في تحديداتهم للضد وتقسيمهم الكلم . الا ان ابا الطيب اللغوي جعله شيئا مستقلا ونوعا قائما بذاته ، فقال : « والاضداد جمع ضد ، وضد كل شيء ما نافاه . . . وليس كل ما خالف الشيء ضدا له ، الا ترى ان القوة والجهل مختلفان وليسا ضدين ، وانما ضد القوة الضعف ، وضد الجهل العلم[٢] » . وبهذا يكون ابو الطيب ادق اللغويين نظرا الى الاضداد وفكرة الضدية .

ولا نستطيع ان نقطع بان اول من التقط الاضداد من افواه العرب ورواها ، هو هذا اللغوي او ذاك ، الا اننا نستطيع ان نحدد روايتها بعصر ابي عمرو والخليل ويونس وابي زيد والشيباني والكسائي ومن في طبقتهم ، لورود ذكرهم جميعا في كتب الاضداد راوين لبعض موادها . ونستطيع ان نطمئن الى ان هؤلاء الاوائل لم يطلقوا على هذه الالفاظ المروية اسم (الاضداد) ، لعدم توفر ما يدل على ذلك . وانما ذكروا الضد ومعنييه المتضادين متعجبين ، كالذي فعله الخليل حين عرض لمادة (شَعَبَ) فقال : « هذا من عجائب الكلام ووسع العربية ان يكون الشَّعبُ تفرقاً ويكون اجتماعاً ، وقد نطق به الشِّعر[٣] » ، ومثل هذا ما قاله في مادة (النّاشِد) التي تعني الطالبَ والمعرِّف[٤] » . وكذلك الامر فيما روي عن يونس بن حبيب[٥] ، من اضداد .

وكانت قلة الاضداد وظرافتها ، كما يعبر قطرب[٦] ، هما الدافع الذي دفع اللغويين الاوائل الى جمعها وتدوينها ، ولكن سرعان ما تطور هذا الدافع وانقلب الى المكاثرة والمنافسة ، فابتليت الاضداد بمثل ما ابتليت به سائر الفاظ الظواهر اللغوية ،

---

(١) انظر : الكتاب ١/ ٨ واضداد قطرب ٢٤٤ واضداد ابي حاتم ٧٥ وما اتفق لفظه واختلف معناه ٢ ـ ٣ واضداد ابن الانباري ١ والصاحبي ٩٦ والمخصص ١٣/ ٢٥٩ والمزهر ١/ ٣٨٨

(٢) اضداد ابي الطيب ١/ ١

(٣) العين ٣٠٦

(٤) لسان العرب ٣/ ٤٢١ وتاج العروس ٩/ ٢٢٠

(٥) اضداد قطرب ٢٤٩

(٦) نفسه ٢٤٤

فعدوا منها المثين بعد ان كانت شذرات قليلة لا تتجاوز الاعداد المفردة . فانقسم الدارسون ايضا حيال هذه المواد على فريقين مدافع ومنكر ، ولكل منهما حججه وادلته واضعين لها مصنفاتهم .

وذهب المدافعون مذاهب متعددة ، فتمسك نفر منهم بالسماع والنقل ، وآخرون دعموا السماع بالعقل والقياس ، واعتمد فريق ثالث على فكرة الجمع بين القول بها ومحاولة تفسيرها . ويمثل المذهب الاول ابن فارس اذيقول: «وانكر ناس هذا المذهب وان العرب تأتي باسم واحد لشيء وضده ، وهذا ليس بشيء . وذلك ان الذين رووا ان العرب تسمي السيف مهندا والفرس طرفا هم الذين رووا ان العرب تسمي المتضادين باسم واحد[1] » . فالتسليم بالسماع عن العرب فى الترادف يقتضي التسليم بالسماع عنهم في الاضداد ، والرواة انفسهم في الحالتين ، فيبني تصديقهم فيما رووه . اما ابن سيده الذي يمثل المذهب الثاني ، فهو يتفق مع ابن فارس في موقفه من النقل الا انه يدعم هذا النقل بجدل منطقي يصطنعه مع منكر وهمي فيقول : « قيل له هل يجوز عندك ان تجيء لفظتان في اللغة متفقتان لمعنيين مختلفين ، فلا يخلو في ذلك ان يجوزه او يمنعه ، فان منعه ورده صار الى رد ما يعلم وجوده وقبول العلماء له ، ومنع ما ثبت جوازه وشبهت عليه الالفاظ ، فانها اكثر من ان تحصى وتحصر . . . فاذا لم يكن سبيل الى المنع من هذا ثبت جواز اللفظة الواحد للشيء وخلافه ، واذ جاز وقوع اللفظة الواحدة للشيء وخلافه ، جاز وقوعها للشيء وضده[2] » .

واما ابن الانباري الذي يمثل الفريق الثالث فرأى ان يدافع عن الاضداد بأن يعتل لورودها في اللغة ، فصرح بذلك في مقدمة كتابه[3] . فقال بالتطور الدلالي ، وذلك بان يكون للمعنيين المتضادين معنى شامل قديم[4] ، وكان قد افاد هذا من استاذه ثعلب ، الذي ذكر لنا الجواليقي انه كان يميل الى تفسير الاضداد بهذا

(١) الصاحبي ٦٦

(٢) المخصص ١٣/ ٢٥٩

(٣) اضداد ابن الانباري٣

(٤) نفسه ٨

العامل[1] . وذهب ابن الانباري الى تفسير الاضداد بالاتساع في الكلام ، مفيدا ذلك من قطرب[2] . وقال بتفسيرها باللهجات ، وذلك بان تنصرف اللفظة الى احد المعنيين في لهجة والى الآخر في لهجة اخرى ، مستقيا ذلك من الكسائي والفراء وقطرب[3] . الا ان اهم ما جاء به ابن الانباري في الدفاع عن الاضداد ، هو ما ذكره في الرد على من زعم ان وجودها في اللغة يورث اللبس ، فيقول : « ان كلام العرب يصحح بعضه بعضا ، ويرتبط اوله بآخره ، ولا يعرف معنى الخطاب منه الا باستيفائه واستكمال جميع حروفه ، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين ، لانها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية احد المعنيين دون الآخر ، ولا يراد بها في حال التكلم والاخبار الا معنى واحد[4] » . فالسياق وقرائن الكلام المتقدمة والمتأخرة ، هي التي تخصص احد المعنيين وتحصر دلالة اللفظة فيه ، وعليه فلا لبس ولا فوضى في الكلام كما يزعمون .

فاذا عدنا الى المنكرين وجدناهم طائفتين ، طائفة سيئة النية في انكارها ، وهي التي عبر عنها ابن الانباري بـ (اهل البدع والزيغ والازراء بالعرب) وهم الشعوبيون ، الذين طعنوا على العربية احتضانها لهذه المواد ، حيث تورث اللبس في الكلام ، وتدل على عيب في اللغة وحكمة الناطقين بها[5] . وقد نقلنا رد ابن الانباري عليهم قبل قليل ، بان السياق يمنع اللبس ويوضح الغرض . اما الطائفة الثانية فلم يتوفر فيها سوء النية وان افادت فكرة الانكار من الاولى . ذلك انها عمدت الى الانكار بشكل مختلف ، تتوفر فيه الايجابية ويقوم على النظرة العلمية الموضوعية لمواد اللغة ودلالاتها .

واكبر الظن ان ثعلبا وان لم يكن من رجال هذه الطائفة ، هو الذي رسم المنهج لهؤلاء ، بما نقلناه عنه قبل قليل من رجع المعنيين المتضادين الى معنى عام قديم . فتسلم ابن درستويه هذا المفتاح وراح يبطل به اصالة ضدية الاضداد ، لأن

(١) شرح ادب الكاتب ١٧٧

(٢) اضداد ابن الانباري ٨

(٣) نفسه ١١ - ١٢ واضداد قطرب ٢٥٦

(٤) اضداد ابن الانباري ٢ .

(٥) نفسه ١ - ٢ .

(واضع اللغة عز وجل حكيم عليم) كما يقول ابن درستويه[1] . فالمنطلق اذن من الايمان بتوقيف اللغة ، والواقف هو الله ، فلا يمكن ان يضع الحكيم العليم الفاظا تكون سببا في التعمية والتغطية ، فلا بد على هذا من الدفاع عن قداسة اللغة بانكار الاضداد وذلك برجع المعنيين الى معنى واحد . وهو المنهج نفسه الذي انكر به ابن درستويه الاشتراك ، ومر بنا هناك ابطاله لاشتراك لفظة (وَجَد) التي ذكرها سيبويه ، بأن ارجع معانيها الى معنى شامل . ومن امثلة انكاره الاضداد ارجاعه لمعنيي (بَيضة البَلَد) التي تطلق على الرجل في المدح وفي الذم ، الى معنى الشهرة، لأن كلا من الممدوح والمذموم يشتهر بما هو فيه[2] .

وعلى نهجه سار الحسن بن بشر الآمدي في ابطال الاضداد ، وقد عالج ضدية (دون) و (وَراء) على هذا المذهب من الانكار[3] . على ان ابن درستويه اضطر الى الاعتراف بمجيء النادر من الاضداد ، ولكنه لم يسكت عن الاعتلال له باختلاف اللهجات مرة ، وبالحذف والاختصار اخرى[4] . وقد ايد الدرس اللغوي الحديث هذا المنهج في الاعتلال لنشأة الاضداد في اللغة ، لأن هذا الدرس انكر ايضا ان يكون التضاد اصيلا في الوضع[5] .

---

(١) المزهر ١/ ٣٨٥

(٢) اضداد ابي الطيب ١/ ٥٧

(٣) الموازنة ١/ ١٧٣

(٤) المزهر ١/ ٣٨٥

(٥) انظر دراستنا : الأضداد في اللغة ١١٦ ـ ٢٤٢ .

الباب الرابع

تقويم الدراسة القديمة في ضوء الدراسة الحديثة

الفصل الأول : المصطلحات والموضوعات بين القدماء والمحدثين

الفصل الثاني : الدراسات اللغوية واللغات السامية



الفصل الأول

المصطلحات والموضوعات بين القدماء والمحدثين

فقه اللغة بين القدماء والمحدثين : مصطلح فقه اللغة ـ موضوعات فقه اللغة ـ نموذجان من المعالجات : نشأة اللغة ـ الاصوات .

فقه اللغة بين القدماء والمحدثين

١ ـ مصطلح فقه اللغة :

الفقه لغةً : الفَهم ، « قال اعرابيٌ لعيسى بنِ عُمَر : شهدت عليك بالفقه اي بالفهمِ والفِطنة . وفي الحديث من أراد اللهُ به خيراً فقَّهَه في الدِّين . وفقَّهتُ فلانا كذا وافقَهتُه إياه : فهَّمتُه ففِقهه وتفقَّهه[1] » ففقه اللغة على هذا الاساس يعني فهم اللغة او العلم بحقائقها او الفطنة الى اسرارها .

اما فقه اللغة مصطلحا على هذا الحقل المعروف من حقول الدراسات اللغوية ، فيعني لدى الدارسين قدمائهم ومحدثيهم ـ على تفاوت بين الفريقين في سعته ـ البحث في ظواهر اللغة المختلفة ، ودراسة قوانينها ، واسرار تطورها ونموها . والوقوف على تاريخها ومراحل سيرها ، ومحاولة وصفها والتعليل لما يمكن من احكامها[2] .

ولم يكن المصطلح معروفا لدى الدارسين العرب في طور نشأة الدراسات اللغوية ، وان كانوا في ذلك الطور قد عالجوا جوانب مهمة من موضوعات فقه اللغة ، ووضعوا في ذلك رسائلهم وكتبهم ومصنفاتهم ، ولا أرى بي حاجة الى التمثيل لذلك فقد مر في الباب الثاني من هذه الرسالة ذكر العشرات ودراسة الكثير من هذه الكتب التي تناولت ظواهر اللغة واسرارها الدقيقة بالدرس والبحث والكشف .

وظل المصطلح بعيدا عن اذهان الدارسين ، على الرغم من تطور دراساتهم اللغوية ، وتشعبها وتعدد جوانبها . وعلى الرغم من تخصص بعض المصنفات بموضوعات

---

(١) ديوان الادب ٢/ ٢٥٥ واساس البلاغة ٤٧٩

(٢) فصول في فقه العربية ٩ وعلم اللغة ١٤

فقه اللغة والتمحض لها ، فحين يضع ابن جني المتوفى في اواخر القرن الرابع (٣٩٢ هـ) كتابه (الخصائص)[١] ويضمنه بحوثه اللغوية القيمة ، التي يدخل معظمها في فقه اللغة ، كبحثه في اصل اللغة ، والاطراد والشذوذ ، ومقاييس العربية ومعاني الالفاظ في اللغة ، وتعليل الظواهر اللغوية ، والقياس في كلام العرب ، وتركب اللغات ، واختلاف اللهجات ، والاشتقاق ، والاشتراك ، والتضاد ، والترادف[٢] ، الى آخر هذه الموضوعات ، اقول : الى هذا الحين لم يكن مصطلح فقه اللغة قد تحدد بعد ، اذ لم نعثر في كتاب الخصائص على ما يشير اليه ، على الرغم من تخصص الكتاب بالبحث في موضوعات المصطلح .

الا اننا سرعان ما نجد ابن فارس المتوفى (٣٩٥ هـ) المعاصر لابن جني ، يضع عبارة (فقه اللغة) في عنوان احد كتبه ، مشعرا ايانا باستخدام هذه العبارة مصطلحا لبحوث الكتاب ، التي يدخل اغلبها نطاق فقه اللغة ، كبحثه في نشأة اللغة ، وخصائص اللسان العربي ، واختلاف لغات العرب ، ولغات العامة من العرب ، والقياس والاشتقاق في اللغة العربية ، وآثار الاسلام في اللغة ، واسماء الاشخاص ومأخذها ، والمترادف ، وحروف الهجاء العربية ، وحروف المعنى ، وسنن العرب في حقائق الكلام ، والتضاد ، والمجاز ، والنحت ، والاشتراك[٣] ، وغير ذلك مما اودع كتابه « الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها[٤] » . ولعله اول كتاب في العربية يحمل في عنوانه مصطلح فقه اللغة للدلالة على موضوعاته ، على ان ابن جني في (الخصائص) كان اعمق بحثا وانضج منهجا واوسع مادة ، كما كان كذلك في كتابه (سر صناعة الاعراب)[٥] فيما يتعلق بالمباحث الصوتية والصرفية ، التي تناولها ابن فارس ايضا في كتابه الصاحبي[٦]

---

(١) طبع في ثلاثة اجزاء بتحقيق محمد علي النجار - القاهرة ١٩٥٢ م - ١٩٥٦ م .

(٢) الخصائص ١/ ٤٠ ، ٩٦ ، ١٠٩ ، ٢١٥ ، ٢٠٠ ، ٣٥٧ ، ٣٧٤

(٣) الصاحبي ٣١ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٢٥ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٦٩ ، ٢٧١

(٤) طبع الكتاب طبعتين : الاولى بعناية الشيخ محمد محمود الشنقيطي - القاهرة ١٩١٠ م . والثانية بتحقيق مصطفى الشويمي - بيروت ١٩٦٤ م

(٥) طبع منه الجزء الاول بتحقيق مصطفى السقا وآخرين - القاهرة ١٩٥٤ م .

(٦) الصاحبي ١٠٠ - ١٧٨

ثم نجوز الى القرن الخامس فنجد المصطلح يفتقد دلالته الواضحة التي رأيناها عند ابن فارس ، فالثعالبي المتوفى (٤٢٩ هـ) يتجوز كثيرا بتسمية كتابه (فقه اللغة[١]) بهذا الاسم . اذ الكتاب عبارةعن معجم صغير لالفاظ اللغةمرتبة حسب ابوابها ومعانيهافهو من معجمات المعاني المختصرة ، وليس فيه مما يدخل في ابواب فقه اللغة سوى خمس عشرة صفحة من الباب التاسع والعشرين ، يتكلم فيها على ما يجري مجرى الموازنة بين العربية والفارسية ، وعلى ما نسبه بعض الائمة الى اللغة الرومية ، وسمى الباب الذي فيه هذا الكلام (سر العربية[٢]) .وسوى ما فرقه في كتابه من ذكر الفاظ المشترك والاضداد[٣] .

واخذ مصطلح (فقه اللغة) ينزوي عن مؤلفات اللغويين ، ففي هذا القرن ايضا (القرن الخامس) الف ابن سيده المتوفى (٤٥٨ هـ) كتابه المخصص في اللغة[٤] مضمنا اياه بحثه في نشأة اللغة[٥] ، ودراساته للتضاد ، والترادف ، والاشتراك ، والاشتقاق ، والتعريب ، والمجاز ، والممدود والمقصور ، والتذكير والتأنيث ، وابدال الحروف بعضها

مـــن بعض[٦] ، وما الى ذلك من بحـــوث فقـه اللغة ، دون ان يطلـق على كتابـــه المصطلح او يشير الى ان هذه البحوث في فقه اللغة .والكتاب معجم ضخم لمتن اللغة مرتب على الموضوعات وهو اشبه ما يكون بالغريب المصنف لابي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤) ، وفقه اللغة للثعالبي ، الذي مر ذكره قبل قليل ، ولا تحتل بحوثه في فقه اللغة هذه إلا جزءا صغيرا منه .

واستمر علماء اللغة يضعون مؤلفاتهم في موضوعات فقـه اللغـة ، ففـي القـرن السـادس وضـع ابـو منصـور الجواليقـي (ت ٥٤٠ هـ) كتابـه (المعـرب من الـكلام الاعجمي[٧]) باحثا فيه نشأة التعريب وشروطه ، وذاكرا الالفاظ المعربـة ، وفي القـرن

---

(١) طبع في مجلد بتحقيق اليسوعي ، بيروت وطبع في القاهرة د . ت

(٢) فقه اللغة : الباب ٢٩

(٣) انظر : ص ٣٢١، ٥٦٢، ٥٦٥، ٤٦٨ .

(٤) طبع بالتصوير (الاوفست) بخمسة اجزاء في سبعة عشر سفرا عن طبعة بالقاهرة ١٣١٦ هـ المكتب التجاري ببيروت د . ت

(٥) المخصص : المقدمة

(٦) المخصص ١٣/٢٥٨ ، ٢٦٧ ، ١٤/ ٢ ، ٤٤ ، ٧٩ ، ١٥/ ٩٥ ، ١٦/ ٧٩

(٧) طبع بتحقيق الشيخ احمد شاكر ـ القاهرة ١٣٦١ هـ

العاشر وضع السيوطي (ت ٩١١ هـ) كتابه (المزهر في علوم اللغة وانواعها[١])دارسا فيه اهم الموضوعات اللغوية ، كدرسه لنشأة اللغات ، والمصنوع والفصيح ، والحوشي والغريب ، والمستعمل والمهمل ، وتوافق اللغات ، وتداخلها ، والمعرب والمولد ، وخصائص اللغة ، والاشتقاق ، والمشترك ، والترادف ، والتضاد ، والحقيقة ، والمجاز ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والابدال ، والقلب ، والنحت ، واختلاف اللغات ، والتصحيف والتحريف ، والاسماء والكنى والالقاب[٢] ، وغير ذلك من البحوث القيمة . وفي القرن الحادي عشر الف شهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦١ هـ) كتابه (شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل[٣]) مضمنا اياه بحثه في التعريب وشروطه ، واستدراكه على معرب الجواليقي .

وفي القرن الثالث عشر يبحث احمد فارس الشدياق في كتابه (سر الليال في القلب والابدال[٤]) العلاقة بين اصوات الكلمة ومعانيها ، ودلالة الحروف في الالفاظ على الاصل المعنوي ، وارجاع الكلمات الى اصولها[٥] ، وغير ذلك من البحوث اللغوية .

الذي نريد ان نخلص اليه هو ان مصطلح (فقه اللغة) بعد الثعالبي ، كان بعيدا عن كتب فقه اللغة والمصنفات التي عالجت موضوعات هذا الفرع اللغوي من الدراسات اللغوية . فبقدر ما كانت عليه هذه الدراسات والبحوث من النضج والاستيعاب والعمق في النظر الى اللغة متنا وظواهر وقوانين ، كان المصطلح فيها من الانزواء والضمور وعدم الوضوح ، ولعل التفاتة ابن فارس الى المصطلح كانت المناداة الوحيدة الواضحة الى دلالة(فقه اللغة) على العلم الذي يرمي اليه المصطلح ، وفيما عدا ذلك كان استخدامه لا يخلو من تجوز كبير .

اما مصطلح (فقه اللغة) لدى الدارسين المحدثين ، فقد اختلفت دلالته باختلاف الدارسين انفسهم . فهو ينصرف في ابحاث اللغويين العرب الى ما كان ينصرف اليه عند ابن فارس ، ويشمل في دراساتهم من الموضوعات ما شمله في دراسات ابن جني ومن جاء

(١) طبع في القاهرة سنة ١٩٢٥ ثم طبع بتحقيق محمد ابو الفضل آبراهيم وآخرين ـ القاهرة ١٩٥٨ م

(٢) المزهر ١/ ٣٠ ، ٤٧٦ ، ٤٨١ ، ٤٦٠ ، ٣٤٦ ، ٤٨٥ ، ٤١٤ ، ٣٦٥ ، ٢٦٨ ، ٣٠٤ ، ٤٠٣ ، ٣٦٩ ، ٣٨٤

(٣) طبع في القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ

(٤) طبع في استانبول سنة ١٢٨٤ هـ

(٥) سر الليال ٥

بعده من فقهاء اللغة . بفرق واحد هو فرق التطور العلمي الذي اصاب الدراسات الحديثة بفضل تطور وسائل البحث واجهزة الكشف والرقي الذي شمل اكثر ميادين العلوم والحياة . ودليلنا على ذلك مراجعة ما وضع هؤلاء الباحثون من مؤلفات ودراسات في مختلف موضوعات فقه اللغة[1] الا انه تخصص لدى هؤلاء الباحثين بـ (اللغة العربية) دون سواها من اللغات ، فهو (فقه اللغة العربية) ، تفريقا له عن مصطلح آخر هو (علم اللغة) الذي تخصص لديهم بدراسة ظواهر اللغات وقضاياها عموما[2] .

فعلم اللغة يبحث في الظواهر والقوانين المشتركة بين جميع اللغات ، وفي الاصول والخصائص الجوهرية التي تجمع بين سائر انماط الكلام الانساني ، محاولا الوصول الى ادراك الحقائق التي تربط اللغات كلها بخيط واحد ، ومن هنا يتضح الفرق بين مصطلحي (فقه اللغة) الخاص ، و (علم اللغة) العام ، وتبرز العلاقة الوظيفية بينهما . وعليه فان اللغويين العرب القدماء حين عالجوا موضوعات فقه اللغة ، لم يكونوا (فقهاء لغة) فحسب وانما كانوا ايضا (علماء لغة) ولكنهم قصروا علم اللغة على العربية .

اما المستشرقون فقد اختلفوا في تحديد مصطلح (Philology فيلولوجي) الذي اتفق على انه يقابل (فقه اللغة) فمنهم من ذهب الى ان فيلولوجي هو علم اللغة وانه يشمل ما يشمل الاخير من موضوعات ، ومنهم من اراد به دراسة لغة او لغات معينة من حيث قواعدها وتاريخ ادبها ونقد نصوصها ، ولعل هذا اقرب المذاهب الى دلالة المصطلح لدى العرب ، ومنهم من وسع اطلاقه فشمل دراسة الحياة العقلية وثمارها العلمية في امة ما او في مجموعة امم[3] ، وهو بهذا الاطلاق يقترب من علم التاريخ ومناهجه .

---

(١) انظر المسرد الذي صنعه الدكتور رمضان عبد التواب لأهم مؤلفات الباحثين العرب المحدثين في فقه اللغة : فصول في فقه العربية ١٤ ـ ١٨

(٢) انظر : علم اللغة (وافي) : ٥ ، وعلم اللغة (السعران) : ٥١ ، وفصول في فقه العربية : ١١

(٣) علم اللغة (وافي) : ١٢ والنثر الفني في القرن الرابع ٢ / ٣٧ .

ويظهر من عدم تحديد المصطلح لدى المستشرقين على هذا النحو من الاختلاف في ميدان بحثه ، انهم لم يوفقوا في اختيار (فيلولوجي) مقابلا لـ (فقه اللغة) ، فلكل منهما ميادينه العلمية الخاصة ، وعليه فلا نجد حراجة في رفض هذا المقابل غير المقابل ، ولا مانع من ان يقابل فقه اللغة مصطلح (Linguastices علم اللغة) ، خصوصا بعد ان قررنا ان (فقه اللغة) متخصص بالعربية وهو علم اللغة العربية ، يضاف الى ذلك ان المستشرقين حين يبحثون عن اسرار العربية وظواهرها انما يبحثون في لغة اجنبية عنهم ، لا كما يبحث فيها العربي المتمسك بمصطلح ورثه عن ابن فارس الذي اطلقه على بحوثه في اللغة العربية .

وقد فطن المستشرق لومل (Lommel) الى ما يمكن اجراؤه من الموازنة بين مصطلحي (علم اللغة) و (فيلولوجي) فقال : « ان علم اللغة من اهم الوسائل المساعدة للدراسات الفيلولوجيه من جانب ، ومن جانب آخر فانه علم قائم بذاته له وظيفة معينة وطرق وميادين معروفة ، ولا يستغني علم اللغة عن الفيلولوجيا ، لأن اهم مصادره هي النصوص اللغوية والعلاقة وثيقة بين العلمين ، الى درجة ان الاستعمال الشائع للكلمتين ، لا يكاد يفرق بينهما[1] » .

وخلاصة القول ان مصطلح (فقه اللغة) لم يكن معروفا قبل ابن فارس ، على الرغم من تطور دراسات فقه اللغة ونضجها في عصره ، الا ان المصطلح فقد وصوح دلالته بعد ابن فارس على يد الثعالبي ، ثم اختفى من مصنفات اللغويين المعقودة لبحث موضوعاته . ثم استقر في ابحاث العرب المحدثين دالا على ما كان يدل عليه لدى ابن فارس ، بعد ان تعمقت ابحاثه على ايديهم بفضل التطور العلمي الشامل . وتخصص لدى هؤلاء المحدثين بعلم اللغة العربية وظل لمصطلح (علم اللغة) عمومه المطلق ، واخفق الاجانب باختيار المقابل للمصطلح الذي هو (فيلولوجي) لعدم وجود تحديد دقيق لدلالته ، وهو غير المقصود بفقه اللغة في العربية وبقي مصطلح (علم اللغة) يفي بغرضه لديهم في اطلاقه على دراساتهم

(١) فصول في فقه العربية : ١٠ نقلا عن رسالة بعنوان Wie stuciert man Sprachwissen schaft (كيف يدرس علم اللغة) .

للغة العربية ، على ما بين (فقه اللغة) و (علم اللغة) في نظر جميع الدارسين عرب ومستشرقين من روابط وظيفية شديدة .

* * *

٢ ـ موضوعات فقه اللغة :

لعلنا استطعنا من خلال ما مر بنا من تتبع لنشوء مصطلح (فقه اللغة) وتطوره ، وموازنة النظر اليه بين القدماء والمحدثين ، ان نرسم ملامح الموضوعات التي يشملها فقه اللغة او (علم اللغة العربية) ، ولتوضيح هذه الملامح واستكمال الصورة ، ندرس الآن اهم هذه الموضوعات ، وما حقق من دراستها القدماء والمحدثون، ذاكرين ما اشتركوا فيه منها ، وما اضافه المحدثون اليها .

يتفق العلم اللغوي الحديث على أنَّ أبرز موضوعاته هي[١] :

١ ـ نشأة اللغة : وذلك بدراسة المراحل التي قطعها التعبير حتى وصل الى مرحلة الاصوات الدالة ، واسس هذا السير ، ودراسة مركز اللغة لدى الانسان ، الى آخر ما يتعلق بهذا الموضوع ، الذي يشوب الدرس فيه الظن والحدس ، والاعتماد على الدلائل المفتقرة للقوة والاطمئنان . مما حدا ببعض العلماء الى اخراجه من ميدان (علم اللغة) والحاقه بميدان التاريخ والفلسفة (الميتافيزيقية) ، لأن منهج البحث فيه يختلف عن منهج البحث اللغوي ، واخذا بهذا المذهب ، اعرض عن تناوله كثير من الباحثين المحدثين ، ويطلق عليه في الغرب اسم (Origine of Language)[٢] .

وكان اللغويون العرب قد تناولوا نشأة اللغة بالبحث منذ عصر مبكر ، فعرض لهذا الموضوع ابن عباس (ت ٦٨ هـ) والخليل (ت ١٧٥ هـ) كما عرض له في القرن الرابع أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧) وابن جني (ت ٣٩٢) وابن فارس (ت ٣٩٥) وغيرهم ، كما عرض له في القرن الخامس ابن سيده (ت ٤٥٨) .

---

(١) انظر : عُلم اللغة (وافي) ٥ ـ ١٢ ونشأة اللغة عند الانسان والطفل ٢٠ وما بعدها وفصول في فقه العربية ٩ ـ ١١

(٢) علم اللغة ٥

وفي القرن التاسع ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) وفي القرن العاشر السيوطي (ت ٩١١)[١] ، وجميعهم على انه من العلم اللغوي ، وعالجوه في كتبهم في فقه اللغة .

٢ ـ حياة اللغة : وذلك بدراسة تطور اللغة وانقسامها الى لهجات ، واستقلال هذه اللهجات حتى تستوي كل واحدة منها لغة قائمة ، وصراع اللغات وما يسفر عنه من غلبة وانكسار ، واسباب هذا الصراع ونتائجه ، والقوانين التي يخضع لها ، كما يدرس موت الالفاظ واختفاءها من الكلام والكتابة ، او من الكلام دون الكتابة ، وولادة الفاظ تحتل مكان الاولى ، وما الى ذلك مما يدخل فيما يطلق عليه لدى الغربيين (Life of Language) .

كما يدخل في هذا الموضوع ايضاً ما يسمى بعلم اللهجات (Dialectology) الذي يدرس الظواهر المتعلقة باختلاف اللهجات ، من حيث توزيعها الجغرافي اللغوي[٢] .

وقد عالج الدارسون العرب القدماء اغلب جوانب هذا الموضوع بما وضعوه من مؤلفاتهم في (الغريب) و (اللغات) و (النوادر) و (اللحن) و (القراءات) و (المعرب) وغيرها من المصنفات التي خصصت لبحث ظواهر تطور اللغة في المفردات ، واختلاف اللهجات ، واقتراضها ، وسنن هذا الاقتراض ، وموت الالفاظ وغرابتها وانزوائها ، وولادة الالفاظ ومواطن اللهجات ودرجاتها من الفصاحة وما الى ذلك مما فصلنا القول فيه حين عرضنا لهذه الكتب بالدراسة ، يضاف الى ذلك بحوث اللغويين الذين جاءوا بعد اولئك ـ بعد القرن الثالث ـ كابن جني في الخصائص ، وابن فارس في الصاحبي والسيوطي في المزهر وغيرهم ممن عقد فصولا لاختلاف لغات العرب ، ولغات العامة من العرب ، وآثار الاسلام في اللغة ، وتركب اللغات ، والحوشي والغرائب ، والشوارد والنوادر ، والمستعمل والمهمل ،

---

(١) تفسير الطبري ١/ ١٧٠ وتهذيب اللغة ١/ ٤٩ والخصائص ١/ ٤٠ والصاحبي ٥ والمزهر ١/ ١٧ والاقتراح ٦

(٢) علم اللغة ٦

وتداخل اللغات ، وتوافقها ، والمعرب ، والمولد . . الخ[1] . مما دخل كتب فقه اللغة القديمة .

٣ ـ الاصوات اللغوية : وذلك بدراسة مخارجها واقسامها ، وصفات كل قسم ، واحيازها وخواص كل حيز ، واعضاء النطق ، واختلاف طريقة سماعها ، واختلاف إلنطق بها باختلاف العصر ، وتطور الاصوات ، وعوامل هذا التطور ، والنتائج المترتبة عليه ، والقوانين الخاصة به ، الى آخر بحوث علم الصوت ، المسمى لدى الغربيين بـ (Phonetique)[2] .

وليس بخاف على المطلعين على اعمال اللغويين العرب ما ابدعه هؤلاء من بحوث وما كشفوه من حقائق في هذا المضمار ، فكان للغويين القراء وقفات محمودة عند الاصوات ، واحكامها ، ونطقها في التلاوة ، واختلاف القراءات ، وكان كتاب (الهمز) لابن ابي اسحاق (ت ١١٧[3]) من أوائل الآثار الصوتية ، التي درست هذا الصوت ، ثم كانت دراسات الخليل بن احمد (ت ١٧٥) في مقدمة كتاب العين[4] ، وفيما نقله عنه تلميذه سيبويه في (الكتاب)[5] من انضج الدراسات التي تناولت مخارج الحروف واحيازها وصفاتها من حيث الجهر والهمس، والقلقلة والاصمات ، والسكون واللين ، والتجاور والتأثير ، والظواهر الصوتية المختلفة ، وقوانين التطور الصوتي ، ونتائج التماثل والتشابه او التنافر بين الصوتين المتعاقبين . كما كانت معالجات سيبويه في (الكتاب) للابدال والادغام وما يترتب عليهما من ظواهر وقوانين من أجَلِّ البحوث الصوتية[6] .

ثم وضع العرب كتبهم في (الاصوات) و (الأبدال) و (الادغام) ،

---

(١) الخصائص ١/ ٣٧٤ ، ٢/ ١٠ والصاحبي ٤٨ ، ٥٣ ، ٧٨ والمزهر ١/ ٢٦٨ ، ٣٠٤

(٢) علم اللغة ٦

(٣) مراتب النحويين ١٢ والمزهر ٢/ ٣٩٨

(٤) طبع جزء منه بعناية انستاس الكرملي ببغداد ، واعيد طبع جزء اكبر بتحقيق د . عبد الله درويش ببغداد ١٩٦٧ انظر فيه ص ٥٢ ـ ٦٧

(٥) الكتاب ٢/ ٤٠٤ ، ٤٠٥

(٦) الكتاب ٢/ ٣١٣ ، ٤٠٤ .

يدرسون فيها ما يتعلق بالاصوات من تطور واختلاف ونتائج ، وقد عرضنا لهذه الكتب في الباب الخاص من هذه الرسالة ، وتناول النحاة ايضا موضوع الاصوات فوقفوا عنده وقفات متعددة ، ولعل ابرزها وقفة الفراء (ت ٢٠٧ هـ) في معاني القرآن ، والمبرد (ت ٢٨٥ هـ) في المقتضب . كما تناول علماء القرن الرابع وما بعده موضوع الاصوات بالدرس والتفتيش ، فأبدع ابن جني فيما بحث في هذا المجال ، وعرض لها في (الخصائص)[1] ، ومحض لها كتابه (سر صناعة الاعراب) وبسط فيه القول على جوانب الدرس الصوتي ، مفرعا فيه ، ومضيفا اليه[2] . ولا تخلو معجمات اللغة من بحوث صوتية ، اذ يعرض وُضّاعُ هذه المعجمات الى دراسة الحرف من الناحية الصوتية في مفتتح الباب الذي يعقدونه له ، وانضج هذا النوع من الدراسة ما قام به ابن منظور (ت ٧١١ هـ) في كتابه (لسان العرب)[3] . كما عقد السيوطي (٩١١) في (المزهر) ابوابا للاصوات يدرس فيها ابدالها واختلاف الناطقين بها وما يطرأ عليها من تصحيف وتحريف[4] ، وكان كتاب الشدياق (سر الليال في القلب والابدال) من البحوث المتأخرة الرصينة في موضوع ابدال الاصوات ، وعلاقة الاصوات بالمعنى ، ودلالة الاصوات المشتركة في الفاظ متعددة على الاصل المعنوي الجامع[5] . وسنقف في آخر هذا الفصل على موضوع الاصوات وقفة اكثر استيعابا .

٤ ـ الدلالة : وذلك بدراسة اللغة من حيث كونها وسيلة للتفاهم ونقل الافكار .
وقد اطلق اللغوي الغربي بريال(M.Breal)اسم سيمنتيك(Semantique) على هذا الميدان من البحث اللغوي ، فارتضيت التسمية لدى علماء الغرب عَلَما لعلم الدلالة . ويشمل علم الدلالة الحديث فروعاً مختلفة من البحث اللغوي ، منها : (آ) البحث في معاني الكلمات ، ومصادر هذه المعاني ،

---

(١) الخصائص ١/ ٥٤٤ ، ٥٤٩

(٢) سر صناعة الاعراب ١/ ٣٥ ، ٢٠٩ ، ١٠

(٣) لسان العرب انظر مثلا : ١/ ١٢

(٤) المزهر ١/ ٤٦٠

(٥) سر الليال : ٥

واختلافها في اللغة باختلاف العصور ، ويسمى هذا الفرع بعلم المفردات (ليكسيكولوجيLexicology) (ب) البحث في الاشتقاق ، والتصريف ، والابنية وتغيرها بتغير المعنى ، وهو المسمى بعلم الابنية (مورفولوجي Morphology) ، ومنه المورفولوجي التعليمي ، والمورفولوجي التاريخي ، والمورفولوجي المقارن . (ج) البحث في اقسام الكلمات ، وانواع كل قسم ووظيفته الدلالية ، واجزاء الجملة وترتيبها ، واثر كل جزء منها في الآخر ، وهو المسمى علم التنظيم (سنتكسSyntaxe) وهو ايضا : تعليمي وتاريخي ومقارن . (د) البحث في اساليب اللغة ، واختلافها باختلاف نصوصها ، وعصورها ، والناطقين بها ، وتطور هذه الاساليب وقوانين تطورها ، وهذا هو علم الاساليب (ستيليستيك Stylistique) ومنه كذلك التعليمي والتاريخي والمقارن . والعلم اللغوي الحديث يخرج علم البنية التعليمي (الصرف) ، وعلم التنظيم التعليمي (النحو) ، وعلم الاساليب التعليمي (البلاغة) من نطاق علم اللغة لاختلاف ميادين هذه العلوم واغراضها ومناهج البحث فيها عن علم اللغة[1] .

وقد خاض العرب غمار هذه الموضوعات ، ودرسوها في مصنفاتهم ، ووضعوا لها رسائلهم المستقلة ، فقد بكروا بالوقوف على ظواهر اللغة الدلالية ، فالتفتوا الى دلالة الفاظ المشترك والمترادف والاضداد ، وبحثوا مصادر هذه المعاني المشتركة والمترادفة والمتضادة ، وفطنوا الى عامل الزمن في اكتساب هذه الالفاظ المعاني الثانوية[2] . كما شغلوا بدراسة الاشتقاق وانواعه وتوسعوا فيه ، كما توسعوا بدراسة ابنية الالفاظ وعلاقتها بمعانيها[3] ، الا ان دراساتهم في هذا المجال كانت من النوع الذي يدخل (علم البنية التعليمي) الذي يقابل في مصطلح الدارسين (علم الصرف) ، ولم يعنوا كبير عناية بالنوعين الآخرين اللذين هما : علم البنية التاريخي ، الذي يتتبع ظواهر هذا العلم تتبعاً تاريخياً تحليلياً ، سائراً مع مراحل

(١) علم اللغة ٦ - ٩ .

(٢) الصاحبي ٦٥ والخصائص ٢/ ١١٣ والمزهر ١/ ٤٠٥ .

(٣) الصاحبي ٣٣ والمزهر ١/ ٣٤٦ والخصائص ١/ ٥٢٧ .

تطور اللغة ، وعلم البنية المقارن ، الذي يقارن ظواهر هذا العلم بين لغتين مختلفتين او بين مجموعة لغات ، لعدم معرفة اغلب اللغويين القدماء باللغات الاخرى غير العربية سامية وغير سامية ، سوى اطراف معرفة لا تغني شيئاً . والعرب حين درسوا علم البنية على المنهج التعليمي ونعني به علم الصرف ، ادخلوه مصنفاتهم الكبيرة مع دراساتهم اللغوية والنحوية ، وقد درسنا ظاهرة اختلاط الدراسات في مصنفات الاوائل[1] ، الا انهم سرعان ما افردوا علم الصرف (علم البنية التعليمي) بمصنفات مستقلة وضعوها لأجله ، ولعل من اوائل هذه المصنفات (التصغير) للرواسي (ت ١٨٧ هـ)[2] . وهم بذلك سبقوا العلم الحديث في التنبه الى استقلال هذا العلم وخروجه عن ميدان فقه اللغة ، يدل على ذلك ايضاً أنَّ فقهاء اللغة بعد القرن الثالث كابن جني وابن فارس لم يتعرضوا الا الى شذرات منه في مصنفاتهم اللغوية[3] .

ودرس العرب ايضاً اقسام الكلام، وانواع كل قسم ، ووظيفة كل نوع ، واثر اجزاء الجملة بعضها ببعض (العامل) وترتيب اجزاء الجملة (التقديم والتأخير ، والصدارة في الكلام) وما الى ذلك من ميادين علم التنظيم ، ولكنهم كانوا ايضاً يبحثون ذلك على منهج علم التنظيم التعليمي ، واغفلوا دراسة هذه المواضيع على المنهجين التاريخي والمقارن ، وحين ابعد العلم اللغوي الحديث هذا الفرع عن نطاق علم اللغة ، كان اللغويون العرب اسبق منهم الى ابعاده وافراده بالدرس والتأليف واصطلاحهم عليه بالنحو ، وعلى ذلك جل كتب النحو ، كما ان كتب فقه اللغة القديمة كالصاحبي مثلا لم تخل خلواً تاماً من هذا النوع من الدراسة[4] ، على ما بين دراسة ابن فارس ودراسات النحاة من فرق واضح . وكذلك كان العرب حين درسوا الاساليب اللغوية ، واختلاف مؤداها باختلاف نصوصها وعصورها والناطقين بها ، فقد تنبهوا وهم يضعون مؤلفاتهم الخاصة بعلم

---

(١) انظر الباب الثاني من هذه الرسالة .

(٢) الفهرست ٧١ .

(٣) الخصائص ٢/ ٤٨٧ والصاحبي ٨٦ ، ٨٨ .

(٤) الصاحبي ١٥٧ ـ ١٧٨ .

الاساليب - دفاعاً عن القرآن واعجاز نظمه بادىء الامر - الى ان هذه الدراسات ليست من علم اللغة ، وانما هي دراسات نقدية بيانية ، فاصطلحوا عليها بعلم البيان او علم البديع او علم المعاني بحسب الابواب المدروسة وادخلوها نطاق علم البلاغة الذي يضمها جميعاً بين جنبيه . ذلك ان العرب شأنهم في الفرعين السابقين ، بحثوا علم الاساليب من الناحية التعليمية لا التاريخية ولا المقارنة . فكانت دراساتهم تتسم بطابع الادب والنقد والبلاغة مفتقرة الى مقومات العلم اللغوي . على اننا يجب الا نغفل عن ان بعض كتب فقه اللغة كالصاحبي مثلا . عرضت لاشياء من هذا العلم البلاغي فدخلت في هذه الكتب وكأنها من موضوعات فقه اللغة[1] ، الا ان ابن فارس كان دقيقاً في نظره الى مادة كتابه فاعتذر عن ذلك في عنوانه الذي كان « الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها » فموضوعات علم الاساليب تدخل في (سنن العرب في كلامها) ولا تدخل في (فقه اللغة) ، يدل على ذلك انه وضعها في الثلث الاخير من كتابه معنوناً هذا الجزء من الكتاب (سنن العرب في حقائق الكلام والمجاز)[2]،ومشعراً ايانا بدقة عنوان الكتاب .

٥ - اصول الكلمات : وذلك بدراسة اصل كل كلمة من كلمات اللغة على حدة ، وهو المسمى في الدرس الحديث علم اصول الكلمات (ايتمولوجي Etymology) . ومن فروع هذا العلم فرع يبحث عن اصول اعلام الاشخاص والقبائل والعشائر والجبال والانهار والامصار ، ويسمى (اونوماستيك Onomastique) . ومنه فرع اضيق منه مجالا ، يبحث في اصول اسماء الامكنة على اختلاف انواعها ، يسمى (توبونوماستيك Toponomastique) . ويختلف علم اصول الكلمات بشكل عام عن العلوم اللغوية السابقة في كونه يبحث فيما يبحث دون محاولة الوصول الى قوانين عامة او ظواهر معينة فميدانه بالنسبة لميادين تلك العلوم جزئي خاص . على انه شديد الصلة بتلك العلوم لانبناء كل منهما على الآخر في التوصل الى الحقائق اللغوية ، والتطور الصوتي والدلالي[3] .

---

(١) الصاحبي ١٩٧ ، ٢٠٤ ، ٢٣٩ ، ٢٦٠ .

(٢) نفسه ١٩٦ .

(٣)علم اللغة ٩ - ١٠ .

ومن هذا النوع رسالة ابن عباس (اللغات في القرآن) التي رجع فيها عشرات الالفاظ الى اصول غير عربية فارسية ورومية وحبشية وعبرانية ونبطية وسريانية وغيرها ، وقد مرت دراستها[1] . ومن ذلك ايضاً نص الخليل في العين على اصول الفاظ معربة[2] ، ومثله فعل جميع اصحاب المعجمات من بعده[3] ، كما كان اللغويون وهم يبحثون ظاهرة من ظواهر اللغة لا يغفلون عن النص على اصول كلمات كثيرة تعترض سير درسهم ، وقد خصص فقهاء اللغة فصولا في مؤلفاتهم لاصول الالفاظ والاعلام كابن فارس وابن جني والثعالبي وابي عبيد وابن سيده وغيرهم[4] ، كما تعد كتب المعرب من هذا الباب ، وعلى رأسها (المعرب) للجواليقي و (شفاء الغليل) للخفاجي ، ذلك ان هذه الكتب رجعت كثيراً من الفاظ العربية الى اصولها غير العربية . وجميع هذه الدراسات تدخل ضمن علم اصول الكلمات ، اما فرعاه المسميان (اونوماستيك) و (توبونوماستيك) فلعل اقرب الامثلة الى الاول كتاب (الاشتقاق[5]) لابن دريد الذي درس فيه اصول اعلام الاشخاص والقبائل والعشائر على ان هذه الاصول عربية ايضاً[6] ، ولذا سمي كتابه بالاشتقاق ، في حين يفترض علم اصول الكلمات ان تعود هذه الاصول الى لغات اجنبية عن اللغة المبحوث فيها .

اما كتب البلدان التي يتبادر الى الذهن اول وهلة انها تمثل الفرع الثاني ، فهي ليست منه في شيء ، لأنها لا تبحث في أصول اسماء الأمكنة التي تذكرها ، على الرغم من كونها كتباً نالت من البحث اللغوي الشيء الكثير[7] ، وما كتابا ابن درستويه (ت ٣٤٧ هـ) في (ابطال الاضداد) و (ابطال القلب[8]) ومحاولته بالرجوع في معنيي

---

(١) انظر الباب الثاني من هذه الرسالة .

(٢) العين (الجزء المطبوع) ٣٦٩ .

(٣) انظر : الجمهرة ٣/ ٩٣ .

(٤) الصاحبي ٨٨ ـ ٨٩ والخصائص ٢/ ١٣٣ وفقه اللغة ٥٦٥ والغريب المصنف ٢٨٤ والمخصص ٥/ سفر ١٦ .

(٥) طبع بتحقيق عبد السلام هارون بمطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٥٨ م .

(٦) الاشتقاق ٢٤٤ .

(٧) كبلدان الجاحظ ، ومعجم البلدان لياقوت : الفهرست ٥٠ والانباه ١/ ٣٥٠ وهما مطبوعان .

(٨) الفهرست ٩٤ والمزهر ١/ ٤٨١ .

الضد وصورتي المقلوب الى اصل واحد جامع[1] ، الا من قبيل محاولة ابن دريد في الاشتقاق ، وذلك لأن الاصل عند ابن درستويه عربي معروف .

٦ـ بحوث اجتماعية : وذلك بدراسة العلاقة بين اللغة ومختلف مظاهر حياة المجتمع واثر حضارة المجتمع ونظامه وتاريخه وتركيبه وبيئته الجغرافية في اللغة وظواهرها المختلفة ، وهذه هي ميادين علم الاجتماع اللغوي Sociology Linguastices وقد عني بها علم اللغة الحديث في دراساته اللغوية[2] .

وكان للعرب ايضاً نصيب وافر في التعرض لمثل هذه الدراسات ، فتكلموا على اثر التركيب الاجتماعي للمجتمع الاسلامي على ظهور اللحن وتطور اللغة[3] ، كما بحثوا آثار الاسلام على اللغة وما جاء معه من الفاظ جديدة ومعان جديدة ، فعقدوا فصولا في كتبهم للمولد[4] ، والالفاظ الاسلامية الجديدة[5] . كما بحثوا الاثر الجغرافي في اللغة وسلامتها حين عرضوا لفصاحة اللهجات ، ودرجاتها ، ونقاوتها ، وذكروا عامل المجاورة الجغرافي في ذلك ، كالذي فعله ابو زيد (٢١٥) والفارابي (٣٥٠) وابن خلدون (٨٠٨) والسيوطي (٩١١)[6] . وغير ذلك مما يدل على تنبههم الى العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية ، وبحثهم اثر المجتمع ومظاهره المختلفة في اللغة . ولم يحيدوا في ابحاثهم هذه عن واقع العلاقة بين اللغة والمجتمع ، واثر المجتمع في اللغة ، ولا وجه لما نقله احد الباحثين العرب من : « ان علماء الاجتماع قد اخذوا على القدامى من علماء اللغة بهذا الصدد مآخذ كثيرة ، ترجع الى تقصيرهم في بيان العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر الاجتماعية ، وانحرافهم احياناً عن جادة الصواب في هذه السبيل ، وتفسيرهم لبعض الظواهر اللغوية تفسيراً خاطئاً يبعد بها عن المجتمع وشئونه (كذا)[7] » .

---

(١) تصحيح الفصيح ٨ ب ، ٢٥٦ أ . والمزهر ١/ ٤٨١ .

(٢) علم اللغة ١٠ ـ ١١ .

(٣) لحن العوام للزبيدي ٤ واضداد ابن الانباري ٢٤٠ ومجالس ثعلب ٢/ ٥٩٩ والبيان والتبيين ١/ ٦٢ .

(٤) المزهر ١/ ٣٠٤ .

(٥) الصاحبي ٧٨ وما بعدها .

(٦) نوادر ابي زيد : ١ والاقتراح ١٩ ومقدمة ابن خلدون ٤٩٢ والمزهر ١/ ٢١١ .

(٧) د . علي عبد الواحد وافي ، علم اللغة ١٠ ـ ١١ .

٧ ـ بحوث نفسية : وذلك بدراسة العلاقة بين اللغة والدوافع النفسية ونوازعها ، واثر الظواهر النفسية المختلفة من تفكير وخيال وتذكر ووجدان وايحاء وتأثير في اللغة ، وقد تعمق المحدثون بدراسة هذه الامور ، حتى غدا البحث فيها علماً قائماً يدعى علم النفس اللغوي (Sycology of Language)[١] .

ولم يكن اللغويون العرب بعيدين عن ادراك العلاقة بين ظواهر اللغة والظواهر النفسية ، او التنبه الى اثر الظواهر النفسية في اللغة . صحيح انهم لم يتوسعوا في بحث جوانب هذه العلاقة ، ويفردوا له الرسائل والكتب ، الا انهم وعوا ذلك واشاروا اليه ، فلو تجاوزنا الابواب التي وضعوها للاغراء والتحذير ، والتحضيض والعرض ، والامر ، والنهي ، والدعاء والطلب ، والحث ، والتمني ، والتعجب ، والتوهم ، والايهام ، والايماء ، وما الى ذلك من موضوعات يلحظ في تسميتها العامل النفسي بوضوح[٢] ، اقول : اذا تجاوزنا ذلك وسلمنا ببعدها عن تعلقها بظواهر نفسية معروفة ، فلا يمكن ان نتجاوز مثل : الحمل على النقيض ، او التهكم والسخرية ، او الخوف من اصابة العين ، او التفاؤل ، او التطير ، وغير ذلك مما فسروا به بعض ظواهر اللغة ، واعني به التضاد[٣] . فهل هذه التفسيرات الا ادراك عميق من لغويينا الافذاذ الى اثر النوازع النفسية في الظواهر اللغوية وعلاقة تلك بهذه .

وبعد ، فهذه اهم موضوعات العلم اللغوي الحديث ، وهناك موضوعات اقل اهمية في هذا العلم ضربنا عنها صفحاً ، وهي البحوث البيولوجية والفيزيولوجية والجغرافية وعلاقتها باللغة واثرها عليها[٤] ، رأينا قلة العناية بها في ابحاث المحدثين، عرضنا لتلك بالدراسة موازنين بينها وبين ما حقق اللغويون العرب منها .

وخلاصة القول ان موضوعات علم اللغة الحديث هي موضوعات فقه اللغة

---

(١) علم اللغة ١١ ـ ١٢ .

(٢) الصاحبي ١٣٨ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٢٥ ، ٢٤٨ .

(٣) الاقتضاب ٢٤١ والاشباه والنظائر ١/ ١٩٥ واضداد ابن الانباري ٣٣٣ والاصمعي ٣٢ وابي حاتم ١٣٧ وابن السكيت ١٨٦ وتأويل مشكل القرآن ١٤٢ وسمط اللآلي ١/ ٤٩٠ .

(٤) علم اللغة ١١ .

القديم ، وان اللغويين العرب لم يتركوا باباً من ابوابه الا طرقوه ، ولا ميداناً من ميادينه الا ولجوه ، ولم يضف العلم الحديث شيئاً ذا بال على موضوعات القدماء ، كما سبق علماؤنا القدامى المحدثين الى اخراج ما يجب اخراجه من نطاق هذا العلم مما ليس منه ، وافردوه في دراسات مستقلة ، مصطلحين عليه ما يشير الى استقلاله . الا ان القدماء ربما قصروا في دراسة اللغة من الناحيتين التاريخية والمقارنة ، وذلك بسبب عدم اطلاعهم ومعرفتهم باللغات السامية او غير السامية معرفة تؤهلهم لخوض هذا المضمار ، وقد فاقهم المحدثون في ذلك لما تهيأ لديهم من اسباب الدراسة ووسائل الكشف .

٣ ـ نموذجان من المعالجات :

بعد ان توضحت لدينا معالم الموضوعات التي تناولها علماء اللغة القدماء والمحدثون ، وتبين لنا اتفاقهم الكبير في خوض هذه الموضوعات ، والاخذ بها في مصنفاتهم اللغوية ، لا بد لنا ان نعرف شيئاً عن طبيعة البحث فيها ، والنتائج التي توصل اليها الدرسان القديم والحديث ، لنقف من خلال ذلك على مدى ما اصابه فقه اللغة عند العرب ، من مظاهر التقدم ، وما احرزه من نتائج اقرها العلم الحديث ، وذلك بعرض اثنتين من المسائل التي عالجها الفريقان في دراساته اللغوية :

آ ـ نشأة اللغة :

ذهب العرب مذاهب مختلفة في هذا الموضوع ، وتشعبت تفسيراتهم وحججهم فيه ، فابن عباس (ت ٦٨ هـ) يرى انها نشأت توقيفاً ، اي وحياً والهاماً ، محتجاً بقوله تعالى : (وَعَلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها[١]) ، واخذ بهذا الرأي جماعة من المفسرين والفقهاء امثال حصيف ومجاهد وغيرهما[٢] . كما اخذ به من المتكلمين

---

(١) سورة البقرة ٣١ .

(٢) تفسير الطبري ١/ ١٧٠ والجامع لاحكام القرآن ١/ ٢٨٢ والبحر المحيط ١/ ١٤٥ ومجمع البيان ١/ ٧٧ وروح المعاني ١/ ٢٢٤ .

الاشاعرة[1] . ومن الاصوليين ابن الحاجب وآخرون[2] ، ومن اللغويين ابن فارس[3] ، وابو علي الفارسي وتلميذه ابن جني في احد اقواله[4] .

وكان ابن عباس يقول في تفسير الآية الكريمة : « علّمه الاسماء كلها وهي هذه التي يتعارفها الناس من دابةٍ وأرضٍ وسهلٍ وجبلٍ وحمارٍ واشباه ذلك من الامم وغيرها . وروى حصيف عن مجاهد قال : علمه اسم كل شيء . وقال غيرهما : انما علّمه أسماءَ الملائكة . وقال آخرون : علّمه أسماءَ ذريتهِ أجمعين »[5] . وربما أفاد ابن عباس هذا المعنى مما تهيأ له من عنايته بالاسرائيليات ، ووقوفه على ما في التوراة ، فقد ورد فيه : « وجَبَلَ الربُ الألهُ من الارضِ كلَّ حيوانات البرية وكل طيورِ السماءِ ، فأحضرها الى آدم ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به آدم ذات نفسٍ حيةٍ فهو اسمُها ، فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية »[6] .

وقد دافع ابن فارس (٣٩٥ هـ) عن مذهب ابن عباس ، معتقداً بصحة تفسيره للآية الكريمة ، وبصواب رأيه في توقيف اللغة ، وناقش ما اعترضه من حجج انقدحت في ذهنه ، ربما يستند اليها من يود الطعن في هذا المذهب ، فقال : « الذي نذهب اليه في ذلك ما ذكرناه عن ابن عباس . فان قال قائل : لو كان ذلك كما تذهب اليه ، لقال (ثمَّ عَرَضَهُنَّ) أو (عَرَضَهَا) ، فلما قال (عَرَضَهُم) علم ان ذلك لأعيان بني آدم والملائكة ، لان موضوع الكناية في كلام العرب يقال لما يعقل (عَرَضَهُم) ولما لا يعقل (عَرَضَهَا) أو (عرضَهُنّ) . قيل له : انما قال ذلك والله اعلم لانه جمع ما يعقل وما لا يعقل فغلب ما يعقل ، وهي سنة من سنن العرب ، اعني بابَ التّغليب »[7] . ويضرب للتغليب امثلة كثيرة من القرآن .

---

(١) منتهى الوصول ٢٠ والاقتراح ٦ وروح المعاني ١/ ٢٢٤ .

(٢) منتهى الوصول ٢٠ والاقتراح ٧ .

(٣) الصاحبي ٥ .

(٤) الخصائص ١/ ٤٠ .

(٥) الصاحبي : ٥ .

(٦) سفر التكوين : ٢ الاصحاح الثاني ، وانظر : روح المعاني ١/ ٢٢٤ .

(٧) الصاحبي ٥ .

وذهب ابو علي الفارسي (٣٧٧ هـ) الى هذا ايضاً ، ونقل عنه تلميذه ابن جني انه قال : « هي من عند الله واحتج بقوله سبحانه (وعلَّم آدَمَ الأسماءَ كلَّها) »[1] . وتردد ابن جني (٣٩٢ هـ) في الاخذ بمذهب معين ، ومال الى اكثر من واحد في نشأة اللغة ، الاّ انه كان يميل احياناً الى الاخذ بمذهب التوقيف فقال : « وانضاف الى ذلك وارد الاخبار المأثورة بأنها من عند الله جلّ وعز ، فقوي في نفسي اعتقاد كونها توقيفاً من الله سبحانه وأنها وحي »[2] . وسار على هذا المذهب جمع من علماء اللغة العرب ، والفقهاء والمتكلمين ، عرض لهم السيوطي بالتفصيل[3] ، وبسط آراءهم وما جاءوا به من أدلة نقلية وعقلية .

ولا نعدم أن نجد بين دارسي اللغة المحدثين من أخذ بهذا الرأي ، كالاب لامي في كتابه (فن الكلام) والفيلسوف دوبونالد في كتابه (التشريع القديم) ، معتمدين على ما ورد في سفر التكوين مما يشعر بذلك[4] .

والواقع ان مذهب توقيف اللغة ، مذهب غير متقبل في العلم اللغوي الحديث ، لافتقاره الى الحجة العلمية المقنعة من جهة ، ولمخالفته سنن التطور المنطقية ، وطبيعة نشأة الظواهر الاجتماعية من جهة أخرى ، ذلك أن الآية الكريمة المحتج بها في هذا المقام ، ليست صريحة فيما يريدون منها ، فقد تعني ـ كما ذهب ابن جني وغيره من العلماء ـ أن الله تعالى أقدر الانسان على وضع الألفاظ ، وهو معنى مقبول ، وتفسير مرتضى . وكان المحتجون بالآية الكريمة على توقيف اللغة قد صدروا الى ذلك من تعبّد محض ، يرفده الايمان بقداسة اللغة التي هي لغة القرآن والتشريع .

واللّغة ، بعد ذلك ظاهرة اجتماعية ، لا يتوفّر على احداثها واضع معين ، وانما تنشأ بسبب الحاجة الى التعبير والتفاهم ، وقد نشأت ـ حين اجتمع الانسان بأخيه الانسان واحتاج الى التفاهم معه ـ بمحاولة حكاية الأصوات الطبيعية ، وتقليدها ، ثم

---

(١) الخصائص ١/ ٤٠ .

(٢) نفسه ١/ ٤١ .

(٣) الاقتراح ٦ والمزهر ١/ ١٧ .

(٤) نشأة اللغة عند الانسان والطفل ٢٣ وعلم اللغة (وافي) ٨٩ .

تطورت هذه الحكاية ، حتى ابتعدت عن اصولها الاولى ، ونصلت في سيرها الطويل المعقد من دلالاتها الحسية ، حتى وصلت الى الدارسين على ما هي عليه من النضج . على ان ذلك لا يعني ان جميع الفاظ اللغة نشأت بهذه السبيل من محاكاة اصوات الطبيعة ، ولكنه رأي وجيه يفسر النشأة الضيقة الاولى للغة ؛ ثم كان لهذه اللغة وسائل هيأها التطور تنمو بها وتتكثر[1] .

وساد اللغويين العرب رأي ثان في نشأة اللغة ، وهو أن اللغة نشأت تواضعاً واصطلاحاً ، وذلك « كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا ، فيحتاجوا الى الابانة عن الاشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا ، اذا ذكر عرف به مامسماّه ليمتاز من غيره ، وليغني بذكره عن احضاره الى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف احضاره لبلوغ الغرض في ابانة حاله . . . فكأنهم جاءوا الى واحد من بني آدم فأومأوا اليه وقالوا : انسان انسان انسان ، فاي وقت سمع هذا اللفظ علم ان المراد به هذا الضرب من المخلوق »[2] . ويبدو ان أول من أشار الى هذا المذهب وأخذ به ابو الحسن الاخفش (ت ٢١١ هـ) ، ورأى ان اللغة لم توضع كلها في وقت واحد ، وانما تلاحق وضعها وتتابع[3] . وقال شارحا رأيه : « اختلاف لغات العرب انما جاء من قبل ان أول ما وضع منها وضع على خلاف ، وان كان كله مسوقا على صحة وقياس ، ثم احدثوا من بعد اشياء كثيرة للحاجة اليها ، غير انها على قياس ما كان وضع في الاصل مختلفا »[4] .

وراق هذا المذهب لابن جني (٣٩٢ هـ) الذي مرّ انه مال الى التوقيف ، فعاد هنا ليميل الى التواضع ، فعلى الرغم من ان وارد الاخبار والمأثور يقوي عنده انها من عند الله : « غير أن اكثر اهل النظر على ان اصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف »[5] . ويبدو ان تلك الاخبار والمأثورات لم تكف

---

(١) منهج البحث في الادب واللغة (ماييه ولانسون) ٦٢ ونشأة اللغة عند الانسان ٣١ .

(٢) الخصائص ١/ ٤٢ .

(٣) نفسه ١/ ٤٢٧ والاقتراح ٨ .

(٤) الاقتراح ٨ .

(٥) الخصائص ١/ ٤٠ .

لاقناعه بان اللغة وحي والهام فراح يلتمس تفسيرا آخر ، معتمدا هذه المرة (أهل النظر) مكان اعتماده في تلك (وارد الاخبار) . ولعل هذا المذهب اكثر انسجاما مع ذهنه وذوقه ، اذ صدر اليه عن عقيدته الكلامية ، واعني بها الاعتزال ، الذي يعرف بتحكيمه العقل والمنطق اكثر من النقل والاثر .

ونقل ابن جني ان استاذه ابا علي الفارسي (٣٧٧ هـ) كان يأخذ بهذا المذهب في احد قوليه[١] ، وقد مر انه مال الى القول بالتوقيف ايضا . كما مال الى مذهب التواضع أيضا ابن خلدون من المتأخرين[٢] ، اما السيوطي (٩١١ هـ) ، ومحمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥) ، فلم يدليا برأي وانما عرضا آراء السابقين وبسطا حججهم[٣] . وممن دعا الى هذا المذهب في العصر الحديث : آدم سمث ، ودوجلد ستيوارت من الغربيين[٤] ، وجرجي زيدان من العرب[٥] .

ونظرية التواضع هي أيضا مفتقرة الى سند علمي مُقبول أو حقيقة تاريخية معتمدة ، وهي فيما تقرره تعارض القوانين العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية ، وهذه النظم لا تخلق من العدم ولا ترتجل ارتجالا ، بل تتدرج في وجودها شيئا فشيئا من تلقاء نفسها حتى تستوي نظاماً ناضجاً مكتملاً ؛ عدا ان التواضع على تسمية مسمى معين يحتاج هو نفسه الى لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون . فما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة يتوقف ايضا على وجود هده اللغة من قبل[٦] .

وأقرب ما ذهب اليه العرب الى العلم اللغوي في نشأة اللغة ، ذهابهم الى ان اللغة نشأت بمحاكاة الاصوات الطبيعيّة ، وقد اشرنا اليه قبل الكلام على نظرية التواضع ونحن في معرض مناقشة اصحاب نظرية التوقيف ، وتقضي نظرية المحاكاة

(١) الخصائص ١/ ٤٤ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٤٩٢ .

(٣) المزهر ١/ ١٨ وتاج العروس ١/ ١٢ .

(٤) علم اللغة ٩٠ ونشأة اللغة عند الانسان والطفل ٢٤ والفلسفة اللغوية : هامش ١٣١ .

(٥) الفلسفة اللغوية ١٢٩ .

(٦) علم اللغة ٩٠ ونشأة اللغة عند الانسان والطفل ٢٥ وتاريخ آداب العرب ١/ ٤٦ ومحاضرات الدكتور السامرائي (مدونتي)٧ .

هذه بأن اللغة نشأت من تقليد اصوات الطبيعة كالرعد والعصف ، واصوات الحيوانات ، واصوات الضرب والقطع والكسر ، ومحاكاة التعبير الطبيعي عن الانفعالات عند الانسان كأصوات الضحك والبكاء والرعب وغيرها ؛ ثم تطورت هذه المحاكاة بتطور عقل الانسان وحضارته وحاجته ، واستوت على شكل لغة يستخدمها في اغراضه المختلفة[1] .

والراجح ان الخليل (ت ١٧٥ هـ) أول من تنبه الى ذلك وأشار اليه ، دون أن يصرح بأنه مذهب في تفسير نشأة اللغة كان ماثلا لديه ؛ ولكننا نلمح من خلال معالجاته لبعض الالفاظ من حيث المناسبة الطبيعية بينها وبين مدلولاتها ، ما يترك في انفسنا القناعة بأنه كان يرى هذا الرأي . وذلك كقوله : « صرَّ الجندبُ صريراً ، وصرصرَ الأخطبُ صرصرةً ، كأنهم توهموا في صوت الجُندبِ استطالةً ومداً ، وتوهّموا في صوت الأخطبِ ترجيعا »[2] . وقوله : « يقولون صلَّ اللِّجامُ صليلاً ، فلو حكيتَ ذلك قلت صلَّ ، تمد اللام وتثقلها ، وقد ضعفتها من الصلصلة ، وهما جميعا صوتُ اللِّجام ، فالتثقيلُ مدٌّ ، والتضعيفُ ترجيع »[3] . وقال في نون التوكيد : « فاذا جئت بالخفيفة فأنت مؤكِد ، واذا جئت بالثقيلة فأنت أشدّ توكيداً »[4] . وذهب الى أن مثل : غلَيان وغثَيان ولهَبان ووهَجان وغيرها من المصادر ، انما كانت محركة فلما تحكيه من دلالة على الحركة[5] .

وممن عرض لهذا الرأي من القدماء ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) مشيرا الى انه رأي قديم إذ يقول : « وذهب بعضهم الى ان أصل اللغات كلها انما هو من الاصوات المسموعات كدويّ الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك . ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد ، وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبّل »[6] . ولعله يعني بـ (بعضهم) الخليل ،

---

(١) تاريخ آداب العرب ١/ ٤٨ وعلم اللغة ٩٥ ونشأة اللغة عند الانسان ٣١ والفلسفة اللغوية ٥٨ (الهامش) .
(٢) تهذيب اللغة ١/ ٨١ والخصائص ٢/ ٥٢ ومقدمة العين ٦٢ .
(٣) تهذيب اللغة ١/ ٨١ ومقدمة العين ٦٢ .
(٤) كتاب سيبويه ١/ ١٤٩ .
(٥) نفسه ٢/ ٢١٨ .
(٦) الخصائص ١/ ٤٦ .

لما قدمناه من أقواله التي تشير الى هذا المذهب . يؤ يد ذلك ان ابن جني عاد فذكر الخليل بعد ذلك وهو يتكلم على المصادر الرباعية المضعفة التي تأتي للتكرير[1] .
اما السيوطي فلم يزد على نقل رأي ابن جني السابق واستحسانه اياه شيئاً[2] .

وعلى هذا المذهب الاعم الاغلب من دارسي اللّغة المحدثين ، لما وجدوه من مجانسته لقوانين التطور اللغوي وابتنائه على اسس المنطق العلمي ، ولما قدم لهم البحث من أدلة لغوية وتاريخية تدعم هذا الرأي . وكان على رأس الذاهبين اليه من الغربيين العلامة وتني[3] ، ومن العرب مصطفى صادق الرافعي وعلي عبد الواحد وافي .

يقول الرافعي : « وأقرب ما يصح في الظن ان الاصوات الحيوانية هي المثال المحتذى في لغة الانسان ، لانها محيطة به تتقلب على سمعه كلما سمع ، خصوصا والانسان في أول اجتماعه مضطر لمغالبة الحيوان ، فهو بهذا الاضطرار يتدبر اختلاف هيآت الصوت الواحد ومعاني ما فيه من النبّر ، ودليله في ذلك أفعال الحيوان التي تؤدي معاني هذا الاختلاف من نحو الغضب والألم والذعر وغيرها »[4] ، ويواصل الرافعي شرح وجهة نظره هذه منتهيا الى قوله : « وهذه الحالة كانت بدء اختراع اللغة ، فلما بدأ الاجتماع يرتقي بنسبة أحوال الانسان يومئذ بدأ الاختراع الحقيقي في اللغة . . . جعل يقلب المقاطع الثنائية التي عرفها على كل الوجوه التي تحدثها الآت الصوت ، فلماّ استتم صورها ارتجل المقاطع الثلاثية »[5] . والرافعي بهذا يفسر البقايا الثنائية في اللغة ، وكأنه يرجعها الى هذه المرحلة التي تطورت اللغة منها الى الثلاثية ؛ وعبارته « ارتجل المقاطع الثلاثية » تشعر بأن الحرف الثالث اعتباطي النشأة ؛ ولكنا نميل الى الرأي القائل ان هذا الحرف نشأ كما نشأ الحرفان أو الاصلان الاولان ؛ فاذا كان الصوتان الاصلان يحاكيان صوت القطع مثلا ، فالصوت الثالث يحدد نوع القطع أو طريقة القيام به .

ويقول الدكتور وافي ، الذي تبنى هذه النظرية ، وعدّها اقرب النظريات الى

---

(1) الخصائص ٢/ ١٥٣ .
(2) الاقتراح ٧ .
(3) نشأة اللغة عند الانسان والطفل ٣١ وعلم اللغة ٩٥ .
(4) تاريخ آداب العرب ١/ ٤٨ .
(5) نفسه ١/ ٤٩ .

الحقيقة ، : « وهذه النظرية هي أدنى النظريات الى الصحة واقربها الى المعقول ، واكثرها اتفاقا مع طبيعة الامور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة والنظم الاجتماعية »[1] . ويسوق للبرهنة على صحتها دليلين وقف عليهما العلم اللغوي فيقول : « ومن أهم أدلتها ان المراحل التي تقررها بصدد اللغة الانسانية تتفق في كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل . ان الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام يلجأ في تعبيره الارادي الى محاكاة الاصوات الطبيعية . ومن أدلتها كذلك ان ما تقرره بصدد خصائص اللغة الانسانية في مراحلها الاولى يتفق مع ما نعرفه عن خصائص اللغات في الامم الاولية ، ففي هذه اللغات تكثر المفردات التي تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه »[2] .

ومن هذا ندرك ما للعرب من سعة الذهن وقوة الملاحظة وعمق الدرس ، ونفهم ما كان لذهابهم مذهب حكاية الاصوات الطبيعية في نشأة اللغة من نصيب كبير من الصحّة ، وعلى رأس اولئك العرب الخليل بن احمد الذي كان الدرس اللغوي الحديث وأصحاب هذه النظرية عيالا عليه ، وكان فيما المح اليه من فكرة هذه النظرية فاتحا لباب ولجه الدارسون من بعده ، ليجدوه أقرب باب موصل الى الحقيقة .

اما مذهب الوقف ـ وهو غير التوقيف ـ فيقصد به الجهل بحقيقة نشأة اللغة ، لعدم وجود ما يدل على طبيعة نشأتها دليلا قاطعا . فقد وهم السيوطي في عده مذهبا قائما أخذ به العلماء ، فقال وهو يعرض لمذاهب نشأة اللغة : « والمذهب الثالث : الوقف . أي لا يدرى أهي من وضع الله أو البشر ، لعدم دليل قاطع في ذلك ، وهو الذي اختاره ابن جني أخيرا »[3] . ويبدو ان الذي أوقع السيوطي في هذا الوهم قول ابن جني : « وان خطر خاطر فيما بعد يعلق الكف باحدى الجهتين ، ويكفّها عن صاحبتها قلنا به ، وبالله التوفيق »[4] . ولم يكن ابن جني يقصد من ذلك أن يؤسس مذهباً جديداً يفسر به نشأة اللغة كما ظن السيوطي ، وانما رمى الى ان المذاهب تتفاوت في قوة الحجة أو ضعفها ، بعد أن مال الى كل واحد منها حين

(١) نشأة اللغة ٣٣ وعلم اللغة ٩٦ .
(٢) نشأة اللغة ٣٣ وعلم اللغة ٩٧ .
(٣) الاقتراح ٧ .
(٤) الخصائص ١/ ٤٧ .

عرض له ، فهو اذن ينتظر خاطراً جديداً يقوي لديه احد هذه المذاهب ، ويقطع له بصحته ، ليترك ما سواه .

وللمحدثين مذهب آخر يفسر نشأة اللغة بغريزة خاصة موحّدة[1]. وذلك أن اللغة نشأت بفضل غريزة خاصة كان الانسان الاول قد زوّد بها ، وهي التي حملته على التعبير عن مداركه الحسية والمعنوية بالالفاظ الخاصة ، وان هذه الغريزة كانت موجودة عند جميع الافراد في تلك الفترة من التاريخ اللغوي ، لذا فقد توحّدت المفردات اللغوية الاولى ، وتشابهت طرائق التعبير وتفاهمت الجماعات . وانه بعد أن نضجت اللغات المختلفة واهمل الانسان هذه الغريزة التي لم يعد بحاجة اليها ، انقرضت فيه ، كما انقرضت غرائز اخرى كانت موجودة لنفس الاسباب »[2] .

واذا رجعنا الى لغويينا القدماء نستعرض آراءهم في نشأة اللغة ، نجد بين آرائهم ما يشير الى التفاتهم الى هذه النظرية ، وأخذهم بها ، وان لم تكن من النضج والوضوح لديهم بدرجة تخولنا الجزم باكتمالها مذهبا . ولعل اول هذه الاشارات ما نقلناه من ذهاب ابي علي الفارسي وابن جني في تفسير الآية الكريمة (وعلّم آدمَ الاسماءَ كلّها) الى ان الله أقدرَ آدمَ على الوضع[3] ، وهذا الإقدار هو خلق القدرة على التكلم ، اي خلق الغريزة الخاصة . ومثل ذلك ما نجده في كلام ابن جني على الترادف اذ يقول : « فاعجب للطف صنع الباري سبحانه في ان (طبع) الناس على هذا ، و (امكنهم) من ترتيبه وتنزيله ، و (هداهم) للتواضع عليه وتقريره[4] » وكلامه يشعر بقوله بالتواضع ، ولكنه تواضع ترفده القُدرة الخِلقية الخاصة التي خلقها الله في العباد . والى مثل هذا المعنى ذهب ابن فارس ايضا ، فأيد الاخفش في ان اللغة لم تجيء جملة واحدة وفي زمان واحد ، وانما « وقّف الله جلّ وعز آدم عليه السلام على ما شاء ان يعلمه اياه مما احتاج الى علمه في زمانه ، وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثم علّم بعد آدم عليه السلام من عزب الانبياء صلوات الله عليهم نبياً نبياً ما شاء ان يعلمه ، حتى انتهى الامر الى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فآتاه الله من ذلك ما لم يؤته احدا قبله[5] » . وعلى الرغم من قول ابن فارس

---

(1) الفلسفة اللغوية ٥٧ الهامش .
(2) نشأة اللغة عند الانسان ٢٦ وعلم اللغة ٩١ .
(3) الخصائص ١/ ٤٠
(4) نفسه ٢/ ١١٧ .
(5) الصاحبي ٦ وانظر المزهر ١/ ٩ .

بالتوقيف ، الا انه توقيف يُقدِرُ الانبياء على الوضع .

وكان السيوطي فيما نقله من آراء العلماء اكثرهم ابانة عن فحوى هذه النظرية ، فقال : « واختلف على هذا : هل وصل الينا علمها بالوحي الى نبي من انبيائه ، او بخلق اصوات في بعض الاجسام تدل عليها واسماعها لمن عرفها ونقلها أو بخلق العلم الضروري في بعض العباد بها ، على ثلاثة آراء ارجحها الأول[1] » . فالرأي الاول يشير الى نظرية التوقيف ، والثالث يشير الى ما نحن بصدده ، من وجود الغريزة الخاصة بالتعبير ، بل تكاد عبارته (بخلق العلم الضروري في بعض العباد بها) تدل دلالة صريحة على فكرة هذا المذهب ، وان قصر هذا العلم على بعض العباد دون سواهم ، في حين لا يستثني المأخذ الحديث لهذه النظرية احدا من بني البشر .

واشهر من اخذ بهذه النظرية من علماء اللغة المحدثين : اللغوي الالماني مكس مولر ، واللغوي الفرنسي رينان . واستدل مولر على صحة مذهبه ، بنتائج دراسته لاصول الكلمات في اللغة الهندية الاوربية « فقد ظهر له ان مفردات هذه اللغات جميعها ترجع الى خمسمائة اصل مشترك ، وان هذه الاصول تمثل اللغة الاولى التي انشعبت منها هذه الفصيلة ، فهي لذلك تمثل اللغات الانسانية في اقدم عهودها وتبين له من تحليل هذه الاصول انها تدل على معان كلية ، وانه لا تشابه مطلقا بين اصواتها وما تدل عليه من فعل وحالة[2] » .

وقد ردت هذه النظرية بجملة امور ، الاول : صعوبة تصور هذه الغريزة ، والوقوف على طبيعتها وحقيقة وجودها ، لانها لا تذهب في حقيقة هذه الغريزة ، الى ما يشترك فيه الانسان والحيوان ، من اصدار الاصوات المبهمة ، التي يقوم بها جهاز النطق ، وانما الى شيء غير ذلك . والثاني : عدم تفسير نشأة اللغة التي لاجلها هجر الانسان لغة الغريزة بعد ان تضمحل فيه هذه الغريزة ، كما تفترض ذلك النظرية ، فبعدم تفسير نشأة اللغة الجديدة ، ندور في حلقة مفرغة . والثالث : الاعتماد على الاصول الخمسمائة التي تفترض انها تمثل اللغة الانسانية الاولى ، الا ان « هذه

---

(1) الاقتراح ٦ (2) علم اللغة ٩٢ ونشأة اللغة عند الانسان والطفل ٢٦

الاصول ـ كما تقدم ـ تدل على معان كلية . ومن الواضح ان ادراك المعاني الكلية يتوقف على درجة عقلية راقية لا يتصور وجود مثلها في فاتحة النشأة الانسانية[1] » .

ومهما يكن من امر فان هذه النظرية اقل قبولا لدى المحدثين من سابقتها نظرية محاكاة الاصوات الطبيعية ، كما كانت كذلك لدى القدماء ، اذ كانت اشاراتهم اليها غير واضحة ، وتصورهم لها يدخل ضمن ايمانهم بالتوقيف على الاكثر ، في حين كان اخذهم بمذهب محاكاة الاصوات صريحا ، سواء كان باشاراتهم اليه من خلال معالجات قضايا الدلالة ، ام بتعبيرهم الصريح الدال على اكتمال فكرة هذا المذهب لديهم .

ب ـ الاصوات اللغوية :

اهتم اللغويون العرب مبكرا بدراسة الاصوات ، وقد مرت الاشارة في اكثر من موضع من هذا البحث الى عناية ابن ابي اسحاق الحضرمي (ت ١١٧ هـ) بدراسة الاصوات ، ووضعه كتاباً في الهمز[2] ، وكنا قد رجحنا صلة هذا الكتاب بعلم قراءة القرآن الكريم . ذلك ان القراء بشكل عام اختصوا بدراسة الاصوات في تصانيفهم ، وفي كتب القراءات دراسات صوتية مهمة ، وما موضوع (الوقف والابتداء) الا دليل واضح على ذلك .

واكبر الظن ان الخليل بن احمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) نفسه اخذ فكرة دراسة الاصوات من الترتيل الذي هو من اختصاصات القراء ، ووضع بوحي من ذلك ترتيبه المخرجي للاصوات ، تاركاً الترتيب الابجدي الذي هو اقدم الترتيبات في اللغات السامية ، والترتيب الالف بائي الذي عني بالتشابه في الرسم والذي وضعه نصر بن عاصم[3] . ثم درس هذه الاصوات في مقدمة (العين) ، وبنى عليها معجمه الرائد ، وقد مرت دراسته في الباب الثاني .

وقد افاد سيبويه (ت ١٨٠ هـ) من دراسة الخليل ، فوسعها في (كتابه)

---

(١) علم اللغة ٩٤ ونشأة اللغة ٢٦ .

(٢) مراتب النحويين ١٢ والمزهر ٢/٣٩٨

(٣) شرح التصحيف والتحريف ١٣ .

بشكل منهجي دقيق ، عاقداً للاصوات ابواباً في الجزء الثاني من كتابه ، اهمها بابا (الابدال) و (الادغام) ، وهما بابان كبيران تناول فيهما الاصوات تناولا جيداً . مخالفاً استاذه الخليل في ترتيبها[1] ، كما سبقت الاشارة الى ذلك .

حتى اذا جاء ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) ووضع دراساته الصوتية وفصوله القيمة في هذا الموضوع ، نضجت الدراسة وتعمقت . ففي (الخصائص) بحث موسع في الاصوات[2] . وفي (سر صناعة الاعراب) مادة صوتية مهمة ، لا نغالي اذا قلنا انها اجل مما في كتاب سيبويه من بحوث صوتية[3] . وفي (التصريف الملوكي) دراسة في الاصوات لا تقل شأناً عما في كتابيه السابقين ، ولم يرد مصطلح (الاصوات) للدلالة على العلم المعروف عند القدماء قبل ابن جني ، وانما ورد عنده لأول مرة في كتابه الاخير .

ونظر اللغويون في تآلف هذه الاصوات في المفردات ، فوجدوا ان حروف الحلق اقل الاصوات تآلفاً في الكلام ، فلا تجتمع عين او غين او هاء او خاء . . . الخ مع غيرها ، وجاءت كلمتا (العَهّد) و (العِهْن) خلافا لمجيء الهاء بعدها العين .كذلك لا تجتمعَ العين والحاء الا في كلمات منحوتة من كلمتين ، اي ان العينَ كانت في الاصل في كلمة والحاء في كلمة اخرى مثل (حَيْعَلَ المنادى) وهي من (حيّ على) ، وكذلك الامر في الحاء والهاء مثل (حَيْهَل) من (حيَّ هلا[4]) . وهناك مخارج عضلها ليس صلبا كعضل الحلق ، لقرب نقاط الارتكاز التي ترتكز بعض الاصوات عليها ، مثل حروف الصفير والحروف الاسلية كالسين والزاي والصاد ، فليس هناك في العربية كلمة جمعت هذه الحروف الثلاثة ، وسبب ذلك قرب مخارجها[5] . وعلى هذا الاساس اشترط البلاغيون في الكلمة الفصيحة ان تكون حروفها متباعدة المخارج . وقد يؤخذ عليهم في هذا الشرط كلمات توفرت فيها الفصاحة والخفة ، واصواتها من مخرج واحد مثل (فَم) وصوتاها شفويان ، و (جَيْش) ومنها الفعل جاش يجيش واصواتها شجرية .

---

(١) كتاب سيبويه ٢/ ٤٠٤ وما بعدها

(٢) الخصائص ١/ ٥٤٤ ، ٥٤٩

(٣) سر صناعة الاعراب ١/ ١٠ ، ٣٥ ، ٢٠٩

(٤) العين (الجزء المطبوع) ٦٤

(٥) العين : المقدمة ولسان العرب ١/ ١٢

من ذلك كله برزت للغـويين قاعـدة اسـاسية هي انـه اذا اجتمـع صوتـان متقاربان في المخرج اومختلفان في الصفة اثر احدهما في الآخر ، ذلك انه يصعب على اللسان ان يحقق صوتين متجاورين مختلفين في الصفة . فاذا اجتمع صوتان مختلفان في الصفة وكان أولهما ساكناً ، فما يزال احدهما يؤثر (او يعمل) في الآخر حتى تتحد صفتاهما . اي اذا اجتمع مجهـور ومهموس في كلمة ، فلا بد ان يؤثر احدهما بالآخر حتى يعودا مجهورين معا أو مهموسين معا ، مثل فعل (ذَكَر ، يَذْكُر) فصيغة افتعل منه (اذْتَكَر) والتاء تقلب دالا ، والدال هذه تؤثر في الذال فتصير (ادكر) ومنه قوله تعالى : (فهل من مدّكر[1]) ، وقد تم هذا بسبب اجتماع صوتين مختلفين في الصفة مجهور ومهموس . وكذلك اجتماع صوت منطبق مع صوت منفتح مثل فعل (ضَجَع) ، فاذا اردنا ان نبني منه افتعل فهي (اضتجَع) ثم تقلب التاء طاء بعد ان بعدت عن نقطة ارتكازهافتصير (اضطجع) وذلك لأن الضاد جرّت التاء الى صوت منطبق .

ومن هذه الدراسة انطلق اللغويون الى بحـث ظاهـرة الابـدال في اللغـة ، فتوسعوا فيها ووضعوا مصنفاتهم العديدة منذ اوائل اللغويين ، الا ان اكبر ما وضع فيه كتاب (الابدال) لابي الطيب اللغوي (ت ٣٥١ هـ) ، وآخرها من حيث السعة والاهمية كتـاب (سر الليال في القلـب والابـدال) لاحمـد فارس الشـدياق[2] . واختلفوا في النظر اليه ، فقسم منهم قيدوا الابدال فيما كان له علاقة بين الصوت المبدل والمبدل منه ، وآخرون لم يشترطوا ذلك مستندين الى ما ورد مخالفـا لذلك القيد ، مثل قوله تعالى : (حَصَب جهنّم) و (حَطَب جهنّم)[3] .وقـد وردتـا في قراءات القرآن الكريم ، والصوتان بعيدان احدهما عن الآخـر . وقـد مر تفصيل ذلك في كلامنا على الابدال في الباب الثالث ، غير اننا يمكن ان نرجع عناية القدماء برسم الحركات عناية كبيرة ، وجعلهم لكل حركة اشكالا ، الى عنايتهم بالاصوات وبخاصة فيما يبدل منها . اذ لو كانت هذه الحركات موجودة في الاصـل لما حدث التصحيف والتحريف والمشتبه ، حيث يمكن ان يرد الى هذه الامور قسم كبير من

---

(١) سورة القمر ١٥ ، مدرسة الكوفة ٣٣٨

(٢) سر الليال ٥ وما بعدها .

(٣) سورة الانبياء ٩٨

الفاظ الابدال .

ووجد اللغويون ان عددا من الافعال والمصادر في اللغة انما وجدت محاكية لاصواتها ، ووضعوا بعض القواعد الخاصة بصيغها ، واول من اشار الى ذلك الخليل ، وقال : اذا جاءت المصادر على (فَعَلان) فهي تدل على حركة واضطراب مثل : غلَيان وميَلان وهيَجان [1]. وعرض ابن جني الى ذلك فقال : « كل ما كان على وزن فَعْلَلَ فهو يدل على تكرار[2] » . وضرب لذلك بعض الامثلة : صرَّ الجندب وصَرْصَرَ الباز ، وصلَّ اللجام وصَلْصَلَ ، والحق ان ابن جني لم يشر الى من سبقه الى هذا المذهب ، والفكرة للخليل ، والامثلة التي ساقها ابن جني كان الخليل ذكرها في العين[3] . وكان ابن جني قد اشار الى الخليل قبل صفحة من هذا الكلام بكلمة (بعضهم) دون ان يسميه صراحة ، وقد مرت الى ذلك اشارتنا في هذا الفصل .

وحين وجد اللغويون العرب ان الكلمة العربية تشكل وحدة صوتية جيدة ، وانها موزونة اينما وردت في الشعر والنثر ، وان كل اللغات السامية قد خلت من هذه الموسيقية التي توفرت في اللفظة العربية ، وكذلك الفارسية القديمة ، حتى ان المستشرق الالماني (شادِه) لم يجد قصيدة عبرية واحدة فيها البحر او الوزن الموحد من اولها الى آخرها ، وانما وجد لمحات من اوزان مختلفة[4] . واختصاص العربية دون غيرها من اللغات بهذه الاوزان العروضية الدقيقة دليل نضجها . والساسانية (الفارسية الاسلامية) اخذت من العربية هذه الاوزان او شيئاً قريباً منها ، ونظمت فيه لغتها ، اقول : حين وجد اللغويون موسيقية اللفظة وطواعيتها للوزن العروضي واجهتهم مشكلة الادغام في العربية .

والادغام هو الذي ولد التقاء الساكنين في الكلمة ، وفي اللغة مفردات من هذا النوع وان كانت قليلة ، مثل : ضامّ وحمارّة وصبارّة واحمارٌ والضالّين وغيرها[5] وقد توسلت اللغة للتخلص من ذلك بوسيلتين اشهرهما ترك التضعيف كقولهم في

(١) كتاب سيبويه ٢/ ٢١٨

(٢) الخصائص : باب تصاقب الألفاظ ١/ ٥٤٤

(٣) العين : ٦٢ وانظر : تهذيب اللغة ١/ ٨١ .

(٤) محاضرات الدكتور السامرائي (مدونتي) ٢٧ .

(٥) انظر : شرح المفصل ٩/ ١٢٠

الضّالّين : الضّالين ، او ترك احد الاصوات الساكنة وهو اللين منها كقولهم في احمارّ : احمَرّ . والثانية بالهمز الذي يصطلح عليه بالنبر في مصنفات الاقدمين ، وهو موجود في كل لغات العالم ، وصوت الهمزة الذي يؤدي النبر هو الذي يبتعد باللفظة عن التقاء الساكنين فيها . فالضالين تصبح : الضألين ، واحمارّ تصبح : احمأرّ . ومسألة فك الادغام او التقاء الساكنين يستبعد بالهمزة ليس من قبيل ان هذه الكلمات كانت هي في الاصل كذلك ، وانما هي وسيلة للنبر للتخلص من التقاء الساكنين[1] .

والنبر في المصطلح الحديث « نشاط في جميع اعضاء النطق في وقت واحد »[2] وهو يصدق على جميع الاصوات ولا يقتصر على الهمزة ، بل الهمزة صوت صعب لا يصلح للنبر (الضغط) ، وقد تستبعد احياناً الى صوت آخر ، هو ما سماه ابن جني (همزة بين بين) فهمزة (قائِل) مثلا تلفظ عند الذي يتكلم على سجيته بين الهمزة المحققة وبين الهمزة السهلة الساكنة . وبعض الناطقين يسهلها حتى تكون ياء فيقول (قايِل) ، ولم يقلْ احد من العرب (قاوِل) على اصل البناء الصرفي ، ومثلها (مصائِب) ايضا ، وهما واشباههما امثلة على الابتعاد عن الصوت المهموز الى باب آخر[3] .

والحق ان مصطلح النبر ـ بمعناه الحديث ـ لم يكن موجوداً لدى القدماء ، وانما هو مصطلح حديث ، ولكن القدماء خصصوه في الهمز ، فاذا قالوا مثلا (قريش لا تَنْبِر) فالمعنى : لا تهمز[4] ، وقال سيبويه عن الهمزة : « نَبْرَةٌ في الصدر تخرج باجتهاد[5] » . والكلمة الجديدة مصطلح يتعدى الهمز ، فهي تشتمل على ما هو مهموز وما هو غير مهموز ، وهي تقابل لفظة (Stress) بمعنى : مضغوط في اللغات الاجنبية الحديثة ، وقد ادخل علم اللغة الحديث باب المهموز في المضغوط

---

(١) انظر : تهذيب اللغة ١٥/ ١٨٢ ولسان العرب ١/ ١٠

(٢) الاصوات اللغوية (انيس) ١١٨

(٣) الخصائص ٣/ ١٤٤ وانظر : الانصاف (ط ليدن) ٣٠٦ ونظرات في اللغة والنحو ١٧ .

(٤) لسان العرب ١/ ١٤ ، ٧/ ٤٠ .

(٥) كتاب سيبويه ٢/ ١٦٧ .

وفيه ان الكلمة مكونة ـ من حيث نطقها ـ من مقاطع ، وتنتهي المقاطع باصوات مضغوطة[1] . والباحثون في علم الاصوات الحديث مهتمون في ان يضعوا مقابلا للمصطلحات الصوتية الجديدة ومنها النبر .

والحق ان العربية لم تدرس من ناحية الاصوات دراسة علمية لها علاقة بالكون والظواهر الطبيعية ، اذ لو تجاوزنا دراسات الخليل وسيبويه وابن جني الجادة في هذا الموضوع ، لوجدنا ان القدماء لم يهتموا بالاصوات ـ اول الامر ـ الا من خلال علاقتها بقراءة المصحف الكريم ، وظلت تبحث وتشرح في مصنفاتهم من خلال علم التجويد والتلاوة ، من ذلك ابحاثهم في الهمز وتسهيل الهمز وترقيق الهمز وما الى ذلك ، ثم ادخلوا بعد ذلك الدرس الصوتي كتب اللغة ، ولكنهم لم يهتموا بالامور التي تتصل بالاصوات وما يترتب على ذلك من ظواهر ، وكان تصورهم لحدود علم الاصوات ضيقاً ، ومثال ذلك انهم بحثوا مواضيع الابدال والاعلال والادغام خارج الاصوات . على ان نتائج ابحاثهم وبخاصة من ذكرنا منهم صحح اكثرها العلم اللغوي الحديث ، وشهد لهم بالسبق .

نخلص من كل ما مر الى ان القدماء كانوا على قدر كبير من الدقة والعمق في تناول الموضوعات اللغوية ، وعلى جانب اكبر من استيعاب ظواهر اللغة وفهم قوانينها واستكناه اسرارها في التطور والنمو ، ووقفنا من خلال الموازنة بين معالجات القدماء والمحدثين على طول باع العرب في دراسة اللغة ، بحيث كانت ابحاثهم الرائدة في هذا المجال الاساس الذي بنى عليه المحدثون دراساتهم .



---

(١) دروس في علم اصوات العربية (كانتينو) ١٩١ .

الفصل الثاني

الدراسات اللغوية واللغات السامية

اللغويون العرب واللغات السامية : مقدمة في اللغات السامية ـ
معرفة العرب بقرابة اللغات السامية واثرها ـ جهل اللغويين
العرب باللغات السلمية واثره ـ موازنة بين الخليل وابن جني وابراهيم أنيس .

اللغويون العرب واللغات الساميّة

١ـ مقدمة في اللغات السامية[1] :

بدأ التفكير بتقسيم اللغات الانسانية الى مجموعات لغوية في أواخر القرن الثامن عشر ، وذلك بعد أن عرفت السنسكريتية الاولى . وقد اختلف الدارسون المتصدون لذلك في تقسيم اللغات ، تبعا لاختلافهم في الاساس الذي يقوم عليه هذا التقسيم . ولكنهم لحظوا قرابة لغوية بين بعض اللغات فيما بينها ، وقرابة لغوية بين بعضها الآخر . هذه القرابة تشمل اصول الكلمات وقواعد البنية وتركيب الجمل ، كما لحظوا ان الناطقين بهذه المجموعة اللغوية أو تلك يؤلفون مجموعة انسانية متميزة ، ترجع الى اصول شعبية ، وروابط بيئية ، وجغرافية ، وتاريخية واحدة ، او على الاقل متقاربة فيما بينها ، ولعل مكس مولر اللغوي الغربي المعروف هو أشهر من نادى بهذا التقسيم[2] . وعلى هذا الاساس رجعت جميع اللغات الانسانية الى فصائل ثلاث هي : الفصيلة الهندية الاوربية ، والفصيلة السامية الحامية ، والفصيلة الطورانية ، وكل واحدة من هذه الفصائل الثلاث هي في الاصل لغة ولد من اولاد نوح الثلاثة : سام وحام ويافث[3] ، الذين انتشر ابناؤهم في اصقاع الارض وتكلموا باحدى هذه اللغات

والذي يعنينا من هذه المجاميع ، هو المجموعة السامية ، التي تضم طائفة

(١) انظر : التطور اللغوي التاريخي ٢١ ونشأة اللغة عند الانسان والطفل ٥ ودروس اللغة العبرية ٥ وعلم اللغة ١٧٩ ومحاضرات الدكتور ابراهيم السامرائي (مدونتي) ؟ ومقدمة في الاصول اللغوية المشتركة بين العربية والعبرية ٣

(٢) نشأة اللغة عند الانسان ٥٠ وعلم اللغة ١٧٩ .

(٣) دروس اللغة العبرية ٥ وما بعدها .

من اللغات منها العربية ، وهي على قسمين : الاول اللغات السامية الشمالية وهي البابلية القديمة والآشورية والاكادية والعبرية والفينيقية والآرامية . والثاني : اللغات السامية الجنوبية وهي العربية والحبشية واللغات اليمنية كالحميرية والسبئية وغيرهما . وان تسمية هذه اللغات بالسامية حدث اعتباطا أول الامر ، ثم استقبلت من لدن الدارسين بالرضا ، وكان اول من اطلقها العالم الالماني شلوتزر ، الاّ ان نولدكه اعترض عليها لعدم دقتها ، وسجل هذه الاعتراضات في أبحاثه في هذا الموضوع[1] . واختلف الدارسون المحدثون في تحديد المهد الاصلي للأمم السامية ، وسواء كان جنوب العراق أم بلاد كنعان أم بلاد الحبشة أم شمال افريقيا أم جهات معينة من أرمينية أم الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية[2] ، فان الامر لا يهمنا في هذه الدراسة .

وتشترك اللغات السامية بمزايا خاصة تؤلف منها وحدة لغوية ، منها : (١) ان هذه اللغات تشتمل على عناصر مشتركة ، هي الضمائر واسماء الاشارة والاسم الموصول والظروف وحروف الاضافة والاصوات . واشتراكها في هذه الموادّ يدفعنا الى القول بانها من أصل قديم واحد نطلق عليه (السامية الام) التي تفرعت منها لغات هذه المجموعة . ومنها : (٢) انها تشتمل على الفاظ ذات طابع بدوي يشير الى ان الاصل لا بد ان يكون ذا طبيعة بدوية . والى هذا ذهب القائلون بأن مهد الساميين الاول شبه جزيرة العرب ومنها : (٣) ان الفعل يشغل مكانة بارزة في هذه اللغات ومنها : (٤) ان هذه اللغات ثلاثية الأصول ، وان الصيغة الثلاثية هي الغالبة ، وانه يصار الى الرباعي من الثلاثي بطريقة من الطرائق . ومنها : (٥) كثرة المفردات المشتركة بين هذه اللغات وخصوصا تلك الدالة على أعضاء الجسم والقرابة والعدد[3] . وعلى الرغم من وجود بعض الخلافات الطبيعية بين لغات هذه المجموعة ، كالتي تتصل بأداة التعريف ، ونطق بعض الاصوات وابدالها ، وقلب بعض الحروف . فان « صلات القرابة الموجودة بين اللغات السامية بعضها البعض

---

(١) دروس ٦ وانظر : مقدمة في الاصول اللغوية المشتركة ٣ .

(٢) دروس اللغة العبرية ٨ ـ ١٢ وفقه اللغة (وافي) ٦ .

(٣) اللغات السامية (نولدكه) ٩ ودروس اللغة العبرية ١٩ ومقدمة في الاصول اللغوية ٤ .

(كذا) صلات وثيقة نوعا ما ، وهي على أي حال أوثق منها بين اللغات الهندواوربية . فان اللغات السامية القديمة لا تبتعد عن بعضها بمقدار ما تبعد اللهجات الجرمانية المختلفة بعضها عن بعض »[1] .

ويبدو أن العربية أقرب الساميات الى (السامية الام) ، على ان هناك من ذهب الى ان العبرية هي الأقرب ، ومن ذهب الى أن الآشورية البابلية هي اللغة السامية الاولى ، الاّ أن اكثر العلماء على أن العربية هي أقدم اللغات السامية واقربها الى الام ، واعتقادهم بأن الآراء الاخرى انما هي ناشئة من باعث ديني فيها تقديس للعبرية أو الآرامية[2] . وبعد أن ترك ذلك « رغب الناس في الرأي القائل بأن العربية لا تزال أقرب اللغات جدا الى اللغة السامية الاولى » . ويؤيد نولدكه رأيه هذا فيقول : « واذا تبين الآن اكثر من ذي قبل ، ان اللغة السنسكريتية لم تكن في المرتبة التي تؤهلها للاحساظ بخصائص اللغة الهندواوربية الاولى ـ كما كان يظن منذ زمن قليل ـ فانه لا يجوز للمرء ان يعترف للغة العربية في موضوعنا هذا بأكثر من قرب العلاقة بالسامية الاولى . حقا لقد احتفظت العربية اكثر من اخواتها بكثير من الصور الصادقة لعناصر اللغة الاولى ، مثل الكمية الأصلية تقريبا من الاصوات الساكنة ، وكذلك الحركات القصيرة في المقاطع المفتوحة ، ولا سيا في وسط الكلمات » . ويعود فيستدرك على هذا بقوله : « الاّ انه من جانب آخر ، نرى ان العربية قد بنت بطريقة القياس البسيط عددا كبيرا من الصيغ التي تبدو لأوّل وهلة كأنها صيغ قديمة الأصل لشدة بساطتها ، ولكنها ليست في الواقع الاّ تحويرا للاصل ، ربما قابله تحوير آخر في اللغات السامية الاخرى ، وانه ليوجد في العربية دائما ابدا اضطراد معين ما كان ليوجد فيها هكذا منذ البداية[3]» .

واذا شئنا ان نبحث فيما ألمح اليه نولدكه من احتفاظ العربية بخصائص السامية الاولى ، اكثر من احتفاظ اخواتها ، حتى غدت اقرب لغات المجموعة الى الأم ،

---

(١) اللغات السامية ٩ .

(٢) نفسه ١٣ ودروس اللغة العبرية ١٢ وفقه اللغة لوافي ١٠ .

(٣) اللغات السامية ١٣ .

نجد من ذلك امورا كثيرة ، منهـا : (١) احتفاظهـا بكل الاصـوات الموجـودة في اخواتها ، وزادت عليها اصواتاً غير موجودة الا بها كالضاد مثـلا . ومنهـا : (٢) احتفاظها بجميع قواعد النحو والصرف التي سارت عليها اللغات السامية ، وفاقت تلك اللغات باحتفاظها بقواعد لا نظير لهـا فيهـا ، او على الاقـل بشـكل بسيط . ومنها : (٣) احتفاظها بأوسع ثروة لغوية في المفردات واصول الكلمات على اختلاف انـواع الكلمـة من اسـم وفعـل وحـرف ، ما لا وجـود لهـذه السعـة في اخواتهـا الساميات[١] . ولهذا كله كانت العربية اصدق الساميات تمثيلا للغة الام القديمة .

* * *

٢ ـ معرفة العرب بقرابة اللغات السّاميّة وأثرُها :

الذي تدل عليه اشارات القدماء في مصنفاتهم اللغوية ، انهم لم يكونوا ـ أو بعضهم على الاقل ـ يجهلون القرابة اللغوية بين لغات المجموعة السامية ، على انهم لم يستخدموا هذه المعرفة دائما ، استخداماً مثمراً في دراساتهم اللغوية المختلفة . ولعل اول من اشار الى وجود قرابة لغوية بين لغتين ساميتين ، هو الخليل بن احمد (ت ١٧٥) ، اذ قال وهو يعالج مادة (كَنَـع) : « وكنعـانُ بنُ سامِ بنِ نوح ، يُنسب اليه الكنعانيون ، وكانوا يتكلمون بلغةٍ تضارعُ العربية[٢] » . على أن ذلك لا يعني معرفته بالكنعانية ، وانما يعني معرفته بصلة القربى اللغوية بين العربية وبين اختها .

ولعل ما نقله ابن جني عن الاخفش (٢١١ هـ) في تفسير نشأة اللغة يشير الى ما نحن بصدده ، بشيء من التأويل ، قال : « إنّ اللهَ سبحانهَ علَّم آدمَ أسماءَ جميع المخلوقات بجميع اللغات : العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات . فكان آدم وولده يتكلمون بهـا ، ثم ان ولـده تفرقـوا في الدنيا ، وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه ، واضمحـل عنـه ما

(١) فقه اللغة (وافي) ١٥٨ وما بعدها

(٢) العين (الجزء المطبوع) ١/ ٢٣٢ .

سواها لبعد عهدهم بها »[1] . وعلى الرغم من دلالة هذا القول على معرفة الاخفش بانقسام اللغات وتشعبها ، اكثر من اي شيء ، الاّ انه قد يدل ايضا على اشارته الى قرابة هذه اللغات أو بعضها ، بكونها ترجع الى لغة واحدة في الأصل هجرت بعد ان بَعُدَ العهد بها .

وربما كان ابن حزم الاندلسي (ت ٤٥٦ هـ) اكثر صراحة وهو يعرض لهذا الموضوع ، اذ يقول : « ان الذي وقفنا عليه ، وعلمناه يقينا ، ان السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير ، واحدة . تبدلت بتبدل مساكن اهلها ، فحدث فيها جرس ، كالذي يحدث من الاندلسي اذا رام نغمة أهل القيروان ، ومن القيرواني اذا رام لغة الاندلس ، ومن الخراساني اذا رام نغمتها »[2] . ويضرب لذلك امثلة تؤ يد ما ذهب اليه ، وتدعم مقولته في القرابة اللغوية ، حتى يخلص الى قوله : « فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية ، أيقن ان اختلافها انما هو من نحو ما ذكرنا ، من تبديل الفاظ الناس على طول الأزمان ، واختلاف البلدان ، ومجاورة الأمم ، وانها لغة واحدة في الأصل »[3] .

والراجح ان الذي جعل ابن حزم يقرر ما قرره في هذه السبيل ، وجوده في الاندلس وتوافره على اللغة العبرية فيها ، اذ شهدت الاقاليم والمدن الاندلسية نشاطا كبيرا من لدن الدارسين اليهود في دراسة العبرانية والتأليف في قواعدها واصولها ، وتأسيسهم المدارس الخاصة بهم ، حتى قال استاذنا الدكتور السامرائي : « ان اليهود الاندلسيين قد سبقوا المستشرقين في لمح الصلة التي تربط هذه اللغات ـ ويعني اللغات السامية ـ فأشاروا في رسائلهم الى العلاقة بين العبرانية والعربية وفي ضوء هذه العلاقة تناولوا المواضيع وكتبوا كتباً كثيرة[4] » .

على ان معرفة اللغويين العرب لهذه القرابة بين الساميات ، لا تعني معرفتهم

---

(١) الخصائص ١/ ٤١ .

(٢) الاحكام في اصول الاحكام ١/ ٣٠ .

(٣) نفسه ١/ ٣٠ .

(٤) محاضرات د . ابراهيم السامرائي على طلبة قسم اللغة العربية (مدونتي) ٩ .

للغـات السـامية نفسهـا ، من حيث اصواتهـا ، وظواهرهـا ، وابنيتهـا المختلفـة وخصائصها في الاشتقاق والنحـت والتـركيب ومـا الى ذلك ، بل تدل دراساتهـم اللغوية على جهلهم بها ، واعراضهم عنها ، على الرغم من توفرها لديهـم ، على لسان اصحابها المقيمين بين ظهرانيهم في الحواضر الاسلامية . فلو شاءوا تعلمهـا لتهيأ لهم ذلك بأقرب الطرق وايسر الوسائل .

والذي يدل عليه البحث ان معرفتهم بهذه اللغات لم تكن تتعـدى العلـم بالمفردات ، اذ تشير بعض دراساتهم القرآنية واللغوية الى وقوفهم على عدد غير قليل من المفردات العبرية والسريانية والآرامية واليمنية القديمة ، وكانوا حين تعترضهم مثل هذه المفردات ينصون عليها وينسبونها الى لغاتها ، حتى ان من اللغويين من كان يضع كتابه لأجل احصاء هذه المفردات المعربة او الدخيلة في العربية ، وعلى ذلك كتب (لغات القرآن) وكتب (المعرب) ، وغيرها من فنـون الـتـأليف التـي مرت دراستها[1] .

فقد مر بنا كتابُ (اللغات في القرآن) لابن عباس (ت ٦٨) ، الذي وضعه للنص على ما استعمله القرآن الكريم من مفردات ترجـع الى اللهجـات العـربية المختلفة واللغات السامية وغـير السـامية ، وكان سهـم اللغـات السـامية من هذه المفردات كبيرا[2] ، ونفترض مثل هذا العمل في سائر ما لم يصل الينا من مؤلفات هذا الفن . كما عرض اللغويون لهذه المفردات السامية حين تناولوا بعض ظواهـر العربية بالدرس ، كظاهرة الاضداد مثلا ، ورجعوا ـ وهم يعالجون بعض موادها ـ أحد معنيي الضد الى احدى اللغات السامية ، كما فعل قطرب (ت ٢٠٦) مثلا في مادتي (السَّامِـد) و (وَثَـبَ)[3] ، وابـو حاتـم السجستانـي (ت ٢٥٥) في مادة (السَّامِد) أيضا[4] ، والاصمعي (ت ٢١٣) في مادة (وَثَبَ)[5] ، وابن السكيت

(١) انظر الباب الثاني من هذه الرسالة

(٢) اللغات في القرآن ٤١ ، ٤٧ مثلا .

(٣) اضداد قطرب ٢٤٥ ، ٢٦٤ .

(٤) اضداد ابي حاتم ١٤٤ .

(٥) اضداد الاصمعي ٤٥ .

(٢٤٤ هـ) في مادة (وَثَبَ) ايضا [١] ، وابن دريد (ت ٣٢١) في مادة (زَبَرَ) [٢] ، وابو بكر بن الانباري (ت ٣٢٨) في مادة (السَّامد) و (وَثَبَ) و (طه) [٣] ، وابو الطيب اللغوي (٣٥١ هـ) في مادة (السَّامِد) [٤] ، وهكذا كثير من النصوص لدى هؤلاء وغيرهم من اللّغويين في شتى صنوف البحث اللغوي . اذ نجد في معجمات اللغة نصوصا كثيرة على الالفاظ السامية ، وهي في معرض النص على المعرب ، كالباب الذي عقده ابن دريد في الجمهرة (لما تكلّمت به العربُ من كلام العَجمِ ، حتى صار كاللّغة)[٥] ، والبابين اللذين عقدهما ابن سيده (٤٥٨ هـ) في المخصص (باب ما اعربَ من الاسماء الاعجمية) و (باب اَطِرادِ الابدالِ في الفارسية) [٦] ، ولم يمحض الثاني للفارسية بل عرض فيه ايضا للرومية والنبطية والسريانية ؛ واوسع من هذين كتب المعرب ، وعلى رأسها (المعرَّب من الكلام الاعجمي) لابي منصور الجواليقي (٥٤٠ هـ) الذي ضمنه النصوص الكثيرة على الالفاظ السامِيّة ، وان أخطأ في نسبةِ بعضها الى لغاتها ، كالذي حدث في مادة (الأبيل) التي تعني في العربية الرّاهب ، نسبها الى الفارسية [٧] ، في حين هي سريانية تعني الحَزين ، واستعمال العرب إياها في المعنى الاول من قَبيل المجاز[٨] .

واننا حين نزعم ان معرفة اللغويين العرب للغات السامية لم تتعد المفردات ؛ يجب أن نعترف لهم بأن جانبا مهما من دراساتهم اللغوية ، وما وضعوه فيها من آراء ، وما استخلصوه من نتائج ، قد أيده البحث اللّغوي المقارن الحديث ؛ وعلى الرغم من أن هذه التوصلات المتشابهة أو المتقاربة في الدرسين القديم والحديث قد حدثت مصادفة ، لأن العرب - كما قلنا - لم يدرسوا العربية في ضوء اللغات

---

(١) اضداد ابن السكيت ١٩٩ .

(٢) الاشتقاق ٤٨ .

(٣) اضداد ابن الانباري ٤٣ ، ٩١ ، ٤٠٤ وانظر : البحر المحيط ٦/ ٢٢٤ .

(٤) اضداد ابي االطيب ١/ ٣٧٢ .

(٥) الجمهرة ٣/ ٩٣ .

(٦) المخصص/ سفر ١٦ .

(٧)) المعرّب ٢٠ .

(٨) من اسرار اللغة ١١٥ .

السامية ، الاّ ان ذلك يدلّ على بصيرة أسلافنا الدقيقة في نواميس اللغة ، ودقة ملاحظتهم لحقائقها وقوانينها ووقوفهم على سبلها في التطور والتنامي . وحريّ بنا أن نذكر أمثلة من ذلك ، وافق الدرس الحديث الدرس القديم فيها أو في شيء منها ؛ دون أن نعرض لآراء الخليل خاصة ، لأن له موضعا آخر في هذا الفصل سنأتي اليه :

١ـ الإبدال : مر بنا أن اللغويين اختلفوا في وقوعه ، فمنهم من اشترط وحدةَ الحيزّ ، أو قرب المخرج ، في الصوتين المبدلين ، ومنهم من جوَّز وقوعَه في الأحرف المتقاربة في حكاية أصواتها ، ولوكانت من مخارج متباينة[١] . وذهب ابن السكّيت (٢٤٤ هـ) وابن فارس (٣٩٥ هـ) وابن سيده (٤٥٨) الى امكان حصوله في اللهجة الواحدة[٢] ، وخالفهم في ذلك أبو الطيب اللغوي (٣٥١ هـ) ذاهباً الى أنَّ صورتيه لهجتان[٣] .

ومهما يكن من أمر فالابدال ظاهرة ساميّة ، اذ نجد في هذه اللّغات أمثلة منها ، تختلف قلة وكثرة باختلاف اللغة ؛ وكثيرا ما تشترك اللّغات السامية في الاتفاق على أصلين من اصول الكلمة الصوتية وتبدل الاصل الثالث نتيجة القوانين الصوتية التي سارت عليها كل لغة من هذه المجموعة ، فكثيرا ما تبدل الباء الآرامية ميما في العربية ، والجيم السريانية ضادا في العربية ، وصادا أو سينا في العبرية ، والذال العربية زايا في العبرانية ، والضاد العربية صادا في الاكادية والعبرية ، وظاءً أو صادا في الاوكاريتية ، وما الى ذلك[٤] . وعلى هذا نفسر بعض صور الابدال في العربية . فذكروا انه يقع بين التاء والثاء ، والأول صوتٌ شديدٌ والثاني صوت رخو ، ومثلوا له بالخَبيتِ والخَبيث ، ومبّعوتٍ ومبّعوث وذهبوا الى أن من العرب من يبدل التاء من الثاء وهم يهود خيّبر[٥] . والأمر في ظاهره على خلاف سنن اللّغة في

---

(١) الفلسفة اللغوية ٦٠ وابدال أبي الطيب (مقدمة المحقق) ١/ ٩ وفقه اللغة وخصائص العربية ٦٦ والتطور اللغوي التاريخي ١٠٦ ونشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ١٨ ومقدمة لدرس لغة العرب ٢٣٩ .

(٢) الصاحبي ١٧٣ وفقه اللغة للثعالبي ٥٦٤ والمخصص ١٤/ ١٩ والتطور اللغوي التاريخي ١٠٨ .

(٣) المزهر ١/ ٤٦٠ .

(٤) مقدمة في الاصول اللغوية المشتركة ٣ واللهجات العربية في التراث ٣٣٦ .

(٥) الاصمعيات ٨٠ ، ٨٥

الميل الى الاسهل ، فلا يمكن ان يترك الاخف وهو الثاء الى الاثقل وهو التاء ، غير أن الدرس اللغوي المقارن أيده بحدوث مثل هذا التعاقب بين الثاء العربية والتاء في اللّهجات الآرامية[1] .

ويقع بين الثاء والفاء وكلاهما رخو مهموس ، اي أنهما متقاربان في المخرج والصفة ، كالجَدَثِ والجَدَف ، والثّوم والفوم ، وقد عزيت صوره بالثاء لأهل الحجاز ، وبالفاء لتميم[2] . وذهب ابن جني (٣٩٢ هـ) الى أن الأصل هو ما كان بالثاء معلّلا ذلك بقوله « ألا ترَى الثاءَ أذهبَ في التصريفِ من الفاء »[3] . وقد أيدته اللغات السامية في النتيجة وان لم تؤيده في التعليل ، فالثّوم في العبرية (shum شوم) وفي الآرامية (Tuma توما) ، والشين العبرية والتاء الآرامية تبدلان من الثاء العربية[4] .

ويقع بين الحاء والخاء وكلا الصوتين حلقي مهموس ، فهما متقاربان مخرجاً وصفة ، مثل المحسول والمَخْسول وطُحْرور وطُخْرور وغيرها مما روى العلماء كالفراء والأصمعي وأبي عبيدة[5] وابن السكيت وابن دريد[6] ، وقال الفراء في تفسير قوله تعالى : (إنَّ لكَ في النهارِ سَبْحاً طويلاً)[7] : وقُرِئتْ سَبْخاً ومعناهما واحد أي فراغاً[8] . ويقفنا الدرس الحديث على أن مثل هذا الابدال في الحاء والخاء قد حدث بين السامية الأم والعبريّة[9] .

ويقع بين الدال والذال ، والأول صوت شديد ، والثاني صوت رخو ، مثل

---

(١) اللهجات العربية في التراث ٣٣٨ وانظر أمثلة منه في العربية : ابدال ابي الطيب ١/ ٩٧ .

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٣٩ وكنز الحفاظ ٦٦٤ والمصباح المنير ٢/ ٨٤٦

(٣) المحتسب ٢/ ١٠٠ .

(٤) التطور النحوي (برجشتراسر) ٢٣ .

(٥) ابدال ابي الطيب ١/ ٢٦٥ والمزهر ١/ ٥٤٣ .

(٦) لسان العرب ٨/ ٣٧٤ والجمهرة ٢/ ٢١٠ .

(٧) سورة المزمل ٧

(٨) معاني القرآن ٢/ ١٠٢ .

(٩) التطور النحوي ٢٣ .

عَدوفَة وعَذوفَة ، وقد روى شذرات من هذا الابدال أبو عمرو الشيباني[1] ، وقد عُزيت الذال الى ربيعة والدال الى سائر العرب[2] ، ويؤ يد هذا النوع من الابدال في العربية ما نجده من ابدال الذال العربية دالا في الآرامية والأوكاريتية[3] .

ويقع بين السين والشين ، وكلاهما رخو مهموس ، وتقاربا مخرجاً وصفة ، قال به الفراء (٢٠٧ هـ) وذكر أمثلة منه ، ومثله عن الاصمعي (٢١٣ هـ) وابن السكيت (٢٤٤ هـ) وابي الطيب اللغوي (٣٥١ هـ) ، ومن امثلته سُدْفَة و شُدْفَة وسَعَرْت وشَعَرْت ، وجاحَسَهُ وجَاحَشَهُ ، وعَسِقَتْني وعَشِقَتْني[4] . وقد حدث مثل هذا الابدال بين اللغات السامية ، كالذي بين العربية والعبرية ، فسَأَلَ في العربية يقابلها (שָׁאַל) شَأَلَ في العبرية ، وسُنْبُلَة العربية تقابلها (שִׁבֹּלֶת) شبّلت في العبرية ، وهكذا[5] .

ويقع بين الصاد والضاد ، والأول رخو مهموس والثاني رخو مجهور ، ذكر أمثلته الكسائي (١٨٩ هـ) وأبو عبيدة (٢١٠ هـ) وغيرهما ، ومنها الضئبل والصئبل وصباصِب وضباضِب ، والامتضاض والامتِصاص[6] . وقرأ ابن عباس (٦٨ هـ) : (حَضَبُ جهنَّم) منقوطة ، قال الفراء : يريد الحصب[7] ، وكلاهما يعني الحطب بلهجة قريش[8] . ومرّ أن الضّاد العربية كثيراً ما تبدل صاداً في الاكادية والعبرية ، وظاء او صاداً في الاوكاريتية ، فمثلاً : الحَضَب التي مرت في الآية الكريمة ، تقابل في العبرية (חָצָב) حَصَب ، وتعني فيها الحطب أيضاً[9] .

---

(١) لسان العرب ١١/ ١٣٩ .

(٢) امالي القالي ٢/ ٩١ وابدال ابي الطيب ١/ ٣٥٣ .

(٣) اللهجات العربية في التراث ٣٣٩ .

(٤) ابدال أبي الطيب ٢/ ١٥٥ وابدال ابن السكيت ٤٠ وسر صناعة الاعراب ١/ ٢١٤ .

(٥) التطور النحوي ١٤ ـ ١٥ ومن اسرار اللغة ١١٥ .

(٦) لسان العرب ١٣/ ٤١٣ والمزهر ١/ ٥٥١ (٧) لسان العرب ١/ ٣١١ .

(٨) اللغات في القرآن ٣٧ .

(٩) اللهجات العربية في التراث ٣٣٦ .

ويقع بين اللّام والنون ، وكلاهما صوت مجهور ليس بالشديد ولا بالرخو ، قال الفراء : العرب تقول بَلْ والله وبَنْ والله[1] ، وروى ابن السكيت : أَلصَتُّ الشيءَ أُليصُه وأنصتُه أُنيصُه[2] . وذهب ابن جني الى اصالة اللّام وفرعية النون ، في احد رأييه[3] ، والى اصالة كلا الصوتين ، في رأيه الثاني[4] . وحصل مثل هذا الابدال بين الساميات ايضاً ، فكلمة صنَم العربية تقابل(Ṣelem) صَلَم العبرية ، و (Ṣalmā) الآرامية[5] .

ومما يتصل بهذا النوع من الابدال ، ابدال الميم والنون ، وهما من الاصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللِّين[6] ، ومن امثلته في العربية : البَنام والبَنان ، وطامَه وطانَه ، والأيْم والأيْن[7] . وقد حدث بين بعض اللغات السامية وبعضها الآخر كالذي حدث مثلاً بين العربية واللغات اليمنية القديمة كالحميرية[8] .

٢ ـ الضَّمائر : وقد اختلف اللغويون في حقيقتها ، فمنهم من ذهب الى ان جميع اصواتها اصول ، ومنهم من رأى الزيادة الطارئة في اصولها ، على ما سنراه هنا :

ذهب البصريون الى أن ألف (أَنا) زائدة ، جيء بها تفريقاً للضمير ان عن الادوات ، وما هي الاّ فتحة النون المطولة . اما الفراء والكوفيون فرأوا ان لا زيادة في (أَنا) و (نَحْنُ) ، وان جميع اصواتها اصول[9] . يؤيد ذلك أن الضمير أنا في الحبشية (ana) أنا ، وفي الآرامية (ena) إنا ، وفي السَّبئية والمعينية (ana) ، وفي

(١) لسان العرب ١٣/ ٧٤ .
(٢) ابدال ابن السكيت ٩ .
(٣) الخصائص ٢/ ٨٤ .
(٤) لسان العرب ١٦/ ٢٠٦ .
(٥) التطور النحوي ٢٤ .
(٦) الاصوات اللغوية ٦٠ .
(٧) شافية ابن الحاجب ٣/ ٢١٦ ـ ٢١٩ ولسان العرب ١٦/ ١٨٧ .
(٨) اللهجات العربية ٣١١ ـ ٣١٢ .
(٩) شرح المفصل ٣/ ٩٤ وشرح الاشموني ١/ ١٢٦ .

العِبْرية(ani) أني ، وفي البابلية والآشورية(anaku) ، وكلها تحتفظ بالاصول الثلاثة للضمير . ومثله الضمير نَحْنُ فهو في الحبشية(nehna) نِحْنا ، وفي الآرامية (enahnan) إنَحْنان ، وفي السبئية والمعينية (nahnu) نَحْنو ، وفي العبرية (anahnu) أنحْنو وفي البابلية والاشورية(anini) أنيني[1] ، وهي جميعا محتفظة بأصوله السامية كالعربية .

وذهب البصريون الى أنّ (أنْ) هي الضمير في أَنْتَ ، والتاء لحقت للدلالة على الخطاب مثل الكاف[2] . وذهب الفراء والكوفيون الى أنّ أَنْتَ جميعا الضمير بما في ذلك التاء[3] . والضمير في الحبشية(anta) أنْتا ، وفي الآرامية(ant) أنْتْ ، وفي السبئية والمعينية(anta) أنْتا وفي العبرية(atta) أتّا ، وفي البابلية والآشورية (atta) أتّا[4] . والتاء أصل في الضمير في جميع هذه اللغات .

وذهب البصريون الى ان الهاء والواو في (هُوَ) والهاء والياء في (هيَ) جميعاً الضّمير ، وخالفهم الكوفيون فذهبوا الى ان الهاء وحدها في كليهما الضمير[5] . وهما في الآرامية hu هُو ، و(hi) هي ، وفي السبئية والمعينية(hua) هُوَ ، و(hia) هيَ ، وفي العبرية(hu) هُو ، و(hi) هي وفي البابلية والاشورية(su) سُو ، و(si) سي[6] . وفي جميعها ـ عدا السبئية والمعينية ـ نجد الضمير الهاء وحدها او السين المبدلة منها في البابلية والاشورية ، ولما كانت الهاء الساكنة محتاجة الى ما يوصل بها ليتوصل الى نطقها ، وصلت بواو ساكنة للمذكر ، وبياء ساكنة للمؤنث .

٣ ـ اسماء الاشارة : واختلفوا في اصولها بمثل اختلافهم في الضمائر ، فذهب البصريون الى ان الاسم في (ذا) هو الذال والالف جميعاً ، وذهب الكوفيون الى ان

(١) تاريخ اللغات السامية ٩ والمفصل في قواعد اللغة السريانية ١٨ .
(٢) كتاب سيبويه ٢/ ٦٧ .
(٣) شرح المفصل ٣/ ٩٥ وشرح الرضي على الكافية ٢/ ١٠ .
(٤) تاريخ اللغات السامية ٩ .
(٥) الانصاف : مسألة ٩٦ .
(٦) تاريخ اللغات السامية ٩ .

الاسم الذال وحدها[1] . والاسم في الحبشية (Ze) زَ ، وفي العبرية (Ze) زَ[2] ، وهذا يدل على ان الاسم هو الذال وحدها ، بعد ان مُطلت فتحتُها فصارت ألفاً ، وكانت هذه الفتحة في الاصل موضوعة للتوصل الى النطق بالذال الساكنة .

٤ ـ الأسماء الستّة : ذهب اللّغويون بصريين وكوفيين ـ من غير اجماع ـ الى أن هذه الاسماء ثلاثية الاصوات في الاصل ، أسقط الاستعمال الاصل الثالث منها[3] . وفيما يقابلها في اللغات السامية ما يؤ يد ذلك ، فأب في الآشورية والبابلية : أبو ، وفي الآرامية : أبا . وأخ في الآشورية والبابلية : أخو ، وفي الحبشية واليمنية القديمة : أحو ، وحم في الاشورية والبابلية : أمو ، وفي الآرامية : حما[4] . وهذا يدل على أنها في العربية كانت ثلاثية ، ثم أسقط الاستعمال الاصل الثالث منها ، وعُدّت خطأً في الثنائيات . على أن تثليث هذه الاسماء بحرف المد واضح في اللغات السامية .

٥ ـ الأدوات والكلمات :

لَيْسَ : ذهب البصريون الى انها فعل ماضٍ لا يتصرف اصلها لَيِسَ بكسر الياء[5] . وذهب الفراء ـ بعد الخليل ـ الى ان أصلها لا أَيْس[6] ، وقد أيد مذهبه الدرس المقارن ، فَلَيْس يقابلها في الآرامية : (lait) لَيْتَ ، أي انها مركبة من لا واسم معناه الوجود ، يلفظ فيها : (iitai) يِتَّ ، وفي العبرية (ies) يِشْ (יֵשׁ) ، وفي الآرامية القديمة : (itai) إتَ ، وفي الاكدية : (iso) إسو ، وعليه فان (lait) التي تعني لا يوجد في الآرامية هي لَيْسَ بمعناها الأصلي في العربية[7] .

---

(١) الانصاف : مسألة ٩٥ .

(٢) تاريخ اللغات السامية ١٠ .

(٣) الانصاف : مسألة ٢ وشرح الاشموني ١/ ٨٠ ومجالس ثعلب ١/ ٤٦٨ وهمع الهوامع ١/ ٣٨ .

(٤) تاريخ اللغات السامية ٢٨٣ ، ٣٨٦ .

(٥) مغني اللبيب ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

(٦) لسان العرب : ليس .

(٧) التطور النحوي ١١١ ولحن العامة والتطور اللغوي ٣٧٣ .

لكنْ : ذهب البصريون الى انها بسيطة غير مركبة ، وذهب الفراء والكوفيون الى انها مركبة على خلاف بينهم في اصولها المركبة[1] . وحين أيّد الدرسُ اللغـوي المقارن فكرة تركيبها ، لم يصحح الاصول المركبة التي افترضهـا اصحـاب هذا الرأي ـ على ما سنعرض له في موضوع لاحق ـ ذلك أن لكنّ مركبة من لا وكِن التي تقابل كلمة : (Ken) كِنْ العبْرية التي تعني : هكذا[2] .

كَمْ : ذهب البصريون أيضاً الى افرادها ، والفراء والكوفيون الى تركيبها ، وانها في الاصل ما وصلت من اولها بكاف[3] . والدرس اللغوي المقارن عضد فكرة التركيب ، فكَمْ في أصلها : (Kama) كاما ، كما كانت لم في الاصل : (la - ma) لاما ، وأم : (a - ma) أما[4] . والاستعمال هو الذي ذهب بالألف من آخرها .

نخلص من دراسة هذه الامثلة ، وكثير غيرهـا في مصنفـات الاوائـل ، لم نعرض له اكتفاء بما قدمنا ، الى ان اللغويين العـرب حـين عالجـوا هذه الظواهـر الصوتية والصرفية والنحتية والتركيبية في اللغة ، لم ينظروا اليها على انهـا ظواهـر سامية عامّة ، تشترك فيها العربية مع اخواتها في احتوائها ، واحتضان اصولها ، الاّ ان نتائج معالجاتهم لها صادفت الصحة والقبول في الدرس اللغوي الحديث حين عمد الدرس الاخير الى دراسة العربية في ضوء اللغات السامية ، وهذا يدل ـ كما قلنا في صدر الموضوع ـ على سلامة المنهج الذي أخذ به الدارسون الاوائل الذين عرضنا لآرائهم هنا الى حد كبير في دراسة اللغة وفهمهم لسننها في التطور ، على ان هذه المصادفة قد تخلت عنهم في كثير من الاحيان ، وجانبهم الصواب في بحث كثير من مسائل اللغة وقضاياها ، وهذا ما سنعرض لامثلته الآن .

٣ـ جهل اللغويين العرب باللغات السامية وأثره :

أشرنا في اكثر من موضـع سابق الى ان العرب درسوا اللّغـة داخـل اللغـة

---

(١) المغني ٢٢٦ وشرح المفصل ٨/ ٧٩ .
(٢) التطور النحوي ١١١ .
(٣) الصاحبي ١٢٩ والانصاف : مسألة ٤٠ .
(٤) التطور النحوي ١١١ .

نفسها ، واعني بها العربية ، فأدى ذلك الى « أنهم لم يوفقوا في بيان المعاني الدقيقة التي يؤديها كثير من الكلمات ، لانه ليس من الممكن في كل الاحوال أن يهتدي الباحث الى أصل اشتقاق الكلمة ، اذا اقتصر بحثه على لغة سامية واحدة[1] » ، مهما بلغ حسه اللغوي من دقة ، واجتهاده في الدراسة من عمق ، ذلك ان العربية مرت بمراحل تاريخية طويلة ومعقدة حتى وصلت الى ابصار اللغويين واسماعهم ، فلا يمكن الوقوف على مراحل هذا التاريخ الا من خلال دراسة العربية دراسة مقارنة باخواتها الساميات ، وهو ما لم يفعله اللغويون العرب ، فكان تقصيرهم في هذا مظهرا من مظاهر النقص في الدرس اللغوي القديم ، ولنعرج على أمثلة منه في دراساتهم :

١ ـ الاصوات : نسب اللغويون الى بعض اللّهجات العربية ، ظواهر صوتية خاصة ، وتعارفوا على تلقيب هذه اللهجات بألقاب تشير الى ظواهرها الصوتية ، فقالوا مثلا : لَخْلَخانيّة الفرات ، وكَسكَسَة بكر ، وغَمْغَمَة قُضاعة ، وطُمْطُمانيّة حِمْيرَ ، وهكذا ، ويبدو أنهم اخذوا ذلك ـ أعني الالقاب ـ مما تناقلته المصادر من خبر الرجل الجرمي في مجلس معاوية ، ولم يسم هذا الرجل في مظان الخبر ، وخلاصة الخبران معاوية سأل هذا الرجل عن افصح العرب ، فأجاب الرجل مادحا فصاحة قريش ، بأنها ارتفعت عن لَخْلَخانيةِ الفراتِ ، وكَسكسةِ بكر وغمغَمةِ قُضاعة . . الخ[2] . ويشعر هذا التلقيب بانه انتقاص من لهجات هذه القبائل ، لان الرجل في معرض المفاضلة ، فلا بد من ذكر مساوىء المفضول ، كما تشعر بذلك مواقف اللغويين من هذه الظواهر ، ولعل ذلك يعود إلى سببين ، الأول : احترام لهجة قريش وتنزيهها عما يشوب فصاحتها ، لانها عندهم لغة القرآن ، ولا مفر للوصول الى هذه الغاية من الطعن في اللهجات الاخرى ، والثاني : جهلهم بأن هذه الظواهر سامية عامة اشتركت هذه اللهجات العربية مع اللغات السامية في احتضانها ، واليك الدليل :

الاستِنْطاء : لقبت به لهجات سعد بن بكر وهذيل والازد وقيس والانصار

(١) تاريخ اللغات السامية ٢١٧ .

(٢) البيان والتبيين ٣/ ٢١٢ والعقد الفريد ٢/ ٤٧٥ ودرة الغواص ١١٤ وخزانة الادب ٤/ ٥٩٦ .

واهل اليمن[1] .ويقصد به في الدراسات القديمة ابدال العين الساكنة نونا اذا جاورت الطاء ، ولم يذكر له الامثال واحد هو أنْطى في أعْطى ، وقرأ الحسن : (إنّا أنْطيناكَ الكوثَر)[2] بدل أعطيناك [3] . وكل ما ذكر من شواهد الاستنطاء النثرية والشعرية لاتخرج عن هذا المثال [4] . والحقيقة ان الدرس الصوتي لا يعد هذا من الابدال ، اذ يشترط القرابة الصوتية بين الصوتين المبدلين [5] ، وليس بين العين والنون أية قرابةٍ صوتية ، لا في المخرج والحيز ولا في الصفة . والدرس المقارن يكشف ان الفعل في الساميات بالنون فأعطى في العبرية : (נָתַן) نَتَن ، وفي السريانية : (ܢܬܠ) ويلفظ نتن كالفعل العبري تقريبا ، وفي العبرية ايضا الفعل : (נָטָה) نَطا ، الذي يستعمل في مثل قولنا : (נָטָה יָדוֹ) نَطا يَدو إلى : مَدَّ يَدَه إلى ، أي أخذ وهو المعنى المضاد لأعطى العربي[6] ،والموافق لعَطا يَعطو الذي يعني : أخذ وتناول . من هذا نخلص الى ان النون أصيلة في الفعل أنطى ، وهو الفعل السامي القديم . ويذهب استاذنا الدكتور السامرائي الى أن الفعل أنطى مأخوذ من آتى بمعنى أعطى ، ثم ضعفت التاء فصار أتّى ، وحين فك الادغام كان بالنون على سنن العربية واللغات السامية ، من فك المضعف بالنون أحيانا كجندل من جَدَّل [7] . وقد يفك بغير النون .

الفَحْفَحة : لقبت به لهجة هذيل [8] ، وهو جعل الحاء عينا ، ولا مثال على هذا فيما تذكر المصادر سوى عتّى في حتى ، وقرأ ابن مسعود : (عتّى حين) [9] بدل حتى حين ، وانكر ذلك عليه عمر[10] . والمصادر لا تتجاوز في جميع شواهدها المذكورة

---

(١) الفائق ١/ ٨ والنهاية ٥/ ٧٦ والاقتراح ٨٣ والمزهر ١/ ٢٢٧ .

(٢) سورة الكوثر ١ .

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٢١٦ .

(٤) النهاية ٥/ ٧٦ وابدال ابي الطيب ٢/ ٣١٨ .

(٥) سر صناعة الاعراب ١/ ١٩٧ .

(٦) التضاد في ضوء اللغات السامية ٦٦ وفصول في فقه العربية ١٠٤ نقلا عن : Ancient West Arabian. p. 32

(٧) دراسات في اللغة ٢١٧ .

(٨) الاقتراح ٨٣ والمزهر ١/ ٢٢٢ .

(٩) سورة يوسف ٣٥ .

(١٠) المحتسب ١/ ٣٤٣ .

كلمة (عَتّى) هذه الى مثال آخر[1] ، لنستدل به على ان ابدال الحاء عينا سنة لغوية في هذيل . والـدرس المقـارن حل هذا الاشـكال اذ يقابـل حتـى العربية : עַד عَدْ في العبرية ، و : עַד عَدَ في الآرامية ، وقد ابـدل صوت التـاء المهموس في هاتين اللغتين دالا وهو صوت مجهور ، ليتجانس مع العين المجهور ، فصوت العين في هذه الكلمة هو الأصل السامي الذي احتفظت به هذيل . وذهب احد الدارسين الغربيين الى أن عتّى منحوته من حتّى العربية وعد أو عدى السَّبئية[2] .

التَّلْتَلَة : لقبت به لهجات قيس وتميم وأسد وربيعة وعقيل وغيرهم ، على ما ذكرت المصادر[3] ، ومن هذه المصادر من خص بهذا اللقب قبيلة بهراء ، حتى قيل تلتلة بهَراء[4] ، وهي - أعني المصادر - في هذا التخصيص واهمة ، لأن التلتلة وهي كسر أحرف المضارعة في الفعل ، ظاهرة واسعة في العربية ، ولعلها أوسع من الفتح الذي هو في قريش وبعض جيرانها من قبائل الحجاز خاصة[5] . وشواهد التلتلة كثيرة . أفاضت كتب اللغة التي عرضت لهذه الظاهرة من ذكرها وانشادها[6] . وهي بعد ظاهرة سامية عامة تشترك فيها مع العربية : العبرية والسريانية والحبشية[7] وهي مطردة في هذه اللغات ففي العبرية مثلا نقول : (אֶכְתֹּב) إكتُب : أكتُب ، (תִּכְתְּבִי) تِكتْبي : تكتبين ، (יִכְתְּבוּ) يكتبو : يكتبون ،(נִכְתֹּב) نِكتُب[8] : وهكذا في سائر الأفعال ، يكون حرف المضارعة مكسوراً . مما يدل على اصالة الكسر في جميع اللغات السامية ومنها العربية .

---

(١) ابدال ابن السكيت ٢٣ وابدال ابي الطيب ١/ ٢٩٥ .

(٢) فصول في فقه العربية ١١٩ نقلا عن Ancient. p. 40.

(٣) الصاحبي ٤٨ ولسان العرب ٢٠/ ٢٨٣ وتهذيب الالفاظ ٢٠٧ والمنصف ١/ ٣٢٢ وخزانة الادب ٢/ ٣١١ .

(٤) مجالس ثعلب ١/ ٨١ والخصائص ٢/ ١١ وسر صناعة الاعراب ١/ ٢٣٥ ودرة الغـواص ١١٤ وخزانـة الادب ٤/ ٥٩٦ .

(٥) الصاحبي ٤٨ ولسان العرب ٢٠/ ٢٨٣ والمزهر ١/ ٢٥٥ . وفي الاول : (مفتوحة في لغة قيس) وهو تحريف قريش كما ظهر من نقل الاخير عنه .

(٦) انظر : هامش ١ ، ٢ ، ٣ .

(٧) الكنز في قواعد اللغة العبرية ١٧ وتاريخ آداب اللغة العربية ١/ ٥٠

(٨) دروس اللغة العبرية ١٩٠ .

الطمطمانية : لقبت بها لهجات الازدوطيء واليمن وحمير[1] ، ويقصد بها ابدال اللام من (أل) التعريف ميما، فنقول في البكر: امبكر ومنه حديث النبي (ص): (ليس من امبر امصيامُ في امسفر) اي : ليس من البِرّ الصيّام في السفر[2] ، وشواهدها كثيرة في العربية، والطَّمْطَمةُ «ان يكون الكلام مشبها لكلام العجم[3]» ، والطُّمطُمانيّةُ : العُجَمة[4] . فهم حين سموا هذه الظاهرة بالطمطمانية ،انما يريدون رميها بالعجمة ، وكأنها غير عربية ، فهل يشكون في عروبة القبائل التي استعملت هذه الاداة ؟ ان مثل هذا الابدال ، واعني به بين اللام والميم ، كثيرا ما يقع في اللغات السامية ، فقد مر بنا الكلام على ابدال اللام والنون ، والميم والنون ، والآن نحن بصدد ابدال اللام والميم ، وهذه الاصوات الثلاثة (اللام والميم والنون) تعد من الاصوات المتوسطة الشبيهة باصوات اللين ، وهي من اكثر الاصوات شيوعا في اللغات السامية[5] وكثيراً ما يُبدل بعضها من بعض في هذه اللغات ، فنجد ـ على هذا الأساس ـ ان أداة التعريف هي (النون) تلحق آخر الكلمة في اللغات اليمنية القديمة[6] . و (أمْ) في طيء والأزد وحمير ،و (أل) أو (اللام) ـ على خلاف في ذلك ـ[7] في سائر لهجات العربية .

هذا ما اردنا بيانه من امر الظواهر الصوتية الملقبة لدى اللغويين ، اما ما سوى ذلك من معالجاتهم الصوتية ، فمنها :

طَأْمَنَ : ذهب اللغويون ومنهم سيبويه الى ان الهمزة في هذا الفعل اصلية ، وكذلك هي في مقلوبه طَمْأنَ[8] ، ومنه اطْمَأَنَّ الذي يعني : سكنَ واستَقَرَّ ، على ان من اللغويين من لم ير اصالة الهمزة في الفعل ، فالأزهري ذهب الى أن : « الهمزة

---

(١) مجالس ثعلب ١/ ٧٣ والمغني ١/ ٤٧ ولسان العرب ١٤/ ٣٠١ وشمس العلوم ٣٩ .

(٢) درة الغواص ١١٤ ولسان العرب ٥/ ١١٦ .

(٣) الكامل ١/ ٢٢١ .

(٤) الفائق ٢/ ٤٥٩ .

(٥) الاصوات اللغوية ٦٠ .

(٦) تاريخ العرب قبل الاسلام (القسم اللغوي) ٧/ ٣٣ .

(٧) شرح ابن عقيل ١/ ١٥٣ .

(٨) المنصف ١/ ١٠٤ ولسان العرب ١٧/ ١٢٨ .

التي حلت في اطمأن ، انما حلت فيها حذار الجمع بين الساكنين »[1] . وهو مذهب صحيح ، لان الاصل في الفعل : اطمأنَّ . ويقابل (طَمَنَ) وهو الثلاثي من هذا الفعل في العربية : الفعل (טָמַן) طَمَنَ في العبرية ، ويعني فيها أخفى ، وما خفي سكن واستقر[2] ، ولا وجود للهمزة فيه ، مما يدل على عدم أصالة الهمزة في هذا الفعل في اللغات السامية ، وانما هي همزة حالة فيه لاخضاعه لموسيقى الشعر ، حين استعصى وزنه القديم على العروض[3] .

ابدال التاء من الصاد : كما في اللص واللّصْت ، فقد ذهب اللّغويون الى أن الاصل هو ما كان بالصاد أى (اللِص) وأن (اللّصْت) بالتاء فرع عنها[4] ، وذكروا في جمعهما : لصوص ولصوت واستشهدوا لهما[5] ، ونسبت الصيغة التي بالتاء الى طيء وأهل اليمن وبعض الانصار وغيرهم[6] . فهل من نواميس اللغة ـ ان كانت اللصُّ أصلاً واللصتُ فرعاً ـ أن يبدل العربي الصاد الرخو تاء شديدة ؟ الاحتكام الى بعض اللغات السامية يكشف أن اللصت بالتاء هي الأصل واللص بالصاد الفرع ، فهي في السريانية (leṣtes) لصتس[7] ، والتاء أصلية فيها .

اسقاط الواو من الافعال : وذلك بأن يكتفى مكانها بالضمة ، واستشهد اللغويون لهذه الظاهرة بشواهد كثيرة ، تشير الى انها من الظواهر اللهجية ، وقد نسبها الفراء (٢٠٧ هـ) الى قيس وهوازن[8] ، ونسبها سيبويه الى قيس واسد[9] ،

---

(١) تهذيب اللغة ١٣/ ٣٧٧ .

(٢) فصول في فقه العربية ١٨٤ .

(٣) نفسه ١٧٢ .

(٤) لسان العرب ٨/ ٣٥٦ وفي اللهجات العربية ٩٢ .

(٥) ابدال ابن السكيت ٤٢ واللسان ٢/ ٣٨٩ .

(٦) المذكر والمؤنث ٢٥ والمخصص سفر ١٧/ ١٦ وابدال السكيت ٤٢ والجمهرة ١/ ١٠٣ والمعرب ٢٢١ ولسان العرب ٨/ ٣٥٦ .

(٧) التطور النحوي ٣٣ .

(٨) معاني القرآن ١/ ٩١ .

(٩) الكتاب ٢/ ٣٠١ .

وقرأ بعضهم قوله تعالى : (سَندعُ الزَّبانيَة) وهي سندعو[1] ، وقرأ آخر : (قد أُفلحُ المؤمنون)يريد أفلحوا[2]. والذهاب الى كونها ظواهر لهجية مذهب سليم، الاّ ان انكار ذلك والذهاب الى أن هذا الحذف انما هو من الضرورات الشعرية ، وبه فسرت الشواهد الشعرية المروية[3] ، فذلك ما لا يؤ يده البحث العلمي ، لأن من الشواهد ما لم يكن شعريا فلا ضرورة فيه ، كالقراءات ومثلنا لها . ولأن حذف الواو والاكتفاء بالضمة ظاهرة سامية عامّة ، لها ما يؤ يدها في الحبشية والعبرية والآرامية[4] .

٢ ـ البِنْيَة : وللغويين وقفات عند مسائل بنية الكلمة العربية ، من حيث ما يعتورها من قلب واشتقاق ونحت وتركيب وما الى ذلك ، مما لم يكن حظ درسهم اياه باحسن منه في الاصوات ، واليك أمثلة منه :

القَلب : مرّ أن العربية عرفت القلب وتكثرت منه ، شأنها في ذلك شأن اللّغات الساميّة وخاصة العبرية التي عرفته كثيراً أيضاً[5] . ويحدث أحياناً بين اللّغات السامية ، بأن تنفرد احداها بالصورة المقلوبة ، كالذي حدث بين العربية واخواتها في (رُكْبَة) و (بِركَة) ، فقد ورد في المعجم العربي في مادة (بَرَكَ) : « وابترَكوا في الحربِ : جَثَوا على الرُّكب »[6] . اذ يدل ذلك على حصول القلب في هذه المادة ، فأي الصورتين الاصل وأيها الفرع : العربية اختصت بالركبة اسماً للموضع المعروف من الجسد ، فحكم اللغويون بأصالته ، يقابلها في اللغات السامية : (birke) بِركة في الاكدية ، (berek) بِرك في العبرية ، (burka) بُركا في الآرامية ، (berk) بِرْك في الحبشية[7] . وهذا الذي نجده في اللغات السامية ينفي عن (الرُّكْبَة)

---

١) معاني القرآن ١/ ٩١ وخزانة الأدب ٢/ ٣٨٥ .

٢) حاشية الصبان ١/ ١١٢ . وانظر : خزانة الأدب ٢/ ٣٨٥ وهمع الهوامع ١/ ٥٨ .

٣) خزانة الأدب ٢/ ٣٨٥ .

٤) اللهجات العربية في التراث ٥٥٥ نقلاً عن نولدكه في كتابه : Endungen des prefekts .P .15 .Strassburg.

٥) تاريخ اللغات السامية ١٦٥ .

٦) أساس البلاغة ٣٧ .

٧) التطور النحوي ٢٢ .

العربية اصالتها ، ويصرح بأنها مقلوبة عن الاصل السامي : بِرِكَة .

صيغ الفعل : ذهب اللغويون الى أن : قَوَلَ ، وَبَيَعَ ، وَرَمَيَ ، وتَلَوَ التي هي أصول الافعال المعتلة العين واللاّم : قال ، وباعَ ، ورَمَى ، وتَلا ، لم تستعمل في العربية ، وانما هي اصول قياسية مفترضة ، غير ان الحبشية تقول : بينَ بمعنى تحقق ، ويقابل (بانَ) العربي ، ودَيَن بمعنى دانَ ، ورَمَي ، بمعنى رمى ، وتَلَو بمعنى تلا ، وهذا يشير الى ان هذه الصيغة الاصلية كانت مستعملة في اللغات السامية ، قبل أن تنتقل فيها العربية الى مرحلة استعمال الصيغ الجديدة[1] ، التي استحدثها طلب اليسر في النطق بالابتعاد عن توالي ثلاث حركات .

الاشتقاق : اختلف اللّغويون في حقيقة همزة (اسم) ، فاختلفوا في الاصل الذي اشتقت منه اللفظة ، فذهب البصريون الى ان اسم مشتق من السمو ، فالالف عوض عن الواو ، وذهب الكوفيون الى ان اسم مشتق من الوَسْمِ ، والالف عوض عن الواو أيضاً[2] ، وكلا الفريقين بعد عن الحقيقة ، واكبر الظن ان الذي أوقع اللغويين فيما وقعوا فيه ، تمسكهم الشديد بفكرة ثلاثية الاصول العربية ، ذلك انهم حين تأوّلوا لهمزة (اسم) أصلا كانوا قد تأولوا لـ (يَد) و (دَم) وأشباههما من الثنائيات أصلا ثالثاً . والدرس اللّغوي المقارن يدل على ان هذه الثنائيات في العربية ما هي الأ بقايا من مرحلة لغوية سابقة ؛ فاسم في العبرية : (sem) شِمْ ، وفي الآرامية : (Šmā) شْما والألف الاخيرة اداة تعريف ، وفي الحبشية (Sem) سِمْ . وفي الاكادية (sumu) شُم[3] . وجميع هذه اللغات تنبىء ان همزة اسم غير أصيلة ، وان الكلمة ثنائية الأصل .

النحت : ومن أمثلته (لكنَّ) و (اللّهمَّ) ، وسبق أن قلنا إن اللغويين اختلفوا في لكنَّ ، فمنهم من ذهب الى انها مفردة بسيطة ، ومنهم من ذهب الى أنها منحوتة ، وذكرنا أن الدرس المقارن أيد المذهب الثاني ، ولكنه لم يؤ يد ما ذكروه

---

(١) فصول في فقه العربية ٣٣ ولحن العامة والتطور اللغوي ٣٧٤

(٢) الصاحبي ٨٨ ط٢ ، والانصاف : مسألة ١ .

(٣) دروس اللغة العبرية ٢٥ وفصول في فقه العربية ٣٤ .

من الاصلين المنحوتين ؛ فالفراء حين قال بأنها منحوتة رأى أن اصلها (لكنْ أنَّ) طرحت الهمزة للتخفيف ونون لكن للساكنين ، وذهب غيره من الكوفيين الى أن اصلها لا وأن والكاف الزائدة لا التشبيهية ، وحذفت الهمزة تخفيفاً[1] . غير ان الدرس المقارن لم يصحح المذهبين اللذين ذهب اليهما الفراء والكوفيون في الاصول المنحوتة ، وكشف أن لكن مركبة من (لا) و (كِنْ) التي تقابل(כֵּן)كِن العبرية التي تعني هكذا ، وتستعمل بمعنى (نَعَم) في الجواب[2] .

أما (اللّهمَّ) فقد ذهب سيبويه والبصريون الى أنها في الاصل : (اللّه) وميم مشددة في الآخر تنوب عن (يا) النداء في الاول[3] . وذهب الفراء والكوفيون الى انها منحوتة من (يا اللّه أمِنّا بخَير) ، وكثرة الاستعمال حذفت بعض اجزاء الاصول تخفيفا ، ولم تسعف الشواهد المنشدة كلا الفريقين بما كان يريد منها[4] . وجاء العلم اللغوي المقارن فوجد أن صيغة اللّهم ليست بعربية ، وانما هي في الاصل : (אֱלֹהִים) إلوهيم العبريّة ، التي تعني فيها الآلهة ، لان فيها علامة الجمع الياء والميم (ים) ، ولكن الاستعمال لا يريد منها غير (الله) وعلامة الجمع إنما جاءت للتعظيم[5] .

٣ ـ الدلالة : وكانت بحوث اللّغويين العرب في الدلالة وظواهرها ، تفتقر أيضاً الى معرفة اللغات السامية ، اذ كان نتيجة جهلهم بهذه اللغات ، ان وقعوا في أوهام كثيرة زخرت بها مؤلفاتهم ، ومن أمثلة ذلك بحوث الاضداد :

سَجَد : ذهب الاصمعي وابن السكيت وابن الانباري وابو الطيب الى انها تعني في اللغة (انحنى) و (انتَصَبَ) ونُسِبَ المعنى الثاني الى طيء[6] . وكلا المعنيين يعود في الاصل الى معنى عام يصدق على الانحناء والانتصاب هو الخُضوع ،

---

(١) المغني ١/ ٢٢٦ وشرح المفصل ٨/ ٧٩ .

(٢) التطور النحوي ١١١ ودروس اللغة العبرية ٢٤٠ .

(٣) الكتاب ١/ ٣١٠ والانصاف : مسألة ٤٧ .

(٤) الانصاف : مسألة ٤٧ وشرح المفصل ٢/ ١٦ . والاشباه والنظائر ٢/ ١٦٢ .

(٥) مجلة لغة العرب ، السنة (٧) ٢/ ١٣٧ ودروس اللغة العبرية ٤٤٢ ـ ٤٤٣ .

(٦) اضداد الأصمعي ٤٣ وابن السكيت ١٩٦ وابن الانباري ٢٩٤ وابو الطيب ١/ ٣٧٨ .

واليه أشار الزبيدي[1] ، والفعل (שָׁחַד) ساكُد في العبرية يعني الخضوع في واحد من معانيه، مما يشير الى المعنى السامي القديم ، قبل أن يتخصص في طيء بمعنى الانتصاب وسائر القبائل الاخرى بمعنى الانحناء[2] .

وثَبَ : ذكر قطرب (٢٠٦) والاصمعي (٢١٣) ، وابن السكيت (٢٤٤) وابن الانباري (٣٢٨) ، ان الفعل ينصرف الى معنيين هما (قَفَز) و (جلَسَ) ، ونسب الثاني لاهل حمير[3] ، وهذه النسبة تشير الى الاصل، فالفعل (יָשַׁב) يَشَب العبري يعني جلس أو أقام[4] ، ومثله الفعل السرياني (ܝܬܒ) يِثِب ، مما يجعلنا نطمئن الى انه المعنى السامي القديم ، وقد تطورت دلالته في مواطن عربية فاصبح يعني قفز وبقيت في الحميرية دلالته الاولى .

جَوْن : ذكر الاصمعي (ت ٢١٣ هـ) وابو عبيد (ت ٢٢٤ هـ) وابن الانباري (ت ٣٢٨ هـ) وابو الطيب (ت ٣٥١ هـ) والثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) ، ان اللفظة تعني (الاسود) و (الابيض) ، ونسبوا المعنى الاول الى قضاعة[5] . والمعنيان يعودان الى معنى عام هو اللّون ،وقد استعمل النبي(ص) اللفظة بهذا المعنى العام ، حين سأل اصحابه في سحابة مرت فوقهم : « فكيفَ ترونَ جَوْنَهَا » يريد معنى اللون المطلق[6] . يدعم ذلك ما نجده في اللغات السامية ففي العبرية : (כָּוָן) ج ، و ، ن وتلفظ كفان ، و (כַּוָּן) وتلفظ كافِن ، و (כְּפוּוּן) وتلفظ كَفُون ، ويراد بها جميعا اللون المطلق ، وفي السريانية : (ܓܘܢܐ) كَوْنا ، و (ܓܘܢ) كَون ، و (ܓܘܢ) كَوَن ، ويراد بها اللّون ايضاً[7] . وهذا يُظهر ان

---

(١) تاج العروس ٨/ ١٧٢ .

(٢) الاضداد في اللغة ١٢٩ .

(٣) أضداد قطرب ٢٦٤ والاصمعي ٤٥ وابن السكيت ١٩٩ وابن الانباري ٩١ .

(٤) الاضداد في اللغة ١٣٣ والتضاد في ضوء اللغات السامية ٩٦ .

(٥) ابل الاصمعي ١٢٧ والغريب المصنف ٥١٩ وأضداد ابن الانباري ١١١ وابي الطيب ١/ ١٥١ وفقه اللغة (الثعالبي) ٥٦٥ . (٦) نوادر ابن الاعرابي : ٨ امالي القالي ١/ ٩ وانظر : القاموس المحيط (جون) (٧) الاضداد في اللغة ١٣٥ والتضاد في ضوء اللغات السامية ١٠ .

الجذر السامي للفظ مشترك في لغات المجموعة السامية ، ودلالته على اللون مشتركة ايضا ، ثم تخصص في العربية بالاسود لدى قضاعة ، وبالابيض لدى سائر القبائل العربية . وعليه فليس من العلم أن ينسب احد الباحثين الى الفارسية لفظة الجون بهذا المعنى العام ، ذاهبا الى انها من المعربات عنها[١] .

إسْحٰق : ذهب ابن الانباري (٣٢٨ هـ) وحده الى ضدية هذا العلم ، متكلفا لها في كونه اعجمياً مجهول الاشتقاق ، وعربيا من أَسْحَقَه اللّهُ إسحاقاً[٢] . وهو أعجمي الاصل لا غير ، ولا تضاد فيه ، وهو في العبرية : (יִצְחָק) يصحاق[٣] ، استعمله القرآن بعد أن أبدل بعض أصواته تسهيلا وابتعادا عن الفعلية ومثله يَعقوب ، وأيوب[٤] .

طـه : وابن الانباري ايضاً وحده القائل بضدية هذين الصوتين ، ذاهبا الى أن معناهما بالسريانية ، ولغة عَك : يا رجل ، وهي أيضاً علامة لانتطاع السورة من السّورة ؛ ونقل في ذلك اختلاف المفسرين[٥] . وذهب مذهب ابن الأنباري أبو حيان ، وقال انها تعني يا رجل بالنبطية والحبشية والعبرانية واليمنية وغيرها ، ونقل عن ابن عباس والحسن والكلبي انهم فسروا (طه) بيا رجل[٦] ؛ والحقيقة أن طه صوتان منفردان (ط) و(هـ) بمنزلة (ألم) و (يس) و (آلمر) التي تبتدىء بها السور ، كما ذهب الى ذلك الفراء[٧] . ثم سُمي بهما النبي(ص) تكريماً له وليس فيما ذكر ابن الانباري وأبو حيان من اللغات السامية ما يؤيد وجود طه بمعنى يا رجل[٨] .

٤ ـ التذكير والتأنيث : لم تكن اللغات السامية في مراحلها الاولى تفرق بين

(١) ادى شير : الالفاظ الفارسية المعربة ٤٩ .

(٢) اضداد ابن الانباري ٤١٥ .

(٣) الاضداد في اللغة ٢٢٨ ودروس اللغة العبرية ٤٦٤ ـ ٤٦٥ .

(٤) اضداد ابن الانباري ٤١٥ ، ٤١٦ .

(٥) اضداد ابن الانباري ٤٠٤ .

(٦) البحر المحيط ٦/ ٢٢٤ .

(٧) اضداد ابن الانباري ٤٠٤ ـ ٤٠٥ .

(٨) الاضداد في اللغة ٢٢٩ واللهجات العربية في التراث ١٥٦ .

حنسي المذكر والمؤنث ، وحين تطورت هذه اللغات ومالت الى التفريق ، واستخدمت علامات التأنيث ، بقي فيها من المفردات ما يشير الى تلك المراحل السابقة ، اذ واجه الدارسون العرب القدماء مفردات كثيرة تضطرب في الاستعمال بين التذكير والتأنيث ، بحسب لهجة الناطق بها[1] ؛ ولما كانوا يحرصون أشد الحرص على توحيد اللّغة بالقواعد المطردة ، والقياس الشامل رفضوا بعض المؤنثات لان الاكثر تذكيرها ، وأولّوا بعض المذكرات لأن الاوسع أو الافصح تأنيثها[2] . ووقعوا من جراء ذلك في خلاف ، منشأه الاختلاف المنهجي في النظر الى فصاحة اللّهجات ، ثم ردّوا بعض ما جاء في الشعر من تذكير أو تأنيث يخالف ما قرروه الى الضرورة[3] ، وفي القرآن الكريم شيء من ذلك اذ يستعمل اللّفظة مذكرة مرة ومؤنثة أخرى[4] ، فهل في القرآن ضرورة ؟ ولو أدرك اللغويون أن هذا التغيرّ في استعمال المذكر والمؤنث موجود في جميع اللّغات السامية ، وهو يمثل في جميعها المراحل القديمة ، وأن اللغة حين بدأت تميل الى التفريق ، تخصصت بعض الالفاظ بالتأنيث في لهجات من العربية ، وبالتذكير في لهجات اخرى[5] ، او تخصصت بالتأنيث في لغة سامية وبالتذكير في لغة اخرى ، أقول لو أدركوا ذلك لما حكموا على الفاظ هذه الظاهرة بأحكامهم التي أشرنا اليها . فمن ذلك :

الكَفّ : ذهب الفراء الى أنها مؤنثة ، وحمل استعمالها في بيت الاعشى الذي أنشده اياه يونس :

إلى رجل منهم أسيفٍ كأنما ... يضم الى كَشْحَيه كفاً مخضبا

على الضرورة[6]. وكان النبي (ص) قد استعملها مذكرة في قوله : « مضْمِضْ

---

(١) النحو العربي نقد وبناء ١٣٥ - ١٣٦ ومن اسرار اللغة ١٤٦ .

(٢) المذكر والمؤنث (الفراء) ٢٥ والمخصص ١٧/١٧ .

(٣) المذكر والمؤنث ٢٧ والمخصص ١٧/١٦ والخصائص ٢/٤١٨ .

(٤) سورة آل عمران ٤٣ ، ١٨٣ . سورة البقرة ٣٠٩ وآل عمران ٨٦ .

(٥) المذكر والمؤنث ٢٧ والخصائص ٢/٤١٦ واصلاح المنطق ٣٥٨ ولسان العرب ٦/٣٨ .

(٦) المذكر والمؤنث للفراء ١٧ .

واستَنْشِقْ من كَفٍ واحدٍ »[1] ، ومن العرب من ذكرها ايضا[2] ، واذا عرجنا على اللغات السامية ، نجد الكف مؤنثة في العبرية والسريانية ، ومذكرة في الآرامية[3] ، وعرفنا انها تؤنث وتذكر في العربية ، فعليه لا وجه لتفسير استعمالها مذكرة في بيت الاعشى بالضرورة ، والقطع بتأنيثها في العربية .

الشَّمس: ذهب اللغويون الى انها مؤنثة[4] ، وهي في العبرية والآرامية تؤنث وتذكر ، وفي الآشورية مذكرة لا غير[5] . وقد استدلّ احد الباحثين من اختلاف جنس (الكف) و(الشمس) في اللغات السامية ، على ان التطور اللغوي يميل باللغة الى تذكير المؤنثات ، فما كان مؤنثا في الاصل جاز فيه التذكير والتأنيث بعد ذلك ، ثم استقر على التذكير[6] . وعندي انه وهم فيما ذهب اليه ، لان تطور هاتين الكلمتين في اللغات السامية يدل على عكس ما استنتجه منه ، اذ مال الدرس اللغوي المقارن الى ان العربية اكثر تطورا من اخواتها الساميات ، ولعل العبرية والسريانية اكثر تطورا من الآرامية والآشورية أيضا ، وعلى هذا الاساس نجد ان (الشمس) المذكرة في الآشورية ، جاز فيها التأنيث والتذكير في العبرية التي هي اكثر تطورا من الآشورية ، ثم استقرت الكلمة على التأنيث في العربية المتطورة . ومثلها (الكف) المذكرة في الارامية ، والجائز تأنيثها وتذكيرها في العربية ، والمستقرة على التأنيث في العبرية والسريانية .

٥ ـ اسلوب (أكلوني البَراغيث) : وهو أن يلحق الفعل بضميري التثنية والجمع وان صرح بالفاعل ، وسمي هذا الاسلوب بهذا الاسم ، لان سيبويه ضرب هذه الجملة مثلاً عليه ، كما مثل له كثيرا في كتابه[7] ، وعلل سيبويه هذا الاستعمال ، بتشبيه القائلين لتاء التأنيث في قالت فلانة « فكأنهم أرادوا أن يجعلوا

---

(١) سنن الترمذي ١/ ٤٢ .

(٢) الامتاع والمؤانسة ٢٧٥ .

(٣) من اسرار اللغة ١٤٧ .

(٤) النحو العربي ١٤٧ .

(٥) من اسرار اللغة ١٤٧ واللهجات العربية ٥١٧ .

(٦) د . ابراهيم انيس . من اسرار اللغة ١٤٠

(٧) كتاب سيبويه ١/ ٥ ، ٦ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

للجمع علامة ، كما جعلوا للمؤنث ، وهي قليلة » [1] . وعلى الرغم من ورودها في القرآن الكريم ، كقوله تعالى : (وأسرّوا النّجوى الذين ظَلموا) [2] ، وفي الحديث الشريف « يتعاقبونَ فيكم ملائكة » [3] ، وفي الشعر كقول عمرو بن ملقط الطائي :

يَلومونَني في اشتراءِ النَّخيـ ـلِ اهلي فكلُّهم يَعذلُ [4]

وغير ذلك كثير ، فان اللغويين الذين منعوا استعمالها ، وانتقصوا منها بنسبتها الى طيء وبلحارث بن كعب وازد شنؤة [5] ، من القبائل التي كثيرا ما نسبوا اليها ما لا يروق لهم من الاساليب اللغوية ، بل عدّ هذا الاسلوب من لحن العامة [6] . والحقيقة أن هذا الاسلوب هو : « الاصل في اللغات السامية ، أن يعامل الفعل فيها معاملته في لغة أكلوني البراغيث ، وقد بقي من هذا الاصل في العربية أمثلة في اللّهجات المختلفة » [7] ، ففي العبرية مثلا نقرأ : (הָלְכוּ בָנָיו) ذهبوا بنوه [8] ، وأشباهها كثير ، مما يدل على أصالة (اكلوني البراغيث) في اللّغات السامية ومنها العربية .

٦ - شيء : اختلفوا في معناها ، واختلفوا في حقيقة جمعها واصوله ، فنقل عن الخليل ان معنى الشيء : الماء ، وأنكره الازهري ، وذهب الفراء الى ان أصل شيء شيِّىء فجمع على أفعِلاء مثل هينّ وأهيِناء ، ورد ابن برّي ذلك وقال صوابه أهوِناء لانه من الهون . وشيَّأ الله خلقه : قبحه ، وشيأت الرجل على الامر : حملتَه عليه ، وياشَيء مالي : يا عجبي وقال الكسائي : يا فيَّ مالي وياهيَّ مالي لا يهمزان وياشَيءَ

---

(١) الكتاب ١/ ٢٣٦ .

(٢) سورة الانبياء ٣ .

(٣) شواهد التوضيح والتصحيح ١٩٢ . وللحديث رواية اخرى مشهورة هي « ان لله ملائكةً يتعاقبون فيكم ، ملائكةً بالليل . . . » وبها يخرج الحديث عن كونه شاهداً على هذه اللغة .

(٤) شرح شواهد المغني ٢٦٥ .

(٥) شواهد التوضيح والتصحيح ١٩٢ وشرح درة الغواص ١٥٢ .

(٦) درة الغواص ٦٥ .

(٧) فصول في فقه العربية ٨١ .

(٨) ايوب : الاصحاح الاول ٤ .

مالي يهمز ولا يهمز [1] ، الى آخر ما ذكر في هذه المادة من معان واستعمالات تدلّ على التخبط في أصل هذه الكلمة ، والحيرة في جذرها اللّغوي ، والذي في أمرها أنها في الاصل ضمير الغائبة في اللّغة السّامية الام : شيء (Si ... تطور صوت الشين فيه الى الهاء قياسا على ضمير المذكر : هوء (hua ... اللغات السامية ، فصار الضميران هُوءوشيء هوء وهيء ، ثم أصبحا : هو في العربية ، وهُوْ وهيْ في العبرية والسريانية [2] ، اقول : حين تطور ص... الغائبة ، بقي منه في العربية ظل ضيّق ، واستعمال خاص ، بَعُدَ به عن دلا... الاولى على الضمير ، وصار يراد به معنى الحاجة معنوية ومادّية ، وهو الذي تؤ... لفظة شَيء ، ولعل هذا هو الذي يفسر جمودها الاشتقاقي [3] ؛ وربما كان ترادفها هَيْء أو هَيّ في استعمالها للتعجب أو التأسف الذي اشرنا اليه مما يعضد مذهبنا فيها ويقوي كونها من ذلك الضمير القديم .

نكتفي بهذا القدر من الامثلة لنخلص الى أن اللّغويين فاتهم الوقوف على كثير من اسرار اللغة ، وخصائصها وظواهرها ، لجهلهم باللغات السامية ، التي لا بد من معرفتها ، لكشف المراحل التاريخية التي قطعتها العربية ، وما خلفته تلك المراحل فيها من آثار ، لا يمكن ادراك حقيقتها بدراسة اللغة داخل اللغة نفسها ، فالدرس المقارن كفيل بأن يعصم الدارس في كثير من الاحيان من الوقوع فيما وقع فيه لغويونا العرب ـ مع حرصهم ودقتهم ـ من الخطأ والخلط .

موازنة بين الخليل وابن جني وابراهيم أنيس

١ ـ الخليل (١٧٥ هـ) :

كنا قد وعدنا ، ونحن نعرض لمسائل اللّغة ومعالجات اللّغويين لها في الفقرات السابقة من هذا الفصل ، أن نعود للخليل بعد أن أرجأنا ذكره فيمن ذكرنا هناك ،

---

(١) لسان العرب ١/ ١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٢) اللهجات العربية في التراث ٥٣٢ ـ ٥٣٣ نقلا عن مجلة كلية الاداب : مجلد ١٠ ـ ١/ ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) المنصف ١/ ١٠١ وشرح الشافية ٢/ ٣٣ .

وها نحن اولاء نفي بما وعدنا ، فنتناوله على أسس من موازنة موجزة بينه وبين اثنين من اللّغويين الذين عنوا بمثل ما عني به من موضوعات اللّغة ، وأعني بهما ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) ، وابراهيم أنيس (معاصر) معتمدين في هذه الموازنة أهم الموضوعات واكثرها اشتراكاً بينهم ، لنتبين خصائص كل منهم ، بل خصائص الدرس اللغوي في عصر كل منهم ، ذلك أن الخليل، وقد عاش في القرن الثاني[١]، يمثل العصر الذي عاش فيه ، وهو الذي نؤ رخ له في هذه الرسالة ، وابن جني يمثل القرن الرابع وما بعده أصدق تمثيل ، بما تم على يديه من درس اللغة وفقهها ، والدكتور ابراهيم انيس خير من يمثل الدّرس اللّغوي العربي في العصر الحديث ، ذلك انه ألف في اغلب جوانب الدرس اللغوي كتباً معدودة معروفة .

ويتجلى عمل الخليل وآراؤه في اللّغة ، في كتابه (العين) مقدمة ومتنا ، اذ ضمن المقدمة دراسته القيمة للاصوات ، فبحث مخارجها وصفاتها وائتلافها واختلافها ، ووضع في ذلك قواعد عامة . وضمن المتن منهجه في الاستشهاد والاعتماد على اللغات وما الى ذلك[٢] . كما يتجلى ذلك في كتاب سيبويه اذ نقل تلميذه عنه كثيراً من آرائه اللّغوية في الاصوات بدالا واعلالا وادغاما، وفي بنية الكلمة اشتقاقاً وقلباً ونحتاً وتركيباً ، وذلك في الجزء الثاني منه ، وهو الخاص بعلم الاصوات[٣] . كما نعثر للخليل على آراء مبثوثة هنا وهناك في كتب اللغة والنحو والقراءة وما الى ذلك[٤] ، مما يحتمل أن يكون منقولا عما ضاع من كتبه .

أ ـ علم الاصوات : ان دراسة الخليل للحروف على أنها اصوات صادرة من جهاز النطق ، وتحديد مواضعها من هذا الجهاز ، ووصف كل صوت منها بحسب ما يتطلبه من حركة اللّسان والاسنان والشّفة واللّثة ، من شدة ورخاوة ، وهمس وجهر ، وذلاقة وطلاقة ، الى آخر ما هناك من صفات ، عمل جديد في العربية لم

---

(١) انظر ترجمته في الباب الثالث من هذه الرسالة .

(٢) العين (الجزء المطبوع) ٥٢ ـ ٦٧ ، ٧٣ ، ١٢٤ ، ١٤١ ، ١٥٦ ، ١٩٦ ، ٢٣٥ .

(٣) الكتاب ٢/ ١١٢ ، ٣١٥ ، ٣٥٦ .

(٤) ـ صناعة الاعراب/ اسماء الحروف ، ولسان العرب ١/ ٧ ، وشرح الرضي على الشافية ٣٤٩ .

يسبق اليه ، الاّ بما عرض له القرّاء من الوقف والابتداء[1] ، وهو غير عمل الخليل ، وعليه فالخليل واضع علم الاصوات .

ب ـ نشأة اللغة : وانبنى على دراسته للاصوات كما يخيل اليّ أنه قال بأن اللّغة نشأت بمحاكاة أصوات الطبيعة ، واذا كان لم يصرح بذلك ، فانه أشار اليه بما عالجه من مواد كانت العلاقة بينها وبين معانيها علاقة صوتية محضة ، وقد مرّ تفصيل ذلك في دراستنا لنشأة اللغة[2] .

ج ـ الاشتقاق : وأعني به ما سميّ بالكبير ، ودراسته لدى الخليل فرع دراسته للاصوات ، وقوله بصلة اللّفظ بمعناه صلة طبيعية ، ذلك أنه أول من التفت اليه وان لم يسمّه ، وطبقه في العين حاصرا به مواد اللغة ، دون ان يتكلف في المقلوبات المعنى الجامع المشترك ، على اننا لا نعدم أن نعثر على هذا المعنى في كثير من المقلوبات[3] وعدم تصريح الخليل بهذا المعنى المشترك في جميع المواد المقلوبة ، لا يعني عدم التفاته اليه ، أو عدم قدرته على ذلك ، وانما كان بعيدا عن البحث في ذلك . لانه كان بصدد طريقة لحصر اللغة ، بتطبيق فكرة الاشتقاق الكبير .

د ـ النحت والتركيب : ونظر الخليل في بعض مواد اللغة ، فوجدها مكونة في الاصل من كلمتين أو اكثر ، فقال بأنها منحوتة أو مركبة ، وقد مرّت بنا أمثلة كثيرة منها ، عرضنا فيها لاراء اللغويين في تركيبها وبساطتها ، ومنها (لَنْ) التي ذهب الخليل الى أنها مركبة من (لا) و (أنْ)[4] ، و (لَيسَ) وعنده أنها لا أيْسَ[5] ، و (كأنَّ) من كاف التشبيه وأنّ[6] ، ومثلها (كأيْ) و (كذا) فهما عند الخليل مركبتان

---

(١) ككتابي الرؤاسي (١٨٧هـ) في الوقف والابتداء وكتاب عبد الله بن ابي اسحق في الهمز : مراتب النحويين ١٢ والمزهر ٢/ ٣٩٨ .

(٢) انظر الفصل الاول من هذا الباب .

(٣) العين (الجزء المطبوع) : ٨٩ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ .

(٤) الكتاب ١/٤٠٧ .

(٥) لسان العرب : ليس .

(٦) الكتاب ١/ ٤٧٤ .

من كاف التشبيه وأيّ ، وذا[1] . كما ذهب الخليل الى تركيب (اللّهمّ) من لفظ الجلالة والميم التي تقوم مقام (يا) التي للنداء[2] . وغير ذلك مما سبق الى لمح التركيب فيه ، وهو الذي صححه الدرس الحديث .

٢ ـ ابن جني (٣٩٢ هـ) :

وهو يمثل نضج الدّراسات اللّغويةٰ في عصره ، منهجاً ورأياً وسعة ، وقد ارتقى بالعلم اللّغوي درجات بعد أن وقف على حدود عمل الخليل ، أو بعد أن فات الدرس اللغوي أن يفيد من عمل الخليل ، فهل اضاف ابن جني شيئا الى عمل الخليل وبينه وبين الخليل اكثر من قرنين من الزمان[3] ؟

لعل آراء ابن جني في اللغة ، وبحوثه فيها ، ومعالجاته لموادها ، قد توزعت توزيعا منظما ، بما خصص لكل جانب من جوانبها كتابا من كتبه ، فجعل (سر صناعة الاعراب) للاصوات ، وما يتصل بدراستها من بحث مخارجها وصفاتها وما الى ذلك مما بدأ به الخليل ، وخصص (الخصائص) لدراساته في موضوعات اللغة الاخرى ، كدراسة نشأة اللغة ، والاشتقاق ، والنحت والتركيب ، واللغات ، والقلب والابدال ، والدلالة وما الى ذلك من امور تدخل في علم اللغة ، على أنه عرض أيضا الى مسائل النحو والتصريف في هذا الكتاب ؛ ومحض كتابه (المنصف) الذي شرح فيه تصريف المازني ، لبحوثه وآرائه في الصرف ، ووضع (المحتسب) خاصا بعلم القراءات ، دارسا فيه وجوه القراءات المختلفة من حيث تواترها وشذوذها وانطباقها على سنن اللغة ، وما يتصل بذلك من معالجات لغوية ؛ بحيث يدل هذا التوزيع المنظم للموضوعات ، على عقلية ابن جني المنظمة ، واستيعابه جوانب هذه الموضوعات وحدودها التي تقف عندها ، كما تدل على تطور أساليب التأليف ومناهجه في القرن الرابع .

أ ـ الاصوات : اشرنا الى أن الذي فتح باب علم الاصوات هو الخليل ، وقد

---

(١) الكتاب ١/ ٢٩٨ .

(٢) نفسه ١/ ٣١٠ .

(٣) انظر ترجمته في معجم الادباء ١٢/ ٩٠ وتاريخ بغداد ١١/ ٣١٢ .

وافق ابن جني الخليل في كثير مما جاء به ، وخالفه أيضا ، فمما وافقه فيه ذهابه الى وجود العلاقة الطبيعية بين الاصوات ومعانيها ، اي بين اللفظ ومدلوله[1] . وزاد عليه في ذلك من المسائل والامثلة ما لم يشر الى مثلها الخليل[2] . والتفت كالخليل الى ان الحروف انما هي اصوات خالصة ، لها ايقاع خاص ، تشبه اصوات الآلات الصائتة كالناي[3] أو وتر العود وتابعه ايضا في تسمية الاحرف الستة : الراء واللام والنون والفاء والباء والميم ، التي هي حروف الذلاقة ، بالمصمتة ، وقال بالتعليل عينه الذي علله الخليل لهذه التسمية[4] . ومما خالفه فيه ترتيب الحروف ، فلم يأخذ بما اثبته الخليل من تسلسلها في المخارج ، وانما اخذ ترتيب سيبويه لها ، اذ تبدأ بالهمزة وتنتهي بالواو[5] . وخالفه ايضا في عدد حروف القلقلة التي هي عند الخليل خمسة : القاف والجيم والطاء والدال والباء ، وكان قد سماها المحقورة ، واضاف لها ابن جني الهمزة والكاف والتاء ، مسميا اياها الشديدة ، متابعا بذلك سيبويه ايضا[6] . ومثل ذلك كثير من المسائل التي وافقه فيها وخالفه في غيرها .

ب ـ نشأة اللغة : مرّ بنا في دراسة نشأة اللغة ان ابن جني تردد في الاخذ بواحد من مذاهب نشأة اللغة ، فقال بالتوقيف مرّة ، ومال الى الاصطلاح اخرى ، واستحسن مذهب حكاية الاصوات الطبيعية ثالثة ، واستقر أخيراً على عدمَ الاخذ بمذهب من هذه المذاهب المتساوية في قوة الحجة لديه ، حتى يقوى لديه أحدها[7] . ولعل المذهب الاخير ، وهو حكاية الاصوات الطبيعية ، هو الذي قوي لديه من بين المذاهب جميعا ، وان لم يصرح بذلك ، ولكننا نستشعر ذلك من كلامه على (الخضم) و(القَضْم) اذ يقول : « فاختاروا الخاء لرخاوتها للرَّطْب ، والقاف

---

(1) الخصائص ١/ ٥٤٤ .

(2) نفسه ١/ ٥٤٩ ـ ٥٥٠ ، ٢/ ١٥٨

(3) سر صناعة الاعراب ١/ ١٠ .

(4) تهذيب اللغة ١/ ٨٦ وسر صناعة الاعراب/ باب انقسام الحروف .

(5) الكتاب ٢/ ٤٠٤ وسر صناعة الاعراب ١/ ٣٥ .

(6) سر صناعة الاعراب ١/ ٢٠٩ وما بعدها ولسان العرب : (حرف الجيم) .

(7) الخصائص ١/ ٤٠ ـ ٤١ ، ٤٦

لصلابتها لليابس ، حذواً لمسموع الاصوات على محسوس الأحداث »[1] . وهذا الكلام نجده في آخر الجزء الاول من الخصائص الذي بحث في أوله نشأة اللغة وآراء العلماء فيها ، مما يدل على ان الرأي الاخر هو الجديد لديه .

ج ـ الاشتقاق الاكبر : مرّ ان الخليل أول من نبه عليه ، وطبقه في العين ، دون أن يسميه أو يجهد في البحث عن المعني الاصلي المشترك بين المقلوبات أو المشتقات ، غير أن ابن جني هو الذي سماه ، وتوسع فيه ، واكثر من امثلته ، وكلف نفسه ان يكون في التقليبات الستة معنى جامعٌ لمعانيها جميعا ، فان « تباعد شيء من ذلك رُدّ بلطف الصَنعةِ والتـأويل إليه »[2] . وليس ابـن جنـي على هذا ، مبتـدع الاشتقاق الاكبر ، كما يذهب الدكتور عبد الحميد الشلقاني[3] . ولكن ابن جنـي ابتدع نوعا ثالثا من الاشتقاق هو الاشتقاق الكبير ـ وان لم يسمّه بهذا الاسم ـ وهو يرمي الى وجود معنى مشترك عام في الالفاظ التي تشترك في صوتين وتختلف في الثالث الذي يحدد المعنى ويخصّصه ، مثل : قَطَمَ وقَطَلَ وقَطَعَ وهكذا ، وقد اكثر من أمثلته ابن جني في باب (تصاقب الالفاظ لتصاقب المعاني)[4] ، والذي سماه بالكبير وتكثر منه هو الحاتمي استاذ السكاكي[5] .

د ـ النحت والتركيب : ذهب ابن جنـي مذهـب الخليل في لمح التـركيب في بعض الادوات ، فقال بتركيب (لَن) من لا وأن[6] ، و (كأنَّ) من كاف التشبيه وأنّ[7] ، و (لولا) من لو ولا[8] . ولكنه خالفه في (إياكَ) التي ذهب الخليل الى ان ايّا ضمير مبهم يحتاج الى توضيح ، فاضيف الى ضمير المخاطب[9] ، فذهب ابـن

(١) الخصائص ١/ ٥٥٠
(٢) نفسه ٢/ ١٣٤ .
(٣) رواية اللغة ٣٠١ .
(٤) الخصائص ١/ ٥٣٧ .
(٥) مفتاح العلوم ٧ .
(٦) سر صناعة الاعراب : حرف الكاف .
(٧) نفسه : حرف الكاف .
(٨) نفسه : حرف الكاف .
(٩) الكتاب ١/ ١٤١ .

جني مذهب جمهور اللغويين النحاة ، الذين منعوا اضافة الضمير ، لاستغنائه عن التعريف ، وفسروا الكاف على انها حرف دال على الخطاب وليست اسما[1] .

٣ ـ د . ابراهيم أنيس :

وهو من أبرز من يمثّل الدراسات اللّغوية الحديثة ، بما وضع في ذلك من بحوث قيّمة ، اعتمد فيها على نتائج العلم اللغوي المقارن ، والعلم اللغوي التاريخي ، وما هيأه التطور من استخدام الالة في العلم اللّغوي ، لذا فان الرجوع اليه في المسائل الرئيسة التي عرضنا لها لدى الخليل وابن جني يمثل شيئا من فكرة التقويم المعقود لها الباب .

وضع الدكتور ابراهيم أنيس عددا من الكتب ، وخصّ كلا منها بموضوع ، فكتابه (الاصوات اللغوية) لبحث علم الاصوات ، درس فيه ظاهرة الصوت المطلق ، وجهاز النطق ، وصفات الاصوات ، ومقاييسها ومخارجها ، دراسة تاريخية مقارنة . وكتابه (من اسرار اللغة) لبحث الظواهر اللغوية من اشتقاق ونحت وقلب وابدال وارتجال واقتراض ، وغيرها ، موازنا في كل منها بين البحث القديم والحديث . وكتابه (دلالة الالفاظ) لبحث نشأة اللغة ، وانواع الدلالة ، وصلتها باللفظ ، وعوامل تطورها ، ودراسة لاشهر المعجمات اللغوية . وكتابه (في اللهجات العربية) لبحث نشأة اللهجات ووحدتها ، واثرها في القراءات ، وتطور الاعراب ، والفرق بين لهجات البدو والحضر ، واختلافها في الاصوات والابنية والدلالة ، وما الى ذلك مما يدخل في هذا الموضوع ، وليس غريبا ان نجد التطور في البحث والمنهج ووسائل الكشف واضحا في هذه الكتب عما كان عليه قديما ، لما قدمنا من ان ذلك بفعل البون الزمني الذي يفصل بين الدراستين القديمة والحديثة فهل شمل هذا التطور نتائج البحث ؟

أ ـ الاصوات : كان الخليل ومن بعده ابن جني قد ذهبا الى ان القاف والكاف صوتان من اصوات اقصى اللسان وأعلى الحنك ، أي هما لهويتان ، وقد ايدهما

---

(١) سر صناعة الاعراب : حرف الكاف .

ابراهيم انيس في ذلك[1] . ولكنه خالفهما في اعتبار الظاء لِثَوية ومن أصوات وسط الفم ، كما ذهب الخليل ، وانها من أول حافة اللسان وما يليها من الاضراس عند ابن جني ، فذهب الى انها تخرج من بين أسلة اللسان وحافة الاسنان ، أي أنها لسانية اسنانية[2] . غير أن الاكثر أن يؤ يد الدكتور ابراهيم أنيس آراء الخليل وابن جني في مخارج الاصوات وصفاتها ، حتى قال : « ولا ندهش من اجل ذلك أن يورث ـ أي الخليل ـ سيبويه فيما ورث وصفا دقيقا لاصوات اللغة ومخارجها وصفاتها . واعتمد الخليل في وصفه للاصوات على ما يحسه بنفسه من اختلاف في اوضاع أعضاء النطق معها ، وعلى العملية العضلية التي يقوم بها المرء لدى صدور كل صوت ، وعلى وقع هذا الصوت في أذن السامع ، دون أن يكون لديه شيء من الامكانيات الحديثة من الآت التسجيل والتصوير أو معرفة بنظريات التشريح »[3] .

ب ـ نشأة اللغة : عرض الدكتور ابراهيم انيس لنظريات نشأة اللغة ، ونقد على القدماء اخذهم بالتوقيف والاصطلاح وناقشهم في حججهم التي استندوا اليها[4] . ثم عرج على نظريات المحدثين ، فبدأ بنظرية محاكاة الاصوات الطبيعية ، فبسطها ، ثم دافع عنها وعن حججها ، وضعّف من المطاعن الموجهة لها[5] . مما يدل على ميله اليها اكثر من غيرها ، وان لم يقطع بصحتها ، وذهب الى ان كل النظريات قديمها وحديثها مجرد افتراضات[6] ، الا ان اقرب هذه الافتراضات هي تلك التي ايّدها . وهذا يدعم ما ذهب اليه الخليل في هذا الصدد ، وما ذهب اليه ابن جني في أحد اقواله وهو الأخير .

ودرس الدكتور ابراهيم انيس فكرة صلة اللفظ بمدلوله ، وعرض لآراء المحدثين في ذلك ، وقرر ان هذه الصلة طبيعية ، وان « اللغات بوجه عام تؤثر

---

(١) الاصوات اللغوية ٨٧ .
(٢) الاصوات اللغوية ٥٠ .
(٣) نفسه ٧٥ ـ ٧٦ .
(٤) دلالة الالفاظ ١٣ ـ ٢٠ .
(٥) نفسه ٢٠ ـ ٢٣ .
(٦) نفسه ٢٧ .

التعبير عن الاشياء بوساطة الفاظ اثرها في الآذان يشبه اثر تلك الاشياء في الاذهان »[1] . وذكر امثلة واضحة من ذلك في لغات الامم البدائية ، ثم يغمض هذا الوضوح عندما تأخذ اللغة في التطور[2] .

ج ـ الاشتقاق الكبير : بحث الدكتور ابراهيم انيس انواع الاشتقاق ، ومدى اطراد كل منها في اللغة ، ووقف عند الاشتقاق الكبير ، شرحه ومثل له ، وقال : « ويبدو أن اصحاب الاشتقاق قد اقتبسوا فكرة تقلبات الاصول من معجم العين وأمثاله »[3] ، فالفكرة ـ اذن ـ فكرة الخليل ، وهو البادىء بتطبيقها في العين ، « فلما جاء اصحاب الاشتقاق من امثال ابن جني وابن فارس ربطوا ايضا بين دلالات تلك الصور ، واستنبطوا معاني عامة مشتركة بينها ، وسمي هذا بالاشتقاق الكبير . ويمثل له ابن جني بعدة مجموعات لا يخلو معظمها من التكلف والتعسف وتلمس العلاقة مهما كانت تافهة أو غامضة »[4] . ويحلل امثلة ابن جني هذه ويرفضها واجدا فيها البعد والغلو ، ثم يقول : « فليس يكفي مثل هذا القدر الضئيل المتكلف لاثبات ما يسمى بالاشتقاق الكبير »[5] .

د ـ النحت والتركيب : درس الدكتور ابراهيم أنيس ظاهرة النحت في اللغة ، وعرض لامثلتها لدى القدماء ، وقسم النحت على انواع ، فمنه المنحوت من كلمتين ، ومنه من ثلاث كلمات ، ومنه من اربع كلمات ، ومنه المنحوت من اكثر من ذلك[6] . وانشد الشواهد الشعرية المسوقة لذلك في المصادر القديمة ، ونبه على مغالاة القدماء في القول بنحت بعض الالفاظ كبلعوم ، وخرطوم ، وحلقوم ، او صرصر القلم ، او قهقه الرجل وما الى ذلك[7] . وحين عرج على العلم اللغوي الحديث يعرض عليه بضاعة القدماء ، وجده مقرا بقانون النحت في اللغة ، ذلك ان

---

(١) دلالة الالفاظ ٦٨ .

(٢) نفسه ٦٩ ـ ٧٠ .

(٣) و (٤) من اسرار اللغة ٥٠ .

(٥) نفسه ٥٢ .

(٦) نفسه ٧٢ وما بعدها .

(٧) من اسرار اللغة ٧٥

النحت يقابل في الدرس الحديث مصطلح(Haplology)عند المحدثين ، وهو « حذف بعض الاصوات من الكلمة اختصارا لبنيتها . وتيسيرا للنطق بها ، واعتبروا هذا ميلا عاما في تطور البنية للكلمات »[1] . ويستدل على ذلك بما وجد في لغات الامم البدائية من تعدد مقاطع الكلمة الواحدة ، وذلك يمثل المراحل الاولى للغات في العالم[2] ، فالتطور اللغوي اقتضى وجود ظاهرة النحت في اللغة . وهو بهذا يؤيد ذهاب الخليل وابن جني الى نحت الادوات والكلمات التي نصوا على تركيبها وتمسكوا به ، واختلفوا مع من قال بافرادها وبساطتها ، وان لم ينص الدكتور ابراهيم انيس على الكلمات والادوات التي بحثها الخليل وابن جني .

وخلاصة القول في هذه الموازنة الموجزة ، ان الخليل كان السابق الى وضع لبنات علم الاصوات ، والاشتقاق الكبير ، والآخذ بنظرية محاكاة الاصوات الطبيعية في نشأة اللغة ، والقائل بتركيب الادوات والكلمات المركبة ، وان ابن جني افاد منه في دراساته الصوتية ، واقتبس منه فكرة الاشتقاق ، وقويت لديه نظرية المحاكاة في نشأة اللغة ، ووافقه في تركيب الادوات المركبة ، وان الدكتور ابراهيم انيس ـ وهو الممثل للدرس اللغوي الحديث ـ صحح نتائج درسهما ، ونقل لنا وجهات نظر المحدثين في هذه المسائل المهمة ، فأظهر لنا تأييد الدرس الحديث لآراء الخليل وابن جني .



(١) من أسرار اللغة ٧٦ .

(٢) نفسه ٧٧ .



الخاتمة

النتائج العامة ـ النتائج الخاصة ـ الجديد في الرسالة

اسفرت هذه الدراسة عن نتائج عامة واخرى خاصة ، وعن جوانب جديدة اضافتها للدرس اللغوي ، نعرض كلا منها موجزين .

النتائج العامة والخاصة :

يمكن ان نستخلص من البحث النتائج العامة الآتية :

١ ـ كانت خدمة القرآن من الناحية اللغوية اولا ، وصون العربية من الدروس والضياع ثانيا ، هما الدافعين الرئيسين اللذين دفعا المسلمين الاوائل الى دراسة اللغة .

٢ ـ قدم ورود اللحن في الكلام او الكتابة ، اذ لم تسلم منه العربية في الجاهلية وصدر الاسلام ، وكان يمثل في ذلك الحين البذرة التي نمت وعرفت بالعامية .

٣ ـ تأثير الحياة العقلية والاجتماعية في البصرة والكوفة على تبلور مناهج دراسة اللغة في كلا المصرين ، وظهور الملامح المدرسية فيها .

٤ ـ تمحض الاعمال اللغوية الاولى لصون لغة التنزيل ، كما ظهر ذلك في نقط ابي الاسود (الاعرابي) ونقط نصر بن عاصم (الاعجامي) وتطوير الخليل لنقط ابي الاسود ، ووضع ابي الاسود للضوابط النحوية الاولى .

٥ ـ اختلاط الدراسات اللغوية في مرحلة نشأتها ، وظهور اثر ذلك في مصنفات الاوائل من الدارسين ، ثم استقلال هذه الدراسات بتطور وسائل الدراسة .

٦ ـ وضوح السمات المدرسية في مؤلفات اللغويين المختلطة والمستقلة ، وبروز

العامل المدرسي في اللغة كبروزه في النحو .

٧ ـ قلة المادة اللغوية وبساطة معالجتها في المؤلفات الاولى الموضوعة في الفن اللغوي الخاص ، وازدياد هذه المادة وعمق دراستها في المؤلفات اللاحقة .

٨ ـ سبق المحدثين الى الاخذ بالترتيب المعجمي للمواد في مصنفاتهم ، وانتقال ذلك الى معجمات اللغة .

٩ ـ اختلاف مناهج وضع المعجمات واصالة هذا الاختلاف .

١٠ ـ تباين الاسس المنهجية وتطورها في دراسة اللغة ، من الاختلاف في الاطلس اللغوي للاستقراء حتى طغيان الفلسفة والمنطق على نشاط هذه الدراسة .

١١ ـ تناول فقهاء اللغة القدماء اكثر موضوعات علم اللغة، وشمول دراساتهم اغلب جوانبه ، واعتراف العلم الحديث لقدر كبير من نتائجهم بالصحة .

١٢ ـ جهل القدماء باللغات السامية ،وخطأ معالجتهم ـ بسبب هذا الجهل ـ لكثير من صور التعبير اللغوي .

هذه اهم النتائج العامة ، وهناك في قبالتها نتائج خاصة ينتهي اليها البحث ، وقد كررت الاشارة اليها في تضاعيف الرسالة ، وهي تشكل الهدف من هذه الدراسة ، اهمها :

١ ـ اصالة الدراسات اللغوية عند العرب ، وعدم محاكاتها للدراسات الاجنبية التي سبقتها ، اذ يتمثل ذلك في الدراسة الصوتية ، ووضع المعجمات اللغوية ، والنحو .

٢ ـ طول باع العرب في دراسة اللغة ، ذلك انهم كانوا على قدر كبير من الدقة والعمق في تناول الموضوعات اللغوية ، وعلى جانب اكبر من استيعاب ظواهر اللغة وفهم قوانينها ، واستكناه اسرارها في التطور والنمو .

٣ ـ ضرورة البناء على ما اسسه العرب القدماء ، والاستفادة مما ابدعوه وابتكروه في شتى موضوعات اللغة ، لتطوير العلم اللغوي ، انطلاقا من الموضوعية التي تفرض على الباحث ـ وهو يقوم اعمالهم الرائدة ـ ان يدهش ويفخر .

***

الجديد في هذه الرسالة :

١ ـ ربما كانت هذه الرسالة بما رسمته لنفسها من منهج في الدرس يقوم على استقصاء الظاهرة وتتبع الحقيقة ، ويتميز بالاستقلال والموضوعية ، ويعنى بالجانبين التاريخي والنقدي للموضوع ، جديدة على الدراسات الحديثة التي عنيت باعمال العرب اللغوية من جانب واحد ، اومن اكثر من جانب فلم توفه حقه . يضاف الى ذلك انها اشتملت على جزئيات لا اشك بجدتها على الدرس اللغوي ، اهمها :

٢ ـ محاولة احصاء اسماء الاعراب الفصحاء الذين شافههم اللغويون ، وتقسيمهم على قبائلهم التي ينتسبون اليها .

٣ ـ كشف حقيقة (باب النخل) في نوادر ابي مسحل ، وانه ليس من اصل الكتاب ، وانما هو كتاب (النخل) للاصمعي اقحم في النوادر .

٤ ـ تصحيح نسبة كتاب (ما تلحن فيه العوام) الى الكسائي ، ورد الشبه الموجهة الى هذه النسبة .

٥ ـ دعم الشك في نسبة كتاب (الحروف) الى الخليل بأدلة من مادة الكتاب .

٦ ـ الاستدلال الموسع على صحة نسبة معجم (العين) الى الخليل رواية ومنهجاً ومادة .

٧ ـ بيان الخطأ في تسمية معجم ابي عمرو الشيباني المطبوع بالجيم ، وانه كتاب (الحروف) له .

٨ ـ اعتبار كتاب (المعاني الكبير) لابن قتيبة معجما من معجمات المعاني ، اختلف منهجه عن سواه .

٩ ـ توضيح الوهم في نسبةكتاب (الجراثيم) الى ابن قتيبة،وانه لأبي محمد عبد الله ابن رستم .

١٠ ـ تحديد الاسس المنهجية التي انبنت عليها الدراسة اللغوية عند البصريين والكوفيين ، ومناقشتها نقدا وبناء منذ نشأة الدرس اللغوي الى ما بعد القرن الرابع .

١١ ـ استخلاص خصائص المنهجين البصري والكوفي من خلال الوقوف على المسائل الخلافية في اللغة (دون النحو) .

١٢ ـ الموازنة الشاملة بين موضوعات العلم اللغوي القديم والحديث ، ووسائل العلمين في معالجة موضوعات اللغة ، والحكم على الدراسة القديمة في ضوء الدراسة الحديثة .

هذا اهم الجديد الذي قدمته بهذه الرسالة ، وهناك ايضا ما هو اقل اهمية مما ذكرت ، تركته للقارىء يرجع اليه ويقف عليه . والرسالة بهذه الصورة خلاصة جهدي التي اضيفها للمكتبة اللغوية ، اتوخى بها خدمة العربية وتراثها الخالد ، والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق .

الفهارس العامة

١ ـ فهرس الأشعار والأرجاز .

٢ ـ فهرس المصادر والمراجع .

٣ ـ فهرس مطالب الرسالة .



١ - فهرس الأشعار والأرجاز

٢- فهرس المصادر والمراجع

اولا ـ المخطوطة :

١ ـ ابن الاعرابي ـ كامل سعيد : رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة الكاتبة ـ بغداد ١٩٧٥ م .

٢ ـ الزاهر في معاني كلمات الناس ـ ابو بكر بن الانباري : تحقيق د . حاتم صالح الضامن ـ رسالة دكتوراه مطبوعة بالآلة الكاتبة ـ بغداد ١٩٧٧ م .

٣ ـ طبقات الشافعية ـ ابن قاضي شهبة : مخطوطة مكتبة الدراسات العليا في كلية الآداب .

٤ ـ العباب الزاخر واللباب الفاخر ـ الصغاني : مصورة الشيخ محمد حسن آل ياسين .

٥ ـ العدة في الرجال ـ السيد محسن الاعرجي : مخطوطة مكتبة آل الاعرجي في الكاظمية .

٦ ـ العين ـ الخليل بن احمد : مصورة عن نسخة مكتبة شوراي ملي ـ بطهران .

٧ ـ الغريب المصنف ـ ابو عبيد القاسم بن سلام : مخطوطة مكتبة المتحف العراقي .

٨ ـ ما كان على افعل من الامثال ـ حمزة الاصفهاني : مصورة مكتبة الدراسات العليا في كلية الآداب .

٩ ـ محاضرات الدكتور ابراهيم السامرائي على طلبة قسم اللغة العربية (مدونتي) ١٩٦٨/ ١٩٦٩ م .

١٠ ـ محاضرات الاستاذ كمال ابراهيم على طلبة الماجستير (مدونتي) ١٩٧١/١٩٧٢ .

١١ ـ محاضرات الدكتور مهدي المخزومي على طلبة الدكتوراه (مدونتي)

١٩٧٤/ ١٩٧٥ م .
١٢ ـ معاني القرآن ـ الاخفش : مصورة السيد عبد الامير الورد عن نسخة مشهد بايران .
١٣ ـ النوادر ـ ابن الأعرابي (ضمن رسالة : ابن الاعرابي) تحقيق ـ كامل سعيد : بغداد ١٩٧٥م .

ثانيا : المطبوعة :

١٤ ـ ابحاث في اللغة العربية ـ الدكتور داود عبدو : ط الاولى ـ بيروت ١٩٦٩ م .
١٥ ـ الابدال في كلام العرب ـ ابو الطيب اللغوي : تحقيق عز الدين التنوخي ـ دمشق ١٩٦٠ م .
١٦ ـ الابل ـ الاصمعي : تحقيق اوغست هفنر (الكنز اللغوي) ـ المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٠٣ م .
١٧ ـ ابن جني النحوي ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي : دار النذير للطباعة ـ بغداد ١٩٦٩ م .
١٨ ـ ابن الحاجب النحوي ـ طارق عبد عون الجنابي : دار التربية للطباعة والنشر ـ بغداد ١٩٧٥ م .
١٩ ـ ابو البركات الانباري ودراساته النحوية ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي : ط ١ دار الرسالة للطباعة ـ بغداد ١٩٧٥ م .
٢٠ ـ الاتقان في علوم القرآن ـ السيوطي : مطبعة حجازي ١٣٦٨ هـ .
٢١ ـ اثر القرآن في تطور النقد العربي ـ الدكتور محمد زغلول سلام : دار المعارف بمصر ١٩٦١ م .
٢٢ ـ الاجناس ـ ابو عبيد القاسم بن سلام : تحقيق امتياز علي عرش الرامفوري ـ بومبي الهند ١٩٣٨ م .
٢٣ ـ الاحكام في اصول الاحكام ـ الآمدي : دار المعارف ١٣٣٢ هـ ١٩١٤ م .
٢٤ ـ اخبار العلماء بأخبار الحكماء ـ القفطي : مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٦ هـ .
٢٥ ـ اخبار النحويين البصريين ـ السيرافي : تحقيق الزيني وخفاجي ـ مصطفى البابي بالقاهرة ١٩٥٥ م .

٢٦ ـ ادب الاملاء والاستملاء ـ السمعاني : طبعة مصورة عن طبعة ليدن ١٩٥٢ م .
٢٧ ـ ارجوزة في الضاد والظاء ـ ابن قتيبة . تحقيق الدكتور داود الجلبي ـ مجلة لغة العرب السنة السابعة ـ الجزء السادس .
٢٨ ـ اساس البلاغة ـ الزمخشري : تحقيق عبد الرخيم محمود ـ مطبعة اولاد اورثاند بالقاهرة ١٩٥٣ م .
٢٩ ـ اسد الغابة ـ ابن الاثير : طهران ١٣٧٧ هـ .
٣٠ ـ اسرار العربية ـ ابو البركات الانباري : تحقيق محمد بهجة البيطار ـ دمشق ١٩٥٧ م .
٣١ ـ اسماء خيل العرب وفرسانها ـ ابن الاعرابي : تحقيق دلافيدا ـ (مع نسب الخيل لابن الكلبي) ليدن ١٩٢٨ م .
٣٢ ـ الاشباه والنظائر ـ السيوطي : مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٥٩ هـ .
٣٣ ـ الأشتقاق ـ ابن دريد : تحقيق عبد السلام هارون ـ مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٩٥٨ م .
٣٤ ـ الاصابة في تمييز اسماء الصحابة ـ ابن حجر العسقلاني : القاهرة ١٣٢٧ هـ .
٣٥ ـ اصلاح المنطق ـ ابن السكيت : تحقيق شاكر وهارون ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م .
٣٦ ـ الاصمعيات ـ الاصمعي : تحقيق محمد احمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف ١٩٥٥ م .
٣٧ ـ الاصوات اللغوية ـ الدكتور ابراهيم انيس : مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة ١٩٦١ م .
٣٨ ـ اصول التفكير النحوي ـ الدكتور علي ابو المكارم : منشورات الجامعة الليبية ـ بيروت ١٩٧٣ م .
٣٩ ـ الاصول في النحو ـ ابن السراج : تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي ـ مطبعة النعمان في النجف ١٩٧٣ م .
٤٠ ـ اصول النحو العربي ـ الدكتور محمد عيد : عالم الكتب ـ القاهرة ١٩٧٣ م .

٤١ ـ الاضداد ـ ابن السكيت : تحقيق اوغست هفنر ـ المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩١٣ م .
٤٢ ـ الاضداد ـ ابو بكر بن الانباري : تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ـ الكويت ١٩٦٠ م .
٤٣ ـ الاضداد ـ ابو حاتم السجستاني : تحقيق اوغست هفنر ـ المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩١٣ م .
٤٤ ـ الاضداد ـ الاصمعي : تحقيق اوغست هفنر ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩١٣ م .
٤٥ ـ الاضداد ـ قطرب : تحقيق هانس كوفلر ـ مجلة اسلاميكا المجلد الخامس ١٩٣١ م .
٤٦ ـ الاضداد في كلام العرب ـ ابو الطيب اللغوي : تحقيق الدكتور عزة حسن ـ دمشق ١٩٦٣ م .
٤٧ ـ الاضداد في اللغة ـ محمد حسين آل ياسين : مطبعة المعارف ببغداد ـ ١٩٧٤ ـ ١٣٩٤ هـ .
٤٨ ـ أطلس التاريخ الاسلامي ـ هاري و . هازارد وجماعة : تعريب حسن العروسي ـ مكتبة النهضة المصرية د .ت .
٤٩ ـ الاطلس التاريخي ـ عدي يوسف مخلص : بغداد ١٩٧١ م .
٥٠ ـ الاطلس التاريخي للعالم الاسلامي ـ عبد المنعم ماجد وعلي البنا : مطبعة الرسالة بالقاهرة ١٩٦٠ م .
٥١ ـ الاعلام ـ خير الدين الزركلي : بيروت ١٩٦٩ م .
٥٢ ـ الاغاني ـ ابو الفرج الاصفهاني : ط دار الكتب والهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة .
٥٣ ـ الاغراب في جدل الاعراب ـ ابو البركات الانباري : تحقيق سعيد الافغاني ط الجامعة السورية ١٩٥٧ م .
٥٤ ـ الاقتراح ـ السيوطي : تصحيح عبد الرحمن بن يحيى ـ دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ١٣٥٩ هـ .
٥٥ ـ الاقتضاب في شرح ادب الكتاب ـ ابن السيد البطليوسي : تحقيق عبد الله

البستاني ـ المطبعة الادبية ببيروت ١٩٠١ م .
٥٦ ـ اقليد الخزانة ـ عبد العزيز الميمني الراجكوتي : جامعة البنجاب بلاهور ١٩٢٧ م .
٥٧ ـ الالفاظ ـ ابن السكيت : تحقيق لويس شيخو اليسوعي (انظر : مختصر تهذيب الالفاظ) .
٥٨ ـ الالفاظ الفارسية المعربة ـ ادى شير : المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٠٨ م .
٥٩ ـ الامالي ـ ابو علي القالي : دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٦ م .
٦٠ ـ الأمالي ـ المرتضى : تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم ـ القاهرة ١٩٥٤م .
٦١ ـ الامتاع والمؤانسة ـ ابو حيان التوحيدي : لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٣٩ م .
٦٢ ـ الامثال ـ ابو عكرمة الضبي : تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ـ دمشق ١٩٧٤ م
٦٣ ـ امثال العرب ـ المفضل الضبي : مطبعة الجوائب بالاستانة ١٣٠٠ هـ .
٦٤ ـ الامثال ـ مؤرج السدوسي : تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ـ وزارة الثقافة بالقاهرة ١٩٧١ م .
٦٥ ـ الامثال العربية القديمة ـ رودلف زلهايم : تعريب الدكتور رمضان عبد التواب ـ بيروت ١٩٧١ م .
٦٦ ـ انباه الرواة ـ القفطي : تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ـ دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٥٠ م .
٦٧ ـ الانساب ـ السمعاني : تحقيق عبد الرحمن المعلمي اليماني ـ وزراة المعارف الهندية ـ حيدر آباد ١٩٦٢م .
٦٨ ـ انساب الخيل ـ الكلبي : تحقيق احمد زكي باشا ـ دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٤٦ م .
٦٩ ـ الانصاف في مسائل الخلاف ـ ابو البركات الانباري : تحقيق كوتولد فايل ـ ليدن ١٩١٣ م .
٧٠ ـ الانواء ـ ابن قتيبة : طبع حيدر آباد الدكن بالهند ١٩٥٦ م .
٧١ ـ الايضاح في علل النحو ـ الزجاجي : تحقيق مازن المبارك ـ دار العروبة بالقاهرة ١٩٥٩ م .

٧٢ ـ ايضاح الوقف والابتداء ـ ابو بكر بن الانباري : تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان ـ دمشق ١٩٧١ م .
٧٣ ـ البارع في اللغة ـ ابو علي القالي : تحقيق هاشم الطعان ـ بيروت ١٩٧٥ م .
٧٤ ـ البحث اللغوي عند العرب ـ الدكتور احمد مختار عمر : مطابع سجل العرب بالقاهرة ١٩٧١ م .
٧٥ ـ البحث اللغوي عند الهنود ـ الدكتور احمد مختار عمر : دار الثقافة ببيروت ١٩٧٢ م .
٧٦ ـ البحر المحيط ـ ابو حيان : مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٨ هـ .
٧٧ ـ البداية والنهاية ـ ابن كثير : مطبعة السعادة بمصر ١٣٥١هـ .
٧٨ ـ بغية الوعاة ـ جلال الدين السيوطي : تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ـ مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٦٤ م .
٧٩ ـ البلغة في شذور اللغة ـ لويس شيخو اليسوعي : المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩١٤ م .
٨٠ ـ البيان والتبيين ـ الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ١٩٤٨ م .
٨١ ـ تاج العروس ـ محمد مرتضى الزبيدي : وزارة الارشاد والانباء ـ الكويت ١٩٦٥ م . والخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ .
٨٢ ـ تاريخ آداب العرب ـ مصطفى صادق الرافعي : مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٤٠ م .
٨٣ ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ جرجي زيدان : مطبعة الهلال بالقاهرة ١٩٣٦ م .
٨٤ ـ تاريخ الادب العربي ـ بروكلمان : تعريب الدكتور عبد الحليم النجار ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٦١ م .
٨٥ ـ تاريخ بغداد ـ الخطيب البغدادي : طبعة مصورة في بيروت عن طبعة مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٣١ م .
٨٦ ـ تاريخ الحضارة الاسلامية ـ بارتولد : تعريب حمزة طاهر ـ ط ٣ دار المعارف بمصر .
٨٧ ـ تاريخ الدولة الاسلامية وتشريعها ـ يوجينا غيانة : نشر المكتب التجاري

ببيروت ١٩٦٦ م .
٨٨ ـ تاريخ الرسل والملوك ـ محمد بن جرير الطبري : تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م .
٨٩ ـ تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ـ محمد اسماعيل الندوي ـ ط ١ بيروت د . ت .
٩٠ ـ تاريخ العرب قبل الاسلام ـ الدكتور جواد علي : (القسم اللغوي) ط ١ المجمع العلمي العراقي .
٩١ ـ تاريخ علوم اللغة العربية ـ طه الراوي : بغداد ١٩٤٩ م .
٩٢ ـ تاريخ الفلسفة في الاسلام ـ دي بور : تعريب ابي ريدة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٣٨ م .
٩٣ ـ تاريخ اللغات السامية ـ اسرائيل ولفنسون : مطبعة الاعتماد بالقاهرة ١٩٢٩ م .
٩٤ ـ تاريخ اللغة العربية في مصر ـ الدكتور احمد مختار عمر : القاهرة ١٩٧٠ م .
٩٥ ـ تأويل مشكل القرآن ـ ابن قتيبة : تحقيق السيد احمد صقر ـ عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٥٤ م .
٩٦ ـ التحفة البهية والطرفة الشهية ـ مطبعة الجوائب بالاستانة ١٣٠٢ هـ .
٩٧ ـ تذكرة الحفاظ ـ الذهبي : طبع حيدر آباد الدكن ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨ م .
٩٨ ـ تصحيح الفصيح ـ ابن درستويه : تحقيق الدكتور عبد الله الجبوري ـ بغداد ١٩٧٥ م .
٩٩ ـ التصحيف والتحريف ـ ابو احمد العسكري : مطبعة القاهرة ١٣٢٦ هـ ـ ١٩٠٨ م .
١٠٠ ـ التضاد في ضوء اللغات السامية ـ الدكتور ربحي كمال : نشر جامعة بيروت العربية ١٩٧٢ م .
١٠١ ـ التطور اللغوي التاريخي ـ الدكتور ابراهيم السامرائي : دار الرائد للطباعة بالقاهرة ١٩٦٦ م .
١٠٢ ـ التطور النحوي ـ برجستراسر : القاهرة ١٩٢٩ م .
١٠٣ ـ التعريفات . الجرجاني : مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة ١٣٥٧ هـ .

١٠٤ ـ تفسير غريب القرآن ـ ابن قتيبة : تحقيق السيد احمد صقر ـ القاهرة ١٩٥٨ م .
١٠٥ ـ التفسير الكبير ـ الفخر الرازي : المطبعة البهية المصرية بالقاهرة ١٣٥٢ هـ .
١٠٦ ـ التقفية في اللغة ـ ابو بشر البندنيجي : تحقيق الدكتور خليل العطية ـ وزارة الاوقاف ببغداد ١٩٧٦ م .
١٠٧ ـ التكملة والذيل والصلة ـ الصغاني : تحقيق عبد العليم الطحاوي وجماعة ـ دار الكتب بالقاهرة ١٩٧٠ م .
١٠٨ ـ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ـ الفيروز ابادي : القاهرة ١٩٦٤ م .
١٠٩ ـ تهذيب الالفاظ ـ ابن السكيت : تحقيق لويس شيخو اليسوعي ـ طبعة مصورة عن طبعة بيروت ١٨٩٥ م .
١١٠ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر ـ عبد القادر بدران : دمشق ١٣٢٩هـ ـ ١٣٥١ هـ .
١١١ ـ تهذيب التهذيب ـ ابن حجر العسقلاني : دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن ١٣٢٥ هـ .
١١٢ ـ تهذيب اللغة ـ ابو منصور الازهري : تحقيق عبد السلام هارون ـ دار القومية العربية بالقاهرة ١٩٦٤ م .
١١٣ ـ ثلاثة كتب في الاضداد ـ تحقيق اوغست هفنر : المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩١٣ م .
١١٤ ـ جامع البيان في تفسير القرآن ـ الطبري : البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٥٤ م .
١١٥ ـ جامع الدروس العربية ـ الغلاييني ـ المطبعة العصرية ـ بيروت ١٩٦٨ م .
١١٦ ـ الجامع لاحكام القرآن ـ القرطبي : الطبعة الثالثة بالقاهرة ١٩٦٧ م .
١١٧ ـ جذوة المقتبس ـ الحميدي : تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ـ مصر ١٣٧٢ هـ .
١١٨ ـ جمهرة اللغة ـ ابن دريد : تحقيق كرنكو ـ ط حيدر آباد الدكن ١٣٤٤هـ .
١١٩ ـ جمهرة اشعار العرب ـ القرشي : تحقيق البجاوي ـ القاهرة د . ت .
١٢٠ ـ الجيم ـ ابو عمرو الشيباني : تحقيق ابراهيم الابياري وجماعة ـ نشر مجمع اللغة العربية في القاهرة ١٩٧٤ م .

١٢١ ـ حاشية الصبان على شرح الاشموني ـ مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة د . ت .
١٢٢ ـ الحروف ـ ابن السكيت : تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ـ مطبعة جامعة عين شمس بالقاهرة ١٩٦٩ م .
١٢٣ ـ الحروف ـ المنسوب الى الخليل بن احمد : تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ـ مطبعة جامعة عين شمس بالقاهرة ١٩٦٩ م .
١٢٤ ـ حياة الحيوان الكبرى ـ الدميري : دار الطباعة بالقاهرة ١٢٩٢ هـ .
١٢٥ ـ الحيوان ـ الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون ـ بيروت ١٩٦٩ م .
١٢٦ ـ خزانة الادب ـ عبد القادر البغدادي : طبعة مصورة عن طبعة بولاق ١٢٩٩ هـ .
١٢٧ ـ الخصائص ـ ابن جني : تحقيق محمد علي النجار ـ دار الكتب بالقاهرة ١٩٥٢ م .
١٢٨ ـ خلق الانسان ـ الاصمعي : تحقيق اوغست هفنر (في الكنز اللغوي) ـ بيروت ١٩٠٣ م .
١٢٩ ـ الخليل بن احمد الفراهيدي ـ الدكتور مهدي المخزومي : مطبعة الزهراء ببغداد ١٩٦٠ م .
١٣٠ ـ الخيل ـ ابو عبيدة : وقف عليه كرنكو ـ ط بحيدر آباد الهند ١٣٥٨ هـ .
١٣١ ـ الخيل ـ الاصمعي : تحقيق الدكتور نوري حمودي القيسي ـ مجلة كلية الآداب ببغداد ١٩٦٩ م .
١٣٢ ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ دار انتشارات جهان : بوذر جمهري بطهران د . ت .
١٣٣ ـ دراسات في فقه اللغة ـ الدكتور صبحي الصالح : دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٨ م .
١٣٤ ـ دراسات في اللغة ـ الدكتور ابراهيم السامرائي : مطبعة العاني ـ بغداد ١٩٦١ م .
١٣٥ ـ الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي : دار النذير ببغداد ١٩٧٠ م .
١٣٦ ـ درة الغواص في اوهام الخواص ـ الحريري : طبعة مصورة عن طبعة ثوربكه

في لايبزك ١٨٧١ م .
١٣٧ ـ دروس في علم اصوات العربية ـ كانتينو : تعريب صالح القرمادي ـ تونس ١٩٦٦ م .
١٣٨ ـ دروس اللغة العبرية ـ ربحي كمال : مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٦ م .
١٣٩ ـ دلالة الالفاظ ـ الدكتور ابراهيم انيس : مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة ١٩٦٣ م .
١٤٠ ـ ديوان الاخطل ـ الأب انطون صالحاني : بيروت ١٨٩١ م .
١٤١ ـ ديوان الادب ـ الفارابي : تحقيق الدكتور احمد مختار عمر ـ نشر مجمع اللغه العربية بالقاهرة ١٩٧٤ م .
١٤٢ ـ ديوان جرير ـ شرح الصاوي : نشر المكتبة التجارية بالقاهرة ١٣٥٣ هـ .
١٤٣ ـ ديوان عنترة العبسي ـ وقف على طبعه خليل الخوري : المطبعة الادبية ببيروت د . ت .
١٤٤ ـ الذريعة الى تصانيف الشيعة ـ محمد محسن الطهراني : مطبعة الغري في النجف ١٣٥٦ هـ .
١٤٥ ـ ذيل الامالي والنوادر ـ ابو علي القالي : ملحق بكتاب الامالي (انظر : الامالي للقالي) .
١٤٦ ـ الرحل والمنزل ـ المنوسب لابن قتيبة : تحقيق لويس شيخو اليسوعي (في البلغة) ـ بيروت ١٩١٤ م .
١٤٧ ـ رسالة في الحروف العربية ـ النضر بن شميل : تحقيق لويس شيخو اليسوعي (في البلغة) ـ بيروت ١٩١٤ م .
١٤٨ ـ رواية اللغة ـ الدكتور عبد الحميد الشلقاني : دار المعارف بمصر ١٩٧١ م .
١٤٩ ـ الرواية والاستشهاد باللغة ـ الدكتور محمد عيد : نشر عالم الكتب ـ بالقاهرة ١٩٧٢ م .
١٥٠ ـ روح المعاني ـ الآلوسي : ادارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة ١٣٤٥ هـ .
١٥١ ـ روضات الجنات في احوال العلماء والسادات ـ الخوانساري : المطبعة الحيدرية بطهران ١٣٩٠ هـ .
١٥٢ ـ الروض الأنف ـ السهيلي : مطبعة الجمالية ـ القاهرة ١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤م

١٥٣ ـ زهر الآداب وثمر الالباب ـ الحصري : تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار احياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٥٣ م .
١٥٤ ـ سر الليال في القلب والابدال ـ احمد فارس الشدياق : ط استانبول ١٢٨٤ هـ .
١٥٥ ـ سر صناعة الاعراب ـ ابن جني : تحقيق مصطفى السقا وجماعه ـ البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٥٤ م .
١٥٦ ـ سمط اللآلي ـ ابو عبيد البكري : تحقيق عبد العزيز الميمني ـ مطبعة لجنة التأليف بالقاهرة ١٩٣٦ م .
١٥٧ ـ سنن الترمذي ـ الترمذي : القاهرة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م .
١٥٨ ـ سؤالات نافع بن الازرق ـ تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي : بغداد ١٩٦٨ م .
١٥٩ ـ الشاء ـ الاصمعي : تحقيق اوغست هفنر ـ فينا ١٨٩٦ م .
١٦٠ ـ الشافية ـ ابن الحاجب (في مجموع مهمات المتون) : مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٤٩ م .
١٦١ ـ شذرات الذهب ـ ابن العماد الحنبلي : مكتبة القدسي ـ مطبعة الصدوق الخيرية بالقاهرة ١٣٥٠ هـ .
١٦٢ ـ شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٦٢ م .
١٦٣ ـ شرح ادب الكاتب ـ ابو منصور الجواليقي : مكتبة القدسي بالقاهرة ١٣٥٠ هـ .
١٦٤ ـ شرح الاشموني على الفية ابن مالك (منهج السالك) : نشر محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٣٩ م .
١٦٥ ـ شرح التصريح على التوضيح ـ الازهري : دار احياء الكتب العربية بالقاهرة د . ت .
١٦٦ ـ شرح درة الغواص ـ الخفاجي : نشر نظارة المعارف ـ مطبعة الجوائب بقسطنطينية ١٢٩٩ هـ .
١٦٧ ـ شرح ديوان الحماسة ـ التبريزي : تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة

حجازي بالقاهرة .
١٦٨ ـ شرح الشافية ـ الرضي الاسترابادي : تحقيق محمد نور الحسن وجماعة ـ مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٥٦ هـ .
١٦٩ ـ شرح الكافية ـ الرضي الاسترابادي : مطبعة مجمع الرضي ـ الاستانة ١٢٧٥ هـ .
١٧٠ ـ شرح شواهد العيني ـ هامش خزانة الادب (انظر : خزانة الادب للبغدادي) .
١٧١ ـ شرح شواهد المغني ـ السيوطي : دمشق ١٩٦٦ م .
١٧٢ ـ شرح القصائد التسع المشهورات ـ ابن النحاس : تحقيق احمد خطاب ـ نشر وزارة الاعلام ـ بغداد ١٩٧٣ م .
١٧٣ ـ شرح قطر الندى وبل الصدى ـ ابن هشام : تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ الطبعة التاسعة ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م .
١٧٤ ـ شرح المعلقات السبع ـ الزوزني : تحقيق محمد علي حمد الله ـ نشر المكتبة الاموية ـ دمشق ١٩٦٣ م .
١٧٥ ـ شرح المفصل ـ ابن يعيش : مطبعة الطباعة المنيرية ـ القاهرة د ت .
١٧٦ ـ شرح نهج البلاغة ـ ابن ابي الحديد : تحقيق حسن تميم ـ مكتبة الحياة ببيروت ١٩٦٣ م .
١٧٧ ـ شعر ابي زبيد الطائي : تحقيق الدكتور نوري حمودي القيسي ـ مطبعة المعارف ببغداد ١٩٦٧ م .
١٧٨ ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة : نشر دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٤ م .
١٧٩ ـ شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ـ الخفاجي : نشر محمد عبد المنعم خفاجي ـ مطبعة المنيرية بالقاهرة ١٩٥٢ م .
١٨٠ ـ شمس العلوم ـ نشوان الحميري : تحقيق سترستين ـ مطبعة بريل بليدن ١٩٥٣ م .
١٨١ ـ شواهد التوضيح والتصحيح ـ ابن مالك : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ مطبعة لجنة البيان العربي ـ القاهرة ١٩٥٧ م .
١٨٢ ـ الصاحبي في فقه اللغة ـ احمد بن فارس : تحقيق مصطفى الشويمي ـ بيروت

١٩٦٤ م . ونشر المكتبة السلفية في القاهرة ١٣٢٨ هـ ـ ١٩١٠ م .
١٨٣ ـ صبح الاعشى ـ القلقشندي : دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٤٠ هـ ـ ١٩٢٢ م .
١٨٤ ـ الصحاح ـ الجوهري : تحقيق احمد عبد الغفور عطار ـ مطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٥٦ م .
١٨٥ ـ الصحاح ومدارس المعجمات العربية ـ احمد عبد الغفور عطار : ط٢ بيروت ١٩٦٧ م .
١٨٦ ـ ضحى الاسلام ـ احمد امين : لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ط٣ القاهرة ١٩٥٦ م .
١٨٧ ـ طبقات الاطباء والحكماء ـ ابن جلجل : مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ـ القاهرة ١٩٥٥ م .
١٨٨ ـ طبقات الشافعية الكبرى ـ السبكي : تحقيق الحلو والطناحي : البابي الحلبي بمصر ١٩٦٤ م .
١٨٩ ـ طبقات الشعراء ـ ابن المعتز : تحقيق عبد الستار احمد فراج ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٥٦ م .
١٩٠ ـ طبقات فحول الشعراء ـ ابن سلام الجمحي : تحقيق محمود محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م .
١٩١ ـ طبقات النحويين واللغويين ـ ابو بكر الزبيدي : تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ـ مطبعة الخانجي بالقاهرة ١٩٥٤ م .
١٩٢ ـ طرق تنمية الالفاظ ـ الدكتور ابراهيم انيس : مطبعة النهضة الجديدة بالقاهرة ١٩٦٦ م .
١٩٣ ـ العباب الزاخر ـ الصغاني : تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين (الجزء الاول) ـ مطبعة المعارف ببغداد ١٩٧٧ م .
١٩٤ ـ عبقري من البصرة ـ الدكتور مهدي المخزومي : وزارة الاعلام ببغداد ١٩٧٢ م .
١٩٥ ـ العربية ـ يوهان فك : تعريب الدكتور عبد الحليم النجار ـ مطبعة دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٥١ م .

١٩٦ ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربه الاندلسي : تحقيق محمد سعيد العريان ـ ط ١ مطبعة الاستقامة بمصر ١٣٥٩ هـ ـ ١٩٤٠ م .
١٩٧ ـ علم اللغة ـ علي عبد الواحد وافي : دار نهضة مصر للطبع بالقاهرة ١٩٦٧ م .
١٩٨ ـ علم اللغة ـ محمود السعران : دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٢ م .
١٩٩ ـ العين ـ الخليل بن احمد : تحقيق الدكتور عبد الله درويش (الجزء الاول) ـ مطبعة العاني ببغداد ١٩٦٧ م .
٢٠٠ ـ عيون الاخبار ـ ابن قتيبة : طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٦٣ م .
٢٠١ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء ـ ابن ابي اصيبعة : ط ١ المطبعة الوهبية ١٨٨٢ م .
٢٠٢ ـ غاية النهاية في طبقات القراء ـ ابن الجزري : نشر برجشتراسر ـ القاهرة ١٩٣٣ م .
٢٠٣ ـ غريب الحديث ـ ابن قتيبة : تحقيق الدكتور عبد الله الجبوري ـ وزارة الاوقاف ببغداد ٧٦ ـ ١٩٧٧ م .
٢٠٤ ـ غريب الحديث ـ ابو عبيد القاسم بن سلام : مراقبة الدكتور محمد عبد المعيد خان ـ حيدر آباد ١٩٦٤ م .
٢٠٥ ـ الفاخر ـ المفضل بن سلمة : تحقيق عبد العليم الطحاوي ـ القاهرة ١٩٦٠ م .
٢٠٦ ـ الفاضل ـ المبرد : تحقيق عبد العزيز الميمني ـ دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٥٦ م .
٢٠٧ ـ الفائق ـ الزمخشري : دار احياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٤٥ م .
٢٠٨ ـ فتوح البلدان ـ البلاذري : مطبعة الموسوعات ١٩٠١ م .
٢٠٩ ـ فصل المقال في شرح كتاب الامثال ـ ابو عبيد البكري : تحقيق عبد المجيد عابدين واحسان عباس ـ الخرطوم ١٩٥٨ م .
٢١٠ ـ فصول في فقه العربية ـ الدكتور رمضان عبد التواب : ط ١ مكتبة دار التراث ـ القاهرة ١٩٧٣ م .

٢١١ ـ فقه اللغة ـ الثعالبي : نشر المكتبة التجارية الكبرى ـ مطبعة مصطفى محمد بالقاهرة ١٩٣٨ م .
٢١٢ ـ فقه اللغة ـ الدكتور علي عبد الواحد وافي : دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة د . ت
٢١٣ ـ فقه اللغة وخصائص العربية ـ محمد المبارك : دار الفكر بيروت ١٩٦٨ م .
٢١٤ ـ الفلاكة والمفلوكون ـ الدلجي : نشر مكتبة الاندلس ببغداد ـ مطبعة الآداب بالنجف ١٣٨٥ هـ .
٢١٥ ـ الفلسفة اللغوية ـ جرجي زيدان : مطابع دار الهلال بالقاهرة د . ت .
٢١٦ ـ الفهرست ـ ابن النديم : طبعة المطبعة الرحمانية بالقاهرة د . ت .وطبعة فلوجل . وطبعة دانشكاه طهران ـ تحقيق رضا تجدد ـ طهران ١٩٧١م .
٢١٧ ـ فهرس دار الكتب المصرية ـ مطبعة دار الكتاب ـ القاهرة ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م .
٢١٨ ـ فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ـ اسماء الحمصي : مطبوعات مجمع اللغة العربية ـ دمشق ١٩٧٣م .
٢١٩ ـ فهرس المخطوطات المصورة ـ فؤاد سيد : دار الرياض للطبع والنشر ـ القاهرة ١٩٥٤م
٢٢٠ ـ فهرسة ما رواه عن شيوخه ـ ابن خير الاشبيلي : تحقيق زيدين وطرغوه ـ نشر المكتب التجاري (طبعة مصورة) ١٩٦٣م .
٢٢١ ـ فوات الوفيات ـ ابن شاكر الكتبي : تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٥١م .
٢٢٢ ـ في اللهجات العربية ـ الدكتور ابراهيم انيس : المطبعة الفنية الحديثة بالقاهرة ١٩٦٥م .
٢٢٣ ـ قاموس الافعال العبرية ـ م . ضباعي : مكتبه لبنان ـ بيروت ١٩٧٥م .
٢٢٤ ـ القاموس العبري العملي ـ رضوان عبده رضوان : مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة د . ت .
٢٢٥ ـ القاموس المحيط ـ الفيروز ابادي : طبعة مصورة عن طبعة بولاق بمصر ١٣٠١هـ .

٢٢٦ ـ القرآن الكريم
٢٢٧ ـ القرطين ـ ابن مطرف الكناني : نشر الخانجي ـ القاهرة ١٣٥٥هـ .
٢٢٨ ـ القلب والابدال ـ ابن السكيت : تحقيق اوغست هفنر (في الكنز اللغوي) المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٠٣م .
٢٢٩ ـ الكامل ـ المبرد : تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم والسيد شحاته ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة د . ت .
٢٣٠ ـ الكتاب ـ سيبويه : المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق ١٣١٦ هـ .
٢٣١ ـ الكرم ـ الاصمعي : تحقيق لويس شيخو اليسوعي (في البلغة) ـ المطبعة الكاثوليكية في بيروت ١٩١٤م .
٢٣٢ ـ الكشاف ـ الزمخشري ـ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٦٥ هـ .
٢٣٣ ـ كشف الظنون ـ حاجي خليفة : تحقيق يالتقايا والكليسي ـ وكالة المعارف باستنبول ١٩٤١م .
٢٣٤ ـ الكنايات ـ الجرجاني : مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٠٨م .
٢٣٥ ـ كنز الحفاظ في تهذيب الالفاظ : (انظر : تهذيب الالفاظ لابن السكيت) .
٢٣٦ ـ الكنز في قواعد اللغة العبرية ـ محمد بدر : المطبعة التجارية الكبرى بمصر ١٩٢٦م .
٢٣٧ ـ الكنز اللغوي في اللسن العربي ـ تحقيق اوغست هفنر ـ المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٠٣م .
٢٣٨ ـ الكنى والالقاب ـ الشيخ عباس القمي : مطبعة العرفان بصيدا ١٩٣٩ م .
٢٣٩ ـ لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية ـ الدكتور عبد العزيز مطر : دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧م .
٢٤٠ ـ لحن العامة والتطور اللغوي ـ الدكتور رمضان عبد التواب : دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٦٧م .
٢٤١ ـ لحن العوام ـ ابو بكر الزبيدي : تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب ـ المطبعة الكمالية بالقاهرة ١٩٦٤م .
٢٤٢ ـ لسان العرب ـ ابن منظور : نشر دار صادر ودار بيروت ـ بيروت ١٩٥٥ م .
٢٤٣ ـ اللغات السامية ـ نولدكه : تعريب الدكتور رمضان عبد التواب ـ المطبعة

الكمالية بالقاهرة ١٩٦٣م .
٢٤٤ ـ اللغات في القرآن ـ ابن عباس : تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ـ ط ١ بيروت ١٩٧٢م .
٢٤٥ ـ اللغة ـ فندريس : تعريب الدواخلي والقصاص ـ مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ١٩٥٠م .
٢٤٦ ـ اللهجات العربية في التراث ـ الدكتور احمد علم الدين الجندي : طبعة مصورة عن طبعة بالآلة الكاتبة ـ الهيئة المصرية العامة ١٩٦٥م .
٢٤٧ ـ لمع الادلة ـ ابو البركات الانباري : تحقيق سعيد الافغاني (مع الاعراب) ـ الجامعة السورية ١٩٥٧م .
٢٤٨ ـ ما اتفق لفظه واختلف معناه ـ المبرد : تحقيق عبد العزيز الميمني ـ القاهرة ١٣٥٠ هـ .
٢٤٩ ـ ما تلحن فيه العوام ـ الكسائي : تحقيق عبد العزيز الميمني ـ المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٤ هـ .
٢٥٠ ـ ما جاء اسمان احدهما اشهر من صاحبه ـ محمد بن حبيب : تحقيق محمد حميد الله ـ مجلة المجمع العلمي العراقي / المجلد الرابع ١٩٥٦ م .
٢٥١ ـ ما خالف فيه الانسان البهيمة ـ قطرب : تحقيق رودلف جاير (مع الوحوش للاصمعي) ـ فينا ١٨٨٨م .
٢٥٢ ـ المباحث اللغوية ـ د . مصطفى جواد : القاهرة ١٩٥٥ م .
٢٥٣ ـ مجاز القرآن ـ ابو عبيدة : تحقيق فؤاد سزكين ـ القاهرة ١٩٥٤ ـ ١٩٦٢ م
٢٥٤ ـ مجالس ثعلب ـ ثعلب : تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ١٩٤٨م .
٢٥٥ ـ مجالس العلماء ـ الزجاجي : تحقيق عبد السلام هارون ـ الكويت ١٩٦٢م .
٢٥٦ ـ مجمع الامثال ـ الميداني : تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ ط ٢ مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩م .
٢٥٧ ـ مجمع البيان ـ الطبرسي : نشر احمد عارف الزين ـ صيدا ١٣٣٣ هـ .
٢٥٨ ـ مجموعة الوثائق السياسية ـ الدكتور محمد حميد الله : دار الارشاد للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٦٩م ـ ١٣٨٩ هـ
٢٥٩ ـ المحتسب ـ ابن جنّي : تحقيق علي النجدي ناصف وجماعة ـ دار التحرير

للطباعة بالقاهرة ١٣٨١ هـ .
٢٦٠ ـ محضر الجلسة السابعة لمؤتمر اللغة العربية ١٩٤٨/ ١٩٤٩ م .
٢٦١ ـ المحكم في نقط المصاحف ـ ابو عمرو الداني : تحقيق د . عزة حسن ـ دمشق ١٩٦٠م .
٢٦٢ ـ المحكم والمحيط الاعظم ـ ابن سيده : القاهرة ١٩٥٨ م .
٢٦٣ ـ المحيط في اللغة ـ الصاحب بن عباد : تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ـ بغداد ١٩٧٦ م .
٢٦٤ ـ مختصر امثال ابي عبيد : (في العقد الفريد لابن عبد ربه) .
٢٦٥ ـ مختصر تهذيب الالفاظ ـ ابن السكيت : تحقيق لويس شيخو اليسوعي ـ بيروت ١٨٩٧م .
٢٦٦ ـ مختصر العين ـ الزبيدي : تحقيق الفاسي والطنجي ـ السلسلة اللغوية ١ ـ المغرب د . ت .
٢٦٧ ـ المخصص ـ ابن سيده : طبعة مصورة في بيروت عن طبعة بولاق ١٣١٨ هـ .
٢٦٨ ـ المخصص لابن سيده . دراسة ، دليل ـ محمد الطالبي : تونس ١٩٥٦م .
٢٦٩ ـ مختصر شواذ القرآن ـ ابن خالويه : تحقيق برجشتراسر ـ المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٤م .
٢٧٠ ـ المدارس النحوية ـ د . شوقي ضيف : دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٦٨ م .
٢٧١ ـ مدرسة الكوفة ـ د . مهدى المخزومي : القاهرة١٩٥٨ م .
٢٧٢ ـ مذاهب التفسير الاسلامي ـ كولد سيهر : ترجمه الدكتور عبد الحليم النجار ـ مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٥ م .
٢٧٣ ـ المذكر والمؤنث ـ الفراء : تحقيق مصطفى الزرقا ـ المطبعة العلمية بحلب ١٣٤٥ هـ .
٢٧٤ ـ مراتب النحويين ـ ابو الطيب اللغوي : تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ـ القاهرة ١٩٥٥م .
٢٧٥ ـ المرشد الى آيات القرآن الكريم ـ محمد فارس بركات : دمشق ١٩٥٧م .
٢٧٦ ـ المزهر ـ السيوطي : تحقيق محمد احمد جاد المولى ـ البابي الحلبي ـ القاهرة د . ت .

٢٧٧ ـ المسائل والاجوبة ـ ابن قتيبة : نشرمكتبةالقدسي ـ القاهرة ١٣٤٩هـ .
٢٧٨ ـ مسائية ـ ابو زيد الانصاري (ملحق بكتاب النوادر في اللغـة) ـ بـيروت ١٨٩٤م .
٢٧٩ ـ مستقبل اللغة العربية المشتركة . د . ابراهيم انيس : القاهرة ١٩٥٩م .
٢٨٠ ـ المصباح المنير ـ الفيومي : تحقيق حمزة فتح الله ـ القاهرة ١٩٢٦م .
٢٨١ ـ المعاجم العربية ـ الدكتور عبد السميع محمـد احمـد : دار الفكر العربـي ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٤م .
٢٨٢ ـ المعاجم العربية ـ د . عبد الله درويش : مطبعة الرسالة بالقاهرة ١٩٥٦م .
٢٨٣ ـ المعاجم اللغوية في ضوء علم اللغة الحديث ـ الدكتور محمد احمد ابو الفرج . ط١ دار النهضة العربية ١٩٦٦ .
٢٨٤ ـ معاني القرآن ـ الفراء : تحقيق محمد علي النجار وجماعة ـ القاهرة ١٩٥٥م .
٢٨٥ ـ المعاني الكبير ـ ابن قتيبة : تحقيق كرنكو ـ حيدر آباد الهند ـ طبعة مصـورة ببيروت د . ت .
٢٨٦ ـ معجم الادباء ـ ياقوت الحموي : نشر عيسى البابي ـ القاهرة ١٩٣٦م .
٢٨٧ ـ معجم الفاظ القرآن الكريـم ـ مجمع اللغة العربية في القاهرة : الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م .
٢٨٨ ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ط أمطبعة السعادة ١٣٢٤ هـ ـ ١٩٠٦م .
٢٨٩ ـ معجم الشعراء ـ المرزباني : تحقيق عبد الستار احمد فراج ـ مطبعة الحلبي بالقاهرة ١٩٦٠م .
٢٩٠ ـ المعجم العربي ـ د . حسين نصار : دارمصر للطباعة ـ القاهرة ١٩٦٨م .
٢٩١ ـ معجم ما استعجم ـ البكري : تحقيق مصطفى السقا ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٧م .
٢٩٢ ـ معجـم المطبوعـات العـربية والمعربـة ـ يوسف اليان سركيس : القاهـرة ١٩٢٨م .
٢٩٣ ـ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريـم ـ محمد فؤاد عبد الباقي : القاهـرة ١٣٦٤هـ .
٢٩٤ ـ معجم المؤلفين ـ عمر رضا كحالة : مطبعة الترقي بدمشق ١٩٥٧ م

٢٩٥ ـ المعجمية العربية ـ الاب مرمرجي الدومينيكي : القدس ١٩٣٧م .
٢٩٦ ـ المعرب من الكلام الاعجمي ـ الجواليقي : تحقيق احمد محمد شاكر ـ القاهرة ١٣٦١ هـ .
٢٩٧ ـ مغني اللبيب ـ ابن هشام : تحقيق محي الدين عبد الحميد ـ القاهرة د . ت .
٢٩٨ ـ مفتاح العلوم ـ السكاكي : ط ١ القاهرة ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧م .
٢٩٩ ـ مقاييس اللغة ـ ابن فارس : تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ١٣٦٦ هـ .
٣٠٠ ـ المقتضب ـ المبرد : تحقيق عبد الخالق عضيمة ـ القاهرة ١٣٨٨ هـ .
٣٠١ ـ مقدمة ابن خلدون ـ ابن خلدون : نشر ورثة الشيخ محمد عبد الخالق المهدي ـ القاهرة ١٩٣٠ م .
٣٠٢ ـ مقدمة الانصاف ـ كوتولد فايل : تعريب الدكتور محمد عبد الحليم النجار .
٣٠٣ ـ مقدمة الصحاح ـ احمد عبد الغفور عطار : دار الكتاب العربي بمصر ـ القاهرة ١٩٥٦م .
٣٠٤ ـ مقدمة لدرس لغة العرب ـ عبد الله العلايلي : المطبعة العصرية بمصر ـ د . ت .
٣٠٥ ـ مقدمة العين في ارجح نصوصها ـ تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ـ بغداد ١٩٧٧م .
٣٠٦ ـ مقدمة في الاصول اللغوية المشتركة بين العربية والعبرية ـ محمد حسين آل ياسين بغداد ١٩٧١م .
٣٠٧ ـ المقنع ـ ابو عمرو الداني : تحقيق محمد احمد دهمان ـ مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٠م .
٣٠٨ ـ المكنى والمبنى ـ ابن السكيت (ضمن اصلاح المنطق) ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٦م .
٣٠٩ ـ من اسرار اللغة ـ د . ابراهيم انيس : المطبعة الفنية في القاهرة ـ ١٩٦٦م .
٣١٠ ـ منتهى الوصول ـ ابن الحاجب : نشر محمد بدر الدين النعساني ـ ط ١ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦ هـ .
٣١١ ـ المنصف ـ ابن جني : تحقيق ابراهيم مصطفى وجماعة ـ ط ١ القاهرة ١٩٥٤م .

٣١٢ ـ المنطق ـ الشيخ محمد رضا المظفر : مطبعة النعمان ـ النجف ١٩٦٨ م .
٣١٣ ـ منهج الاخفش الاوسط في الدراسة النحوية ـ عبد الامير الورد : دار التربية ببغداد ١٩٧٥م .
٣١٤ ـ منهج البحث في الادب واللغة ـ مابيه ولانسون : تعريب الدكتور محمد مندور (ملحق بكتاب النقد المنهجي عند العرب) القاهرة ١٩٦٩ م .
٣١٥ ـ منهج الطوسي في تفسير القرآن ـ الشيخ محمد حسن آل ياسين : مطبعة جامعة مشهد بايران د . ت .
٣١٦ ـ الموازنة ـ الآمدي : تحقيق سيد احمد صقر ـ القاهرة ١٩٦١م .
٣١٧ ـ المؤتلف والمختلف ـ الآمدي : تحقيق عبد الستار احمد فراج ـ البابي الحلبي ١٩٦١م .
٣١٨ ـ الموشح ـ المرزباني : المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٣ هـ .
٣١٩ ـ النثر الفني في القرن الرابع ـ د . زكي مبارك : دار الكتب المصرية ـ ١٣٥٢هـ ١٩٣٤ م .
٣٢٠ ـ النجوم الزاهرة ـ ابن تغري بردي الاتابكي : طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٢٤ ـ ١٩٥٦م .
٣٢١ ـ النحو العربي / العلة النحوية نشأتها وتطورها ـ د . مازن المبارك : الطبعة الاولى ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م .
٣٢٢ ـ النحو العربي نقد وبناء ـ د . ابراهيم السامرائي : دار الصادق ببيروت ١٩٦٨م .
٣٢٣ ـ النخل ـ الاصمعي : تحقيق لويس شيخو (البلغة) بيروت ١٩١٤م .
٣٢٤ ـ نزهة الالباء ـ ابو البركات الانباري : تحقيق د . ابراهيم السامرائي ـ بغداد ١٩٥٩ م .
٣٢٥ ـ نشأة اللغة عند الانسان والطفل ـ د . علي عبد الواحد وافي : القاهرة ١٩٤٧م .
٣٢٦ ـ النشر في القراءات العشر ـ ابن الجزري : تحقيق علي محمد الضباع ـ المطبعة التجارية الكبرى بالقاهرة د . ت .

٣٢٧ ـ نشوء اللغة ونموها واكتهالها ـ انستاس الكرملي : القاهرة ١٩٣٨ م .
٣٢٨ ـ نظرات في اللغة والنحو ـ طه الراوي : نشر المكتبة الاهلية ببيروت ١٩٦٢ م .
٣٢٩ ـ النعم والبهائم والوحش ـ المنسوب الى ابن قتيبة : تحقيق موريس بوج ـ ليبزك ١٩٠٨ م
٣٣٠ ـ النقائض ـ ابو عبيدة : طبعة مصورة عن تحقيق بيفان ـ ليدن ١٩٠٥ م .
٣٣١ ـ نقد النثر ـ المنسوب الى قدامة بن جعفر : تحقيق الدكتور طه حسين وعبد الحميد العبادي ـ ط ٤ القاهرة ١٩٤٠ م .
٣٣٢ ـ نكت الهميان في نكت العميان ـ الصفدي : وقف على طبعه احمد زكي ـ القاهرة ١٩١١م .
٣٣٣ ـ النهاية في غريب الحديث ـ ابن الاثير : تحقيق الزاوي والطناحي ـ القاهرة ١٩٦٣م .
٣٣٤ ـ النوادر ـ ابو مسحل الاعرابي : تحقيق الدكتور عزة حسن ـ دمشق ١٩٦١م .
٣٣٥ ـ النوادر في اللغة ـ ابو زيد الانصاري : تحقيق سعيد الخوري الشرتوني ـ بيروت ١٩٦٧ م(طبعة مصورة) .
٣٣٦ ـ نور القبس ـ اليغموري : تحقيق رودلف زلهايم ـ فسبادن ١٩٦٤م .
٣٣٧ ـ الهجاء والهجاؤ ون في الجاهلية ـ الدكتور محمد محمد حسين : القاهرة ١٩٦٤ م .
٣٣٨ ـ الهمز ـ ابو زيد الانصاري : تحقيق لويس شيخو اليسوعي ـ بيروت ١٩١١م .
٣٣٩ ـ همع الهوامع ـ السيوطي : ط ١ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٧ هـ .
٣٤٠ ـ الوافي بالوفيات ـ الصفدي : تحقيق هلموت ريتر ـ فسبادن ١٩٦١م .
٣٤١ ـ الوحوش ـ الاصمعي : تحقيق رودلف جاير ـ فينا ١٨٨٨م .
٣٤٢ ـ وفيات الاعيان ـ ابن خلكان : تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٤٨ م .

ثالثا ـ الاجنبية :

٣٤٣ תרין ה: ספלחעשח חוש־תגלה, לפנן/ 1930

Brockelmann:Geschicht der Arabischen Litteratur, Leiden 1937-1942.
344

Chaim Rabin: Ancient West-Arabian, London 1951. 345

Djambatan: Historical Atlas of the Muslim Peoppes, Amsterdam 1957.
346

Sezgin : Geschichte des Arabischen Schrifttums, Leiden 1967-1971.
347

رابعا ـ المجلات والدوريات :

٣٤٨ ـ الازهر ـ القاهرة

٣٤٩ ـ اسلاميات (Islamica) : المانيا

٣٥٠ ـ البلاغ ـ بغداد

٣٥١ ـ العلم ـ بغداد .

٣٥٢ ـ كلية الآداب ـ بغداد .

٣٥٣ ـ كلية الآداب (المستنصرية) ـ بغداد .

٣٥٤ ـ كلية الشريعة ـ بغداد .

٣٥٥ ـ كلية القديس يوسف ـ بيروت .

٣٥٦ ـ لغة العرب ـ بغداد .

٣٥٧ ـ المجلة ـ القاهرة .

٣٥٨ ـ المجمع العلمي العراقي ـ بغداد

٣٥٩ ـ المجمع العلمي العربي ـ دمشق .

٣٦٠ ـ مجمع اللغة العربية ـ دمشق .

٣٦١ ـ مجمع اللغة العربية الملكي ـ القاهرة .

٣٦٢ ـ المشرق ـ بيروت .

٣٦٣ ـ المكتبة ـ بغداد .

٣٦٤ ـ المناهل ـ الرباط .

٣٦٥ ـ المورد ـ بغداد .

٣- فهرس مطالب الرسالة

الباب الثاني

التأليف

٩٧ ـ ٣٢١

الباب الثالث
الأسس المنهجية واختلاف اللغويين فيها
٣٢٣ ـ ٤٢٢

الباب الرابع

تقويم الدراسة القديمة في ضوء الدراسة الحديثة

copies which most of them are in need of a scientific investigation and available indexes. Other sources are represented in the difficulties of realizing the facts which were vanished behind the fanatic schools of thought and controversies in linguistics, for it is not easy to realize of the reported concept from a reference whose author is prejudiced. Other sources kept silent from numerous important information, such as the relativity of the dialects of their tribes, or composition of verses to poets; or to whom the thoughts were attributed. The most important references (resources) are the investigated books (texts) divided in the thesis, and also the same are those texts which were within the reach before the 3rd. century. I was in need of the different language books of Philology and Syntax, translations, history, anthologies, books indexes, magazines, periodicals as shown in the bibliography.

This Thesis utilized the new references which manipulated many problems such as **Arabic Dictionary** (Mu'ajam) by Dr. Husain Nassar; **Kufa School**, by Dr. Mahdi Al-Makhzumi; **Language Story**, by Dr. Abdul Hamid Al-Shalqany,**language Research,**by Dr. Ahmed Mukhtar Omer, **Chapters in Arabic Linguistics** by Ramadan AbdulTawab,and so on.

To sum up, my gratitude is due to my supervisor, professor Dr. Fadhil Al-Samerai without whose genuine instructions and faithful advices, my thesis could not have seen the light. My deepest thanks are given to those who supported me in accomplishing the work: Dr. Hatem Al-Dhamin, Who granted me full freedom in utilizing his library.

I hope that my thesis would add a creative contribution to arabic language library, and could fill a humble gap in the service of the generous Arabic through modest efforts and time.

We hope that we are sincere enough. Good Luck.

controversies and debates.

InFourth Part I Launched at the assessment of the ancient study on the light of the modern one Chapter One depicts the idiom of Linguistics and its develolpment compared with the same concepts of the previous idioms, then balanced the subjects of the ancient language and the modern one with mentioning samples of them. Chapter Two reveals the positions of Arab linguists toward the Semitics and to what extent they used them in their Arabic studies. I started with an introduction, defining the Semitic languages, and the acquaintance of Arab linguists to them and their influence.Then I spoke a little about Arab's ignorance of these languages and its effect on their language study. The conclusion of the chapter was a comparative study between Al-Khalil, Ibn Jinny and Ibrahim Anis.

The conclusion of the thesis was devoted to the general results I obtained, and the special innovations which the research attained.

* * *

The method of research was devated to language aspect concerning the language studies of the Arabs afar of Morphology and Syntax. Each of them developed a part as two independent sciences from the very beginning of Arab language studies. If I had to refer to them sometimes, that is because of necessity of precision as I performed in the Third Part, for I perceived that the principles of method must participate with the studies of language and Syntax; and some of these principles of Syntax have sheer effects on the language study.

As the title of the thesis refers, I had to pose on the end of the 3rd. century in the Part Two by obligation. But I over stepped the 3rd.Century many times as shown in Part Three and Four when I followed a Phenomenon and chased its trace.

I adopted the historical principles of method to catch up with development,starting fromthe early birth of the subject, authorship of programme, accompanied with success of failure in creation or imitation until I posed at the step where the research imposes, tracing for it, as the modern idiom says, a clear "curve", to concentrate in the light and dark aspects of this development lest it should reveal a defective or awkward image.

It is a matter of course that the sources of this research are as numerous and sorted out as the subject of the thesis itself. The task necessitates to ponder upon some manuscripts or attaining their ancient

view of the parts and their chapters, different references a partly procedure of writing; and ends with the acknowledgements. First part deals with the research in the language study field and its pioneers. Chapter one was assigned to the general environment, talking about the historical aspects of the language; arab's eloquency in the pre-Islamic (Jahylite) period: bad accent and its approches to theslang expressions; the position of the men of letters; and ends with the social and cultural environment of the two cities, Al-Basrah and Al-Kufa. Chapter Two includes the pioneers of the language studies; putting dots under certain letters, sentence construction and Arabic Grammar's situation and the controversies about its originator. Then I studied the birth of the novel and its pioneers; and a list of those trustworthees in language I spoke about the interwoven studies and separation through the works of the early specialists. The chapter ends with a discussion of the originality and influence of arab studies, and my objective proved that genuineness.

Second part was devated to the text's authorship. Chapter one discusses the mixed authorship, exposing two situations where the Arabs showed their production The first was "The Meanings of Al-Quran", the second, "Al-Newadir wal Amali," and I explained the aspects of the mixed study in these two parts, and following the texts up to the 3rd. century. Chapter two was assigned to the study of The Theses on language, choosing subjects for it and following their development, Chapter three was devoted to the dictionaries studying the development of the idiom "dictionary" and mentioned the nations which edited them first, and talked about the materialofits language, with the number of the dictionaries used up to the 3rd. century. I could realize of those numbers divided into the pronunciation dictionaries and vocabulary dictionaries.

As for third Part, it centers in studying the principles of Method, and the linguists' atguments. Chapter one showed the principles of Methods in the language study, and the position of the tribes toward Arab's eloguence, especially Quraish. Then I turned to the different accents, and realized that there is no real difference in the foundations, but in some apparent intonations .Then came the study of the language material on which the linguiste depended, and their situationtoward it. I finished the chapter with the scientific results, Implication and Interpretation; cause and effect, Overhearing and Analogy, and mentioned the schools of thought facing the principles of language study, and ended to the qualitative programme and causative programme in language study. Chapter two was devated to the enlisting of the famous linguists, and the definition of the school, and the characteristics of Basrah School and Kufa School. I could put down the language problems which led to outstanding

ABSTRACT

Since Al-Quran was revealed as a constitution for Arab Nation, Arabs have been engaged interpretating its verses and explaining the rules . Other enthusiastic interpreters followed launching at paraphrasing the text after they had realised of the wrong recitation and deviated Arabic used by the new Moslims. The descendants bequeathed the task and added new aspects of the language's researches and put down the early linguistic principles of Al-Quran. From their insistingattempts, a developing programme emerged and extended into more mature studies which delivered a scientific field unprecedented tu Arabs. According to the culturaland environmental influences, these studies were sorted out into different trends of two schools with specific characteristics and scientific foundations. They were known as Basrah School and Kufa School whose pioneer's productions had the utmost influence in safe guarding Arabic language from being distorted or lost. If the service of Al -Quran is considered as a direct motive for language studies; the effect of this motive nas been diminished since the efforts of the men of letters came short to keep it safe.

I was so desirous to tackle the specific subject of my Ph.D. "ARAB lincuistic studies up to the end of the third century," after I had finished my M.A. thesis entitled, "ANTONYMES IN LANGUAGE."My first studies acknowledged one of the authenticity of the Arab's linguistic studies and their manipulating the subjects, and that led me to choose the second subject for my research in order to follow the facts and add what I can to the Arabic Language heritage. The main motive of the alternative is that I found most of the late language dissertations up to the third century had not shown anv new creative aspects in this respect, because they were more imitation or summeries of the predecessors's production.

From the very beginning of my early studies I was so interested in the field of language subjects and indulge their depths. I braced my will with action, since I found that our l anguage library is badly in need of such modest dissertations which follow the language development in material and programme revealing their originality and early matuyrity, ano calling for the new constructions built on the precedented solid bases.

The thesis is divided into an introduction, four parts and a conclusion, The introduction goes round the reasons of the subject choice; a genera

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا
تليفون ٢٣١٩٣٠ ص . ب ١٣٩٠



توزيع المكتب العالمي للطباعة والنشر

بيروت - خندق الغميق - بناية الخليل

تلفون: ٢٥٥٢١٧-٢٤٩٩٢٣

ص.ب ١٣٩٠ - ٨٠٣٨

برقياً: مكتحياة - بيروت